ALEXANDRA.AHLAMONTADA.COM

منتدى مكتبة الأسكندرية

المجموعة القصصية الكاملة

احمد الشيخ

البحر الرمادي

البحر الرمادي

*

كان يسميني" مجنون البحر" وأسميه" القرصان" ، كنا نتلاقى كل صباح عند رصيف الميناء، نتضاحك أو نتشاتم أو نتسابق لنزول البحر، نطفئ فيه الأشواق المخبوءة في الأعماق. أملا في أن تسكن بملامسة الماء، كان يلازمني في كل الأوقات، ويشاركني السرحات، كأنه كان ظلي أو كنت ظله، لعلنا كنا في ذلك الزمان البعيد أشبه بتوأمين، غامت في الذاكرة تفاصيل الأحداث، لكني أتذكر كيف تبارينا في نسج الأحلام وتحذير أهل المدينة من مداومة القعود على واجهات المقاهي المطلة على البحر يتأملون الفراغ والأفق البعيد ويلعبون بالنرد أو يتبادلون السباب، كنا نرغب في تبديل الأشياء، تحريك الأشياء، نتجادل في ألوان الأشياء، ووسط عيون الخلق الودعاء كنا نبوح بالأسرار، كان يخالفني في لون البحر، أراه رماديا ويراني مثل قط البري مصابا بعمى الألوان.

بالأمس وقفت وحدي أتأمل أمواج البحر وهي ترتطم بكتل الصخر المرمية أسفل السور الحجري، تتكسر حدتها ويصيبها وهن قبل أن ترتطم بالسور، تحمل الريح الحائرة ذرات المياه المالحة رذاذا باردا له طراوة الندى في شمس الظهيرة، تصحو خلايا ذاكرتي الراكدة فأتذكر ما كنت أقوله محذرا من ذلك المصير المخبوء الذي أصابنا، فرقنا، هو البحر الرمادي يفصل بيننا، يخفيه زمنا ثم يعيده بعد أن يجدده، يصوغه من جديد بحسب هواه، بينما يخيفني ويتوعدني بأن أتحول إلى مجرد وجبة في بطون أحط أنواع الأسماك وأدناها، أتماسك رغم قلة الحيلة وأناديه كما كنت أفعل في الزمن القديم لأشهده على صدق روايتي آملا في الحصول على اعترافه برمادية البحر، لكن صدى صوتي يرتد، ونظرات الخلق تعبرني في إهمال، يتأكد لي أنني صرت بفعل الشائعات المحبوكة نكتة معادة للمرة الألف رغم سماجتها، أو سرا مفضوحا لكل خلق الله إلى حد السأم، أتلفت حولي لأستعيد صاحبي القديم الذي دار في فلك البحر الرمادي فلا أراه، أرسمه في خيالي وأناديه بكل ما تبقى لي من عزم فلا يصعب عليه حالي أو أسمع هسيسه المألوف مفلوتا من هدير دوامات البحر رغم ثقتي بأنه هناك، وقد تحول إلى قرصان حقيقي خلافا لكل تصوراتي عنه في الزمن الفائت، أخطو موليا لأمواج البحر ظهري وقد عقدت العزم على خصامه، أتعثر في ظل خطواتي وأكاد أرتطم بسور المدينة، ذلك الذي صرت أخشى عليه من تدبير البحر واحتمال أن يكون قد جهز نفسه لتدميره واغتصاب المدينة.

سكنت غرفتي المعزولة أسفل البناية واعتزلت الناس، هي ركن في قبو شحيح الضوء راكد الهواء، فيها أقرأ أكداس الكتب المصفوفة فوق رفوف الخشب العتيق، أراجع الخرائط، وأرسم في فراغات الورق الأصفر أقمارا، أصنع من الأصداف والقواقع وقشور الأسماك المهملة وجلودها المقددة نماذج لمدينة سكنتها مع صديقي القديم الذي علا نجمه بفعل الصدفة المدبرة ففاتني وهجر القبو والذكريات المشتركة، أمشي وحيدا في طرقات المدينة وأسرح بخيالي، أستعيد في مسامعي تلك اللهجات المهجورة وأحدث أرواح البشر الفانين عن الأشواق، يتحرك الهواء الراكد من حولي وترف في الذاكرة تواريخ المدن التي خرجت من دوائر الجمود وتألقت، أقرأ شهادة مجنون البحر الأول، أستاذي وملاكي المعشوق الذي ما زلت أتمثله وأترسم خطاه، ومن وسط أكداس المخطوطات أخرج شهادته المكتوبة بخط اليد الدقيق، أفردها أمامي وأسمع لنفسي سطورها باطمئنان الحافظ:

" في البدء كانت مدينة عطشانة وسط مساحات من الرمال الملونة، وكان الكهنة ودهاقين السحرة يستدعون الأمطار بالأضاحي والتعاويذ المدهشة، لكن الجفاف كان أقوى من مصادفات المطر، وكان طفل رضيع يكابد العطش، وكانت أنثى جف في ثديها اللبن فبكت لواهب الزرع سر الحياة والبلح، وكان نبع ماء تفجر قرب جذع نخلة مائلة، وكانت واحة وناس وقطعان إبل، وكان عبد صالح تطيعه الطيور والجبال والوحوش الضاربة يعيش في طرف المدينة فاستدعى للمدينة بحرا واستجاب البحر، وكانت أول مرة في تاريخ الدنيا المسكونة التي يذهب فيها البحر للمدينة لكنه ذهب، أزاح تلال الرمال التي تحيط المدينة وسكن حولها، بإشارة من عبد المدينة الصالح سكن البحر هادئا عند حد السور، تحولت المدينة إلى جزيرة مثمرة في وسط البحر، سقاها البحر وروى زرعها فنما وترعرع، وحماها البحر فعششت طيوره على فروع الشجر وكثر الحليب في ضروع المواشي وولدت النسوة واختفى الصهد وزال العطش، وصار العبد الصالح سيدا للمدينة وحاكما لبحرها المرهوب المطاوع حتى رحل العبد الصالح فتمرد البحر ولم يعرف حدوده، صار بحرا رماديا والناس في غفلة يتحدثون عن زوال زمان الجفاف وطول العطش، كانوا في حالة زهو بمجيء البحر، يبنون البيوت قرب الشواطئ ويطلون بالفتحات والنوافذ والأبواب ناحية البحر، ومن البحر دخل المدينة أول قرصان رمادي ليفتحها ويأمر الناس فيها بإعلان فرحتهم وتزيين الشوارع، ومشى في موكبه وسط الناس الودعاء وسماها مدينة الرماد، وبإشارة منه لونوها لتصبح كل بناياتها في لون الرماد، ووسط حراس قصره كان يجلس تياها مزهوا بطاعة الخلق وحسن الأدب، وتبغدد مجهول الأصل وأفتى أنه في الزمن الرمادي يكون للرماد وسط بحر الرماد حسنه الأخاذ، وسحره المكنون، ولم يعترض أحد" .

كان الدم المسفوح يلون الأرض بالأحمر القاني، يتلون الزرع الرمادي وشط البحر الرمادي الذي غرته سفن القراصنة، قالوا: لا يفلتنا من حرب القرصان سوى قرصان، وطلبوه ليطلع فما طلع من جدران قصر البغددة، لكنه ظهر من أصلاب الرجال الودعاء ومن بين أفخاذ النسوة الضارعات، قرصان من مواليد المدينة، كانت تغلي في عروقه قطرات الدم، وتتوهج في خلايا عقله الحيل والأفكار، وامتزج الدم المدافع بالدم المحاصر واحمرت الأرض وكفت المدينة عن استخدام اللون الرمادي في دهان البنايات، ولأن القرصان الجديد حارب بقلب رجل فرت البوارج وغاصت تطلب النجاة غواصات الغرباء، والآخر لابد في قصره القديم مشغولا بصدور النساء حتى طلعوا إليه وأخرجوه، مزقوه بأظافرهم وأسنانهم ورفعوا راية العصيان فركب المحارب الجريء موجة الزحام وصار على رأسها فارسا يسعى لإعادة الأشياء إلى أصولها الأولى، أبيض أو أسود، رجل أبيض القلب وآخر أسوده، كتاب أبيض وكتاب أسود، خبز أبيض وآخر أسود، رغيف للصغار أبيض غير رغيف أسود، زمن أبيض تملك فيه المدينة حق الحلم والتمني بعد زمان أسود عتمت فيه الأركان بالوعود المكذوبة المكررة، حتى الكذب قسمناه أبيض وأسود، ومن جديد انشغل الناس بتلوين المدينة لتصبح مدينة بيضاء تطل على بحر أبيض أو هكذا بدا لنا، ولم ننس لون الدم المسفوح فرسمناه نقطة حمراء على شكل وردة في طرف المساحة البيضاء لكتب الأطفال وراية المدينة، عشنا زمن الألوان الصريحة حتى بدا لنا أن عنب البنات صار أحمر تماما مثل ثمار البرتقال وحبات البطاطس، وتهنا في غيبوبة الدراويش من أثر القرع المتواصل لطبول الحرس، واختلط علينا أمره فما عدنا نميز في حضرته بين الانكسار والصعود أو حتى الهدم والبناء، صار لنا وبنا قدرا أبديا، بإشارة منه نذبح بناتنا العذارى في عيد وفاء بحره الأبيض الذي ملكناه له باختيارنا، ونسقي أرضه السوداء بالدم لتزداد سوادا وقد حازها بصكوك غفلة موثقة ناهبا كل حقوق الورثة من أشقاء وأخوة لأم أو أب وقرابات أخرى من كل الدرجات، وصار هو وحده، مالكا للفراغ ومانحا لحق التنفس، وفرسان المدينة، بإشارة منه أو بغير إشارة يسفحون ويقتلون ويسلبون اللقمة من أفواه الفقراء وأفواه الأطفال.

صار يعايرني بالفقر وأسميه الدجال، وصاحبي القديم بارع في التناسي أو يدعي النسيان، لكن الذاكرة حديد، كانت أمه تجلس عند مدخل الحارة وتنادي بصوتها المبحوح:

ــ الورور يا فجل.

كنا نشتري منها بالرغيف المخبوز وكوز الذرة الناشف ومكيال الحنطة ولا نبخل عليها بالبيضة الصابحة ثمنا لحزمات الفجل والجرجير وفحل البصل التلاوي وصدغ اللفت وقد جلبها هو محمولة على كتفه من غيطان الزمام، كنا نناديه بلا مواربة" ابن نميسة" وكان يشاركنا سكة المدرسة ذهابا وإيابا، ورغم اتساخ ثيابه كنا نحبه ونتنافس على الجلوس جواره،

كان صاحبي بارعا في الحساب، يجمع ويقسم ويضرب دون الاستعانة بالورق كما نفعل، حتى الكسور وكسور الكسور لم يخطئ في حسابها، وربما بسبب ذلك أشاع عنه مدرس الحساب المغلول أنه يفعل ذلك لأنه يمسك حسابات أمه " نميسة" وكلها ملاليم وخردات وسحاتيت، كنا نتعاطف مع صاحبنا ونسخر من مدرس الحساب الذي يحاول إبعادنا عن ابن نميسة لأنه فقير.

لكن الزمان دار ودارت الأيام وتبادلنا أخباره في مصادفات عابرة:

ـ ابن نميسة نجح في الإعدادية.

ـ ابن نميسة دخل الجيش

ـ ابن نميسة خرج من الجيش.

ـ ابن نميسة دخل برج سعده.

ـ تزوج أجنبية وصار يرطن بالأفرنجي.

ـ تاجر في الجملة والقطاعي وركب الحنطور.

كان يتاجر في الممنوع ولا ندري، ويوزع المبيدات البشرية المستوردة وقد لصق عليها إعلانات تؤكد فعاليتها في القضاء على الحشرات والجراثيم المدمرة، كان يبع السلاح لإفساد طباع البشر ويسرب الأموال عبر البحر الرمادي ويرشو حراس الشواطئ لمساعدة أنصاره من قراصين الزمن، ولكن السر المستور انكشف، وابتاع لنفسه يختًا ودار في أركان العالم متأنقا بالمال والثياب الفاخرة، وتحدثنا في أمره زمنا، وخفنا من زمان يجيء يجف فيه الزرع والضرع ويزحف فيه الجوع فأخرجناه من حدودنا وأبطلنا تراخيصه بالنزول إلى الشواطئ وقتما يشاء وتابعنا أخباره حتى أشاعوا أنه تجنس وصار من طواغيت البحار البعيدة وأنه حليف للبحر الرمادي يتربص عند حدود أرضنا ويزهو بتجارة الذهب.

كان القرصان يرتدي عباءة التركي وثياب الشيخ الحافي وأربطه العنق المجلوبة والزعابيط الرمادية، كنا نغرق في أمواج الأبيض والأسود والأحمر ويسمح لنفسه بالرماديات، بل إنه أشاع أن لون الرماد نعمة، ولأن اللون الرمادي كان هناك لا يزال قابعا تحت الألوان وفي مناطق النشع والسترات المصبوغة وعلى سطوح الأرض المخلوطة، فقد طاب للبعض أن يتحدث مثله عن روعة الرمادي وخلوده، أن يطلي واجهة داره بلون الرماد القديم، وتنافرت الألوان، والنسوة يتبرعن بالمصاغ وكشوف الأسماء تعلن على الجدران التي تبعث إليها شمس المدينة أشعة رمادية، ويشح في الأرض البريق ويخفت صوت الأمواج وتتكاثر الشائعات على ألسنة الأعوان، يقولون إنه يرتب نفسه لترك المدينة سأما أو شبعا أو خجلا، ثم يشاع أنه مريض بداء عجيب لا برء منه ولا شفاء، يقولون إنه لفظ آخر أنفاسه وهو يوصي بإحكام الحراسة عند الشاطئ الغربي أو الشرقي، ويتردد على ألسنة الأتقياء أنه طار بنعشه وحط في صحراء جافة طاهرة وأظهر للمشيعين عشرات الكرامات، وتجرعنا خدعة العزاء

الرسمي ولطم الخدود على قرصان حي يرزق ببذخ وما زال في مكمنه يتسمع مع الأعوان كل همسة ويرقب كل خطوة نخطوها نحو قبره المزعوم، يتضاحكون هناك من غباوة الرجال وحرقة الأحزان في صدور النساء، والكل يسعى في هوس الحزن المصنوع يرددون الدعوات للراحل العزيز وأنا أصرخ فيهم محذرا من خراب بيوتهم وفساد أخلاق أولادهم ولا يصدقون، والفارس القديم ينعم بأصوات الجموع تطلب له في حياته المغفرة والرحمة وحسن المآل.

كان ينازلني عند الشاطئ "باطا" يفوز ولا انهزم، وكنت رغم الكبوات المتكررة لا أعترف بالهزيمة، يتلهف على اعتراف مني باكتمال نصره فأردد أنه ما زال في العمر بقية واحتمال لانتصاري عليه وأنه يلزم أن يفنيني أو أفنيه ليكون النصر لمن يتبقى فينا، كان يعرف وأعرف ويعرفون أن الدنيا لا تدوم لحي، تماما مثل أمواج البحر، تبدو صخابة فوارة في البدء ثم تصادف في رحلتها ما يجبرها على الاتزان أو الوهن، ربما تصل إلى الشاطئ بقوة الدفع الذاتي، لكنه هناك فوق رماله يحدث الذوبان ثم الانطماس، جربت مرارا أن أتأمل موجة بعيدة، قلت أتابعها وأرصد حركتها بإمعان ودقة، أطبع صورتها في ذاكرتي معزولة عن كل ما يحيطها حتى تصل إلى الشاطئ، وتوهمت أنني لو أفلحت في تثبيتها في الذاكرة قبل أن تتكسر أو تتبدد أكون قد أبقيتها ولو في شكل صورة أستدعيها فتطاوعني، وفكرت أنني لو دربت نفسي على فرز ذرات المياه ومتابعة ما يتناثر منها أو يدخل دوامات الأعماق فإنني بذلك أكون قد أفلحت في التعرف على مصائر أجزاء تلك الموجة الفانية فينتفي في تلك الحالة فناؤها في دوامات وأعماق أو سطح البحر، لكنها كانت مجرد محاولة فاشلة، ربما لأنني لا أملك البصر الحديد الأكيد، ربما لأن سطح البحر براح ممتد بلا حدود وأعماقه غويطة تسكنها الوحوش والأحراش، وربما تأكدت بعد تكرار تلك المحاولات من أن الفناء حادث مهما حاولت أو حاول هو، وأنه وإن بدا للصديق القديم الذي غيرت المصادفات مصيره أنه يخدعني فهو المخدوع، فقلت لنفسي: أشارك باختياري في الخدعة الشائعة وأذهب إلى قبره الذي شيدوه في الفراغ، تمثلت وجه القديم الذي أحببته ووجه الولد الآخر الذي تاجر في الممنوع، ولم أستطع أن أكتم الضحكة وسط زحمة الخلق الآتين لتأدية واجب العزاء الزائف، فتناثروا بالدهشة بعيدا عني وأنا أبوح وبحرص يتصنتون:

"كان يسميني مجنون البحر وأسميه القرصان، صار يعايرني بالفقر وأناديه الدجال، كان يلاعبني عند الشاطئ باطا، يفوز ولا أنهزم، بيني وبينه البقاء والفناء، يفنيني أو أفنيه، يشهد علينا بحره الرمادي وثوبه الرمادي وزمنه الرمادي والذاكرة التي تنكر ادعاءاتهم بموت الأحياء".

إبداع/ سبتمبر 1990

المستجير

*

أزاحهم عن طريقه وعدل طوق جلبابه بأطراف أنامل يده اليسرى، مسح على صدره في تأنق ثم لملم طرف عباءته ورماه على كتفه الأيمن متلفعا بها، خطا بضع خطوات متثاقلة يسبقه شمروخه القديم الممدود في خط عمودي مع الأرض يتوازى مع عوده الذي بدا لهم أنه انفرد وأوشك أن يتساوى معه في الطول، كان أولاد عوف قد تحيروا في أمر الرجل الكبير الذي حسبوه أكبر وأضعف من أن يقوم ويمشي على قدمين بعد سنوات من القعود والرقاد انتظارا لملاك الموت حسب ما كان يقول هو نفسه في المرات القليلة التي كان ينطق فيها بضع كلمات، كان المحروس الثاني وهو الابن الكبير للرجل يعترض بشدة على خروج الرجل من داره وحيدا، ويعترض أكثر على ما قال به من أنه ذاهب إلى درب أولاد شلبي لإخراج سليمان المنسي من داره التي يرابط على بابها العشرات من أولاد شلبي، كان المحروس ينكر ما سمع به من أن سليمان المنسي استجار بأبيه:

ـ يستجير برجل ضرير رجله والقبر؟

الغريب أن الرجل أقسم على الخروج وحده، كانت دقات طرف شمروخه الغليظ تنزل على الأرض فترجها رجا هينا، لكنه محسوس ومسموع الوقع أيضا، وكان يبتعد والعيون ترقبه في دهشة ورهبة منكرة أنه هو نفسه الرجل الذي انتظروا موته واستسلموا لعجزه ورقاده، بدا لهم أنه مارد من عالم آخر يرتدي ثيابه ويمثل دوره القديم الجسور القادر على الفعل مهما كانت العقبات.

دخل الجد عبد القادر الكبير درب أولاد شلبي على غير توقع، تقدم وحده أمام الجمع المتساند على الجدران والقاعد على أطراف المصاطب مستعدا للقيام لحظة مروره، فارضا على من عرفوه صمتا ودهشة، كانوا يرقبون في حذر من احتمال أن يكون اقتحامه للدرب بداية معركة لم يستعدوا لها بقدر كاف، أما أولئك الذين سمعوا عنه ولم يعيشوا زمانه القديم من جيل الشباب، فكانوا يتابعون خطواته بقدر من الاستهانة تداريه لحظة الدهشة التي اصفرت بفعلها وجوه وانحبست أنفاس واتسعت أحداق.

ـ أنا في عرض خالي عبد القادر عوف.

وصلت إلى مسامع الرجل الكبير نبرات الصوت المبحوح الواهن، كان قد وصل إلى أرض الجرن القديم الذي ارتفعت على أطرافه البنايات الجديدة لأولاد شلبي سكنا، ودكاكين

للبقالة، والجزارة، والأدوات المنزلية، والمقهى المزحوم الذي يطل على شبه الميدان الصغير المنتصب في أحد أركانه دوار عمدة الكفر من أولاد شلبي مبنيا بالطوب الأبيض بحيث يتميز عن كل البنايات في الكفر، وقف الرجل ليتأكد من صوت سليمان المنسي، لعل البعض منهم كان يرتجف هلعا ويستعيد ما كان من أمره في سنوات العراك المتواصل التي أذاقهم فيها مرارات الفقد وآلام الجراح قبل أن تنقلب موازين الأشياء لصالحهم، تنحنح الجد عبد القادر واستدار ليدخل زقاق أولاد المنسي، حسب بذاكرته التي لم تفقد مقدرتها على تقدير المسافات الخطوات اللازمة للوقوف عند باب سليمان المنسي المسكوك الذي انطلق صوته المستجير الواهن من كثرة الصراخ:

ــ أنا في عرضك يا خال عبد القادر.

ربما رآه سليمان من فتحة في جدار أو نافذة، دق الجد عبد القادر طرف شمروخه بعزم وقدرة، فانغرس أو كاد وأصدر صوتا وهزهز الأرض تحته، كان المنصور بن شلبي وأولاده وأحفاده يحاصرون الدار من كل جانب، كانت بنادقهم وشماريخهم تستند على الحيطان لتعلن لكل عابر استعدادهم للعراك، همهموا وزاموا، فز منصور شلبي من جلسته وواجه عبد القادر عوف ثم قال بلين من يملك تقرير المصير:

ــ أنا حلفت إن خرج من داره يكون آخر يوم في عمره.

ــ وأنا قلت يطلع يا منصور.

ــ ارجع دارك يا عبد القادر، العيال شرهم قريب.

ــ افتح بابك يا سليمان واخرج.

ــ يا عبد القادر عيب، لا هو من دمك ولا من لحمك ولنا عنده ثأر.

ــ اخرج يا سليمان.

قالها هذه المرة آمرا بحسم لا يقبل المزيد من النقاش، سمع الواقفون صوت ضبة الباب الكبير وهي تنشال إلى أعلى وأزيز محور الباب الذي ينفتح بعد خمسة أيام من الحصار، وأطل وجه سليمان مخطوفا ومرعوبا ومكذبا نفسه في ذات الوقت، ارتمى على الأرض أمام عبد القادر وصرخ:

ــ ارحمني يا خال، طلعني من دربهم.

ــ قم.

قالها ومد يده الخالية يساعد الرجل المرعوب على الوقوف، كان أولاد عوف هناك في أرض الجرن القديم يدمدمون ويغمغمون ويطلون بعيون متحفزة، أسلحتهم فوق أكتافهم وعصيهم وشماريخهم في أياديهم ونحنحاتهم تزهو وتتيه بكبيرهم الذي انتزع من الزمان العويل ظهيرة يوم من " برمهات" يحق لهم أن يباهوا به وأن يفاخروا مع أولاد الأصول في

كل الناحية، هز المنصور بن شلبي رأسه يائسا من جدوى الدخول في معركة كبيرة لا يضمن فيها نصرا مؤكدا، أشار بيده على أولاده وأحفاده وأتباعه ليوسعوا للرجل الكبير والمستجير به طريقا فوسعوا، تحرك الجد عبد القادر في ثقة الفارس خارجا إلى أرض الجرن القديم، واجــه بوجهه الصلب بناية الدوار الجديد، انعكس في عينيه الضريرتين بريق شموخ قديم وتسمع في هدوء إلى أصوات أولاد عوف وجلبتهم وهم يوسعون له طريقا عبر درب أولاد شلبي، كـــان سليمان المنسي يتبعه والرجال من أولاد عوف يتحركون في زهو مسنود على هيبـــة الرجــل الكبير التي كانت تسبق خطواته وتفرض الصمت على الخصوم القدامى الذين خسروا معركة اقتحمهم فيها ضرير قادر على إجارة المستجير.

مجلة القاهرة ــ أبريل 1985

بنت البراري

*

بيني وبينكم الموضوع ليس مجرد أرض ودار واسم عائلة يوشك أن يمرمغه في الطين، كل هذا وارد ومحسوب حسابه لكنه ليس أساس الإشكال بيني وبينه، أقولها لكم بصراحة وبدون لف أو دوران: من يوم دخولها الدار انقلبت الموازين فيها، يقول لكم حضرة المفتش المحترم، أخي ابن أمي وأبي والذي ربيته كأنه أحد أبنائي أنه رآها في أرض البراري بينما كان يفتش فانخلع قلبه ووقع في هواها ولم يهدأ له بال حتى انتزع موافقتنا على زواجه من غريبة لا نعرف لها أصلا أو أهلا نرد عليهم مثل خلق الله.

ما علينا، فليس العشق كفرا، يعشق من يميل لها قلبه إنما ليس على حسابنا يا ناس، فتلك التي دخلت دارنا في ليلة من ليالي شهر "برمودة" لم تكن مجرد امرأة أخ علمناه وكبرناه وفضلناه علينا، وأولئك الغرباء الذين جاءوا لتوصيلها ليلة دخلتها عليه بعرباتهم الملونة ولم يتركوا لنا عناوين نلجأ إليها في بحثنا عنهم ليسوا بالقطع أهلها، لو كانوا أهلها لفكر نفر منهم في زيارتها، هل يرمي الناس بناتهم كما حدث وكأنما خلفوها ونسوها طوال تلك السنوات؟ ربما.. أقول ربما كانوا قد دربوها قبل دخول الدار على العيش برضانا أو رغما عن أنوفنا، وربما أيضا تركوها لتكشف لخلق الله ستر الدار وتفضحها أو حتى تخربها خرابا عاجلا.

كان هو في الأيام الأولى يباهي بجمالها، وهي بالفعل جميلة، لكنه جمال يصعب احتماله، ستقولون إن الجمال ليس عيبا وأن الله جميل يحب الجمال وأنا معكم، لكن الجمال ليس سلاحا للفتنة بين الرجل وأهله، لو قلت لكم مثلا إنها تتفنن في كشف كل ما تستطيع كشفه دون حياء وأنها تقول أحيانا كلاما مكشوفا على مسمع منا فنغرق في خجلنا بينما تجلجل ضحكتها في جنبات الدار وتتمادى، تفعل هي مثل هذه الأشياء بينما يكون هو في مأمورية عمل يفتش، وعندما يعود تلقاه وتطلع به إلى " المقعد" البحري، ربما توسوس له بما شاءت فينزل إلينا بعد ساعتين أو ثلاث وقد انقلبت سحنته وتجهم بحيث لا يكون على استعداد لسماع شكاياتنا منها وأن سمع اعتذر عن مزيد من الاستماع لأنه متعب، أو يهون الأمر على أمي وأبي ويطالبهما بأن يتعاملا معها بشكل طبيعي لأنها من بني آدم ولأنها غريبة تستحق الإكرام، نتبادل النظرات خلسة ونغير الموضوع حتى لا نعكنن على حضرة المفتش ونجهز أنفسنا لمزيد من الاحتمال، تأتي هي وتتعمد في وجوده أن تبدو محتشمة إلى حد التزمت، خافتة الصوت إلى حد الهمس، كانت أمي بعد طلوعها وراءه تمصمص شفتيها وتزفر في ضيق ثم تقولها:

ــ البنت دي ح تفقع مرارتي.

بدأنا نكره حيطان الدار وأبوابها، نكره أن نتنفس نسيمها مع هــذه الغازيــة الحويــة المدربة منذ تلك الأمسية من شهر "بؤونة" كان المفتش يفتش وكنا قد انتهينــا مــن عشــائنا وجلسنا وسط المندرة الكبيرة ننتظر غليان براد الشاي عندما دخلت هي بثوبها الرقيق محلولة الشعر، كان شعرها مفرودا وناعما ومسحوبا إلى ما فوق الركبتين بقليل، أسلاك من الــذهب رقيقة لا تخطر على خيال، لفت حول نفسها كراقصة محترفة فتماوجــت خصــلات الشــعر وتكشف الصدر والظهر والكتفين، توقفت فسكن الشعر الهائج وغطاها، كان أبي يجلس فــوق الدكة مشدوها، اقتربت هي منه في تؤدة، أزاحت الشعر عن وجهها وقبلته على جبينه ثم فــي فمه. همست بدلال طفلة عاشقة:

ــ بحبك يا با.. بحبك.

هم الرجل أن يقوم من قعدته ناسيا عجزه لسنوات عن القيام فلم يســتطع، ارتعشــت أطرافه بينما تتراجع هي إلى الخلف وتطلق ضحكتها، دارت حول نفسها قبل أن تخرج مــن الباب وهي تردد على مسمع منا:

ــ يا راجل يا عجوز.. يا راجل يا عجوز عيب.

كنا قد بهتنا، حطت على رءوسنا طيور الدهشة، تسمرنا في أماكننا وأطفأ ماء بــراد الشاي المغلي نار الموقد، من يومها كف الرجل عن مشاركتنا الضيق من أفعالهــا المشــينة، تبدل الرجل الذي تخطى زمن الفعل وقعد لسنوات ينتظر النهاية في استسلام ويقين واستكانة، لعله تعلق بالحياة بعد قبلتها ولعله سئمها أكثر، لكنه تغير، كف عن مشاركتنا الحــديث كمــا تعودنا، أصبح يكتفي بالهمهمة والغمغمة والدمدمة، غابت عيناه أو زاغتا فــي عــوالم بعيــدة وانبنى بينه وبيننا جدار.

في البداية لم أفسر ما جرى من زوجتي، كنت قد اعتدت خجلها وحرصــها علــى أن تستر جمالها وتداريه، لكنها في بطء شديد كانت تتبدل بحيث أصبحت تجرؤ أن تقول كلاما ما كانت لتقوله، قلت لنفسي إنها تدخل مع الأخرى سباقا خفيا لتتأكد من امتلاكــي، كانــت قــد عاشرتني لسنوات وسنوات خلفت لي خلالها سبعة أولاد وغزا الشيب شعرها والسمنة عودها لكنها ذات مساء سألتني بدلال:

ــ أرقص لك؟

لم تنتظر ردي وهزت كتل اللحم فبدت لي بشعة إلى حد لا يحتمل، تركت لها المكــان محموما، بدأت مشوار التباعد عنها وزادت سعيا نحوي، سئمت لعبة المطاردة بعد أن كبرنــا وهدت الدنيا قوانا، فاتحت أمي في الأمر فضربت صدرها براحة يدها اليمنى وقالت في فزع:

ــ الملعونة فسدت أخلاقها، أتاريهم كل ليلة واقفين يتودودوا مع بعــض وأنــا أقــول لروحي أيش جمع الشامي ع المغربي؟

ـ ليها أهل يترد عليهم.

قلتها وأنا أتذكر أهل امرأتي وعاداتهم وقلت إنه من الممكن أن أخلص منها تماما ما لم ينصلح ما اعوج من طبعها، ولكنه من يومها انكسر شيء ما كنت أحسبه ينكسر يوما بيني وبينها، كانت الأخرى هناك تنظر نحوي في شماتة من انتصر وتتبادل مع زوجتي الهمس قبل أن تنطلق ضحكاتها الماجنة دون خجل أو حياء.

جاء هو بعد أن فتش، طالبته أمي من أجل راحته كما قالت أولا ـ أن يريح نفسه من السفر المتكرر بأن يسكن تلك المدينة الكبيرة حيث مقر عمله الأصلي فتعلل بأزمة الإسكان فردت بحماس من يريد أن ينهي أمرا بأي ثمن:

ـ نبيع فدان فدانين، وتاخد حقهم وتحوش لك أنت ومراتك أحسن سكن.

ـ بتطرديني يا مه؟

قالها محتدا ومحتجا ثم قام من جلسته وطلع إليها في " المقعد" البحري سمعنا ضحكاتها أولا ثم ضحكاته الصاخبة وتأسينا على ما صار إليه حالنا.

اعتدنا أن نتحفظ في الرد على أسئلتها الغريبة، كانت أسرار الدار هي كنز أمي الذي تحرسه طوال حياتها بالكتمان لكن الأخرى كانت تستفسر عن كل شيء حتى ضاقت أمي واغتاظت وبدأت في الشكوى:

ـ الدار قلت فيها البركة، لا بيضة ولا حتة سمنة ومتوفرة ولا حتى القمح بيكفي خبيز الدار.

كان الهم يرتسم على تجاعيدها بينما تبوح بما صار إليه حال الدار فأخفف عنها وأنا أعرف أنه لا جدوى في وجود تلك الغريبة في صلاح الدار.

كانت زوجة المفتش تجلس بجواره وتتأفف، لم تتناول طعامها كما اعتادت ثم قامت، هم هو أن يقوم في أثرها لكن أمي قالت في رجاء:

ـ استنى يا بني، أنا عايزاك.. هي مراتك حامل؟

ـ لأ..

ـ لأ ليه؟ دي بقالها كم سنة.. أخوك خلف بعد تسعة أشهر وولاد عمامك كلهم مخلفين.. يكونش العيب منها؟

ـ مش مهم خلف يا مه..

ـ إزاي بقى لازم.. العيب منها وأنت بتداري عليها.. أكيد العيب منها.. طلقها واتجوز غيرها لجل نفرح بخلفتك.

ـ أف..

قالها غاضبا بينما يقوم، لم يكن قد استقر على رأي إلى أين يتجه، لف حول نفسه ثـم جلس على طرف الكنبة، قام وجلس ثم قام، نظر نحوي في كراهية، خفت أن يفكر أنني شامت في عدم خلفته، تململت في مكاني.. خرج من الباب ثم عاد، وجه حديثه لي في حدة وغضب:

ــ" أنا ح أستقيل م الشغل، حسيب الوظيفة وأقعد لك في الدار، فاهم، ح آخذ نصـيبي في الدار وابني بيني وبينكم جدارا وأريح نفسي من وجع الدماغ.

لم أجاوبه.. تخيلته وقد عاش في الكفر وحيدا يعزق أو يسرح بالبهائم، يسقي ويحصد وهو الأفندي الناعم الأطراف، كتمت ضحكتي في عبي.. اقترب مني وأمسكني مـن طـوق جلبابي وحاول أن يرجني فلم يفلح، شال يمينه وصفعني فقمت أمسك تلابيبه وكـدت أضـربه لكن صرخة أمي الملتاعة نبهتني:

ــ أقعد يا ضناي.. أقعد مطرحك.

جلست بعسر، خرج وهو ينهنه بصوت مسموع، ابتعد صوت نهنهاته في بطء، فـزت أمي في مكانها واقتربت مني في محاولة للتخفيف عني:

ــ أخوك الصغير وغلط.. هو واعي لروحه؟ دي ساحراله.. كتباله يكـره اللـي لـه ويعشقها.

لم أرد، كنا قد علمناه وكبرناه، كنا نباهي به لأنه نجح ولبس وصار مفتشا يفتش، كنت أحسبه أخي وابني والآن يضرب.

دخلت هي المندرة وطالبتني بالعفو عنه لأنني أكبر منه، دخل هو في أعقابها مطاطئ الرأس فأمرته بأن يقبل رأسي ويطلب مني السماح.. كان يبدو طيعا معها ومنقادا لكل ما تشير به فكرهت انقياده وامتثاله لأمرها.. اقترب مني في محاولة لتنفيذ طلبها فقمت من مكاني ولـم أمكنه من تقبيل رأسي.. كنت في داخلي قد سامحته بيني وبين نفسي وربما بيني وبينه أيضا، لكنني لم أقبل أن أجعلها حمامة سلام زائف بين أخوين لم يختلفا قبل دخولها الدار مرة.

باخ الموقف فخرج هو، في الليل سمعنا ضحكاتهما تجلجل في جنبات الدار.. تنفذ من سقفها وتطن في الآذان.. عجبنا للأمر وتناسيناه.

في الصباح التالي فاتحته أمي في الأمر قبل أن يذهب ليفتش قالت أمي:

ــ بيقول إن أهاليها قتالين وأنه مش خايف على روحه منهم وخايف علينا احنا.. أنـا قلت له يخلصنا منها لجل الميه ترجع لمجاريها في الدار.

ــ وقال إيه؟

ــ ما ردش.

ساد صمت ثقيل ثم دوى صوت أبي على غير توقع أو انتظار مجلجلا بقوة في أركان الدار، لعله استعاد صوته القديم أيام صبوته وفتوته في الزمن الفائت عبر سواد الليل.

ــ دا كلام أفندية يا ولية ما يخشش الدماغ.. يخلص منها واللي يكون يكون..

كان في أمره إرادة لا تقبل المناقشة وعزم جديد.. سكن قلبي وهدأ، تخيلته وقد شبع منها بعد سنوات من المعاشرة التي فاتت بلا ثمرة فابتسمت.

الأهرام ــ نوفمبر 1985

ملف ملكية المواطن مرتضى الماحي

*

محبوسا داخل الكرسي الأسيوطي كان يجلس، مهموما وعاجزا عن طرح المزيد من الأسئلة، كان الآخر خلف المكتب على الكرسي الدوار، يستخلص من داخل الملف أوراقا ثم يمزقها، كان في القلب جرح قديم ينفتح وحلم يتمزق مثل تلك الأوراق التي لا بد وأنها تخصه أكثر مما تخص أي كائن في هذا العالم. لكنه لم يجرؤ حتى على الاستفسار عن هذه الأوراق.. كان الملف يتضاءل على نحو ظاهر.. ربما على عكس الأمل الذي كان يتزايد كلما التقى بالرجل وسلمه ورقة أو شهادة أو مستندا مطلوبا لنجاح القضية، لم يكن الأمر مجرد قضية خسرها أو حلم لم يتحقق، بدا له في هذا اللقاء أن الوجه الذي وثق به واطمأن إلى قدراته قد تخلى عنه على نحو غامض، صحيح أنه قريب من الدرجة الثانية لكنه من خلال الجلسات المتكررة والمحاولات وسهر الليالي والمشاركة في الاهتمامات كان يبدو له أكثر من أخ، بل إنه كان يزرع فيه الأمنيات مؤكدا أن المكسب مضمون، خمس سنوات ومزرعة الرجاء تزهر وترطب القلب، لكنه في تلك الليلة لم يكتف بإبلاغه أنهم خسروا القضية بل إنه تحول وعلى غير توقع إلى اسطوانة مشروخة تهدف إلى تيئيسه تماما من جدوى الاستئناف أو التفكير، مجرد التفكير في الاستمرار في تلك الخصومة، زفر المواطن مرتضى الماحي كأنما ليعلن عن وجوده للآخر الذي لم يلتفت.. قام من جلسته، لعله فكر أن يقترب من الأوراق، يطل فيها أو يستجديها تفسيرا، لكن الآخر انتبه وجعل يضعها بالمقلوب بحيث ينكشف الوجه الخالي ويتوارى الوجه المكتوب.. همهم مبديا قدرا من الاستياء من تلك المحاولة الفاشلة لاقتحامه فأخجل المواطن مرتضى وأجبره على معاودة الجلوس.. غمغم:

ــ مجرد مسودات يلزم التخلص منها، سلم أمرك لله يا رجل لأنك لم تخسر القضية لغريب.. هو ابن عمنا في كل الحالات. بعد عنك أو قرب هو ابن عمك.

ــ أعرف.

ــ أنت تعرف حبي لك، لقد حاولت بكل الوسائل، نصيبك، لو كان هناك أي أمل في الاستئناف ما تأخرت أبدا..

ــ لكنك قلت مرة..

ــ دعك من كل ما كنت أقوله، أنا لم أخدعك طبعا.. كل ما هنالك أنني كنت آمل في أشياء لم تحدث، تكشفت أمور لم تكن في الحسبان.. أنت لا تعرف قضايا المواريث ودهاليز

أسانيد الامتلاك، أنت شاعر، ما لك أنت بهذه الأمور.. هي شغلي الشاغل طوال عمري وعندما أؤكد لك أنه لا أمل فيجب أن تتأكد من ذلك.. يا مرتضى.. الاستمرار في القضية تعميق للخلاف وتوليد لعداوات أنت في غنى عنها..

ـــ طبعا.. لكن..

ـــ أنت حر.. ملفك الآن جاهز.. فيه كل المستندات والتوكيل.. تفضل..

مد يده وأخذ الملف.. لم يفتحه، وضعه أمامه.. لم يكن لديه في هذه اللحظات أي شيء يقال.

خجلان من نفسه كأي مواطن شريف في ماخور أو مجتمع صغير من محترفي الفساد والإفساد، كان يدخل الزقاق والملف في يده، كان يستشعر دفئا غامضا وسط الرطوبة المسيطرة. لعله دفء دم الضحية نفسه لحظة النزف، كان الهواء باردا ولزوجة أرض الزقاق من أثر قطرات تحذره من إمكانية السقوط، كان يخطو على مهل ونقاط المطر متناهية الصغر تكشف عن وجودها أكثر عندما تتساقط في البؤر المتناثرة على أرضية الزقاق دوائر متباعدة ومتقاربة بشكل عفوي، كان عليه أن يحمي الملف بأوراقه منها ومن احتمالات السقوط وكثيرا ما كان يحدث وتتزلق قدمه أيام المطر، وربما لأنه كان حذرا أكثر من كل المرات السابقة أفلح في دخول البيت دون سقوط.

قالت هي بمرارة من فقد أعز عزيز لديه وهي تهبد صدرها براحتيها:

ـــ إنه الموت وخراب الديار.

لم يعلق، سرح بخياله في البعيد، أكدت.

ـــ اشتراه.. ابن عمك سوسة وبحره غويط، استأنف يا مرتضى.. لا تفرط في حقك وحق الأولاد.

ـــ نحاول.

قالها بيأس لكنها واصلت:

ـــ ما ضاع حق وراءه مطالب وحقك ظاهر مثل عين الشمس.

هز رأسه مؤيدا ثم شرع في خلع ملابسه فناولته المنامة ليرتديها ويتمدد بطوله على الفراش.. مسنودا بظهره على الوسادة وكأنه مريض يحتضر وعيناه غائبتان عن كل ما يحيطه من أشياء.

حدث نفسه قائلا:

" ربما يا مرتضى عملها أبوك، كتب الأرض لابن أخيه كي يحرمك من الامتلاك، لقد كنت دائما على غير هواه وإرادته، أرادك طبيبا ففشلت وفصلت من الطب، جاهد أن يساعدك لتكمل تعليمك في الآداب أو الزراعة أو حتى الحقوق فلم تسعفه، كنت تخدعه وتكتب الشعر

وهو العنيد الذي لم يعترض على إرادته غيرك، وكم هددك وحرمك من المساعدات في حياته، كنت أنت يا مرتضى نقطة ضعفه بحسب ما كان يعلن وكنت خيبة أمله أيضا، سحرتك دواوين الشعر وغيبك الدوران في جنبات المدن سعيا لكشف لم يكتمل، ربما يا مرتضى باع بالفعل وقبض الثمن، وربما كان إعلام الوراثة الذي جاءك مجرد إجراء لإكمال الصفقة" .

قام وقلب في أوراق الملف، بدا له أن الحق ضاع فعلا وأن محاولات الاستمرار في الصراع حماقة، وبدا له في نفس الوقت أن الاستسلام والسكوت عنه بلادة وتحير في أمر نفسه، مشدودا إلى رغبته الصادقة في أن يعيش ما تبقى من عمره في سلام مع الناس ولو كف عن الحلم في إحياء حقه المسلوب، أو الإفاقة والصحو وتجهيز نفسه لخوض النزال صارخا في وجه الكل أنه وريث شرعي لأب لا يجوز له التصرف في أملاكه على هذا النحو وهو في أيامه الأخيرة فاقدا للوعي والإدراك بحسب ما أكده الكثيرون من أهل الكفر، وكان في الذهن أطفال ومطالب ومسكن بائس وجيرة فاسدة وأجر هزيل، وكانت هي أيضا هناك بأحلامها في زمن يختلف لو استعاد هو حقه الأكيد باعتباره الوريث الشرعي الوحيد للرجل الذي أكد له البعض أنه باع في حضورهم بكامل وعيه وإدراكه وقبض الثمن.

عندما التقى بابن العم واضع اليد على أرضه وداره شعر بالخجل، ربما توهم أن الآخر يلومه أو يهدده إن هو استمر في قضية محسومة بحساباته على الأقل، كانوا قد توسطوا لكي يلتقي معه في جلسة هادئة، كان الآخر بملامحه الحادة ينظر نحوه باستهانة واستخفاف، يتحسس شاربه وكأنما يتوعد، قال أحدهم:

ــ الصلح خير، والدم لا يتحول إلى ماء يا مرتضى.

ــ طبعا.

أجاب هو.. لكن الآخر انتفض واقفا، وبحدة أعلن:

ــ الأرض أرضي والدار داري ومن يفكر في دخولها فسوف أدفنه فيها وهو حي.

لطف أحدهم صوته وهو يهدئ من عصبيته:

ــ لك حق.. كل الحق.. لكن الرجل جاء بنفسه ليؤكد لك أنه لا يطمع في كثير.

أضاف آخر:

ــ يمكنك أن ترضيه بما تجود به نفسك، وهو في كل الحالات من دمك ولحمك.

استحسن الكل الفكرة.. وأطرق المواطن مرتضى الماحي، شعر أنه متسول رخيص أو معوق صامت يستجدي الآخرون باسمه حسنة تفيض، تضاءل وانكمش وتصبب العرق من كل مسام جسمه فارتعش، قام على غير توقع منهم ومشى صامتا متغاضيا عن كل العبارات التي سمعها ولم ينشغل بتفسيرها أو الرد عليها.. وعند الطريق الزراعي وقف بآلية يطل على السيارات التي ترسل أضواءها من بعيد فتبدد العتمة المسيطرة.. ولا يدري كيف ولا متى

ركب تلك السيارة التي تتجه نحو المدينة، حتى الوجوه اختلطت وما عاد قادرا على تمييزها أو تسميتها لنفسه بينما يستعيد الأمر من أوله ويحاول تفسيره وقد ابتعد.

كان الملف في يده وقد حسم أمره تماما وكانت هي تبدو سعيدة لأنـــه صـــحا لنفســه وأعلنها صريحة بأنه سوف يستمر في مشواره سعيا لاستعادة حقه لآخر نفس في عمره.

الهلال/ سبتمبر 1989

الرجل الرمادي

*

حط رجل رمادي الشعر معفر السحنة والثياب ثقله فوق المقعد المسنود على جدار واجهة المقهى القديم، وبين قدميه انحطت حقيبة ملابسه لتبوح بالعسر ومشقة السفر، كانت على سحنة الرجل تقطيبة شاردة وهو يتأمل حركة الناس في الميدان، مشغولا على ما يبدو بتلك البنايات التي تبدلت، كان من الواضح أن المعالم الثابتة في ذاكرته قد زالت وتوارت إلى حد مذهل، لعلها تلونت في غفلة منه ومنهم بجديد لم يحسب حسابه، حتى مشاعر الارتياح التي حسب أنه سوف يجدها لم تظهر بوادرها، ونظرات الألفة بينه وبين الناس لم تحدث، كأنه كائن آخر غيره حط في المدينة من كوكب آخر بعيد، ولم يكن هناك غير ذاكرته التي تتشبث بكل ما يؤكد أنه ولد وتربى في منعطفات هذه المدينة، وأنه سعى في طرقاتها ودروبها صبيا وشابا، ولا بد أنه الآن يرى بتلك النظرة الخاطفة السرحانة وجوه أصدقاء قدامى وأقارب تجري في عروقهم قطرات من نفس الدم، ولقد ظن قبل المجيء أنهم سوف يخطفونه في أحضانهم قبل أن يتعرف عليهم مثلما كان يحدث في الزمن القديم.

أسبل عينيه وجرب أن يتأكد من صحو ذاكرته وقدرتها على رسم معالم الميدان كما كان في الزمن الفائت، غامت في الصورة المرسومة أجزاء وتنازعت لافتات الدكاكين التي غيرت واجهاتها عدة مرات، فتح عينيه ودقق في وجوه العابرين ليتعرف على واحد منهم لكنه لم يفلح، ظل ينظر بتركيز أكثر إلى الوجوه المتعجلة وتساءل بينه وبين نفسه إن كان الناس هنا قد أصابهم نفس الداء أيضا مثل الخلق هناك، هل ركبتهم نفس الهموم وتباعدوا في الزحام؟ ورد على نفسه بنفسه بصوت خافت وحزين:

ـــ كنت أعرف أسماء من يعبرون الميدان في معظم الأحوال.

كان يكابد خيبة الرجاء في مدينة سعى إليها ليصالحها فأنكرته ولوت بوزها وتدثرت برماد عاصفة طارئة جففت في شرايين ناسها الدم وشاخت ملامحهم قبل الأوان، وتذكر أنه لم ينقطع عن زيارتها لأكثر من عامين وعاد ليراها وقد ركبها وكل ناسها الجن والعفاريت، فاجأه الساقي بوقفته والسؤال عن مطلبه فأفاق نصف إفاقة وتحير مرتبكا، لكن الساقي أسعفه واقترح:

ـ مشروب مثلج يطرد الشرود يا أستاذ؟

أومأ موافقا، ربما لأنه اكتشف بالفعل أنه في حاجة ملحة إلى مشروب بارد يطفئ الأشواق ويرطب الجوف العطشان، لعله في تلك اللحظة كان يلوم نفسه لأنه جاء إلى مدينته القديمة التي أصبحت لا تخصه، قبل المجيء كان يلوم نفسه على التكاسل والإرجاء، كان مصلوبا بين نارين، الرغبة في التباعد والاقتراب من الولد، جرحه الموروث الذي تجسد بشرا سويا، والذي بحسابات كل العقول لا ذنب له في التواجد بتلك الكيفية في سكة عمره الذي ما استراح فيه يوما، هو أخ لأب فشل في إقناعه ولو مرة واحدة بفكره، وكان دائما ينظر إليه باستخفاف الأب القادر المالك الحر في أن يعيش بحسب هواه حتى في سن العجز:

ـ" أي شوق للخلفة يا رجل وأنت في هذه السن" ؟

ـ" ألسنة الناس مناشير تنهش سيرتك وأنت في الخامسة والسبعين" .

" أحفادك في عمرها يا رجل" .

لكن الرجل لاذ بصمت مكابر، وعلى عادته لم يعلق بأكثر من نظرة استياء، ربما لو زاد هو الجرعة لأهانه الرجل ووبخه وقالها على عادته عندما لا تعجبه الكلمات:

ـ الرد فيك خسارة.

لعله خاف أيامها من دخول معركة خاسرة أخرى فكف عن المحاولة وهرب بالسفر إلى تلك المدينة الكبيرة التي يعيش فيها بغير اختياره، كان في حقيقة الأمر يفر من رؤية الطقوس التي دعاه الرجل ليشهدها، وكانوا هم هناك ينظرون وينتظرون بتشف واستهزاء كيف ينفذ الرجل العجوز غرضه ويحقق الفكرة التي كبرت في دماغه وشرع في التجهيز لتنفيذها، وكان هو يعرف أنه عندما يركب رأسه بإرادته الصلبة التي لا تلين فإنه لا يعرف التراجع أو يفكر فيه، عنادا أو رغبة أو تأكيدا لنفسه بأنه بالفعل مالك لوعيه، وأنه لن يتزحزح خطوة ـ مهما كانت الاعتراضات ـ عن حقه في تقرير أمر نفسه بنفسه.

حدثوه مرارا في زياراتهم الخاطفة عن زواج الرجل الكبير من بنت نواعم، كان يتسمع ويهز رأسه ولا يجرؤ على التعليق بكلمة وكأن الأمر لا يعنيه رغم إدراكه وإدراكهم أنه يعنيه، ربما كان يتشكك في أنهم يأتون إليه خصيصا لتحريضه أو استفزازه ليقول كلاما في حق الرجل الكبير، ربما يسبه أو يلعنه أو يشكك في قواه العقلية فيستديرون على أعقابهم ويرددون الوشايات عن الابن الجاحد الذي أخطأ في حق أبيه، طمعا أو جبنا أو رهبة من مواجهته، كانوا يثرثرون:

ـ البنت صغيرة كما تعرف وسيرتها على كل لسان.

ـ أبوك رغم كبر السن بصحته وقادر على الخلفة.

ـ لو أنجب منها فسيظل المولود معلقا في رقبتك ليوم الدين.

ــ نفرض أنه سوف يعجز عن الإنجاب.

ــ لا تستبعد من بنت نواعم أي شيء، والشرع هو الشرع.

ــ سكوتك لا يفيد.

وعندما تكلم سألهم عن كيفية الخروج من المأزق وقد وقعت الفأس في الرأس، تبادلوا نظرات السخرية الممزوجة بالشماتة وهزوا الأكتاف، ساعتها سأل نفسه عن جدوى التعبير عن سخطه بالشكاية، وربما تأكد لديه أنه ومنذ الآن وحيد في بؤرة الحدث ونتائجه، وأنه ليس هناك إمكانية للخروج أو الفرار، لم يكن هناك أمامه غير الانتظار.

بعد موت الرجل بساعة أعلنت بنت نواعم أنها حامل في شهرها الثاني، وفي مندرة العزاء تسابقوا في التشكيك في دعواها وهو ساكت سكوت فريسة في قبضة فخ من صلب لا يرحم، وعندما حدث امرأته في الأمر قالت إن في الأمر لعبة مدبرة، وفسر هذا الأمر على أنه مجرد حسابات محسوبة أو غيرة نسائية من بنت نواعم التي تفوقها جمالا وشبابا وجرأة، لكنه مال إلى تصديق ما قالت به بعد سبعة أشهر من تلك الليلة إذ جاءته الأخبار بأن بنت نواعم وضعت بالفعل طفلا، وأنها هددت باللجوء إلى المحاكم ضده ما لم يتنازل عن ميراثه للطفل مقابل أعباء التربية، وبحساباته كان التنازل أهون من دخول المحاكم وأحكام النفقة التي تخصم من المرتب بحسب الشرع والقانون، أصبح الميراث في حوزتها باختياره، وما تبقى له من الأب غير طفل رآه ملفوفا ومحمولا على كتفها مرة. وكم كان يرغب على نحو غامض في رؤيته، مجرد رؤيته أو تحسس بدنه لكي يحكم بحسه الخالص إن كان بالفعل من نفس السلالة أو أنه كما يشاع ابن حرام طالع من حيث لا يعرفون ليغتصب حقوقه في الزمن الضائع.

حط الساقي زجاجة المياه الغازية الباردة أمامه فأعاده إلى المقهى والناس والصخب المباغت، كان سطح الزجاجة مغطى بذرات المياه الدقيقة التي تكثفت بفعل الرطوبة وبرودة السطح، لعله تذكر عطشه الشديد وهوة يتحسس سطحها بأطراف أنامله في لهفة المشتاق إلى مجر الاطمئنان إلى جرعة باردة في حوزته، لكنه رآه ماثلا أمامه بوجهه الرمادي وجلبابه الرمادي ينظر إليه بعينيه الرماديتين، وهو ينكمش داخل نفسه وينكمش، مذهولا ومرعوبا ومكتوم الأنفاس من الهول الماثل أمامه، ليس فقط لأنه نفس الأب الذي مات منذ سنوات وقد عاد الآن ووقف قبالته، وإنما أيضا لأنه عاد على نحو مغاير لصورته في سنواته الأخيرة، كان الرجل الرمادي قد استعاد شبابه القديم وحيويته القديمة وشاربه الهتلري وقسوة تقاطيعه، أزاح الأب بيده كف الابن المفرود عن الزجاجة وأخذها، احتواها بين أنامله الغليظة ثم رفعها ناحية فمه وابتلعها في جرعة واحدة تماما مثلما كان يفعل في الزمن القديم، وبدا له وهو يضع الزجاجة الفارغة أمامه أنه يلومه ويوبخه ويتوعده بالعقاب الشديد عن خطأ لا بد أنه اقترفه وهو غافل عن نفسه، كانت أصابع يده المفرودة تلتف حول الزجاجة الفارغة، وربما كانت

ترتجف ارتجافة محسوسة من رعب رؤية الأب الذي يبتسم باستهانة، نفس الابتسامة القديمة التي ترف على طرف شفتيه من ناحية اليمين قبل أن يستدير ويمشي مبتعدا وسط زحمة الميدان، وكان هو يتابعه بنظرة مشدوهة وهو يتباعد ويغطس في الطرف الآخر من الميدان ولا يظهر منه غير طربوشه القديم بينما تتداخل العباءة الرمادية في دوامات التراب المتناثر التي تعلو وتهبط على رعوس الخلق، وكان حلقه أكثر جفاف من كل الأوقات السابقة، ويده القابضة على الزجاجة الفارغة باستماتة وعجز تستشعر سخونة طارئة لها لسعة الجمر.

جريدة الحياة/ إبريل 1990

صياد الحمام

*

في براح الدار كانوا يتسابقون، يبرعون في التخفي ويتضاحكون، كنت أسعى في أثرهم فيزوغون مني ويتباعدون، أقف مكاني حائرة أي الاتجاهات اختار فيظهرون تباعا ويفرون قبل أن أتمكن من اللحاق بهم، ونادرا ما كنت أكتشف مخابئهم في سراديب الدار الفسيحة وحجراتها المعتمة التي كنت أتخوف من دخولها وأكتفي بالنداء على كل الأسماء أطالبهم بالظهور لأمسك أي واحد منهم ليكون صيادا مكاني وأطير مثلما يطير الحمام، كانوا يضحكون ويتهامسون ثم يظهرون ويتجمعون حولي، يتفقون ويقررون أني لا أصلح للعبة "الصياد والحمام" يختارون منهم واحدا يلعب دور الصياد ويطيرون، أبكي وحدتي وعجزي عن مسايرتهم وأذهب إليها فتهدهدني وتهون علي الأمر وربما تصالحني بقطعة من الحلوى فأتبعها أصير لها ظلا، تحادثني بينما ترمي للطيور حبات القمح أو تحلب البقرات بأنني في الغد القريب سوف أكبر مثلهم وأجري بسرعتهم وأنني سوف أكتشف بالقطع مخابئهم وأمسك بهم وأطير مثلهم، كانت تسعى في جنبات الدار الفسيحة، تدخل القاعات المعتمة وفي يدها المصباح فأجرؤ على الدخول، ربما تكلفني بأن أناولها شيئا سقط منها فأفعل راضية وسعيدة، كان العرق يتصبب على جبينها ويبلل خصلات من شعرها الناعم، كانت تجلس في أي مكان وتتحسس ساقيها أسفل الركبتين، تضغطهما براحتيها وتكبسهما كبسا عنيفا متواصلا، تحدثني عن تلك الآلام التي أصابتها بسبب اتساع الدار فأشعر بالحزن من أجلها ولا أستطيع الرد عليها، لكنها في المساء عندما يأتي أبي كانت تتأمله وهو يتناول وجبة العشاء وتشاركه الزهو باتساع الدار.

كان أبي يتباهى بداره ويقول أنها أكبر دار في البلد فتدعو له بالمزيد رغم العناء الذي كانت تكابده بسبب ذلك الاتساع نفسه، كانت تداري عنه آلام المفاصل وتتوهج ملامحها كلما حدثها عن ميراث الأولاد من الأرض وبراح الدار وتؤكد له اطمئنانها على مصيرنا في مستقبل الأيام.

ثقلت حركتها بعد موته، وبعد أن كان براح الدار لعبتهم وفرحتهم أصبح عبء أيامهم، كانت تكلف الواحد منهم بإحضار شيء من الداخل فيتعلل بكل الأعذار المعقولة وغير المعقولة، كانوا يتفننون في الزوغان من عبء قضاء حاجاتها المتكررة، كان الواحد منهم يتظاهر بأنه ذهب وبحث ولم يعثر على المطلوب فتتحامل هي على نفسها وتدخل وأنا في أثرها ثم ترجع وقد حصلت على مطلبها، كان دخول الممرات المهجورة والحجرات المعتمة

والأركان التي تفوح منها رائحة العطن قد أصبح عبئا يصعب عليهم احتماله، أدركت هي أنه من العسير أن تعتمد عليهم فتناقصت تكليفاتها لهم ثم انعدمت تماما، اعتادوا مثلما اعتادت هي أن تقوم بكل العمل وأنا في أثرها أسعى في صمت بليد.

كنا قد كبرنا بالفعل وتناقشنا في الأمر مرارا قبل أن نواجهها برغبتنا في العمل على راحتها ، جلسنا حولها وحدثها كبيرنا بحماسة فنظرت إلينا الواحد تلو الآخر وأنكرت تماما أنها تشعر بأي نوع من التعب، دافع هو عن سلوكهم المتخاذل في سنوات الطفولة، وقال إنهم كانوا صغارا وعقولهم صغيرة وأنه من غير المعقول أن نحاسبهم على أخطاء لم يقصدوها بوعي فأنكرت أنها تحاسبهم أو تعاقبهم وأن كل ما تشعر به هو عدم التعب، غضب هو وانفعل وخرج من الدار فلم تبد أي اهتمام، حدثها الآخر عن آلام ساقيها وذلك الورم الذي بدأ في الظهور فأنكرت في عناد، سكتنا واحتملنا قسوتها على نفسها وعلينا، تركناها على هواها حتى لا نسبب لها المزيد من الآلام التي تتجدد كلما دخلنا معها في حوار بلا جدوى.

سافر كبيرنا إلى بلاد بعيدة سعيا وراء الحلم الذي حدثنا عنه كثيرا في أن يعيش في بلاد أخرى، أن يطوف في أركان الدنيا ويشاهد، راسلنا مدة ثم انقطعت أخباره، تزوج الآخر من غريبة عنا وأقام جدارا يفصل حيزا من الدار اتخذه مسكنا ونادرا ما كان يأتي، قلده الآخر وأقام جدارا فانفصل حيز آخر من الدار، أما الذي يكبرني بعامين فقد باع ما قدر له أنه نصيبه من الميراث لغريب أقام جدارا شامخا فصل ما تبقى من دارنا التي صارت ضيقة إلى حد كئيب، كانت الجدران حديثة البناء تحوطها من كل جانب إلا مدخلا صغيرا باتساع باب قديم كان للدار القديمة نستخدمه في مواسم الحصاد لتخزين المحاصيل، كانت حركتها قد قلت تماما وكادت تنعدم في تلك الأيام، كنت أشقى في الحيز الباقي من الدار وأعود لأجدها في مرقدها لم تبرحه، ربما تطلب مني جرعة ماء أو لقمة تبلعها بعسر ثم تعاود الرقاد، ونادرا ما كانت تصحو وتحدثني عن تلك الأيام البعيدة، تذكرني بطفولتي وعجزي القديم عن اللحاق بهم في لعبة الصياد والحمام فأضحك وأعجب لأنها تذكر كل التفاصيل التي أكون قد نسيتها تماما، أضاحكها وأداري عنها تلك المرارات التي تغزو قلبي بسبب ما صار إليه الحال بعد رحيلهم أو انفصالهم عنا.

وفي الصباح كنت أراه واقفا على طرف جداره الشامخ يلوح لي بكلتا يديه ويشير نحوي على نحو فاضح فأشعر بالخجل وأجري هاربة إلى ركن القاعة الرطبة، أبكي وحدتي وانعدام سندي، أتمنى لو دخل دارنا واحد من أخوتي أتشكى له من أفعال ذلك الغريب وأطالبه بحمايتي منه لكنهم كانوا قد كفوا تماما عن دخول الدار، وعندما طرقت أبواب من يعيشون خلف الجدران حديثة البناء أنكرت زوجة أحدهم أنه موجود في البلد، وطمأنتني الثانية بأنه سوف يأتي لدارنا وقت وصوله من سفره وأبدت أسفها لأنها لا تعرف ميعاد عودته وأوصتني

في نفس الوقت بألا أترك أمي وحيدة مرة أخرى ففهمت أنها لا ترحب بزيارتي مهما كانت الأسباب، سألت عن الغريب المهاجر إلى بلاد بعيدة فلم يفلح أحد في التأكيد على البلد الذي يعيش فيه، قالوا لي عشرات البلدان كاحتمالات قائمة، سألت عن ذلك الذي باع نصيبه للغريب فأكد لي رجل لا أعرفه أنه قتل في وضح النهار في مكان فسيح وعلى مشهد من كل سكان البلد، عدت مهدودة ويائسة فوجدت الغريب قد اعتلى جداره يلوح لي ويخاطبني متوددا ومبديا استعداده لحمايتي لأنه صديق قديم لأخي الذي باع له حيز الدار، أذهلني أنه يعرف كل شيء عن حياتنا وأدهشني أن يعرض علي الزواج ليقيلني من همومي، ادعى أنه عشقني منذ طفولتي الأولى وأنه كان يشاركنا لعبة الصياد والحمام، كان على طرف لساني سؤالي عن أخي الذي ادعى أحد الغرباء مقتله والذي يقول أنه صديقه لكن لساني لم يجرؤ على النطق بالسؤال، تركت المكان ودخلت إلى ركن القاعة الرطبة أبكي وحدتي وقلة حيلتي، سمعت صوتها في الركن الآخر يواسيني ويوصيني بألا أقبل عرض الغريب الذي لم أفكر في قبوله، بكيت فقامت هي من مرقدها وتحسست جبيني، أحاطتني بذراعيها في حنو فشعرت بالأمان يسري في عروقي، جذبتني نحوها في قوة لم تكن تملكها طوال السنوات الفائتة فاندهشت وتساءلت إن كانت تلك التي تحوطني هي أمي بالفعل، نظرت إلى وجهها فوجدت ملامحها التي ألفتها وقد ازدادت ألقا وازدهارا، بدت لي من جديد صبية عفية قادرة، وعندما خرجت من باب القاعة وتبعتها كما كان يحدث في الزمن القديم بدا لي أن ما تبقى من دارنا أكثر اتساعا مما كنت أتصور، وبدا لي أيضا أن الجدار الشامخ الذي يسكن خلفه الغريب أقل طولا وصلابة.

وعلى نحو غامض سمعت صوت أبي يتباهى كما كان يحدث في تلك الأمسيات البعيدة باتساع داره وسمعت صوت أمي تشاركه الزهو وتحدثه عن عودة الأولاد وعنادهم وعدم تلبيتهم لمطالبها من داخل الدار، وكان هو يضحك بنشوة الأب فتتحول شكايتها منهم إلى فرحة بهم، ووجدتني أقف أمام قاعة نادرا ما كنت أدخلها وصوتها يناديني والمصباح يبعث شعاعه ليكون دليلي فأخطو إلى الداخل وألتفت خلفي فلا أرى الجدار الذي أقامه الغريب أو الجدران التي أقامها أخوتي، ويعاودني الإحساس باتساع الدار فأفرح رغم المكابدة في السعي داخل سراديبها وقاعاتها وأشعر بإمكان نجاحي في الجري بسرعتهم وملاحقتهم في لعبة الصياد والحمام.

إبداع/ مارس 1986

تخفيف المواجع

ش. أ. ب:

أفزعني نفس الحلم المقبض فقمت قاعدا على طرف الفراش أتحسس رأسي وأتأكد من صحوي، قلت لروحي أن في الأمر خدعة دبرها عقلي الباطن بهدف إرهاب عقلي الصاحي من واقعي الذي أعايشه بعسر مؤمنا بأن الصبر مفتاح الفرج.

قلت أزور صاحبي الباحث في علم النفس الاجتماعي وأستفيد من خبراته في حركات العقل الباطن رغم خلافنا المتواصل حول قدرة الإنسان على الاحتمال، وأنا أرتدي ملابسي وأتأمل صورتي على سطح المرآة قلت لروحي: إنه حتى وإن كان القميص متسخا والحذاء مقطوعا فإنني ذاهب إلى صديق قديم عاقل لا ينشغل مثل السفهاء بمثل هذه الأمور، وأنا خارج سمعت صوت أمي التي لم تلتفت ناحيتي وهي تجلس فوق كرسيها ذي العجلات في نفس مكانها بين النافذة وحجرة المعيشة:

ـــ ماذا جرى لك يا ولد؟ صحاني صراخك من سابع نومة، هل فشلت تلك الحبوب التي جلبتها مؤخرا في تهدئة أعصابك؟

ـــ عفوا يا أمي إن كنت قد تسببت في إقلاقك، إنه نفس الكابوس يحاصرني ويفقدني القدرة على السيطرة على نفسي.

كنت قد فتحت باب الشقة بالفعل وأخرجت ثلاثة أرباعي منها وأبقيت الربع الباقي داخلها، لكن خروج ثلاثة أرباع الجسم لا يعني اكتمال الخروج أو تحقيق الهدف المنشود، ذلك أن أمي قالت محتجة لتستعيد ما خرج مني وأدخل:

ـــ اسمع يا ولد، لن أحتمل خروجك من البيت في أي وقت بحسب هواك ورغباتك الفاسدة، هناك نظام ويلزم عليك أن تحترمه.. ماذا قلت؟

كنت أقف في الصالة مطرقا في حياء، انتظر منها إشارة أو أن تصدر أمرا لأنفذه، هكذا عودت نفسي في السنوات الأخيرة، أطيعها تلك الطاعة الضريرة حتى لا تتهمني بالعقوق وفساد الأخلاق، أحيانا تعاملني بحساسية زائدة، تكف عن معاتبتي وتكتفي بالبكاء وأخوف ما أخافه أن أكون سببا في بكاء يؤخر شفاءها من مرضها الذي طال، كان طبيبها المعالج قد حذرني من خطورة الأمر مرارا:

ـــ أفهمني، أن أي انفعال زائد سوف يؤثر على مراكز الإبصار في المـــخ، والبكـــاء المتكرر مصيبة فادحة، الأمل الوحيد يتوقف على نجاحك في تفويت شهر بالتمام والكمال دون بكاء ناتج عن انفعالها المكبوت، مع الأخذ في الاعتبار أن يتم ذلـــك دون تحـــذير معلـــن أو تخويف، اجعل الأمر يبدو طبيعيا ومألوفا، فلو وصلت إلى المراكز العصبية المتصلة بخلايـــا الإبصار في المخ مخاوف من هذا النوع فتأكد أن كل المحاولات الطبية والنفسية سوف تفشل في علاجها، حاول أن تجعلها تكف عن البكاء لشهر متواصل دون تحذير معلن أو خفي مـــن مخاطر البكاء، وإذا حدث وبكت هي فلا تنزعج، اجعل الأمر يبدو مألوفا وعاديا أمامها ثم أبدأ الحساب من جديد، ولأنها حالة نادرة تماما فأنا أشفق عليك وعليها لأن احتمـــالات إصـــابتها بالعمى النفسي بالإضافة إلى شللها الوقتي قائمة.

من يومها وأنا أحاذر وأطيع وأحلم باكتمال شهر قمري دون دموع لتبقـــى مبصـــرة، مخاوفي تحاصرني وتنفذ إلى نخاع النخاع مني لا تبرحني في اليوم ساعة، ألهث في مشـــوار عودتي إلى البيت متلهفا لأطمئن عليها، أتعذب بالخوف المتواصل ومحاولات إزاحته دون أن أفلح، يبدو لي الأمر في ساعات الصفاء الذهني مرسوما بدقة لأظـــل محصـــورا ومحاصـــرا بالترقب، تتبدد طاقتي دون مقابل وأنا أحاول أن أتصالب على نفسي لأحســـن تنفيـــذ وصـــايا طبيبها الذي أتشكك كثيرا في أن يكون قد اخترع كل هذه التفاصيل ونسجها من حولي بإحكام كي ازداد طاعة وتزداد هي مثله استبدادا وقد وقعت في فخ ضرورة البر بها، لعلهـــا دبـــرت الأمر مع الطبيب في غفلة مني وإن كانت أمي، ربما كانت ترغب في تعذيبي لأننـــي أحمـــل ملامح وجه أبي وبعض طباعه كما تقول واسمه، أستعيد تاريخا طال بينه وبينها مارس خلاله سطوة الرجل وكبرياءه وشموخ روحه وما ملكت أيامها الجرأة على المحاورة أو الاعتراض.

الباحث:

حدثني عن كابوس يطارده فتذكرت حالتي، يبدو أنه قد أصبح لكل واحد منا كابوســـه الخاص، ورغم محاولاتي لرصد البدايات التي كمنت في الوعي الباطن ثم انفلتت منـــه علـــى شكل كوابيس متباينة وإن حاصرتني في توقيت محدد من أمسيات الأربعاء لأقـــوم مفزوعـــا بتأثيرها وأحاول أن أقارنها بكوابيسه الهمجية التي تصيبه في أزمنة متباعدة أو متقاربة ودون انتظار بسبب تلك الفوضى الضاربة في حياته والتي انشغلت بتسجيل بعض تفاصيلها وأرجفت مخاطرها إلى ما كان يعانيه في منطقة سكنه وإن كانت لا ترقى إلى مرتبة اليقين العلمـــي إلا أنها مؤشرات يصعب الاستهانة بها مثل:

(أ) عاش وسطهم ولم يتراجع رغم التحذيرات التي تلقاها من فساد أخلاق كثـــرتهم، كان يدعي أن الاختيار ترف لا يملك أدواته، لكنه بعد عام واحد فسدت أخلاقه وصار يـــتكلم

بلهجة سوقية منفرة ولا يخجل من ترديد الشتائم التي لا بد أنه انبهر بها أو انساق معهم في تيارها دون وعي.

(ب) كانت تعتريه في بعض الأحيان حالات خجل لا أملك تفسير بواعثه لو سأله غريب عن عنوان مسكنه.

(ج) وصف لي مجموعة معارك تستخدم فيها أسياخ الحديد والشفرات وكل أنواع السلاح الأبيض دون أن تبدو عليه علامات استهجان أو رفض لتلك القسوة ضد الآخر.

(د) حدثني عن معركة طارئة حدثت بين امرأة سمينة تخطت الأربعين ورجل من سكان المدخل المقابل لمسكنه كان يقف في نافذة الدور الأول وقد ارتدى فانلة بحمالات لونها أزرق وبنطلون منامة برتقالي وكيف أن الرجل تطاول على المرأة وهددها بالنزول إليها ليفعل بها الأفاعيل فخلعت ثيابها الخارجية والداخلية مزهوة بجرأتها وراحت تخبط براحتيها على أماكن من جسدها العاري فترتج كتل الشحم واللحم، وأنه تذكر ساعتها خنزيرا مسلوخا كان قد رآه مرة لا يدري أين ولم ينس رائحته الفاسدة أو أسراب الذباب التي كانت تحط فوقه أو تحوم حوله.

هوس ــ حدثني عن ولد اسمه عشتوته هارب من مستشفى الأمراض العقلية ولم يذكر أي مستشفى على وجه التحديد، وتشكى من وقفته الدائمة أمام مدخل مربع المساكن الذي يستعمله وقد شهر سنجة صدئة أو سكينا طويلا، وأنه كان مضطرا ليحبس أطفاله في المسكن ويمنع زوجته من الإطلال على الشارع من خلال النوافذ أو الشرفة حتى لا تتعرض لنظراته الوقحة أو إشاراته البذيئة.

أجلسته ذات مساء وطالبته بأن يهدأ ويكرر على مسامعي ما رآه في كابوس الليلة الفائتة، وقد تأكد لي أنه قال نفس الكلمات وغاص في نفس التفاصيل المملة وخطر لي أن أتوصل من خلال ما ذكره إلى نواة علم جديد ربما يكون اسمه علم نفس اجتماع قلة الأدب، كان صوتي الرتيب يسترجع بآلية ودون وجع:

ــ رأيته في المنام يجري وفي يمينه سكين الذبح وقطرات من دمي تتساقط على قبضته وتلمع فوق نصله الصديء والخلق يحيطونه من كل جانب للفرجة، كان يصرخ أو يهذي ولا أملك القيام والجرح في عنقي شاملا حنجرتي وفاصلا لساني عن وعي عقلي، أسمعه وأراها وهي تراني مرميا عند مدخل مربع المساكن وقد خرجت من عراك دموي خاسر لأنني لم أواجه خصمي بأكثر من الرقاد على الأرض راضيا بأن أكون مشروع قتيل مقابل العفو عن أطفالنا، لكن الذي أفسد كل شيء بالنسبة لي هو أن رجاله اختطفوهم لا أدري على أين فقررت أن أتحامل على نفسي وأقوم غير عابئ بنصل سكينه الذي انحط على عنقي نصف المجزوز مرتكزا بركبتيه على صدري ومزودا أمي وهو يقسم تفاحة آدم نصفين،

ساعتها رأيت في عينيه وجه العبد الحبشي ورأس الحسين المفصول من أجل جرعة ماء لطفل يبكي من شدة العطش، حزنت من أجل نفسي ومن أجل الحسين أيضا، ورأيت أمي وقد قامت تحتج على سكتة الرجال الذين احتفظوا بشهامتهم ونخوتهم لزمن آت، وصراخ زوجتي الملتاع يدعوني لأن ألحم رأسي المفصولة بإرادتي وأنا أفكر بما تبقى فيها من بقايا حياة: إن الطبقة التي خرجت منها تخون جثة مرمية وسوف تتخلى عن تكفين ميت، وبما تبقى في خلايا العقل من دفء الحياة صرخت أوصي زوجتي بأن تحرس أطفالي ولا تستسلم مثلما فعلت وعولت على شهامة أولاد بلدي.

قلت له إنه كابوس دموي لا يليق بكائن متحضر فوافقني وراح يستدرجني لأقص عليه قصتي مع الأربعاء الفائت:

ش. أ. ب:

حدثني عن كوابيس الأربعاء فاكتشفت أنها مجرد أكاذيب يبرع في نسج أطرافها ليجاريني ويجعلني أصدق دعواه بأنه مصاب بحالة اكتئاب مزمن بسبب العوز الفعلي رغم ظروفه الأفضل، لعلها حيلة يلجأ إليها ليبعد عن نفسه حسدي الذي يتوهمه، وإن لم يكن في الأمر من ناحيتي أدنى حسد أو ضغائن ضده، لأنني إن قارنته بعامل المجاري الذي يأتي لتسليك البالوعات الطافحة والذي يحدد المبالغ المطلوبة نظير القيام بعمله ويحصل عليها دون أدنى مناقشة من سكان المربع، لو قارنته به لخسر بجدارة، لكن المسألة تتعلق أولا وقبل كل شيء بالصدق الذي لم يعتده منذ البداية لسوء تربيته وتخلف البيئة التي طلع منها، وقد وصل الأمر معه إلى حد أنه يمسك شعر رأسه ويحاول البرهنة على أن ما أصابه من شيب وهو في هذه السن لم يأت من فراغ، أجدني مكرها على التظاهر بتصديقه في كل ما يرويه من أكاذيب تكشف أنه عنصري سفاح يكتم في أحشائه رغبة تدمير تفوق كل تصور، همجي بطبعه وشاعر بالاضطهاد إلى درجة كراهية العالم من حوله، ولولا أنه صديق طفولة وأعرف ما خفي من أسراره ما صاحبته أو احتملته وانشغلت برواياته عن تلك الأمسيات الأربعائية:

"رأيته مرتديا جلبابه الفضفاض وممسكا في يده حقيبة، حطها في منتصف الميدان الكبير، وكنا في وضح النهار والشمس تلسع الأبدان، أخرج من حقيبته مدية يلمع نصلها في نصوع ويعكس ضوء الشمس، رسم دائرة من حول نفسه ودار داخلها ثم صرخ بصوته المجلجل:

ـ ميداني أيها الجبناء، ميداني بوضع اليد، ومن يتقدم ليدوس أرض ميداني فسوف أصفي دمه.

كان الحيز صغيرا في أول الأمر وبدا لي أن الناس لم تنشغل بأمره، كانوا يطلون ولا يتابعون باهتمام، لكنه رسم دائرة أكبر بنصل مديته على الأرض وردد نفس الكلام، كان يبدو من فرط اتساع الميدان نملة عاجزة عن تأكيد وجودها وسط الصخب والزحام، لكنه بعد ساعة أو ساعتين من عمر الزمان كان قد وسع حيزه المسكون والمحمي بحدود رسمها هو نفسه دون اعتراض من أحد وجعل يردد نفس العبارات ويخوف كل من يجرؤ على اقتحام الخط المرسوم، تحول إلى نحلة تزن في الآذان ثم تكاثر وتضخم واستخدم مكبر صوت جهنمي بألف سماعة مخفية والناس يتباطأون، يتطلعون ويمشون إلى شئونهم، ثم يجرعون ويقفون، وعندما يدور هو إلى حدوده المرسومة قريبا منهم ويخوفهم بطرف نصل مديته فيتخوفون من مواجهته ويلوذون بالبنايات القريبة مبتعدين عن شره الذي فرض نفسه عليهم على غير توقع، ودون وعي وجدتني في مواجهته مرعوبا من نصل المدية وإن كنت لا أنوي التراجع، كان يطوحها في كل اتجاه وأتباعد عنها دون انهزام، يهدد بتمزيق الصدر وتشويه الوجه ولا أخشاه.. لعلني كنت أراه بحجمه الذي بدا لي صغيرا في أول الأمر، ربما كنت الوحيد الذي انشغل به في تلك الظهيرة والكل سارح لأمر يعنيه، ولعله أدرك أن جرأتي تستند إلى وعي بحقيقة أمره فتباعد عني وإن استمر في توسيع حيزه إلى حد أن رسم دائرة كبيرة هي كل الميدان تاركا للناس أرصفة يطلون منها وقد انحشروا مزحومين يطلون بعسر من خلال الدائرة التي استحالت إلى قفص حديد من تلك التي تستخدم في حبس حيوانات السيرك، هو في الداخل بإرادته يتحكم في حركة الناس ويتهددهم، يمد الذراع حامل المدية الذي تحول إلى عشرات الأذرع ثم مئاتها وفي كل منها مدية، تضخم على نحو مفاجئ وبدا لي ولهم أخطبوطا له ألف ذراع والناس تتراجع وتتوارى في مداخل العمارات وفوق سطوحها وداخل الشقق وفي الشوارع الجانبية رعبا وقد انعقد لساني وتاهت نظراتي وهي تفشل في إحصاء تلك الأذرع ولو على وجه التقريب دون جدوى، ولا بد أنه أدرك مدى ارتباكي وعجزي في تلك اللحظة لأنه اكتفى بمطاردتي وحاول أن يغرس أي نصل من نصال أسلحته في قلبي وأنا أستحث الناس على كسر القفص المرسوم من حوله لحمايته وحبسهم في ذات الوقت، وكنت أجري صارخا وقد تحررت منه تماما وعدت تلميذا في ابتدائية الأربعينات أهتف والتلاميذ القدامى يرددون ورائي بحماس" الجلاء بالدماء.. الجلاء بالدماء" وعساكر سلطة الاحتلال تطاردنا ونتمكن من الفرار إلى أحضان أمهاتنا حيث نسكن وننام وقد تواعدنا على ترديد نفس الهتاف في الصباح التالي.

قلت لنفسي إنه كابوس بديع من تأليف وإخراج عقله الصاحي وخياله الخصب المرتاح الذي يعرف كيف يفتعل النهايات السعيدة تماما مثل أفلام الأربعينيات التي لا بد أنه رآها وتأثر بها.

ش. أ. ب:

ليس من العيب أن يحاول هو استدراجي إلى منطقة الحلم الوردي، لكـن العيـب أن يتجاهل الواقع الصعب الذي أعيشه ويطالبني بتغيير الجو وهو العارف أنني أحسب حسابا لكل خطوة أخطوها لكي أوازن أموري بين مطالب العيال والزوج ومصاريف علاج الأم الباهظـة معتمدا على دخل ثابت وأسعار تتحرك.

الباحث:

بشرته بإمكانية أن تكمل شهرا قمريا دون دموع إن ابتعد عنها فترة وكف عن القلـق بشأنها والحديث عن شللها الوقتي وعماها المحتمل، وقلت له إنه برغم كل شيء يملك الحلـم المتجدد في شفائها يوما، وأنه وإن بدا محزونا إلا أنه يداري عني وربما عن نفسه وعنها تلك الحقيقة التي لا تقبل الجدل في أنه حتى في لحظة البكاء التي يفقد فيها أمله في شـفائها، فـي نفس اللحظة التالية لجريان تلك الدموع يبدأ في الحساب من جديد ويولد لديه أمل جديد قابـل للتحقق كجنين شرعي رغم كل المواجع التي يدعيها، لحظتها نظر إلي فـي دهشـة وسـألني باستنكار كيف توصلت إلى هذه الحقيقة وأنا مجرد باحث فـي علـم الـنفس الاجتمـاعي؟.. فضحكت منشرحا وراضيا عن نفسي ثم ما لبث هو أن انفلتت منه ضحكة خالصة في صـميم قلبه الفرحان.

إبداع/ أكتوبر 1989

تمثال جديد لكاتب قديم

بدا لي أنه أغفى فانسلت من تحت الغطاء الخشن الذي يستخدمه ويجبرني على استخدامه، أجلستني على المقعد الجاف وأمسكت قلمه، استحضرت كلماته وشرعت أخط على الورق حكايتي معه، عفوا لأنني لم أتعرف إليكم إلى الحد الذي يسمح لي بالكتابة لكم، لكنه يفعلها ويجرؤ فكيف لا أحاول. اسمي سنب زوسركا ومهنتي كاتب، لي تمثال من حجر البازلت الأسود وأنا جالس القرفصاء وعلى حجري لوح يسند قرطاسا من ورق البردي، وفي يميني قلم بوص أرسم به اللغة المقدسة، ولي رسوم شائعة لا يبين فيها اسمي المنقوش بخط غويط في قاعدة التمثال، رسومي في الزمان القديم ثابتة الألوان لا تتمحي، هي مجد للفراعين الستة وزهو للأسلاف، أخطو مدفوعا بالأيام على عتبات الخمسين شأنه، وإن كنت أراه الآن أمامي في رقاده القلق الذي يشبه الصحو وصحوه الذي يتعادل مع الرقاد، عودني أن أتبادل مع الأزمنة ضجرا، تضجر مني وأضجر منها، أشعر بعداوات وصداقات تتداخل، وأطالع وجوه الناس بغربة، غضبانا أو فرحانا أو مندهشا أرقب بعيون الراقد سطح النهر الساكن في زمن لم أختاره وإن عايشته، فأنا أسكنه الآن، وسليلي حامل وجهي ومبدل قلمي وأوراقي والطامح أن يرثني ويأخذ رتبتي ذلك اللابس سروالا من نسيج مخطط والصدر عار، يغط في النوم ويتنهد بحرقة فيزيد عليه سخطي، أنا أقدم كاتب في تاريخ الأرض المسكونة أتردى إلى حد التشكي من ذلك المصير التعس الذي أعادني فيه، ومن خلال عينيه أرى هاتين العينين الخابيتين اللتين تختبئان وراء زجاج سميك مؤطر بمعدن فضي كنا نستخدمه في تحلية صدور النسوة وزنودهن، يجرجرني معه في زحام مدينة غريبة ملوثة الهواء تتطاير في طرقاتها وحوش لا حصر لها من حديد وصاج ملون تحملها دوائر من عجين أسود مطاطي القوام، معذبي ومقلقي في هدأة الليل القادر على القيام والجلوس ورسم حروف تشبه الثعابين والمباخر والشواديف والسلال، يوقد في الليل شموسا وأقمارا صغيرة ويقرأ أو يكتب.

سأحاول أن أخرج من جلدي الآن وأدخل جلده فقد تقلب وجلس وسأدخل أيضا في ذاكرته وأطرد ذاكرتي الأولى ألبس ثوب عصره وأجاهد ألا أندهش لآلاف الأشياء المدهشة التي تجري من حولي، سوء الحظ رماني داخل هذا الجرذ الأحمق، لو كان يحق لمن عاد ليحيا عمره الثاني بعد طول الرقاد والسكون أن يختار البدن الأنسب لاخترت سواه حتى لو لم يعمل في نفس المهنة أو يحمل نفس التقاطيع، هوان لمهنتي أن تدخل هذا البنيان، وهوان أكثر

أن أعود فيه أنا سنب زوسركا، سيادته إن كان لدود الأرض سيادة لا يليق بي على أي نحـــو، حتى ولو حمل اسم أحموزي طارد الهكسوس محرفا فتلك خدعة تناسب البدايات وسرعان ما يتكشف أمرها، وحتى أكون منصفا أعود وأقرر أنه في صدر شبابه أغراني بكتابـــات لائقـــة بشرت به كاتبا مرموقا في زمانه، ولولا أنه انحدر بقوة لأعطيته كل أسراري ومكنتـــه مـــن تلافيف ذاكرتي وتلوت على مسامعه أناشيدي وأورادي وألبسته خاتم الوظيفة المقدسة، لكنـــه لأسباب لم أتبينها خذلني وخذل نفسه وروح الفرعون الإله الذي يتسمى باسمه محرفـــا، قلبـــه خفيف ربما، أتخيله وقد عاش الزمان الأول وأنكر عليه احتمال القيام بمثـــل دور الفرعـــون الإله، مثله كان من الممكن أن يخشى الناس أماكن ظلالهم التي غادروهـــا، ولســـت أصـــدق هواجسه التي تنتابه في أنصاف الليالي وهو يقوم مفزوعا ومدعيا أنهم خلفه وأمامـــه وحولـــه يدبرون له المكائد، من يملك أن ينزع الأسماء عن الأبدان التي لا تستحقها في زمانكم يا سادة، من يثبت القلوب الرعديدة والعقول المرتابة والوجوه التي تتلفت حواليها فزعا من كل غريـــب زائر مخافة أن يكون خصما يتلصص؟ هو صرصور يمط قرون استشعاره في وجل ويسارع بالاختباء خلف أي ساتر أو داخل أي تجويف معتم، يجرجرني معه بالإكراه لأتـــوارى وأنـــا الساكن أرض وطني، لا أدري إن كان هو الذي سكنني أو أنا سكنته، لكنني أعرف إلـــى أي هوة سحيقة سقطت بوجودي معه، كنت في الزمان الأول سيدا تحوطه احترامات الكل، وكنت معه هو نفسه في البدايات أنعم بالجسارة التي تطل من بين سطوره، كان يكتب ما يعـــن لـــه، يقرأ كتب الحكماء القدامى ويبحث عن برديات الأسلاف يترجمها ويحفظ نصوصـــا ســـطرها الكتاب السحرة، كان يساويني في صدر شبابي إلى حد أنني كنت محسودا لاكتمـــال التوافـــق بيني وبينه، لكنها كانت بدايات سرعان ما تبددت وزالت ثم استحالت.

أتذكر أنني كنت أحوم في أفق الوادي روحا قلقا يبحث عن بدن لائق، كنت أطل على النهر حين رآني، كان قويا وعارفا قدري في ذات الوقت، لاحظ أصحابه وجه الشـــبه بيننـــا، عملوها نكتة وأجلسوه يومها في بيت أحدهم عاري الصدر جلسة القرفصاء وضحكوا.. فرحت به وبهم وتذكرت شبابي، تذكرت على وجه الدقة أستاذي ومعلمي وسيدي يوم أســـلمني قلـــم البوص وقرطاس البردي نصف المكتوب وأجلسني القرفصاء، قال أكتب فكتبت في حضـــرة الفرعون الإله، عاد وقال اكتب فكتبت، أخذ البردية وأراها للفرعون ومجلسه العادل، قال كبير الكهنة: هذه السطور نسيج من نفس النيل، وقام الفرعون وغطى رأسي بالمنديل الذي تتقـــاطع خطوطه عند لقاء الأذنين بالصدغين، لا فرحة في الدنيا تتساوى مع تنصيب كاتـــب، جلـــس الفرعون الإله واقترب مني كبير الكهنة، رشني بالماء المقدس وقال بصـــوت جهـــوري رج جنبات القصر:

ـــ"هو أنت الآن يا سنب زوسركا كاتب مسئول عن رسومك، لا تكذب، لا تكسر سن بوصتك جبنا، ولا تكف عن غمسها في حبر الكتابة ابتعادا عن المخاطر، واكتب، ولا ترهب أعداء الأرض السوداء وإن جاءوا في ثياب الأصدقاء، واكتب، لا تتعلل بعيالك أو جوع امرأتك واكتب، لا تتلون مثل الحرباء أو تتشقلب مثل القرد أو تغمض عينيك عن الأخطاء، واكتب، وإذا أخطأ كبير الكهنة أو نسى الفرعون الإله عدله الأبدي فاكتب، لا تتردد في كشف الأخطاء، فللفرعون عمرك وأنت فداه، لكن الروح لرب الأرباب" .

سوء الحظ رماني في بدن لا يعرف قيمة ما ورثه، تقف حدود المعرفة لديه في أجداد من فلاحين وصيادين وبنائين وصناع سلال وحصير وحبال شواديف، وأب شغلته نجار براويز صور وأسرة ودواليب ونمليات، وأحيانا حين يضيق الحال يصنع للنسوان طبالي ومطارح وكراسي حمامات، يكسب قوت اليوم ولا يدخر سوى الملـيم أو السحتوت لأيام العطلات وبوار الصنعة، ولأنه يوم مات أورثه فقرا وديونا يصعب سدادها أوشك أن ينكسر في سعيه المتواصل لشراء حبات الحنطة يصنع بها خبزه، ولحبات الحنطة أو قل ندرتها في الأرض السوداء وجع، وجعين، الأول تلك الندرة والثاني إصرار ابن النجار على الشكوى، والشكوى عجز، في نفسي شيء شامخ يتأبى أن يتباكى على الصغائر، كبار النفوس كبار الناس، صغار النفوس صغار الناس فكيف يجيء الزمان الذي تغوص نصال العوز في قلوب النفوس الكبيرة، ومن فعلها أحدث عنه النهر والصحراء والبحر البراح، ومتى تفرغ النفوس الكبيرة لتصنع للناس أحلامها؟

رجل في الخمسين كان يسير قريبا مني ويدعو ربه بصوت مسموع:

ــ يا رب استرها معي، أنا لا أطلب أكثر من جرعة ماء من نهر النيل، ونسمة هواء قليل الفساد، وحيز مسقوف يداري معي الزوج والأولاد، وكسرة خبز ترد الجوع.

عندما رآني دندن وتظاهر بالغناء، تأملته فوجدته شبيها بكاتب المظالم عند باب المحكمة، كدت أحدثه عن أن الشكوى وسيلة العاجز، لكنه أسرع خطاه ودخل الزحام وما عدت قادرا على تمييزه أو اللحاق به، لو كان مثله يعيش في زماننا لحدثت الفرعون عنه وأرسل من يحضره من أمام المحكمة يمنحه أرضا ودارا وأبقارا لأنه وإن كان مجهولا لديه فهو كاتب يسجل على أوراق البردي أمجاد الزمان الذي يعيشه ومخازيه.

عجيبة هي الحياة في مصركم يا سادة، هذا الوغد ساكني أو سكني نطق الحكمة أو نقل الحكمة،"يعطي سره لأضعف خلقه" هكذا سمعتها وتأكدت من بعض صدقها بعد تفكير عويص، وإذا كنا نحن قد عشنا زهو زماننا لأننا كتبنا ما كان يمليه علينا الفرعون الإله أو كبير الكهنة أو حكيم الحكماء، فها هو ذا رجل في الخمسين مصاب بالوساوس والهواجس، ومسلطة عليه أفكار لا تسر، خياله مريض بأحلام يقظة دموية الطابع، يتوقع ــ لا أدري لماذا

ـ الشر من الجهات الأربع ـ يجلس على مقعد جاف ويسند كوعيه على تختة قديمة من خشب كالح ثم يمسك قلمه ويكتب أشياء، أراقبه من بعد فألاحظ أنه يشغل خلايا مخه ويتصور أشياء لا حصلت ولا كانت لكنها تبدو كما لو أنها كانت، بل إنه يرسم بالكلمات شخوصا لم يصادفها أو يسمع بها وأقول لنفسي لعله السحر لكنني أكتشف أن السحر وسيلة السحرة وهم قادرون على تحويل الطمي ذهبا وتحويل الأوزة بقرة، وعليه فلا سحر هناك، ولقد حاولت منذ البداية أن أفعل فعله فكابدت شقاء ما بعده شقاء، لكنني لم أستسلم وداومت على المحاولة إثر المحاولة حتى تمكنت من مسايرته والسرحان معه، هو نفسه لم يدع لي فرصة كي أفكر في التراجع، وذات مرة شعرت بزهو يفوق كل زهو صادفته، انشرح صدري وأحببت الحياة أكثر وأكثر، وجعلت أدرب ذاكرتي لتستعيد تواريخ ونوادر وأناسا من أزمنة فاتت، وجرؤت وقلت لنفسي هاأنتذا يا سنب زوسركا كاتب جديد، ورقصت مرة لأنني كتبت للأطفال حكاية أعجبتهم، رقصت بنشوة غامضة لم أجربها من قبل، كان يناولني الكتب كتابا في أعقاب كتاب ويوصيني أن أقرأ، أن أفهم، ألبسني إطارا يحوط دائرتين من زجاج سميك، وسماني مثقفا وهو لفظ من تلك الألفاظ الغامضة التي لم أفهمها جيدا في تلك اللغة المراوغة، شربت أطنانا من الشاي الساخن ودخنت ملايين اللفافات، ورأيت كتاباته إلى جانب صورتي على صفحات المجلات وأوراق الصحف، حُزْنًا معًا إعجاب الخلق وما حصلنا على أكثر من وظائف بملاليم، جوعني وجوع أولاده وزوجه، لو أشبعنا يوما جوعنا يومين، أطفاله الصغار يتامى في وجوده فكيف يكون شأنهم بعد موته؟ مجنون بشراء الكتب وأجبن الجبناء في شراء اللحم، ذات مساء سمعت صراخ زوجته بسبب لفافة كتب شالها بفرح ناسيا خبز الأولاد، بيني وبينكم لها حق، فاض الكيل يا سادة ولم يعد للصبر معنى، كنت مفزوعا من الشر الطالع من عينيها وفرحانا لأنها جرؤت مرة وأفحمته.

في البلد مجاميع من الناس تتحزب وتتبادل الخدمات، لكنه خارج عن كل الدوائر، وحيد وحدة قاتلة، لا أنكر أن له أصحابا أكثر من أصحابي، لكنهم أفراد، كل منهم جزيرة معزولة وسط بحر صاخب يعلو فيه صوت الهدير وترتفع الأمواج، عصا مفردة سهل كسرها، يكتب للمجهول ولا يأخذ ثمنا، يتحدث عن عدل لم يوجد أبدا فوق الأرض، وأنا العارف أسرار التاريخ المكتوب وغير المكتوب أؤكد أن لحب الأرض حدودا، وإن ضاقت بك أرضك فارحل عنها تتحقق، غيره يا سادة سعى وتنقل، حاول لم ييأس، عاد بثمن الحنطة وأساور للنسوة، صاحبنا أرضاه كلاما سطره عن طين الأرض.. ضبعني، أوجعني، قلت أوبخه يوم أصيب الطفل بجرح لم يملك ساعتها أجر طبيب يوقف نزف الدم"أعشق طين الأرض وزودها بدماء الطفل النازف يا أجهل جهلاء الأرض" أطرق بالعجز عن الرد.

خمسون عاما يا سادة، وأنا الراجع من أزمنة الجرأة، أصـــرخ فـــيكم وأنـــبهكم إلـــى ضرورة عمل تمثال جديد من طين الصلصال لكاتب مسخرة ذاب في حروف لغـــة عصـــية مراوغة، وجبن منذ البداية عن اقتحام الحياة، مخضوض الملامح دوما يعاني من فقـــر الـــدم، يدعي أن اسمه أحموزي ويكذب، يشمخ بأنفه متوهما أن لأمثاله في هذا الزمان قيمة، اعملوها وجهزوا مادة التمثال، مجرد بركة صغيرة في طين الصلصال، وأؤكـــد لكـــم أنكـــم ســـوف تضحكون كثيرا كثيرا حتى تدمع عيونكم من كثرة الضحك على شكل التمثال الجديـــد لكاتـــب قديم نادرا ما يتكرر.

إبداع – فبراير 1990

القط الرمادي

كنا قد اعتدنا مجيئه وقت العشاء تماما، حتى في تلك الأمسيات التي نتناول فيها وجبتنا قبل موعدها أو بعده كان يأتي ويموء، كأنه كان يراقبنا من خلف جدار ويتسمع كلامنا، يدعو نفسه بنفسه فتبسمل أمي وتضع أمامه نصيبا يكفيه وهي تنسج من حوله الأساطير التي تبعث في قلوبنا المخاوف من مجرد التفكير في طرده أو الامتناع عن تقديم العشاء إليه وكأنه واحد منا. كانت تؤكد لنا أنه ملاك يتخفى بدليل أنه يصل إلينا في موعده حتى وإن كانت الأبواب مغلقة، كان ينفذ لا ندري كيف، يموء فنبسمل ونشعر بقلق غامض فتطمئننا وهي تضع أمامه نصيبه المحجوز قائلة: إنه ما دمنا لم نغضبه أو نضربه أو نفكر في تجويعه فإنه لن يفكر في إيذائنا، كانت تصرفات القط تبدو لي غريبة وغامضة إلى حد جعلني أتخوف من احتمالات أن يكون مكلفا باكتشاف أخطائي الصغيرة ومحاسبتي أمامهم عنها، كنت أنكمش على نفسي وأنا أنظر إلى عينيه البراقتين وأوشك أن أتوسل إليه ليسامحني فيهز ذيله ثم يمسح بوزه في راحتيه وكأنه إنسان يعد بالكتمان هذه المرة.

كانت مجرد علاقة بين قط رمادي في مقدمة رأسه بضع شعيرات سوداء وصبي يحلم بالنجاح في دراسته، ولأنه بحسب تأكيدات أمي طالع من تحت الأرض فقد كنت أتودد إليه أيام الامتحانات، أناوله شيئا من نصيبي سرا أو علنا لأحصل على رضاه الكامل فيأكله وهو يهز ذيله ثم ينظر ناحيتي قبل أن يختفي وقد اطمأن قلبي لأنني عاملته معاملة حسنة تليق، لكنه حدث ذات مساء أن جاء القط الرمادي على عادته وعلى طبلية العشاء سمك مقلي، وقد حرصت أمي على تجميع المخلفات التي خلصناها لكن القط تشممها ولم يبد حماسا أو استعدادا لأكلها كما كنا ننتظر، ظل ساكنا مكانه يموء طلبا لحقه في العشاء، واندهشت أمي لرفضه بقايا السمك، ربما ظنت هي أن القط غاضب لسبب نجهله، مدت راحتها وحاولت أن تربت على ظهره فماء محذرا ثم انقض على كفها بمخالبه، عضها فأصابها بفزع، وعندما تحمست لضربه بالعصا حذرتني وتحاملت على نفسها، كان القط مكانه ما يزال ونحن ننظر إليها وهي تربط كفها مكان العضة وخربشات المخالب، بدا لنا أنها سامحته وربما فهم القط ذلك أيضا لأنه تجرأ وأخذ قطعة من سمك الأم التي كانت تتأمل برعب مدهوش وتدعونا لتركه يفعل ما

يريد، أكل القط لحم السمك الخالص من كل البقايا حتى شبع ونظر إليها ثم هز ذيلـــه قبـــل أن يختفي، حدثتنا هي عن أولئك الذين تعرضوا لأمثال ذلك القط بالإيذاء فنالهم ضرر، منهم مـــن شلت يده ومنهم من مات ومنهم من خطفوه تحت الأرض وعذبوه بـــالتجويع أحيانـــا وأحيانـــا بضرب الكرابيج، ومنهم من سخط قطا ضالا يسرح في الشوارع ولا يجد من يعطف عليه أو يقدم إليه طعاما أو شرابا حتى يموت بالجوع وهو يموء مواء يقترب من كلام البشـــر، مـــن ليلتها تزايد خوفنا منه وصرنا نتحاشى النظر في عينيه اللامعتين وقد احمرت حدقاتهما فبدا لنا جنيا من سابع أرض على استعداد لافتراس من يعارضه، وأصبحت زيارات القـــط الرمـــادي تعني خسارة مؤكدة، قطعة لحم في طبق أو نصيبا من طائر مذبوح في ليلة عيد، يأخذه ونحن في صمتنا الخائف لا نعترض، أصبح بارعا في أن يفرض لنفسه حقوقا جديدة ويزيد نزواتـــه ونحن نتأمل دون استنكار، مجرد استنكار بالكلام أو احتجاج بالإشارة، وبدا لنا أن القط أدرك أننا على استعداد لتلبية مطالبه فاستمرأ الأخذ بجرأة أكثر غير هياب أو محـــاذر، واستســـلمنا للأمر ودعونا مع أمي أن تجيء إليه بلوة من غيرنا، صدقنا ما كانت تؤكده في كل ليلة أنـــه جن متمرد يقدر على النفاذ من كل الحواجز، كان يطلع لنا وقت العشاء لا ندري كيف طلـــع ولا بد أنه كان يطلع من تحت الأرض فعلا ويمارس الالتهام قبل أن يختفي، كانت أمي تقـــرأ آية الكرسي وتستعوض الله في كل خسارة تصيبنا ما دمنا بخير.

لكنه عندما تزايدت شراسة القط وأخذ لأول مرة فرخ حمام وليد لم تحتمل، كان ذلـــك في ليلة شم النسيم وكنا نلون البيض ونقشر الفسيخ ونضع على البصل خلا وزيتا لوجبة غذاء الغد، عندما دخل القط وتلفت حوله باحثا عن وجبة عشاء دسم فلم يجـــد مـــا يرضـــيه فـــوق الطبلية، تحرك من مكانه ونحن نتابعه وقد حسبنا أنه أعفانا من مسئوليته تلـــك الليلـــة، لكننـــا سمعنا هديل حمامة مفزوعة، قامت أمي ورأتها جريحة الجناح تتقافز والقط واقف وبين مخالبه فرخ الحمام الوليد ينهش لحمه يزوم محذرا كل من ينظرون من مجرد التفكير في الاقتـــراب، أذكر أن أمي لطمت خديها مرتين ولم تقترب، واذكر أنه جاء مرة أخرى وفعل نفسي الشـــيء ولم تلطم أمي غير مرة واحدة، وتحول القط بعد أفراخ الحمام إلى الأرانب الصغيرة، يـــبطش بها ويختفي، تحول القط إلى كابوس مفزع، يظهر فتختفي الدواجن ويزداد خوفنا منـــه وهـــو يزوم ويموء في توحش ولا يتخلف عن المجيء أبدا.

قال العم صلاح وهو في زيارتنا تعليقا على حكايات أمي عن ذلك القط المخيف:

ـــ لا يفل الحديد إلا الحديد.

فاستفسرت أمي عن المعنى الذي يقصده فاستمر بنفس النغمة قائلا:

ـــ القط يحب خناقه، أعني من يقدر على تخويفه وإبعاده عـــن المكـــان مـــا دام قـــد استباحه.

كانت أمي ترتجف وهو يعرض علينا فكرته بتربية كلب في دارنا، قالت هي أن في الكلاب نجاسة وأنها تنقض الوضوء فلم يتراجع عن رأيه أبدا، أقنعها بأن القط مصاب بالسعار وأنه لو قضى على كل دواجن الدار فلن يمنعه شيء من نهش لحمنا نهشا في صحونا أو رقادنا، وساعتها ينقل إلينا سعاره وربما نموت، وربما بسبب خوفها علينا وافقت على مضض أن يتولى هو بنفسه إحضار كلب إلى دارنا ليكون الذنب في رقبته هو لأنها كانت ما زالت تثق أن القط ملاك أو جني طالع من تحت الأرض وربما يسخطها أو يخطفها إن فكرت في إيذائه بأي الطرق.

كان الكلب في وسط الدار ينبح ووجبة العشاء فوق الطبلية ساخنة وشيء من الاطمئنان يسري في قلوبنا لأن القط لم يحضر، وقبل أن نبدأ رأيناه قبالتنا وقد اسودت رأسه أكثر وبرقت عيناه في شراسة وعداء، وصرخنا في فزع ونحن نقوم ونهرب من مواجهته دون أن نتأكد إن كان هو نفس القط أو أنه غيره وكان الكلب ينبح نباحا متواصلا والقط يموء متوعدا ونحن لا نراه.

جريدة الحياة/ نوفمبر 1989

في زياراتها المتكررة إلى قبر الرجل الكبير كانت تبدو لكل من يراها مشرقة الوجه أكثر منها حزينة، خطواتها عفية رغم السنوات التي عاشتها وزادت بحسابات الكبار من أهل الكفر عن التسعين، كانت تتقدم من يشاركها المشوار في سكة المدافن بخطوة أو خطوتين، تقطع المشوار من دار الناعسة في شرق البلد إلى بداية الطريق في غربها مشيا على القدمين بخفة وعزم، خطواتها متعجلة يشوبها إصرار وقدرة وهم في أعقابها يلهثون أو يزمجرون احتجاجا على إصرارها للذهاب مشيا في كل مرة:

ــ يعني هو من قلة الحمير في البلد؟

ــ الواحد انقطع نفسه وهي بتدب في الأرض زي الفرعون.

ــ أبويا الله يرحمه ما شافش الراجل الكبير خالص.

بس كان يصحى لها وهي بتطلع الجبانة تترحم عليه.

ــ أبوك أهو مات وشبع موت، ويمكن لو ما كنتش هي بتيجي في المواسم ما كنتش أنت تطلع تزوره وتفتكره.

ــ يعني أنت اللي مقطع السكة ع اللي لك؟

ــ أنت ح تعايرني؟ قرب خلينا نحصلها وبلاش وجع قلب.

على هذا النحو كانوا يتحاورون في كل مرة، ربما كان الحوار وسيلتهم الوحيدة التي تعينهم على تكملة المشوار الطويل، وكان يتأكد للواحد منهم أكثر من مرة أنها تتسمع مثل هذه الحكايات والشكايات ولا تعيرها انتباها، ربما كانت تستخف أو تتشاغل عن سماعها باهتمام كاف لأنها مجرد ثرثرات لازمة لإكمال المشوار، كان الوصول إلى قبر الرجل في كل مرة أهم عندها من مجرد التفكير في مجاراتهم أو الدخول معهم في ثرثرات فارغة، كانت تمضي في طريقها صامتة وكأنها في نفس الوقت تشدهم بهذا الصمت خلفها طوال الطريق الصعب، وكانوا جميعا يشعرون أن عندهم بعض الحق، ففي كل زيارة كانوا يعرضون عليها فكرة الركوب وترفض، كان الواحد منهم يجهز حمارته ويأتي بها أمام دار الناعسة رغم وعيه المسبق من احتمال عودتها إلى داره دون استخدام، أكثر من ركوبة يربطها أصحابها في حديد النوافذ أو جذوع شجر الكافور أو أي "وتد" مدقوق جنب جدار، لكنها كانت ترفض وتؤكد لهم

أنها ما زالت تستطيع الذهاب مشيا فتحرمهم في نفس الوقت من حق الركوب، ومع ذلك يجاهد كل واحد منهم أن يؤكد لها أنه جهز ركوبته من أجلها، كانت تصدق رغم إدراكها وإدراكهم استحالة ركوبها كل هذه الحمير المربوطة في انتظارها، كان البعض منهم ينسلت في غفلة، تسأل هي عنه فلا تجده، كانوا في كل الحالات يؤكدون بعد الزيارة أنهم أبرأوا ذممهم من ذنبها، وعلى امتداد تلك السنوات التي زارت في كل مواسمها قبره ـ والتي زادت بحسابات الكبار من رجال الكفر وحريمه عن الثلاثين عاما دون أن تخلف موعدا ـ كانت تأتي قبل ميعاد "الطلوع" مهما كانت قسوة الجو حرا لا يحتمل أو بردا لافحا أو مطرا يحول السكة الزراعية ودروب الكفر وطريق المدافن إلى وحل خالص دون "مسارب" أو "مدقات" أحيانا كان أحد أبنائها الأساتذة يوصلها بنفسه إلى دار الناعسة أو يكلف أحد أحفادها بتوصيلها وأحيانا كانت تأتي وحيدة، تدخل دار الناعسة وتجلس، ربما تطلب شايا أو فطورا، وسرعان ما يحوطها البعض في جنبات الدار بغبطة فتبدو للجمع الملموم كما لو كانت تريد أن تقدم لها ولهم كل خزين الدار أو أكثر مما تطوله وتملكه، تدعوهم ويعتذر البعض، لكنه في كل الحالات يكون هناك زحام حول طبلية الناعسة التي ترمح هنا وهناك تحمل صحنا أو مسندا أو تفرش حصيرا آخر لتوسع الحيز المفروش في المندرة، وبينما الأفواه تمضغ تظل الناعسة وتبدي استعدادها لتنفيذ أية إشارة، تكون مشاغبات وذكريات ومناوشات بين الجميع وست الدار تنظر إلى الكل بسماحة الوجه الطري الذي غزته التجاعيد بكثرة فأكسبته هيبة الجدات، تصب الناعسة أكواب الشاي من البراد الكبير بعد أن ترفع الطبلية، يشربون ويستعيد كبار السن منهم بعض الحكايات القديمة فتتذكر هي وتهز رأسها قبل أن تشارك بعقل واع وعينين صاحيتين، ربما تزيد للحكاية أطرافا، ربما تصححها أو تعيد روايتها فيستمعون وقد ارتسمت على الوجوه غبطة افتقدوها في أيامهم الأخيرة، ربما لأنها تكون دائما بارعة في استدعاء الزمن القديم الذي عاشته مع الآباء والأجداد، وربما لأن وجودها نفسه كان يعني دعوتهم لتأدية واجب تناساه البعض منهم نحو من سبقوهم في زحمة الأيام وخلف في الصدور نوعا من الأسى، ما كان يحيرهم من أمرها هو إصرارها على الذهاب مشيا على الأقدام، وكثيرا ما كان البعض من كبار السن ينسلت أو يتعلل بشتى الحجج للانفلات من"طخ" المشوار مشيا حيث لا يليق أن يركب الواحد منهم وست الدار أمامهم تسعى على قدمين، كان البعض منهم يلتقي مصادفة مع أحد أبنائها أو أحفادها في البندر ويحدثه مبديا غضبته المسامحة سلفا بسبب رفضها الركوبة:

ـ جهزتلها الركوبة بنفسي يا أستاذ، حطيت عليها البردعة الجديدة، الشمس كانت قايدة نار والمشوار طويل، الترب محدوفة بعيد عن البلد زي ما أنت عارف، ودي عضمة كبيرة يا أستاذ، يرضيك ترجعني بالحمارة كدهه؟

ـــ ح نعمل معاها إيه بس؟ ع العموم معلش، أنت تزعل نهار ما تركب ركوبة حد غيرك، إنما كدة يبقى الغلط مردود.

ما قلناش فيه غلط ولا حاجة، بس إحنا بنخاف عليها برضه، طيب تصدق بإيه إن خالي المرسي رجع من نص السكة، كان مخزي وهو راجع، ونهار الشتاء اللي كان مغرق الدنيا أبويا إبراهيم وأبو حسين ما طلعوش الترب خالص.. ابقى هو معقول يعني حد منهم ح يروح راكب والست الكبيرة ماشية؟ النفر مش عارف يقول إيه؟

ـــ معلش.. وكتر ألف خيرك.

على هذا النحو كانت مثل هذه اللقاءات تنتهي، مجرد شكايات هادئة وتهدئة خواطر عاجزة عن الوعد بالوصول إلى حل، كان الأبناء والأحفاد يعرفون ويسمعون، وأحيانا كانوا يتحاورون ويكتشفون أن ما تفعله ست الدار سوف يبقى ما بقيت هي قادرة على الحركة وبنفس الطريقة، كانت تعلن لهم قبل مواسم الزيارات التي تجهز نفسها للقيام بها، تبعث للناعسة تكاليف الرحمة قبلها بأيام، تحرص على تجهيز ثوب جديد أو مداس جديد، كأنها طفل يرتب ثياب العيد ويتعجل طلوع النهار، كانوا يتبادلون الابتسامات والتعقيبات المرحة، وأحيانا يتآمرون عليها تلك المؤامرات الصغيرة عندما تجد أمامها في وقت واحد أكثر من ثوب جديد وقميص جديد وغطاء رأس جديد.. مجموعة من اللفافات يقدمونا وهم يتبادلون النظرات فتفضها وتتحير في أمرها قبل أن ترتبهم أكواما وتحدث نفسها:

ـــ دول لطلعة رجب، ودول لنص شعبان، والشبشب ده مع الطرحة دي لوقفة العيد.

ـــ نورتي بيتك يا خاله.

كانت الناعسة تقولها في كل لقاء، تتبادل معها قبلات الشوق وتحمل عنها ما قد يكون بين يديها محمولا، تفرد الحصير وتضع مسند الكنبة خلف ظهرها، تعمل على راحتها وتتأكد من ذلك، يصبح دخول ست الدار عندها عيدا أو ما يشبه العيد، الوحيدة في الكفر التي كانت تناديها "يا خالة"حتى من هم بالنسبة لها في مراكز أبناء وبنات الأخوات كانوا ينادونها مثل الكل بأسماء أخرى (ست الستات ـــ ست الكل ـــ أم الأساتذة ـــ أم الهوانم ـــ الست الكبيرة ـــ أو ست الدار) كانت علاقتها بالناعسة تختلف عن بقية أهل الكفر أقارب وأغراب، كانت الناعسة من نفس العائلة لكنها لم تكن ابنة أخ أو أخت، لم تكن حتى ابنة عم العم أو خال الخال، لكنها من نفس الصنف، من أصلاب نفس الرجال جاءت وإن لم تفكر ست الدار يوما أن تحدد درجة قرابتها معها، وجدتها ذات صباح أمام باب دارها، صبية جسورة النظرات إنما بأدب، لحظتها فكرت بينما تتأمل ملامح الناعسة (لا أم ولا أب ولا أخ ولا أخت، بطولها وسط فروع العائلة متشابكة الأطراف) طلبت منها ست الدار أن تدخل فدخلت، طلبت منها البقاء فاستجابت، لم يحدث بينهما اتفاق على الاستمرار لكنها استمرت وعاشت في الدار

لسنوات لم تحسبها، كانت تعامل الناعسة في بعض الأحيان وكأنها واحدة من بناتها الكبار التي بكرت بهن قبل خلفة الصبيان، أحيانا كانت تقربها منها كما لو كانت أختها رغم فارق السن بينهما، تبثها شكايات العمر الصغيرة والكبيرة باطمئنان من وجدت في عقل الناعسة وقلبها بئر الكتمان الغويط، كانت الناعسة دائما حولها ومعها ولها، تغسل وتطبخ وتطحن وتعجن وتخبز دون تكليف، تحلب وتذبح وتبيع فائض المعاش دون أن تستشير أحدا ، في بعض الأحيان كانت تأمر وتنهي في طول الدار وعرضها وفي وجود ست الدار، حتى الرجل الكبير كان يسألها هي عن المطلوب قبل أن يغادر الدار في طريقه للعمل في البندر، وعندما يعود كان يناديها ويناولها المطلوب، قطعية لحم أو قمع سكر أو مقطع قماش لازم لكسوة العيال، كان الرجل قد أدرك أن الناعسة حصلت على توكيل بالصمت من ست الدار لتتولى هي عمل كل شيء، كانت ست الدار مشغولة بخلفة الصبيان وتربيتهم في تلك السنوات، وكانت تهمس للناعسة في السر والعلن:

ــ أصل أنتي يا ناعسة وش خير.

ــ يجبر بخاطرك يا خاله.

تقولها وقد أطرقت في خجل أو أسبلت عينيها العسليتين برموشهما الطويلة فبدت مثل واحدة من بنات ست الدار، أيامها كان الكل يقول إن الناعسة دخلت الدار وجلبت السعد لأهلها، كان الرجل الكبير ينعم بإحساسه بفرحة أنه صار أبا لخلفة من الصبيان بعد زمان طال وطال، ربما كان في الخمسين من عمره عندما وضعت له ست الدار أول مولود ذكر، وربما كانت بعض بناته من الحريم القدامى قد صرن في ذلك الوقت جدات، كانت أحواله قد تغيرت وجعل ينفرد بنفسه في الأركان يفكر، وست الدار ترقب فرحته التي كانت تبدو لها في تلك الابتسامات الشاردة المذهولة، وعندما سألته ست الدار عن سر شروده وعزلته رد على نفسه بصوت هامس:

ــ العيال دي ح تكبر، ويلزمها علام، الخلق ما بترحمش، يبقى الحل إيه؟

ــ إيه في إيه؟

سألته فالتفت إليها وكأنما فوجئ بوجودها وسمح لها بأن تجلس أمامه وهي تحمل الولد الثالث على صدرها، مد يده ومسح على رأسه بحنو وسألها:

ــ يا ترى ح أعيش لحد ما يكبر ويعرف عدوه من حبيبه؟

ــ يديك طولة العمر.

ــ الولاد جايين بعد شوقة كبيرة يا ست الدار، وانتي لسة صغيرة ولا تعرفيش، أنا بقول نبني لنا دار في البندر ونعيش هناك، ما هو لازم ح يروحوا مدارس ونطلعهم دكاترة

ومهندسين، ح نربيهم أحسنها تربية، يبقى لازم نخفيهم عن عنين الخلق اللي ما عندهاش، العين يا ست الدار فلق الحجر نصين، والحسد مذكور في القرآن.

يومها لم تملك أن تعلق على كلامه بشيء، كان قد انتفض واقفا وجعل يخبط قماش جلبابه بيده اليمنى بينما اليسرى قد أمسكت طرفا حجرها ولفته ليظهر أمام عينيه وعينيها آثار جلسته على حجر الطاحونة الكبير من رماد وقش يتساقط من أثر خبطاته وخبطاتها، زحفت قدماه في اتجاه باب الخروج وهي تتابعه حتى سكت المكان، تنهدت وقامت، دارت حول نفسها بالولد، هكذا اعتادت منه واعتاد منها، أن يقول وتسمع وربما لا ترد ويكون مجرد سماعها اشتراك في الفكرة وموافقة عليها تستوجب الاستعداد للتنفيذ، وربما لم يطل الوقت لأنه جاءها بعد أيام ليخبرها بأن الدار الجديدة التي بناها بجوار مدرسة البندر قد اكتملت تماما وأنه عليها أن تجهز نفسها والأولاد للانتقال للعيش فيها:

ــ ح ارتاح م المشوار كل يوم والثاني، وتبقى الناعسة تقضيكي من سوق الخميس.

ــ الدار اللي ف الكفر دي مش ح تتباع للشيخ فرج، والبنات الكبار ما يخدوش فيها كمان، لو انقسمت ما بينهم مش ح تبقى داري اللي أبويا كان بيرمح فيها بالحصان وأنا راكب قصاده، لكن الدار دي كمان لازم تفضل عمرانة، ما يسكنهاش الواغش، يبقى الحل إيه؟

ــ إيه ف إيه؟

نظر إليها وأكمل على طريقته:

ــ هي الناعسة دي مش مصيرها تتجوز؟

ــ مصيرها..

ــ خلاص.. نكتب لها الدار، وح نشرط عليها شرط، وحتى من غير شرط، ما هو بعد ربنا ما يتولاني ح تزوريني يا ست الدار، تبقى تطلعي عليا من هناك، وإوعاكي يهل عيد ولا أشوفكيش، وإياك ــ موسم يعدي عليكي وتكسلي ما تروحيش.. أزعل خالص، صحيح مشوار الترب بعيد لكن ما فيش مهرب، النفر يندفن في تراب الكفر وسط عضم الجدود.

ــ يديك طولة العمر.

بذلك ردت عليه يومها وقد وقف على عادته ينفض مقعدة جلبابه من أثر جلسته على درجة السلم، وعندما خرج فكرت ثم كفت عن التفكير، وربما لا تذكر إن كان العمر قد امتد به قليلا أم كثيرا، كل ما تذكره أن الناعسة تزوجت في وجوده ودخلت في نفس الدار، وأن الولدين التوأمين كانا يخطوان خطواتهما الأولى يوم حل أجل الرجل الكبير، وإنها عملت بالوصية ولم تخلف موعدا، كانت تطلع لزيارته في كل المواسم، من داره التي سكنتها الناعسة كانت تخرج وإلى داره كانت تعود، والناعسة التي خلفت وزوجت خلفتها وصارت بحسب نداء الصبية والبنات جدة هي الناعسة التي رأتها ذات صباح أمام باب الدار ودعتها للدخول

فلم تمانع هي نفس الناعسة، مفتوحة الصدر والقلب والمشاعر، تقابلها بنفس الحماس والحيوية، تحوطها بالحب وتهمس:

ــ نورتي بيتك يا خاله، اطلعي ارتاحي ف مقعدك يا ست الستات، وسط دارك زي ما هو نضيف يا خاله وخطوتك فيه بركة وخير.

تسبق خطوات الشيخ حسنين النعسان نحنحاته، يتهامسون بوصوله قبل أن يدخل الدار، تتساند هي على كتف صبي أو صبية وتلبس مداسها الذي تتطوع بتقريبه من قدميها أي يـد، يدخل الشيخ حسنين بنفس الطريقة التي كان يدخل بها عمه الشيخ خضر النعسـان، يبسـمل ويحوقل قبل أن يلتفت إليها ويهمس:

ــ تعيشي وتفتكري يا ست الكل.

ــ اسبقني يا شيخ حسنين.

ــ حاضر.

يقولها وقد ازداد اقترابا منها وجهز نفسه لاستقبال راحتها المضمومة علـى النقديـة تغمزه بها غمزا يتوقعه ويحسن التلقي، تندس يده في جيب صداره وهو يدمدم شاكرا:

ــ ولزومه إيه بس يا ست هانم، دا المرحوم كان يبقى خال أبويا لزم.

يقولها بزهو خاص وهو يستدير خارجا، ربما يلحظ البعض أنه عاود تحسس ما حطه في جيب صداره وهو على بعد خطوات من باب الدار، وربما يؤكد البعض للـبعض الآخـر همسا أن الشيخ حسنين عرف قيمة المبلغ فتنشط أو تتباطأ خطواته بحسب الحالة، لكنه في كل المرات كان يذهب.

تخرج ست الدار وخلفها الناعسة وبعض نساء العائلة وبناتها وربما بعض الكبار مـن رجالها الذين لا يرتاحون للمشي مع الشباب فارغ العقل أو الرجال الكسالى، تنظر هـي إلـى الحمير المربوطة في حديد النوافذ والأوتاد وجذوع شجر الكافور وتمصمص الشفاه عجبا ثـم تنظر إلى الوجوه لائمة وشاكرة في نفس الوقت وتهمس:

ــ وتاعبين روحكم ليه بس يا ولاد؟ دي كل خطوة بحسنة.

يدمدمون ويغمغمون ويحتجون لإصرارها على الذهاب مشيا في كل مرة بينمـا هـم مستسلمون، يتابع البعض خطواتها التي تقودهم من أقصر طريق في دروب الكفر إلى سـكة المدافن، من يراها طالعة يقول إنها تشتد ويقوى عزمها لدرجة أن الذين يشاركونها المشـوار يعجزون أحيانا عن مسايرتها أو اللحاق بها فيتابعونها عن قرب أو بعد حسب الطاقة والعزم، لكنهم في أغلب الحالات يتبادلون الحوار عنها:

ــ لأ ومتكحلة ومتحففة على سنجة عشرة.

ــ اللي يشوف وشها ولا يعرفهاش يقول حاطة أحمر وأبيض.

ـــ ويتدب ع الأرض زي العون.

ـــ أصل دي لحقت جوز الحمام بتلاتة أبيض ورطل السمن بقرش ونكلة، الخلق كانت عايشة بلاش.

ـــ ما هي عايشة لحد النهاردة وبكره ف عز ما حدش شافه.

ـــ البركة ف ولادها الأساتذة.

ـــ وهو الراجل الكبير فايت لها شوية؟

ـــ ح ينقطع نفسنا النهاردة.

ـــ أرجع إن كنت عاوز ترجع وما تكسرش مقاديفنا.

على هذا النحو لا يكفون عن الرغي طوال الطريق، ربما يتأكد للبعض منهم أنها"تسمع كل ما يقال ولا ترد" لقد اعتادوا منها طوال الطريق إلى المدافن ألا تتكلم أو ترد على سؤال، حتى عندما يقابلهم الشيخ حسنين النعسان عائدا ويقول لها بصوته الخشن:

ـــ رحت وقريت واستغفرت ووزعت اللي فيه القسمة ع العيال والفقها.

لا ترد، ربما لا تكلف نفسها عناء الالتفات إليه فيمضي طريقه وهو يبرطم أو يتحاور مع من يلهثون في أثرها على عجل، وعندما تصل ست الدار إلى قبر الرجل ترفع طرف جلبابها الأسود إلى ما فوق المقعدة، يظهر جلبابها الملون الذي تجلس عليه وقد كومت ما فاض من جلبابها الأسود في حجرها الملون، تحط كفها على الرخامة التي تحمل اسمه وتاريخ ميلاده ووفاته بالشهرين العربي والأفرنجي، تمسح هي براحتها المفرودة على سطح الرخامة بحنو فينزاح ما قد يكون علق بها من رماد، يظهر الاسم جليا وواضحا، تخلع مداسها بيدها اليسرى وتتركه ثم تتربع في جلستها وتحط دماغها على جدار القبر، الذين يتابعونها يسمعونها تهمس بكلام وتحكي حكايات، ودائما بصوتها المهموس الذي لا يسمح لأحد بسماعه أو تفسيره، حتى في المرات التي كانوا يحيطونها من كل جانب ويتصنتون لم يتمكنوا من سماع عبارة كاملة أو لملمة معنى محدد يمكن أن يصير محورا لحديث بينهم بعد ذلك، كانت زياراتها إليه تطول فيتباعدون رجالا وحريما كل إلى قبر أب أو أم أو أخ أو أخت أو زوج أو عزيز لديه مات، يتناثرون نقاطا على أبواب القبور ويترحمون، وربما يبكي البعض منهم قبل أن يعود مع من عادوا يحومون حولها من بعيد أو قريب فيجدونها على نفس الحال التي كانت عليه، يختارون ركنا غير قريب منها وينتظرون حتى لا يقطعوا عليها الزيارة، تظل مكانها ولا يبدو عليها أنها شعرت بهم وقت الذهاب أو العودة، مسنودة برأسها المعصوب على جدار القبر تحكي وأناملها تربت على أجزاء اللافتة الرخامية برقة ولطف، كأنها يد أم مدربة حنون تتحرك على بدن طفل لها يغط في نوم هانئ عميق، ناعمة وهادئة تنهي طقوس الزيارة قبل

أن تتلفت حولها يمينا ثم يسارا كما لو كانت في صلاة وسلمت على الملائكة مودعة، لحظتها يتوقعون النداء المألوف:

ــ يا ولاد.

يسعون ناحيتها بخفة فتتساند على أقرب من تطوله يديها وهي تقف، تلبس مداسها وتنفض جلبابها الملون وينسدل ثوبها الأسود عليه، تخطو على مهل بعد أن تلقي على باب القبر نظرة مودعة، يتحركون أمامها وحولها ويسود صمت لا يسمع خلاله غير دبيب الأقدام الزاحفة وهي تخرج من دائرة المدافن إلى الطريق الترابي، ربما عند ساقية سيد ابن" المغدور" أو سبيل شريفة بنت "الخفيفة" تجرؤ واحدة أو واحد على طرح أول سؤال تتلوه أسئلة:

ــ كنتي بتقوليله إيه يا ست الستات؟

ــ أهو كلام.. اللي ف القلب.

ــ هو يسمع يا ست الكل؟

ــ بيسمع ويرد كمان..

ــ وهي أنتي لا سمح الله ناقصك حاجة؟

ــ اللي ناقصني بحكيله عليه.

ــ بس إحنا بنسمعك بتتكلمي ولا حدش بيعرف يفسر كلامك، هو أنتي بتقوليله إيه؟

ــ حاجات بيني وبينه.

ــ لحد دلوقت؟ بقى فيه حاجات بينك وبينه لحد دلوقت؟

يزدادون جرأة وهي تجاريهم بسماحة فتتنوع أسئلتهم وأجوبتها ولا يشعرون بطول الطريق حتى يصلوا إلى دار الناعسة وتجلس محاطة بهم، يتحدثون عن بعض ما سمعوه وكان بينها وبينه فتستعيد هي الزمان والأحداث وتحكي بحيوية وصحو وهم يتسمعون في شغف ودهشة، وربما يعلق بعض كبار السن منهم كاشفا للباقين كيف أن الزمان اختلف، لا تمل هي الحديث عنه ولا يشبعون، ودائما كانت تحكي لهم حكاية أو حكايات حصلت بينها وبينه في الزمن القديم تستدعي ضحكاتهم فيضحكون حتى تدمع بعض العيون من كثرة الضحكات، ربما يشعر الكثيرون منهم بنشوة غامضة رغم المشوار الطويل والتعب، وربما تتمدد هي بطولها فوق الحصير فينسلتون واحدا أثر الآخر من المكان ويتركونها ساعة القيلولة لترتاح، وربما يتواعدون على قضاء السهرة في دار الناعسة حول ست الدار وحكاياتها التي لا تنتهي عن الرجل الكبير وزمانه الخصيب الذي يعشقون استعادته حنينا يرضيها رغم أنه راح وانقضى وخلف الجديد.

إبداع ــ مايو 1989

الحنان الصيفي

إهداء

* ____________________

لمصر المستقبل.. والناس
وإلى روح أبي
معلمي وصاحبي وملهمي،
كان يبادلني الأبوة والبنوة،
وبرحيله اكتملت دائرة يتمي.

أحمد الشيخ

الحنان الصيفي

*

حدثني عن غربته في تلك البلاد، وتشكى من ضياع السنوات بعيدا عن أرض الوطن. أبدى ندمه على ما فات، فواسيته ببضع عبارات عن أهمية التجربة في حياة الإنسان، وإمكانية الإفادة من خبرة الابتعاد، هز رأسه مبديا عدم اقتناعه، ثم جذبني من كوعي، وأشار بيده الخالية إلى شارع جانبي وهو يقول:

ـ سيارتي مركونة هناك عند أول الشارع الثاني من الناحية الأخرى.

سرت معه، وبادلته عبارات الاشتياق، وفرحة اللقاء، عدد لي ما بدا على ملامحي من تغيرات بفعل الزمان، فأفهمته أن سبع سنوات من الابتعاد كفيلة بصنع المعجزات، أوضح لي أنه كان يفكر في كل صيف أن يأتي للزيارة، لكنه كان يتراجع في اللحظة الأخيرة، بسبب بعض الحسابات التي كان يجريها مع نفسه، انحرف ناحية اليمين وتباطأ، تلفت حواليه، وعاد يسعى في تعجل ولهفة، وقف عند مفترق طرق، ثم تراجع بضع خطوات، وواجهني، وقبل أن أستفسر منه عن أي الأشياء يبحث قال وقد شحبت سحنته:

ـ السيارة يا أخي، السيارة، ركنتها في هذه المنطقة منذ نصف ساعة فقط، هل سرقوها بهذه البساطة، أربعون ألفا، أولاد الكلاب، لابد أنهم كانوا يراقبونني، وينتظرن نزولي منها، مجرد نزولي منها.

قلت في محاولة لطمأنته:

ـ ربما تكون قد ركنتها في مكان آخر، نبحث في هدوء. حاول أن تتذكر جيدا تفاصيل المكان.

ضيق حدقتيه ومط بوزه امتعاضا، ثم تحرك من مكانه إلى الأمام أولا، ثم إلى الخلف، زفر في ضيق وهلع ثم دمدم:

ـ بلد خطافين، الناس هنا خطافين.

استدار حول نفسه، ثم اتجه ناحية مفترق الطريق التالي، خطا في لهفة بضع خطوات، ثم قفز في الهواء، وصرخ في فرحة غامرة:

ـ ها هي، ياه، لقد اتحرق دمي، كنت قد فقدت الأمل في العثور عليها تماما.

شاركته فرحة العثور على سيارته حديثة الطراز، ثم قلت تعليقا على ما جرى:

ـ قلت لك إنك ركنتها في مكان آخر، ثم إن المال الحلال لا يضيع كما تعرف.

قاطعني بحدة وانفعال شديدين قبل أن يدير المفتاح في ثقب بابها الأيسر:

ـ أبدا أبدا.. أنا متأكد أنني كنت قد ركنتها في الشارع الآخر هناك، أقول لك بمنتهى الوعي، أنني كنت قد تركتها في الشارع الموازي، حيث وقفت أول مرة.

أحسست أن حماسه لفكرته أكبر من طاقتي على مجادلته فلم أعلق بشيء، جلس هو إلى مقعد القيادة، ثم انحنى بجسده وفتح الباب الآخر ناحيتي، وأشار إلى امتداد المقعد عن يمينه، وبدا كما لو كان يلتقط أنفاسه بعسر بعد مشوار طويل، جلست في صمت بعد أن أغلقت الباب، تأكد هو من باب السيارة مرات متتابعة مخافة أن أكون لم أحكم قفله، ثم سك ترباس الأمان، حط مفتاح التشغيل مكانه، وأدار المحرك، استند برأسه على عجلة القيادة وأنامله تتحسس جزئياتها في نعومة وحنو، حدثني وهو في نفس الوضع عن أهمية تسخين المحرك قبل تحريك السيارة من مكانها، وأوصاني بالاسترخاء للحظات، استندت برأسي إلى الخلف وجعلت أستشعر هزهزات السيارة في تكاسل، وعندما مستني نسمة رطبة أدركت أنه حركها من مكانها في بطء وحذر.

حدثني عن سرقة السيارات التي سمع قبل عودته أنها أصبحت ظاهرة خطيرة لا يحس بها، أو يعترف بفظاعتها غير أصحاب السيارات، نظرت نحوه فوجدته مشغولا عني بمتابعة امرأة تعبر في حذر.

ـ نجلس في مكان مفتوح، فندق يطل على النيل مثلا، سمعت أنهم أنشأوا مجموعة لا بأس بها من فنادق الدرجة الأولى، فكن دليلي، لأنني أصبحت مثل الغرباء عن هذه المدينة، هيه، إلى أين أتجه؟

اعتذرت بجهلي وعدم درايتي بهذه الأماكن جيدا لأكون دليله، قلت له أن كل الأماكن تتساوى عندي، فضحك، وأفهمني أن الفنادق درجات، وأن الموقع الممتاز، ومستوى الطلبات الأفضل، ورقي التعامل مع الرواد، هي الفيصل الذي يميز مكانا عن سواه، لم أعترض على معلوماته، فابتسم في ثقة، وساد بيننا صمت، كان يقود فيه سيارته على مهل.

أخرجت علبة اللفافات ومددتها نحوه ليأخذ واحدة، نظر إليها واعتذر بأنه لا يغير، أشعلت لفافة، ووضعت العلبة في جيبي، عاود هو الحديث عن الأشواق التي كان يكنها لي طوال السنوات الفائتة، فبادلته عبارات رقيقة عن افتقاده، وقبل أن أعاتبه على عدم مراسلتي منذ البداية ليعرفني عنوانه، وأكاتبه، أوقف السيارة قريبا من مدخل فندق يحيطه النيل من كل الجهات، إلا من الواجهة التي يدخل منها الرواد، نزل فنزلت، أحكم هو إغلاق السيارة، وسبقني إلى الداخل.

انتحى ركنا خافت الإضاءة وجلس، أشار إلى الساقي فجاء، أمره بعشاء لفرد واحد، وطالبه بأن يسألني أي المشروبات أختار، طلبت شايا، فانسحب الساقي في أدب جم، بعد أن سجل الطلبات في دفتر القسائم.

ـــ لو كنت ترغب في وجبة عشاء فيمكنك أن تطلب، لقد شعرت بالجوع فجأة.

قالها في حياد دون أن ينظر نحوي، شكرته على عرضه وأفهمته أنني على العكس منه تماما أشعر بالامتلاء. ظل يتابع حركة الرواد والسقاة، ويبتسم لي، فأبتسم دون حوار منطوق.

عندما جاء الساقي بوجبته وبراد الشاي انهمك هو في التهام الوجبة في نهم وتعجل، كنت أرشف الشاي على مهل، وأرقب سطح النهر الساكن، وقد انعكست عليه الأضواء الملونة، أشار هو إلى الساقي ليحمل الأطباق الفارغة، أمره بمشروب مثلج، وزجاجة بيرة، مسح شفتيه بظهر كفه، وحركهما في شبع. سألني هذه المرة إن كنت أرغب في مشاركته شراب البيرة قبل انصراف الساقي ليطلب لي واحدة، فاعتذرت بآلام المعدة، أخرج علبة اللفافات الخاصة به وفتحها، ثم مد يده نحوي بها، وقال في وقاحة بدت لي متعمدة:

ـــ خذ سيجارة أجنبي نظف بها صدرك.

أزحت يده بعيدا عني في عنف أسقط علبة اللفافات أرضا. انحنى على الأرض وأخذها بينما النظرات تتجه نحونا من كل الأركان، نظرت نحوه وقلت في غضب، ناسيا كل ما كنت أحمله تجاهه من ود:

ـــ من علمك " الجليطة " لتتعامل معي بكل هذا السخف؟

همس في صوت خافت:

ـــ آسف، لم أكن أقصد الإساءة إليك، كنت أمزح يا أخي، أنت صديق أعتز به وأحترمه، ومن حقي أن أداعبك مرة بطريقتي. لقد عدت من غربتي الطويلة حالما بجلسة هانئة مع صديق مثلك في هذا المكان، أرجوك، أرجوك لا تفسد حلمي بتفسيرات لم ترد على خاطري، إن همومي أكبر من أن نتخاصم بسبب عبارة خانني فيها التعبير، بينما لم نتحاور بعد.

زفرت في ضيق ربما لأنني انفعلت أكثر مما ينبغي، وربما لأنه جعلني أشعر بالأسى من أجله، أومأت مهونا عليه وعلى نفسي ما حدث، واعتذرت عن عصبيتي، صب هو في كوبه شراب البيرة وحطه أمامي، ثم أفرغ كوب ماء في البراد الخالي، وصب في الكوب ما تبقى من زجاجة البيرة وأصر على أن أشاركه الشراب، التمست منه إعفائي بسبب ما كنت أشعر به في تلك اللحظات من آلام مباغتة في معدتي، بدا أنه اطمأن أكثر فهون علي الأمر، وألح علي أن أشاركه، قائلا أنه يحمل معه حبوبا أتى بها معه لعلاج آثار الشرب لذوي الأمعاء الموجوعة، وأكد لي أنه يعاني من نفس الآلام، ولما فشلت في إقناعه بأن رفضي لا يعني استمراري في الغضب منه، هونت الأمر على نفسي، وشاركته الشراب، فانفرجت أساريره، وأبدى فرحته بلقائي بعد طول البعاد.

أسرعت للقائه قبل الموعد الذي حدده بنصف ساعة، عندما وصلت المكان أدهشني أنه كان جالسا ينتظر، كان في ضيق وقلق، همس بصوت مشروخ:

ــ اطلب لي شايا..

كانت المائدة المستطيلة خالية تماما، طلبت شايا وقهوة، وجعلت أتأمل ملامحه المخطوفة التعسة، كنت أتوقع أن يفاتحني في مسألة طارئة، أو حدث مفاجئ تعرض له، وسبب له كل هذا الكدر لكنه لم يفعل، حدثته بعد طول صمت عن حرارة الجو التي لا تحتمل، وعن نسبة الرطوبة التي تزايدت على نحو مفاجئ بالنسبة لمثل هذه الأيام من السنوات الفائتة، وافقني باندهاش دون أن يعلق بكلام محدد، اقترح علي القيام ومحاسبة الساقي عن الطلبات، همس في تبسط:

ــ طلبت قبل مجيئك زجاجة بيرة وطبق مكرونة.

حاسبت الساقي، وخرجت في أثره، مشى بضع خطوات. ثم تلعثم قبل أن يسألني:

ــ هل معك نقود؟

ــ معي.

ــ هات خمسة جنيهات.

أعطيته خمسة جنيهات فحطها في جيبه، ثم استدار عكس الاتجاه الذي كان يسير فيه قبلا، أوضح لي:

ــ سيارتي مركونة هناك.

لم أعلق بشيء، عندما وصل إلى باب السيارة فتحه وركب، أدار المحرك، ثم فتح الباب الآخر في تكاسل، وأشار إلي بآلية أن اركب، لم يتح لي فرصة إغلاق الباب بنفسي، بل تولى هو ذلك في حرص شديد، ثم سك ترباس الأمان، بعد أن تأكد مرات من إحكام إغلاق الباب، حط دماغه على عجلة القيادة في وضع استرخاء، حدثني وهو في نفس الوضع عن خطورة إغلاق أبواب السيارات حديثة الطراز بأيد غير مدربة مما يؤدي إلى فسادها، أضاف أن اليد الخبيرة تستعمل الأشياء بحرص يطيل أعمارها، ولا يعرضها كثيرا للتلف، فأبديت موافقتي على فكرته.

رفع رأسه وتحرك بالسيارة في اتجاه النهر، حدثني ــ بينما يقود ــ عن الصعوبة التي يلقاها كلما بحث عن مكان خال يركن فيه سيارته، أبدى استياءه من أن شوارع المدينة قد تحولت على نحو مفاجئ إلى.. جراج يكتظ بكل أنواع المركبات، أبدى سخطه الشديد على أصحاب السيارات لأنهم يزاحمونه في الطرقات، وأكثرهم لا يعرفون أصول القيادة وآداب المرور، أوقف السيارة تحت شجرة على رصيف الكورنيش ولم ينزل. همس في مرارة:

ـ كنت قد احتملت اغترابي طوال تلك السنوات كي أشعر بالراحة بعد المجيء، خاب رجائي، تصور، اشتري شقة تمليك، وأدفع فيها دم قلبي، وأكتشف أن جيراني سباك، وترزي قمصان، وصاحب كشك سجاير، تصور، كيف دفع أمثال هؤلاء الناس ثمن الشقق التي حصلوا عليها، بينما لم يخرج أيهم من البلد؟ إنني في حيرة.

هونت عليه الأمر، وأفهمته أن مشاكله يمكن أن تنحل ببعض الصبر، فنظر إلي في عداء وسألني:

ـ لا بد أنك مرتاح، أين تسكن؟

ـ نفس المكان الذي كنت أسكنه أيام الدراسة، لا بد أنك تذكره.

ـ طبعا طبعا، كم من ليال قضيناها سويا هناك. كانت أيام، ياه كان فقرا لذيذا، والقلب خال من الهموم.

حط دماغه من جديد على عجلة القيادة في وضع استرخاء، وحدثني وهو في نفس الوضع عن الأموال الكثيرة التي عاد بها، والتي لا يشعر بطعمها، أكد لي أن قيمة المال الحقيقية لا تحسب بقوته الشرائية، وإنما بمقدار السعادة التي يخلفها بعد إنفاقه، لم أجادله، قال أنه اشترى كل الكماليات التي خطرت على خياله، وتلك التي لم تخطر، لكنه لم يشعر بالمتعة أو الأمان، عاود التأكيد أنه لن يخرج من البلد مرة أخرى، مهما كانت المغريات، وعدني بزيارة لشقته لأرى بنفسي كيف أبدع مهندس الديكور في تجهيزها، قال إنه جهز إحدى حجراتها بعازل صوت، لا يسمح بدخول أو خروج صوت منها، أو إليها، قال إنه وضع فيها مكتبة نادرة، وجهاز "فيديو"، ومجموعة من الأفلام من كل شكل ولون، شكرته لعرضه، وتمنيت له المزيد.

في منتصف الليلة التالية زارني في شقتي، أبدي امتعاضه من سوء تهوية المكان، وتشكى من قذارة الحارة، قال إنه ركن السيارة في الشارع الرئيسي عند سور الجامعة، وأنه يفضل الخروج معي لنشم الهواء النقي في مصر الجديدة، وافقته، وخرجت معه، ووصلنا إلى السيارة، لم أحاول فتح بابها أو إغلاقه، عملا بنصيحته السابقة، سار منتشيا على غير عادته في أماكن لم أرتدها قبلا، ركن في شارع ساكن، وبدأ يستعيد ذكرياته القديمة معي وبعض الزملاء، ضحكنا، حدثني عن عرض جديد تلقاه للسفر، أبدى قناعته بفكرة مؤداها أن التضحية ببضع سنوات من الاغتراب في سبيل تأمين المستقبل أفضل من البقاء وعدم التحقيق، اندهشت من حماسه في كل مرة للدفاع عن فكرته التي تختلف عن سابقتها في الموضوع الواحد، قلت له: إنه حر في اختياره، فانتقد أولئك الناس الساكنين القاعدين، رغم أحوالهم السيئة، تحدث عن شقتي الضيقة، وعالمي المحدود، فدافعت عن نفسي بأنه اختيار محسوب، ولا يحق له أن يعايرني بسببه، زفر في ضيق ونظر إلي، ثم قال في حدة:

ـ كلام فارغ، لقد رجعت متوهما أنني سوف أرتاح فماذا وجدت؟ هل تعرف ماذا وجدت، وجدت أمي المريضة في حاجة إلى عملية جراحية في القلب، أخوتي كانوا هنا ولم يفكر أي منهم في علاجها، كانوا ينتظرونني بمشاكلهم، أحدهم طلب مني بغير مواربة سلفة يصلح بها أحواله، الآخر طالبني بمشاركته في مشروع لا أعرف تفاصيله، أما أختي الأرملة فقد طالبتني بمساعدتها في تربية أولادها، هل أدوخ وأغترب طوال تلك السنوات، ثم أعود لأغرق في مشاكلهم التي لا تنتهي؟ حرام هذا أم حلال؟ تكلم، إن أكره ما أكرهه هو الاستغلال والابتزاز، والتذاكي في سلب الآخرين حصيلة جهدهم، وشقاء أعمارهم.

هونت عليه الأمر قدر استطاعتي، فسألني إن كنت أعرف من يشتري سيارته، وأضاف أنه على استعداد لإعطائي عمولة مناسبة، أبديت استيائي من فكرته عني، وأفهمته أنني لست سمسارا لآخذ منه عمولة، مقابل خدمة أؤديها فاتهمني بضيق الأفق، واتهمته بالتخلف العقلي، ففتح باب سيارته بجواري، وجعلني أنزل ملفوظا في مكان لا أعرفه، وانطلق مبتعدا عني قبل تسخين المحرك، كما كان يفعل قبلا، وقطرات العرق تنز على جبهتي وعنقي، وتشعرني ببرودة الجو.

في صيف العام التالي التقينا صدفة، كنت أجلس على المقهى الذي اعتدنا الجلوس فيه وسط لمة الأصحاب القدامى، نزل هو من سيارة أخرى غير تلك التي كان يملكها في العام الماضي، اتجه نحوي وسلم في حماس، وبادلني القبلات المشتاقة، همس في أذني بينما كان يشرب الشاي الذي طلبته بأن لديه كلاما خاصا يود لو أقوم معه لأسمعه، وافقته، وقمت معتذرا لأصحابي، وركبنا سيارته دون أن تمتد يدي إلى بابها، قال: إنه شبع من سنوات الغربة، وأنه لم يعد في حاجة إلى شيء يضحي من أجله باغتراب جديد، أبديت موافقتي لفكرته، وشاركته الرأي في ضرورة البقاء في نهاية الأمر، لكنه عندما توقف قريبا من الشارع المؤدي إلى مسكني، وفتح باب السيارة بيده لأنزل، لفحتني نسمة هواء، فخطرت لي ـ بينما يغلق الباب في حذر وينطلق مبتعدا ـ فكرة مؤداها أنه سوف يرجع إلى هناك مرة أخرى، وقلت لنفسي بينما أعبر قضيب القطار أنها حماسة صيف زائفة سرعان ما تزول بانتهاء موسم الأجازات.

الشملولة

*

كانت تهرس وسط الدار مرواحا ومجيئا حين تأتي، لا أعرف من فتح لها الباب والكل نيام، كنت أشعر بأنفاسها تتردد وأنا بين النوم واليقظة فلا أصدق، أقاوم فرحتي بوصولها وأتمطى، لكنني أحس حركة أمي وهي تتزاح من تحت الغطاء منسلة في حذر فيتأكد لي أنها جاءت، أتابع الضوء المتباعد للمصباح وهو يخرج من " المندرة " وأسمع همساتها الخافتة مغلفة الصوت وهي تحادث أمي فأبعد الغطاء عني وأقوم لأراها بعودها القصير الممتلئ ووجهها المستدير الحازم، أتبعهما في صمت، أراها وهي تدس يمينها إلى ما فوق الكوع في حلوق "الزلع"، تذوق بطرف لسانها طعم المش وتشير لأمي لتصب لها الماء من إبريق النحاس فتغسل ساعدها وتجففه دائما في ذيل جلباب أمي الذي تقدمه إليها في حماس وهي تقترب منها أكثر وتثبت في مكانها، بعدها تنظر في "براني" السمن، تتشممها ثم تحكم وضع أغطيتها الفخارية على حلوقها وتعيد ربطها بحذق، تلقي بنظرة خاطفة على مخزون الأرز وتميل بطرف عينها نحو كوم البطاطس في ركن الخزانة تقيسه، تهز رأسها وتخرج من باب الخزانة، تدخل ونحن في أثرها إلى قاعة الطيور، توارب الباب بحرص بما يسمح لبدنها بالدخول ولا يسمح لطائر بالخروج إلى وسط الدار في تلك الساعة البدرية التي تسبق طلوع الفجر بساعة، تهمس لنا وهي في الداخل تأمرنا بالتمهل عند الدخول، أحمل عن أمي المصباح حتى تدخل وتتناوله مني وأتزلق بسرعة لأسمع صوصوة الكتاكيت وهديل الحمام وفحيح ذكر البط الواقف بجانب البطة الراقدة على البيض خائفا ويخوف، أتحاشى عضات ذكر الأوز العجوز، أتابع مع أمي حركاتها السريعة الواثقة وهي تتحسس "بناني" الحمام لتطمئن على الزغاليل، وهي تزيح في خفة الدجاجات والأوزات الراقدة على البيض، اقترب منها بالمصباح فتوسط بإصبعيها البيض واحدة في أثر أخرى بين عينيها وضوء المصباح، " تفره " وتعيده إلى مكانه في دربه، ترج بعض البيضات في حذر وتتسمع منها أصواتا قبل أن تعيدها إلى مكانها أو تبعدها ثم تدفع الطائر لاحتضان البيض قبل أن يبرد، تشير إلي فأخرج وأعود مسرعة إلى القاعة وقد حملت حزمة برسيم من الحمل المحطوط على دكة النورج في وسط الدار، تبعثرها حول جحور الأرانب وتنتظر حتى تطل في حذر قبل أن تخرج بحرص أولا ثم

باطمئنان وكثرة، تنفرش أركان القاعة بالأرانب الكبيرة والمتوسطة والصغيرة والأصغر، تمسك هي أرنبا كبيرا أو أرنبة وتحك بطرف إبهامها الشعر حول الأنف والبوز وتنظر إلى ما قد يعلق بطرف إصبعها من قشر أبيض دقيق من أثر الحك، تترك الأرنب وتتجه نحو الباب وتخرج في خفة فلا يفلح طائر في النفاذ إلى الخارج، نتبعها وربما يفلت أرنب أو كتكوت من بين قدماي أو جلباب أمي، تحكم هي إغلاق باب القاعة وتطلع السلم الخشبي إلى سطح المقاعد وتمد يدها في " زالوع " القمح تطمئن على حجم المخزون، تخرج براحتها وفيها حفنة منه تتفحصها بنظرة متأنية ثم تعيدها، تقيس ببصة عابرة كوم كيزان الذرة والمحطوط جنب جدار الغباشي شلبي، تقشر كوزين أو ثلاثة من أغلفتها وتلف كل واحد منها أمام عينيها وكأنها تقرأ في كتاب ثم تلقي بالكيزان إلى وسط الدار تتقدمنا نازلة على السلم، أنظر إلى وجه أمي فأحس قلقها وأسمعها تتودد إليها وتحذرها من الدرجة الأخيرة وذلك المسمار البارز بها مخافة أن يقطع طرف طرحتها أو ثوبها، لا يبدو على العمة أي اهتمام بتحذير أمي وتنزل في هدوء وثقة، تتشاغل عنا بلملمة بعض الأشياء أو تأمل الجدران حتى تتأكد من نزولنا فتتحرك من مكانها وأمي تؤكد لها أن الدار زارها نبي وأن بركاتها سوف تحل بنا وربما تعتذر لأننا نكلفها الجهد والمشقة فتهز رأسها وتفتح باب " الزريبة "، تتحسس في تؤدة ظهور العجول " اللباني " وعجول التسمين وربما تجس جاموسة أو بقرة لتطمئن على " البذرة "، أسرع نحوها بالإبريق أصب ماءه لتغسل ساعدها الملوث وأمي تعتذر لها في حماس وربما تتولى هي عني الإبريق وتصب لها ثم تناولها طرف ثوبها لتجفف يدها ثم تهمس:

ـــ يا دي الكسوف يا عمه، وبتعوصي إيدك اللي تتلف في حرير؟

ـــ دا معاش أخويا يا هبلة، ح اتعب لمين غيره؟

يشجع أمي ردها غير العصبي وتسألها في لهفة:

ـــ حلوة البهايم يا عمه؟

لا ترد عليها وتمشي في طول صحن الدار وعرضه، تعدل طاجنا مقلوبا أو تحط طوبة مرمية جنب جدار، تلملم كناسة الحطب بمداسها في ركن وتأمرني بحملها أمام الفرن، تلم كيزان الذرة التي ألقت بها قبلا وتقوم بتفريطها في آلية وترمي الحبوب في الأركان، وقبل أن تخرج من الباب الأوسط إلى حوشي الدار البرانية تسرع أمي بفرش فروة الخروف الكبيرة فوق الحصير المفروش، تعدل المسند خلف ظهرها لترتاح في قعدتها بينما تتكوم أمي في استكانة تنتظر عند طرف الحصير، تأخذني هي إلى جوارها وتربت على ظهري في حنو، يتزايد القلق على وجه أمي، تعض هي شفتها السفلى على عادتها كلما أرادت أن تتكلم في أمر لا تقبل فيه معارضة:

ـــ دكر الوز خاب، ادبحوه وأطلقوا دكرين من البطن البدرية.

ـــ يندبح يا عمه.. حاضر.

ـــ الأرانب ح يصيبها الجرب، ارموا نقلتين رطش في القاعة وهاتوا لهم قـــزازة دوا من عند المرسي العطار.

ـــ نجيب يا عمه.. حاضر.

ـــ البطاطس تتبدر يا مريم لأجل ما يطولهاش السوس.

ـــ نبدرها يا عمه.. حاضر.

ـــ والعجول دي تتصحوا لهم، أنتو ح تربوهم ع التبن؟

ـــ بنرش لهم يا عمه.. فول و رده و..

ـــ الكلام ده ما ينفعش يا بت، أنا قلت انصحوا لهم وخلاص.

ـــ ننصح يا عمه.. حاضر.

ـــ زلعة الجبنة الكبيرة ملحها ناقص ليه؟ ما تعرفيش تدوبي حفانين ملح رشيدي فـــي طاجنين لبن رايب وتزوديها؟ اللي تنقصيه منها حطيه في الزلعة أم ودن واحدة، ناقصها مش.

ـــ حاضر يا عمه حاضر.. نعمل كدة.

ـــ وسط الدار مش نضيف يا بت، يجيب الواغش، بناتك بيعملوا إيه طول النهار؟

ـــ أنا بغلب وياهم يا عمه حاضر.

ـــ معاشكم ح يخيب.

ـــ البركة ح تحط يا عمه، سامعه يا شوق عمتك بتقول إيه؟

تقولها وهي تنظر نحوي وكأنما تخفف عن نفسها ثقل المسئولية وحدها فتحيط عمتـــي بذراعها أكتافي وتقول وكأنما تدافع عني:

ـــ ودي مالها يا مريم؟ شوفي الثلاثة اللي راقدين جوه راقدين لدلوقت ليه؟

تقول العبارة الأخيرة وتعدل شعر رأسي، أحس بالفرح لأنني أرضيتها بالصحو المبكر وأحزن من أجل أمي التي تعجز عن المجادلة وتحط رأسها في الأرض وكأنها تلميذة غلطانـــة حطت وجهها في الحائط كما أمرها الأستاذ، يقصر الوقت أو يطول بحسب ما تـــراه العمـــة مناسبا لتتأكد من دوام ولاء أمي وخضوعها للأوامر، بعدها يجري الحوار بينهما مألوفا وربما يكون ودودا.

كان يقفل دكانه مبكرا ويعود على غير عادته، يحمل اللفافـــات والأكيـــاس الورقيـــة فتتناولها أمي في زهو، يطلب منها أن تجهز لنا " لقمة " فتجيب " بالحاضر " وتغطـــس مـــع البنات في وسط الدار، يجلس هو إلى جوار العمة ويرحب بها في حماس، يســـألها إن كانـــت راضية عن الدار فتجيبه دائما:

ـــ ربنا يخليك لهم يا عبد الستار ويخللي دارك مستورة قصاد العدو والحبيب.

ـ ما هو البركة فيكي يا فطوم، البنات رزقهم واسع.

يحادثها وتحادثه في ألفة، يتبادلان أخبار الناس ويعلقان على ما يكون قد جـرى في الكفر من أحداث، يحكي عن الدكان وما يكون قد أضافه من أصناف جديدة فيه وتلك التي كف عن بيعها، تنحط الطبلية وفوقها صينية العشاء الكبيرة، يضع أمامها صينية " الزفر " ويهمس في تبسط:

ـ فرقي على العيال يا فطوم.

تمد هي يدها وتبدأ في التقطيع، تبدأ به والبنات ثم تضع نصيب أمي وتقول عبارتها المألوفة للجميع:

ـ اللي منابه صغير يقول

لا يقول أينا شيئا عن نصيبه، هكذا اعتدنا ربما لأن الأيام التي تأتي فيها وتشاركنا وجبة العشاء يكون النصيب فيها مضاعفا ونادرا ما كانت الواحدة منا تقدر على إكماله، ينتهي العشاء وتقدم أمي محتويات الأكياس التي جاء بها أبي من الدكان، أكثر ما كنا نحبه أن نتحلق حول "راكية" النار ونشوي "أبا الفرو" نسمع طقطقاته التي نفهم منها أن قشرته انفتحت وأصبح من السهل الخلاص منها، وتلك الحلوى المشكلة على هيئة أقراص وأصابع مخلوطة بالحمص والسوداني والسمسم والملبن المحشو، كنا نشبع في تلك الأمسيات أكثر من الأمسيات الأخرى، ما كان يجعل للطعام طعما مميزا هو تلك الحكايات التي كانت هي تحكيها والتي لا نسمع بمثلها أبدا، كانت تحكي عن جد من أجدادها اسمه "الملك الشلبي" وتقول إنه حكم الدنيا أربعين عاما أو يزيد وأنه كان يرسل في كل ركن من أركانها أميرا من نسله يحكم بالعدل ويعاقب الظالمين، تقول إن نسله كان كثيرا إلى درجة أنه لم يعرف له عددا، وأنه كان نسل من الرجال فقط، ذلك أن الملك الشلبي لم ينجب بنتا واحدة على امتداد عمره ولذلك كان يشعر بالحزن أحيانا ويبكي، بل إنه كان يقول لأكبر أبنائه أن الدنيا ظلمته لأنه لم يحقق مرامه منها بخلفة من البنات، وتقول أن ابنه الأكبر كان يواسيه ويؤكد له أن أبناءه يخلفون البنات والبنين وبنات أبنائه مثل بناته فكان الملك الشلبي يغضب منه ويقول أن البنات جذور في الأرض صعب اقتلاعها وأن الأولاد فروع مهما قويت سهلة التكسير، البنت أم وماعون والولد ريح طيار صعب الاحتفاظ به، كنا نفرح بالحكايات ونتباهى بأننا بنات وعندما تسألها واحدة منا عن ثروة الملك الشلبي تبلع لعابها وتؤكد أنه كان يضع الذهب في صناديق كبيرة ويملأ بها خزائن أصغرها في حجم مندرتنا الكبيرة، وأذكر أنها قالت لنا مرة أن قصره الكبير كان مبنيا طوبة من الذهب وطوبة من الفضة، كانت تحكي عن ثيابه "الحرير الهندي" وثياب حريمه التي لا تشبه ما يلبسه الخلق في زماننا، نسألها إن كانت هي أو واحدة من بنات شلبي احتفظت بواحد منها فتقول إن جدتها كانت تملك ثوبا من تلك الثياب ظلت تحتفظ به في صندوقها حتى

سطا عليها اللصوص وحاولوا سرقته وخدعتهم بأن قالت لهم إنه ثوب قديم لا يساوي شـيئا، خلعت مصاغها وأعطته لهم ففرحوا وتركوا لها الثوب وهم يقولون إنها امرأة حمقاء لتعطيهم الذهب مقابل ثوب قديم، لكنهم أدركوا الخدعة عندما باعت هي الثوب فـي السـوق الكبيـر وأخذت ثمنا لكل جوهرة مخفية وسط طياته، ذلك أن جواهر الثوب كانت مخفية لا تظهـر إلا عندما ترغب صاحبتها في إظهارها، تقول إن جدتها اشترت زمام الكفر أيامها ودفعت الـثمن ذهبا خالصا لأولاد عوف لكنهم أنكروا الأمر وعاركوا أولادها، كنا نغضب من أولاد عـوف ونود لو كنا رجالا لنعاركهم ونأخذ منهم ما سبق وأخذوه من جدتنا وأنكروه، لكننا كنـا نفيـق على الحقيقة بأننا بنات والعمة فطوم امرأة لا تستطيع أن تقوى على حرب الرجال، كانت هي في مثل هذه الساعات تعاود الحديث عن جدها الملك الشلبي الذي كان يعتز بذكورة نسله فـي أعقاب كل معركة يدخلونها مع الغرباء، كان يتباهى بهم ويقول أن ذراع الرجل سند وعـون وسلاح وأنه لولاهم ما حكم الدنيا بأسرها، وكثيرا ما كان يبكي لأن بعض أبنائه لم ينجبوا غير البنات، كان يخشى أن تدور الأيام ويكون أكثرية أحفاده من الحريم ويومها يزول ملكه ما لـم تتعلم النسوة من الحيل ما يحميهن ويحفظهن من بطش الرجال. نحتار في أمر الملك الشـلبي ولا نهتدي إلى حقيقة أغراضه، كانت حكاياتها عن الملك الشلبي لا تنتهي أبدا، كنا نفرح بهـا ونسألها عن بلد الملك الشلبي قبل أن تشتري جدتها أراضي الكفر مـن أولاد عـوف فتشـرد بنظراتها وتحكي عن بلاد بعيدة يحيطها نهر وبحر ويحدها من الغرب الصحراء والبـراري، أسألها إن كنا نستطيع الذهاب فتجيب بأن الطريق إلى هناك وعر تسـكنه الـذئاب والثعالـب والسباع فأحزن لعجزي عن الذهاب إلى أرض الملك الشلبي.

يبدو عليها السأم من كثرة الأسئلة وتقول عبارتها التي اعتدناها في مثل هذه الأوقات:

ــ وجعتوا دماغي بقى.

ــ أحكي لكم على عمتكم فطوم يا ولاد أيام زمان.

يقولها أبي بحماس فنعرف أن دوره جاء، لم يكن يحدثنا عن جدنا الملك الشـلبي فـي حضورها أبدا، كان يحكي عنها هي، عن صباها وشبابها وكيف أنها كانت أيامها بألف رجل، عن جمالها وفتنتها التي لم تذبل رغم دعواها بأنها راحت عليها، كنت أشعر ويشـعرون أنـه يعمل حساب لكل لفتة أو همسة تهمسها. كان يبدو بارعا في تغيير الحديث إذا بدا لـه أنـه لا يرضيها في شيء، وكان ينتهز فرصة قبولها لحكاياته وينظر إلى كل واحد منا متأملا قبل أن يقول:

ــ نعمات واخدة عنك النضافة يا فطوم، شاطرة في الخبيز والعجين والطبيخ بس يـا خسارة صحتها على قد حالها ".

"جواهر بنتي عزم وصحة زيك أيام زمان، أهو من غيرها لا نطحن ولا نغسل حب ولا نعرف نترب لمواشي ولا نشيل سباخ".

"عطيات دي ساهاتانة وواعية ولا يفوتهاش فايت. القرش ع القرش وفي الحساب لبلب، أمها عايزة تمسكها المعاش من دلوقت.. هئ هئ".

يضحك فتضحك، ينظر نحوي ويوشك أن يقول شيئا فتأخذني هي في حضنها وتمسح على شعر رأسي ثم تقول:

ـ شوق دي حتة مني.

أشعر بالزهو أكثر من كل البنات، التصق بها أكثر حتى يحين الوقت الذي تفكر فيه أنه قد حان موعد الرحيل، ورغم ما تؤكده أمي ويؤكده أبي أن السهرة لم تبدأ بعد إلا أنها تقف، تحبك طرحتها حول وجهها وتتغطى " بالملس " فيخرج أبي في أثرها ليقوم بتوصيلها إلى دارها.

كان يعود لاهثا في كل مرة، يحدث أمي بصوت خافت وكأنه يذيع سرا سبق أن أعلنه عشرات المرات ويخشى أن تسمعه الحيطان التي لها آذان كما يقول:

ـ إوعي يا مريم تكوني زعلتيها بكلمة كدة ولا كدة.

ـ ينقطع لساني، أزعلها دا إيه، دا لجل خاطرك أحطها في حبابي عينيه وأعمل لها خدي مداس.

ـ داحنا لولاها ما كناش بقينا كدة، دي هي رسمالنا يا مريم، قرشها في عبنا ولا لهاشي حد غيرنا، أن جرى لها حاجة كله حيبقى للبنات.

ـ عارفة.

ـ عايزك ما ترديش عليها مهما ان كان إلا بكلمة نعم وحاضر.

ـ حاضر يا عبد الستار، حاضر.

يلتفت نحوي ثم يحدث أمي باهتمام:

ـ البت شوق تروح تبات عندها ليلة ولا ليلتين، تسليها يا مريم.

ـ تروح يا خويا.. حاضر.. بكرة تروح من بدري.

كنا نعرف أنها كانت تكره خلفة البنات، وكنا نعرف أيضا أنها أشارت على أبي ليتزوج من أخرى غير أمي التي انقطعت خلفتها بعد إنجاب نعمات وجواهر، كانت هي تريد لأبي ولدا فهجر أمي سبع سنوات أو يزيد فشلت خلالها تلك المرأة في إنجاب الولد أو حتى البنت، أشارت عمتي عليه ليتزوج من أخرى فلم يوافق، خاصمته فطلق الأخرى وأعاد أمي إلى عصمته، وبحسب ما كنت أسمع منهم كانت هي المرة الوحيدة التي اعترض فيها أبي طوال حياته على رأي أشارت به، كان يقول أحيانا عندما يتذكر:

ـ صعبت عليا البنات والعشرة الغالية، أهو لو ما حصلشي ما كناش شفنا عطيات ولا شوق.

كان يضيف في كل مرة عبارته المألوفة:

ـ فطوم كانت عايزة مصلحتي، فطوم دماغها ناشف وكلامها زي كـلام الملـوك لا يرد، كويس إنها نسيت يا مريم، دي قلبها حنين وبتحب البنات.

كانت أمي توافقه في كل مرة ولا تعترض رغم ما كنت أشعر به من أنها تغصب على روحها وتحتمل، كنت أثق أن أمي سوف تواجهها مرة، تثور في وجهها أو ترفض فكرة تقول بها لكنها لم تفعل أبدا، ظلت تتقبل منها كل محاولات إذلالها وتمتدحها، تجاهد لكي ترضـيها بأية طريقة، كنت أقول لنفسي إنها تفعل كل ذلك تنفيذا لوصايا أبي المتكـررة فأغتـاظ منـه وأوشك أن أطالبه بالكف عن ذلك لكنني لم أستطع، وذات يوم كنت داخلة إلى وسـط الـدار فسمعت همسات أمي:

ـ شوق دي عيلة ما تعرفش حاجة، ما حدش يغلط قصادها بكلمة وبس، يا ما نفسـي أشوف فيكي يوم يا فطوم يا بنت بهانة، سبحانه خلاف الظنون، أهي لا طالت ولد ولا بنـت، اتفرعنت كتير ولسة بتتفرعن بس على إيه يا حسرة، دي مهدودة ومكسور خاطرها، دي كانت تتمنى ضوفر عيله عميا ولا هيش ح تطول.

التفتت أمي وبان الفزع في عيون البنات وكأنني هم الموت نزل عليهن علـى غيـر توقع، لكن أمي تابعت كلامها بنفس النغمة السابقة:

عمتكم فطوم يا بنات ما فيش أشطر منها في الدنيا دي بحالهـا، شـملولة وكلمتهـا صايبة، بس يا خسارة، أيوه، يا خسارة.

جلست بجوار أمي في صمت، ربتت هي على ظهري في حنو وسألتني عـن سـبب عودتي فقلت لها أنني ذهبت إلى المدرسة فوجدت بابها مسكوكا وعرفت من البنات أن اليـوم أجازة عيد جلوس الملك، لكنني بكيت، بكيت بحرقة لأن أمي تلونت أمامي وأجبـرت نفسـها على الكذب، خافت مني وأنا التي أعشقها وأكره ضعفها، لم يكن بكائي من أجل المشوار الذي مشيته بلا فائدة رغم أن ذلك كان قد أغضبني بالفعل، لكنني كنت أشعر بعجزي عن تخلـيص أمي من الكذب أو البوح بالأسباب التي دفعتني بالفعل لأن أبكي.

في الليل جعلت أفكر في كل الحكايات القديمة التي كنت أسمعها عن عمتـي فطـوم، حزنت من أجلها أيضا لأن أمي تريد أن ترى فيها يوما آخر أكثر مما رأت، كانت قد تعـذبت دون ذنب، دارت على الحكماء والمشايخ والأولياء سعيا وراء الحلم في الإنجاب دون جدوى، لم تسمع عن شيخ إلا وزارته، دفعت ثمن الحجاب وفك السحر المكتوب لها بعدم الخلفة بـلا جدوى، راحت لحكيم البندر وحكيم طنطا وكفر الشيخ فوصفوا لها حبوبا ولبوسا وشرابا مـرا

كانت تشربه على كره منها عسى أن يكون فيه الشفاء لكنها لم تفلح، تمرغت أمامي وأمي والبنات في حوش زاوية أولاد عوف قبل الفجر بساعة، حطت بدنها بين قضبان قطار مر فوقها فشابت خصلة من شعر رأسها، كنست مقام سيدي الأربعين وأطعمت مساكين الدرب لحما وأرزا ووزعت عليهم مقاطع القماش عشرات المرات، دقت مسمارا في لحد طفل مسلم وقت صلاة الجمعة اليتيمة، ورشت ماء الورد وماء المزهر على مدفن نصراني أسلم في الكفر ومات، بالت على شاهد قبر امرأة عاقر ولم تنجب، ظلت ترقب أطفال الآخرين وتحنو عليهم، تملأ دارها بهم، تطعمهم وتسقيهم السكر المبلول، استعملت صوفة وعرت جسدها لبدر التمام، شاف فيها أهل الكفر أياما لكن أمي لم تقنع، كانت تعايرها بوحدتها بكلام عن أخريات، حديثها أكثر من مرة عن زوجها السابق بنغمة إنكار تكاد تكون تأكيدا وتصديقا مطلقا:

ـــ الخلق في كفرنا بيولدوا البغلة، قال إيه ناس منهم شافوا المخفي درويش في البراري ومعاه عيل بيقول عليه ابنه، هو مش كان كشف يا عمه والحكيم قال إن ما لوش في الخلفة؟

تشرد عمتي لحظات، علها تتذكر خلالها الرجل الذي عاشرته عمرا بطوله بلا ثمرة، لا تستنكر الخبر ولا تسلم بحدوثه:

ـــ كل حي بياخد نصيبه يا مريم، أهو كلام، ربنا يسهل لعبيده.

كنت أذهب إليها فتحميني وتمشط شعري وتلبسني ثوبا جديدا تكون قد اشترته وحفظته في صندوقها، تطعمني وتحدثني عن الملك الشلبي، أفرح وأسألها عن أولاده وأولاد أولاده فتجاوب مهما كثرت أسئلتي ولا تشكو من وجع الراس، تحملني على السرير وتجعلني أتمدد بينها وبين الحاج فرج، أغفو وأصحو لأجدها وقد أخذتني في حضنها، عندما أتقلب تجذبني إلى صدرها الناعم وتقبلني فأطمئن، تهمس وقد أغمضت عينيها:

ـــ قولي لي يا امه.

أقول فتشدني إليها أكثر إلى درجة أشعر فيها بالألم، يتكتم نفسي عندما يندفس فمي وانفي في لحم صدرها الطري، أعجز عن تخليص روحي وأشعر بيد الحاج فرج وهي ترخي يدها التي تحيط برأسي، اسمعه يهمس وكأنه يعتذر لها.

ـــ على مهلك يا فطوم.

تربت على ظهري فأنام وأصحو، أشعر بقطرات من عرقها الدافئ تتساقط على شعري ووجهي، أسمع همسها فحيحا لاهثا لا يشبه صوتها المألوف:

ـــ قولي يا امه يا بت، قولي لي يا امه.

تكررها عشرات المرات فأناديها بأمي لكنها لا تكف عن الرجاء وكأنما لا تسمع صوتي، يسكن بدنها بعد انتفاضة أحسها ويبقى اللهاث المتتابع، يمسح الحاج فرج عن وجهها

ورقبتها قطرات العرق، ربما ينقلني إلى مؤخرة السرير العريض، ربما أشـــعر بـــه يغطيهـــا ويتغطى، ربما أسمع صوته يحادثها ولا ترد، وربما أنام ولا أصحو إلا بعـــد الفجـــر بســـاعة فأراها وقد استحمت وابيضت أكثر في قميص جديد لم أشهده قبلا، تبتسم ولا تلـــومني علـــى الصحو المتأخر، وربما تطالبني بمعاودة النوم فأنام.

(إبداع ـــ يونيو 1984)

كلاب السيجة

*

أشاروا عليه بالسفر إلى تلك المدن البعيدة مؤكدين أنه سوف ينصلح حاله "فأنت لا تقل عنهم في شيء يا شيخ عمران"، حلموا نيابة عنه وفسروا له الأحلام "سوف تعود بعد عـــام أو عامين لتبني داركم التي تهدمت جدرانها، تحمي أمك العجوز من احتمالات ســقوطها فــوق دماغها، سوف تمتلك مشروعا يؤمن مستقبلك مثل بقية خلق الله الــذين كثــرت مشــاريعهم وتنوعت وأثمرت أيضا خلال السنوات الأخيرة التي شاف فيها أهل "الكفر" من عجائب الــدنيا ما حيرهم وتوه عقولهم "كان يتسمع إليهم في تلك الأمسيات ويطوف بخياله في تلــك العــوالم التي ينسجونها بالأمنيات والكلمات لكنه يتذكر أمه العجوز الراقدة في الدار عاجزة عن إطعام نفسها أو ملء كوز الماء المحطوط بجوارها إذا فرغ فتذوب الأحــلام وتتلاشــى الخيــالات المبهجة. فيطلع صباح جديد وهو جالس على نفس الحجر الجيري في صدر بوابة أولاد عوف وكأنه حارس أبدي مكلف بمتابعة خطوات الخلق وإحصائها، كانوا يضحكون ويضاحكونه كلما مروا عليه في طريقهم إلى حقولهم أو أعمالهم في البندر "صحيح يا شيخ عمران، كلام الليــل مدهون بزبدة يطلع عليه النهار يسيح" يهز رأسه موافقا ومستسلما لحالته التي سئمها هو نفسه أكثر من أي وقت مضى، كان ينتقل إلى مصطبة دكان الحاج شبل عــوف المســكوك منــذ سنوات، يستند إلى الجدران ويسلي نفسه بجمع الحصوات الصغيرة مــن الطــوب الأحمــر، يكورها بالحك في جدار الدكان، يحكم تدويرها ويقذف بها إلى أعلى ويلتقطهــا وفــي عينيــه علامات رضا يسير وارتياح مهموم، كان يعدها ويدسها في جيب جلبابه الغويط يتلفت حواليه ويلتقط من جنب الجدار قطع الجير التي تساقطت وكشفت طوبه الأحمر القديم الــذي تشــبع بالرطوبة وأوشك على التفتت بفعل النشع، يكسر تلك القطع الجيرية ويكورها هي الأخــرى، يحكم تدويرها بنفس الطريقة التي كور بها قطع الطوب الأحمر، يقذف بها إلى أعلى ويلتقطها وقد شردت عيناه وغابتا في عوالم غير مرئية لأحد سواه، يعدها ويدسها في جيبه، يحط رأسه على كفه المفرود وربما ينعس للحظات قبل أن يأتي أول رجل بلا عمل ويسأله:

ــ جهزت كلاب السيجة يا شيخ عمران؟

لحظتها يفتح عينيه على اتساعهما ويدس يده في جيبه الغويط يخرج قطــع الطــوب الأحمر والجير المدورة بأحجامها المتقاربة إلى حد التطابق، يناولها للرجل وينظر إليــه فــي حياد بينما الآخر يفرش حفنات من الرماد الناعم في منتصف مصطبة الدكان، يسويها براحتيه

ويفتح بأنامله مجموعة من الفراغات الصغيرة المتجاورة لتصبح على شكل مربع كبير بداخله عشرات المربعات الصغيرة التي يرص فيها قطع الطوب الأحمر والأبيض بترتيـب خـاص ويهمس "خلاص" فيعتدل الشيخ عمران ليكون في مواجهة الرجل وبينهما المربع الكبير، يبـدأ أحدهما أول نقلة لكلاب السيجة، وعندما يسمع صوت المؤذن مناديا لصلاة الظهر من زاويـة الحاج مصطفى عوف يلم القطع في جيبه ويدخل الزاوية، وبعد الصلاة يذهب إلى داره، يطعم أمه ويسقيها ويتمدد بجوارها، يحدثها دون أن يتلقى ردا عن أخوته الذين سافروا إلـى بـلاد الغربة، يطمئنها دون أن تطلب منه ذلك بأنهم سوف يعودون في القريب العاجل وأنهم لابد أن يوافوها برسائل أكثر في مستقبل الأيام، يغفو لساعة ثم يقوم قبل المغـرب فيـدخل الزاويـة ويخرج منها بعد صلاة العشاء ليجلس من جديد على الحجر الجيري صـامتا، يتلقـى تحيـة المساء من العابرين ويرد نفس الرد على الكبير والصغير.

ـــ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته، أهلا وسهلا.

يجلس بعضهم حوله ويتبادلون الحديث، يفاتحونه في نفس الموضوع القديم:

ـــ بع يا رجل، القيراط في أرضك يساوي ثمن فدان، بع يا رجل للسيد شلبي واشتري في مكان آخر، أنت لا تزرع ولا تقلع بعها وريح نفسك.

ـــ لا.. بيع لا

يسكتون ويغيرون الموضوع ويتسللون الواحد في أثر الآخر فيبقى وحيدا يفكـر "لـو بعت لوصلت أرض السيد شلبي إلى أرض السيد شلبي على السكة ولفطست أرض معـوض وصالح وعطية وأصبحت بلا مدخل أو مخرج، تخنق أراضيهم، وينال السيد شلبي مـا كـان يتمناه.. كان يأتي ويعرض الشراء أيام المرحوم، لقد وسع أرضه من الجانبين، واشترى مـن أولاد عوف الذين اشتروا من أبيه الحاج فضل عوف بدعوى حقهم في الشراء وعدم التفـريط في الأرض لغريب، كان الرجل يبيع فدانا في أثر فدان، بعد كل أزمة كان يبيع، باع يوم مات الولد الكبير، باع يوم قلعوا عيدان قطنه، باع يوم سموا مواشيهم، وباع أيضا يوم أصيبت أمه بالشلل، ومات الرجل فباعوا هم أولاد عوف الذين كانوا يتشدقون بالكلام عن ضرورة أن تبقى أرض أولاد عوف في حضن أولاد عوف، باعوها لنفس الخصم الذي كانوا يحذرون من البيع له "ولو انطبقت السماء على الأرض يا حاج فضل" أغراهم فرق السـعرين وبـاعوا بعـد أن أصبح الشيخ عمران وحيدا وبرروا فعلهم بأن "الدنيا مصالح وكل حي حر في ملكه يا شـيخ عمران، والبيع والشراء لم يحرمهما الله على عباده" كان يكرههم ولا يتعامل معهـم، لا يـرد عليهم سلامهم وكان في بعض الأحيان يصرخ في وجوههم ويسأل إن كانوا فعـلا مـن أولاد عوف، يلعنهم ويوشك على العراك فيتجمع الخلق ويحاولون تهدئته بعسر، يشعرون أن وجوده على بوابة أولاد عوف معناه عراك متصل وربما يفلت الزمام مرة ويقتله واحد من أولاد عمه

أو يقتل هو أحدهم بحسب ما كانوا يتوعدونه ويتوعدهم، كان العقلاء منهم يشيرون عليه بالسفر إلى تلك البلاد البعيدة، يذكرونه بأنه لم يتزوج وقد أوشك على بلوغ الأربعين فيطرق خجلا من حاله، يريحونه وقد يؤيدونه في عدم الموافقة على بيع الأرض أو العمل عند أحد من أهل الكفر وهو ابن الحاج فضل عوف الذي كانت داره في السابق دار عزوة وخير وصبوات، يستنكرون أن يقرأ في دور الخلق وهو حامل كتاب الله وله الحق في الاعتزاز بنفسه وعقله وأصله، يجارونه في كل ما يقول به من أن البعض من أولاد عوف فقدوا الدماء وخلعوا برقع الحياء فتنطعوا وصاروا أتباعا للسيد شلبي، يهدئونه ويجلسونه بهدف إقناعه بفكرة السفر، وربما يقترح رجل من بينهم أن يلعب معه " دور سيجه " فيخرج قطع الطوب الأحمر والأبيض ويجلس في مواجهته، يقتل كلاب سيجة الخصم فيهللون ويتهامسون في حضوره وغيابه أنه أبرع من يلعب السيجة في السنوات العشر الأخيرة وأنه بلا أدنى شك فارس اللعبة في البندر مثلما كان أبوه فارسا في لعبة التحطيب أيام كان التحطيب لعبة الرجال في الزمن الفائت.

(الرياض ـــ مارس 1984)

❁

وليمتان

*

لمحه عند مفترق الطرق فصاح مناديا بالاسم:

ـ عادل الدرمللي؟.

التفت عادل الدرمللي نحو مصدر الصوت، انحطت عيناه بعسر على وجه الرجل الذي كان يلوح بيمناه بينما يحمل بيسراه طفلا في حوالي الثانية من عمره، كان يبتسم في سعادة الظافرين وعادل الدرمللي يسعى نحوه وسط الزحام، كانت السيدة تقف إلى جوار الرجل الذي يلوح بيمناه وكأنه يخشى أن يتوه الآخر برغم تأكده أنه رآه وأنه يسير نحوه بالفعل، كانت بدينة ولها ملامح متبرمة فيها قدر من الغطرسة والكبرياء، قالت بنبرات مستاءة:

ـ كف عن التلويح له، إنه قادم.

أنزل الرجل يده بآلية ربما لأن عادل كان قد اقترب منه تماما، أنزل الرجل طفله وسلمه إلى السيدة البدينة دون حوار منطوق فحملته هي أيضا دون تعليق، فتح الرجل ذراعيه ليتلقى عادل الدرمللي، تعانق الرجلان في اشتياق، انهمكا في حديث ملهوف بينما تتبرم السيدة السمينة أكثر، زفرت في ضيق قبل أن تربت على كتف الرجل وتقول وكأنما تنتزعه من لحظات النسيان المؤقت لوجودها ووجود الطفل:

ـ الولد تعبان يا عبد الونيس، سوف نتأخر.

التفت عبد الونيس إلى السيدة السمينة، تطلع إلى وجه الطفل ثم تحول بنظرته إلى عادل وقال في حرج:

ـ عفوا يا عادل، عفوا، نسيت أن أقدمك للمدام، زوجتي نادرة، والولد نادر، عادل الدرمللي يا نادرة، صديق طفولتي، من سنوات طويلة لم أقابله، تصوري يا نادرة أنني لم أكن متأكدا أنه هو نفسه عادل الدرمللي، ناديت الاسم وأنا أتوقع أن أحدا لن يجيب، تصور يا عادل، لم أكن متأكدا أنك هو أنت نفسك الذي يتحرك إلى الشارع الآخر، كيف أحوالك؟ سنوات طويلة لم أعرف فيها أخبارك، أين أنت يا عادل؟.

ـ في الدنيا، الدنيا واسعة كما تعرف، وأنت تعيش في القاهرة؟ أين تعمل؟ هذا الولد ابنك، قلت إن اسمه..

ـــ نادر.

ـــ آه.. نادر.. اسم لطيف.

ـــ تزوجت منذ عامين ونصف تقريبا، و.. وأنت هل تزوجت؟.

تدخلت السيدة وقالت في لوم واستنكار ظاهر:

ـــ أنتم في الشارع، سوف نتأخر يا عبد الونيس، الولد تعبان.

تحير عبد الونيس لم يعرف كيف يحسم أمره، كان موزعا بين رغبتين، معرفة أخبار صاحبه وإرضاء السيدة البدينة التي بدا عليها الاستياء أكثر، والتي لم ترحب بصاحبه لأسباب لا يعرفها، فكر للحظات حاصرته خلالها نظرة الاستهجان من السيدة ثم قال في حرج:

نتفق على ميعاد يا عادل، طبعا كنت أريد معرفة أخبارك بعد هذا الغياب الطويل إنما، الولد تعبان كما ترى، أمه قلقة عليه وعيادة الطبيب في مصر الجديدة، أنت تعرف طبعا أن الحصول على تاكسي في مثل هذه الساعة عسير، متى أراك؟

قال الدرمللي وهو ينقل نظراته ما بين صاحبه القديم والسيدة البدينة:

ـــ ولماذا تبحثون عن تاكسي يا عبد الونيس، سأقوم بتوصيلكم إلى أي مكان، سيارتي تقف عند المنحنى، كنت بجوارها عندما سمعت نداءك، ما رأي السيدة، لقد تشرفت بمعرفتك متأخرا، لو كنت أعرف ميعاد زواجكم لحضرت إلى مصر خصيصا من أجلكم، عبد الونيس صديقي وأخي وأكثر، سأقوم بتوصيلكم حتى بيتكم بعد الاطمئنان على الأستاذ نادر، إنه جميل ومشاكس على ما يبدو.

قالت السيدة وقد انزاح قدر كبير من تبرمها:

ـــ أخشى أن نتعبك يا أستاذ.

ـــ على العكس تماما يا سيدتي، على العكس، أنا في أجازة وليس لدي ما أعمله خلالها، ولقائي بكم فرصة لا يحق لي أن أضيعها مهما كانت الأسباب.

ارتبك عبد الونيس عند باب السيارة الفخمة التي انفتح بابها، نظر إلى السيدة التي كانت مبهورة هي الأخرى تجاهد أن تداري انبهارها بمسحة تأفف واستعلاء، قال عبد الونيس متسائلا في دهشة:

ـــ سيارتك؟ هذه سيارتك يا عادل؟ إنها.. إنها فخمة و.. ما نوعها.. إنها.. قال عادل بينما يفتح الباب الأمامي للسيدة ويوجه كلامه لعبد الونيس في خفة وتبسط ظاهر:

ـــ ستركب السيدة في المقعد الأمامي كما تقضي بذلك قواعد اللياقة والذوق، إذا كنت تعرف القيادة فتفضل أنت أيضا واترك لي الأستاذ نادر ليشاركني في المقعد الخلفي.

ـــ لا.. أبدا.. أنا، سأركب مع نادر.. لا أعرف القيادة، إنها سيارة غريبة.

قبل أن تركب السيدة في المقعد الأمامي، نظرت إلى عبد الونيس نظرة استياء لظهوره بهذا الشكل الأحمق أمام صاحبه، فركب في حرج بينما دار عادل الدرمللي وركب في مقعد القيادة وتحرك بالسيارة في اتجاه مصر الجديدة.

لم تمانع السيدة في قبول دعوة الدرمللي التي عرضها عليهم للعشاء في مطعم الشيراتون وبالتالي لم يعارض عبد الونيس، كان دخول الشيراتون بالنسبة لعبد الونيس أمرا غير وارد في حساباته الحالية على أحسن الفروض، وكان بالنسبة للسيدة حلما لم تجد الوسائل لتحقيقه حتى كانت دعوة عادل الدرمللي فلم تمانع في قبولها على الفور، كانت جرأة الدرمللي في التعامل مع المكان تكشف إلى أي حد هو متمرس وخبير بهذه الأماكن، وكان انكماش عبد الونيس وتهيبه مدعاة لغيظها منه، كانت تجاهد أن تتصرف في رصانة وثبات وترقب عبد الونيس من آن لآخر وكأنما تحذره من ذلك التخوف المدهوش أو تعتذر للدرمللي عن تلك النظرات البليدة التي يتابع بها عبد الونيس حركة العاملين والرواد، وكانت تفكر " إنه يبدو عاجزا عن مسايرة العصر وبالتالي يصعب عليه أن يتقدم في الحياة مثل صاحبه الذي شق طريقه بالفعل ".

كانت تسترجع ما سبق أن شاهدته من أفلام، وتتمثل السيدات الراقيات سليلات القصور وتمثل في آن واحد، جعلت تتكلم من أطراف أنفها وتشير بأصابعها في نعومة حيرت عبد الونيس الذي لم يتمالك نفسه فقال:

ـــ نادرة، ماذا جرى لك؟.

ـــ ماذا؟

قالتها في استعلاء واستنكار وقد تحفزت للدخول في صراع معه لولا أنه انطوى على نفسه في براعة وهمس:

ـــ لا شيء.. لا شيء على الإطلاق.

كان من العسير عليه أن يوقفها أو يحول اهتمامها إلى شيء آخر غير ذلك الاندماج المكشوف في دور لا يليق بها أو بظروفها، وكان يعايش أحساسا بالخجل منها ويتمنى لو لم يقترن بها أصلا "ترى ماذا يقول عادل عنها؟ هل أدرك إلى أي حد تفتعل في حديثها أم أنه لم يدرك، وإذا كشفها فماذا يقول عني الآن؟".

كانت تربت على الطفل النائم في آلية وتحكي:

ـــ بالطبع يا أستاذ، بالطبع، الناس في أوروبا أكثر رقيا في حياتهم، أولاد عمي سافروا مثل حضرتك وعادوا، كل واحد منهم يمتلك سيارة وفيلا وتليفزيون ملون وأشياء أخرى لا داعي لذكرها، عبد الونيس فكر في السفر لكنه لم يعثر على العمل المناسب.

بذلك كانت تثرثر السيدة البدينة، وتحكي عن أحداث لم تكن ومشاريع لم يفكـر فيهـا أحد، وحين ادعت السيدة أن شقيقها ما زال يعيش في باريس لم يتمالك عبد الـونيس نفسـه، أفلتت من أنفه "خنفرة" مقطوعة توحي بضحكة مكتومة، جاهد في إخفائها لكنه لم ينجح، ذلـك أن السيدة ليس لها أشقاء على الإطلاق كما يعرف عبد الونيس، وحين التفتت السـيدة البدينـة إلى عبد الونيس وجدته قد أخرج منديله وتمخط. ثم قال في نبرة اعتذار:

ــ عفوا.. يبدو أنني أصبت بالزكام.

كانت العبارة موفقة إلى حد كبير، ذلك أن السيدة لم تلاحظ أنه كاد يسخر منها ومـن أكاذيبها المكشوفة أمام ضيف تتعرف إليه لأول مرة، ومن جديد تمـادت السـيدة فـي نسـج حكاياتها الزائفة دون مقاطعة من أحد.

في طريق العودة إلى البيت، وبينما السيدة تجلس في المقعد الأمامي تصادف أن تلكـأ عابر سبيل في خطواته أمام السيارة فقال الدرمللي في تأفف:

ــ كأنه مسطول، يتطوح من اليمين إلى الشمال، لولا أن فرامل السيارة بحالة جيـدة لسقط تحت العجلات.

وبسرعة راحت نادرة تعبر عن سخطها على كل مشاة الدنيا، بدا لمن يسمع حـديثها وكأنها صاحبة سيارة تعاني بشكل خاص من السائرين على أقدامهم، نسيت تماما مـا كانـت تصرح به لعبد الونيس من سخافات أصحاب السيارات واستخفافهم بخلق الله، تحـدثت بلغـة مختلفة، حتى عندما ذكرها عبد الونيس بالحقيقة:

ــ ولكننا لا نملك سيارة يا نادرة.

ــ لا تملك سيارة!، أنت الذي لا تملك سيارة، كل أولاد أعمامي عندهم سيارات وهـم يعانون من مشاكل العابرين، أنت يا عبد الونيس الوحيد الذي لا تملك سـيارة، وهـذه هـي مشكلتك وعليك أن تقوم بحلها.

بذلك كانت تتكلم السيدة وقد توترت ملامحها وتهدج صوتها بينما عبد الونيس سـاكت وعادل يتسمع ولا يعلق بشيء، كانت لحظات الترف المؤقت قد جعلتها تنسى ما يحيط بها من صعاب، لكنه عندما سألها عادل في أدب قائلا:

ــ والآن، إلى أين أتجه يا سيدتي؟ نحن في ميدان الدقي.

قالت وكأنها تقر وتعترف بواقعها الحزين:

ــ سوف تستمر في المسير إلى الأمام، حتى بولاق الدكرور، هناك مزلقـان، إذا لـم تكن تخاف على سيارتك أعبره، بعدها تجد شارعا عريضا يتفرع منه شارع غير مرصـوف، الحارة الخامسة على اليمين، أغلب سائقي التاكسيات يرفضون الدخول بسياراتهم.

ــ لكنني سأقوم بتوصيلكم كما تعهدت مهما صادفت من صعاب.

بذلك أجاب الدرمللي وقد أشفق عليها وعلى صديقه القديم الذي لم يتمكن بعد من تحسين ظروف حياته ما دام يسكن في بولاق الدكرور.

في حجرة الصالون المتواضعة جلس عادل وعبد الونيس ونادرة، كان عادل قد ركن سيارته في الشارع الكبير ورافقهم على قدميه عبر الشوارع غير المرصوفة والأزقة الضيقة التي لا تسمح بمرور سيارته من خلالها، وكانت أكواب الشاي محطوطة، والصمت مخيم فلا حديث، كانت لحظات الشموخ والتباهي التي عاشتها السيدة قد انتهت وجاءت إلى عالمها الحقيقي البائس، وكان الخجل الذي عاشه عبد الونيس من تصرفاتها قد تبخر تماما بعد أن توصل إلى تبرير لأكاذيبها مؤداه أنها كانت تحلم أو على الأقل تدفع عن نفسها تهمة الحاجة والعوز بافتعال الكبرياء والشموخ، وكان عادل قد انحط في الموقف، وتحير كيف يتكلم مع هذين الجريحين بتلبية الدعوة العابرة لشرب الشاي رغم يقين كان يدركه أن كشف بؤسهما كان على قيد خطوات عبر الأزقة والشوارع الضيقة، وعلى هذا النحو فات وقت طويل لم يتبادل خلاله الرجلان والسيدة أية عبارة حوار حتى بردت أكواب الشاي فأخذتها السيدة من أمامهم وتركتهما يواجهان ما صار إليه الحال خلال تلك السنوات الطوال التي لم يعرف فيها أحدهما أخبار الآخر.

(الفيصل ــ فبراير 1983)

*

الزائرة

*

دقت الباب بعنف في صباح باكر، فرحت أفتحه لأراها لأول مرة، كانت تبتسم في ألفة وهي تلقي تحية الصباح، كانت تحمل على الرأس سلة كبيرة وثوبها الريفي يستر قوامها الممشوق العفي، سألتني إن كان المسكن يخص اسمي الذي ذكرته ثلاثيا فأومأت بالإيجاب أزاحتني في ود عن طريقها ودخلت باطمئنان، التفتت نحوي وهي في منتصف الصالة ثم قالت بعشم:

ــ حططني.

مددت يدي أساعدها في إنزال حملها الثقيل أكثر مما كنت أتوقع، جلست هي على أرضية الصالة وسألتني عن الأحوال، جاءت زوجتي تستطلع الأمر، كانت هي تعبث بغطاء السلة المحكم التحبيش بخيوط الدوبارة في محاولة لفكه، نظرت نحو زوجتي وابتسمت وهي تلقي تحية الصباح ردت زوجتي عليها ثم التفتت نحوي، وكأنما تسألني عن هوية الزائرة الغريبة في مثل هذا الوقت المبكر، قالت هي بينما تفلت طرف الخيط من محيط السلة:

ــ يمكن هو ما يخدشي باله بس إحنا قرايب.

ــ أهلا وسهلا.

قالتها زوجتي وهي تقترب منها وتحاول أن تساعدها في تخليص الخيط من غطاء السلة، كان في السلة خبز وسمن وعسل وفطير ساخن وطيور محمرة تفوح رائحتها، وبيسر شديد أشارت هي على زوجتي بإفراغ الزيارة في الأماكن المناسبة وكأنها تعيش معنا وتعرف ما نملكه من آنية وأطباق وأماكن حفظ المأكولات. كان إفطارا شهيا وهي تحدثني عن أبي وأعمامي وجدي، وتذكر لي أسماء من أعرفهم من عائلتي ومن لا أعرفهم فيتأكد لدي أنها ابنة لواحد من تلك الأسماء التي تذكرها.

كانت تختار مواعيد الزيارة بشكل يدعو إلى الدهشة، ذلك أنها كانت تأتي في الأيام العصيبة التي نواجه فيها بالمطالب ونعجز عن التصرف، كانت زياراتها التي تحملها تخفف الأعباء عنا لكنها لم تشعر على أي نحو بأنها أعطت، كنت أشعر بالحرج لأنني أعجز في كل

مرة عن توفير شيء معقول أكلف زوجتي بوضعه في سلتها التي تحملها في كل مرة خالية إلا من أوانيها الفارغة. وحتى عندما كنت ألح عليها لتقبل مني القيام بتوصيلها إلى محطة القطار كانت ترفض في إصرار وهي تبتسم وكأنها في حقيقة الأمر تغفر وتسامح، ثم تهمس:

ــ هو أنا ح أتوه؟ يكون في عونك ع اللي أنت فيه.

أتحير في أمرها، أشعر بعجزي عن الرد بكلام مناسب، فتخرج هي من المكان بخفة، وكأنها نسمة رقيقة أو طيف هادئ ينسل خلسة، دون أن يثير أدنى قدر من الإحــراج، وأثــر خروجها كنت أجلس صامتا للحظات، قبل أن تأتي زوجتي، وتسألني عن درجة قرابتنا فأجيب في كل مرة بأنني لا أعرف على وجه اليقين، كل ما أشعر به أنها من دمي بحق، وأنها أقرب إلي من أشقائي وأعمامي، ليس لأنها تعينني على البقاء وسط الخلق مستورا فقط وإنما أيضــا لأنها تشعر بحالي، وتأتي في اللحظات الحرجة. كانت زوجتي تعود وتسألني عن عائلتي التي لم تتعرف على أحد منها غير تلك الزائرة فأحدثها بما كان يقوله أبي عنهم من أنهــم كثــار، وإنهم يتشعبون في كل البلدان وأن مشاغل الحياة تلهيهم وتقطع ما بينهم مــن أواصــر الــود والألفة، أحكي لها من جديد أننا أبناء الفرع الفقير الذي نهب الآخرون حقوقه بحيل لا أعرفها وإن كنت أعرف نتائجها المؤسفة من عجز، واحتياج، لا يبدو أنه سوف ينتهي.

وحتى عندما سألتها بشكل مباشر عن اسم أبيها لأميزه من بين الأسماء الكثيرة التــي كانت تتحدث عنها، غيرت الموضوع، وراحت تحكي حكاية عن ابن الجعلدي الذي لــم يكــن يمتلك من زمام أرض البلد قيراطا أو حتى سهما والذي لم يتعلم حرفا أو صنعة لكنــه خــلال السنوات العشر الأخيرة قفز إلى مركز الصدارة وامتلك مطحنا، ومزرعة للعجــول ومــنحلا كبيرا وبنى دارا بالمسلح، وركب سيارة طويلة وسور أرضا من أملاك عائلتنا حولهــا إلــى حديقة تفاح، وأنه أيضا يؤجر للفلاحين آلات الحصاد والحرث بالساعة ويلعب بآلاف الجنيهات في سوق المواشي، وعندما أبديت دهشتي قالت: إن البلد انقلب ميزانها وأن عاليهــا أصــبح واطيها، وواطيها صار عاليها بقدرة قادر.. فازدادت دهشتي ودهشة زوجتي أيضا وقلنــا: إن الله حر في تصريف أمور الدنيا يعطي من يشاء ويمنع عمن يشاء من عباده. وعندما حمــت بأسئلتي عن اسم أبيها، ودرجة القرابة بيننا ضحكت وحدثتني بكلام سمعته قبلا من أبي عــن أجدادي، وأجداد أجدادي ممن كانوا ملاكا لزمام البلد وظللت أتسمع في غير اهتمــام وأقــول لنفسي: إن في الأمر خدعة وإنه احتمال قائم أن يكون كلامها المتوافق مع ما سبق أن حــدثني به أبي محض أوهام لا أساس لها من الصحة بثها في خيالي بينما كنت طفلا، وتواصل هــي نفس المهمة، بعد أن صرت رجلا مسئولا عن بيت وأطفال، لكنني لم أكن على وعــي كــاف لتفسير الهدف من ذلك الخداع الذي يتجدد، والذي يجاهد أن ينفي ما كــان قــد ترســب فــي مشاعري خلال تلك السنوات الأخيرة من أنني في حقيقة الأمر مقطوع من شجرة.

قلت لزوجتي فلنواجه الحياة بشجاعة ودون الاعتماد على أحد، كنت متحمسا لأن فكرة سيطرت على عقلي مؤداها أنني بالفعل أبذل كل طاقتي في العمل، وإنه من العدل أن يكـون المقابل متناسبا مع جهدي المبذول وأنه آن الأوان لأطالب رسميا بحقي في ميراث أجدادي عن طريق القضاء، ما دام أبي قد فاته أن يطالب بهذا الحق لخوفه من الدخول في صراع مع من نهبوا حقوقنا وسلبوها، وقلت لنفسي إن الزائرة الغريبة تأتي إلينا بتلك الزيارات لتلهينـا عـن حقوقنا وأنه احتمال قائم أن تكون هي نفسها أما أو أختا أو ربما زوجة لواحد مـن مغتصـبي الحقوق، ولذلك أفهمت زوجتي أنه لو تصادف وجاءت بزيارة من البلد فعليها أن ترفضها في حزم وأن تطلب منها حملها والعودة بها من حيث جاءت.

كانت زوجتي تعترض على فكرتي لولا أنني كنت حاسما في أوامري ومصرا علـى تنفيذها بالحرف الواحد، قلت لزوجتي في لحظة صفاء إنه مهما كانت درجة القرابة بيننا، فإنه لا يحق لها أن تأتي بأشيائها دون مقابل وأننا في زمان يبخل فيه الأخ على أخيه بمسـاعدة لا ترد، أو حتى زيارة خالصة لوجه الله، قلت لها: إننا نعيش زمان الأفراد الدائر كل منهم فـي فلك حياته وإنه من غير المألوف أن نأخذ في كل مرة ولا نرد شيئا، ومهما جاهدت أن تبـدي عدم الاهتمام بسلوكنا المشين، فلا بد أنها بينما تهبط السلم، في كل مرة، حاملة سلتها الخاويـة تشتمنا في سرها وتتهمنا بالتنطع والنذالة وخسة الأصل وربما تتندر علينا، وتسخر من فقرنا، ومن يدري إن كانت لا تذهب إليهم في البلد وتكشف أسرارنا، وتسرد على مسامعهم تفاصـيل حياتنا البائسة، وعلى هذا النحو كنت أتحدث مع زوجتي، فزادت قناعتها بفكرتـي، وفرحـت لحماسي، وطالبتني باتخاذ ما يلزم من خطوات، لرفع قضية الميراث فأكدت لهـا أننـي لـن أتقاعس بعد اليوم لأن المسألة أخطر من أن تحتمل مزيدا من التأجيل.

جاءتنا في منتصف الليل تماما، أدهشني أنها لم تكن تحمل سلتها كما كان الحال فـي السابق، حدثتني عن ابن عم لي يعيش في نفس المدينة ولا أراه، سألتني عن سر انقطاعي عنه فقلت لها إنني زرته منذ سبع سنوات ووعدني برد الزيارة، لكنه لم يأت رغم حرصـه علـى كتابة العنوان وأني عدت لأزوره بعد ذلك بثلاث سنوات ووعدني هـذه المـرة أيضـا بـرد الزيارة، لكنه لم يأت أيضا رغم أنه كتب العنوان وطواه وحطه في جيبه، هزت رأسها أسـفا، وغيرت موضوع الحديث، سألتني عن الأحوال فقلت لها أنها مستورة، قامت مـن جلسـتها، وأفهمتني أنها سوف ترحل، قلت لها وأيدتني زوجتي بأنه لا يصح أن تخرج في مثـل هـذه الساعة وحدها، لكنها أصرت، قلت لها إنني سوف أرتدي ثيابي وأقوم بتوصيلها إلـى حيـث تشاء، فقالت إنها جاءت وحدها وأنها لا بد أن تذهب وحدها، أغرتها زوجتي بالبقـاء بشـتى الوسائل. لكنها كانت قد أصرت، وبعسر رضيت أن أخرج معها إلى الشارع ثم أشارت لسيارة أجرة، وطالبت السائق أن يذهب بها إلى ميدان رمسيس، وطالبتني أن أعود لأولادي، لوحـت

لها مودعا ومتعجبا من أمرها ثم عدت إلى زوجتي وظللنا طوال الليل نتحدث عن سر زيارتها لنا هذه المرة بغير سلتها، كانت الشكوك قد ساورتني في أن تكون زوجتي قد أبلغتها بما دار بيننا من حديث، حول عدم قبول أشيائها، وعندما فاتحت زوجتي في شكوكي صرخت في فزع وضربت براحة يدها اليمنى، في عنف تسبب في إيقاظ الولد وبالبنت من نومهما في الحجرة المجاورة، هدأتها ببضع كلمات بينما راحت تبكي ويصرخ الولد والبنت في الحجرة الأخرى.

في زحام الأتوبيس كان الولد الفحل بجواري، يزيحني بكوعه المغروس في صدري بعنف لا أحتمله، كانت يده الخالية تندس في جيب جاره من الناحية الأخرى في ذات اللحظة التي استدرت إليه بغرض إفهامه أن كوعه يؤلمني وأنه من الأجدى إبعاده عني. رأيت يده الأخرى تخرج بحافظة جاره من الناحية الأخرى، وهو في غفلة من أمره، رأيت الحافظة تتحرك، وتتناولها يد لا أعرف صاحبها ، تذكرت تلك الحادثة الشهيرة التي حذر فيها رجل في زحمة الترام جاره من لص كان يتحسس جيبه، فما كان من اللص إلا أن استل مديته وانهال بها ضربا في صدر ووجه من حذر المسروق، كان مع اللص أعوان لم يحسب حسابهم في لحظة المباغتة، حاصروه وعوقوا حركته حتى تمكن الضارب من الفرار بينما الترام يجري، سال الدم وبدأ للخلق أن علاج الأمر سيكون سهلا، لكن الأمر تعقد يومها، وسقط الرجل قتيلا وسط جمع حائر وعاجز عن الاستدلال على هوية الفاعل، أو فرز أي من أعوانه المندسين وسط الزحام، قلت لنفسي عن غير اقتناع كامل، أن الأمر لا يعنيني على أية حال، وأن على كل واحد في هذه المدينة أن يحرس جيبه، كانت في جيبي عريضة الدعوى وبضع جنيهات تكفينا بالكاد حتى يوم صرف المرتبات، وضعت يدي على جيب سترتي أحرسه، لكن اللص لم يشأ أن يتركني في حالي، امتدت يده من أسفل وشعرت بأنامله تزيح يدي التي تحرس، التقت نظراتنا في لحظة، كان يعرف أنني أعرف وأعرف أنه يعرف أنني أعرف، لكنه أفلح في نفس اللحظة أن يداري موقفه تماما، تقمص ببراعة وجه ضحية حقيقية، صرخ وهو يلتفت حواليه مستغيثا بالزحام بينما يواجهني:

ـــ شيل إيدك يا حرامي يا ابن الكلب.

التفت الركاب نحوي بعيون تتهم وتدين، ربما لأن الولد الفحل كان بارعا في تمثيل الدور إلى الحد الذي جعلني أتشكك في أمر نفسي، أقول أنه من الممكن أن يدس لي في أحد جيوبي حافظة سلبها قبلا ليدلل لحظة التفتيش على قيامي بالسرقة، وجدتني محاصرا بالنظرات واستغاثات الولد الفحل التي تتكرر، ارتعشت أطرافي وتلعثمت، فجرني الولد الفحل من طوقي نحو الباب الخلفي، كنت أتخوف أن تحاصرني عصابة الولد الفحل في عرض الطريق، وربما ذبحوني وفروا، كنت أمسك بقشيب معدني في سقف الأتوبيس قريبا من الباب، لكنني ودون إرادة محسوبة تراخت راحتي، وطاوعت اليد القابضة على طوقي، علني خفت

من اكتشاف المسلوبين ضياع أشيائهم وربما أمسكوا هم بتلابيبي، ويكون نهاري أسود، غيـــر أن الأمر جرى على هذا النحو على أية حال، وجدتني مجرورا أسقط على وجهي فوق أسفلت الشارع بينما السيارة تجري، داستني أقدام وصفعتني الأرض الخشنة، وبمساعدة وجوه لم أكن قادرا على تبين تفاصيلها قمت واستندت على الطوار لاكتشف أنني سلبت كرامتـــي ونقـــودي وعريضة الدعوى في قضيتي القديمة، وفقدت أيضا مقدرتي على فهم ما صار يدور حولي من وقاحات اللصوص المهرة؟

في البيت، أحاطوني، زوجتي والأطفال، وتلك الزائرة التي تدعي قرابتـــي ضـــمدوا جرحي وأصلحوا حالي، وسألوني فقلت لهم ما كان من أمر الولد الفحل المتبجح، فهونوا علي الأمر وباركوا لي عودتي بالسلامة، فكرت هي للحظة وسألت نفسها:

ــ يكونشي واحد من ولاد الجعلدي؟

بعدها ضحكت في مرارة وقالت بينما تهز رأسها:

ــ تكلم اللي مش عارفه إيه تلهيك واللي فيها تجيبه فيك.. عجايب.

في لحظة من لحظات الوعي الحاد تبينت أن الزائرة الغريبة ليست غريبة عني علـــى أي نحو وأنها أقرب إلي من حبل الوريد، وأنني منذ أدركت تفسيرا للعالم من حولي، واخترت شكل حياتي أعرفها، وأستلهمها في كل ما أقوم به من جهود، وأن الوجه المـــألوف بـــدا لـــي غريبا من كثرة التحديق في تفاصيله عبر السنوات، لحظتها قررت أن ألقاها بالترحاب اللائق، أن أفتح صدري لها. وأكاشفها بكل ما يدور في خيالي من أفكار، أطمأن قلبي وأنا أســـترجع ملامح وجه أمي وأختي وطفلتي، فأكتشف أن عوامل الوراثة قد أدت دورها على أكمل وجه، في فرعنا المسلوب، أكثر من أي فرع آخر.

* * *

في تلك الأمسية العصيبة، تذكرت ما قصه علاء عن الرجل الذي حمل طفله الميـــت بين ذراعيه إلى المقابر ليدفنه، سعى إليه اللحاد وطالبه بأجر فتح قبر لا يملكه، أسلم الرجـــل جثمان طفله لحارس القبور وتظاهر بأنه سوف يدفع ثم أسلم ساقيه للريح فرارا، تذكرت تلـــك الحكاية الحزينة، وبكيت عجزي وعجز الرجل، كانت طفلتي الصغيرة تموت أمـــامي. وأنـــا أتلفت حولي بحثا عن شيء يباع في منتصف الليل، فلا أجد غير الفـــراش البـــائس، وأكـــوام الكتب والأثاث القديم، كنت مفلسا إلى حد مؤسف، كنت أسترجع وجوه الأصدقاء القادرين على مساعدتي فتزوغ الملامح وتغيب الأسماء وتتداخل العناوين، يتبخر كل أمل وسط ربكة اللحظة السخيفة التي أعد نفسي فيها لاحتمالات حملها على المقابر لألتقي بلحاد آخر يطـــالبني بـــأجر فتح قبر لا أملكه فأسلمه الجسد الضئيل وأجري فرارا، اقتربت من الطفلة وعيناي تســـتجديان

روحها البقاء، كانت عيناها تستجديان علاجا لا أعرف كم يتكلف، ولا أملك أن أدفعه، كنت أنكمش حول نفسي خزيا ومهانة، وددت لو اختفى من العالم ولا أكون، ضربت رأسي في الجدار بعنف، ضربات محمومة غاضبة تهاويت في أثرها، وغبت عن الوعي بالأشياء، لكنني لا أدري متى ولا كيف أفقت لأسمع صوتها الودود المألوف أكثر من أي مرة أخرى، كانت تهمس بينما تتحسس رأسي الجريح.

ــ فوق لروحك.. البنت فاقت خلاص.

فتحت عيني لأراها تبتسم في حنو، والطفلة بين يديها تعافر بأناملها الدقيقة، تتحسس وجهي فتسبب لي ألما رقيقا ناعما يوشك أن يكون ارتياحا واغتسالا من كل سخافات العالم، اختطفت طفلتي ودفنتها في صدري كيانا حيا نابضا يشيع في أطرافي وأعماقي رغبة البقاء، كانت هي تبتسم، وعيناها تدمعان بينما يقف ابن عمي الذي انقطعت عني أخباره خلال السنوات الأخيرة بجوارها، ابتسمت واطمأن قلبي وحلمت بعودة أواصر الود والألفة بين أبناء فرعنا الفقير فلعلنا نفلح في استعادة ميراثنا الشرعي الذي سلبوه من الآباء.

*

فارس

*

كنت قد حملت أوراق تعييني في تلك الشركة العالمية حسنة السمعة، وكنت أشعر بالزهو لأنني حصلت على تلك الوظيفة الخطيرة بها، ذلك أن الراتب كان ضعف أضعاف ما تمنحه الشركات الأخرى المنافسة لشركتنا، هنأني موظف العلاقات العامة بنجاحي وطلب مني تسليم الأوراق لكاتب المستخدمين، أجهد عقله في محاولة أن يتذكر اسمه ثم همهم:

ـ أظن اسمه فارس أو محارب أو شيء من هذا القبيل، لا يهم، سوف تعثر عليه في الطابق التاسع بيسر.

ومرة أخرى شد على يدي في ترحيب وحماس بينما أدخل باب المصعد الكهربائي. كنت محاطا بوجوه مشرقة متوردة وإن بدت لي شديدة التحفظ إلى حد جعلني أتردد في سؤال أي منهم عن كاتب المستخدمين في الطابق التاسع من البناء، حتى عامل المصعد بدا لي شديد التأنق والزهو، اكتفيت بتحديد الطابق مثلما فعل الآخرون، في الطابق التاسع قال عامل المصعد بشيء من الحدة والتأفف:

ـ التاسع..

كنت الوحيد الذي خرج من بينهم. بدا لي أنهم كانوا يشيعونني بنظرة استنكار مستخف مما جعلني أراجع هندامي في المرآة الكبيرة في مواجهة باب المصعد، كان موظف الأمن يجلس إلى مكتبه متحفزا لسؤال عن وجهتي فذهبت بنفسي أسأله عن السيد/ فارس كاتب المستخدمين فأنكر بشدة وجود شخص يحمل هذا الاسم في كل المبنى فابتسمت معتذرا وقلت له احتمال قائم أن يكون اسمه محاربا فضحك في استنكار مستخف وقال إنني لا بد أقصد أضاحكه بهذه الأسماء الغريبة ثم سألني عن مطلبي من دخول المبنى أصلا فأوضحت له أنني عينت حديثا في تلك الشركة وأنني جهزت مسوغات تعييني وجئت لتسليمها للسيد المسئول عن المستخدمين الجدد فهز رأسه علامة الاطمئنان ثم مد يده وصافحني بحرارة وأخذني في أحضانه وقبلني بضع قبلات فبادلته القبلات تأدبا واحتراما، مد يده وأخذ المظروف الذي يحتوي على مسوغات تعييني وهو يهمس في ثقة جعلتني أشعر بالقلق.

ـ لو سمحت..

كان المظروف قد انتقل إلى يده بالفعل وكان هو قد بدأ فحص أوراقي على مهل بينما يجلس على الكرسي الوحيد ويتركني واقفا مكاني، هز رأسه أكثر من مرة علامة الاطمئنان ثم رفع عينيه وتفحصني ثم قال في غلظة:

ــ إذن فأنت من طرف عبد السميع بك..

أسقط في يدي، ذلك عبد السميع بك كان بالفعل قد أوصى مدير الفرع ليختارني ضمن المقبولين للعمل بالشركة، قلت لنفسي إن الإنكار قد يثيره ضدي لكن الاعتراف قد يكشف أسرار لجنة الامتحان التي منحتني الفرصة من بين كل من تقدموا لشغل الوظيفة، فضلت السكوت، خبط بسبابته بضع خبطات رتيبة على المكتب ثم همس في تعاطف:

ــ عبد السميع بك له أفضال كثيرة على عشرات العاملين بهذه الشركة، أنا نفسي لي علاقة به فلا تهتم وصارحني بالحقيقة.

فضلت السكوت وتحيرت في أمر نفسي فقام ودس أوراقي في مظروفها ثم ربت على كتفي في حنو وتعاطف وأشار بيده إلى مدخل في آخر الممر دون أن ينطق حرفا، سرت إلى حيث أشار. في المدخل صادفت امرأة سمينة ترتكز على البلاط وتمسح الأرض الممسوحة بفوطة وجه نظيفة، ابتعدت عن الدائرة التي تقوم بمسحها وسرت في الممر الضيق، في مواجهته رأيت مكتبا وحيدا يجلس إليه رجل تخطى الأربعين، أبرز ما فيه عينان سوداوان تبرقان ببريق مستطلع حنون وصلعة كبيرة تضفي عليه وقارة وهيبة، كان يتحسس صلعته من آن لآخر وكأنه يخجل منها على نحو لم أفهم أسبابه، مددت يدي إليه بالمظروف وسألته إن كان هو المختص باستلام الأوراق فأومأ بالإيجاب وأشار إلى مقعد أمام مكتبه لأجلس، فحص أوراقي وقام من مقعده، أحضر ملفا جديدا من ملفات الشركة وأرفق به أوراق تعييني ثم وضع على غلاف الملف رقما، ووضع الملف في درج مكتبه ثم ابتسم في تعاطف وهمس:

ــ مبروك..

شكرته على حسن مقابلته وسألته عن بقية الإجراءات فأفهمني أن كل الإجراءات قد استكملت بوضع أوراقي الملف، سألته عن القسم الذي سوف ألتحق به فابتسم وهز رأسه نفيا ثم همس:

ــ أنتم جيل متعجل، يلزم أولا أن تتدرب على العمل، وقبل أن يتحدد القسم الذي تلتحق به يجب أن نتأكد من قدراتك، ميولك، استعداداتك، سوف تبقى معي فترة من الزمن نتكلم سويا خلال الساعات المحددة للعمل، سوف نتبادل الآراء في كل شيء وأي شيء لنعرف قدراتك الحقيقية ومواهبك الكامنة، لا تتعجب، إنها شركة عالمية كبيرة رأسمالها سمعتها الرنانة وأهم ما يحرص عليه أصحابها هو إسعاد من يعملون بها، كل ما هو مطلوب منك الآن هو البقاء معي لعام كامل أو عامين أو حتى عشر سنوات فسوف تصرف راتبك الشهري في مواعيده بانتظام، إنما لا تتعجل استلام العمل في أي قسم قد يظهر في المستقبل أنه لا يناسبك، إن ما يهم الشركة هو وضع الإنسان في مكانه الصحيح، هل تفهمني، وضع الإنسان في مكانه الصحيح.

شعرت بارتياح واطمأن قلبي لاحتمال البقاء مع الرجل دون عمل حقيقي، أبديت له سعادتي بلقائه فأفهمني أنه هو الآخر سعيد بلقائي وحدثني عن وحدته في هذا المكان لسنوات طويلة دون أن يتعامل مع زميل أو زميلة أو يجد في حقيقة الأمر عملا يضيع فيه وقته وكيف أنه كان يأتي في الصباح كل يوم إلى نفس هذا المكتب ويجلس في انتظار الأوامر التي لا تصدر أبدا، ذلك أنهم تركوه وطالبوه فقط بالمجيء في مواعيد العمل الرسمية وسمحوا له بشرب الشاي والقهوة والمياه الغازية على حساب الشركة، لكنهم حذروه من مخالطة الآخرين أو الثرثرة مع عامل المصعد أو موظف الأمن، وكيف أنه يحصل على علاواته وترقياته في مواعيدها وأحيانا قبل مواعيدها وأن التقارير المكتوبة عنه تشهد بامتيازه طوال تلك السنوات، هز رأسه ثم قال في حسرة:

ــ أن تعيش لسنوات طوال بلا مسئولية، أن تفقد الرغبة في العمل وتسكن إلى الكسل أن تتكثف وحدتك طوال ساعات العمل وتجهل في نفس الوقت أنشطة الآخرين من الزملاء الذين تلتقي بهم صدفة في المصعد أو عند مدخل العمارة أو أحد ممراتها، تتبادل معهم النظرات دون حوار منطوق، أن تبدو لهم غامضا ردا على ما يبدو عليهم من سمات الغموض، وتتكرر اللقاءات وتتباعد المسافات النفسية بينك وبينهم وتقنع نفسك لحظة بأنك ارتحت منهم وأنه من الأفضل أن يعيش الإنسان وحيدا حتى لا يدخل في مشاكل مع الآخرين، كل ذلك دار في ذهني وأقنعت نفسي بأنني قادر على احتماله حتى التقيت مصادفة به، أقصد عبد السميع بك وهو صاحب الفضل الأول في تعييني بهذه الشركة، التقيت به مصادفة فرحت أشكي له حالي فابتسم ووعدني بحل كل مشكلاتي بعد أيام قلائل، ويبدو أنه لم يخلف وعده، ذلك أنه كان واسطتك لمدير الفرع فاختارك رغم عدم تميزك بشيء عن عشرات ممن تقدموا لنفس الوظيفة، وقد طالب رئيس الفرع بأن تشاركني وحدتي فهل لديك مانع؟

تململت في مقعدي وتحيرت بماذا أجيب لكنه أعفاني من الرد واسترسل:

ــ اعتبر نفسك في أجازة إجبارية بمرتب، تعلم الكسل واركن إليه، ليس من الضروري أن تتعجل استلام العمل فالعمل مسئولية وأنت كسول بطبعك، كل إنسان في هذا العالم عنده استعداد لممارسة الكسل، والكسل قابل للنقصان والزيادة بحسب ما يريده الإنسان لنفسه، أنت مثلا يمكنك أن ترفض الكسل الكامل، ترضى بنصف كسل أو ربع كسل، إنما لابد أنك مستعد لممارسته في البيت أو الشارع أو المقهى أو حتى في الأحلام، والفارق بين الكسول وقليل الكسل هو في مدى تقبل الواحد منهم لفترة استمرار هذا الكسل، بمعنى أوضح هناك إنسان يقاوم رغبته في التكاسل وآخر يسعى لتزويد هذه الرغبة على حد الهوس فيصبح كسلانا في كل شيء. يأكل بكسل، ينام بكسل، ولا يعمل إلا بكسل شديد ويصادق الناس بكسل ويحبهم أيضا بكسل، أنت تختار في نهاية الأمر طريقك، وسوف ترتاح في حياتك عندما

تعرف مكانك بالضبط بين طوابير الكسالى ومن هم على استعداد حقيقي للعمل والنشاط، فرصتك الذهبية أمامك، الملف الذي به أوراقك يحمل رقما عليك أن تحفظه لأنك سوف تحتاجه في كل شيء، يكفي أن تذكره لموظف الأمن ليفسح لك الطريق، أن تذكره لعامل المصعد فيتولى هو إنزالك في الطابق المخصص لك، وتذكره أيضا لموظف الخزينة فيصرف لك راتبك دون أي خطأ في الحساب هذا إن شئت الاحتفاظ بالرقم دون الاسم، لقد قدم لك عبد السميع بك فرصة العمر وعليك أن تختار اسمك أو رقمك، لو كنت مصرا على تسجيل اسمك فعليك أن تسحب أوراقك من ملف الرقم لتضعه بنفسك في ملف الاسم، الملف جاهز على أية حال، كل ما هو مطلوب منك هو أن تسحب أوراق تعيينك وتضعها في المظروف الخالي وتخرج من هذا المبنى وأن تبحث من جديد عن شركة أخرى تقبلك باسمك ولا تضع على غلاف مسوغات تعيينك رقما ينسف الاسم ويقلل من أهميته. هيه ماذا قلت يا فارس؟

ابتسمت، شعرت أنني أدور في دوامة رهيبة من الأفكار المحيرة، كان الرجل قد تحول عني ببصره وراح يتابع في كسل مناطق التداخل على بلاط الحجرة الملون في انسياب ونعومة بين الأسود والرمادي، كان يمارس الكسل ويرفض أن يعاود الحديث معي فمددت يدي وفتحت درج مكتبه، أخذت أوراقي ووضعتها في المظروف الخالي دون أن يعترض أو يعلق على الأمر، كان يمارس الكسل بينما أهرب من المبنى في تعجل وقلق.

المحروس الثاني

*

طالت رقدته في صحن الدار، بدا أنه فقد القدرة على السمع أيضا فتمنى لـــه الـــبعض موتا يريحه، كانوا يسهرون الليل بطوله حول فراشه يندبون تاريخا من الصبوات والأفـــراح والعز القديم، عيناه المفتوحتان اللامعتان تطرفان وتنحطان على المدى البعيد كأنـــه يحصـــي النجوم أو يتتبع أشباحا غامضة تتحرك رغم ما أكده البعض من أنه فقد القدرة على الإبصـــار قبل رقدته الأخيرة، كان يتنفس بعسر ومن حوله الحكماء والأتباع والورثة عصر ذلك اليـــوم من "برمهات" عندما قال الحكيم الكبير وهو يرفع السماعة عن صدره:

ــ جهزوا الكفن، السر الإلهي طالع.

نهنه رجال وصوتت نسوة وتمرغ حفيد في فراغ المندرة الكبيرة، نبح كلب غريب عن الدرب فاستعاذ إبراهيم عوف من نجاسة إبليس، لكن نهيقا متتابعا لحمارة شكشه غطى علـــى كل الأصوات، أسرع الكلافون والأنفار إلى "الزريبة "وأوسعوها ضربا بالشعب والنبابيت لكنها واصلت النهيق بعناد أكثر. استغل المحروس الثاني لحظة صمت بين نهقتين واقتـــرح علـــى الجمع الحائر رأيا:

ــ تنضرب بالنار.

كان اقتراحه مربكا للجمع الملموم حول الرجل الكبير الراقد رقدة الموت، نهيق الحمار يفسد عليهم حزنهم وجلال لحظة طلوع الروح، لكنه لم يكن في مقدور أيهم أن يوافـــق علـــى ضرب النار في مثل هذه اللحظات ليزعج الروح الطالعة ويحرمهـــا مـــن الهـــدوء والســـلام اللازمين، وعندما أيقن المحروس أن أيهم لا يملك الحق في التعليق برأي قـــاطع فـــي كيفيـــة التعامل مع الحمارة تحسس سلاحه، رفع غطاء جرابه ثم أخرجه وبـــدأ فـــي حشـــو خزانتـــه بالرصاص، خطا خطوتان تجاه الزريبة قبل أن ينطلق صوت الحكيم الكبير مدويا في جنبـــات الدار:

ــ النبض وقف.

التفت المحروس نصف التفاتة وهو يحشو سلاحه ثم يزيح ترباس الأمان وأشار إلـــى الداخل حيث تصدر الحمارة صوتها دون أن يدري أيهم شيطان فـــاجر دفعهـــا لأن تواصـــل

النهيق إلى حد استفزاز المحروس ضدها في نفس اللحظة التي يفقد فيها أباه، وحتى عندما كفت الحمارة عن النهيق كان هو قد بدأ يخطو على مهل نحو الداخل وسلاحه مشرع في يده كفارس قديم يتهيأ لدخول معركة حاسمة، غير أن صوت زغرودة ممطوطة فرحة انطلق على غير توقع فاستدار المحروس على عقبيه مدهوشا، حط سلاحه في جرابه بحركة آلية غير محسوبة ونظر إلى المحروسة التي كانت مستمرة في وضع راحة كفها الملموم على شكل نصف دائرة فوق شفتها العليا لتحبك صوت الزغرودة، كانت تقعد على الأرض على مقربة من قدمي الجد عبد القادر التي تعرت أثر تغطية وجهه على عجل بجذب الحرام إلى أعلى بعدما أفتى الحكيم بتوقف نبضه، كانت المحروسة تزغرد وتشير بيدها الخالية نحو قدمي الرجل الراقد والمحروس الثاني يقترب منها ويجرها في غلظة من جلبابها حاسبا أنها فقدت عقلها ومتمنيا ذلك على نحو غامض، كان يجاهد بكل عزمه لتحريكها من المكان وكانت هي تعافر رفضا أن تنزاح من جنب الفراش فتمزق جلبابها وتعرى كتفها الأيمن وبان جزء من صدرها الضامر وسط دهشة الخلق العاجزين عن الفهم أو القدرة على التدخل بين شقيقين توأمين، لكن المحروسة أفلحت في تخليص ثوبها من قبضته ودارت بكفيها عريها المفاجئ ثم واجهته وبصقت في وجهه بجسارة وصرخت:

ــ إيدك يا أهبل، أبوك لسه صاحي، مش حا يموت السنة دي، بص لصوابع رجليه.

وعلى الفور تحولت كل النظرات إلى الجسد الممدد تحت حرام الصوف الذي لا يغطي القدمين، كانت أصابعهما بالفعل تتحرك حركة حية، تنثني الساقان وتنفردان عدة مرات حتى تفلحان في جذب طرف الحرام إلى أسفل وتستخدمانه كغطاء لهما بينما يتعرى الرأس قليلا ويتحرك بعد أن يصدر صوتا لحي يتمطى ويعلن رغبته في مواصلة النوم بغير إزعاج.

حدثهم إبراهيم عوف وهو الشقيق الأصغر لعبد القادر أن الأمر ليس خلافا على ميراث بين المحروس والمحروسة وأنه أيضا ليس مجرد محاولة منها لفرض سيطرتها عليه كما يشيع ويدعي ــ كانوا يعرفون أنها أكبر منه بساعات، ذلك أنها ولدت في أول الليل فأهملتها نسوة الدار وتكاسلن عن قطع خلاصها أو حتى تنظيفها ولفها في غطاء يحميها من رطوبة الجو مكتفيات بالتظاهر بالاهتمام بامرأة عبد القادر التي ظلت تنازع ليس لخيبة أملها بعد أن عرفت منهن أن ما وضعته لم يكن ولدا كما كن يتهامسن في الأركان خلسة شامتات فيها مدعيات أنها لن تنال مبتغاها وتلد لعبد القادر ولدا، كانت تتألم بالفعل حتى جاءها طلق جديد قبل طلوع الفجر بساعة وأطلت رأس المحروس ثم انزلق يبكي بصوت غليظ جامح وتنطلق على الفور زغاريد الفرح بأول مولود ذكر لعبد القادر عوف، كانوا يعرفون أن كبار النسوة من أولاد عوف أشرن على الرجل وامرأته بالاهتمام بالبنت حتى يعيش الولد، ويعرفون أن المحروس عرف الحكاية في صباه المبكر وظل يتعامل مع المحروسة على أنها

عاشت بفضل وجوده هو نفسه، وكيف شاع في ذلك الزمان القديم أن عبد القادر خلف ولــدين توأمين أسماهما المحروس الأول والمحروس الثاني ليكيد خصومه من أولاد شلبي الذين كانوا يدعون أنه عاجز عن إنجاب خلفه من الذكور رغم دعواه بالفحولة مثل بقيــة أولاد عــوف، ولعل أمه اختارت له هذه التسمية الجديدة لتحفظ نسله من عيون الحاسدين حتى انكشف أمــر المحروسة بعد تسع سنوات من مولدها وبعد أن كان عبد القادر نفسه في غير حاجة لادعــاء كاذب بأنها ولد لأنه ملأ الدار بخلفته التالية من الصبيان، يومها احتفظ المحروس الثاني باسمه وتحولت البنت إلى محروسة ــ كانوا يعرفون كل هذا ــ لكن ما قاله إبــراهيم عــوف كــان أخطر من ذلك بكثير فالمحروسة كانت وظلت تكره سيرة أولاد شلبي ونسل أولاد شلبي إلــى حد المقت المميت وترفض بإصرار وعناد فكرة أن تدخل دارهم امــرأة مــنهم وإن عشــقها المحروس وذاب بها وجدا، حتى لو كانت روحه فيها فهي لا تسمح بدخول صنف شلبي دربهم مهما كانت الأسباب، ذلك أن الدم الذي جف في مقابر أولاد عوف ما زال يطن فــي آذانهــا محذرا ومخوفا كما تؤكد في كل مناسبة، وهي تعرف أيضا أن الكراهية المصبوبة عليها ومــا يشاع عنها من افتراءات ليس لها مصدر إلا أولاد شلبي فهل ترضى على آخــر الزمــان أن تدخل امرأة منهن دربهم وهو ما كان مستحيلا يرجونه ــ منذ انحطت أقــدامهم فــي الكفــر وتنازعوا معهم ــ بلا سند إلا الزيف والضلال.

كان البعض من أولاد عوف قد سئم الأمر واستسلم لفكرة المحروس الثاني التي قالهــا عند بوابة الدرب:

ــ المحروسة كبرت وخرفت و ح تركب دماغكم، تمشيكم على هواها وتعترض على شرع الله، ومن أمتي بقى يا رجاله كان للحريم في العيلة رأي في جواز الرجالة وطلاقهم؟

كانت مشاعر الرجولة تنفجر وتتزايد عندما يسمعون مثل هذه العبارات، وكان الرجال يلاحظون أيضا أن المحروسة قد سيطرت بالفعل على عقول الحريم ذلك أن الحريم لم تكــن تكف عن الزن في أدمغة رجالهن، ربما خوفا من بنات شلبي وما يشاع في الكفر عن جمالهن وسحرهن وفجرهن أيضا، ربما لو حدث بحسب ما كانت تقول به النساء ودخلت واحدة منهن في الدرب يتسلل الرجال خلسة بحثا عن الشعر الهفهاف الذهبي والعيون الملونة، فالرجال من أولاد عوف عيونهم فارغة وعقولهم خفيفة مثل المحروس، تأرجح الرجال من أولاد عوف في تفسير الأمر إذن، حتى كانت تلك الليلة العصيبة من برمهات التي انكشف لهم فيها مــا كــان خافيا من أمر المحروس الذي اجتلب لهم حكماء جهلة لا يعرف أكبرهم الفارق بــين النــبض المستمر والمتوقف والذي انشغل في اللحظات العصيبة بحمارة تنهق ربما لتطرد شبح الموت المحوم حول بدن عبد القادر وأوشك على قتلها مثل خيل الحكومة في لحظة طلوع روح أبيــه التي تتطلب السكون والخشوع من أمة لا إله إلا الله، وحق للــبعض مــنهم أن يتنــدر علــى

المحروس لأنه تعجل موت الرجل على نحو مفضوح ليرث عنه الدار والدوار وعمادة الكفر مع أنه يعرف تماما أنه الوحيد الباقي من أبنائه الرجال وصدر الورثة على قيد الحياة، كان اسم أسرتهم الذي حملوه وتباهوا به مثلما فعل آباؤهم وأجدادهم من قبل قد أصبح في تلك الأيام عبئا يشقيهم وأمانة ترهق أكثرهم، ربما لأن الخلاف بين المحروس والمحروسة قد تحول إلى عداء معلن يشطر العائلة المشطورة ويمزقها أكثر من أي وقت مضى.

انتصف شهر برمودة فعاد الجد عبد القادر ليجلس على دكة النورج القديم متلفعا بعباءته مسنودا بذراعه اليسرى على شمروخ قديم له حطوه كمسند يتوازى مع المسند الأيمن لدكة النورج، طرف الشمروخ الأعلى نافذ في تجويف من تعاشيق الخشب وسعوه في ظهرها والطرف الآخر مغروس في حفرة بالأرض أسطوانية على مقاسه ربما صنعها ثقل الرجل أو حفرتها يد ليسكن فيها بعيدا عن مسند الدكة بمسافة متر ونصف المتر على وجه التقريب، كانت عيناه العسليتان المفتوحتان تتحركان في كل اتجاه أو تثبتان بتركيز لتنفيان في كل الحالات فساد تلك الدعوى بأنه ضرير، ومن جديد عاد الرجل إلى جلسته المألوفة ليكون محطا للأنظار ومحورا من محاور الحوار أقرب ما يكون إلى بؤرته، كان مألوفا أن يتجه إليه أولئك الآتين من المدن البعيد، يقصده الواحد منهم حيث يجلس، يتناول يده ويقبل ظهرها وربما يهمس ببضع كلمات تفصح عن هويته، اسم أبيه أو أمه ومكان عمله وعدد أبنائه، ولم يلحظ أي منهم أي تبدل ظاهر في تقاطيع الوجه، تحول الرجل على نحو غامض إلى ضريح يتنفس في صحن الدار يتحسسونه بالنظرات وبالأنامل ويخاطبونه رغم روحه الهائمة بعيدا عنهم، لم يجرؤ أي منهم مهما ارتفع مقامه أو زادت ثروته أو خلفته أن يدخل الدرب قبل أن يتجه إليه وكأنه يحصل منه على إذن الدخول، ولعلهم أدركوا في السنوات الأخيرة أنه برغم هيام روحه في عوالم بعيدة فإنها كانت قادرة أيضا على أن ترقب ما كان يدور في الكفر من أحداث؛ لأنه في كل أمر خطير كان يفجؤهم بتحريك لسانه الساكت ببضع كلمات تكون هي الفيصل في الموضوع، ومع أنهم كانوا يعرفون عنه قوة البأس والعنفوان والضراوة في مواجهة الخصوم والأتباع في زمانه الفائت إلا أن أكثرهم وعيا وإيمانا بعلمانية العالم صدق ما قالت به المحروسة من أنه تحول إلى ولي من أولياء الله الصالحين وأنه يخاطب في أمسياته الملائكة والأنبياء وأهل الخطوة ويتطاول عليهم بدلال عارف بالله متصل ومسنود على يقين في رضاه، أما جهامة الوجه الجليل التي تزايدت فقد فسرها إبراهيم عوف على أن روحه المحلقة لا تكف عن العراك مع أرواح الخصوم الذين نقلهم بضرباته إلى العالم الآخر؛ لأنها هي نفس تفاصيل الجهامة التي كانت ترتسم على محياه أيام صباه وفتوته أثر كل معركة دخلها على غير توقع من تلك المعارك التي تربصوا له فيها وأفلت منهم وعاد بزهوه وشموخ

نفسه وإن ارتسم على الوجه الجسور المنتصر مثل تلك الجهامة والكدر ربمـا كراهيـة منـه للغدر والتدني وخسة المتربصين من أولاد شلبي.

كانوا يتسمعون إلى مثل هذه الحكايات في حضرته بينما هو ساكت يهز الرأس ربمـا حسرة لأنه تحول إلى قعيد، وربما تأسيا على عصر الرجال الذي ولى، وربما اعتزازا يبعـث في النفوس شموخا وفخرا بما كان في الزمن الفائت يحفزهم لأن يصمدوا في وجـه الـزمن الجديد دفاعا عن نسلهم ومجدهم وعزوتهم.

عندما دخل المحروس الثاني من عتبة الدار ساد صمت، وقف الأتباع والأنفار وبعض الورثة، تأملته المحروسة مليا، كان يرتدي ثوبا زهريا وعباءة خضراء والرأس عـار، خطـا خطوتين نحو الرجل ثم توقف، أخذ يمينه وقبل ظهرها:

ــ فرحان لك يا با.. فرحان لقومتك.

قالها وأعاد اليد إلى مكانه في بطء، همست المحروسة من بين أسنانها:

ــ اللي يشوفه يا ولاد عوف يقول عريس داخل على عروسة من الناحية الثانية.

غمغم الرجال وهمهموا، زاموا ودمدموا ثم ساد صمت قطعته المحروسة وفي عينيهـا علامات ظفر وانتصار:

ــ الخلق بتقول إنه خد بنت شلبي وعقد عليها عند مأذون البندر وأنت راقد يا كبيـر، وبيقولوا أنه حاش لها دار في البندر وبيصرف عليها من خيرك يا سيد الرجال.

تلجلج المحروس واصفر وجهه، حار في أمر نفسه حتى تنحنح عبـد القـادر وقـال بصوته القوي الشامخ وعيناه مركزتان على المحروس من قمة رأسه إلى أسفل مداسه:

ــ عجايب إن كان عمل كده يبقى الولد ده خاب، ما يدخلش الدار ولا يمشـيش فـي مشهدي وإن رجع دربكم بعد موتي ينضرب بالنار.

تصالب المحروس الثاني وشمخ بأنفه في عنجهية لم تكن في طباعه بمثل هذا القـدر يوما، خطا خطوتين بظهره ثم استدار على عقبيه في رشاقة ، واجه باب الدار المفتوح علـى مصراعيه، لم طرف ثوبه الزهري وخطا في بطء، عبر عتبة الدار مع وحدة قلبـه القاسـية وكأنما يرفض بما تبقى لديه من عزم وإرادة أن يحمي الفرحة النابتة في قلبـه مـن المـوت المبكر، الذين رأوه من أولاد عوف في البندر بعد ذلك أكدوا أنه يعيش مع بنت شلبي التي وقع في هواها وانجرف إليها بفعل السحر والفتنة النادرة، والذين لم يشهدوه بأبصارهم يؤكدون أنها محض كذبة محبوكة من حريم أولاد عوف بإيعاز من المحروسة التي لم تعد تذكره بخيـر أو بشر وكأنما تنفي بذلك وجوده في عقول الناس.

الابتلاع

* ______

عيبك الخطير أنك تحول كل مآسيك إلى نكات تضحك عليها وتحاول إضحاك الخلق معك، أنا لست ضد الضحك طبعا، أنا ضد الضحك من غير سبب معقول، حكايتك مأساة بكل المقاييس أو هي على الأقل بوادر مأساة يلزم العمل على عدم وقوعها، سأوضح لك الأمر مستشهدا بكلامك أنت نفسك، ظاهر أي موضوع يختلف عن جوهره وسوف نسعى للوصول إلى الجوهر، الولد يكبر البنت بعامين وتسعة أشهر والبنت لم تكمل عامها الأول وتحتاج في هذه السن الحرجة قبل الفطام إلى غذاء كاف، لا يحق لك أن تقاطعني قبل أن أكمل كلامي، عيبنا هو عدم القدرة على الإصغاء الجيد لمن يتحدثون إلينا، المسألة ليست زمنا يستغرقه متحدث أطول أو أقصر من الآخر، يجب أن نفهم ما سبق وقلته لك قبلا من أن البعض عندهم كلام أكثر أهمية وجدوى وقد يحتاج إلى وقت أطول مما يحتاجه أولئك الذين ليست لديهم غير بعض التعليقات اللفظية العابرة التي تسعى إلى الإضحاك وإشاعة جو المرح المفتعل، هناك أيضا من يبرع في صياغة أفكاره في كلام مختصر يفي بالغرض ومن يعجز عن توصيل فكرة بسيطة مهما طالت ثرثرته، كل هذا تفريع هامشي للموضوع الأساسي الذي يلزم أن نعود إليه ونفسره.

لم يكن مثل هذا الكشف لغزا لأنك عشت مرارة الفقد منذ البداية، أعطيت لأنه لم يكن لديك غير الاستعداد الفطري للعطاء، وعندما أدركت أنك تعيش وحيدا في عراء العالم دون الاستناد على أحد فرحت لأنك لم تفعل معكوس ما فعلت ولأن اللعبة كانت قد تخللتك ولبستك وصارت مبرر بقائك الوحيد رغم أنه حدث أن كشر هو عن أنياب الوحش فيه واستباحك كما استباحهم. غير أن الجرح سكن في الأعماق الغويطة واستكان، وكلما ضاقت بك الدنيا كان يعل عليك فتستعيد تاريخا من النهب كنت فيه أول الضحايا.

ليلتها أدركت أن وجودك وسط الجمع خدعة فلا الوجه ضحاك ولا اللسان تدرب على الهدهدة والتملق، لم يكن غير الكدر على سحنة مضروبة بألف سوط في الزمن الفائت وميراث مسلوب لم تستند عليه فترنحت دوما، ومطالب الآخرين طوق في عنقك يصعب الخلاص منه، ليلتها لم تسهم معهم بالقرش الصعب في حفل المأكلة بعد المشربة فهون أكثرهم عليك الأمر وتسابقوا في التطوع باحتمالك، لكنك أحسست بسخف المتطفل عندما تسابقت مع أحدهم منتشيا على قطعة لحم مثلما فعل الآخرون فواجهك وبدا لك أنه يعايرك تصفية لحساب قديم، أعادك رغما عنك إلى ما فات من أمر استلابك وتأكد لديك ما كان مؤكدا وتناسيته في

زحمة الرغبة في الخروج إليهم من قوقعتك أنه من يمتلك ويدفع يحق له البقاء فبكيت مترنحا بعبء شراب ابتلعته ولا يخصك..

تقول إن الولد وقد تخطى منتصف العام الرابع أخذ " ببرونة " البنت ووضع حلمتها في فمه وامتص محتوياتها ثم أعادها فارغة بجوار البنت النائمة التي لا بد وأنها سوف تعجز في صحوها عن حماية رضعتها من قبضته الأقوى، تقول إن الأمر لم يشغلك كثيرا إلا بعد تكراره على مشهد منك في الليلة التالية فأيقظت زوجتك لتحكي لها ما حدث فلم تهتم هي عكس ما كنت تتوقع من انخراطها في الضحك مثلما كنت تضحك، كانت هي غارقة في نومها الثقيل فتركتها لتغطس في نفس البحر الذي أخرجتها منه قسرا، في الصباح عاودت الحديث معها عن اكتشافك بنفس الحماس لإضحاكها فبدا لك أنها تستمع إلى نكتة سخيفة سمعتها ألف مرة، لا بد أنك شعرت بالخجل لحظتها وتلعثمت على عادتك ثم حدثتها متواريا خلف نبرة الفاهم مقدما إليها تفسيرك الخاطئ بأنه مجرد حلم، حلم بريء لطفل بريء يبلع بينما هو نائم في واقع الأمر مستيقظ في ظاهره ــ يبتلع جرعة لبن صناعي لا تخصه تنفيسا عن رغبة مكبوتة في ابتلاع ما كف عن تعاطيه خضوعا لإرادة الكبار، حدثتها عن كل ما سمعت به من كشوف في علم نفس الأطفال فلم تسعفك باستعدادها للسماع وغيرت الموضوع.

وزور هو أوراقا بشراء الأرض والدار واستخدم بصمة الراقد في ركن القاعة رقدة الموت، كانت هي تحت قدميه تحرسه وتنتظر تلبية ما قد يصدر عنه من رغبات لكنها أغفت في قيلولة ساكنة لتتيح له إكمال مراسيم السلب بلا مانع، اكترى شهود زور ودفع واطمأن إلى ضمان الامتلاك، ويوم طالبته هي بأن يتولى بنفسه تقسيم الميراث بعد ذكرى أربعين الرجل ضحك ساخرا من حسن نواياها حيث أصبح هو سيد الدار ومالكها، ضربت صدرها المهدود براحتيها وخرج صوتها ندبا متواصلا لم رجال الدرب وحريمه يستفسرون إن كانت قد حلت بالدار مصيبة جديدة فأشارت إليهم أن اسألوه فأجاب بأنه اشترى بمحض إرادة الرجل وأظهر عقد الشراء أضاف بأن الرجل كان يكره الضعفاء ويعشق الأقوياء القادرين على حماية ميراثهم من عدوان المتربصين، كان متبجحا إلى حد أنها أنكرت أن تكون بالفعل قد حملته في بطنها تسعة أشهر أو أرضعته من لبنها، تبرأت منه وسقطت من طولها ولم تقم لها بعد ذلك الصباح قائمة، تاه منها الحقل الموزون وانفتحت العينان على عدم وبقيت جالسة فوق فراشها مشلولة الأطراف واللسان تتأبى على الرقاد، علها حسبت نفسها تكفر عن لحظة الغفلة التي أتاحت له فرصة التحكم في مصائرنا بلا حياء".

أمهات الزمن الفائت يا صاحبي كانت تعرف واجباتها وتقوم بها على خير وجه، كانت الواحدة منهن تصحو من نومها إذا كح طفل أو تقلب في فراشه، يدها المدربة تتحسس جبهته لتطمئن على حرارته دون مقياس للحرارة، تسرع بالقيام من مرقدها في برد "طوبة" لتعمل له

اليانسون أو النعناع بحسب ما تتطلبه الحالة، زوجتك مأساة بكل الحسابات لأنها تستغرق في النوم وتترك الولد يمارس استغفالها ويستلب غذاء البنت، قال القدامى إن المال السائب يعلم السرقة وهو قول صائب يتأكد صدقه كل يوم لو قرأنا ما ينشر عن بعض تلك الشركات الاستثمارية والبنوك الأجنبية والمشاريع الوهمية التي يؤسسها محتالون على مستوى عالمي بهدف استلاب رصيدنا وتمييع ميراثنا، القياس مع الفارق طبعا لكن الغفلة هي الغفلة والأم التي تسمح باغتصاب جرعات اللبن الصناعي قبل أن تصل إلى فم طفلة في عامها الأول لا تؤتمن على مصيرها في مستقبل الأيام.

"وقالت البنات بعد موت الأم محسورة: دافع عنا وساعدنا لنستعيد حقنا المسلوب، حتى ولو لجأت إلى قتله ما شهدنا ضدك، لكنك استخدمت حكمة الأفندية وجمعت مجلسا من كبار رجال العائلة وطرحت عليهم ما كان من أمر الحق الضائع فطيبوا خاطرك ببضع عبارات: عيب أن تتهم أخاك الأكبر وهو الذي أصبح في مقام المرحوم، ما في جيبك في جيبه وما في عبه في عبك والدم لا يتحول إلى ماء، البنات مصيرهن الزواج والواحدة منهن لها جهازها كأحسن ما يكون في شرع العائلة، أما أن تستولي على موروث من الأرض وتضيفه إلى ملكية غريب فهو ما لا يقبله أحد منا ولو طارت فيها رقاب، وأنت أفندي لن تزرع أو تحصد، شهادتك سلاحك الذي يعفيك من طين الأرض ووسخها.. انفض المجلس فتحسس ذقنه وهز رأسه متوعدا فابتلعك الخزي لأنك جرؤت على فضحه في حضورهم".

تقول أنت أنه حدث أن تطوعت بمحض اختيارك لإعداد جرعات اللبن الصناعي للبنت في تلك الأمسيات التي مرضت هي فيها والهانم تستغرق في نومها عقب ذلك المسلسل الساذج الذي تصادف وكان يعرضه التليفزيون أيامها، كانت تعد الرضعات وتضعها بين يدي البنت وأنه حدث أن فعلت نفس الشيء مرة وخرجت من الحجرة بحثا عن عود ثقاب تشعل به سيجارتك ثم عدت لتجد عبوة اللبن الصناعي قد تلاشت عن آخرها والبنت تبكي بحرقة والوعاء الفارغ بينها وبين الولد الذي بدأ لك متناوما يداري جرمه متقلبا في الفراش بغير معنى.

"وذهبت لحضور حفل زفاف كبرى البنات مكرها لأنه لم يكن من المناسب لطبعك التخلي عنها في يوم فرحتها، قابلك أمام الغرباء بعبوس الوجه وفتور الكلمات فأجهدت نفسك لتحتفظ بشكل علاقة مألوفة بين شقيقين أحدهما وفد من مدينة يعمل بها والآخر راسخ ومعدود في درب عائلة تشمخ بالأنوف اعتزازا بجذورها الضاربة في طين الأرض رغم ما يجري بين أفرادها من انتهاك الحرمات واستلاب الحقوق، كان اسم العائلة يطن في أذنيك ويجلجل في مكبر الصوت وكأنه يعلن للأسرة الأخرى تحذيره الخفي شأن أفراحها التي تتحول إلى سباق بين عائلتين، ولأنه مثل دور الأخ المسيطر عليك وامتثلت أمامهم، انتحى بك جانبا

وسألك عن سر غيابك الطويل عنهم وتعلل بأشواق البنات متناسيا أنه طردك، فاعتذر المطرود للطارد عن تقصيره في طرق بابه من أجل أشواق البنات.. كنت تتعامل معه بحذر وتخشى لو دب بينكما خلاف جديد يحرمك من تقليل شكاياتهن منه لأنك كنت تفلح أحيانا في تخليص بعض حقوقهن بالحيلة أو بالحزم المحاذر المحسوب أو حتى بالدعابة في لحظة انتشائه من أثر الدخان الأزرق الذي يخرج من صدره العريض مع ضحكاته ونحنحاته، كان يتجاوز حدوده ويسألك إن كنت أيها الأفندي قادرا على دفع تكاليف قعدة من قعداته المسائية فتجيب بالنفي ليضحك ويوشك أن يجعلك هدفا لإضحاك أتباعه ناسيا أنه هو نفسه الشقيق الذي نهب ميراثك وأجبرك على العمل بنصف مؤهل هو مجدك وعارك، سلاحك والطعنة النافذة في قلبك، مصدر زهوك لأنك انتزعته بعناد من واقع شرس أول سنوات اغترابك، كان يتأكد لديك صدق ما سبق أن قرأته من أن العالم انقسم إلى مظلومين وظلمة، مقتولين وقتلة، حاكمين ومحكومين، فقراء تنطمس تحت الرماد مواهبهم وقدراتهم وأغنياء أكثرهم حمقى مثله يباهون ويتيهون لأنهم يسهمون في فساد العالم".

تقول إن الشكوك حامت حول دماغك على نحو غامض. خطرت في خيالك شاحبة وبعيدة ثم تخلقت وبعثت ومضاتها الخاطفة التي حيرت الدماغ بقدر ما بعثت فيه من مشاعر الارتياح، وفي المساء التالي أخذت الولد لينام في حجرتك خلافا لاعتيادك النوم منفردا، كان يقوم من فراشه في منتصف الليل أو قرب الفجر ويخرج من الحجرة ويتصادف أن تشعر بحركته وتسأله عن وجهته فيرد عليك بأنه ذاهب لقضاء حاجته في دورة المياه فتفرح وتتوهم أنه تعلم أخيرا وجوب المحافظة على نظافة الفراش، كنت تتقلب ولا تشغل نفسك في أول الأمر بمتابعة خطواته حتى اكتشفت أنه يذهب إلى الحجرة الأخرى كأي لص محترف ليستلب غذاء البنت، ذلك أنك صحوت مرة على صراخ الطفلة وذهبت لهدهدتها بينما الهانم غارقة على عادتها في نومها الثقيل لتلاحظ ابتلاع الرضعة التي كنت قد أعددتها لتوك، ليلتها أيقظتها غاضبا وأفهمتها أنه من الواجب أن تحمي هي البنت من لصوصية الولد لكنها سخرت من فكرتك وأنكرتها فأكدت لها صدق ما كان من ابتلاع غذاء البنت فابتسمت وفسرت لك الأمر على أنه نوع من أنانية الأطفال شائع، ضحكت أنت واعتبرت الأمر نكتة ورحت ترويها على مسامع الأصدقاء والأهل مستجديا ضحكاتهم أيضا وفاتك أن الأنانية شعور إنساني لا ينتهي في مرحلة الطفولة وإن كان يبدأ منها ويستفحل خطره في الزمن التالي. وفاتك أيضا أن تؤكد لها أن من يفرط في حق طفلة لم تكمل عامها الأول مستعد أن يتعامى عن حقوق شعب واستلاب وطن.

أحمد الشيخ

* الناس في كفر عسكر (أولاد عوف)
* الحنان الصيفي
* حكاية شوق
* البحر الرمادي
* حكايات المدندش

الأعمال الكاملة

تأليف : أحمد الشيخ

- **الناس في كفر عسكر**

(أولاد عوف)

- **الحنان الصيفي**
- **حكاية شوق**

في كفر عسكر

- **البحر الرمادي**
- **حكايات المدندش**

في كفر عسكر

الناس في كفر عسكر

(أولاد عوف)

إهداء

لمصر المستقبل

والناس

ولروح أمي الرافدة في مدفن ضيق وسط مدافن قرية في أحضان الدلتا، تمشي له مسافة في الأرض المزروعة، ونفكر في الموت، نقرأ لها الفاتحة ونشكو لروحها همومنا والزمن الصعب، نرتاح، نتجدد، ويزيد في قلوبنا الإيمان، نفكر في المستقبل، ونصدق نيتشه وكلامه عن العود الأبدي، ونصدق أوراق البردي. . ونصوص الأهرامات.

نتأكد أن بلدنا قديمة وخالدة، موجودة وحاضرة وصاحية في عيون الناس.

المؤلف

تنويه

* ____

الزمان الهابط والزمان الصاعد، أو قل الزمان المتتابع والزمـــان المتراجـــع عنـــدما يلتقيان في بؤرة. . ربما حول موقف أو ذكرى أو شخص. . دوامـــات يصـــعب الإمســـاك الأكيد بمسارها المرعوش برغبة الامتزاج. . الأنات وصدى الصوت الحـــي متشـــابكا مـــع الشحوب الخافت لأنفاس ذوبها الفراغ لكنها ما زالت في الأذهان تحيا، وكأنهـــا تتبـــادل مـــع الزمن الدوار غير الثابت رغبة البقاء المستحيل، كان العبء فوق الطاقـــة، مغـــامرة تتطلـــب الجسارة، والرغبة ــ إن كان للرغبة وزن ــ في الاستمرار. هبوطا وصعودا يتقابلان فـــي الزمان الفائت.

والأرض. الحرب، الموت، بؤر امتزاج

أحمد الشيخ

حسن عوف

*

1898 ـ 1971

ركب دماغه ولم يطاوعني فراح مني وخلف لي في القلب حسرة

وكان القمر بدرا. . لبدنا أنا وعبد الحميد خلف الباب الكبير. . كتمنا أنفاسنا ونحن نتسمع صوته المعهود. . كنت خائفا والشومة في يدي وفي بالي أنه لن يفلت هذه المرة. . ضغط عبد الحميد على كتفي وكأنه ينبهني أو يشجعني. . سمعت خطواته الجسورة ترج الأرض في عنفوان وجلبة وكأنه فحل جاموس. . كتمت أنفاسي فلم أعد أسمع غير نحنحاته تشرخ صمت الليل وفراغ الدار. . عند الباب الموارب تحسست بالأذنين أنفاسه المطمئنة تعبر العتبة. . تلقفه عبد الحميد في صدره وأحاطه بذراعيه. . عبد الحميد كان عفيا. . ارتبكت أنفاسه لوهلة قبل أن يتساءل مداريا رعبه بشيء من الاستهانة والكبر.

ـــ مين ؟

" سوف ترى " قلتها لنفسي وأنا ألمحه رغم العتمة من خلال انعكاس ضوء الشعاع القمري الذي يرسم خطا مائلا عبر عتبة الباب الموارب ويغطي طرف جلبابه أيضا. . لانت الشومة في يدي وكادت أن تفلت وطرف الجلباب يقاوم. . ارتبكت لحظة وأنا أواجه ما كنت أتخيله وأتمناه. . عتل عبد الحميد تحت ثقل المقاومة فحركت الشومة لأحميه وهويت بها على سلسلة ظهره. صرخ في ذعر المأخوذ هذه المرة وهو يجاهد أن يبدو صوته مطمئنا واثقا.

ـــ مين؟

" ما أهمية أن تعرف ؟" ناولته الأخرى والتي تلتها. . لم ينطق بكلمة وكأنه يكيدني ويؤكد بالصمت ضعفي. . طنت في أذني رغم سكونه أصداء كلماته التي يعايرني بها ويذلني، يا أصفر يا أبو علة، طوحت الشومة وأتيت بها من خلف ظهري كما كان يفعل ونزلت بها على دماغه. أنّ في استكانة وسقط الشموخ المقيت. . مرة أخرى طوحت الشومة ونزلت بها على الدماغ ثم الكتف. جعر في خفوت مخز لأنه قالها :

ـــ جاي. .

" قلها يا رجل. . قلها مرة أخرى، للمرة الأولى أسمعها منه وكأنها موال مقهور بعد ألف غنوة فوز. . فرحت ونزلت الخبطة التالية بعزم أشد. . استغاث هذه المرة وكأن الضربة مزقت عن وجهه برقع الحياء. .

ـــ روحولي يا خلق البلد.

" ما زلت تغني يا رجل؟ " أيقنت من هزيمته وأحسست بالغيظ لأن صوته ظل واعيا، ولما سقط شمروخك فوق دماغ الرجل سقط من طوله ولم يقم أبدا. . ففيم العويل؟ استجمعت قواي ونزلت بضربة مغلولة فصرخ عبد الحميد. . انزاح شيء بقوة وارتمى فوق الأرض ودفعتني يد ناحية الباب. . كانت أنفاس عبد الحميد تقترب مني. . بدأت الرمح. . كان عبد الحميد خلفي يرمح أيضا. . كنت خفيفا وكان ثقيلا. . طالني عند الكوبري. . توقفت لاهثا

من التعب فلطشني بالكف فوق صدغي فعرفت ما جرى. . كان يمسك رأسه بيده الخالية. . همس متماسكا :

ـ بطحتني يا أعمى يا ابن الكلب.

وسرنا. . سألت عبد الحميد عارفا جواب السؤال إن كان الرجل قد مات. . مط بوزه ولم يتكلم.. تحسس رأسه ودفعني من ذراعي وسرنا في اتجاه البندر. . الصمت بيننا كان معجونا بالرهبة والشعاع القمري يفضح الخطوات المتسللة. ملعون أبوك يا قمر ". . أحسست بالتعب والرغبة في القعود أو حتى الارتماء على الأرض راضيا بما يجري لي حتى لو جاء الرجل وذبحني دون أن أراه.. قلت أزحزح الخوف والرهبة :

ـ أنا تعبت.

شدني عبد الحميد من كوعي وظل ساكتا يفكر. . رأيت الدم ينزف في بطء متلصصا تحت طاقيته ويشق لنفسه طريقا ضيقا متحاشيا بروز أنفه. أخرجت منديلي وجففت خط الدم وعبد الحميد ساكت. . ربطت رأسه بالمنديل وغطيته بالطاقية. .

سألته :

ـ الخبطة بتوجع يا عبد الحميد؟

لكنه لم يرد

ـ عمره قالها المفتري؟

لم يتكلم. . كان الدم ينشع من خلال المنديل إلى الجبهة. . غسلت منديله في بحر الساحل ومسحت الدم. . لم يكن عندي ما يقال أو كان عندي الكثير فاحترت عن أي الأمور أتكلم فكان صمت، إلا وقع خطواتنا على أرض السكة الزراعية. . رحت أسترجع صوت صراخه المستغيث وأحس نوعا من النشوة غير المكتملة. . احترت كيف أجره للكلام. . قلت :

ـ خللي برهومه ينفعه.

سكت أيضا فأحسست بالخيبة. قلت لنفسي يكتب الأرض لبرهومة ونطلع من المولد بلا حمص. الخنزير، همس عبد الحميد بحلقه. . حسبته يرغب في الكلام سألته بسرعة :

ـ حرام ولا حلال؟

قال وكأنه يسد حلقي بالكلمة:

ـ اخرس

ـ أنا خايف يرمح ورانا.

قلتها دون وعي. . كان مرسوما في دماغي بعوده المفرود الفحل ونظراته الحادة المهيبة وصوته القاطع الغليظ وشمروخه الذي أخافني كلما رأيته في قبضته وكأنه سوف

يخبطني به فوق أم رأسي. ورغم أنه كان ينزل فوق رءوس أخرى في المعركة فيسحقها، وأنه قالها لي مرة وهو ينظر إليّ بعينين ساكنتين وكأنه يمنحني هدية العمر في لحظة قيلولة صافية. . " ولما أكون زعلان والشمروخ في إيدي يا وله أتاوي من قصادي " لكنني كنت أحس أحيانا أن شمروخه سقط بالفعل فوق دماغي ربما أكثر من مرة. . لا أشك في أنه طالني به مرة. . وكان حتم أن أرتعش لما أراه. . أما كيف ومتى سقط فوق دماغي، لا أعرف بالقطع.

همهم عبد الحميد بكلمة فحسبته يحادثني بعد طول صمته. . قلت مستفسرا في لهفة غريق لنسمة هواء:

ـــ بتقول إيه؟

ـــ اخرس.

وخرست. . كنت أخشاه لما يغضب. . أبي نفسه كان يعمل حسابه لما يغضب. . خوفي منه كان ممزوجا بالحب والإعزاز.. كان شهما وحليما أما أبي فكان غشيما وتصعب معاشرته، لو طالنا لدفننا أحياء وعاد إلى الكفر بعد أن يغسل يديه من دمنا إذا عصناه، ويرجع لمبروكة يفرحها بخبرنا وكأنه فتح عكا. . أحسست بمغص في بطني وأنا أتصوره يرمح في أثرنا ويطولنا. قلت في محاولة للهرب من الفكرة التي حومت حولي وعششت في دماغي وكأنني أستجير :

ـــ كان بيستجير زي الحرمة. . مش كدة؟

ـــ اسكت.

وسكت مرة أخرى ولم يعد غير صوت خطواتنا يتردد دويا مرتبكا. . قلت لنفسي لأطمئن : " خبطة واحدة فتحت دماغ عبد الحميد وجعلته كالدائخ ". . " وبدأت أحصي الضربات التي أصابته. . لا شك أنني أصبحت رجلا ما دمت قد جعلته يستجير، نظرت إلى وجه عبد الحميد. . كان خيط من الدم قد بان هذه المرة أكثر اتساعا. . شطفت المنديل في المصرف ومسحت الدم وسرنا. . كان وجه عبد الحميد غائبا في أمور لا أعرفها. .

ـــ أنت زعلان مني؟

سألته فكف عن المشي ورفع يده وحط راحته على كتفي ونظر إليّ. . حاولت أن أفهم ما يرغب قوله فلم أفلح. . هز دماغه الجريح وزام يأسا من إفهامي بالنظرة شيئا. . كانت بيوت البندر قد بانت من بعيد نقاط ضوء بعيدة شاحبة لكنها توحي بالونس وتبسط على القلب المغلوب بقية الطريق الساكت غير المطروق. . قلت لنفسي إنه قد هان الأمر وأن الفرار أصبح ميسورا ولو إلى حين، غير أنني كنت أجهل ما سوف تأتي به الأيام.

لم يبق شيء. . العود الذي انحنى والوحدة. . والنظر الكليل والوحدة. . العري والوحدة. . وصمت الأيام المرة والمشوار الممدود بطول العمر. . خاليا إلا من وهج وحيد خبا وخلف العتمة. . والجرح الغويط وفراغ اليد وبقية اعتزاز يجعلني أتأبى على الطلب،"قال عطية: صالح ابنك فخذ منه بالمعروف أو بحكم المحكمة" قلت أبدا. . صالح وقف أمامي في المحكمة مرة. . ظل يرقبني كأنه يقيسني وقالها: أنت فتني وهربت. . والقاضي لما سأله كان يكذب: اشتريت ودفعت فضحكت في سري. . كنت عارف أن العقد باطل والختم مسروق، وسيد راح وخلف في القلب حسرة. . وحتى لو زحفت إلى عتبات الموت بمركبة الجوع لن أفعل. . والولد الصغير جاء حاملا وجه سيد فجعلني أبكي. . قلت له يستحيل أرجع. . وسيد راح في شربة ماء. . قلت له ألف مرة : كن في حالك والتفت لمصالحك فلم يطاوعني. . ركب دماغه وظل يذهب. . وفي المرة الأخيرة كان يضحك. . ويحدثني عن صحتي قائلا أنها أحسن. ولما قلت له حسن الختام قال : أبدا. . وعاود الضحك قائلا : ستعيش بعدي. وانقبض قلبي ساعتها ولم أضحك. . كنت في كل مرة اعتبرها نكتة لكنني هذه المرة لم أستطع وساد وجوم قطعه سيد بابتسامة قائلا : حتى لو مت قبلك خذها ببساطة ولم أشاركه الضحك. . جعلت أمتص دخان الجوزة متفكرا كيف يحلو له ذلك الهذر العجيب. . وحدثته عن الأيام التي فاتت. . عن رغبتي في أن أراه مرتاحا. . حدثته عن أملي في أن يختار لنفسه بنتا ويخلف أولادا ولو عشت أفرح، ولو مت أكون مطمئنا. . واستمر أياما ثلاثة قبل أن يحمل حقيبته ويضع كفه فوق كتفي ويسألني إن كنت محتاجا لشيء فأهز الدماغ نفيا. . ويضحك بالعينين والشفتين وكل التقاطيع والأنفاس. . يتحول إلى ضحكة فأعرف أنه ينوي على قول شيء يعرف أنه لا يرضيني. . قال : مسافر، سألته : مصر؟. قال : الكفر. . وكنت غاضبا لكنه نظر إلي في شبه لوم رقيق لأنني ما زلت أعترض. . وقلت له: مع السلامة. . ومشى. . كان القلب مهموما ومحزونا وكأنه يفارقني للمرة الأولى. . وفي الليل لم أنم وحاصرني قلق مبهم وسألت روحي عن السر فلم أعرف ولما نمت قرب الفجر رأيته في المنام. من دمي وكدي علمتك يا سيد وجعلتك محترما عنهم. . قلت لك يا سيد كل ما كان وجري. . عن شوق كنت أحكي لما تسأل. . وكانت هي السبب في الأول وفي الآخر. . وأنا من يومها لم أعرف الراحة ولا أنت عرفتها. . ودخت في البلاد قبلك وبعدك. . سواح في بلاد الخلق سعيا وراء اللقمة ورغبة الخروج بك من الدنيا. . وكنت أخشى أن تصادف ما صادفته أنا فبعت الدنيا والدين واشتريتك وعلمتك. . قلنا تروح المدارس حتى لو استغنينا عن الرغيف والهدمة. . ولما كبرت قلت لروحي هانت ووصلنا بر الأمان. . وتروح هكذا فطيسا وتتركني لأمواج الأيام السود تهد ما تبقى من جهدي. . تدوخني دواماتها قبل أن أخلص من شماتة العيون فيك.

وركبنا القطار أنا وعبد الحميد. . كانت السكة طويلة. . قال عبد الحميد الذي كانت دماغه مربوطا بشاش أبيض إنه يعرف عنوان الشيخ سعد عوف في الغورية. . كنت أطل من شباك القطار فرحانا وأقول لنفسي أنه هناك خلف هذه السحابات المتراكمة مكان نظيف ومشرق اسمه "مصر" وأرغب في الوصول إليها بسرعة. . عبد الحميد كان مهتما بجرحه يتحسسه من آن لآخر وكأنه يذكرني بغلطتي. . والشوارع كانت نظيفة عن شوارع المركز والناس منهم أفندية يضعون الطرابيش فوق الرءوس دون مناديل كما يفعل الخواجة " بولس " الصراف لما يأتي، ومنهم أولاد يلبسون الجلابيب المقلمة ولها ياقات، وشفت الإنجليز لأول مرة بوجوههم الحمراء وبناطيلهم القصيرة والبنادق على أكتافهم أو في أيديهم. . والبيوت كانت عالية. . وفرحت لأنني سأعيش فيها. . مصر أم الدنيا " قالوها في الكفر واشتقت لرؤيتها واكتفيت بسماع ما يقال عنها. . مصر. . " ورأيت الشيخ سعد. . وقال لعبد الحميد أنني أصبحت رجلا فضحك. . وراح عبد الحميد مع الشيخ سعد وجاور الأزهر بعد أيام، وأنا أخذني الشيخ سعد إلى بيت كبير له بوابة حديدية وقالوا لي : أقعد هنا على الدكة وأحرس الباب ولما يدخل غريب أسأله عن السبب. وعرفت الست الكبيرة وبنتها نهاد، وشافني الرجل الكبير وكلهم لهم وجوه حمراء كأنهم إنجليز. . وألبسوني قفطانا أبيض وطربوشا وحزموني بحزام أحمر. . وعرفت الأسطى محمد الطباخ بوجهه الشديد السمرة وكأنه عبد حبشي والدكة كانت توجع مؤخرتي لما يطول القعاد فأقوم وأتمشى عند السور. . وأظل أنتظر من يأتي ليدخل لكن الدار كانت لا تهم الناس فلا يرغبون في الدخول، وقلت إنه لو حدث وتركت الدكة يوما فلن يدخلها نفر. . واكتفيت بالنظر للناس، وأحيانا تسألني نهاد إن كان أحدهم سأل عنها فأقول لها : أبدا . . وكانت بنتا ظريفة وحلوة. وجهها كاللبن الحليب وصوتها ناعم. . وزهيرة كانت تخدمهم وتشتري الأشياء من السوق وتقف تحكي عن البك الكبير والست الكبيرة وتقول إنهم " تراكوة " وأسألها كيف فتضحك وتدخل، ولما غابت زهيرة جاء عم محمد وأخذني وعرفني مكان السوق وجعلني أشتري الطلبات. . اللحم والدجاج والسمك والخضر والفواكه. وقال خذ صينية الأكواب النظيفة ودر بالماء حول السفرة وانتظر من يطلب ففعلت " ملعون أبوك يا أبي. . جعلتني أخدم على آخر الزمان ". . وعلى رأي المثل. . أيام تيجي على ولاد الأصول تنذل. . قالها واحد من أهل الكفر لا أذكره. . لو كنت يا ولد ظللت حافظا للقرآن مثل عبد الحميد لجاورت الأزهر مثله ووضعت على رأسك بدل الطربوش عمامة وهان الأمر. . وجاء الشيخ سعد مرة ووجدته أمامي وناداني وكلمني عن وصول أبي من الكفر فسقط طبق الصيني من يدي على السجادة فعاصها وصرخت الست الكبيرة وشتمتني والشيخ سعد واقف وهو ساكت قالت لي : فلاح خسيس. . وأنا احتقن دمي ورميت الطربوش ناحيتها وقلت : أنت الخسيسة وكل صنفك. . وراحت تقفز كالملدوغة وتلعنني بكلام غير

مفهوم. . وأنا خارج كنت أشتمها بدوري والشيخ سعد يحاول تهدئتني وأنا أرد على كل كلمة تقولها. . وذهبت مع الشيخ سعد إلى عبد الحميد في الأزهر وقلنا لعبد الحميد فقام وأخذني معه وجعلنا نمشي حتى وصل إلى بيت زميل للشيخ سعد بتنا عنده حتى سافر الرجل وجاء إلينا الشيخ سعد وتركنا الشيخ سعد وخرج.

عبد الحميد جاور في الأزهر وأنا ظللت مدة بلا عمل والشيخ سعد اشتكى مما فعلته مع الست التي شتمتني في حضوره. . وكنت أنتظر عبد الحميد كل يوم حتى صلاة العشاء لما يأتي. . ومرة وأنا أتسكع في شارع الأزهر طلب مني أحد الأفندية أن أحمل عنه حقيبته الكبيرة لقاء أجرة، فترددت أولا ثم طاوعته وحملتها على كتفي حتى بوابة الحديد وأخذت منه ما أعطاني وعدت من نفس السكة ولما قلت لعبد الحميد تنهد في حسرة وقال لي : إياك تعملها مرة ثانية وأنا قلت لنفسي أنه يحرم نفسه من نصف الجراية ويعطيني لآكل ويضعف. . وقلت أشتغل أي شغلانة وأكسب قوتي. . وعرض على ولد تأجير عربة يد ومشاركته في نقل الخشب من الشادر حتى دكاكين النجارين والورش وقلت له : كيف؟ فعرفني وشاركته. . ولما عرف عبد الحميد بعد أيام قال وكأنه يحادث نفسه : شدة وتزول. . وبعد أيام وجد لي شغلانة في محل عطارة عند الحسين وكانت مريحة. . وجاء إلينا عسكري وطلبنا في قسم الدرب الأحمر فذهبنا معه ودخلنا عند الضابط فسألنا عن اسمينا فقلنا له وقال لنا أن أبانا قدم شكوى ضدنا يطلب منا نفقة لأنه معدم. فنظر إليّ عبد الحميد واستغرب وقال للضابط إن هذا الكلام باطل وأنه متيسر الحال وأننا تركناه منذ عام واحد فظل يطاردنا لنعود إلى الكفر وهو يمتلك أرضا. لكنه كتبها لآخر لنا صغير وأنه طلق أمنا وتزوج امرأة عمي الميت ووضع يده على أرضه أيضا، وأنا قلت له (كتب كل الأرض لابنها وجعلنا نشقى مثل التملية فهربنا. . ونظر إليّ الضابط مرتابا وطلب منا العودة بعد يومين ليتحقق بنفسه من صحة المسألة. . ولما عدت إليه وحدي قال لي روحوا وشوفوا شغلكم فأبوكم كذاب وربنا يساعدكم وأنا حفظت الشكوى. . وخرجت وقلت لعبد الحميد لكنه كان مشغولا بشيء لا أعرفه فلم أعاود الحديث في الأمر أبدا. . وسمعت أن الإنجليز حبسوا سعد زغلول فتظاهر الناس. . كل يوم أراهم يتظاهرون والبوليس يطاردهم ويفرقهم. . وفات الناس على دكان العطارة يهتفون " يحيا سعد. . يحيا سعد " وبعد ساعة قالوا إن الإنجليز ضربوا المجاورين بالنار عند باب الأزهر فرحت أتفرج فوجدت الإنجليز يطاردون الناس والميدان خال تقريبا وسرت في أول شارع الأزهر فوجدت عبد الحميد مرميا والدم ينزف من جنبه وأسرعت ناحيته فمنعوني لكنني نفذت إليه وأنا أنادي عليه فضربني أحدهم بمؤخرة البندقية في رأسي وداس بنعل حذائه فوقي. . وكنت فوق صدر عبد الحميد الجريح وهو يتألم ويكتم الدم براحة يده والدم يغطيها واستمر الإنجليزي يضربني وأتألم ولا أفكر في ترك عبد الحميد ولو مت. . وتساند عبد الحميد على

كوعه وأمسك بيده الخالية كوع الإنجليزي وشده بقوة فوقع على الأرض وجاء آخر وضـــرب عبد الحميد برصاصة في دماغه فارتمى على الأرض رمية الموت وعيناه تحملقان في اتجـــاه السماء والدم ينزف في سرعة ويغطي الوجه ويتسلل عبر العنق إلـــى الأرض ويصـــل إلـــى الصدر والناس تجري من حولنا وأنا أصرخ وأصرخ وعبد الحميد ساكت ســـكتة العجـــز. . والإنجليزي الأول قام ونفض قميصه وظل يضربني بمؤخرة البندقية فوق ظهـــري ورقبتـــي ورأسي وأنا مستميت فوق صدر عبد الحميد لا أود أن أصدق وأتمنى لو كان ما أراه مجـــرد كابوس طويل ينتهي بطلوع النهار. وكنت أتوجع من الألم واحتضن أخي الـــذي كـــف عـــن التنفس وسكن تماما. وكان الناس يهتفون في الشارع ولكن في خفوت وكنت أسمع أصـــواتهم المطرودة تصرخ، يحيا سعد عاشت مصر عاشت مصر " ولم أستطع النطـــق. . لـــو كنـــت نطقت لقلت شيئا. .

وبعد مدة تركوا الميدان وجاء بعض المجاورين وحملوه مع آخر ودخلوا الجامع وهم يهتفون أيضا. . وخرجوا بعد الصلاة بعبد الحميد وزميله وكان الشيخ سعد ممسكا بـــي مـــن ذراعي وهو يهذي بكلام كثير (ربنا على الظالم. . العدل يا عادل. . يا منتقم يا قـــوي يـــا الله) وساروا بعبد الحميد محمولا بدمه لم يجف وأنا خلفهم وهم يكبرون ويقـــرءون الفاتحـــة بصوت كدوي النحل. . وهم يجهزونه للدفن فأبعدوني عنه. . ودموع الناس فـــي عيـــونهم كانت تجعلهم أشباحا بلا تقاطيع مميزة. . وثوبي الغارق في الدم يجف ولم أكن أعرف دمـــي من دم عبد الحميد. كان الدم مزيجا مخلوطا. . ودفنوا عبد الحميد في الدراسة وبت ليلتهـــا وحيدا في حالي والغم راكز على قلبي.

وخبرك يا سيد نزل على هم موت لا يحتمل بعد أن نفذ السهم. . وكان صعبا علـــيّ أن أصدق، صالح بعث الخبر. " أحضر لوفاة سيد ". . ولا أدري متى ولا كيـــف وصـــلت الكفر. . أخذوني من يدي وسندوني وقالوا كلاما كثيرا لم أسمعه. . كنت أسأل عنك وكأنـــك في دار أبيهم تطلبني وكأنني واثق أنك سوف ترد على ما أسألك عنه. . وقالوا دفناه العصـــر وأنا لم أصدق. قلت لهم هاتوه لكنهم مصمصموا الشفاه حسرة أو سخرية أو شماتة. . قلت لهم هاتوه فسكتوا ورحت أسعى بكل طاقتي ناحية المدافن. . مدافن جماعة عوف حيـــث يرقـــد جدي الكبير وجد جدي وأبي وبرهومة وأعمامي. . وقلت للرماد الذي حطوك فوقه أن يكون رفيقا بك. . أن يحنو عليك. . أن يكون لك الأب والأم والأخوة والأخوات والصحاب. . أن ينير ما حولك بحق جدنا الحسين. . والبعض وقف جواري مهونا علي أمرا لا يهون " البقية في حياتك " حياتي أنا التي لها بقية؟ " شد حيلك " انهد الحيل وانقضى الأمر. . " ربنا يعوض عليك " بماذا؟ بمن؟ " حسك في الدنيا " خافت وهزيل وغير مسموع. " فيك البركة " الخراب والوحدة وبركة اليأس والضياع والحسرة. . وصالح كان واقفا قصادي. . يبكي؟ " هل هزك

الخبر يا صالح أم أنها الأصول تؤديها أمام الناس حتى ينفض السامر. . والتقاطيع المهمومة بفعل ماذا يا صالح؟ هل تعاركت مع أحد وجئت تشيع سيد بهذا الوجه الغاضب. . " والدمعة الغريبة في عينيه تذكرني بدمعة أبي يوم راح عبد الحميد. . " لم أفهم جماعة الحاج عوف أبدا. . الرجال الفحول القساة الملامح يبكون أحيانا " قلت لصالح الذي اقترب مني : سيد مات فاستدار وابتعد " ابتعدت ضيقا مني أم لتخفي انهزامك عني. . ؟ " ومجموعة الصبية الصغار يلتفون حولي ويقولون كل بدوره في حماس حزين كلنا أولادك يا عم حسن. . سيد كان أخونا الكبير " وكان حبيبي وأخي وأبي ودنياي وولدي. . وحده يا أولادي كان يساوي الدنيا فلما راح لم تعد هناك دنيا ". .

" قلت لي يا سيد في الليلة الأخيرة أنك تبحث في الكفر عن شيء تحبه وأنا لم أفهم ولن أفهم سوى أنك ضعت من يدي ولن يعود صوتك المطمئن النبرات الواثق. . ولأن أرى وجهك الباسم حتى في لحظات الضيق : بسمة الاطمئنان إلى شيء كبير فوق طاقة التصور. . شيء غير مفهوم يجعلك مرتاحا إليه فيرتاح الوجه والتقاطيع رغم غلاف الهم. . شيء تحت الجلد يتوهج مهما غطته الأحزان، ليس هو الأمل في الدنيا وحده ولا الحلم والتمني ولا حتى انتظار الفرج. . أبدا لم تكلمني عما يجعلك هكذا. . ترى كنت تعشق ؟. . وكيف فاتني أن أسألك عنها. . " قال صالح : نرتاح في الدار ". . " راحتي في الموت " قلت أسافر. . سكت وهمس : أوصلك. . قلت : وحدي. . سرت وحدي. . خرجت من الكفر بليل. . لم أركب للبندر. . سرت في نفس الطريق القديم الذي عبرناه أنا وعبد الحميد في بدايات العمر الشاب. . وأنت كنت كائنا لم يتخلق بعد. . كنت يومها أقول لنفسي لن أعود إلى الكفر أبدا. . اليوم أقول لنفسي حتما سأعود. . من أجلك يا سيد وليس من أجل صالح. أنت فعلتها يا سيد بالموت لما عجزت عن فعلها بالحياة. . حققت مرامك ونفذت رأيك. . سوف أداوم على المجيء إلى الكفر لتراني ولا أراك. . من أجل ما كنت تأتي من أجله سوف آتي. لو عرفت لماذا أو لمن على وجه التحديد كانت تتحرك نواياك وتأتي. . لصالح؟ صالح يا سيد؟ أهو صالح؟ ربما كانت شوق؟ هل هي شوق تلك التي جعلتك تعارضني بهذه الحدة. . وتصر على المجيء بعلمي وغير علمي. . هل هم مجموعة التلاميذ الصغار المتحمسين والذين ترتسم على وجههم أحزان الرجال الكبار " ولم يكن هناك بدر. . كانت عتمة وسكوت مقبض. . " نارك يا سيد لا تبرد. . لو مت تبرد. . ربما في عتمة القبر ورطوبة أرضه تنطفئ النار أو تبرد. . لو امتزج بدني بتراب بدنك يهدأ. . نارك لن تبرد. . نار عبد الحميد بردت. . ما عشت لأسمع أنك انتهيت. . نار عبد الحميد ظلت في نفس قطعة تتوهج من آن لآخر. . ولما عشت معي بردت من حرارة الصهد القديم وقلت لنفسي هو أخاك وعوضك عن عبد الحميد. . لكن أن تضيع. . تضيع حقا. . كابوس ثقيل يكتم الأنفاس

ويدوخ الدماغ أم هي حقيقة؟ هكذا يا سيد ظللت تذهب إلى الكفر لتداوي جرحا قديما حتى تحولت أنت نفسك إلى جرح فسيح يصعب لملمته. . جرح بطولك وعرضك يتمدد في قبر معتم ويلتف في رأسي ويصرخ في كفنه الأخضر. يظل ينبح ما عشت من أيام.. .. " يا رب. .. هل تأتي به وتصوره على ما كانه. . إشراقة العينين وصدق اللسان وتسكته " ولكل أجل كتاب. .. وكتابك يا سيد جاء أجله. .. لماذا يا رب بعثته لتكويني بناره ؟. لم أطلبه منك لتمنحه ثم تحجبه. . ؟ كان لا يرضيني لو تحكم الشيطان في سيد. . كنت ألومه. . ألعنه، وأنا أعرف مدى ضلاله وقسوته كنت ألعنه ولا أخشاه. . أما أنت يا رب، أنا ذاهب إلى نار جهنم راضيا ما دمت لا أرضى. . هل هو الكفر والضلال ألا تستسلم لموت من نحب؟ أنا لن أرضى أو أسامح. . هل تسمعيني يا عتمة الأيام السود. . لن أسامح. . وأنا حر فلن أسامح. . النار المحمية أهون من نار القلب المجروح بنار الابن.

***

وانشقت عنه الأرض فانتصب قبالتي كأنه زرع شيطاني جاء بعد فوات الأوان. . شمروخه منصوب بجانبه بنفس طوله وغضب الوجه القادر لحظة الظفر. . كان الشيخ سعد في الجامع وكنت وحدي. . حاولت الفرار لكنه ركن الشمروخ إلى الجدار وظل واقفا عن الباب يسده. . كان وجهه الغاضب ينضح غلا. . " عبد الحميد راح في لمح البصر يا رجل فماذا تريد مني؟ " أيقنت أنني انتهيت وخطواته تزحف نحوي وتنقله فأراه يتضخم " ما زلت عاجزا عن فهمك يا رجل. . وهذا الذي يلمع في عينيك؟ هل عرفت ما جرى أم جئت تقتل؟ " تأكدت من أن ما أراه في عينيه قطرات دمع غريب على التقاطيع الصارمة التي لم تهتز مرة... نسيت خوفي وهو يضع راحته فوق كتفي أولا قبل أن يأخذني في صدره " هي المرة الأولى يا رجل. . كنت تنتظر موت عبد الحميد ليحن علي قلبك؟ " قال بصوت متوتر غير متآلف النبرات :

ــ عبد الحميد راح فين يا حسن؟

بكيت. . كان صوته مشروخا ومهموما، لم يكن يسأل. . كان ينعي. . كنت في صدره وأحسه. . يجاهد أن يصلب طوله. . دفنت وجهي في صدره فكان يتنهد حسرة ويضغط على رأسي نحوه وكأنه يربطني إليه بعنف الخائف. . كنت مغموما وكأن عبد الحميد يموت في هذه اللحظة. . رأيته يجفف الدمع براحته خلسة ولكنه يفشل في التخفي. . قال بصوت ممزق جاهد كثيرا في لملمته :

ــ بطل عياط يا حسن. . هي الرجالة بتعيط؟

قالها ونهنه كبنت بكر مضروبة. . " ليلة سوداء. . فات شهر وأنا كدت أنسى، الليلة ندفن عبد الحميد سويا مرة أخرى فتمالك نفسك" سألني عما حدث فاحترق قلبي، ربما عبد الحميد وربما جرح راسي، ربما دموعه وانهزام قلبه. . كان الجرح في الرأس ينبح والرجل يخبو وعبد الحميد يذوى وأنا أتذكر ما جرى وكأنه يجري. . فعدنا نتباكى. . نستعيد عبد الحميد وكأنه غاب وسوف يأتي في الصبح يحكي. . " الآن عرفت أنه كان زينة الشباب بعد أن داس الغرباء فوق دمه بالنعال النجسة ؟. وأنت هناك تنصب طفل مبروكة هيكلا معبودا تمنحه الحنان والرعاية وتكتب له الأرض ولا تؤخر له طلبا؟ وكان شهما ؟. . أعرف. . وأنت كنت تعرف لكنك بعته معي واشتريت مبروكة وجئت اليوم تندب؟ " سألني عن أحوالي فلم أنطق. . سكت أيضا. . جاء الشيخ سعد فسلم وجلس وراح يحكي بدوره عن الإنجليز والمظاهرات وحماس عبد الحميد وأبي ساكت. . " راحت نخوتك وجبروتك يا سيد الرجال؟ ما عدت تجسر على السؤال عن قاتل ابنك؟ وأنا الذي حسبتك مستعدا لمعاركة ذباب وجهك وتقتل من يحك لك على منخارك؟ جئتنا تعزي بالدموع كالحرمة؟ " قال أبي وهو يلتفت ناحيتي :

ـــ الفجر شقشق. . قوم نروح.

وقام. . أمسك شمروخه. . حيرني اليقين في كلماته. . " واثق أنت من نفسك معي كأنني بين يديك لعبة؟ " كان وجه الإنجليزي الذي قتل عبد الحميد حاضرا في دماغي وأبي يقول ما يقوله وكأنه أمر لا يرد. . " دعني أحاول على الأقل ما دمت تعجز " فكرت في الفرار من الرجل، قلت له أنني لا أريد السفر بسبب أمر يهمني فعله فلم يهتم. . سأل الشيخ سعد عن أشيائي ولمها بنفسه وحطها في سبت وأخذني من يدي كما كان يفعل منذ سنوات. . ولما حاولت الإفلات أسكتني بنظرة حازمة فحملت السبت عنه وخرجت من الحجرة. .. ودعت الشيخ سعد قائلا له: ارجع، حاسبا أنه في الإمكان أن أرجع. سرت صامتا بجواره. . ركبنا قطارا مزدحما. . نظرت من النافذة وفكرت في القفز منها فأغلقها أبي. . ولما سار القطار فتحها وسهم لحظة يفكر. .. فكرت في أن أرمي روحي وأخلص. . نظر إلي وقام يقفل النافذة وقال في مرارة. .. مرارة في الحلق تحملها النبرات وترشها على سمعي :

ـــ ما عادليش غيرك يا حسن. .. كفاية اللي كان. . برهومة لسة عيل ما وقفش على حيله يا بني. . اللي انكسر يتصلح.

نظرت إلى خطوط الهم المحفورة في تقاطيع الرجل فهالني أنها غاصت وغاصت في اللحم ونفذت إلى داخل التقاطيع... " غريبة عليك الهموم. . غريبة، أحببته أو صعب عليّ حاله. .. وددت لو أنني ارتميت في حضنه أواسيه وأبكي من أجله. . تماسكت وسرعان ما عدت أكرهه بنفس الحدة القديمة ولا أعرف لذلك سببا.

***

وسيد لما قلت له عما جرى لعبد الحميد ظل يسألني عن كل التفاصيل فأحكي. . قال كلاما لم أسمعه أبدا " في الكفر قالوا : ربنا اختاره. . قسمته. . ولكل أجل كتاب، وأشياء أخرى تجعل اللهيب يخبو. .. أما أنت يا سيد فقد جعلته يتأجج " قال سيد : ضحى من أجل بلده. .. أحسست الزهو والرغبة في الفخر بما كان. .. قال سيد : أخذت بثأره .. " أبدا يا سيد. . ما قال لي أحدهم هذا. .. أخفيت الأمر وكأنه عورة. .. لم أفتح قلبي في هذا الموضوع لغيرك بعد إسماعيل. .. يا حسرتي على الأيام التي عشتها مرعوبا وخائفا أتخفى... لو كنت أعرف ما عرفته اليوم ما كنت كففت عن الفعل والحركة، ولأول مرة أحس معنى البلد والدفاع عنها والحماس بعد أن شاب العمر والقلب أيضا .. " أنت جئت يا سيد تعرفني بما كنت أجهله. .. صحيح كنت أعرف أنهم جاءوا من بلادهم وعاشوا هنا يأكلون خبزنا. .. لكنني كنت أحسبهم كجماعة شلبي. .. ما كنت أعرف كل ما تقوله يا سيد. إن قتلهم رجولة وأن دم عبد الحميد لم يضع أبدا. . لو عاد الزمن. . هل يعود ؟. . لو عاد وجعلني أرى قاتلك. . من قتلك؟ عبد الحميد قتله عسكري إنجليزي عند الأزهر. .. وأنت قتلوك في سكة كفر عسكر. .. لو كان الإنجليز هنا لقلت إنهم فعلوها لكنهم خرجوا وأنت كنت تمشي وحيدا في ليل أسود لا تهتف لأحد وربما لا ترى على الإطلاق وجه قاتلك. . ربما رأيته وتعرفه ولكنك لم تبح باسمه. . أنا لا أعرفه يا سيد ولا أحد قال إنه يعرفه. . عزيزة عليك كانت بلدنا. . عزيزة عليك كانت. . من يحبها مثلك. . غضبتي الوحيدة عليك غفرتها. . ولما جاء صالح يطلب مني العودة إلى الكفر لم أوافق. . راح يكلمني ويضاحكني بينما أمتص دخان الجوزة وأهز الرأس متفكرا وعلامة يفهم منها عدم الموافقة. . قلبي كان معك. . لكنك جئت معه في الشهر التالي وقلت لي ارجع وأنا شتمتك. . خرجت غاضبا مني مع صالح. . وحتى لما عدت كنت غاضبا عليك، وأنت تقولها : صالح مظلوم كنت أمسك نفسي عن لعنك مرة أخرى. . وأعجب حاسبا أن صالح ضحك عليك. . " لا يعرف عن صالح إلا طوله وعرضه وابتسامته الساهية، وصالح قالها لي في مرة تالية وكأنه يعايرني مقدما :

ـ سيد قال لي آخذك عندي.

واشتعل في الرأس دبور مسعور. . ظل يطن ويطن " وهل يحملني على دماغه؟ أهي الفلوس التي يدفعها كل شهر تجعله يصر على عودتي للكفر خلاصا مني؟ أهذه آخرة تربيتي فيه وتعبي. . كل مرة كان يقول ما عنده لكن في هذا الموضوع يكذب. . الكفر أحسن لي. . تعرف أنت الأحسن لي على آخر الزمان. . ؟ هل أنسى ما كان من صالح لما خرجت من

الكفر بليل وهو جالس مكانه لا يتحرك. . جربت هذه اللعبة يا سيد ولما جئتني وحاولت أن تجعلني أنسى وأضحك مرة أخرى لم أهتز. . لم أضحك من قلبي. . كانت هناك نقطة سوداء لم تستطع تبديد السواد عنها. . الهم كان في ركن القلب راسخا تصعب زحزحته بألف نكتة. . اليوم زالت الجفوة. . سامحتك. . ربما كنت بدأت أسامحك قبلا لكنني كلما تذكرت ما حصل أعود ويتعكر دمي وأوشك أن أكرهك ؟. . وجاء صالح مرة. . طويلا وعريضا وشاربه يغطي وجهه ويداه خاليتان. . ابنه الصغير كان معه. . قال للولد سلم على سيدك والولد سلم وباس يدي. . والجيران سألوني عنه فصهينت. . سألني عن سيد وإن كان جاء هذا الشهر فقلت : لا. . جلسنا في صمت. . لم يكن بيننا ما نتكلم عنه. . كلمت الولد وسألته إن كان في المدرسة من باب الكلام في أي موضوع. . قام وقعد ومد يده ناحيتي بجدية. . " تحسبني أستجدي يا بن صالحة؟ وفره على روحك يا غشيم ". قلت له أن معي فلوسا كثيرة وأن سيد يبعث إلي بالبوستة وأنني مبسوط. . لم يكن معي ما يكفي " هل كنت أنتظر جنيهك؟ يا فرحتي بمنظرك وأنت تهز طولك وعرضك وتدفع الجنيه. . أين كنت أيام المرض والجوع.. اليوم تدفع لأنك تحسبها. . هناك من يستطيع رد الجميل " حاول إضحاكي بموضوع قديم مداريا خجله من نفسه. . نظرت إلى وجهه وجعلته يخجل أكثر. . كان ثقيلا على القلب كصخرة. . بات الليلة وعملت الواجب. . تصرفت. . "الجنيه الذي جئت تدفعه لا يشتري فرخة يا تيس " وفي الصباح جاء سيد. . كأنه على موعد معه. . أخذني على جانب يسألني عن الأحوال المالية ويعطيني. . أحسست بالفارق. . الفلوس لا تهم، ما كانت تهمني يوما ولا قيمة لها. . سيد كان يحسني ويفهم. . رغم وجود صالح كانت الليلة حلوة.. كنت أنظر إليه بينما يتفرج على قماش الجلباب الصوف الذي أتى به سيد من أجلي. . أقرأ في عينيه حسرة وغلا. . ربما محاولة النظر باستهانة. . " أنت لم تعرف صالح أبدا يا سيد. . نفخة كدابة وحس ميت ودم ثقيل لكنك تحتمله ".

قال صالح وهو يخرج ساحبا ابنه معه :

ــ مش عايز حاجة من الكفر يا با؟

قلت لنفسي " يا دمك؟ عزومة مراكبية. . كلام فض مجالس؟ الخسيس خسيس. . تربية الحريم لم تفلح أبدا. . الرجل ابن الرجل يفهم ويحس والنطع يعمل فيها أعمى وأطرش واخرس ".

قلت له : تشكر. . وراح سيد يوصله. . وكنت استرجع مع كلامه وجه أمه الأزرق.

***

ورجعت الكفر معصوبا ومغلوبا على أمري. . وكل ما يقابلني أحد يسألني عما حدث لعبد الحميد فأحس وخزة في جنبي وأجاهد ألا أحكي. . وأمي لما رحت لها سألتني فأمسكت لساني حتى لا يحترق قلبها أكثر. . كانت تلبس السواد وتبكي وتلعن أبي لأنه شتتنا في البلاد البعيدة ليرضي مبروكة. . قالت لي : لا تخرج من الكفر يا حسن، " الغربة تتوه الأصول يا بني " ولو احتجت شيئا اطلبه منها. . وإن قلت لروحي نار الكفر ولا جنة مصر. . " والأرض فرت من أيدينا وكما قالوا : موت وخراب ديار. . ومهما كانت الأرض مكتوبة لبرهومة فأنا أشتغل في أرضنا والشغل فيها لا يعد معيرة وقلة قيمة في نظر الناس مثل الشغل عند الأغراب. . وما أدراني ببرهومة لما يكبر يتحكم في الغيط والدار أو يجعلني شريكه؟ يخلق من ظهر العالم فاسد ومن ظهر الفاسد عالم. . " قالت أمي : لا تحمل للدنيا هما. . ما كنت أحتاجه كانت تدبره. . اللقمة الحلوة تحضرها وتبعث لي أتعشى عندها. . وأبي عاملني بشكل آخر، بالحسنى، فكدت أنسى بمرور الأيام ما فعله " يا قلبي الذي يصدق ويحن في كل مرة ولا يحمل الأسية " " إن كبر ابنك خاويه " قالها أبي مرة فقلت رجع لعقله. . وكلما تذكرت عبد الحميد ازداد كراهية لمصر وأود لو رجعت مرة واحدة وصادفت الإنجليزي وقتلته. . كلما أحسست الدم يجري في عروقي وعزمي يشتد أرغب في قتله وأعود بعدها فليس لي هناك عيش. مصر للأفندية وأصحاب الدكاكين والأكابر. . هناك جربت الجوع والحاجة والتسكع بحثا عن شغلانة. . وبرهومة بدأ يكبر ويتعلق بي فأحبه. . ومبروكة نفسها بدأت تتحاشى العراك معي كما كانت تفعل في الماضي وكأنها أحست برجولتي. . والقلب ينسى. .

وطلبوني للجهادية. . راح أبي ودفع البدل وجاء مبسوطا. . أعطاني مقطع قماش كشمير وقال : فصله وخلي لي وش صديري. . فرحت به. . قال نكمل الفرحة وننسى الحزن. . سكت. . تتزوج، قالها أبي فارتعش قلبي بالفرحة قلت : رأيك. . قال : خذ صالحة. . سكت. . كانت صالحة في القاعة. . " صالحة يا رجل لا أقبل ريحتها. . لا أريدها. . أكبر مني. . أنت رجعتني ومبروكة تحايلني من أجلها إذن ؟. . ترقبينني بعينيك السوداوين الضيقتين وأنت تصبين الشاي وماذا يحدث لو رفضت أن آخذ بنتك يا مبروكة. . تبدئين الحرب كما كان يجري؟ قلت : ربنا يسهل. . قال : تأخذها. . بنت عمك ولحمك تلمه. . وأنا لم أتكلم. . قال : الصبيان في سنك خلفوا. . زيتنا في دقيقنا. . نكتب ونجهز لما نبيع القطن "صالحة يا رجل ؟. . لحمي" لحمي العجوز؟ طمعان أنت في الأرض التي وضعت عليها يدك " قالت مبروكة نكتب لك فدانين وصالحة لها فدانين. . تعمروا الدار. .

سكت. . شدني أبي وخرج من القاعة قال : كفانا مناكفة. . تأخذها يعني تأخذها ليس فيهـا عيب. . قلت : كبيرة عني. . قال : بنت عمك ونظر إلي في تحفز الراغب في الضرب لو نطقت. . نفس النظرة القديمة التي كانت تخوفني منه. . يقولون كل شيء في الدنيا بالخناق إلا الزواج بالاتفاق. . أين الاتفاق يا رجل. . لا أريد. . تذلني باللقمة أنت ومبروكة؟ قال: هيه؟ قلت : طيب. . أمرك. . وسكتنا.

ولما باع القطن راح طنطا واشترى النحاس والكسوة والخبر شاع في الكفر "مبـروك عليك" يقولونها فأحس السخرية في النبرات والتقاطيع وأسكت. . كانت زفة كبيـرة ومنـدرة الحاج عوف الكبيرة مرصوصة برجال الكفر. . كنت أرتدي جلبابي الجديد. . مر تختروان ونقرزان يطبل ولفوا بأكواب الشراب. . وسمعت الزغاريد. . وكانوا يحطبون في الشـارع ويرقصون عند باب المندرة وأراهم من الشباك المفتـوح. . أبـي فـوق حصـانه يلعـب البرجاس. . شمروخه الطويل يحذرني بحركاته " أرقص وأهتز يا شورة النسوان. . أرقص فالكل يضحك على خيبتك الثقيلة. ." وجاء المأذون فنزل أبي ودخل المندرة وكأنه يكتم بطوله وعرضه على أنفاسي. . وجلسنا بعد أن قمنا لهم حتى جلسوا.. وضعت يدي في يد أبي بعـد أن أخذ الوكالة من صالحة. . غطى المأذون يدينا بمنديل أبيض جديد أخرجـه أبـي وسـط التهليل والهياص " هللوا فاللعبة جديدة ومسلية. . والذبيحة في يد الجزار " كان عبد الحميـد في دماغي " كنت تكرهها يا عبد الحميد وتقول إنها بومة. . قال أبي زوجتك موكلتي البكـر الرشيدة صالحة علي عوف. . أمرني المأذون أن أقبل : وقبلت وفرقعت زغـرودة ودخلـت الغازية وسط التهليل والهرج وراحت تتلوى وفي بطنها ثعبان مرعوش ناعم. . قال أبـي : أطلع واحملها للمندرة القبلية. . أنزلتها من التختروان المحطوط عند باب الدار. . حملتهـا وسط الزحام ومشيت ناحية المندرة. . كانوا يهللون حولي. . دخلت أم مشحوت " الماشطة " وكانت تتثنى وتتكلم بالعين والحاجب. . أمرتني بعمل شيء مخجل. . نظرت إليهـا وعلـى وجه صالحة فلم أجرؤ " وكنت يا صالحة أكره سخفك حتى قبل أن تدخلوا دارنا وتخرج أمي". لفت أم مشحوت رباطا فوق إصبعها وفعلت بينما تضحك، ورأيت الدم يتدفق " وكأن دمك يـا عبد الحميد يتدفق بغزارة من الرأس نظيفا وصافيا غير هذا الدم الأزرق تحتها " وصـرخت صالحة فانطلقت الزغاريد وكأنها تعايرني بسقطتي معها، ودق الكفوف علـى بـاب المنـدرة المسكوك بعد خروج أم مشحوت بقطعة القماش الملطخة بالدم والبنات تغني : (قالوا لأبوهـا إن كان جعان يتشعى. . إن كان شبعان يحطوا. .) ويا عروستنا يا لوز مقشـر تعـالي. . وكلام كتير تاه مني قالوه. . كانت صالحة تجلس على طرف السرير الحديد وكأنها عفريـت مصور. خلعت المداس وطلعت وتمددت جوار الحائط وهزتني تطلب مني أن أقوم لأتعشـى فقلت : لا. . لكنها شالت صينية العشاء الكبيرة وحطتها فوق الطبلية ورصت عليهـا الأكـل

واستمرت تلح علي بأن أقوم حتى قمت غصبا. . كنت جائعـــا ونفســـي مســـدودة عـــن زاد الدنيا. . أزاحت أمامي ذكر البط المحمر والحمام المحشي وقالت : كل. . كانـــت تضـــحك وكنت أحسبها سوف تخجل من نفسها بعد ما عملته فيها أم مشحوت لكنها من يومهـــا كانـــت مفتوحة العينين ولا تعرف الكسوف أبدا. . " كنت تكرهها يا عبد الحميد وتقول إنهـــا تشـــبه البومة " واستمرت تتكلم وتتمايل في جلستها وكأنها غازية. . وكبس علي النوم فقمـــت أنـــام وأنا أحس عدم رضاها عن ذلك. . وفي الفجر وجدتها مرمية بثقلها فوق صـــدري فأزحتهـــا عني. . قالت وعيناها القارحتان تلمعان في نهم ولد مفجوع:

ــ اصحى.

وقمت أغسل وجهي من ماء الإبريق النحاس الذي أمسكته وصـــبته علـــى يـــدي. . وخبطت أمها مبروكة وفتحت لها صالحة وقالت مبروكة بفرح :

ــ صباحية مباركة يا صالحة. . عقبال البكاري.

وأنا ظللت ساكنا ولما دخل أبي قمت واقفا له فقال : اقعد يا عـــريس. . وقعـــد هـــو أولا. . وتوافد الناس ودفعوا لصالحة " الصباحية " وناولت هي البنات مناديـــل رأس ملونـــة والرجال طواقي ومناديل يد. . واحتفظت هي بالفلوس. . ودارت الأيام كساقية تـــئن، ولـــم يكتبوا لي أرضا كما قالوا فقلت لأبي مرة وأجابني أنه ينوي لما أخلف له ولـــدا يفـــرح بـــه. وقالت مبروكة في نفس الليلة:

ــ شد حيلك وهات لنا خلفة.

وقلت لنفسي لا شك أنه قال لها. . وقالت صالحة بعد أن تربست البـــاب بالتربـــاس "اقلع الغيار أغسله لك" فطاوعتها. . كل ليلة لما أعود من الغيط تسك المندرة بالترباس وتأتي ناحيتي وتطلع السرير وتقترب مني فأشم رائحة فمها النتنة. . دائما رائحتها نتنة كـــالقبر. . الأيام رغم شقاء النار أحلى من الليالي. وهي لما تنام تخلع سروالها مدعية أنه يضـــايقها. . وتظل تعابثني وتتضاحك وأحيانا تطلب بلا لف ولا دوران. . وكلما حاولت الرضـــا عنهـــا أعجز.. كلما رتبت في دماغي كلاما عن رائحة فمها أنساه وهي أبدا لا تحس. . ولما أغلب منها أعرف ما تريده وأعطيه لها لتهمد. . وأنام. .

وجاء أبي مرة وخبط ظهري بكفه الغليظة قائلا:

ــ ما تجمد يا سبع الليل.

وقالت مبروكة لأبي وهي تناوله خنصر الشاي :

ــ اللي يختشي من بنت عمه يبقى إيه يا خويا؟

أحسست أنها تقصدني فاغتظت من صالحة. . كل ليلة أخاف من عدم تلبية رغبتهـــا لأنها تقول لأمها وأمها تكلم أبي وأبي ربما يضربني بشمروخه في لحظة غيظ فأطاوع. .

وفي الكفر كان الرجال والصبيان يقولون لي : صحتك يوم في النازل ويوم في الطالع ثم يتغامزون. . " أعرف أنكم تتحدثون عن الفرع الخائب من جماعة الحاج مصطفى. . عبد الحميد قال لي مرة إن أبي جعلنا لبانة في أفواه الناس ". " وحتى جدي مصطفى ظـل فـي أذهانهم كريما وأصيلا، محبوبا على خلاف أبي الذي يخافونه أكثر مما يحترمونه " كان عبـد الحميد يفهمني ما يعنيه الناس بالكلمات لكنني كنت أصغر من أن أفهم أيامها.

قالوا في الكفر أن مولد السيد عمران. . قلت لأبي آخذ برهومة أفرجه على المولـد وكانت مبروكة تجلس فأومأت بالموافقة " في كل شيء تنظر إليها تستجديها الرأي؟ " أعطاني أبي ريالا. . واتفقت مع جماعة من ناس الكفر وأولاد العم وركبنا ورحنا إلى طنطا نتفـرج على الناس والذكر والزفة. . وأخذوني عند الساري وظللنا نتجول. . هناك نصبوا سـامرا وكانوا يحطبون. . كانت معي عصا. . أولاد الكفر قالوا العب يا حسن. . نزلت ولاعبـت شابا لا أعرفه فبان لهم فني. . هللوا لي لما لاعبت الآخر. . وخرجت أتفرج على الرجـال الكبار. . وشدني رجل وقال : لاعبني. . خفت من منظره لكنهم شجعوني وفي نبراتهم نغمة الوعيد بالسخرية مني. . نزلت ألعب وأضحكت على الرجل السامر كله. . ونزل رجل آخر يشبه أبي فقلت لا ألعب فقال لي : أنا ملك السامر وإذا كسبتني تكون ملكـا. . وأغرانـي أن أكون ملكا. . نزلت إليه ولاعبته وعجزت عن لمسه وعجز هو أيضا. . كان مبسوطا منـي وكأنه أب يرى ابنه عفيا. . ومرة وجدت ظهره خاليا فلمسته وهو يضحك. . هاص النـاس وهاص هو معهم ووجدت الرأس خاليا فلمسته أيضا وتحمس الرجل بعـد أن كـان مسـتهينا بلمساتي لكنه ارتبك لما عجز عن لمسي. . وبدأت أتسلى عليه وسط التهليل والهرج ولقـب الملك الذي أحرزته. . ووقف الرجل فوقفت. . وجاء وسلم علي وسألني عن بلدي فقلت له : كفر عسكر. . وقال مبسوطا : أنا من كفر الشرفا يا ملك. . كنت فرحانا بنفسـي ورجـال الكفر قالوا : فكرتنا بعبد الحميد لما كان يلاعب في السامر ويكسب الملك. . وكلموني عـن عرق الصبا الذي يلبد في داخلي ويمتد إلى ذراعي فيجعله قادرا وسريعا كسـبع. . وسـرنا وسط البلد نتفرج على ناس طنطا. . ورسمت على يدي سبعا يحمل سيفا بالوشم الأخضـر. كانت الإبر تكوي والدم الأزرق يتكون خطوطا نحيلة ويتسلل في بطء على ظهر اليد كحبـات عرق تنبت فوق الجبهة في عز بؤونة. . كنت أبتسم فرحانا لصبيان البلد وبروهمة فرحـان بي هو أيضا يتكلم مع الأولاد بجسارة كأنه يستمد قوته مني" وكنت أنا يا برهومة فـي مثـل سنك لما أجيء مع عبد الحميد وأراه يكسب وهو يلاعب ملوك الـزمن الفائـت أفـرح كمـا تفرح. . لكنه لم يكن هناك ما يعكر الصفو فلا دار بيننا ولا غيط " وسرنا في سـكة الكفـر والشبان يهللون حولي وكأنني توجت بالفعل ملكا. . وعند بوابة الحاج عوف فاتني الأغراب واستمر أولاد العم وبرهومة في يدي يتراقص بخطواته الصبية. . وعبرت الدرب ودخلـت

الدار وحدي وبرهومة في يدي فرأيت صالحة تجلس متكورة بجوار أمها ولما شافتني قامت وتبعتني واتجه برهومة إلى أمه. . وكان الصباح في المندرة يرسل ضوءا شاحبا فعالجته ليزداد الضوء. . وسألتني صالحة بعد أن سكت الباب لماذا تأخرت هذا الوقت كله وجعلتهم يقلقون على برهومة فلم أجاوب. . سألتني عن بقية الفلوس فقلت لأتخلص منها : صرفتها: صرخت في وجهي وكأنها ندابة: يا خرابي. . اقتربت مني تتدلل فقلت وأنا أزيحها بيدي: ابعدي عني. .لكنها اغتاظت مني وشدتني من طوق جلبابي فغاصت أظافرها في لحم رقبتي فالتفت إليها وناولتها بظهر يدي المرسوم عليها سبع فوق بوزها. . سال خيط دم وراحت تصرخ فلم أهتم وجلست فوق الحصير. . ودخلت مبروكة وسألتها عما جرى فرمحت ناحيتها وقالت أنني كسرت أسنانها. . قالت مبروكة : تنكسر رقبتك على صدرك يا عرة. . شتمتها. . قالت هي لمبروكة دون حياء إنها عيشة مهببة ولا تساوي وأضافت لتدلل بأنني أغيب عنها مهما أغيب وأدخل بوزي شبرين ولما أنام أعطيها ظهري طوال الليل وكأنني عبيط ونضح العرق على جبيني. .. أحسست برودته لما مرت عليه نسمة هواء. . خجلت أن أدافع عن نفسي في هذا الموضوع.. ودخل المندرة ناس ووقفت في الشارع ناس من الأهالي. . وجاء أبي فشق لنفسه طريقا بينهم وساد صمت تقطعه دمدمات التوقع. . وأنا نظرت إلى يده فلم أجد شمروخه فظللت واقفا في مكاني. . ولما أصبح قبالتي تماما قالت مبروكة متظاهرة بأنها تكلم صالحة :

ـــ لا ضرب ولا خبط. . نفوت له الدار ونطلع.

وسأل أبي عن الحكاية فلم يسمع جوابا. . وكأنما حسب حساب الأرض التي يضع عليها يده. . ولا أدري من أين طلع شمروخه وانتصب في يده كمارد أسود. . من جنب الجدار أم أنه كان يحمله في يده الأخرى ويداريه خلفه. . المهم أن الشمروخ بان وساد صمت ثقيل وكأنه عمر بطوله. . وتحركت يده ناحيتي بالضربة. ورغم سرعتي في تحاشي الضربة طالني طرفه. . طال ذراعي فلم أعد أحسه. . وكاد أن يخبطني مرة أخرى فظهر عمي إبراهيم خلفه وأمسك الشمروخ ومنعه من الحركة واحتمل ما قاله أبي. . وسقط ذراعي بجانبي وعلى ظهر راحته سبع له شوارب طويلة وسيف لونه أخضر. . كان الدم ينزف. لم يكن حتى ينزف، كان يتقافز في خط صاعد ويميل ناحية الجدار فيعوصه. . ولما أزاح أحدهم كم الجلباب ليرى الجرح تطايرت نقاط الدم وكادت أن تصل إلى السقف ونزلت على الأرض رذاذ مطر خفيف دافئ. . " ضربت عرق الصبا يا رجل فقطعته دون أن تعرف حتى لأي الأسباب تضرب؟ قالوا له : قتلته يا عم عبد القادر " قتلتني يا شورة النسوان من أجل صالحة؟ ".

ولولا أنني كنت واقفا لصدقتهم. . كتموا الدم بحفان بن مصحون وربطوا ذراعي بقماش أسود. . وأنا ساكت. . وجاءت أمي لا أدري من أين.. سمعت صوتها يجلجل في الشارع. . يقترب ويدخل الدار. . وكانت تشتم أبي بجسارة وحماس جاءها لا أدري من أين.. قالت : عملتها يا خنزير. . موت عبد الحميد في الغربة وحسن أيضا. . ؟ وأنا أحسست بنفسي غير قادر على سماع رده عليها. . لم أستطع حتى الاستمرار في الوقوف مكاني. . وقعت على الأرض ولم أعد أحس بروحي أبدا. . كل ما جرى أنني كنت أسمع دويا متداخلا لأصوات لا أستطيع تمييزها أو معرفة أصحابها. . وكنت في رقدتي أرى عبد الحميد وأشتكي وأجعله يبكي.

والحكومة لم تعرف شيئا عن القاتل. . " قال الضابط : قيدنا الحادث ضد مجهول وحفظنا القضية " وأنا كنت أحسب أن الحكومة لا تخفى عليها خافية وبعثوا لي نقودا في شيك فقلت يدفعون ثمنا لدمك يا سيد ؟. . قلت للموظف وأنا أعيد إليه الشيك أنني لا أطلب إلا معرفة القاتل ولا أبيع دم ابني. . ابتسم في إشفاق وقل مهدئا :

ـــ مش اختصاصنا يا حاج. . دي مكافأة ابنك عن خدمته. . وأنت حر فيها. . إنما يستحيل ترجع الخزينة.

وأنا قلت لنفسي " لو كانت الوزارة لا تعرف من قتل ابني فمن يعرف ومن المسئول لأسأله؟ " والليل يومها كان ثقيلا. . كنت مطحونا تحت قادوس الكلمات التي تتعي. . وكلما صادفت زميلا لك ولو قديم يسألني عنك فأحس الناس ما نسيتك أبدا. . ربما أنساك. . أبدا. . حتى لو نساك الناس ما نسيتك أبدا. . ما تبقى من العمر قليل. . فلأحتمل. . ولو طال العمر حتى سأظل أذكر. . " كان سلومة وصالح وسعيد وشعبان حولي في الجبانة، وجعلت أدق بالكفين المجنونين جدران المدفن وكأنني أوقظك من نوم ثقيل ولا أسمع غير صدى خبطاتي ولا ترد. . والأصوات كانت تهمهم وتحاول إعادتي إلى الوعي فلا أعي، كان يحيرني أن تروح هكذا على غير توقع وبلا مقدمات. . الإنجليز قتلوا عبد الحميد قبالتي وعرفت على الأقل وجه قاتله أما أنت فقاتلك مجهول الهوية وقضيتك محفوظة لعدم توافر الأدلة. . " إيه يا سيد. . العمر عدى والقبر في الكفر ينتظر لكن الموت يتلكأ. . ومن يومها تبدل الحال يا سيد ـــ السمع طاش، والنظر طاش، والعقل طاش. .

يوم الأربعين رحت وحدي إلى المدفن. . والبنت التي شفتها تلبس السواد لم أعرفها. . سألت نفسي إن كانت من ناس الكفر أم أنها غريبة. . أنا الغريب هنا ما عدت أعرف ناس الكفر حتى. . " ترى جئت من أجل سيد أو من أجل غيره؟ "وقالت لي : البقية في حياتك يا عم حسن" تعرفينني وأنا لا أعرفك يا شابة؟ " ولم أعرف كيف أسألها عن اسمها لأتأكد أنها من جماعتنا أو من الأهالي. . لم أسألها رغم أنها عزتني فيك يا سيد. . نبراتها

كانت صادقة وحزينة. . وأنا كنت أبكي. قالت شد حيلك. . بوفاء قالت. . وكلمـــا أوشـــك على سؤالها عن اسمها أتوقف " يمكن حورية من الجنة جاءت تونسك في وحـــدتك وتســـليك وأنت في العتمة. . ما دام المدفن لا يزار. . عائلة الحاج عوف جاءت ونســـيت الأصـــول وعائلة شلبي كبرت على زيارة القبور مهما كانت قيمة الأموات. . "

في السكة لم تخرج البنت من دماغي. . ظللت أعصره وأقول لنفسي أننـــي عرفتهـــا ربما قبل أن يكون العمر نفسه. . وفي لحظة ومض شعاع وعي خاطف فاستعدت التقـــاطيع وعرفت أنها بنت شوق. . نفس الملامح وحتى النبرات " جئت إذن من أجله يـــا ســـعاد ؟. . عرفت الآن اسمك. . الموت جمعنا لما عجزت عن ذلك الحياة ".

وقال لي واحد من " التملية " إنه طهق من ناس الكفر وأنه ذاهب إلى البراري في ضم الأرز. . قلت له لما يأتي المقاول يطلب أنفارا قل لي وسألني لماذا فصهينت. وجاء المقاول قبل أن يطيب الجرح لكنني كلمته وخرجت مع الأنفار من الكفر خلسة. . فت لهم الجمل بما حمل ورحت البراري. . كانت العيشة مرار والأجرة قرشان. . تظل منـــذ الفجـــر نحـــش بالمناجل أعواد الأرز وكأننا نحش معها أعمارنا. . الناموس يمتص الدم ويسمن ويتكـــاثر. . وننام في قاعة معتمة ومشحونة كأنها زريبة مواشي. . ومرة رآني الخولي أريـــح ذراعـــي فضربني كفا وشتمني. . قال له أحد الأنفار عن أصلي فقال الرجل باستهانة أصلك فعلك يـــا روح أمك. . " أيام بنشرب عسل وأيام بنشرب خل وأيام نبات على السرير وأيام نبات فـــي الظل. . صدقت يا عم إبراهيم لكن هل شربت الخل أو نمت في الظل حقا " كنـــت أســـمعها للمرة الأولى : أصلك فعلك. . وقال النفر ليبعد عن نفسه شبهة الدفاع عني : معلوم. . مـــن يومها لم أعول على الأصل أو أحطه في حسابي. وقلتها لكل من يجهلها : أصلك فعلـــك. . "راحت أيام اللمة في مندرة الحاج عوف الكبيرة. . وجدي مصطفى يجلـــس فـــي صـــدرها بطلعته المهيبة وأبي وأعمامي يتكورون على الدكك وكأنهم تماثيل محنية أخذ منها الجد كـــل الشموخ والمهابة وتركها منكمشة على روحها. . ونحن صغار وكثار نجلس علـــى الأرض بين أقدام آبائنا نسمعه يحكي. . عن أصلنا الممتد حتى سيدنا الحسين و. . تنتفخ صـــدورنا الصغيرة ونكبر ونوشك أن نطول ركب آبائنا الجالسين على الدكك. . ولما نمشي في الكفـــر ندب الأرض غير هيابين ولا الشياطين الزرق مثلما يفعل أعمامنا في غيبة الجـــد مصـــطفى، نتسابق في قطع فروع التوت والسنط والليمون نعملها عصيا رفيعة في طول قاماتنا ونمشـــي في دروب الكفر نفرقع ونضرب أولاد شلبي بدون أسباب سوى رغبتنا في الضرب. . ومـــا دمت أشتغل مع الأنفار فأنا نفر. . وسيدنا الحسين النائم في قبره في مصر قريبا من المكـــان الذي قتلوا فيه عبد الحميد نفض يده من أمر نسله الذي لا يحصى له عددا. .

"ويحكي جدي مصطفى عن جماعة شلبي بسخريته المعهودة. . كيف جـاءوا إلـى الكفر وتسللوا بمسكنة نفرا نفرا دون أن نعرف عن أصلهم أصلا. . يتـاجرون فـي الملـح والدخان والتمر وأحيانا القماش. . وأشياء أخرى كثيرة يحملها الواحد منهم في خرجه الـذي على ظهره كالحمار. . ويحكي كيف أن جدهم لما اشترى حمارا وحط عليه خرجه راحـت جماعتنا تتندر عليه شهرا وتسخر. . ويتفرجون عليه ويقولون له : ربنا فرجهـا عليـك. . ولما تزايدوا فتح الرجل دكانا جعله مخزنا لكل الأصناف التي نشتريها من البندر. . وقاطعوه مدة لكنهم كسلوا عن شراء الطلبات من البندر. . بعدها اشتروا أول فدان من ناس الكفر غير جماعتنا. . وعملوا جنينة، ويظل يحكي حتى يصل بنا إلى ختام حكاياته عنهم فيسأله عمـي إبراهيم وهو أكبرهم سنا كيف أنه باع لهم أرضا من حوضنا فيطرق متفكرا أو آسفا ثم يقولها. الكريم لا يضام ثم : الحريم. . أس البلاوي. . الحريم يا بني. . لو تل مال ينتهي. . لو قـوة ثور تنهد. . لو عقل واعي يخف وكله من الحريم. . ويجلس عمي إبراهيم وكأنه تلميذ شاطر في الكتاب. . ونحاول أن نعرف المزيد عن الحريم وكيف أنهم أس البلاوي، ما دام يعـرف ذلك فكيف رضى لنفسه بمعاشرة الأربعة في آن واحد. . ويتابع هو دون أن يسأله أحد هـذه المرة بينما الضحكة تملأ شدقيه وكأنه سليمان الحكيم في المصحف الشريف. . يا ريت سيدنا النبي خلاهم تسعة أو حتى عشرة. . الحريم يا أولاد دنيا بحالها لا لها أول ولا آخر. . اللهم صلي على سيدنا النبي.. علقهم في رقبته كمسبحته وقال: اعدلوا بينهم. . النبي عليه السلام تزوج إحدى عشرة والمسبحة المباركة ثلاث وثلاثين حبة. . ويا بخت من عنده مـن العيـال سبعة كما سيدنا النبي. . ونحصي عدد من خلفهم جدنا فنجدهم عشرة فنعجب لأنه زاد علـى سيدنا النبي. . ولما نخرج من المندرة نلعب نقول لبعضنا أننا لما نكبر نتزوج أربعـة مثـل جدنا ونبيع الأرض وندخل الدنيا الكبيرة التي يكلمنا جدنا عنها. . عبد الحميـد وحـده كـان يعارض ويقول في جرأة رجل عاقل ومتزن:

ـــ يا ولاد دا راجل عجوز وبيخرف. . دي الأرض طالعة من حبابي عنيه.

ونعارض عبد الحميد رغم أنه أكبرنا وحافظا للمصحف. فيقول مرة أخرى:

ـــ والمصحف الشريف الراجل بيداري حسرته وخيبته وبيضحك عليكم.

والفرع مال يا حاج مصطفى يا عوف والبخت أيضا. .. حفيدك يضـم الأرز عنـد الأغراب بالأجرة وسط التملية، وكانوا في غيطك ودوارك مثل المواشي نركبهم لو طلبنـا. . والخولي قالها وصدقته: أصلك فعلك. . حتى أبي لما جاء مصر لم يسألني عـن قاتـل عبـد الحميد. . أخذني ورجع كالأرنب. . وكنت أحسبه سوف يأتي بشمروخه ليضرب القاتل ولكنه أتى يخوفني ويرجعني لصالحة. . وقلت لروحي يومها، راحت هيبتنا وقوتنا وأصبحنا كالحريم نبكي على الأموات ونندب. واغتظت منه لأنه سمع الحكاية ولم ينتفض ممسـكا بشـمروخه

ويرمح مطالبا بدم ابنه، وفي الكفر عاش ناعما مدة من خزيه، لكنه استعاد حماسه معي واندفع يضربني بغل فكسر ذراعي وقطع عرق الصبا. . " كأنك كلب يا أبي لا تبين شطارتك إلا في كفرك ". . والجرح كان يعل علي ويوجعني بينما أشتغل في عز الحر فألعنه. . أقول لنفسي لما أحس التعب يتسلل إلى أطرافي. . مصر أرحم.

الآن أهبط. . أهبط في جوف الذكريات على مهل. . أستعيد سيد. . أهرب من موته المكذوب المقدمات. . أراه حيا قبالتي. . الغذاء الأخير بيننا، حلاوة اللقمة بعد غيبتــه عنـــي شهرا. . قال سيد:

ـــ نفسي أدوق البامية بالفراخ. .

ذبحت ديكا ونظفته. . جاء من السوق حاملا بطيخة وخضارا. . قال: أساعدك؟ قلت له: ارتاح أنت. . قال: أساعدك. . عصر الطماطم وخرط البصل. . ووضع لنفسه في الحلة بصلة مقشرة. . خرج مدة وعاد وكشف الغطاء. . سألني إن كانت البصلة قد اســتوت " يـــا ناصح. . تعملها حجة من أجل الحوائج مثل كل مرة " كنت أعرف نواياه وقلت وأنا أضـــحك محاولا أن أبدو حازما وجادا: غطي الحلة يا حرامي الفراخ. قال: أشوف البصلة، أخرجها مع الحوائج ورأس الديك وهو ينظر إلي متصنعا الخوف. "لو كنت أعرف أنك ترضى لأخرجته لك كله تأكله وأراك فأشبع " قال : خذ قطعة كبد. . قلت : كلها. . أخذ الطبق في يده وراح يدندن بأغنية مرحة. . " تحب الكبدة وتكتفي بجزء منها وتصر في كل مرة على وضع الباقي في فمي خلسة " سألني : حلوة؟ قلت وأنا أمضغ ما وضعه بيده في فمـــي. . الأكـــل اســـتوى قال : رائع، وراح يغرف، قعدنا نأكل: إن اللحم حلوا. . دائما لما آكل مع هذا الولـــد أحـــس طعما حلوا للأكل وقدرة على ابتلاعه. . من غيره لا تنزل اللقمة من الحلق براحتها. . أكلنا وانبسطنا، راح يحكي بينما يجفف يده المغسولة. . قال : هات السكين. . بدأ يقطع البطيخـــة ببطء من عند القمة. . يسألني : تراهن. . راهنته. . قال : أعرف أنها حلوة.. كانت حمراء وحلوة. . أكلنا ونحن نحكي. . قال : ندخل السينما؟. . أضاف : فيلم فرنسي جديـــد وعليـــه زحام في مصر. . قلت : ندخل. . قال في الطريق : أقرأ لك الترجمة حتى لا تتضـــايق. . ذهبنا. . كان الفيلم عجيبا وسيد يفسر لي بصوت خافت كل المواقف الصعبة. . لما خرجنـــا كان يكلمني عن الفارق بين السينما المصرية والسينما الأفرنجي. قلت: كانت الأفلام العربـــي في أول الأمر أحسن منها الآن. . قال فعلا. . ســـألته عـــن الســـر فقـــال لـــي : الـــدجل واللصوصية. . سألني إن كنت مبسوطا فقلت: جدا. . سلم على جماعة من أصحابه في سكة البيت. . لم أفكر في النوم ليلتها. . كنت مرتاحا معه. . كل ما يقوله يشرح الصدر. . كان يدخن أحيانا وكل مرة يقدم لي سيجارة فأقول له أنني أفضل تدخين المعسل. . وأحط الفحمـــة على النار ولما تستوي أرص الحجر وأدخن. .

" لو يتزوج هذا الولد أرتاح " قلت له:

ـــ ما تشوفلك عروسة بنت حلال يا سيد يا بني.

قال وهو يتعجب :

ـــ ولزومه إيه ؟. . الجواز في الزمان دة ورطة.

قلت وأنا أداري عجبي :

ـــ يا بني دانا راجل كبير ولولا الملامة أعملها.

قال ضاحكا بسخرية العارف مغزى ما يقال :

ـــ أعملها ولا يهمك.

" أعملها يا سيد؟ مرة أخرى؟ غايتي أفرح بك أنت. ."

كان يبدو صافي الذهن مطمئنا. . كنت أحس قلقا. . لا أعرف كم عمره بالضبط. . فات الثلاثين منذ مدة. . ربما خمس سنوات فاتت. . لكنه بدأ يكبر وشعره يشيب. . " ربما يذهب إلى الكفر باحثا عن واحدة من هناك. وبنات مصر هناك بنات، لكنه لدغ من جحرهن مرة. . كيف يصبر؟ في أيامي كنت قد خلفت وأنا في سنه صالح وسيد وتزوجت بعد أمه. . " قلت متشككا في صدق ظنوني :

ـــ إوعى تكون ماشي في الخسارة.

قال ضاحكا مستهينا بأفكاري:

ـــ أبدا. .

أضاف وكأنه يبرر نفسه.

ـــ تعرف ماهيتي كام؟ والمهر كام والشقة بكام؟ الزمان ده له طعم تاني. .

" لو سمعت كلامي من أول شهر ووفرت مبلغا كما قلت لك ما قلت هـــذا الكـــلام. . ولو كان عندي شيء يباع لبعته وزوجتك. . لكن ما باليد حيلة، أحسست الهم فوق صـــدري ثقيلا بالعجز عن مساعدته. . تخفف عني الهموم بسمته المطمئنة. . قلت له:

ـــ مش عايز منك حاجة يا سيد. . بس دبر أمورك أنت.

قال متأففا:

سيبك من الموضوع ده. . بعدين نتكلم فيه.

وسكتنا مدة. . بدأنا نثرثر. . أحيانا أحس أن الموضوعات التي يكلمني عنها لم تعد تهمه. . أسعار الخشب، أنواع المسامير، نقص الخامات، ما له بهذه الأشياء ؟ إنـــه يفتعـــل الحديث معي. . كنت أحس هذه المسألة ببطء. . الآن حدث أن أصبح كل منـــا فـــي واد. . ضاعت مواضيعنا المشتركة. . مع من يتكلم بحريته هذا الولد؟ " قلت دون أن أدري :

ـــ واسمها إيه دي. . اللي. . اللي كنت بتحكي لي عنها. . زمان. . كنت بتحكي عنها زمان ؟. .

كنت أعرف حكايته مع البنت التي كف عن الحديث عنها رغم حماسه القديم لها "ربما ضحكت عليه. . كم سنة فاتت وهو ساكت لا يحكي؟ "

قال وهو يخرج علبة السجاير ويتناول واحدة. . يشعلها مجاهدا نفسه لرسم ضحكة على شفتيه تشي بأنه لا يرضى :

ـــ كل سنة وأنت طيب.

ـــ يا بني عرفني.

قال ممعنا في رغبة الفرار من الاستمرار في الكلام:

ـــ تعرف الأمريكان ؟ . نزلوا القمر وحطوا علمهم فوقه. . عرفت أنه يهرب. . تركته يهرب.

" وأنا لو سعدني زماني لأسكنك يا مصر. . وابني جنينية ومن جوه الجنينة قصر". . قالها عمي إبراهيم في لحظة تجلي وكان يتمدد تحت الجميزة العجوزة في طراوة العصر. . في لحظة تجلي راح فيها يسب الكفر وناسه " وأنا رجعت لك يا مصر. . لا أطمع في بناء القصر ولا حتى السكن. . غريب جاء يزور قبر أخ له دفنوه يوما في جبل الدراسة. . فافتحي للغريب صدرك، فقابلت الشيخ سعد في الجامع وقلت له أخباري وأخبار الكفر. . سألته عن أخباره وأخبار مصر فقال ملخصا ما يراه : " سعد زغلول طلعوه الإنجليز ومسك الحكومة. . والمظاهرات خفت والأحوال هدأت لا عراك ولا مشاكل. . " قلت له يبحث لي عن عمل فسكت، كنت أدور طوال اليوم وأرى في العيون سكونا وصمتا. . منهزما أو منتصرا لا أعرف. . سكون ما بعد المعركة التي يدخلها الإنسان لما ينهج ويتوقف مستعيدا أنفاسه. . ربما ساعتها لا يقيس الواحد إن كان قد فاز أو انهزم. . المهم أنه واقف يستعد مرة أخرى أو يقول لنفسه كفى. . " وأنا كنت أحسب أن المظاهرات ما زالت والناس تتعارك مع الإنجليز. . إنهم يتمشون اليوم في الشوارع باطمئنان مستتب. ويتكلمون مع أولاد العرب وكأنهم أولاد عم. . أتفحص وجوههم بينما أصادفهم في مشاوير البحث عن عمل. . وكأنني سوف ألتقي في لحظة بوجه قاتل عبد الحميد وأتعرف عليه. . "ولو رأيته يا ولد. . تعملها وتتعارك معه وربما يتعارك الناس من أجلك. . أم تتفرج عليه وكأنه لم يقتل؟ أبدا. . تعارك وما يجري بعد ذلك يكون " كانوا يتشابهون فعجزت عن فرزهم والتعرف على نفر منهم. . نفسي العيون الملونة والوجوه الحمراء. . والرطانة غير المفهومة. .

وجدت مظاهرة صغيرة يهتف على رأسها ولد أسمر نحيل لكنه متحمس. . الشيخ سعد شغلني في مخبز قريبا من مسكنه. . وبعد أيام رأيت الولد الأسمر. . هذه المرة كنت

ممسوكا بلا سبب. . كنت أحمل قفص العيش الفارغ. . وجدت البوليس المصري يرمح في أثر الناس. . قالوا مظاهرة يفرقوها. . كنت أرى رجال البوليس يضربون من يصادفونه. . اغتظت لأن مصر كانت تضرب مصر والإنجليزي يأمر. . ظللت واقفا مكاني تحت البواكي. . جاء عسكري مصري وضربني بالشومة وشدني. . لما حاولت المقاومة قائلا أنني لم أعمل شيئا جاء آخر وآخر وانهالوا علي ضربا. . أخذوني في البوكس مع الجرحى والممسوكين أمثالي. . راحوا بنا للمحافظة. . حطونا في الحجز. .

دخلت فجلست. . لما حاولت أن أقول لناس التخشيبة أنني لم أشترك في المظاهرة ضحكوا أولا. . لما أكدت كاد أحدهم يضربني. . قال " دسيسة " كدت أتعارك معه. . شفت الولد الأسمر يشق لنفسه مكانا ويقف. . نظر إلي. . سألني بسرعة:

ـ أنت من الغورية؟

قلت له نعم. قال : شفتك. . كنت قد نسيته. . تذكرته بعد مدة. . قال:

ـ هي المظاهرات عيب؟

قلت: لا.

في الحجز جعنا. . جاءني إسماعيل. . قال بثقة غريبة :

ـ هات كل اللي معاك.

كان معي ريالا حوشته وقرشا. . مددت إليه يدي بكل ما معي. . قال:

ـ لما تخرج تأخذ الفلوس دي. .

نادى العسكري، أعطاه فلوسا أخرى وطلب منه أن يشتري أكلا وسجائر، أكلنا جميعا في الحجز. . أصبحت أحب هذا الولد إسماعيل .. فتحت له قلبي. . قلت له حكاية عبد الحميد. . قال: خد حقك. . سكت. . كان يبدو رئيسا في الحجز. . ضربونا نفرا نفرا في صالة المحافظة. . كل ما يتناول إسماعيل شومة يشتم أكثر. . البوليس المصري والإنجليزي والوزارة. . لما ضربوني ظللت ساكتا رغم قسوة الضربات. . قال إسماعيل بعد أن ضربونا ورجعونا:

ـ كلها ساعتين ونخرج. .

سألته لماذا كان يشتم. . قال:

ـ بدل ما أقول آه ألعن سنسفيل جدودهم وآهو كله صوت طالع من الحلق.

عرفني إسماعيل مكان شغله. . كنت فرحانا بمعرفته. . لما رحت للشيخ سعد وعرف الحكاية غضب مني قال لي لا تحشر روحك في المظاهرات مرة أخرى. . حاولت إفهامه فلم يفهم. . أضاف: مرة أخرى ليس لي بك شأن. . عجبت. . قال محاولا أن يغير الموضوع : زواجك من صالحة كان غلطة لا يساويها إلا هربك من الكفر بعد أن خلفت

ولدا. . قلت هو لا يريد معيشتي معه. . لو كنت أستطيع تأجير سكن لأجرته. . أريحه مني وارتاح من تكرار وعظه وتخويفي من أبي. . كأنه يعيشني على حسابه. .

لما قابلت إسماعيل في القهوة التي يشتغل بها رحب بي وطلب لي شايا. . قلت لـه: شف لي سكنا. . سألني عن السبب. . قلت له كل شيء. . عن الشيخ سعد وأبي وصالحة وشغلانة الفرن. . قال لي : ما دمت تركت البلد طلق البنت تشوف حالها. . قلت لـه: معقول، أطلقها على رأي المثل " إيش ياخد الريح من البلاط؟ ".

كان سكنه في بيت قديم قريبا من القلعة ناحية الجبل. . حجرة ضيقة ليس بها غير حصير قديم وبطانية وبعض الأواني غير النظيفة. . قال:

ـــ هي الحتة لو أمان كنا نشتري سرير شركة. . بس مليانة حرامية. .

خفت. . قال مهونا الأمر:

ـــ ولا يهمك. . اشتري لك مطوة زي دي. . لو حد اتعرض لك طلعها.

أفهمني أنه من الممكن أن أشتغل معه في القهوة وأترك المخبز حتى لا يعرف الشيخ سعد عنواني. . قلت كل شيء معقول إلا حكاية السكة. . قلت له وأنا أستعيدها :

ـــ دي السكة مقطوعة فعلا.

قال مهونا علي الأمر.

ـــ من بعد القسم وشارع الترماي بس. . خليك جدع أمال.

كنت مترددا لكن معاملة الشيخ سعد كانت تتميز بالفتور. . قال مرة " بعت للجماعة والأولاد " فهمت منه أنه ينوي أخذ امرأته في مصر بعد أن تركها لسنوات طويلة واكتفى بالسفر كل مدة. . ربما ضاق بمعاشرتي وخجل مني؛ لأنه يضطر أن يعرفني بأصحابه على أني قريبه متحاملا على نفسه من سوء حالي. . قلت لنفسي أسكن هنا وأفوت للشيخ سعد مسكنه. . ونقلت سبت الملابس إلى حجرة إسماعيل وكانت السكة ساكنة والظلام يخيف. . اشتريت مطوة كما قال إسماعيل وشلتها في جيبي من باب الاحتياط، وكان إسماعيل يشتغل وردية الصبح وأنا أسهر أحيانا حتى منتصف الليل ولما أرجع أجد إسماعيل جالسا على الحصيرة يدخن الحشيش وكل مرة يقدم إلي الجوزة فأدخن ولما أتوه يضحك علي ويقول "فلاح". . ولم يكن يضايقني شيء أكثر من مشوار العودة في السكة المقطوعة وكل ما أقول لإسماعيل تسكن في مكان آخر يقول أنه مناسب ولا يرضى. .

كنت راجعا من الشغل وأمشي في شارع شيخون في اتجاه القلة. . وجدت نفرا يتطوح سكرانا عند السبيل فأبطأت خطوتي ولما حصلني وجدته يكلمني بكلمات غير مفهومة ويشتمني بعربي مكسر. . " إنجليزي وسكران وترمي بلاك على خلق الله؟ " لم أرد. . مشيت في حالي. . عاد يتطوح في خطواته ويبتعد عني ثم يقترب. . سبقني بخطوتين. لو

كانت لي سكة غيرها لمشيت منها. . توقفت مدة " ابعد عن الشر وغنـي لـه كمـا يقـول المعلم". . كان واقفا في مكان معتم وكأنه يقطع سكتي. . سألني عن سر تأخيري حتى هـذه الساعة، فهمت كلامه بصعوبة قلت له: أشتغل في قهوة في المغربلين تشطب فـي منتصـف الليل، شتمني واتضح أنه لا يفهم ما أقوله. . وعاد يمشي في اتجاه القلعة. . سبقني بمسـافة وأنا بدأت أتسكع حتى لا يراني ويضايقني. . تذكرت المطوة. . اطمـأن قلبـي. . قلـت لنفسي : لو كنت تذكرتها لما كلمني وشتمني ما خفت منه. . كنت أمشي بجوار الجامع فـي العتمة. . انتصب عبد الحميد قبالتي بوجهه الذي ينضح الدم. . كانت التقاطيع واضحة رغم غطاء الدم الذي ينزف من الجبهة. . ارتعبت. . طنت في أذني كلماته : اقتلـه. اقتلـه يـا حسن وريحني في قبري. . " راح بعيدا. . لو حصلته وحاولت ربما يقتلنـي لأنـه مسـلح وسكران. . تخوفني يا عبد الحميد وأنا جئت مصر أزور قبرك ؟. . أخاف أعملها. . أبوك لم يعملها. . إسماعيل قال لي المطوة تحميك. . من اللصوص، لأنـه لـم يـذكر الإنجليـز السكارى. . عاود عبد الحميد كلامه بصخب أشد. . اقتله وفك قيدي، المطـوة. . المطـوة "أخرجتها من جيب الصديري وفتحتها. . عند منحنى ضيق ومعتم تماما كنت أتحسس أنفاسي بأذني. . كان يدندن بلغة غير مفهومة. . ربما هو قاتلك يا عبد الحميد. . لا يهم. . حتـى لو كان غيره، أولاد كلاب، إسماعيل يكرههم. . حاذيت الرجل تمامـا. . تـأخرت خطـوة واحدة فأصبحت خلفه. . برق شعاع خاطف. . لم أعرف من أين أتى لكنه أضـاء حـولي فرأيته. . أشاح بيده وكأنه أفاق لنفسه وأمرني بالابتعاد عنه لكنه كان ساكنا. . " ابتعد عنه يا ولد أحسن لك. . إسماعيل بات في التخشيبة من يومين لأنه تحرش بواحد إنجليزي مثله. . سأقتلك وليس لك دية، ركبني شيطان مخطط بألف لون ولون. . " السكة مقطوعة والمطـوة في يدك وهو سكران ولا يدري. . لو قاوم أجرحه وأهرب. . لو كنت أقوى منه خلص عليه ولا من شاف ولا من دري. . من الخلف. . أمسكه من الخلف. . أخنقـه واضـرب. . " كتمت أنفاسي. . لم أعد أسمع غير صوته وحده يدندن مبسوطا. لم يراع ما يدور خلفه. . " ليلتك سودة ". . بسرعة أمسكته من رقبته. . جعلتها محبوسة بين الذراع والزنـد. . مـت عليها. . أخرج صوتا خافتا لكنه ذاب في الفراغ المعتم. . غرزت المطـوة فـي جنبـه. . غاص طرفها في لحمه. . نزعتها وعاودت غرزها. . ونزعتها وغرزتهـا. . بسـرعة. . بسرعة وهو يخور كعجل جاموس " جرب يا حلوف طعم الموت. . الموت " فشلت محاولاته في حماية نفسه. . بدأت تقل وتنعدم. . كف عن الحركة. . أحسسته ثقيلا فـي ذراعـي. . كان صامتا تماما. . أنفاسه كفت عن الهمس أو الأنين. . تركته يتهـاوى علـى الأرض. . نزعت المطوة من جنبه ومشيت. . وجدت زقاقا جانبيا فانحرفت ناحيته. . كانت المطوة في يدي غارقة في لزوجة الدم حتى مقبضها وراحتي تستشعر اللزوجة والدفء. . نسمة الهـواء

تجعل الدم يبرد ويبرد. لم أعد أطيقه " دمه زفر. . ونجس ". . فركت راحتي بالرماد وفركت المطوة أيضا ووضعتها في جيب الصديري. . سرت متلصصا. . همس عبد الحميد في أذني هذه المرة مرتاحا، قال جدع. . ريحتني. . لم أكن أعرف من أين أصل إلى البيت لكنني وصلت. . شيء ما كان يشدني ويحركني في اتجاهه. . وجدت إسماعيل جالسا على طرف الحصيرة يدخن الحشيش. . لم يلاحظ بقع الدم التي لاحظتها أنا في الضوء الخافت. . خلعت الجلباب وتاويته في السبت. . جلست أدخن. . " لو جاءوا ليأخذوني الآن أقتل نفرا غيره وأكون أخذت حقي وحق عبد الحميد أيضا ويا دار ما دخلك شر. . ".

صحاني إسماعيل في الصباح لأفطر. . قال : اشتريت الفول والعيش فقم، قال وهو ينظر إلي: بت عريانا في البرد. . سكت. . سألني عن سر الدم فوق جلبابي قلت محاولا خداعه:

ـــ حرامي طلع لي.

غمز بعينه وكأنه رآني أعملها.

ـــ تقصد إنجليزي؟ وفيها إيه دا مات. . ولا يهمك كلب وراح. . فتشته؟

قلت لإسماعيل أستفسر : يمسكوني؟

قال بهدوء:

ـــ اركز. . ما حدش عارفك هنا. . إن كنت خايف زوغ يومين.

سألته :

ـــ أروح فين؟ أصلي غريب.

قال بضيق:

ـــ غريب إيه وبتاع إيه يا جدع أنت؟ ؟ كلها بلاد مسلمين. . دا اليهود عايشين فيها.

سكت. .. قال بحماس:

ـــ ما تبقاش كمشان كده وخايب. . واتلحلح. . اسمع. . روح إسكندرية، لما تكون بطال اسأل على أكل عيشك هناك. . صاحبي يمكن يلاقي لك شغل. . بس ارجع تاني. . اوعى تقول غريب. . دي مصر واسعة ومساعية كل ملة. . مد يده بجنيه قال: خذه وسافر. . قلت : لا. . قال خذه.. وأضاف:

إنما شاطر والله والعظيم. . اغطس يومين ولما ترجع آخذ منك الجنيه.

كنت مبسوطا من كلام إسماعيل وأحس لأول مرة بأنني في بلدي بحق. . " مصر واسعة" وفي الطريق إلى باب الحديد كنت ماشيا بجلباب إسماعيل المخطط وكلما رأيت نفرا منهم أبتعد عنه وأمشي من الناحية الأخرى. . ركبت القطار بلا تذكرة ودفعت الغرامة. . وكلما ابتعد عن مصر ارتاح وأهدأ. .. ونزلت إسكندرية وكان معي عنوان صاحبه.

قال لي ولد فلاح لا أعرفه :

ــ إزيك يا عم حسن.

قلت له : أهلا وسهلا، سألته عن أحوال أبيه. .. قال بحماس وفرح :

ــ بيسلم عليك، سيد كان حدانا من يومين.

" تذهب إلى الكفر دون علمي يا سيد. . يا نخلتي التي زرعتها وسقيتها ولما كبرت مالت وظللت على غيري ". . سلمت على الولد وسرت وحدي " قلت له لا تذهب إليهم. . لكنه عاندني. . في الشهر الفائت قال لي : لا أذهب. . يضحك علي بكلمتين ناعمتين وينفذ رأيه. . اعرف أخباره من الناس صدفة. كلامي ما عاد يعجبه أو يرضيه. . كلما تكلمنا في هذا الموضوع يسكت. . في دماغه كلام يحرص على إخفائه. . ينظر إلي ولا يتكلم. . يضحك علي بكلمتين فارغتين ويمشي قائلا أنه مسافر مصر.. ويسافر الكفر. . هو حر. . أنا نبهته. . دماغه طاقق. . أبدا. . عقله في رأسه يعرف خلاصه. . هو حر مالي وماله. . يظل شهورا يشتكي من قلة الفلوس فأمتنع عن أخذها منه. . يحسبني أستجدي. . في المرة التالية لن آخذ منه شيئا. . لو أعطاني أرفض. . تغور فلوسه. . ما زلت بصحتي وأستطيع أن أعيش معتمدا على نفسي. . العوض على الله في شقائي وتعبي. . يذهب إلى شوق. . مرة جاءني مع ولد منفوخ. . قال يعرفني به : شاكر. . أخي. . قلت لنفسي : ابن شوق. . لكنه ثقيل الدم. . قلت لسيد أسأله:

ــ طالع فيها قوي على إيه؟

قال ضاحكا:

ــ غلبان

" كلهم عندك غلابة. . صالح غلبان. . شاكر غلبان. . لا تعرف عدوك من حبيبك؟ كبرت وعقلك ما زال صغيرا. . قلت له : خللي نفسك عزيزة عليك. . ضحك من كلامي. لو قلت نكتة ما ضحك بهذه الصورة. . دائما تضحك. . يحسب نفسه متعلما ويفهم. ماذا علموه في الجامعة. . الهبل وعدم الدراية أو الإدراك. . ومن لا يطاوعني لا يكون ابني من صلبي. . ربما ابن حرام. . ابن حرام جاء وضحك علي وجعلني أربيه وأعلمه وآخرتها لا يسمع الكلام. . هو حر. . ما لي به. . أولاد حرام هو وصالح. . يأتي ليطمئن على أحوالي في الشهر يوما ثم يمشي. . لما طردته جاء بعد شهرين. . ليته ما جاء. . كنت ارتحت منه. . قلبي حن عليه لكنه لم يفهم. . لو جاء اطرده وأضربه أيضا. . ليس كبيرا على شيء. . أنا كبرته وعملت له قيمة. . من غيري كان يضيع في الشوارع. . صالح يأتي ويبوس يدي في كل مرة. . لم أعمل لصالح شيئا. . ربته أمه وجده. . أنا ربيت سيد وحرقت دمي لأجله لكنه ينسى. . ابن شوق ليس من جماعتنا. . من جماعة شلبي هو. .

صالح من صلب جماعتنا. . لو كان يروح لصالح لهان الأمر. . أخوه. . أما شاكر هذا. . لو يحن قلبي على صالح يوما. . أسأل نفسي لماذا ارتاح لهذا الولد ولا اطمئن لصالح. . عوضي على الله، لو أنسى ما فات. . لو أنسى. . هو حر. . يذهب إلى الكفر ولا يعرفني. . يكذب علي لما أسأله. . يعرف كيف يضحك على عقلي بكلامه. . مرة أخرى لن أصدقه مهما قال. . يكون على حق أحيانا. . مسألة صالح. . صحيح. . لا بد أن أنسى. . قال سيد مرة : حاول أن تنسى ما جرى. . افتح قلبك له. . لكن كيف يفتح الواحد منا قلبه المسكوك؟ بالكلام؟ لما يأتي أسأله. . كيف أفتح قلبي المسكوك لصالح. . أحيانا أحن عليه. . أود لو أزيح جدارا بيننا لا أراه لكنه يحجبنا. . لما يأتي سيد أسأله.

ولما نزلت إسكندرية وجدتها غريبة. . إسكندرية أخرى غير التي جئتها مع عبد الحميد. . ربما أنا الذي كبرت لأنني أطل إليها بجسارة غير هياب كما كنت أنظر إليها أول مرة. . خوافا ضربه ولد أسمر خاف حتى عن رد إهانته بالضرب واكتفى بالشتيمة. .. اليوم أراها بشكل آخر. .. ربما كلام إسماعيل. . لست غريبا. . سألت عن عنوان الرجل حتى وجدته. . كان يلبس معطفا صوفيا فوق جلباب بلدي. . له وجه ضاحك. . قال أهلا وأي خدمة. . أعطيته جواب إسماعيل فرحب بي بحماس وقال وعلى وجهه بسمة ندية كنسمة فجر تشرح الصدر. . أحيانا يرتاح الواحد منا للناس هكذا ولا يعرف لذلك سببا. هذا الرجل له شكل مريح وابتسامة تجعل الواحد مطمئنا إليه. . قال: أهلا بك. . نورت إسكندرية. . جلس يحدثني بود وكأنه يعرفني هو أيضا منذ سنوات طويلة. . سألني عن أحوالي. . عن بلدي. . عن أهلي. . ذكرت له كل شيء، قلت له وأنا أستحضر ما قاله إسماعيل لي عن الشغل:

ــ ما تشوفلي شغلانة كدة آكل منها عيش. .

نظر إلي وسهم وقال ببسمته العريضة:

ــ أنت ضيفنا. . ترتاح يومين وبعدين تشتغل.

أحسست أن في الجو شيئا غريبا. . كانت الفلوس معي لا تكفي أن أرتاح يوما. . أخذني إلى حجرة بها سرير وقال : ارتاح من السفر. .. مر يوم. . قلت له أشتغل. . قال ارتاح يومين قلت لنفسي : بني آدم ثقيل. . خرجت أبحث عن الشغل. . لما رجعت إليه سألني أين كنت. . قلت له : لم أجد شغلا. . أسافر مصر. . قال :

ــ يومين كمان لحد المسألة ما تتوه.

" أنت تعرف إذن حكايتي يا رجل. . تفتح لي بيتك. . غيرك يبلغ عني البوليس. لكن كيف عرفت الحكاية. .. الجواب. . ربما جواب إسماعيل. ..

في صباح اليوم التالي عرض علي فلوسا. . قال : من جنيه لعشرة. . قلت معي أجرة السفر. . قال : أرني. .. لم يكن معي غير قروش قليلة. . قال : خذ ولا تعمل فارقا. . كلنا في الهواء سواء. . بلدنا والكلاب نجسوها. . وأنت تستحق المساعدة. . أخذت منه. . " يتكلم عن بلدنا. . في البدء كنت أحسب أن بلدنا هي الكفر. . خارج الكفر لم يكن يخصنا في شيء. . فرحت لما ضربنا رجال العزبة. . فرحت واعتبرت أن بلدنا كسبت العركة. . بلدنا. . أحسست أنها كبيرة كما قال إسماعيل. . كبيرة وفسيحة وممطوطة ولي فيها أصحاب. . إسماعيل في مصر وعبد الكريم في الإسكندرية. ..

قال عبد الكريم :

ـــ يكون أحسن لو اشتغلت في مصنع القزاز شهر أو شهرين. . بعدها ارجع مصر واشتغل مع إسماعيل.

غمز بعينه وهو يذكر كلمة الشغل فعرفت ما يعنيه " شغل مع الإنجليز يريحهم من هموم الدنيا ". .

أخذني عبد الكريم لواحد أفندي. . عينوني في مصنع الزجاج. . ولم يرض لي بالسكن بعيدا عنه. . وكل مدة لما أقبض أحاول أن أعطيه أجرة السكن فيرفض وفي عينيه لوم ويقولها : أنت ضيف والناس لبعضها. . قال مرة ونحن نتعشى. . إسماعيل بعث يطلبك ويطمئنك على الموضوع. . المسألة نامت، لكن من رأيي تنتظر شهرا آخر. . وجاء جواب من إسماعيل قال فيه أنهم رفعوا قضية نفقة وبعثوا الإعلان على القهوة فلم يستلمه أحد. . قلت لو رجعت مصر يكون الإعلان في انتظاري. . الشغل هنا أريح. . عبد الكريم كان لطيفا ومحببا. . كلمني كثيرا عن الإنجليز. . عن سر وجودهم هنا. . عن ضرورة خروجهم، وحدثني بصراحة أنه هناك عملية مقاومة لهم تتم سرا وأن إسماعيل يشارك فيها. .

قال إن الحكومة تطاردهم وكان من الواجب أن تساعدهم. . غضبت من الحكومة والملك. قلت له عن عبد الحميد فقال : لكنك أخذت بثأره. . باقي ثأر كثير. . ثأر البلد. قلت له : أنا معكم. . قال أنت معنا من زمن.

كنت طالعا على السلم فوجدت عبد الكريم وسط البوليس. .. خفت. . رفع حاجبه وكأنه يأمرني بمتابعة الصعود دون أن أبين أنني أعرفه. . ظللت أطلع وعبد الكريم يهبط السلم مع العساكر. . " مسكوه. . ربما قتل أحد الإنجليز فجاءوا إليه ومسكوه. . ربما يجيئون ويأخذوني أيضا. . خفت. . فاتت أيام قبل أن يأتي إلي العسكري في المصنع. . سألني إن كنت أنا حسن عوف فقلت أبدا، أنا حسن عرفة. . قال : دوخنا الملعون. . من مصر لإسكندرية. . ناولته سيجارة وهدأت خاطره. . قلت:

ـــ عمل إيه؟

قال : مطلوب منه نفقة. . الإعلان داب.

قلت : منه لله. . " من عرفهم عنواني. . الشيخ سعد؟ ربما هو لأنه حنبلي ويعملها. .. " لعب في عبي فأر منجوس. . قلت للعسكري انتظر لما أنادي زميلي حسن عوف. . جلس العسكري في الاستراحة. . هربت من الباب الخلفي من المصنع. . تركت العسكري ينتظر.. أخذت ملابسي من الشقة " جاءك الموت يا تارك الصلاة. . الحكومة تريدك " اهرب، غلطت لما بعثت لك يا سعد عن أحوالي. . ما كنت أحسبك تعملها. .

ونزلت مصر هذه المرة مغتاظا من الشيخ سعد. . قلت لا أعرفه مكاني أبدا. . رحت أسأل عن إسماعيل فقال صاحب المقهى : بطل من هنا من مدة. . رحت إليه مسكنه فلم أجده. . قالوا شال عزاله ومشي. . رجعت لصاحب المقهى وقلت له أشتغل قال : يفرجها ربنا بعد أسبوعين، ولما فت عليه مرة ثانية قال: تفوت علينا بعد أسبوع. . نزلت من الحجرة التي دفعت إيجارها أبحث عن الشغل لأن النقود خفت وأول الشهر قرب. .. عرفت الجوع والخوف لما يتسللان إلى الواحد منا فينكدان عليه عيشته. . قرصني الجوع وطالبتني صاحبة السكن بالأجرة فقلت أطلع أبحث عن أي شغل. . انهد حيلي من البحث. . قلت اذهب إلى المحطة وابحث عن شيلة أشيلها. . صادفني أفندي فحل وأشار إلى قفة كبيرة على الأرض. . شلتها وسرت خطوتين. . بعدها سقطت. . لفت سيقاني على بعضها وسقطت على الأرض. . وقعت القفة فوقي وتدحرجت. . راح الأفندي يضربني وأنا عاجز عن القيام أو حتى الصراخ. . والناس لما التفوا حولنا يمنعونه قال لهم أنني تسببت في كسر قدرة سمن بلدي. . وحلف لا يتركني أبدا إلا لما أدفع له ثمنها، وجاء رجل طيب وعجوز. . أمسك ذقنه وقال له : من أجل شيبتي سامحه. . خجل الأفندي وفك طوق جلبابي الذي كان يمسكه. . سألني الرجل العجوز لماذا شلت القفة وهي ثقيلة؟ قلت له وأنا لا أعي كيف قلتها:

ــ جعان.

والتفت الأفندي ناحيتي وقال لي في إشفاق:

ــ بتقول إيه؟

لم أستطع قولها مرة أخرى. . ذابت في حلقي. . في كل حياتي لم أقلها مرة أخرى، أبدا أبدا لم أقلها. . طعمها في الحلق مر كالحنظل. . فيها مذلة وانكسار وتسليم. . طعمها مر وغير مبلوع أبدا. . لم أقلها. . قالها الرجل الطيب للأفندي. . قال الأفندي الفحل وفي عينيه شيء كالدمعة يحاول أن يداريها :

ــ حقك علي. . ما كنتش أعرف حكايتك. .

مد يده ناحيتي يعطيني نقودا. . لم أرض أبدا. . ناولها للرجل العجوز، وكأنه يهرب من غلطة وقع فيها ويصعب عليه إصلاحها. . قال وهو يحمل القفة على كتفه فوق القميص الأبيض دون أن يهتم :

ــ خليك معاه يا عم.

والرجل راح واشترى لي أكلا وقال : كل. . وأنا لولا الجوع ما أكلت أبدا. . " لو كان الإنسان بلا معدة. . لو كنا بلا معدة يا رب، ما أحسسنا بكل هذا القهر والمذلة. . لماذا كانت البطون؟ ما دامت نقمة ولعنة وسببا في الهوان يا رب؟ " كنت آكل في نهم. . الرجل العجوز يجالسني على الرصيف رغم جلبابه النظيف ويربت على كتفي في إشفاق وحنو. . بعد ما شبعت وهو يتظاهر بأنه يأكل معي، أخذني وقال : نشرب شايا. . جلسنا في ركن مقهى. . قال:

ــ باين عليك ابن ناس.

" كلنا يا عم أولاد ناس. . " قال : الدنيا حجر طاحون. . يوم في العالي ويوم في الواطي. . قلت : الجوع كافر. . قال : الأصل في عينيك. . قلت : أصلك فعلك.

سألني عن بلدي فقلت له. سألني عن أهلي فقلت له. . قال أنه يعرف جماعتنا، يعرف جدي مصطفى بالذات. . وأنه تاجر على باب الله يبيع القماش ويلف بلاد المسلمين. . يعرف ناسها. . وراح يحكي عن نفسه كثيرا ليؤكد أنه يعرف جدي. ..

قال :

ــ تشتغل معايا ورزقي ورزقك على الله.

قلت لنفسي أجرب. .. وسافرنا سويا. .. حملت على كتفي أثواب القماش ودرنا في البلاد والكفور التي يعرفها. .. يعرف ناسها. .. ولما فات أسبوعان رجعنا، والرجل أعطاني حسابي وقال : الشغلانة تعب عليك وصحتك ضعيفة. . قلت له: فعلا، أسافر إسكندرية وأشتغل في المصنع مرة ثانية. .. قال : أحسن لك لأنك تخجل من الناس ولا تنفع في التجارة أبدا. .. وودعته وذهبت وجمعت ملابسي وعدت إلى باب الحديد ناويا على السفر إلى الإسكندرية.

عند باب الحديد لمحته. . خبطت بيدي على كتفه في ود. . التفت ناحيتي لما رآني أخذني في أحضانه. .. لم يصدق عينيه. . تعانقنا. . وضعت السبت على الأرض ونسيته. . كأنه أخي ولدته أمي وغاب عني عمرا قال بحماس:

ــ دوختني عليك. .. رحت لك إسكندرية

قلت له أنني سألت عنه في السكن والمقهى فضحك. . قال مداعبا: شكلك تغير أصبحت ابن بلد بحق. . بص إلى السبت وقال : إلى أين؟ قلت إسكندرية. . المصنع، كنت

أنوي الرجوع لما عجزت عن مقابلتك. .. قال كثيرا عن أحواله. . سألني عن عبد الكـــريم فقلت له. . قال: إنهم مسكوا نفرا آخر. .. جلسنا في مقهى قريب وذكرت له ما جرى لي.. قال: حظي كان أحسن. .. أضاف متباهيا وكأنه لا يصدق نفسه. .. فتحت محـــل حلـــواني وبقى لي مركز. . عملت عملة وطلعت منها بقرشين تمام. .. همس : ضابط إنجليزي وقـــع في سكتي إياها ولما فتشته وجدت جيبه عمرانا، وقعـــت علـــى كنـــز، وبعثـــت أطلبـــك لأن موضوعك نام بعد أن عمل زوبعة كبيرة. ..

قلت له : فرجه قريب. .

سألني عن وجهتي فذكرته برغبتي في العودة إلى الإسكندرية لأرجع المصـــنع، قـــال والضحكة الساخرة تملأ عينيه فتدمعان من كثرة الضحك:

ــ يا ناصح. .. زمانهم رفدوك يا حلو. . ما فيش غير الدكان، والمكسب بالنص. . حتنبسط. . قلت إيه ؟

قلت في عقلي أنه يضحك علي ويجاملني لكنه قطع تفكيري وأخذني إلى ميدان العتبة وأراني الدكان. . عجبت لأحوال الدنيا. . قال تكتب عقد شركة؟ قلت : هو مجنون ليجعـــل لنفسه شريكا في الملك. . قلت : أنا مطمئن وجلسنا في ركن الدكان وأخذ يحدثني عن نشاطه خلال فترة غيابي. . قال أنه طلبني لأنه رتب عملية في كامب إنجليزي قريب مـــن القلعـــة، وأنه يحتاجني معه لأن زميله في المنطقة ممسوك مثل عبد الكريم. . ولما قلت له: يمســـكونا قال باستهانة أن هذا لا يهم في شيء وحتى لو وقعنا في أيديهم نكـــون أخـــذنا حقنـــا ونفـــذنا العملية. . أفهمني أنه رتب كل شيء وحسب حسابه. .. ولما أخذني ليكتب عقـــد الشـــركة الدكان قلت له أنه لا لزوم لذلك لأننا أخوان ولو طلب رقبتي أسلمها لـــه. . ورحنـــا الشـــقة وقال : حط السبت وخذ راحتك. . وعشنا أياما وكنا نكسب كثيرا ويعطيني كل ليلـــة نصـــف المكسب بعد محاسبة العاملين. . شاركني في الحلوة والمرة وكان يعرف الكثير مما أجهلـــه، حتى اللغة الإنجليزية كان يتكلمها وحاول أن يعلمني. .. وكان يحكي لي عن أنواع الأســـلحة وأسماء الباشوات وأصحاب الأملاك، والباشوات يعرفهم بالواحد ويتعامل مع الدنيا بجرأة ولا يهتز أبدا مهما حصل له. . حتى لما كنت أحكي له عن عبد الكريم لما مسكوه لا يهتز أبدا. . وكلما قلت له عن العملية يقول أصبر وما صبرك إلا بالله. ..

قال مرة :عندي شغلانة صغيرة أعملها وأرجع لك بعد يومين. .. قلت له : أشاركك؟ فافهمني أنها عملية بسيطة تحتاج لنفر واحد. .. وذكرني بضرورة بقائي في الدكان وســـاب المحل أمانة وغاب أياما. .. كنت أحتفظ له كل يوم بنصف المكسب كما علمني وأحس أنـــه سوف يأتي ويفلت منهم. .. والغائب حجته معه. . وفعلا جاء في ليلة ودخل الـــدكان فلـــم ألاحظه. . ولما طلب طلبا عرفته من صوته وهللنا سويا وراح يحكي عما حصل ففرحت به

وأعطيته الفلوس فقال: خليها معك واستعد للعملية الكبيرة بعد يوم أو يومين، وقلت له: اتفقنا وكنت مشتاقا بكل حماستي للعمل معه في هذه العملية. ..

وسألني إن كنت أستطيع ضرب النار فقلت أتعلم: وعلمني كيف أستعمل الطبنجة. .. وليلة العملية أعطاني طبنجة واحتفظ لنفسه بواحدة وقال حطها في جيب البالطو ــ وانتظرنا حتى منتصف الليل.. . كان الطريق مظلما وساكنا ولكنه كان يعرف السكة كأنه مشى فيها عشرات المرات. .. تسللنا من ناحية الجبل وكنا نرى الكامب مضيئا من بعيد. .. قال إسماعيل : لو أمسكوني أهرب، المهم أن تهرب لأنك لن تستطيع أن تعمل لي شيئا، قال إنه عملها مع زميله الممسوك وأنه هرب في عملية مشابهة. . وعرفت أنه سوف يحرق الكامب ويحاول الهرب. .. وعرفني بمكان في الجبل أتوارى فيه حتى الصبح. .. كل التفاصيل قالها وقال أنه علي أن أطمئن عليه فعمر الشقي طويل. . كنا نضحك ومن مكان معتم قال ارفع السلك فرفعته وتسلل هو. . . كان علي لو شفت عسكري الخدمة الإنجليزي أن أشغله أو أقتله بحيث لا يصل إلى إسماعيل. . وحتى عسكري الخدمة لم يظهر أبدا. . واختفى إسماعيل في الظلام فمسكت قلبي بيدي وخفت ثم سمعت صوت طلقة وانفجارات متوالية وتحركت أنوار كشافة في كل اتجاه وكأنها تبحث عن إسماعيل. . وكانت الأنوار تلمع وتلف فتذكرت ما قاله إسماعيل عن ضرورة الهرب. ..

كان الجبل فسيحا فاتجهت ناحيته وظللت أجري. .. وفي مكان ما وجدتني أرتمي دون أن أفهم إن كان هذا المكان مأمونا. .. أمسكت الطبنجة وانتظرت فلم يأت أحد. .. وعند الفجر قلت لنفسي لو صادفني واحد منهم أقتله وأهرب. . وكانت السيارات تعبر الطريق الجبلي ولا يلتفت إلي أحد. .. ووصلت الدكان وانتظرت إسماعيل دون أن يأتي حتى يئست من عودته يوما. ..

كرهت أقول للناس أنني خلفت. . ولدين فاسدين. . أولهما يظهر الخوف في عينيه ممزوجا بالجسارة، الإحساس بقوته الغشيمة والرعب في حدقتي العينين ولا أعرف كيف. .. والثاني قلت إنه عاش عمره معي فلا بد أن أفهم كل حركاته وسكناته، لكنني عجزت عن فهمه. .. يقولون أنه فسد هناك في مصر وفاتني هنا وغاب. .. في كل شهر يبعث خطابا في البوستة به حوالة " هل خلفتك يا بن الكلب من أجل حوالات تبعثها في كل شهر. . أنا خلفتك لتكون ذراعي ونور عيني لما يعجز الذراع والبصر. . " يغيب عني شهورا ولا يأتي. . صالح صار يأتي " يحسبونني طفلا يضحكون على ذقنه. . لعبة هي يلعبانها معا. . " لما قلت له : أنا بدأت أحب صالح وأكرهك، بان في عينيه شيء كأنه الانتصار ففهمت. . يحسبني لا أفهم. . أنا ربيته وعلمته. .. لعبة مكشوفة. . يغيب هو ويظهر صالح، حتى صالح تحركه يا سيد. . ولد خبيث. . لعبتك مكشوفة يا سيد أفندي " ينسى أن الحب شيء لا

يملك الإنسان صنعه أو منعه. . صحيح أشفق على صالح وأضيق بما يعمله سيد. . يقولون أنه دار على حل شعره في مصر. . إنه يلعب على هواه. . هو نفسه قال لي عن بنت يعرفها نسيت اسمها الآن. . لا بد أنه يصرف عليها مكاسبه. . " كان جدي مصطفى عليه الرحمة يقولها لنا : الحريم. . آه يا فرعنا الخائب لماذا لتمتد أطرافك المائلة ناحية سيد؟ "كان يحكي عنها كثيرا لكنه كف. . ربما تزوجها دون علمي، لو صدق هذا الظن أذهب إليه وأكسر رقبته كسرا. . وهل أنا منعته من الزواج ليخفي عني أخباره ؟. . شتمته فعلا لكنني طوال عمري أشتمه وأضربه أيضا ولا يفتح عينيه في وجهي. . هذه المرة عمل غضبانا وغاب عني. .. الآن عمل كبيرا علي ولم يحتملني. .. أنا عجوز وما لم يحتملني هو فمن يحتملني؟ قالوا لي أرفع عليهما قضية فأنت كبير. . لكن هل من الممكن أن أعملها أنا ؟. . أشتكي أولادي؟ مهما حصل منهما لا يصح أن أشتكيهما. .. من أجل النفقة أقف أمامهما في المحكمة على آخرة الزمن؟ ما تبقى لي من العمر لا يستحق الشكاية. . لو مت بعدها يلعنوني كل يوم. . ليست النفقة هي غايتي أبدا. . أريدهما معا. . أراهما وأحادثهما معا. . لا يكفي أن يأتي الواحد منهم ويختفي الآخر. . حتى سيد لما كان يأتي وحده كنت أفرح صحيح، إنما لا تكتمل الفرحة أبدا. . صالح أيضا له في قلبي مكان لم يفتحه أحد. .. ولما يأتي صالح ويغيب سيد أحس بأن هناك شيئا غير مكتمل ولا مريح في قلبي. .. كلاهما ابن حرام. .. ولدين فاسدين، كله من هذا الولد سيد. . هو الذي أتى بصالح فحرك المشاعر النائمة والمدفونة منذ سنوات. .. صحاها من نومها الطويل. .. صالح أيضا له حق عليك " قالها سيد مرة فأحسست بوخزة في ركن قلبي. . رغم معارضتي أحسست أن في كلامه شيء من الحق. .. لو أنني أخذته معي. .. لو أخذتهما أخذت سيد وربيته ربما كان يرتاح، لما جاء منذ أسبوعين كان يكلمني محاولا أن يبدو رجلا لكنني كنت أراه طفلا. . أصغر من سيد نفسه. . طفل ضخم له شوارب كبيرة يتخللها شعر أبيض. .الطفل الكبير كلمني محاولا أن يبدو رجلا. . أسائل نفسي إن كنت سعيدا أو تعيسا فأعجز عن الجواب. .. بعد يومين أذهب إلى الولد سيد في مصر أشوف أحواله وبعدها أرجع.

وكأنما كان الدكان الذي فاته إسماعيل أمانة في رقبتي وغاب سببا. . " سبحانك يا مسبب الأسباب " الشيخ سعد كان يأتي بجبته الكشمير وعامته التي بدأ يهتم بحسن لفها ويعوجها على جنب. . يجلس متمتما ــ كما يفعل الفقهاء في البلد ــ بالدعاء لي : ربنا يزيدك من نعيمه. . يكفيك شر أولاد الحرام. . " ولما أقول له أن الدكان ليس لي ينظر إلي مستنكرا " ويقول " ومن شر حاسد إذا حسد " نافيا عن نفسه أنه سوف يحسدني، وأقول بينما يأكل قطع الكنافة بعد البسبوسة أن الدكان أمانة، فيعمل ما سبق أن عمله مرارا. .. يخرج من جيبه شلنا ويحطه على الترابيزة ويقول: خذ الحساب، فأعيد إليه الشلن وأقول له ليس من

الأصول أن تدفع وإنما أقول لك الحقيقة. . يقول هو أنه لولا اطمئنانه أنه يأكل في دكان أخيه الصغير ما أكل دون أن يدفع. . وفي كل مرة يأخذ اللفافة التي أحضرها له ويتاويها في جبته ويخرج. . ما كنت أخشاه أن يدلهم على عنواني فيصلني إعلان طلب النفقة عليه. .. ولما جاءتني رسالة خفت أستلمها وقلت ربما تكون إعلانا، فنظر إلي الرجل مستغربا وقال جواب عادي. . فأخذتها منه وأعطيتها لأفندي كان يجلس في الدكان يأكل وأفهمني لما قرأها أنها من برهومة يعرفني أنه سوف يصل بعد أسبوع. .. كنت أخشى وصول أبي لكن برهومة جاء وحده، ففرحت به ونسيت خوفي منهم لأن عينيه بان فيهما الود. . كان شابا باسما له عود ممدود مستقيم لولا شحوب خفيف. . كان يضحك فيتمنى كل من يراه أن يكون أخاه. . قال أن أبي بعثه إلي لأوصله إلى حكيم يعالجه من مرض خفيف يحسه، وراح يحكي عن خناقة بين أبي وصالحة لما طالبته بأرضها:

ـــ أبوك قال لها: الأرض لبرهومة واللي يخطي فيها أكسر رقبته بأيدي وأدفنه فيها.

ويشرع في الضحك ويفهمني أنه لا بد من تقسيم الأرض بيننا مهما حصل. . ولما سألته عن قضية النفقة قال أنها تنازلت تحت ضغط أبي وأنها ربما تتزوج ابن عمها أمين. . وصدقت كل ما قاله برهومة ولما رحنا للحكيم وصف له العلاج ولم أعرف بعدها عن المرض شيئا. . وقال لي : ارجع معي فقلت له حكاية الدكان وأنه أمانة، فقال حافظ على الدكان ولما يظهر صاحبك سلمه له وارجع الكفر. . وأخذته معي وفرجته على الأماكن التي عرفتها فكان مبسوطا وأصر على عودتي للكفر ولو ليومين وارجع. . وطول مدة إقامته معي لا يجعلني أدفع مليما في شيء ويقول حافظ على فلوس صاحبك يا حسن. . وأنا أقول لنفسي : " عادت المياه لمجاريها يا برهومة لكن الخوف من أمك ".

قال برهومة : أمك خطبت لك ووصتني بإبلاغك. .. وأضاف: تنسى ما جرى وترجع تعيش في أرضك وتربي صالح والدنيا لا تدوم على حال. .. وحتى لو عارض الرجل أتنازل لك عن نصيبك ويخبطوا دماغهم في الحيط لأنني أحس الوحدة، وكنت أصدق ما يقوله : قلت: الدكان أمانة. . ومن آمنك لا تخونه. . أول ما يرجع صاحبه أسلمه دكانه وفلوسه وأرجع الكفر. ..

ولما نزلنا الكفر فتنا على أمي أنا وبرهومة. .. رحبت بنا وقالت لي أنها شافت لي عروسة حلوة وأنها سوف تعجبني. .. سألتها: من؟ قالت : شوق بنت عبد الستار شلبي. .. قالت : كانت صغيرة لما خرجت من الكفر وتلعب في الشارع.

قالت : كبرت وأصبحت عروسة ثم :

ـــ يا واخد الصغير يا حرامي السوق. ..

ورحنا لأبي فقابلنا مقابلة حسنة وسألني عن أحوالي فقلت له كل شيء فضحك وقال :

ـــ غلبتنا معاك. . . اللي كنت خايف منه راح. . صالحة دار عليها أمين ووافقنا.

قلت : طيب على خيرة الله. .. قال :

ـــ تغور في ستين داهية. . ما دامت الأرض في عبنا خلاص. ..

ولما قلت له عن حكاية شوق قال : لا مانع خذها. .. عبد الستار نزيه وإن كان يبيع أرضه كل يومين فدان. .

وأمي راحت هي وخالي محمد وخطبوها وقالت لي إنهم فرحوا وعزموني أتعشى عندهم. . ولما رحت شفت شوق، كانت حلوة. .. وجه مدور كصحن بنور وعود فائر وتقاطيع طفلة وابتسامتها تخطف القلب. . كانت مكسوفة لما دخلت وجلست ساكتة. .. لكن أمي أخذتها في حضنها وراحت تلاعبها والبنت تضحك كأنها لا تعرف سبب الزيارة. .. وكل مدة تنظر إلي في توجس ربما تقول أنني غريب عن الكفر لأنني تغيرت ولبست طربوشا ومعطفا صوفيا وجلبابا له ياقة خلافا لمن تراهم في الكفر. . قلت لها بشقاوة ابن بلد وكأنني ألاغي بنتا تشتري من الدكان: دمك خفيف يا شوق. . فاحمرت خدودها بسرعة ورمحت خارج المندرة. . قالت أمها تلومني بفرحة:

ـــ كسفتها

وقرأت الفاتحة مع أبيها وشرطنا شرطها وقلت لأمها وأنا أخرج من دارهم والفرحة تزغرد في قلبي : خذي بالك منها.

دس في يدي نقودا فنظرت إليه متعجبا. . كنت قد نويت على السفر وأفهمت أبي أنني سوف أرجع قريبا. . قلت له : معي قال : خذ، فلوس صاحبك حافظ عليها وسلمها له وارجع. .. أخذت ما أعطاه لي وسار معي يوصلني ويسألني عن شوق فقلت له فبان عليه الانبساط بصورة لم أعهدها فيه، وبرهومة يغمز لي والدموع توشك أن تطفر من عينيه فأعرف أنه وراء ما حصل من تغير في لهجة أبي " قلبك أبيض يا برهومة. .. لكن قلب أمك له لون آخر. . أنت قلتها هناك في مصر : كسروا أنفه بحكاياتي وعملوه مضغة فبعثك ليصلح الغلطة، وصالح كان يمشي وراءنا في سكة البندر ويقول لي بحماس وهو يتعلق بطرف البالطو :

ـــ أقعد معانا على طول يا با

وأنا أقول لنفسي أنني سوف ارجع لأجله ولأجل برهومة. .

" وقال أبي سامحني فعجبت لطلبه. . ولما قلت له سامحتك زفر في ارتياح وكأنني أزحت بالسماح صخرة محطوطة على صدره. . وحكى لي عن كابوس طارده. . ثعبان كبير التف حوله وغرس أسنانه في لحم صدره. . وكان يصرخ ويسمع الصوت يدوي : فوق لروحك يا عبد القادر وراضي ابنك الغريب، وكان يناديني بعزم صوته ويسمعني بعيدا بعيدا،

كأنما يأتي الصوت من تحت الأرض، والثعبان يضغط ويضغط وأنفاسه تضيق. .. وجاء برهومة معي فخف الضغط عن صدره وانزاح الثعبان وأحس بالراحة". . وقال أيضا: إن الخير الذي أصابني كان من أثر دعواته التي طلبها لي في صلاة الفجر. . هو إذن أصبح يصلي؟ وكنت أضحك في سري من كلامه. . وسايرته. . " طول عمرك يا رجل لا تركعها، ولا ترى حالي أبدا أو تسمع صوتي ولما يزورك ثعبان في المنام تخاف؟. . تخاف وأنت مثل فحل الجاموس. . رب سلط عليه في كل ليلة ثعبانا يقلق نومه ويخوفه ما دام لا يعرف الخوف دونه. . ثعبان شراقي يلهفه في المنام ويصبح الصبح فيحسن معاملتنا لما أرجع".

ولما قامت الحرب خفت على سيد. . قلت : مصر خطر. . لو يأتي أطمئن عليه. . بعد أيام جاء. . صوته مبحوح وعلى وجهه أمارات هم لم أرها أبدا على تقاطيعه. .. حكى لي عن النكسة بمرارة. . وعن اليهود والأمريكان. .. فسر لي أسبابا سبقت الحرب لم تخطر ببالي" ما لنا بالحرب يا سيد؟ ؟ لا نحتمل الحرب يا سيد. .. هم أقوى من الإنجليز والإنجليز قتلوا عبد الحميد في عز الظهر. . كنت تهتف ضد من ومع من؟ لو شافك الأمريكان يقتلوك. . لو عرفوك ما فتوك. . كن في حالك. . ترتاح وتريحني " قال : انهزمنا فعلا لأننا استهزئنا بهم ولم نعمل حسابا سليما لشيء. . تواكلنا واندفعنا بحماس نتباهى فانكسرنا. . قلت له : ربك يحلها. . قال : لو أمكن للناس أن يذهبوا أذهب معهم وندافع. . سكت. . لو عارضته ما أفادت المعارضة. . في حرب بور سعيد أخذ البندقية وسافر ولا أدري كيف سافر أو كيف عاد ومن أين أتى بالسلاح. . هو أدرى بمصلحته". .. كان يحكي بحماس الواثق من صدق ما يقوله. . كنت أصدقه، للحظة أحسست بالرغبة في مشاركته الحماس. .. الذهاب معه حيث يتمنى الذهاب، الموت في رأيه لا يساوي الخوف منه. .. الموت الذي يصفه موت آخر. . موت محبب" حتى الموت لما تحكي عنه يا سيد يكون حيا" من أجل البلد. . لم أحك لك كل شيء. .ما كنا نعمله على أيامنا من أجل البلد. . كنا نواجه الموت مع الأفندية وأولاد مصر. . نهتف ونحمل الذين يتساقطون بيننا. . نحملهم ونظل نهتف. . وعبد الحميد لما سقط حملوه وظلوا يهتفون من قيعان الحناجر وكنت ما زلت صبيا خوافا، حماسك أكبر منك يا سيد. . أيامنا كنا نعمل ما نعمله ولا نبوح. . أحيانا أقول لنفسي أنكم تتكلمون كثيرا. .. ترى هل تقول للناس مثل ما تقوله الآن ؟. . أحسب أن لا شيء يعجبك أحيانا. . ربما تخاف. . أنا جربت الخوف. . لكنه لم يستمر معي. . اسكت يا سيد. . ربما تسكت أنت أيضا لما تخرج من هنا وتواجه الدنيا. . أستطيع أن أحارب لكن القدرة هزيلة. . لا يهم الموت. . الكلام الذي أسمعه منك يجعل الدم يفور ويغلي. أنت تجعل من الموت قيمة ومن الحروب ضرورة من غيرها تفقد الحياة معناها.

ولما سافر سيد لم أكن خائفا عليه. . حتى لو حارب. . لو قالوا إنه مات ما أحسست بالحزن المر. . ربما أحزن لكنه يكون حزنا خفيفا على القلب يجعلني أتباهى بـه. . وأنـا الذي حسبته عربيدا ويتسلى ويلعب ويشرب ويحب ويتميع كل يوم أكثر من اليوم الفائـت. . حسبته ولدا تائها بلا هدف. . قلت له في سري : ربنا يحميك ويهديك يـا سـيد ونمـت. . أسترجع أيام القدرة والحماس وإسماعيل.

وعرفت طعم الفرح ليلة شوق. . أبي بجلالة قدره كان مبهورا يزغدني والضـحكة تملأ وجهه المبسوط الذي سرح في عوالم بعيدة. . يقولها:

ــ والله صبرت ونلت يا وله. . دي تسحر العابد.

وعمي إبراهيم يبربش بعينه متصنعا. كأنه يواجه الشمس ويطل إليها فأضـحك مـع الناس. . يقول لأبي بصوت عال:

ــ وشرف المصطفى يا عبد القادر يا خويا اللي حدانا ما هم حريم، دول جريد نخـل منصوب هياكل.

ويسهم أبي ويقول وهو يلتفت لبرهومة في حنو:

ــ عقبالك يا وله. .. دي ليلتك حتبقى ليلة.

ويضحك برهومة وكأنه لا يهتم بما يقوله أبي ويكتفي بفرحة الليلة. . ويتابع ما كـان يقوله:

ــ تبارك الخلاق. .. تقولش لهطة قشطة. . عقبالك يا برهومة وتكمل الفرحـة يـا ولاد. .

ويمسك عصاه القصيرة ويبدأ الرقص، هكذا أنت دائما رغم كل عنفوانك وقسوتك تبدو طفلا يتراقص في الأفراح كأنما يبحث عن الفرحة بأي شكل، والضجيج يرتفع. . أرقب شوق بطرف عيني في ثوبها الأبيض. . يكشفني برهومة ويقول بضحكة : أصبر. .. وأنا لم أكن مصدقا لكل ما يدور حولي. كأنني أحلم. .. رجالنا ورجال شلبي يتسـابقون فـي إظهـار الفرحة. كأنما الكفر كله يغني من أجلي أو من أجل شوق أو من أجلنا سويا. . مشوار الزفـة كان طويلا من دارهم إلى دارنا. . حبات الملح تتساقط فوقنا والزغاريد والغناء. . وحبـات الملبس أيضا تتساقط فيتخاطفها الأطفال. .. وأصوات البنات البكر تلعلع بدلال:

كتبوا كتابك يا نقاوة عيني. . والطشت فضة والمعالق صيني. .

ولما وصلنا المندرة جاء عمي إبراهيم وشد امرأته فاستجابت لدعوته وهـو يـدفعها ويقول:

ــ هزي طولك يا ولية خلينا نفرح. . دا انتي ندراها لحسن.

وأبي يدخل الحلقة الضيقة ويتلاعب مع عمي إبراهيم بالعصى في ود. ولما يخــرج أبي يبدأ عمي إبراهيم محتارا قبل أن يكتشف امرأته التي يبدأ في ملاعبتها وكأنــه قرداتــي يلاعب قردا وسط الضحكات والتهليل وزوجته لا تدري سبب الضجيج، ولما تكتشفه تكف عن الرقص فيزداد الضحك. . وشوق تضحك كأنها طفلة تلعب في مولد أو تتفرج على أراجــوز مضحك، وتنظر إلي خلسة. . هذا هو الفرح بحق. . الفرح لما يعيش في القلب فيجعله خفيفــا يوشك أن يطير. . الفرح لما يشمل كل الناس من حول النفر فلا يحس بوجود شيء يــنغص عليه اللحظة، وتسللوا من المندرة وفاتونا معا. . الوجه بدر والقوام ملفــوف والبســمة حيية مرتاحة على الملامح ومتوجسة في سكون. . وبريق العينين ينصب علي وحدي ويحكي فرحة القلب الصغير. . والصوت نغم هادئ خجول خال من الجسارة. " لهم حق في صب نظــرات الغيرة منك يا شوق. . " وأنا آخذها بجواري لم يكن في الدماغ شــيء غيــر الارتيــاح. . ارتياح لم أجربه أبدا. . والصباحية لها لون جديد. . لون حلو. . وأنا آخــذها معــي فــي العربة المخصوص إلى مصر وكأنني أؤكد لنفسي أنها صارت لي وحدي. . والحجــرة كــم كانت فسيحة في نظري. . كأنما انتقلت الجدران وأصبحت هي العالم كله. . الدنيا كلها ملكي وطوع يدي " قال جدي مصطفى : الحريم دنيا لا لها أول ولا آخر " صحيح. . كان يقصــد شوق. . وأنا أهمس لها: نورت مصر. . وهي تطرف برموش عينيهــا فتغطيهمــا خجــلا، وأنتظر حتى تفتحهما لأطل إليهما : " لن أجعلها تخرج أبدا من البيت. . حتى لــو رجعــت الكفر فسوف أحجبها عن العيون ولا أدعها تخرج ليراها غيري" والأيام الحلــوة. . أبــدا. . حتى الساعات كانت تفوت علينا وأنا تائه. . وساعة الجيب التي اشتريتها كانت تكذبني كلمــا سألتها عن الوقت الذي فات منا. . وطعم ما كانت تصنعه وتقدمه إلي ما زال علــى طــرف اللسان. . أستعيد حلاوته كلما أردت. . حلاوة مخزنة لا تنفذ أبدا. . وأنا أحاول تخويفها لما شفتها تنظر من النافذة فتنكمش مدركة أنني لن أضربها مهما حصل لكنهــا تتصــنع الخــوف باطمئنان. . تقول : كنت أنتظرك. . والدكان نسيته. . حتى إسماعيل نسيته. . لا شيء إلا رغبتي في البقاء معها. . أضاحكها وأسليها. . ألاعبها كما كانت تلاعبها أمي.. وفي الــدماغ فكرة وحيدة ورغبة وحيدة. . شوق. . حتى لما تنام قبلي أظل سهرانا ســاعة أنظــر إليهــا وأتسمع أنفاسها الخافتة وأقول لنفسي أنني دخلت الجنة. وأسأل نفسي إن كان من الممكــن أن أخرج منها يوما "وحتى لو جاء إسماعيل وأخذ الدكان فسوف أرجع إلى الكفر وأعيش سلطان زماني في أرضنا مع شوق ففيم الخوف" وكلما أتوانى عن فتح الدكان فــي الصــباح البــاكر تصحيني وتدفعني في رقة وتقول: اذهب.. ولما أتكاسل متدللا وكأنني طفل تقــول لــي: إن الرزق يفوت على الدكاكين في الصباح الباكر ويغضب من الأبواب المسكوكة. . أسألها مــن علمك هذا؟ تقول أبي. . وأقول لها : طيب أنزل بشرط أن يكون الغذاء حلوا فتسألني إن كانت

تعمل شيئا لا يرضيني فأنفي، وأخرج. . ولما أخرج من الشقة أكون فرحانا غير عامل حسابا للشغل أو شقاء اليوم. . كل الأشياء أيامها كانت تتم وأنا مرتاح. . ولما يجيء الظهر أرجع وأخطف لقمة معها وطعم الأيام على طرف اللسان. . وصوتها في طبلتي الأذنين ما زال. . وكأنه صوت لا يعرف الموت أو الغياب. . ما زالت أطراف أصابعي تستعيد نعومتها وطراوتها. . وكل شيء ما زل في الدماغ صاحيا. . حتى الدموع التي كانت تنسال على خديها دلالا أو لوما أو شكاية. . كل شيء ما زال. . أستطيع استعادته متى أشاء. .

ومرة رجعت البيت ملهوفا فوجدتها تنتظر. .. قلت إنها كل مرة تنام ولما أرجع أصحيها لتحط العشاء وتتعشى. .. قامت وغرفت الأكل وحطته ولم تجلس معي لتأكل. . نظرت إليها وقلت لها: كلي معي يا شوق. . . قالت : لا.. عجبت وقمت إليها أسألها عن السبب فقالت وشيء كأنه الخجل يرف على وجهها :

ـــ ما ليش نفس للطبيخ.

وعجبت.. قلت لها : كلي حلاوة جبتها معي فقالت:

لا. .. سألتها عن السبب.. قالت:

ـــ عايزة فسيخ.

قالتها بسرعة والدم يوشك أن ينضح فوق الجلد الأبيض الصافي. .. أخرجت الساعة ونظرت إليها فوجدتها تقترب من منتصف الليل.. " نصف الليل وتطلب العشاء فسيخا. . ربما مجنونة، ربما عقلها خف.. أو. . أو بطنها ثقلت. . تمام. . بطنها ثقلت " نظرت إليها مدققا استفسر منها عما دار في رأسي فأطرقت. . رفعت ذقنها ونظرت إلي الوجه فغطت برموشها عينيها. . همست لها بود: صحيح؟ أجابت: أكثر من شهرين. . أخذتها في حضني وأنا فرحان بها إلى حد الهوس " تتوحمين يا شوق. .. أنت تتوحمين؟ آه لو كانت المدينة صاحية مثلنا لدرت أشتري لك طلبك وأقول لكل الناس "شوق حملت" قلت لها: الصباح رباح يا شوق. . من عيني. . وبان عليها الفرح. . وزغردت في القلب فرحة. . ورقصت على الشفاه أغنيات رحت أغنيها بصوت خافت جانب شوق.. وهي تضحك مني فرحانة هي الأخرى في محاولة أن تخلص من كسوفها. . ذلك الكسوف الذي غطى الملامح ولبد على الوجه وتركز في أغوار العينين وامتد لكل البدن. . كانت ليلة. . ودرت في الصبح أبحث عن طلباتها وأشتري بكثرة وأتمنى أن تمضي الأيام بسرعة. . بسرعة. . لأراه أو أراها تلك التي تحركت في بطن شوق. .

قلت للشيخ سعد لما جاء:

ـــ ابعث أم علي لشوق

وسألني عن السبب فقلت له وأنا فرحان فانبسط وقال أول ما أوصل البيت أبعثها وأضاف: واجب تعرفهم بجواب. . قلت أكتب لهم الجواب وأسجله لهم اليوم. . وكتب الجواب وسجلته ورحت أشتري خزينا للبيت وأزود. .

دخلت الشقة فوجدت أبي وبرهومة وأمها وأبيها. . سلمت عليهم وباركوا لي ودعوا لشوق :

ــ ربنا يجبرها وينتعها بالسلامة.

وكأننا نصبنا الفرح من جديد. . أبوها قال لها:

ــ ما تجيبي يا بت صيغتك دي أبيعها وأشتري لك بها عجول أسمنهم لجل العيل اللي في بطنك ما يبقاله رسمال ينفعه.

نظر أبي إليّ وعيناه تقولان: لا وأنا لم أرتح للفكرة.. الخير كثير ولا لزوم لبيع الذهب. . شوق حلوة وربما أشتري لها أكثر. . وهي سألتني بنظرة وفي عينيها رغبة لتنفيذ كلام أبيها قلت لها: لا. قالت:

ــ لا ليه. . دي على ما تدور السنة يبقى لنا مراح.

فتحت الدولاب وأخرجت الفلوس التي كنت أحتفظ بها لإسماعيل ووضعتها أمامهم فبرقت عينا بعد الستار. . قال:

ــ حاطط الفلوس في الدولاب؟ ده القرش صياد. . الفلوس تجيب فلوس. . هاتهم يا جدع هاتهم.

قال برهومة:

ــ لم فلوسك يا حسن ورجعها مكانها. .

والتفت إليّ عبد الستار وقال:

ــ لما يرجعوا يبقوا يشتروا اللي هما عايزينه يا با عبد الستار.

وسكتنا لحظة. . لكن شوق قطعت الصمت وخلعت الذهب كله وقدمته لأبيها وكأنها تصفعني. . أخذه الرجل وقالت هي:

ــ أنت حر في فلوسك وأنا حرة في صيغتي.

قلت لها البسي ذهبك فلم تطاوع. . لوت بوزها. . وأنا أحسست بخبطة تقع على دماغي. . وزن دماغي كأنما سكنته خلية نحل. . "قلت لها خذي الذهب فلم تطاوع. . أبي قال إن عبد الستار يبيع أرضه كل يومين فدان. . ربما يلعب بنا وتكون مشاكل. . ما لنا بالمشاكل. .؟ واجب تسمع الكلام"

قال أبي وكأنه ضاق بمعارضتها:

ــ ما لكيش حق يا شوق.

لكنها تحمست لفكرة أبيها وردت على أبي بطريقة ساخرة، كأنها تقول له : كن في حالك ودعنا في حالنا. . وسكت أبي. . للمرة الأولى أراه منكسر الخاطر ولم أملك إلا الخروج من الحجرة فتبعني برهومة وأبي وخرجنا وقعدنا في القهوة القريبة ورحت أدخن الجوزة وأبي يتأفف وإن حاول تهوين الأمر علي. . قلت لنفسي " كسرت كلامي وكلام أبي فلا أمان لها، قال برهومة وكأنه يشير إلى أمر خفي علينا:

ـ عبد الستار دكانه فضي وعايز يملأه.

تحمس أبي:

ـ رزق الهبل ع المجانين.

كانت اللحظة ثقيلة وغبية. . وثرثرنا حول عبد الستار شلبي الذي باع أرضا ورهن أرضا ويطمع في خلق الله. . ولما رجعنا كانت شوق غاضبة من خروجنا دون أبيها قالت:

ـ بقى تفوتوه وتطلعوا؟ مش ما لي عينكم يعني؟

وفضلت السكوت. . وقبل أن يمشي عبد الستار زن على دماغ البنت وأخذ الفلوس أيضا ولما قلت له يتركهم، عملها نكتة وظل يلاوعني ويقول إنني خائف على الفلوس منه وأنني أخونه وبعدها حط الفلوس أمامي وقال أنه كان يمتحنني وكان يحسب أننا أصبحنا واحد لا فرق بيننا أبدا لكنه لم يخرج الذهب ويرجعه لشوق. . وسافروا وكانت شوق غضبانة بصورة غير مفهومة وحاولت أفهمها أن على الواحدة أن تطاوع رجلها ولا تهتم بأبيها فلم تفهم وراحت تبكي كلما كلمتها وأحيانا تصرخ ووجهها الغاضب يتهمني. . قلت أنني رجل ولست شرابة خرج فخاصمتني.. كان خصامنا طويلا وقاسيا ومرا. . قلت لها إن كان بسبب الفلوس أبعثها الكفر. . قالت إن حالة أبيها متعسرة ويحتاج لمساعدة، وأنني احتفظ بما أحتفظ به بينما لا أرغب في مساعدته، فقمت أبعث له ما يطلبه. وبعثت نفرا من الكفر بمبلغ كبير لعبد الستار من أجل إرضاء شوق وأفهمته لا يعرف أبي أبدا، فسافر بالمبلغ وحسبت أن شوق سوف ترضى وتنسى الخصام.

قال عسكري مصري جاءني الدكان: صاحبك إسماعيل محبوس في القلعة وكلفني أعرفك لتزوره قلت له: طيب وجلست أفكر. . " ما عدت أساوي شيئا يا إسماعيل. . أنت سلمتني الأمانة فخنتها. . صرفت المكاسب ووزعت الباقي، كل ما قلته لك عن الأصل كذبة. . كيف أزورك والجيب خال من نصف حقك؟ " وقلت لشوق أسافر يوم وأرجع. .. ولما قابلت عبد الستار قال: فلوسك في السوق وأنتظر لما أجمعها بعد أسبوع وأبعتها لك. . ورجعت أنتظر. . لكن الأسبوع فات وأسبوع آخر فات دون أن يصلني شيء فجعلت ألوم نفسي لأنني طاوعت شوق وأعطيته فلوس الخلق يتحكم فيها لما احتاجها. .. بعد الأمان جاء الخوف. الخوف من المستقبل. . من مواجهة إسماعيل. .. من عبد الستار. .. من شوق

نفسها، من نظرة اللوم في عيون إسماعيل. . أنا رجعت مصر لأسلم لــه الــدكان والإيــراد وأرجع. . أصبحت لا أساوي مليما في نظره. .. اسود وشي في عينيه لأني لا أقوى حتــى على زيارته في الحبس، قلت لها:

ــ كنت زعلانة لأجل أبوكي. . أهو ضحك علينا وسود وشي.

ولكنها سكتت أولا قبل أن تدافع عن أبيها:

ــ بكره يرجعهم لك. . هو خطاف ولا نصاب؟

قلت لها لو كنت حافظت على الذهب كنا بعناه وتصرفنا. فقالت إنني أبحث عن غلطة أمسكها عليها وأنني أكرهها، أكره أن أسلمك رقبتي فتسلميها لأهلك. . أن أكون شرابة خرج في يديك. .. أن يعرف أبي تفاصيل الحكاية فيركبه عفريت، قلت:

ــ أراهن أنه ضيع الفلوس... بقالة شهرين أهه ولا إحم ولا دستور. ..

وضاقت هي بكلامي قالت : إن العيشة معي لا تحتمل وإنني أضايقها كل يــوم بهــذه الحكاية. . ومرة رجعت فوجدتها تلم أشياءها فلم أمانع. . قلت تغضب وربما يحس عبد الستار بالخطر فيتصرف في الفلوس وأزور إسماعيل. .

وأخذتها الكفر. . أوصلتها لدارهم وما حسبته لقيته. . أبوها لم يكن بالكفر. .. أبــي قال إنه طفش فلم أصدقه. . قلت له أنا رجعت شوق لتلد في الكفر. . قال باقي لها شهرين أو أكثر يا حسن. .. قلت ترتاح يومين هنا عند أمها. . وسافرت. .. وأخذت فــي الانتظــار لأخبار عبد الستار والفلوس دون أن يصلني شيء. .. ونسيت كل شــيء إلا إســماعيل. .. ومرة جاءني جواب من أمي تقول لي أن شوق خلفت ولدا ففرحت في قلبي لكنني أحمل هــم إسماعيل. . ولما جاء عسكري آخر قلت له خذني لصاحبي. . ودخت السبع دوخات حتــى وصلت لإسماعيل، قال إنه يحتاج فلوس وأنه بعث إلي أكثر من مرسال ولا أسأل فلم أعــرف كيف أرد عليه. . كان ممقوتا ومغموما رغم محاولاته أن يكون مرحا. . كدت أبكــي مــن أجله لولا الحياء. . قال : ولا يهمك شوف العسكري وراضيه، فأعطيت العســكري نصــيبه وأخرجت كل ما كان معي ساعتها وأعطيته لإسماعيل فبان على وجهــه شــيء كالشــك أو العجب.. قلت له: لم أعمل حسابي هذه المرة وبعد يومين أحضر لك. . قــال : أجــر لــي محامي يا حسن، وأضاف: حبسوني لمجرد الشبهة. . لم يلاحظني أحد. . مجــرد شــكوك لوجودي في المنطقة. . أمسكوا خمسة آخرين وإذا لم أعترف. . كلها شهرين وأخرج مــن هنا. . إنما أكلت كذا علقة ولم أعترف أبدا. .. همس محاولا السخرية لكن ملامحه فضحت ما كان يحسه من مرارة: هدوا عافيتي أولاد الأبالسة. . ما زلت أذكر الــذعر فــي أغــوار العينين. . محاولة السخرية تتحول إلى نبرات مريرة ومطحونة وهشة : أنت رغــم الســجن

تتكلم برجولة. . أنا عيل. . أحس بالعفونة في داخلي ولا أستطيع الهرب. . أحس بالنذالة والخسة، وخرجت من القلعة وقطرات العرق تبللني وتجعلني أحس برعشة لم أحس مثلها أبدا.

رحت لأمي وقلت لها كل حكاياتي مع عبد الستار وشوق. .. قالت اصبر على البنت يا حسن لأنها صغيرة ولا تدرك. .. لا تكن مثل أبيك غشيما. . قلت لها: والعمل؟. . قالت رح لها. . قلت لها روحي أنت لأنها كانت غضبانة وجسي نبضهم وعرفيني. . ولما راحت رجعت وتقاطيعها هادئة. .. دائما لما يحصل شيء لا يرضيها ترسم الهدوء على تقاطيعها وكأنها لا تهتم أو تقول لمن يراها، شفت كثيرا فلن تهزني الأشياء البسيطة. . سألتها قالت: من جابها لنا يأتي ويأخذها. .. واغتظت منهم ولكن أمي هدأت خاطري وقالت : حتى لو ضايقوك. . البنت خلفت ولدا فلا تخرب بيتك بنفسك وصالحها ولم يعجبني كلام أمي. .. رحت لأبي. . قال والغل ينضح على رموش عينيه : ناويين على الشر. . لو كانوا يرغبون في الصلح لرجعوها مع أمك. . قلت إن كلام أبي معقول. . كنت أرغب في رؤية الولد. . وأسأل نفسي إن كان حلوا مثل شوق، قال أبي : بدأوا بالشر ويرغبون في إذلالنا على آخر الزمان. .. نجوم السماء أقرب لهم، وراح يتندر على جماعة شلبي كلها وعلى أبيها الذي لازمه الفقر فطفش من الكفر، وكلاما كثيرا عن الأصيل والخسيس وأنا أفكر في الولد. . أكتفي بالنظر إلى وجه أبي وأرى في عيني برهومة عجزا عن المشاركة في الموضوع يجعله ساكتا وغير قادر على الكلام. . قال أبي: نبعث لهم لأن كرامتك من كرامتي. .. لن أطيق عليك كلمة تجرحك. .. أرسلنا النفر فعاد وقال شتموني وقالوا ابعث حسن، قال أبي وهو يضغط على طرف العصا. . لو رحت لهم طلقها أو لا تكون ولدي طول العمر. . أضاف: زودوا العيار وخلوها خل. . عيونهم قارحة ولا يستحون وكأنهم ورثوا الكفر عن جدودهم. .. وحلف أن يربيهم ويكسر أنوفهم التي بدأت تشمخ، كنت ألمح في عيني أبي شيئا كأنه التهور المحبوس. .. نوعا من الذعر والتوجس الغريب. . كان يشع من عينيه شعاع بريق صاخب لا يتهيب لكنه لما يتكلم عنهم ينزاح ويحل مكانه شيء كالتوجس. . شيء جعلني أتيقن أن جماعة شلبي أصبحت شيئا آخر غير زمان. . أنهم ربما وقفوا على حيلهم، أن جماعتنا أصبحت أقل قوة، ربما بدأت تتهالك وتتهاوى. . لم يعد لنا إذن مركز الصدارة ؟. . خفت أن أجر أبي إلى العراك معهم فأخذت برهومة معي وقلت له : نذهب وأمرنا لله بدل المشاكل. .. وسرنا دون أن يعرف أبي وجهتنا الحقيقية. . قالت أمها إنني كسرت خاطر البنت.. قلت لها : أشوف الولد. .. بدأت المندرة تزدحم بالرجال. . كأنما انتظروا دخولنا وبدأوا يتسللون إلى المندرة. . برهومة راح ينظر إليهم باستهانة وهم يتزايدون ويمسك بالعصا باستهانة فكرتني بنظرات عبد الحميد. .. قال عمها : دخلنا بالمعروف ونخرج بالمعروف. . سكت. . قال: فلوسك بدل العفش والمؤخر. . قلت : هاتوا بنتكم أسألها. .

قالوا : عملنا حسابها. . " لو جاءت ربما تقول أرجع من أجل الولد. . لو قالتها أضعها في نن العين ولا أفوتها ولو كانوا ألف رجل. . جاءت تحمل سيد على يديها. . سألتها وفي نفسي يقين بأن غضبتها راحت: رأيك يا شوق؟ قالت: اخلص. سمعتها غريبة. .. زام الرجال استحسانا، قلت أحمي نفسي من نظرات الشماتة: أنا مستعد إنما بشرط، آخذ الولد معي. . قالوا : موافقين. . اقتربت شوق مني بالولد، نفس الخطوات العفية الجسورة والتقاطيع الحلوة يغطيها غضب لا أعرف من أين كان ينبع.. غضب وتحد غريب على التقاطيع، كأنهم رسموه على وجهها في شهور الغياب.. اقتربت مني أكثر ومدت يدها بالولد.. أخذته.. " تطلبين الخلاص باللسان والفعل أيضا يا شوق؟ هانت عليك العشرة حقا؟. . حتى الولد ترمينه وكأنه لعبة ؟ الكلبة في دارنا كانت تنهش لحمنا لو اقتربنا على خلفتها. . طيب يا شوق".

قال عمها متسائلا : خلاص؟ رميت عليها اليمين. . خرجت وقلت لأمها عند باب المندرة: ورقتها تصل بالبوستة. .. كان سيد في يدي. . قطعة لحم طرية لكنها دائمة الصخب والحركة كأنه أحس بما جرى فاحتج عليه. .. برهومة جنبي ينظر إلى الكل في تحفز وكأنه ينوي العراك، أو ربما يقوم بدور الحماية لي. . احترت فلم أعرف على أين أتجه. . أخذته على أمي فتناولته مني وهي تبسمل. .. عرفت الحكاية فقالت: حرام عليك. . حاولت إفهامها أنني لم أملك إلا تخليصها فقالت: مصير المياه ترجع لمجاريها. . لم أصدق أن المياه سوف ترجع. . كنت مغموما ومقهورا. . حتى خطواتي في دروب الكفر ناحية دارنا كانت مهمومة. . أكره حتى نظرات الخلق وأقول إنهم يعرفون ما حصل ويشتمون "عملتها يا عبد الستار؟ لكن شوق ترمي الولد وكأنه غريب عنها. . ربما ليس ابنها؟ ابن من إذن؟ ابنها، ابني كنت أحسبه قادرا على صلحها. . حسبتها تندب وتلطم ولا تفوته. . تتمرغ على التراب لو انتزعوه منها. . قدمته إلي بنفسها، ربما أهلها فرضوا عليها أن تعملها. . لكن أي أم هذه؟ مهما كانت صغيرة. "هل من الممكن أن يعيش هذا الولد ابن الشهور الثلاثة؟ قالت أمي: لا تشغل بالك وكن في حالك. . شف مصالحك وأنا أدبر أموره. . يحلها الحلال. . لو عادت المياه إلى مجاريها حقا. . لو عادت من أجل الولد. .. وشوق. .. شوق أيضا. .. أيام الفرح قليلة وأنا حسبت أن الدنيا راقت لي. .. الدنيا لا تطاوع. . من يحسب أنها طاوعته مغفل ".

هذا الولد مجنون. . يحكي لي عن البنات في الجامعة وكأنه أهبل، يحب.. مالي أنا؟. . أيامنا لم أقدر حتى على ذكر كلمة الحب لأبي. . بنت اسمها " سالي " اسمها عجيب. . زمن عجيب. . أقول له: التفت لدروسك فيسألني سؤاله المعتاد : هل خيبت أملك مرة واحدة ؟. . أقول : لا. . " آخر سنة يا سيد فلا تجعل الأعادي يشمتون فينا. .. خذ

بالك من روحك يا ولد. . يضاحكني وكأنه لا يقول شيئا غريبا. .. دائما لما يعرف بنتا يأتي ويحكي. . رحت معها السينما ؟. . طيب. . مسكت يدها ؟. . هائل. .. تحبك؟. . طيب. . أنت مجنون. .. تحسبني صاحب؟. . ربما أنا بالفعل صاحبك. . لست أعاملك كأنما أنت ابني. .. الابن يخشى أباه. . لماذا تجرؤ على قول كل شيء، أنا تركت لك الحبل على الغارب. .. أحسن. .. أيامنا كنا نخشى الظهور أمام أعمامنا، مجرد الظهور. . نشتغل ونتعب ولا نرفع العيون بالمطالب الهزيلة. . كنا نكرههم فعلا. . أنت لا تكرهني ما دمت تحكي كل شيء فلا يمكن أن تكرهني. . زمانكم تغير عن زماننا كما تقول. . في عرفنا كانوا يقولون عن هذا الكلام: قلة أدب وعدم ربابة. . أيامكم تسمونها صراحة. .. من يوم أن كبرت عاملتك كأنك أخي. .. أدعك تتصرف كما تريد. . أكتفي بالتحذير وأنا أحسدك على الجسارة في القول. .. حتى عن لياليك العجيبة مع أصحابك تحكي. . كنا على خطأ لأننا كنا نخشى الكلام مع من هم أكبر منا كأننا سنقع في بئر غويط. .. كنت رجلا ولي ولدين وأخاف نظرة من أبي. .. حتى بعد أن مات ظل خوفي منه في داخلي. . حتى اليوم لما أذكره أخاف. . أتوهم أنه سوف يخرج من القبر ويأتي ماسكا شمروخه ولا يعجبه حالي فيضربني أو حتى يلومني. . علموك في الجامعة أم علمتك السماحة أن تكون جريئا معي؟ أنت حر. . قلتها لك ألف مرة. . ما دمت تنجح فأنت حر. . أنا لن أتمكن من مراقبتك مهما حاولت. .. ما دمت لم تخيب أملي فأنت حر. . كل مرة أيام الامتحانات أشتري زجاجات الشراب والسكر وأنتظر وصولك. . مجرد وصولك أيام النتائج لأوزعه. .. أحيانا لا أسألك، أكتفي ببل السكر ووضع الشراب وتوزيعه وأنا أقرأ في عينيك فرحة النجاح، أبدا لا أخاف عليك. . شيء ما يجعلني أنتظر نجاحك وكأنه شيء لا بد أن يحصل، لم أتصور مرة أنك سوف تفشل في الدراسة، كل النصائح أداء واجب تفهمه أنت دون قول أحيانا. . قلت إنها تحبك وتحبها. . طيب. . الامتحان على الأبواب كأنك تذهب إلى فسحة وتعود، لما تنجح تزوج هذه البنت. . لكن عرفني. . على الأقل عرفني. . لما تشتغل تتزوجها. . أحضر أنا مصر وأخطبها لك. . تحبك حقا؟... شوق أحبتني أيضا. . حبنا كان له طعم آخر. . حبكم غريب. . مفضوح ومكشوف ولا يدعو إلى الخجل مثل حبنا أيام زمان. . " قلت له : قم ونام، وأعطيته المصاريف في الصبح وسافر. . بعد شهر سوف تأتي إذن. . مع السلامة يا سيد".

ولما نزلت الكفر شفت الولد معلولا ونحيلا كأنه عود حطب أصفر. غطيته وتركته عند أمي. . . رحت لأبي. .. حاولت إفهامه حكايتي مع إسماعيل، لم يفهم، قال ارجع يا حسن. .. قلت له يعطيني مبلغا أخرج من الورطة قبل العودة. .. قال : اسكت يا حسن ولا تقلب المواجع. .. قلت أنا في عرضك، فبان عليه عدم الارتياح لكلامي. .. قال وكأنه

يهرب من الموضوع: الدار داركم وأنا أحافظ عليها لكم، لا عرضي ولا طولي. .. أخوك برهومة، اسأله. .. اطلب منه. .. " اطلب من برهومة. .. أنا الكبير وأصغر ؟. .. تصغرني إذن ؟. . ما دامت دارنا وغيطنا وأنت حي فما له برهومة؟ قلت: الدار مستورة وثمن بهيمة يخلصني. . قال يداعبني:

ـــ يا بت يا مبروكة. .. هي المواشي باسم مين؟

قالت ببراعة امرأة أب مقتدرة:

ـــ النبي حارسه برهومة.

قلت لما يرجع برهومة. .. لكنه لما رجع جلس ساكتا. . نظرات أبيه أسكتته بعد أن ظللت أشكي. .. مبروكة ظلت " تتنقور" علي وتتسلى وتلعب بأعصابي، قلت لها اسكتي فلم تسكت. .. شتمتها بعد أن فاض بي الكيل. .. قال أبي :

ـــ اتشطر على جماعة شلبي اللي. ..

قال عبارات قبيحة فجعل الدم ينتفض في عروقي والهم يثقل على قلبي، تكلمت مبروكة. .. قلت له: سكتها فضحك. .. قلت دون أن أدري:

ـــ سايبها تتنقور علي وقاعد مدلدل ودانك ؟. . لها حق تركب وتهز رجلها. . ما تسكتها يابا.

نظر إلي بغل ورماني بقلة كانت بجواره. .. لم يعجبه كلامي، خابت القلة فانكسرت في الجدار وطالتني حصوة أو حصوتين. .. وامتدت يده ناحية الشمروخ. .. من جنبه أفلت قبل أن يمسكه. .. خرجت من باب المندرة ودخلت القاعة. .. سنكرت بابها من الداخل وضربات الشمروخ المجنونة تجعلني أسرع وأضع الدكة خلفه والباب يهتز بفعل الضربات. .. والكلام الذي خرج من فمه كان لمجنون جريح يرغب في تحطيم شيء يحول دونه باب لا تكسره الضربات رغم قوتها. .. والدار ازدحمت بالناس. .. قال أبي بصوته المهدود من كثرة الضرب. .

ـــ هاتي الفاس يا بت. . النبي لاحش رقبتك. . بقى حسنة وأنا سيدك ياللي خيبتك ما حصلتش حد. .. ما تشوف جماعة شلبي عملوا فيك إيه يا عرة.

استمر يلعن ويخبط. .. يسب ويخبط وأنا أرتجف. .. حتى سمعت صوته يبتعد. .. كأنما أزاحته قوة جبارة خفية وأبعدته عن الباب. .. قال عمي إبراهيم من وراء الباب : افتح يا حسن. .. خفت. .. قال بود : افتح يا ولد ـــ أبوك خرج من الدار. .. فتحت بحذر. .. قال متكدرا:

ـــ ولما بتخاف بتطول لسانك ليه؟. . أنت انهبلت يا وله؟

أخذني من يدي. . مشى بي خارجا إلى داره. . قال هامسا:

ـــ دا راجل دماغه ناشف يا حسن. . مبروكة لحساه في نافوخه بالكتابة. . كل يومين تكتبله عمل. .

ظللت ساكتا. . ولما وصلنا البوابة كان أبي جالسا مع بعض الرجال على المصطبة. . لما شافني قام فحاولوا إجلاسه فلم يجلس، ظل منصوبا والشمروخ في يده والدم ينضح في عينيه. . قال:

ـــ ما شوفش وشك هنا يا صايع يا بن الكلب. . إني بريء منك ليوم القيامة. . ولا حتى تمشي في مشهدي. . فاهم؟. . ولا حتى تمشي في مشهدي.

وتواريت خلف عمي إبراهيم وهو يشدني من يدي لأبعد عنه. . قال عمي:

ـــ عوضك على الله.. ما عدش شايف غير مبروكة ولا سامع غير مبروكة. . وأنت غلطان. . حكاية عبد الستار عملتها من دماغك وهو زعل. .

أفهمني أن أبي عمل شيئا غريبا بعدها. . راح عند جماعة شلبي بالشمروخ يطالبهم بالفلوس التي أخذها عبد الستار. . قالوا: أقصر الشر فاستمر يلعنهم ويتهمهم بالسرقة والخسة. . ولما غلبوا منه التفوا حوله بعصيهم وشماريخم وانتظروا أن يضرب. . ولكنه لم يضرب، اكتفى بالسب واللعن لأنه كان وحيدا. . خاف أن يضرب. . وبعدها فتح لنفسه طريقا وسطهم وقال لهم: حدودنا البوابة لا تخطوها ولا تعدوا من دربنا أبدا. . ومن يومها وهو مهموم من جماعة شلبي. . لم أهتم بالحكاية. . خاف يضربهم؟ إذن فقد أصبح يخاف من جماعة شلبي؟ قال:

ـــ اللي تعوزه خده مني.

كنت خجلانا من نفسي. . حزينا من أجله أيضا. . كأنني مسلم وقع في حارة يهود. . كأنني لص ممسوك في مولد. . كل النظرات التي شيعتني أقرأ فيها حروف الاتهام: خائب ولا يساوي شيئا، جاب العار لأهله، قطعوه من أهله، مقطوع من ناسه، خائب، ضحكوا عليه جماعة شلبي. . خرجت من الكفر ورجعت مصر. . كل ما أفكر في إسماعيل يزيد الهم. . وسيد وشوق وأبي. . ظللت أحتفظ بالفلوس من أجل إسماعيل حتى جاءت الحكومة وأخرجتني من الدكان أنا والعمال وسنكرت الدكان وشمعته بالشمع الأحمر، وأنا لم أفهم أبدا لماذا. .. أسألهم فيقولون في نفس واحد:

ـــ أمر النيابة العامة. .

في الشارع من جديد. . لا أرض ولا دكان ولا زوجة ولا ولد.. قال ربيع الذي كان يشتغل معي في الدكان وكأن الأمر لا يعنيه:

ـــ اللي بنا مصر كان في الأصل حلواني.

قلت له أنت تتسلى والهم حولنا قال أبدا. . قلت : الدكان ضاع. . قال ولا يهمك. . صينية كنافة أو بسبوسة نسرح بها وتبات مستورة. . ربك يقطع من هنا ويوصل من هنا. .

مثل ربيع عملت صينية كنافة ودرت بها محمولة على كتفي. . حلواني بلا دكان، ومن بنى مصر كان مثلي حلواني. . ربما كان حافيا وما زال لدي حذاء، عاريا ولدي ثياب نظيفة أكويها وأغسلها. . أكل العيش لا يحتاج الكسوف كما قال إسماعيل مرة. . ما أكسبه يروح يوما بيوم.

قابلني ربيع في العتبة قال: مسافر المحلة. . تعال معي، في الشركة طلبوا عمالا، أحسن من اللف والدوخة. . قلت أسافر معك. . سافرنا. مصر أو المحلة كلها بلدنا، يحتاجون المئات فكنا بينهم. . عمال نسيج أو غزل لا يهم. . نتعلم. . نقف على الدولاب أو ندور المكن. . نشم الهواء المشبع بذرات القطن المتطايرة. . تدخل أنوفنا وحلاقيمنا فتسدها ونبصق في البداية لكننا نعتاد اللون الأبيض المشحون بذرات القطن في الوردية الليلية أو الصباحية فلا يهم. . آخر المدة نقبض وأبعث مبلغا لأمي من أجل مصاريف سيد. . أحيانا أشتري له قماشا من الشركة. . وربيع يعيش معي ويبعث إلى أولاده في مصر أيضا. . يقول أنقلهم بعد شهر أو شهرين لما تتعدل الأحوال. . أقول أجعل أمي تأتي هي الأخرى بسيد ونسكن وحدنا. . مكتوب علينا الشقاء من أجل اللقمة. . نظل نكدح هكذا لا نعرف رأسنا من أرجلنا. . كأننا جزء من ماكينة النسيج الكبيرة. . لكننا نتنفس نحلج أو نغزل، يخصموا لنا أياما لما نتكاسل، لا يهم، حتى لما أخذوني إلى ورشة النجارة وافقت. . قلت أشتغل. . أتعلم وأشتغل واشتغلت. . تعلمت. . صنعة نظر كما يقولون في الورشة، ما عاد هناك شيء اسمه العيب في شغل البنادر. . قاطعوني في الكفر. . ما لنا حيلة غير أن نعرق ونأكل. . وجاءت أمي بالمولود وعاشت معي. . من أجل الولد. . هو دائما مرضان. . أمي ترعاه لكنه لما يراني يشب ناحيتي. . يحبو. . يمشي ينطق الكلمات الأولى. . يزيح الهم الثقيل لما أرجع. . يداوي الجروح التي تتخلف عن شغل الورشة. . افرح به لما ينطق الكلمات. . كلماته مكسورة لكنها حلوة. . يطلب المطالب الصغيرة. . حلوى، قرش، صندل، لعبة، قطة، أهتم بالولد. . " أمك تزوجت يا سيد. . لو تعرف. . لم تصبر على روحها. . وفت العدة وتزوجت بسرعة. . "لو تتحسن صحته ترتاح أمي. . أمي فاتت بيتها ومعاشها وجاءت لتعيش معي في حجرة من أجل الولد. . لولاها لمات. . غدا يكبر وأعلمه في المدارس. . لا بد أعلمه في المدارس حتى لا يدوخ مثلي. .

يموت الموت أحيانا ويحيا. . مات موت عبد الحميد وبرهومة وأبي أيضا وكل أعمامي. . موت سيد لا يهدأ. . كلما دفنته رجع يطل من ركنه. . ينفض عن نفسه ستائر النسيان الرقيق. . يأتي في الدماغ. . أحيانا أراه يحبو. . أحيانا أراه يضحك. . أحيانا أراه

يبكي. . ويتكلم بحماس جديد. . يفكر أحيانا في أمور أعجز عن فهمها. . لكنه يأتي. . يأتي ليحرك الجرح والمواجع المدفونة تحت تراب هش يعجز عن إحكام تغطيته. .

"في الدماغ. . مثل عبد الحميد. . ضربوه في الدماغ. . عبد الحميد راح قبل أن تأتي يا سيد. . كان مثلك حليما وطيبا ويصعب تغيير رأيه في الأشياء وراح أيضا. . قلت لك أبتعد عن الكفر لكنك كنت تكسر كلامي وتأتي. . رحت في شربة ماء. . أسأل نفسي لماذا تخيروا الدماغ؟" محاولات النسيان تعجز. . حتى الذاكرة الضعيفة تعي ما جرى لسيد. . صادوه في الدماغ. . في الدماغ كانت الضربة. . الدماغ حيث العقل الصاحي والعينين البراقتين والبسمة على الشفاه تستخف بكل شيء حوله. . حتى مرارة الأيام وقسوتها. . كيف صادوه ؟. . ولماذا قال صالح أنه سمع الطلقة فقام مفزوعا من نومه. . سمع الناس في الكفر يقولون أن نفرا مات، بعدها راح يجري حتى وصل إليه قبل عسكر البندر. . قال إن الدم كان ينزف من مقدم الدماغ ويغطي البشرة. . العينان ظلتا مفتوحتين، والشفتان منفرجتين عن بسمة ترف مستهينة "وعبد الحميد أيضا ظلت عيناه مفتوحتين وعلى تقاطيعه شيء مرتاح كأنه البسمة. . حقيقة كنت تبتسم يا سيد في تلك الليلة الساكنة ؟. . علام كانت الابتسامة يا سيد. . ؟ من أجل اللقاء الذي كنت تسعى إليه أم أن فكرة خطرت في خيالك؟ ربما استهانة بالفاعل أو بالموت. . أفلحت الضربة فلم تملك أن تعبس التقاطيع المبتسمة. . أسكتتك الضربة يا سيد؟ " ما عاد يقولها : ذاهب إلى الكفر الليلة لأراهم. . ما عاد يأتي في بدايات كل شهر يتحسس بنظراته الأشياء. . كأنه يقيسها ويقول: يظهر أحوالك المالية مثل أحوالي. . يمد يده ناحيتي قائلا: خذ ما تحتاجه. . ما كان لي حاجة لغيره. . كان يكفي أن أراه يأتي. . أسمع صوته. . أحادث الناس عنه. . من بعده لم يعد للكلام طعما. . عمن أتكلم. . ؟ كان هو الدنيا والكلام والفرح وحتى غم اللحظة الذي يذوب كأنه سحابة صيف كاذبة. . تطوحها النسمة وتتبدد بفعل الضحكة. . بعده لم أعد قادرا على الكلام أو النظر أو حتى التفكير في شيء. في الدماغ. . مقدم الدماغ. . هل هي صدفة؟ هل رجع الإنجليز؟ جاءوا يأخذون مني ثأرا قديما لم ينسوا أبدا؟ ماذا؟ هل جننت؟ من عملها ؟. . لو عرفته ما استطعت أن أفعل له شيئا. . فقط أود لو عرفته. . أنظر إليه بالنظر الكليل مرة. . وأظل أكرهه بكل ما في القلب من قدرة على الكراهية التي تتولد عن الحسرة ما تبقى لي من أيام، عملها جبان مقتدر، يخشى أن يواجه نظرة من عجوز مثلي، نظرة كليلة من نظر كليل لائم. . يا هذا الذي عملتها مهما كنت قلها واجعلني أغرس في لحم وجهك نظرتي وأموت بعدها. . ربما لو طال العمر أبصق فوق الملامح فأحتمل لأنها بصقة مُرة. . مرة مرارة العلقم. . أمر من العلقم. . وأسمع أن حدث لعنة من صوتي الخافت المهزوم تنصب عليك، لعنة بلا رنين ولا أمل. . كم حيرني التفكير. . لطالما أسرح في عوالم بعيدة راغبا في معرفة

الفاعل. . مجرد معرفة. . لو كان لصا أسرقه. . لا لم يكن لصا. . " ماذا قالت شوق ؟. . يقولون حزنت. . وأي حزن يا شوق ؟. . صالح أرى في عينيه حزنه. . حسبته لن يهتم. . لكنه اهتز هو أيضا. . وأنت يا شوق ماذا كان طعم الحزن في حلقك ؟. . عندك غيره يا شوق. . ترى كان لسيد سعرا عندك يا شوق؟ كان عندي يساوي الدنيا كلها، من كان لي غيره؟

كم هو مر طعم الموت عندما يبتلعه الأحياء بلا رغبة. .. كم هو مر طعم القتل لما يجهل الواحد منا وجه القاتل. . مجرد تقاطيعه وشكله، وحتى الحياة لم تتزايد قسوتها بجهل الواحد منا لماذا تكون القسوة أصلا. . من يطيق؟ من يطيق موته؟

" ارقصي يا خطواتي برعشة العجز والحيرة. . ارتعشي يا عصاي القديمة فأنا أرمي عليك حملي. . ارقصي على سكة الكفر فأنا ذاهب إليه في قبره منهزما. . معترفا بالهزيمة. . مستسلما له. . بهزيمة القلب الأخيرة التي لا تعادلها هزيمة. . بعده لا يهم حتى نصرا أو هزيمة. . حتى لو انطبقت السماء على الأرض لن تكون هزيمة أمر أو أقسى. . ارقصي يا خطواتي في دروب الكفر فسوف نصل إلى المدفن ونقعد. . ويا عيون الناس كفي عن النظر والمتابعة فقد كرهت دنيا الأحياء ورحت بمحض اختياري لأتنفس مع الأموات حتى يجئ الموت نفسه".

جاءني صالح في المحلة. . شابا فتيا في جلبابه الأزرق ومشروع شارب. . فرحت به. . قلت له: ابق معي ما داموا غلبوك وأتعبوك. . قلت أشغله في الشركة ويبقى، وملعونة أرضهم التي كسروا نفسنا من أجلها. . وعاش الولد وسيد يلعب معه فيضحك. . وفاتت أيام وصالح يحكي عن الكفر. . عن جماعة شلبي التي لا يهمها في الكفر رجلا. . عن أبي الذي يحتد مع برهومة. . وعن برهومة الذي راح للحكيم مرات ولا يعرف لماذا. . وقال أنهم سخروه في الأرض وحده يشتغل في الأرض وبرهومة يتدلل وأبي يأمر وينهي ويكتفي بأن يشق على الأرض ويعمل عليه مهندسا. . وكيف أنه قال لهم : أنا كبرت فاكتبوا لي أرض أمي ولا يهم نصيب أبي فصهينوا عنه وأنه لما قال لهم : آخذ بنت عمي سخروا منه وقالوا: أنت عيل، فطهق منهم وقال أنا مثل " التملي " أشتغل بلقمتي ولن أغلب بنفسي وسأل عني ودلوه على العنوان فجاء. . قلت : ترتاح هنا يا صالح ما دمنا طلعنا من مولدهم بلا حمص. . عمك ورث الأرض وكتبوها له وسيدك حي. . وهو رجل غشيم. . يضربك ضربة تروح فيها. . قال أنه لما شم نفسه جاء. .

بعد أيام جاء أبي وبرهومة. . قال أبي للولد : طفشان يا بن الكلب : وضربه كفا فوق صدغه فسكت الولد. . كأنه ضربني أنا. قلت له غاضبا أبعد يدك الثقيلة عن الولد فهو ليس حملك. . قال : أنا ربيته وأنا حر فيه. . قلت هو ابني على كل حال فشتمني وسكت. .

أسرعت وجمعت جماعة من الرجال يسكنون معنا وعملنا مجلسا. . قالوا: نسأل الولد. . قال أنا حر ولا أحد يتدخل. . قال أحدهم: البندر ليس فوضى. . هنا حرية وهو يختار. . وسألوا الولد فقال أبقى. . ولما خرجوا بقى أبي وبرهومة وصالح. . قال أبي:

ـ كتبنا لك الفدانين بتوع أمك يا صالح وتقول استنى هنا. . تاكل طوب وتدوخ في البنادر ؟. . دي آخرة تربيتي فيك؟ لمعت عينا الولد وبان فيهما عدم التصديق فمد أبي إليه يده بورقة مطوية. . نظر فيها ونظر إلي. . " في عينيك شيء جديد يا صالح فما هو؟ " قال الولد : أسافر معكم ما دمت أخذت أرض أمي. . قال برهومة:

ـ كلمنا أبوك محمد عن زكية ووافق كمان.

وبان في عينيه فرح. . أخذته على جنب لأحذره منهم لكنه قال إنهم كتبوا له أرض أمه ولو بقى تروح منه. . قلت له : والعمل؟ قال أسافر. .

كنت محسورا لأن الأرض أخذته مني. . خجلت أن أنظر إلى وجه أبي الذي بان عليه أنه انتصر وأخذ الولد مني رغما عني. .

قال برهومة وأنا أوصلهم : قلبي تعبان وأريد أن أكشف عند الحكيم هنا. . أبي سمعه والتفت إليه وشده قائلا:

ـ خطي قدامي وبلاش تماحيك. .. ابقى اكشف في طنطا. ..

كان وجه برهومة مجهدا ومريضا بالفعل. . حاولت أن أجعله يبقى ليكشف، لكن أبي أصر على أخذه في تلك الساعة والسفر به وبصالح. .. وسافروا. . كنت أعجب لإصرار أبي على أخذه. . ربما كان فرحانا لأنه أخذ صالح. . ربما يشك أن برهومة يبتغي الفسحة في المحلة معي. . حملت صالح سبت الفواكه وأعطيت برهومة التذاكر التي قطعتها لهم. . قلت لصالح على جنب:

ـ لو ضايقوك ارجع. . أديك عرفت السكة.

وقال الولد:

ـ آجي وآخذك يوم الكتاب بس إوعى ما ترضاش.

وانشغلت في تقديم أوراق سيد للمدرسة. . واشتريت المريلة ودفعت المصاريف وجاء صالح. . لما شفته من بعيد فرحت. . قلت جاء يأخذني أحضر الفرح. . كلما اقتربت منه أحس بالفرحة تموت في قلبي، لما سلمت عليه قال:

ـ أبويا برهومة متأخر وطالبك.

اهتز قلبي. . " رقد برهومة؟ وقد تأخر وطلبني. . كل هذا بسببك يا رجل. . تقتل أولادك ولا تهتز أبدا؟ " أسرعت مع صالح وأنا أقول لروحي ربنا يستر. . أخذنا عربة مخصوص من المحلة حتى الكفر. . دخلت عليه المندرة. . أصفر ومعلول وعاجز عن

الحركة. . كأنه عجوز. . صوته عاجز وعيناه زائغتان في دنيا غير الدنيا. . لما شافني حاول أن يعتدل فلم يفلح قلت له: ارتاح. . وقعدت جانبه على طرف السرير. . قال : الحمد لله، كنت أريد أن أراك قبل ما أودع. . وأبي كان مطرقا برأسه وواقفا لم يهتم حتى بوصولي. . مد برهومة يده إلى يد أبي وأخذها وقربها ناحيتي وقال لأبي: سلم على حسن. . خلص أبي يده برفق وقال لي: برهومة طلبك يا حسن. . نظرت إلى برهومة. . ساعتها نسيت كل شيء حتى قسوة أبي. . نسيت كل ما فات إلا رغبتي في أن أراه يقف كما كنت أراه قبلا. . قال بصوت جاهد أن يكون مسموعا لكنه كان متقطعا وعاجزا عن الإسماع:

ـــ لو مت يا با الأرض تبقى لحسن. . ولو عشت نقطع الورق اللي انكتب ظلم، يأخذ حقه وهو حر فيه. . الدنيا منافقة يا با.

قلت أريحه من الكلام : كن في حالك. . شد حيلك واجمد. . أسكتني بإشارة من يده وتابع كلامه:

ـــ كوم الطماع ناقص. . أمي طمعت، يمكن ذنب أخواتي وربنا بيخلصه مني.

تقطع قلبي ولم أعد أحتمل المزيد. . حاولت أن أداري دموعي لكنها كانت تسيل، وكلما نظرت إليه وإلى أبي المهموم في صمت ازداد حزنا عليه. . وبدأ الصوت يخفت أكثر. . والعينان تغيبان. . وكل مدة لما يفيق من غفوته يمسكني من يدي ويضغط عليها ثم يغيب من جديد. . كأنه يتمسك بشيء في يدي ويقول كلاما بلا رابط لما يفيق. . كأنه يخرف. . خلصت يدي منه وخرجت قلت : ننادي الحكيم. . ورمحت خارجا من الدار. . قال صوت كأنه صوت برهومة. . أو صوت أبي جريحا وواهيا بينما أخرج من باب الدار:

ـــ ما فيش فايدة. .

وقبل أن أصل إلى البوابة سمعت صوتا نسائيا يشق الصمت وينفذ ليس إلى آذاني وإنما إلى صميم قلبي. . رجعت أرمح ودخلت فنظرت إلى الشفتين في حركتهما الأخيرة والروح تجاهد أن تخرج من خلالهما. . والفم يحاول إبقائها لحظات لكنها تفتحه بعزم أشد وتخرج. . تنفذ الروح فيهمد البدن. . يكف عن التنفس أو الأنين أو الحركة. . دموع أبي تنسال على وجهه دون أن يتحرك من وقفته، مطرقا كما تركته كأنه صخرة جامدة تبكي، "تعرف البكاء لما تشوف الموت، لكنك لا تعرفه مع الأحياء أبدا " وحتى لما رفع عينيه لحظة كنت أقرأ فيهما شيئا كأنه الخجل. . الخجل من الموت. . " أنت خجلان من الموت أو من دموعك وكنت سببا في خرابنا وضياعنا. . ظلت تزن عليك وتزن حتى خربت الدار. . وأنت تطاوع. . دائما تطاوع. . تحسب أن الدنيا كانت ملك يديك تعطي لمن تشاء وتمنع عمن تشاء. . وأنت يا برهومة؟ هل انتهيت فعلا. . يا حسرتي على شبابك الذي ضاع منا قبل الأوان ". من الموت كان يخجل الرجل. . في المندرة وأنا جالس أسمع كلام الناس. .

يتهامسون بأصوات قادرة على النفاذ إليّ ربما بالشماتة، أو محاولة لإظهار الــود أو العطــف علي "ربنا خلاف الظنون، مبروكة طردت الأولاد وقعــدت علــى الكــل، زرعــت الشــر وحصدته. . ذنب أخويه خلص. . " وأنا جالس آخذ العــزاء وأنظــر ولا أســتطيع الكــلام "اتركونا لهمنا يا ناس. . ابعدوا عنا فالأعمار بيد الله..".

ولما دخلت الدار في الليل كانت مبروكة تجلس وسط الحريم وعلى رأسها طين جــف وتيبس، وعلى وجهها صبغة لونها أزرق.. كانت تندب فلما شافتني كفــت، قامــت نــاحيتي وكأنها كلبة مسعورة. . أمسكت طوقي وكأنني بعثت الموت لأخي يأخذه، كانت تصرخ فــي جنون حقيقي، عيناها تنضحان هما وغما وحشيًّا يصعب على الكافر لكنه يخيف. . يرعب. . كانت تهزني ورذاذ من فمها يتناثر على جانبيه ويصل إلى وجهي لما تتكلم:

ــ جاي ليه يا حسن. . ؟ جاي ليه يا حسن. . برهومة مات. . برهومة مــا. . ت برهومة. . ما. . ت جاي تورث فيه. . عايز تورث فيه ؟. . الصغير مــات. . الحلــو مات. .. الغالي مات. .

كنت مرعوبا. . مرعوبا أرتعش من الهلع والشفقة "حتى أنت يا مبروكة تثيرين فــي النفس شفقة؟ خلصوني منها بعد جهود شاقة وأصابعها مغروزة ومستميتة في طوقي. . خلفت في العنق جروحا وفاتت على طوق الجلباب طينا وصبغة.

قال أبي وهو ينظر إلي في حيرة:

ــ خليك ويانا بقى. . نشوف أحوالنا.

قلت له: مبروكة لن تطيق وأنت شفت بنفسك، فسكت.. قال بعدها وكأنه يفهمني شيئا فاتني : حرقة الموت " وأنا ألم أحترق عليه ربما بنفس القدر وإن كنت لا أندب أو أمسكك أنت من خناقك لأنك كنت بلا شك سببا من الأسباب؟ قلت لك اتركه يكشف عند الحكيم فلم تــرض أبدا. .." قال بحسرة : عوضنا على الله. .

ودخلت مبروكة هذه المرة وعاودت ما سبق أن عملته في المرة الأولى. . وقام أبــي يخلصني منها بعافيته التي عجزت إلا بعد أن خربشتني في وجهي. . قلت والغيظ يملــؤني ويجعلني أخرج عن طوري : الدار لا تسعني أنا ومبروكة قال: قلبك أسود.. قلت لــه هــذه المرة دون أن أهتم بما يعمله: أنت رجل خنزير. . وهي تلعب بك طوال عمرك، من يــوم أن دخلت الدار تلعب بك.. ولم يبد عليه أنه سوف يتحرك ليضرب.. الموت هده. . أفهمته أنني لن أرجع على الدار ما دامت مبروكة فيها تجلس وتنعق مثل البومة..

هذه المرة لم أكن أخافه، ربما كانت هذه المرة الوحيدة التي لم أخافه فيها. . ربما لأن الموت أزاح الخوف مني وسلب منه الجسارة والقسوة. . ربما لأنه أحس بأنه أخطأ في كــل عمره، أحيانا يحس الواحد أن عمره كان غلطة، كان هذا هو المرسوم على وجهه فــي ذلــك

المساء البليد البارد. . كأنه عجز عن الرد "وأنت يا مبروكة. . الغل في قلبك. . حتى في الموت تكرهين. . حتى لما مات برهومة لا يأخذك الحزن من حضن الكراهية فتحزنين دون أن تكرهي ولو مرة؟ ".

على سلم الموت أرقص رقصتي الأخيرة. . في كفر عسكر حيث المدافن أزور الموتى كلما ساعدت القدرة. . عدت إلى الأرض بعدما انهدت القوى. . وسيد يرقد حيث رقد أبي وبرهومة وأعمامي. . "لو كنت يا عبد الحميد معهم لغنيتم غنوة النهاية " أسمع أحيانا في مدافن الحاج عوف صوت الماضي تردده أشجار النبق العتيقة همسا مرتعشا شاكيا. . ألمح الأطياف تتسلل إلى أفرع الصفصاف المحنية. . أجلس ساعة القيلولة حتى يأتي صالح أو أحد أولاده يأخذني إلى الدار أتعشى بعد صلاة المغرب. . كلما قال لي وكأنه يوصيني: لا تذهب إلى المدافن. . أخالفه وأذهب. . اليوم أعرف سر عودتي الملهوفة. . نداء الرماد ينفذ في صلب الواحد منا فيعجز عن المقاومة أو التأجيل، يأتي ويجلس. . وحتى لما أتمثل صوت أبي أو ألمح طيفه لا أخاف. . الموت يجرده من جبروته ورعونته. . يجعله ودودا وحنونا، وبرهومة بنظرته الأخيرة وصفاء قلبه ينير وجهه. قلبه الذي مات معلولا، وسيد. . " يا شجرتي التي زرعتها وحسبتها مالت لتظلل على غريمي. . الآن أعرف، مال الفرع ليرجع إلى الأرض فلكل أجل كتاب. . ما عاد في خيالي وجه لغريم واحد. . كأنه لما غبت عني غابت العداوة واختفى الغريم القديم. . أيامها كنت أحسبك نسيت، ما جاهدت عمري من أجله. . شقاء الأيام ودوختي عليك. . قلت أيامها وأنا أجهل الحقيقة: انجرف في تيارهم ونسي، وقلت أن الكفر عتمة وغيطانه تغطيها الرطوبة. . سككه معفرة وبيوته كالحة. . وكل شيء فيه كئيب ومعتم، حتى وجوه الخلق كئيبة ومهمومة وساكتة. . كأنها مراح غنم يمرح في الفجر ويعود قبل المغرب دون أن يتبدل فيه شيء إلا الزيادة أو النقصان في العدد، إنما القطيع هو القطيع. . قلت هذا لنفسي ناسيا نداء الموتى. . نداء أمواتنا الذين سبقونا ورقدوا واستراحوا، اكتفوا بالإطلال علينا من مراقدهم ومتابعة خطونا المنتشي كل فجر. . في انتظارنا بيقين في عودتنا. . ﴿ **أينما كنتم يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة**﴾ اسمعها فاهتز. . وأنت لم يكن لك برج لتتوارى من وجه الموت ساعة. . والموت أراه في الأحيان فأعجب من أمر الدنيا. . وكل ما يدور حولنا، الغيطان والمصارف وناموس البرك والسكك الملوية، البيوت العفشة المسقوفة بكتل الخشب التي اسودت مع حزم البوص المحترق، وكل شيء للموت يمضي. . جئت للموت إذن، وأنت يا سيد كنت تأتي للموت هنا. . أيامها كنت أسائل نفسي عن سر مجيئك المتكرر كل يومين. . أتخيلك تمشي في دروب الكفر بينما جماعات نسوة الكفر يجلسن على الأبواب وينظرن إليك وأنت تمر عليهن، ثم يشرعن في الحديث عنك. . ابن من ؟. . لماذا يأتي؟ لمن يأتي؟ وماذا يعمل؟. .

وينصبوا على سيرتك قعدتهم، أبدا لم يكن هذا يهمك. . كنت تأتي لأن الموت هنا كان يناديك وليس رجال الكفر المناظر ذوي الشوارب المبرومة والأعواد الفارعة. . وحماسهم في دعوتك لشرب خناصر الشاي الأسود. . كأنهم يتسابقون لنيل شرف دخولك دورهم. . كرمهم المعجون بالغربة في التفاخر وكأنهم في سباق مع أنفسهم أولا. . لا شيء من هذا كان يشدك. . الموت هو الذي أخذك. . شدك مني. . وأحسبك يا سيد كنت تلاحظ أن الأمر كان يتحول من احتفاء متحمس في البداية. خطوات التباهي بابن الجماعة الذي عاد ليمشي في دروب الكفر مع الرجال المناظر. وتكرار الواجب بكثرة تتحول إلى عبء ثقيل ثقل المسئولية المرمية فوق الأكتاف. . وجماعة الحاج عوف التي هزمها العناد وصلابة الدماغ. . أصبحت أعجز من الاستمرار في دور الكرام. . وحتى لو كنت أنت وراء تربية أولاد البعض منهم في المدارس وأنك كنت فخرهم في مواجهة الآخرين يوما. . كل هذا لا يهم. . ليس الأهل والأولاد وإنما الموت شدك. وأنا بدوري جئت أنتظر. . أحلم بالموت يأتيني وأنا في المدافن..".

الشيخ شعبان يقرأ ما تيسر. . على روح الرجال يقرأ. هسيس أشجار النبق العتيقة يتردد شيئا كالهمس البشري. . نبرات أصواتهم تتجاوب مع صوت الشيخ شعبان. . قال سيد: أنت قطعت نفسك من شجرة " كانت شجرة الحاج عوف الكبير التي ما عادت تطرح الرجال القادرين، واكتفت بالهياكل معدومة الحيلة والغارقة في كذبة الاسم القديم. . وسواد القلب من سواد الحال. . وأنت تراني يا سيد كل يوم. . أنتظر وأرضى بكل رغبتي أن أبقى هنا رغم ما كان في الزمن الفائت. . والحسرة تذوب مع اليقين الذي تسلل إلى الرأس بأن الحزن فوق طاقة الاحتمال، وإنه عندما يكتشف الواحد منا أن العمر كله كان كذبة وأنه خسره. . وإن ما كان يتمسك به كان غلطة كبيرة لا يحلها إلا الموت نفسه. . ساعتها يذوب الشعور بالحسرة في لحظة الكشف. . أجيء إليك لأتمثلك مرة كما أتمثل أبي وبرهومة وجدي والآخرين. . وتعز صورتك أحيانا. ولما أتسمع دبيب خطو صالح أفقد الأمل في رؤيتك وأعود معه إلى الدار. . والحجر الدائر ولطشة الجدار. . جدار الموت لطشك. . ها هو صالح يأتي. . الخطو الثقيل. . والتقاطيع الجادة. . وبقية اعتزاز بلا معنى. . رجل في قلبه جرح قديم لا يداويه القول أو العزاء. . يداويه الموت يا صالح. . حتى لو تظاهرت بالقوة والعنفوان والقسوة، فأنت لها مثل سيد. . للتربة. . للتربة.

ولما جاءني الجواب سافرت. . " هدك الموت إذن يا أبي فعرف المرض طريقك أنت أيضا..؟ آت إليك أنا والقلب لا يحمل إلا الحنو والنسيان " لما دخلت الدار وجدته جالسا في صحنها على دكة النورج. . قلت وأنا أتجه ناحيته: بعد الشر عنك، ظل ثابتا في قعدته وعلى تقاطيعه خطوط هم غويطة.. قلت لنفسي " ما زال مهموما وحزينا على موت برهومة. . "

مددت إليه يدي فظل جامدا في قعدته دون أن ينظر ناحيتي أو يمد يده. . جلست جـــواره. . جاء صالح وسلم وجلس على الأرض عند قدمي الرجل، وبعده بانت مبروكة فـــي الســـواد. . قالت: شفت؟ نظرت إليها بغل. . "فصل سخيف وشربته. . تبعثون جوابا تدعون فيه مرض الرجل بينما يجلس قصادي يطل ولا ينطق كأنما قطعتم لسانه أيضا؟" لم أتكلم وسكت. . قال أبي يقطع الصمت الذي حام حول الدماغ كدبور فقد قدرته على الزن واكتفى بالدوران حـــول الرأس ليجعلها تتابعه وتدور هي الأخرى. . هيه؟ وبعدها بدأ يحرك عصـــاه فـــي صـــعود وهبوط متتابع فتدق الأرض بطرفها وكأنه يأمرنا بالإنصات بينما نحن صامتون؟

ـــ أنت شايف إيه يا حسن؟

كان في صوته شرخا لا يود أن يبين. . يجاهد أن يخفيه. قلت متوجعا من نبرته:

ـــ شايفك حلو يا با. . البركة فيك.

قال بصوت متهدج، مهزوم ومستسلم أيضا وهو يهز دماغه وكأنه ينكر قولي:

ـــ لكن أنا بقى ما نيش شايفك. .

وللحظة أدركت كل شيء. . استعدت الموقف من أوله وأنا أطل إلى عينيه العسليتين الصافيتين واللامعتين كعيني قط بري أو ربما ذئب. . عجبت لأننـــي لـــم ألاحـــظ شـــيئا. . ارتعبت وأنا أدقق النظر في الملامح المتهدلة المتراخية كأنها لا تخصه. . كأنما العينان كانتا تحرسان الملامح وتشدانها وتبعثان فيها الحياة.

فلما غابتا أصبحت التقاطيع بلا حارس فتراخت وتهدلت. . أصبحت مجرد كتل لحـــم عجوز محطوطة بلا معنى. . إلى هذا الحد رأيت الملامح ميتة فانتفى وجودها كله.. حتـــى خطوط الزمن تكذب. . تجاهد التقاطيع أن تقول شيئا فتعجز. . لا شـــيء غيـــر اللـــوم أو الاستكانة يطلان علي من خلال البريق الأعمى الضرير الذي لا يميز.

" ميزت في ماضيك كثيرا حتى أتعبك التمييز. . نظرت بالعينين فخوفت الكل حتـــى نفذ من العينين الشعاع. . والآن تجلس. . لا تملك حتـــى أن تـــدخل بيـــت " الأدب " بـــلا مساعدة. . والذي انقضى راح وولى. . الموت في الملامح. . ربما الحزن على برهومـــة وعبد الحميد والأخوة. . ترى هل كانت حياتك بأسرها غلطة متتابعة الحلقات كأنها قيد شدك كلما حاولت الخروج لتعود وتسقط في دوامة التعسف الغشيم والتجبـــر. . ومعاركـــك التـــي حصلت بفعلها على الاسم والتي ما زالوا يتحدثون عنها وكأنها حواديـــت مـــا حصـــلت ولا كانت. . وماذا يقولون اليوم في كفر عسكر؟ ربما فرحوا بالبلوى التـــي حطـــت. . ربمـــا تحسروا وأنت تتهاوى قبالتهم من مكانك القديم ومكانتك وتقعد على دكة النورج فـــي صـــحن الدار كالحريم لا ترى عدوا من حبيبا ".

لم يكن هناك ما أستطيع قوله أو أجسر على البوح به. . كأنما قطعت قعدته الساكنة لساني. . خيم السكوت والعجز عن فتح أي موضوع. . قال وهو يهتز أماما وخلفا وكأنه مقرئ الرواتب الكفيف الذي يتلو آياته بلا حماس ولا انفعال، بصوت كأنه صوت العجز البائس:

ـ العمر عدى وفات. . ما عادش غيرك. . برهومة راح. . عبد الحميد راح. . وحتى النظر راح. . وياما سمعت معيرة بسببك أنت وعبد الحميد وقاومت لما كان العزم شديد. . لو ترجع يا حسن يا بني يرجع العزم ويشتد الحيل المهدود. . أشوف بعينك أنت وصالح.

للمرة الأولى أحس أنه أبي. . في كل عمره أحسسته خصما يستحق الكراهية. . مرة حاولت قتله. . حتى وهو يقول لي ارجع الكفر لم أكن أهتم بالرجوع. . كنت أفكر فيه. . أشفق عليه. . كأنما قرأ هو ما يدور في دماغي. . برقت عيناه في لحظة فحسبته يدخل. . يتسلل إليه ويقرأ ما يدور فيه. . كأنه هزم العمى والعجز وبدأ يراني. . من داخل الداخل يراني. . ساعتها ارتعبت رغم الإشفاق عليه من نظرة اللوم المطلة من العينين وكل التقاطيع. . التقاطيع التي عادت تحيا بعد الموات. . هذه المرة أحست أنني بجوار أبي. . كأنما ولد إحساسي به في تلك اللحظة بعينها. . لم أعد أحتمل. . جعلت أنهنه. . من أجله كنت أبكي. . أسكتني. . قال : الظفر لا يطلع من اللحم. . الدم لا يبقى ماء وسكت مدة، ثم ابتسم، كأنما استعاد نفسه. . كأنما لما اطمأن أنني ابنه وأنه استعادني عاد يحيا. . تحيا التقاطيع وتنتعش وتفيق. . تنفض عن نفسها البلادة وتحس وتقول. . والنبرات تقاوم الارتعاشات، وراح يحكي، منبسط الملامح والنبرات. . من حيرتي كنت أقول لنفسي: ليس أعمى، فها هما العينان تبرقان ببريق الوعي والإحساس والحياة. . وكلما قال شيئا يزداد في قلبي الصخب. . أود لو أحتويه كله. . أجعله يراني. . وأتوارى بدمعة مجاهدا ألا يحسها ويحسها هو، يقول : ما زلت تبكي فأنفي بالدموع. . يقول: أخذنا أيامنا فلن نأخذ زمان غيرنا.

كان صالح ينكت الأرض بعود حطب جاف ولا يواجهني لما يلمح في عيني الدموع، كأنه تعلم أن من الرجولة ألا يرى دموع الرجال. . قلت لأبي : كنت زينة الرجال. . قال بأسى: راحت أيامنا "مرة تعاركنا مع أولاد العزبة وأخذنا في ضربهم بالطوب والطين اليابس. . وطاروا هربا وجاء الرجال وعبروا الترعة وضربونا وكنا نصرخ. . ولما شافنا عبد الحميد أسرع وحده يتعارك مع كل الرجال فضربوه أيضا. . وقلنا لما شفناه يسقط وسطهم : مات. . ولا ندري كيف تسلل عبد الغفار من وسطنا وناداك. وأنت ضربت بشمروخك أكبرهم سنا. . رأيتك تهوي على دماغه بالشمروخ وأنا خلف النخلة أرقب

وأنتظر. . كان الرجل فحلا بشوارب مرفوعة فسقط ولم يقم أبدا. . وأسرع الآخرون يفرون من حسم ضرباتك التي جرحت من طالته فعجزته. . يخوضون في الترعة التي كانت غويطة، لكنهم كانوا يخوضون في الماء البني وأنت تتابعهم بالشمروخ فيجرون. من يومها أصبحت الترعة لنا نلعب على كلا الشاطئين ولا يظهر من العزبة ولد. . والذي مات يا رجل راح دمه ولا أدري كيف. . وكنت دائما تجرؤ على فعل ما يعجز الرجال عن فعله. . عركتك مع برابرة السلطة. . لما جاءوا يطلبون أنفارا من الكفر وأخذوا واحدا من جماعتنا وقلت لهم هاتوه. . والكرابيج التي انهالت عليك كانت أعجز من الشمروخ. . هرب الرجال السود على الجمال وفاتوا الكفر وما شفتهم أبدا. . وحتى لما كانوا يعودون لا يهوبون ناحية البوابة ويكتفون بأخذ الأنفار من الأهالي في صمت وبلا ضجيج. . ودخولك على جماعة شلبي بعد حكاية شوق دون علم جماعتنا. . وتاريخك معنا مزحوم بالضربات، وفي أطراف الواحد منا آثار الضربات والعاهات المستديمة. . واليوم تقعد؟ ".

كان يحكي عن أيام العزوة القديمة، ولمة الرجال حول جدي مصطفى. . يحكي عن الماضي فيبعثه من جديد ويحياه، ناسيا لحظته بكل ما فيها من أمارات العجز. كنت أسمع وفي يدي خنصر الشاي الذي قدمته زكية. . قال أبي: متى ترجع ؟. . قلت متوددا إليه :

ــ كام شهر كدة يا با. . ع السنة ما تخلص وأحول أوراق الولد لمدرسة البندر. . بدل السنة ما تروح عليه.

وسكت مدة. . ساد صمت طويل. . قال بعده بحماس وعروق رقبته تنتفض وتزداد احتقانا وغلظة:

ــ "علمه. . علمه. . حتى لو بعت كل الأرض علمه. . أولاد شلبي كسرونا لما علموا عيالهم. . طلعه حكيم أو محامي المهم علمه. . إياك تنسى مهما حصل.

وعاد الصمت وصدى كلماته يترجرج في طبلتي الأذنين ويرف في الدماغ وكأنه يتجسد حماما أبيض يستدعي الرعاية والحنو.

وجاء سيد من الكفر. . قلت له : أنت معووج فاعتدل. . قال : لست معووجا، راح يجادلني لأول مرة في حياته بحدة وحماس. . كأنه اكتشف شيئا جديدا. . دائما لما يرجع من الكفر يهوى النقاش والمعاندة. . سألني إن كانت أمه قد أتت به إلي طفلا في مصر، قلت له: جاءت. . حصل بالفعل أن جاءت تحملك. . أخذتك من أمي وجاءت تحملك إلي في الدكان. . قالت ارجع لأربي سيد. . " تأتين بعد ما كتبوا كتابك على ابن عمك؟ تدعين أن سيد يحتاجك؟ اليوم يحتاجك وبالأمس لم يكن يحتاجك؟ انتظرتم اكتمال العدة وكتبتم الكتاب فقطعتم على خط الرجعة " قلت لها : عودي يا شوق. . ارجعي الكفر وكفانا ما جرى. . ولما بكت لم أصدق دموعها، تذهب إذن إليها وتسألها وتصدق كلماتها ؟. . تدعي أنني

رفضت إعادتها رغم أنها جاءت بنفسها من أجلك؟ طيب. . سوف أعرفك " قلت لروحي ساعتها: لكم هي جريئة لتأتي إلي وهي على ذمة رجل آخر. . لم أصدق ما كانت تدعيه من رغبتها في العيش معي. . قلت لها: روحي لرجلك يا شوق وكفاني ما حصل منكم، وأنا خلصت من ذنبك، أبوك ضحك علينا ولما قلت لك لم أخلص منك. . لم تسمعي الكلام وامتد بوزك شبرا. . وأمك طولت لسانها علي في مندرتكم. . وأهلك جاءوا وكأنهم يرغبون في العراك. . وأنا لم أنطق إلا بعد أن طلبت أنت الخلاص. . والولد قدمتيه إلي أمامهم، وأبي عملتوه لبانة على آخر الزمان. . قالت: لا أرغب في العودة إليك من أجلك أنت وإنما من أجل الولد. . أحسست بالعار. . ها هي تكيدني بك. . كأنما أحسست بالغيرة منك يومها. . لأنني لم أكن أساويك عندها. . تعود من أجل طفل في لفته قدمته إلي بنفسها وتخلصت منه. . تعود بعد أن انكشف ذيلها لرجل آخر. . رغم كل المساعي التي عملناها قبل أن أصل إلى الكفر وبعد أن خلصت، قطعوا علينا خط الرجعة وكتبوا كتابها على ابن عمها المحترم كأنما حسبوا الأيام لتوفي العدة بينما كنت أنتظر".

قلت لها ارجعي يا شوق فما فكرت في استعادة بصقة لفظتها حتى لو كانت فيها حياتي. . قالت وكأنها قطة شرسة مسعورة: وأنا رميتك وبصقت عليك ألف مرة ولولا سيد ما رجعت لخسيس مثلك "أنا الخسيس يا سليلة تجار الملح ورسمال الحمام والتمر المعفن؟ "غلى الدم في عروقي. . كدت أضربها في الشارع ولكنها كانت تحملك. . تحتمي بك مني "قالت: خذ ابنك وحطتك فوق الدكة. . نفس المشهد القديم. . في المرة الأولى قلت: أهلها. . هذه المرة كان أهلها لا يعرفون حتى أين راحت. . ما كان بيننا غيرك. . أنا ما كنت لأدعك تتربى على حساب ابن عمها يا سيد. . وما كنت قلت لأمي أن توافق على أن تأخذك منها لترميك من جديد. . تسألني إن كانت جاءت. . حسنا. . رح واسألها متى جاءت. . اجعلها تحكي بصدق متى جاءت واحكم أنت بنفسك. . تلومني لأنني لم أقبلها من أجلك. . وهل قبلت أنت البنت التي عرفتها وفاتتك وصاحبت قريبا لتكيدك ؟. هل قبلتها لما رجعت تقول لك أنها تحبك أنت وتريدك؟. . أنت تحاسبني وتنسى نفسك يا سيد. . كنت أرضى بها لو لم يكن ذيلها انكشف لرجل غيري. . وحتى لو رضيت يومها. . هل كنت أضمن أنها سوف تخلص من ابن عمها هل كنت أصدق أنها باعته من أجلك فعلا؟ . ولماذا باعتك منذ البداية؟ أسكت يا سيد. . أسكت. . أنت لا تعرف ما جرى منها. . أبدا لا تعرف ما جرى منها. . أنت ترى دموعها تنسال فتصدق. . ودموع الواحدة منهن قريبة. . أقرب من الهم على القلب. . كان قد انكسر شيء ما بيننا في قاعتهم. . انشرخ جدار كان يسترها فبانت على حقيقتها. . كان من الصعب علي أن أصدق أن الأمر سوف يعود كما كان. . ما جرى كان شائها ومشينا

ويصعب احتماله. . اسكت يا جدع ولا تقلب علينا المواجع القديمة. . أسكت. . ارقد أحسن. .".

سقط الرجل وهو يعافر فوق السطح دون أن يطلب منهم مساعدة. . سقط فوق حجر الطاحونة القديمة فانخلعت مفاصله ورقد عاجزا عن الحركة. . جاءني الخبر وأنا مشغول في تحويل أوراق سيد لمدرسة البندر. . فرمحت وسافرت إلى الكفر بليل. . وجدته راقدا وعلى وجهه غطاء. . رفعته من لهفتي ورحت أناديه ولا يرد. . أخذوا سيد بعيدا ثم شدوني وأنا ذاهل حتى عن كلماتهم. . " السر الإلهي طلع. . طلبك ولما غبت قال اطلبوا منه السماح. . البقية في حياتك " كنت أطل إليهم ولا أميز الوجوه. . لا أعرف إلا أنها مجموعة من الأفواه والعيون المطلة. . ولما طلع النهار وباتت الشمس كنت قاعدا وحدي في ركن الدار. . ولا أعرف كيف سرت معهم في الجنازة. . حملت الخشبة فأزاحوني وسندوني وساروا بي في اتجاه المدافن. . كانت مقابلتنا الأخيرة ماثلة في خاطري. . كنت قد أحببته. بعد أن أحببته جاء الموت وخطفه.. كأنني كنت مشتاقا إلى الأب فلما وجدته أعطيته كل الحب الذي حجبته عواصف الأيام السود. . ليتني كنت أكرهه. . جلست في المندرة آخذ العزاء من الناس. . طلعنا عليه الخميس الصغير. . انتبهت لنفسي وأنا ألمح سيد يلعب مع أولاد الدار، تذكرت الأجازة والمدرسة التي حولت إليها أوراقه، أخذته معي للمدرسة وسألت عن الأوراق فقالوا وصلت. . تركته وأوصيت زميله أن يعرفه سكة الكفر. . سألني صالح عن سيد قلت راح المدرسة. . بان عليه شيء كأنه الاستياء. . سألته : مالك؟ قال : أبدا. . في الليل بدأت أرقب الوجوه، صالح بجانب زكية التي خلف منها ولدا يرضع. . ومبروكة التي تقعد متكدرة في ركن القاعة لا يبين منها غير عينين ضيقتين تلمعان. . وسيد الجالس ينظر إلى الكل في توجس، يلاعب بنت الشيخ حسنين أحيانا ويكف وكأنه يخشى الاستمرار في اللعب. . قال صالح:

ـ لزومها إيه المدارس يا با؟ دي الأرض عايزة رجالة. .

سكت وكأنني لم أسمع ما قاله. . تحمست مبروكة وقالت وكأنها تداعبني أو تضاحكني بينما يتوارى في نبراتها معنى يمكن اكتشافه:

ـ طب د أنت نسيت الفلاحة يا حسن. . هيه. . عمر طويل بقى. . يكون في عونه صالح.

قلت : والعمل ؟.

قالت:

ـ بقول سيد يقعد في الدار مع أخيه يساعده. . يشيل على الحمار. . وأهو الخير كثير. .

سكت. . قال صالح بحماس من وجد من يسنده هذه المرة:

ـــ قلنا كدة قالوا اطلعوا من البلد.

قلت لصالح محاولا إنهاء المسألة كلها:

ـــ لا تطلع ولا تنزل. . أنا وياك ذراعي بذراعك لحد ما يكمل تعليمه. . أبويا قال كدة. .

قالت مبروكة:

ـــ يبقى زي الشحط ويأكل من كدكم؟

" ليلتك مهببة يا بوز القرد " قلت لها:

ـــ أهم ولادي والاثنين أخوات. .

قال صالح وكأنه يكشف شيئا مخيفا:

ـــ يعني هو يروح المدرسة ويبقى أفندي وأنا أنزرع في الطين؟

قالت زكية وكأنها تلطف الجو ولكن لغير صالحي:

ـــ يعني اللي راحوا المدارس عملوا إيه يا با حسن. .. ؟

قالت مبروكة والغيظ يلمع في عينيها الضيقتين:

ـــ إحنا كمان مش حمل مصاريف مدارس. .

قلت :

ـــ تتدبر.

قالت مبروكة :

ـــ هي شوق ولا صالحة اللي بنت أصول يا حسن يا بني. . ؟ ابن شوق يبقى أفندي وابن صالحة يطفح الكوتة في الغيط؟

قلت لنفسي : " شوق أحسن من صالحة ألف مرة. . أحسن منها ياكركوبة " وساد صمت. . واستمر لحظات. . في اليوم التالي جاءني سيد في الغيط خلف نقلة السباخ. . كانت في عينيه دموع وعلى خده آثار كف. . سألته فقال إنه صالح. . " ضربتني أنا يا صالح ".

سألت صالح عن سبب ضربه للولد فعرض صدغه ناحيتي وقال بغطرسة:

ـــ وإيه لما أضربه يعني؟ يا ما الواحد شاف وانضرب. . حاكم أنت كنت في مصر ويا شوق يا با. . دانت بتخاف عليه قوي.

قلت له:

ـــ دي العيشة كدة ما تنفعش أبدا. . طب ضربته ليه ؟. . اتكلم. .

ولم يتكلم. . ظل معرضا صدغه ناحيتي وكأنه يدفعني لضـــربه. . تماســـكت، قـــال صالح:

ــ اللي تشوفه مشيه. . إنما حكاية المدرسة دي ما منهاش فايدة. .

في العشاء قالت مبروكة وكأنها بكل شيء عليم:

ــ صالح أيده طويلة يا حسن. . لو كنت خايف على ابنك وديه لأمه تربيه.

وتكلم صالح كلاما عجيبا. . قال إنهم يعايرونه في الكفر ويقولون له: أبوك جاء يأخذ الأرض. . ويقولون له: طلع لك أب على آخر الزمان من تحت الأرض بعد ما كنــت بــلا أب. .

قالت مبروكة:

ــ قصر الكلام كدة. . لو فضل ابنك في المدارس وابن بنتي يجري عليه أطلع مــن الدار وأفوتها لكم. .

قلت لها:

ــ في ستين كسحة. .. والمركب اللي تودي.

قالت:

ــ حيلك حيلك. . لهو أنت فاهم إن الدار بقت دارك؟ يا كبدي؟ ؟

قلت لنفسي أن مبروكة ما زالت في الدار تأمر وتنهي كما كانت في الماضي. . حتى صالح علمته أن يكون باردا ونطعا. . علمته وسيرته على هواها. . لــو عاركــت صـــالح يلومني الناس. . مصير الحق يصل أصحابه. . تذكرت ما قاله جدي عن الحــريم. قلــت أحسم المسألة كلها:

ــ داري أو دار صالح ما يهمش. . أنا راجع المحلة.

ولم يمانع أحد ولو بكلمة. . كأنما كانوا ينتظرون مني أن أقولها بنفسي. . طرد لكنه مختلف. . طرد بالمعاملة. . وخرجت بليل. . أخذت أمي وسيد وركبنا. . كنت أتحاشـــى مقابلة الناس وأتخفى وكأنني سرقت شيئا. . ولم يطلع صالح ليوصلني بل ظل جالسا مكانـــه يشفط الشاي بصوت وكأنه يعاندني هو الآخر. . ركبنا ووصلنا البندر. . وطول السكة أقول لنفسي " الدار دار أبونا والأغراب يطردونا " وأمي كانت تعجب وتضرب كفا بكف وتقول عن مبروكة أنها قارحة ولا تخجل أبدا. .

في الشركة قالوا : وفرناك. . قلت : كملت. .. " صنعة في اليد أمان من الفقر ". . رجعت إلى مدرسة سيد القديمة وتحايلت على الناظر وسقت عليه الناس ليقبل عــودة الولــد والرجل راكب دماغه. . والكبار يحتاجون كلمة من الكبار فيهون كل أمر كبير ويصبح سهلا ويسير التحقيق. . قلت أبحث عن رجل كبير ووجدته. . أعطيته مبلغا وقـــال ابعــث ابنـــك

مدرسته في صباح الغد. والولد دخل المدرسة والناظر قابلني ببشاشة وكأنني صاحبه. . قلت: أنه على كل شيء قدير، القرش عمل عمايل.

كنت أشتغل في ورشة النجارة والحالة أفضل من أيام الشركة. . قالت أمي مرة : خذ روحية بنت عمك رجب. .. من دمك وتصون عرضك وتكون حنونة على الولد. .. قلت آخذها. .. سافرت الكفر. .. لم أر صالح. أخذتها بعد ليلة ساكنة بلا فرح ولا زفة. .. رجعت المحلة بها. .. قالت أمي بعد أيام أسافر البلد. . . قلت : لا. .. كان الولد يتعلق بها. . رغم محاولات روحية أن تبدو حنونة على الولد كان ينفر منها. . تعللت أمي بضيق المكان لكنني لم أوافق. .

قالت أمي : روحية ضربت سيد على دماغه. . أخذت روحية في ركن وسألتها عن السبب. .. قالت: كسر القلة. .. ضربتها وقلت لها : لو كسر أغلى شيء هنا لا أسمح أنك تضربيه. .. قالت والدموع ترحمها من يدي: حرمت ولن أعملها أبدا. . " حتى أنت يا روحية تضربين ؟. . ظللت تتمسكنين حتى حسبت أنك تمكنت. . نسيت أنك في القدم مداسا أخلعه لو ضايقني وأشتري غيره؟ " بعد أيام قال سيد لنفسه : شتمتني بكلام قبيح عن أمي. .. ضربتها مرة أخرى. . . قلت لها : كله إلا الكلام القبيح وقلة الأدب. ..

وقالت أمي: لا تضربها كثيرا. . خوفها فقط فربما تسم الولد وأنت لا تعرف " بدع " الحريم يا حسن. . الولد يروح في لعبة. . وخفت على الولد من روحية وأخذت في تحذيره منها فيقول لي أن أمي أفهمته نفس ما أحاول أن أفهمه. ..

وجاءني إعلام الوراثة على البيت. . سافرت وذهبت إلى المحكمة في اليوم المحدد. . وجدت صالح يقف بعيدا ويرقبني دون أن يتقدم ناحيتي خطوة. . والقاضي لما سأله قال أنه اشترى ودفع الثمن. . " أنت تدعي أنك اشتريت الأرض ودفعت ثمنها. .. من أين جئت بالثمن يا ضلالي؟ عرفت أنه يكذب. .. وأن الأوراق التي قدمها مزورة. . سألني القاضي إن كنت مستعدا للطعن في أقوال صالح ؟. . قلت لنفسي أنه يمكن أن أكسب قضية الأرض وأخسر الولد. . ربما يقع في قضية تزوير ويروح فيها ويقولون في الكفر أنني كنت سببا، وإذا كسب يقولون إنني حاولت الإيقاع به عند الحكومة ولم أفلح. .. وفي كلا الحالين أكون معيرة الناس ولبانة يتشدقون بها. . ظللت ساكنا. . قال القاضي : أجر لك محامي ما دمت عاجزا عن الكلام ولا تعرف شيئا. .. وأجل القضية شهرين.

قالت أمي : سفرني الكفر أموت هناك بدل الموت في الغربة. . وأخذتها وأوصيت عليها الأهالي وعدت إلى المحلة. .. كنت مهدود القوى وخائفا على الولد من روحية. .. كانت أمي تراعيه وتحرسه واليوم تنفرد به البنت وربما تتعبه كنت ألاحظ اتساخ ملابس الولد وصفرته. .. كأنه معلول. . أصبح كأولاد الشوارع. قالت الساكنة جارتنا إن روحية تجوع

الولد وأنت في الورشة. . قلت لروحية : فوقي لنفسك وكفي عن مضـــايقة الولـــد، صـــلحي أفعالك أحسن لك. .. وكل ليلة أرجع من الشغل فأسأل الولد إن كان أكل فترد روحية بسرعة وتقول إنه تعشى. . ولما يسكت سيد ويمد يده للأكل ويأكل أعرف أنه كان جائعـــا. . ولمـــا أسهر في القهوة مع أصحابي أصحيه وأكتشف أنه بات بلا عشاء. .. كنت أخاف أن تعمـــل شيئا للولد ما دامت أمي في الكفر والولد طول النهار معها.

ولما نجح الولد في الابتدائية كثر زنها على دماغي تطلب أن أشغله في الشركة وقلت: تعلم وأصبح يحمل شهادة على كل حال وأنا خلصت من ذنبه. . دفعت لواحد مـــن الأفنديـــة رشوة فأخذها ووعدني بتعيين الولد. . لكنه أخذ الأوراق ولم يعينه والمدارس كانـــت بـــدأت الدراسة وأوراق الولد ما زالت عند الأفندي. . وصاع الولد في الشارع، وكل يـــوم أذهـــب للرجل الذي أخذ الفلوس فلا أجده وإذا وجدته يتهرب مني ويعد وعودا تجعلني أتشكك في أنه نصاب. . واشتكت روحية من شقاوة الولد وقالت شغله في صنعة بدل الرمح في الشارع. ..

ولما صهينت عنها أخذته هي بنفسها وراحت به ورشة حدادة واشترت لـــه ملابـــس قديمة للورشة. .. واستقام الولد أياما ثم بدأ يهرب. . يقول إنهم ضربوه، وأخذتـــه بنفســـي لورشة ميكانيكي سيارات لكنه كان دائبا على الهرب منها كلما وجد الفرصة. . . قلت لنفسي: الولد أخلاقه فسدت، بدأت أسمع كلام روحية وأضربه لأربيه وأعلمه. . قال زميلي محمـــود: ابنك صحته تعبت. . قلت له كلنا تعبانين في عيشتنا وهو ليس صغيرا ليهرب من الورشة. . قال لي: أنت التفت لابن روحية ونسيت سيد. .. قلت لنفسي أن محمود يدس أنفه في أمورنا ولا يعرف ما يجري من الولد. .. لو بقى في الشارع يتعارك مع الأولاد ويســـبب المشـــاكل ولو راح الورشة يهرب ولا يستقيم، والأفندي أخذ الرشوة ليعينه وضحك علينا. . وروحيـــة خلفت ولدا صغيرا وليس هذا شيئا غريبا لو اهتممت به هو أيضا. .. كنت فرحانـــا بالولـــد الصغير أكثر من فرحتي بسيد يوم مولده لأنه جاء في أيام أحلى وظروف أحلى. ..

قال المحامي الذي وكلته بعد أن أخذ مقدم الأتعاب والرسوم : الولد ابنك لعـــب فـــي الأوراق واستعمل ختم جده وزور عقد بيع وأنا اطلعت على الملف بنفسي في المحكمة وشفت التزوير. .. سألته: والعمل؟ قال: إذا كنت تريده يروح اللومان يروح، وإذا كنت تخاف عليه اتركني أتصرف في الموضوع. . تتنازل عن القضية وتسكت بعد ما نهدده ونأخذ منه قرشين ينفعوك، واتفق معي على نسبة ما يأخذه مما يدفعه صالح. .

بعد مدة ذهبت للمحامي أسأله فتغيرت لهجته وقال إن الأوراق سليمة فلعب في عبـــي فأر الشك وبدأت أتوجس شرا، ربما يكون المحامي اتفق مع صالح على إفساد القضية وأخـــذ شيئا. . كلهم مثل المناشير طالعين نازلين حش في تعب الخلق" قال: ما يعرضه عليك ابنـــك خذه ولا تعارض فما تحصل عليه يكون من حنك سبع، الأرض تحولت لصالح بموجب عقـــد

بيع رسمي غير مشكوك في صحته. .. ويوم القضية كان المحامي الذي وكلته مع صالح في انتظاري، قال لما شافني موجها كلامه لصالح: أبوك مستعد للتنازل عن القضية لكن تشوف خاطره. .. وسكت صالح مدة ثم قال: كتر خيرك. . كنت أراهما يتكلمان بالعيون وأحس أنها اتفقا علي أنا. . " استمر في القضية لآخر الشوط ولا أتحول إلى مسخة يضحكون عليها؟ " قطع علي تفكيري صالح بأن شدني من كوعي ومشي بي إلى ركن وقال وكأنه يخلص نفسه من ورطة وقع فيها: بدل المصاريف والفضائح خذ ما تريده من دون علم المحامي لأنه أخذ مني ثمن الصلح. . " تساومني بعد أن زورت العقد؟ وتتفق مع المحامي أيضا وتأتي لتعرض على الصلح؟ أأجر محامي آخر أم أصالحك يا صالح؟ " قال : لن أهون عليك مهما كان الحال فأنا ابنك " وهنت أنا عليك لما خرجت بليل من الكفر وكأنني عملت عملة؟ " جاء المحامي : قال في حماس من يريد أن يخلص نفسه ويأخذ: نتفق قبل الجلسة. . تتنازل وتخلص. . قلت لصالح : طيب يا صالح. . أخرج من حافظته نقودا ومدها ناحيتي وهو يقول : ثمن المواشي، بعتها كلها وجبت ثمنها من أجلك. . صعب علي حاله. . قلت له وأنا أنظر إلى المحامي وكأنني أطرده : ربنا يغنيها بالحلال يا صالح. . حط فلوسك معك واشتري مواشي فأنا مسامح ولا أريد شيئا. . " وجه المحامي كان ملهوفا وأنا أفسد عليه رغبته في الأخذ مني " قال المحامي مستفسرا: بقية الأتعاب؟ قل له : بعد التنازل. . ودخلنا عند الموظف وكتبنا التنازل ومشي المحامي ينتظر فقلت له: ربنا يسهللك من غيرنا يا عم "كفاك ما أخذته وعملته : وجذبت صالح وخرجنا من المحكمة وكأنما اكتفى المحامي بما أخذه أو خاف من الفضيحة فتأخر عنا ونحن نمشي خارجين من المحكمة. قلت لصالح : أنا لا أطمع في شيء أكثر من أن يتصل حبل الوداد الذي انقطع. .. قال : عرفت أنك سوف تتنازل. . وعرفت منه أنه كان يرغب في التسجيل فأوقفوه وأرسلوا علي إعلام الوراثة، لكني لم أهتم بما حصل. .. وتركت صالح وسافرت رافضا أن آخذ منه مليما واحد قائلا أن الأحوال رضا. ..

قلت لروحية عما جرى فقالت وكأنها هي التي خسرت الأرض والقضية:

ـــ يا دي الخراب. . أتنازلت دا إيه ؟. دانت كنت تاخذ منه حبابي عنيه. . لجل عيالك يا راجل.

قلت لها اخرسي فلوت بوزها. . قلت أنها لا تهتم إلا بابنها هي ولا تعرف أن صالح ابني أيضا ولا يهون علي. .. وسيد. .. سألتها عن سر غياب سيد فقالت لا أعرف عنه شيئا منذ الصباح. . سألتها : جاء يتغذى ؟. فنفت أنه جاء. . ولما رحت الورشة أسأل عنه وجدتها مسكوكة. . قلت: ربما الولد حصل له شيء أو طفش من البلد. . وقلبي بدأ يدق والخوف عليه يسيطر أكثر وأكثر. ..

في منتصف الليل سمعت أصوات خطوات على السلم. . فتحت عيناي وانتظرت، كان خبط على الباب وهمس. . لما فتحت وجدت سيد محمولا على أكتاف ولدين من أولاد الورشة. . قال أكبرهم سنا: داست على رجله عجلة فلوتها وأخذناه للمجبراتي. ونزل الولدان وفاتوا سيد جالسا على الكنبة يتألم، فلما أغلقت الباب واقتربت منه بدا خائفا يتزحزح ناسيا ألمه. . كان يحسبني سوف أضربه لإهماله في نفسه. . كلما ابتعد عنه وأنظر إليه خلسة أراه يتحسس قدمه المربوطة ويتألم. . أحيانا يئن في خفوت مذعور. . لما أقترب منه يكش في نفسه وينظر إلي نظرة مذعورة متوجسة. قلت أبتعد عنه وأجعله يرقد. . نظرت إلى روحية فوجدتها صماء وكأن الأمر لا يعنيها. . تلاعب الولد ابن الأسبوعين وتنظر إلي وكأن سيد لا يهم في شيء. . تذكرت خوفي من أبي. . قلت لنفسي : دماغك دارت مع روحية يا ولد. . الولد يخافك مثلما كنت تخاف أبيك. .. تمام. أصبحت أنت عبد القادر، وسيد حسن، وروحية مبروكة. . نفس الحكاية القديمة تتكرر وأنت غارق حتى أذنيك في حواديت روحية. . ليلتها لم أنم. . روحية نامت وحتى لما كانت تقوم من أجل الولد لا تهتم بحالتي ولم تسأل حتى عن سيد. .

كل يوم يأتي المجبراتي يدلك رجله المكسورة الملوية. . والولد لا يتحسن حاله أبدا. . كل يوم تزداد الرجل ورما وزرقة. . شافه زميلي محمود فبص إلي بصة لوم وقال خذه للمستشفى. . أخذته إلى المستشفى الأميري. . قال الدكتور حالته سيئة جدا. . لو تأخرت يومين آخرين كنا قطعناها له غصبا. . بدأت أحس بالخطر حولي. . تخيلته برجل واحدة فأمسكت يد الدكتور الشاب وحاولت أن أقبلها راجيا إياه ألا يقطعها أبدا. . قال: لا تخف فسوف نحاول، وشد يده مني. . سألني عما أصابه، وسر الإهمال في علاجه، وكيف رضيت أمه بمثل هذه البلادة؟ رحت أقول لذلك الشاب الغريب عني كل ما حصل لي. . حكاية سيد من أولها. . كل ما أحضر لزيارة سيد يعرف عنه الدكتور مزيدا من التفاصيل. . وكل مرة ينظر إلي مستنكرا وكأنه يلومني ويضيق بي. .. لوما لا أستطيع دفعه. . نظرته يمتزج فيها الاشمئزاز والضيق والكراهية وربما الاحتقار أو الإشفاق. . لكنه كلما ينظر إلي هذه النظرة لا أكف أبدا عن السرد وكأني لا أهتم بغير كشف كل الحقيقة. . وهو في كل مرة ينظر إلي تلك النظرة وكأنه يرى شيئا غريبا وليس إنسانا. .

قدمت أوراق الولد إلى المدرسة كما أوصاني الدكتور. . لما خرج من المستشفى كان يمشي على ساقيه ويتوكأ على عصا أحضرتها له. . لكنه دخل المدرسة من جديد. . وارتاحت تقاطيعه نوعا. . واستقام في المدرسة. . كل يوم يزداد تحسنا لأنني أراعيه في كل شيء وأكف عن تخويفه أو ضربه. . والولد الصغير لما جاءته الحصبة حاولت علاجه، في ليلة ازدادت حرارته وقلت إنها الحمى. . ولما مات حزنت عليه أياما. . لكن سيد أنساني

موت الولد الصغير. . الذي حيرني أن روحية بعد أن كانت تتخفى في مضايقة سيد بدأت تضايقه حتى وأنا موجود وكأنها لا تهتم حتى بي. ولولا حزنها على الولد لضربتها مثل أيام زمان، لكنها كلما أسكت لها تزيد في أفعالها ضد سيد. . قلت لها مرة تعرفين أنني تربية امرأة أب يا روحية، وأفهم شغل الحريم. . غضبت مني. . ليلة امتحان سيد كانت تبعته يشتري لها جاز وسكر وكبريت وملح وسبرتو وعيش. . كل شيء مشوار كأنها تعطله عن عمد. . لما قال لها أنا تعبت ضربته في وسط الشارع بالمداس فوق رأسه. . قالوا أنها دست بوزه في فم الولد وحاشوها عنه وهو يبكي. . لما رجعت قالت لي واحدة من الشارع عما جرى فرمحت. . قالت الساكنة جارتنا نفس الشيء. . كان سيد نائما فلم أشأ أن أصحيه. ..

من سكات أخذت روحية إلى الكفر. . جمعت ملابسها وحملتها لها وأوصلتها إلى دار أهلها. . عملوا لي مجلسا فقلت للرجال: عيشها انقطع. . قال عمي: فهمنا ما جرى. . قلت : ضربت سيد. . قالوا نضربها أو تضربها أنت بنفسك، قلت : غلبت معها. . كل واحد يأخذ نصيبه. . كانوا يريدون صلحا لكنني ركبت دماغي وقلت أبدا. . قالوا ادفع مؤخرها قلت أدفعه. . قال أبوها : الآن وأنت جالس بيننا ولا تتحرك من مكانك. . " عملت حسابي وأكملته وأحضرته لأقطع كل الألسنة لما تطول ". . قلت طيب. . قال عمي إبراهيم وكأنه يعجزني بنكته : خمس ورقات في عشرة. . لا نقبل جنيها مفكوكا. . قلت : موافق. . أخرجت لهم مؤخرها وجاء المأذون وخلصتها وتركت المجلس ورجعت للولد.

بعد يومين جاءوا إلينا في السكن وشالوا العفش كله. .. المكتوب في القائمة وغير المكتوب. . وكلما اعترض على أخذ شيء يقولون رجعها ولا تركب دماغك في الشر مثل أبيك فأقول: أبدا. . وتركوا لنا السكن على البلاط وفرشنا قش الأرز على الأرض وبتنا وكان الجو صيفا فحمدت الله. . قلت تتدبر الأمور بإذن الله وأسدد ديوني وأشتري فرشا جديدا ويكفيني أن يستريح سيد.

كنت أخاف عليه من عيون الناس. . لسانه طويل ودائب على الثرثرة. . لا يكف عن الكلام أبدا. . بعضهم ينظر إليه بحسد والبعض الآخر يضيق به. . من يومه لسانه طويل. . يحكي كل ما يسمعه أو يدور في دماغه لأي الناس. . لما كان ولدا صغيرا يتعلم كيف ينطق الكلام راح الكفر وجاء يقلد كل من رآه هناك. . أضحكني على عبد الستار شلبي. . راح يمشي مثل أبي فمت على روحي من الضحك. . كل ما كان يسمعه يدور حوله يتذكره. . أفرح به وأخاف عليه من عيون الناس. . الناس لا تترك الناس في أحوالها. . " الكعكة في يد اليتيم عجبة ". . من صغره يثرثر، هذه الأيام تتزايد ثرثرته. . يعجب الناس في الورشة لأنه أخذ الابتدائية. . ينظرون إليه كأنه فتح عكا. . يقول لهم دون حياء: وركنت سنة في ورشة الأسطى كمال وعلى سرير المستشفى. . اغتاظ منه. . يجعلهم

يعرفون أحوالنا. . ابن صاحب الورشة أكبر منه، سيد في الثانوي وهو في الابتدائي. . يجالسه الحاج ويتكلم معه. . ألمح في عينيه حسدا للولد. . أبص للولد لأمنعه من الاسترسال في الحكي والثرثرة فلا يكف. . أحسه يكيدني ويحكي مع صاحب الورشة. . كلما كبر يزيد كلامه. . أكره طولة اللسان. . أكره أن يتباهى النفر بروحه وبما يعرفه. . أريده ناصحا لروحه لا يأمن لأحد. .

لما كنت أشتري له ملابس جديدة ويلبسها يكون شكله مثل أولاد الملوك. . من يومه تليق عليه الملابس وأفرح به وإن كنت أخاف عليه. . خفت عليه من نزول الكفر. . عيونهم هناك لا ترحم. . قالها واحد: العين كسرت الحجر نصفين. . أخاف عليه أن تكسره العين. .

بت مقهورا لما جاءني الخبر. . إحساسي باليتم يكتمل. . لم أهدأ ليلتها في انتظار الصبح. . في الصبح لم أتمكن من الحركة المعتادة. قلت أرتاح ساعة أو ساعتين وأسافر وألحق الدفنة. . طالت راحتي كل اليوم. . كل ما أحاول المشي أتعب بعد خطوتين فأقعد. . ازداد الهم فوق صدري. . كلما أجدني عاجزا عن المشي والسفر لحضور الميتم يزداد الهم والأسى" هكذا تموتين بينما أنا عاجز حتى عن الحركة لحضور دفنتك. . وحتى المشي في جنازتك وأنت كل ما تبقى لي يا أمي"؟.

دخل المرض قاسيا ورهيبا. . أشد من كل المرات السابقة. . قلت أنه الروماتيزم يعود فيعض المفاصل ويدغدغها دغدغة. . وطال رقادي فقلت أنه شيء أخطر من الروماتيزم. . وصاحب الورشة زارني مرة وانقطع، بحث لنفسه عن عامل غيري فما تهمه غير مصلحته ولولا أنني كنت أفيده ما شغلني عنده، طالت الأيام فلن يكلف نفسه زيارة أخرى". انقطع الرزق وغاب الأمل زاد الضغط على القلب والخوف حاصرني. . سيد في التوجيهي. . والهم يتسرب إلى نفسه هو أيضا. . يبدو مهموما وإن كست ملامحه محاولات للظهور بمظهره المعتاد. . أعطيته كل ما كان معي. . راح يتصرف وحده في كل شيء. كنت أحس أن سيقاني أكياس رمل ثقيلة يصعب علي جرها على الأرض. . أتلوى من الألم وأكتم الآهات حتى لا أسبب لسيد مزيدا من الأسى والحسرة وأجعله يلتفت لي ولا يهتم بامتحانه. . كلما أراد أن يسهر معي أجعله يتركني لكنه يعود ليرى طلباتي ويجهد نفسه معي ويذهب إلى الامتحان كل صباح، ولما يأتي يفوتني أن أسأله عن الامتحان. . ولما انتهى أخذني وركبنا حنطور وذهبنا إلى دكتور قريب فكشف علي وأخذ سيد على جنب وقال له كلاما بصوت خافت فاحتقن وجه الولد واحتبس الدم فيه. . لما خرجنا سألته فلم يفصح أبدا. . قلت له: يظهر أنني أودع، فرت من عينيه دمعة وقال: اصبر واحتمل. . كان يلازمني ويداوم على تقديم العلاج الذي اشتراه. . لكن العلاج لم يثمر. . قلت له : ضاقت أحوالنا فابعث لصالح خبرا ربما يأتي وينفعنا. . قال أسافر إليه. . " صالح نسانا يا سيد ولو كان

يهتم بنا لجاء مرة بعد حكاية القضية " وسافر سيد. . ولما عاد عرفت من نظرتـــه أن أملـــه خاب في صالح فلم أشأ أن أسأله، قال سيد : قابلت عمك إبراهيم وطلب العنـــوان وقـــال إنـــه سوف يأتي.

في مساء اليوم التالي جاء عمي إبراهيم. . عجوزا يحمل في يمينـــه ســـبتا صـــغيرا وخلفه رجل يحمل قفة كبيرة. . حطها عنه وناوله الأجرة وأشرق وجهه بضحكة. . تاهــت التجاعيد وهو يقول لي:

ـــ فز قوم يا بن الكلب. . راقد كده ليه؟

قلت وأنا أتماسك أنني عجزت عن القيام والحركة. . ارتسم على وجهه غم كثيـــر. . جلس على طرف السرير وراح يربت على كتفي مهونا " شدة وتزول. . يومين وتقوم مثـــل الحصان. . " بان في كلامه إنه يداري أمرا. . قال: صالح غرقان في دودة القطن. . "دودة القطن. . وأنت جئت وفاتتك دودة القطن " قال : وحداني. . يكون فـــي عونـــه. . "وأنـــت تعرف أن المرض يبين العدو من الحبيب. . " تفكر عمي لحظة قبل أن يقول : صالح سوف يأتي. . يقول إنه ينتظر حتى يستعد، همهم يائسا ثم جرت على خده دمعة. . في حياتي لـــم أر غير ابتسامته، لم أر لون دموعه، كنت أحسبه لا يبكي طوال عمره. . يضحك، حتى لمـــا مات ابنه الكبير في عز صباه قال لامرأته أمام المشهد:

ـــ بطلي ندب يا وليه. . الله جاب. . الله خد. . الله عليه العوض.

قالوا يومها قلبه صخر لا يحس بالهم، وقالوا بحبوح لا يحمل للدنيا هما، ولمـــا بكـــى قبالتي رأيت في عينيه إنسانا يبكي دموعه المحبوسة. .. كأنه ركزها في دمعات تنسال خلسة بعد أن ظلت محبوسة عمرها الممدود بطول عمره. . دموع حزن قديم ينفجـــر فـــي لحظـــة كذب؛ لأنه كان يكذب في كل ما قاله عن صالح. . اضطر تحت وطأة اللحظة أن يكـــذب. . أحيانا تجرنا الكذبة المقصودة إلى الدمعة. . " ربما هي دمعة حزنه القديم تنفجر في لحظـــة ضعف لم يكن يعمل لها حسابا. . "ترى هزمك الزمن الـــدوار يـــا عمـــي مثلمـــا هزمنـــي المرض؟".

رفع رأسه وكأنه ينفضه. . نظر إلي سيد وأخرج حافظة نقوده ثم قال:

ـــ خذ يا وله. . اشتري لي ثلث دخان وتعالى. .

" ما كنت تدخن يا رجل " وعندما خرج سيد رفع الوسادة تحتي وحـــط شـــيئا ولمـــا نظرت إليه همهم يسكتني فلم أتكلم. . استعاد ملامحه القديمة وكأنه بعد ما حط ما حطه تحت الوسادة نفض أحزانه وهمه. . كأنه لم يعمل شيئا يستحق مجرد التعليق. . قال وكأنه يسخر من شيء فات لكنه بقى أثرا:

ـ تعرف يا حسن يا بني أبوك الله يرحمه بقى، كان غشيم زي الزمن، بيقولوا لقوا مطرح دماغه يوم الغسل قالب طوب أحمر.

كنت أعرف أنه راغب في إضحاكي لكنني لم أضحك. . كان قادرا على إضحاكي في الماضي. . قالوا إنه يقدر على إضحاك طوب الأرض. . لو أراد يضحك طوب الأرض وأنا عجزت عن الضحك. . حتى ولو على سبيل المجاملة. . كان الهم فوق صدري وربما صدره أثقل من أن تزحزحه نكتة قديمة عن دماغ أبي. . يقولها بينما قلبه يبكي في خفوت مع قلبي. . " وأنت السبب في كل هذا يا صالح. . ترى ماذا قلت لسيد. . وهل عرف عمي ما دار بينكما فجاء ليعوض ما حصل منك؟ ".

قام وبدأ يفك تحبيشة السبت ويخرج طعاما ساخنا. . يرصه بجانبي على السرير. . ولما دخل سيد راح يداعبه ليزيل عن وجهه الكدر والولد حزين. . حلف يمينا ما لم ننس الهم ونكون رجالا لا يبيت عندنا الليلة. . حاولت أن أبتسم وحاول سيد. كأنما المحاولة أثمرت. . اندمجنا في الضحك. . كأنما نسينا المرض والعوز وموقف صالح الذي هرب منا في الشدة. . قلت لعمي: نسينا الهم يا عجوز. . ضحك وقال بطلوا هبل وكلوا. . كان يطعمنا بيديه. . ولا يأكل ويكتفي بسرد الحكايات عن أبي وأعمامي وجدي. . يتخير ما يثير الضحك. . قلت له وأنا أضحك:

طول عمرك صاحب واجب. . قال : أنتم أولادي. . ليس لي غيركم اليوم فأسكت وبطل كلام فارغ.

قام في الفجر وصلى. . صحانا وعمل شايا بنفسه " شاي البندر خفيف مثل عقول أهله " قالها فضحكت. . قال : هناك مثل يقول عن الضيف : أول يوم بدر منور. . ثاني يوم رغيف مقور ثالث يوم عفريت مصور. . وأضاف: وأنا لا أريد لنفسي أن أكون عفريتا وكفاني أن أكون رغيفا. . عرفت أنه ينوي السفر. . قلت: لا.. قال: لا بد أسافر اليوم. . سلم علينا. . هم سيد أن يخرج معه فحلف عليه ألا يخرج ادعى أنه ينوي المشي وحده ليتفرج على حريم المدن دون رقابة من سيد أو غيره. . ومشى. . وساد صمت بيننا بعد أن خرج الرجل، أشرت إلى سيد فجاء. . أشرت إلى الوسادة فرفعها سيد من تحت دماغي وأخرج من تحتها حزمة جنيهات كان الواحد منها يساوي ألفا في تلك الأيام السود.

قال الدكتور : سافر مصر. . ادخل القصر العيني. . لن يفيدك علاجي.

سافرنا مصر. . أتعبونا كثيرا حتى سمحوا لي بالدخول. . بدأت أشم أنفاسي وأرتاح. . جاء سيد يزورني بعد أسبوع. . قال : قدمت أوراقي في كلية الحقوق. . فرحت "ستكون كما كنت أتمنى. . محاميا يختلف عن النصاب الذي أفسد القضية وبلع نصف الأتعاب وضيعنا يا سيد؟ ".

كان نجاح سيد هو الذي جعلني أمشي وأدب على أرضية المستشفى. . لم يكن العلاج وحده يكفي. . ولا العملية التي أجراها أستاذ كما يقولون. . كان علي أن أقوم ما دام سيد قد نجح. . ها هو يدخل الجامعة كما كنت أحلم ويحلم. . لا بد من الشغل لأوفر له المصاريف. . لا بد أخرج من هنا لأواجه الناس وأكلمهم عن سيد ونجاحه. . ها هو المشوار يبدأ من جديد. . لكنه يهون كل شيء ما دام سيد يتعلم ويتقدم. . سوف تفوت الأيام السود ويصبح الولد محاميا له اسم كبير. . يومها أنزل معه الكفر وأفخر به وأتباهى في خطواتي. . أجعلهم يقولونها : ابنه أفلح. . أنظر إلى وجه صالح وألومه. . أهز الدماغ له. . ولا أتكلم. . أجعله يفهم أنه لا يساوي شيئا. . والجرح يومها ما كان يؤلمني رغم عمقه وقسوته. . كان في سلسلة الظهر جرح طويل مفتوح. بمشرط أستاذ طبيب لكنه ملموم. . كل ساعة أرغب في هرشه وأمنع نفسي وأتماسك ليطيب. . لكن الجرح الذي في القلب كان يجعلني عاجزا عن التوقف عن الإحساس بالأسى رغم كل شيء. . حتى نجاح سيد ما كان قادرا على جعلي أنسى صالح. . "حتى وأنا مربوط في سرير مستشفى لا تأتي لتراني يا صالح. . كأنك ابن حرام. . كيف يطيب جرح القلب منك وأنت تعرف كل شيء ولا تهتم. . ؟ ما لم تكن أنت مع سيد معي وحولي وفي خيالي فمن غيركما يكون معي. .؟". . ولما جاء سيد يوم الخروج نسيت نوعا لكنني سألته : كيف يطيب جرح القلب يا سيد وصالح لم يكلف نفسه مشقة المجيء ليراني؟

ولما رجعت المحلة اشتغلت في ورشة أخرى. . لكن المكاسب كانت أقل. . قلت : مطالب الجامعة كثيرة ولا تكفي اليومية. . في البيت وضعت العدة وكنت أشتغل للناس أيضا. . وسيد عمل اشتراكا في القطار وكان يسافر كل يوم ويعود في المساء. . لكنه كلما أراه أفرح. . أقول يهون الشعل ما دام الولد في الجامعة. . أنتظر نجاحه بفروغ صبر. . أحس أنه لا بد أن ينجح. . لو تنقضي الأيام بسرعة. . لو تفوت الأيام وينجح. . ونخلص. . ولما نجح في المرة الأولى اطمأن قلبي. . كل ما كنت أخشاه أن أعجز عن الشغل قبل أن يكمل تعليمه ويصبح كما يرجو وأرجو. .

شمروخ أبي في يدي وأنا أستند إليه. .. مشواري على المدافن اليوم في طراوة الصبح. . مربعات الأرض المزروعة بالخضرة. . والنسيم يهف فيفيق الدماغ ويحس.. كلما يموت في الكفر نفر يأتون ويندبون "فيم الندب والبكاء ما دمتم تعرفون أنه لكل أجل كتاب".

صباح العيد. . والأحياء يأتون يطلبون الرحمة للأموات. . أشعر بالونس. . أجلس بعيدا وإن كنت أحس بالونس. . . يتسامرون أم يعزون ويطلبون الرحمة؟ في الصبح لطم الحريم وندبهن، وفي الليل الشماتة والسمر. . الأولاد يأتون وفي عيونهم أشياء: البنات. ..

"وكنا مثلكم نأتي إلى المدافن في صباح العيد ننظر إلى البنات ونتمنى أن نلعب.. أن نلعب مع البنات لعبة الكبار التي نسمعهم يتباهون بها. . ولما يحس الواحد منا بأنه أصبح قادرا وراغبا يأتي مع الأولاد الكبار. . تشغل البنات بنا. . نتصنع أننا حفظنا القرآن ونتلو ما يجيء على الخاطر. . على روح الأموات تقرأ الآيات التي نذكرها. . لما ننسى نكمل من أي جزء آخر. . كله قرآن. . تضحك البنات وكأنهن يعرفن أننا نتلاعب وندعي. . ومن طرف العين نرقب الوجوه المحجوبة. . نرفض أخذ الرحمة فنحن أولاد ناس جئنا نقرأ من أجل الرحمة للأموات وليس بثمن. . طلعة العيد أيامنا كانت تختلف. . البنات. . الوجوه النسائية التي حجبوها عنا. . نسأل من يعرفون عن الأسماء. . نعشق من بعيد. . لا نجسر على القول. . لا شيء غير القرآن لغة. . غاية ما كنا نقدر عليه النظر إلى وجوه وصدور البنات الفائرة. . تأتون أنتم وتتصنعون الحزن على أمواتكم.. أسأل إن كانوا يعرفون الحزن كما عرفته ؟. . يتسامرون أكثر الوقت. . الرجال والحريم في أحواش المدافن وعلى مداخل الترب. .. الأولاد والبنات يبدأون الرمح وأحيانا الضحك بصوت عال مكشوف. . في الأركان يكون النظر واللمس. .. أشياء كثيرة تتم خلف الحيطان بعيدا عن الأعين. . أعرف.. أعرف ولولا كبر السن لمارست لعبة المدافن الجديدة في فجر العيد. ..

كلما قابلت ولدا شقيا يبحلق في ولا يخاف. . صادفت بنتا شفتها وكانت تحسبني لم أرها تعبث مع الولد. . في المدفن كان العبث وتابعت هي المسير قائلة في غير اهتمام:

ــ ما تروح داركم يا با حسن. .

تنثني في مشيتها. . الولد في أثرها. . " الحريم. . بدع الحريم، والولد لما كان يتسلل خلفك ويلبد معك خلف تربة علي شلبي. . ولا أراه حقا ــ وإنما أسمع صوته مخلوطا في همسات رفضك الأولى قبل أن تكون الاستجابة. وبعدها تعودين ولما تسألك أمك تقولين بصوت مطمئن واثق :

ــ كنت باعمل زي الناس.

أي ناس يا فاجرة؟. .. أنت حرة. .. والولد يلف مثل النحلة. . يحوم حول الكل ولا يسأله أحد. . ومن يسأل الولد. .؟ ".

يقولون إنني بكثرة زيارتي للمدافن أدفن نفسي حيا. . أنتم الموتى. هنا الدنيا كلها.. الرجال الكبار الراقدون في سكون. . يرقبون كل شيء ولا يتكلمون. . لو كانوا بينكم ما رضي نفر منهم بما يراه ويسكت اليوم. . فيم الغضب والخجل ؟. . كانوا يفعلونها ولو بشكل آخر. . والحريم كن يعملنها علنا أو في الخفاء. . حلالا أو حراما. . ليكون أولاد وبنات. . لتكون الدنيا. . رجال وحريم. . ليظل الكفر يعطي نسله المبروك. . ها هو أراه قبالتي من جديد. . بوجهه الأسمر وعوده الممدود.. " طالت غيبتك هذه المرة يا سيد. . عطلك أبي أم

برهومة؟ " أستعيد نبرات صوته. . في الجنة أنت يا ولدي. . حولك حور الجنة. . أسمعهن يغنين لك، يتزاحمن حولك الآن، أبي. . برهومة. . أعمامي. . جدي. . أمي، يتوه صوتك يا سيد. .. تتوه ملامحك أراهم يزحفون حولـــك. . الأولاد والبنـــات والأطفـــال والرجـــال يتحركون. . يفسدون علي رؤية الموكب الحقيقي. . موكب الرجال الذي أهواه. . لا يتكرر كثيرا يا أهل الكفر فانزاحوا لأراهم. . يدبون الأرض فيضـــيع هســـيس المـــوتى وصـــوت الأغنيات المألوف. . تتوه الرؤيا. ..

وانا أسعى هذه اللحظة بشمروخ أبي أتوكأ عليه. . أدب الأرض مثله. . مـــن أيـــن تأتيني كل هذه القوة على كبر. . ؟ كأنني أبي. . أناديهم بالاسم ولا أسمع غيـــر صـــوتي. . يكتفون بالالتفات ناحيتي. . أصابهم صمم. . ربما صوتي محبـــوس... لكننـــي أســـمعه. . أصرخ. . سيد. . برهومة. . أبي. لا رد. .

يأتي الأولاد. . أولادنا الصغار. . يرشون ماء القلة الباردة.. أفتح العينين وأكتشف الخدعة. . كأنهم تخفوا في وجوه القدامى ولما رشوا الماء بانت الحقيقة. . امشوا يـــا أولاد الأبالسة. . الأسماء نفس الأسماء. . برهومة. . سيد. . عبـــد الحميـــد.. ســـيد آخـــر. . سلومة. . شعبان. . عبد الغفار. . عبد القادر. . إبراهيم. . الأسماء القديمة محطوطة في أبدان صغيرة. . أسماء الموتى على الأحياء. . دوري يا ساقية الأيام ولا تكفي أبـــدا عـــن إعطاء النسل الجديد.. اجعليه يأتي.. اجعلي الكل يأتي من جديد.. يذوب في الفـــراغ لكـــن الاسم حي في آخرين.. التراب الناعم تسفحه الريح وأنا أتكئ على أكتاف الأولاد الصـــغار.. أسألهم إن كنت قد نمت؟ يقول البعض أنني كنت نائما والبعض يقول أنني غبت عـــن نفســـي مدة.. التراب الناعم من أثر خطوات من سبقونا تسفحه الريح.. يـــدخل المنخـــار .. أشـــمه أولا .. أجده يتسلل إلى البلعوم.. أبتلعه.. أذوقه.. تراب مدافن الرجال الناعم فـــي الحلـــق.. نبتلع التراب قبل أن يبتلعنا.. غدا يبتلعنا التراب يا أولاد الأبالسة.. تحيطونني كأنني عريس ليلة الزفة.. أضربكم بالشمروخ لو كنتم تعبثون.. يقول الرجال لما يلمحون خطـــوي: كأنـــه عبد القادر يعود من المدافن بعد طول غياب.. عبد القـــادر يعـــود يـــدب بالقـــدمين ويلـــوح بشمروخه في وجه الريح....

" لما أموت يأخذ صالح الشمروخ.. يمشي في دروب الكفر يخوف الأولاد.. لكنـــه جيل لا يخاف.. يتجاسر علينا ويطل ويتكلم... زمان جديد.. أنت يا ولد.. أنت يا ولد يـــا ابن الكلب خذ يدي فالظلام حل وما عدت أميز الطريق إلى الدار".

ادخل الدار.. الليلة أجلس فوق دكة النورج.. اليوم عيد عند الأموات كما هو عيـــد عند الأحياء.. تأتي البنت بالأكل.. هذا طبيخ ولحم.. " لحمكم وقيع يا بنت الكلب.. كأنـــه لحم جمل عجوز.. أنتم مساكين..على أيامنا كنا نشرب الســـمن شـــربا ولا نشـــبع.. أولادك

مساكين يا صالح. البصل ومش الجبن هرى جوفهم.. اللحم في المواسم والأعياد.. البيض للبندر.. السمن للبندر.. الطيور للبندر.. ويتبقى الجبن إن تبقى.. أيامكم فقر في فقر.. يا فرحتي بزيادة العدد.. تأكلون لحم الوقيعة.. تفرحون.. وأنت يا صالح أراك ساكتا.. كأنك انحنيت أنت أيضا.. مصاريف الأولاد في المدارس.. الجمعية والكسب.. والكيماوي ودودة القطن والرش.. أيامنا لم يكن هناك رش.. نقلة السباخ كانت تكفي.. عبد الوارث أفندي صاحب الجمعية حرامي قارح.. وجماعة شلبي ركبت أنفاسنا بعد أن علمت أولادها في المدارس والجامعة.. لو ظل سيد.. استمر يا ولد في تعليم الولدين والبنت.. محمد حكيم.. أحمد محامي، علمهم يا ولد ولا تتراجع مهما كان الأمر.. لو بعت ما تبقى من الأرض علمهم..

البنت تأتي بخنصر الشاي وتمد إلي الجوزة.. تحط النار جنبي وتغطس في المندرة.. صالح يأتي ويجلس بجانبي.. أناوله الجوزة.. دخن يا صالح لتنسى المشاكل.. تأتي البنت بخنصر شاي لصالح وخنصر آخر لي.. شاي مر وأسود.. " منذ أيام اختفى الشاي.. داخ صالح.. التموين لا يكفي.. من غير الشاي ترجع اللقمة.. " صالح يناولني ورقة المعسل ويقول إنه ذاهب لصلاة العشاء.. تعلمت الصلاة يا صالح؟ يأتي الولد الصغير ويحوم حولي.. آخذه وأقعده على حجري.. أخرج من جيبي كوز الذرة المشوي.. أناوله للولد.. يفرح به.. يغرس أسنانه في حبات الذرة.. كأنه لم يشبع.. ومن يشبع هذه الأيام؟ الجوع في أسنان الولد الصغير.. لسانك أخرس فلا تطلب مزيدا من الأكل أم أنك تفهم الحكاية من أولها لآخرها رغم صغرك؟ كل يا شاطر كل..

قابلت سعاد في سكة البندر.. جاءت ناحيتي وسلمت.. مشت تحكي عن الجامعة "كان سيد مثلك في الجامعة" دعوت لها بالنجاح.. "ها أنت يا شوق تجدين عوضا عن سيد.. وأنا أيضا.." في عينيها حب وصدق.. كأنني خلفتها.. لماذا لا تكون هذه البنت بنتي أيضا، أحس بالحب لها.. افتح لها قلبي.. أقول لها إنني أذهب إليه كلما ساعد الجهد.. تقول إنها تعرف.. تحبني.. أحبها.. بنت طيبة.. كأنها شوق أيام أخذتها معي.. يرتاح الواحد لها.. تحكي ــ المواصلات صعبة قوي هنا.. الواحد يمشي ولا يفضلش ملطوع يستنى.

قالتها لتفتح موضوعا جديدا، قلت لها إننا كنا نمشي هذه المسافة دون أن نحس أننا مشينا.. من أيام الكيماوي ما دخل الزراعة قل الخير.. الناس أصبحت أضعف.. تضحك تظهر بنايات كفر عسكر الطينية.. نصل إلى الكوبري.. تقول لي.. تفضل عندنا.. أود لو.. أقولها دون وعي .. ليته من الممكن أن أحضر معك.. لكن مستحيل. من جعل المستحيل مستحيلا يا سعاد؟ الناس.. الناس جعلوا المستحيل مستحيلا.. أشوف شاكر.. لا أرتاح له أبدا.. أرتاح لك.. سيد كان يرتاح لك أكثر.

ـــ شاكر طينة لوحده.

أعرف أنه دائم المشاكسة.. ليس مثلك يا سعاد.. تطول الوقفـــة أود لـــو أقولهـــا.. سأقولها..

ـــ اسمعي يا سعاد.. سلمي لي على شوق.

أسير وحدي.. لم يعد هناك خصوم لي.. صالحت الكل.. بعدك يا ســيد مـــا عـــاد عندي من أخاصمه.. قلتها مرة أخرى:

ـــ صحيح يا سعاد.. سلمي على شوق.

صالح عوف

*

1925 – 1971

" في كفر عسكر لا يكون الحلم سيد الأخلاق،
تنقلب الآية ليصبح العنــف ســيد الأخــلاق، هكــذا
عرفتهم، ربما لأنني كنت بينهم مثل عيسى ابن مريم
بلا أب يمنحني الحماية "

وجاء الزمن العويل بأيامه الخسيسة، فانزاحت الأصول القديمة تداوي جراحها التي أسفرت عنها المعارك، تلعن الزمان الغادر وتلعق الجراح، وما تبقى لأولاد الأصول إلا الفرار إلى حضن الأيام الخوالي بنصف الوعي الباقي أثر الامتصاص الدعوب لدخان الحشيش، حتى الصنف غشوه وأصبحت الغيبوبة في أغلب الأحيان زائفة، يتطوح الدماغ بفعل الهم الراسخ على الصدور المنهوكة من كثرة الشد المسعور لسحابات الدخان، تعز لحظة التجلي المأمولة فنرتضى بالتوهان، نجاهد في عسر أن نستعيد ما كان، هروبا من خسة الأيام، نحكي عن العز القديم ونرتعب من لحظة الإفاقة التي تحطنا وجها لوجه مع ما صرنا إليه، عمدة بلدنا من جماعة شلبي. وكان الله بالسر عليما..

شيخ غفر بلدنا من جماعة شلبي.. والله على كل شيء قدير.. صراف بلدنا من جماعة شلبي.. وهو الغفور الرحيم.. لنا مشيخة البلد ولهم دوار، والجدار الواطي تخطيه الكلاب. كنا في نومة فعبروا فوق أبداننا وداسوا اسمنا لما حطوا النعال على أرضنا المسلوبة.. الرجال السمر القدامى راحت أيامهم وما عاد لأي اسم منهم نفس الرنين، عبد القادر عوف، الحاج مصطفى عوف، سعد عوف، عبد الحميد عوف وأخيرا وهو الأدهى سيد عوف.. كلهم راحوا وخلفوا مساخيط تجعجع من باب التباهي بما تبقى.. يتحايلون على الحياة بما تحت أيديهم من قراريط لا تجود بالخبز إلا بعد الضني وهد الحيل.. أصوات تتقاطع وتتزاحم في محاولات صبيانية لتأكيد وجودها شبه المعدوم.. يحكي مهرجنا العجوز الذي تبقى من جيل الرجال عما كان فنسكر بالحديث يسخر مما فعلوه وما قالوه فيضحكون، أتمثل وجه جدي عبد القادر فيستعصي على الدماغ نصف المدرك، أتذكر زنده الملفوف القابض على الشمروخ فأستعيد الملامح، وجهه الصارم الذكر وعوده الممدود وكأنه مارد من عالم بعيد أحس الحسرة، وأقول لنفسي بينما أطالع الوجوه أمامي إنه سيكون عسيرا بحق أن تأتي من ظهور جماعة عوف خلفة قادرة على إعادة الزمن الأصيل، أقول أن حقل الرجال الشداد أجدب، أن بذورنا خابت لأن من غرسوها ــ مطمئنين إلى قدرتها على الإثمار ــ نسوا أن يحسنوا رعايتها، ها هم أولاد جماعة شلبي بوجوههم المخطوفة يسودون ونكتفي بالثرثرة، وها هم أولادنا ساكنون على كل المهانات، راضون بكل ما يجري.. يتصارعون فيما بينهم حول القراريط، بارعون في الوشاية.. أولادهم حفاة، لا يخجلون من تأجيرهم للفرقة لقاء نصف الريال اليومي، يرددون فيما بينهم ما سبق أن سمعوه.. جماعة عوف أصل البلد، تشرفنا، جماعة عوف نطفة طاهرة، أهلا وسهلا بنسل الحسين.. جماعة عوف كانوا وكانوا، يا هنانا ويا سعدنا.. يخطفني

اسم جدي عبد القادر على لسان الجد إبراهيم: كان سيد الرجال.. " ينسى أن نعل مداسه كان يساوي عشرات من أعناق الرجال الهياكل في كفر عسكر ".. ألف رحمة تنور قبرك يا زين الرجال، يا آخر طرح مبروك في شجرة أولاد عوف الكبار، بعد أن رحلت يا رجل عجزنا عن لم الشمل، واجهنا ليل الزمان العويل غير الراغب في الانتهاء، وحتى ما تبقى لم نحسن حراسته، الأغراب يتسللون إلى دربنا ويسرقون، ونجتمع لنعرف من أخذ مواشي العم مصطفى فيتحول المجلس إلى سهراية لا نفع منها ولا جدوى.

وسيد عوف قتلوه في مدخل الكفر وكأنه غريب، والفاعل مجهول.. هكذا بعد الأربعين لا يستحق النفر منكم إلا مصمصة الشفاه وإلقاء العظات: الأعمار بيد الله، كلنا أموات، اعطني عمرا وارميني البحر.. والرجل هناك في الدار فاقد لنصف عقله بعد ما مات سيد، في الدار وليس فيها، يراني ولا يفهمني " جئت تنعي ابنك الآخر وترمي علي هموما لا تطاق، جئت عاجزا وهزيلا لتؤكد لأولاد الكفر أنك أبي الضائع على مدى السنوات ورفضت أن تبقى لما كان العزم والعقل عندك؟ ولا حيلة لي في إعادتك واعيا بما يدور حولك، قمت من مجلسهم رافضا عروض البقاء.. وحدي أقطع الدروب إلى الدار وتنبح الكلاب.. وحدي أنعي كفرنا الخسران وتنبح الكلاب. وحدي كما عشت عمري ونباح الكلاب المسعورة لا يكف.. وعتمة الكفر لا تبعث إلا على الخوف مما تأتي به الأيام.. الكلاب الغريبة دائبة على النباح كأنها تغيظني بنباحها المتواصل وتقول إنها جاءت لتحرس من أصبح الكفر كفرهم ونحن لهم تابعون، تحرسهم كلاب وتتكل على من لا يغفل ولا ينام، ولكن كيف سرقوا مواشينا ومن سرقها؟ " الفاعل مجهول " جواب مريح على كل الأسئلة حتى ولو كانت تخص من قتلوه عند مدخل الكفر وكأنه غريب " لماذا جئت يا سيد في زمن أصبحنا فيه غرباء في كفرنا الملعون؟ لماذا لم تأت في زمن القدرة؟ ولماذا كان علي أن أعيش لأرى انطفاء شعاعنا القديم، محبوسا في خدعة اسمها الدار والأولاد؟ " في السوق يسألونني لما أقول لهم أنني من كفر عسكر. تعرف الحاج مصطفى شلبي؟ تعرف الدكتور صلاح شلبي؟ ولا المهندس ممدوح شلبي؟ ولما ادعى عدم المعرفة يقولون: أنت تخدعنا.. من في كفر عسكر لا يعرف جماعة شلبي؟ الناس تنسى، نسوا جماعة عوف، نسوا الحاج بدر عوف والحاج مصطفى عوف والشيخ سليمان عوف وصالح عوف الكبير وعبد القادر عوف، كأنما ورثتنا جماعة شلبي على الحياة، ربما لأنهم يلعبون بالجنيهات ببجاحة، عيونهم مفتوحة وتجارتهم رابحة، يزودون في ثمن البهيمة بالخمس جنيهات ويضحكون، والأرض التي أخذوها من نسلنا الطاهر وزرعوها فواكه وحوطوها بالأسوار تئن طلبا لمن يرفع عنها الأقدام ولا من يسمع.. جماعتنا في توهة، يتكاثرون إنما بلا قيمة ، فالقراريط هي القراريط لكن في وضع الاستعداد لمعاودة التقسيم

ووضع الحدود، قال جدي عبد القادر: علموا الأولاد في المدارس، قال سيد عوف: عيبكم أنكم تجاهلتم وجود المدارس والجامعة ومراكز التدريب.

ــ مين هناك؟

وسكت الصوت، ابن بهية يقولها وينام أو يتحسس بالكشاف طريقه ويبربش بعينيه ليعرف بعسر على العابرين قلت:

ــ أنا صالح عوف، وأنت مين؟

لم يرد، كان الكشاف عند آخر الشارع يتعثر ويحاول أن يجد لنفسه طريقا مستقيما، قلت لأعرفه مكاني فربما لم يسمع، ربما فقد أذنيه أيضا:

ــ انطق يا لطخ.

كان الكشاف يقترب.. ينير الشارع وتتبعه الخطوات.. أصبح الكشاف موجها إلى وجهي.

قلت بضيق:

ــ ما ترقد يا بن بهية وبلا زغللة ف وش الرايح والجاي.

ــ والدرك؟

ــ لأ فالح يا وله، وبهايم أبوك مصطفى لما راحت م الدار كنت فين؟

ــ ف الدرك.

ــ الله يرحم خالك، ما تقوللي يا وله، ابن مين اللي سحب جوز البهايم؟. حديك خمسين قرش.

ــ وأنا أش عرفني بقى.

ــ طب روح لأمك تعشيك.

لطشته على كتفه حامل البندقية وأزحته عن طريقي.. زمن أعوج، ابن بهية يحرس الكفر، أعمش ومسلول ويحرس الكفر من لصوص الليل؟ ألم أقل أنه زمن عويل؟. الناس في توهة والكفر في نومة.. ما عاد الحلم سيد الأخلاق.. العنف سيد الأخلاق يا كفر عسكر، من سماها كفر عسكر؟ من عين ابن بهية لحراسة الكفر؟ من سحب المواشي من دار مصطفى عوف؟ دارك واطية يا عم مصطفى.. قلنا أن الجدار الواطي تخطيه الكلاب، ليل شتاء الكفر طويل والرطوبة تنفذ في العظم، والسهرة كانت كعدمها.. حتى الصنف غشوه، حتى الصنف غشوه؟

قال سيد عوف قبل مقتله بشهر: بالعقل تنحل المشاكل وليس بالعنف وحده يا صالح.. قلت لنفسي يومها: هو أفندي ناعم تربى مع تلاميذ المدارس وتوظف مع أفندية يخاف الواحد منهم أن يتعفر كم قميصه، هنا دنيا أخرى.. بالعقل لا تنحل مشكلة، لو كنا كما كنا هل كان

سيد عوف يرتمي رمية الكلاب عند مدخل كفر عسكر، وكنا نعجز عن معرفة الفاعـل كمـا حدث، لو كنا أقوياء هل كانوا يسحبون مواشينا من دورنا؟ العمدة قال إنه لا يعرف وأضـاف أنه غير مكلف بحراسة مواشينا، دلدول وناصح مثل بقيـة أولاد شـلبي.. شـبعت بطـونهم فتحركت ألسنتهم إنما لا يفكرون في أخذ المواشي، فلصوص العالم درجات كما قال سيد، ربما أولاد الزفتاوي، لكنهم تابوا بعدما مات أحسنهم في المعتقل، العمارية، السلامية، تيوس جماعة سعد الله، ربما مرزوق بن سليمان، لا أعرف لماذا يلح على دماغي طوال هذا اليـوم، كلمـا أبعدته يعود " بالعقل تتحل المشاكل " دارهم قريبة من دار العم مصطفى، لهم باب على السكة الزراعية، الولد كان محبوسا وله في الكفر سوابق، مرزوق ابن سليمان يعملها، ربما غمز ابن بهية بجنيه أو جنيهين، ابن بهية دلدول، يفرط في شرف أمه لو شم رائحة الفلوس، يبيع الكفر كله بأنبوبة مرهم بنسلين تبرد التهاب جفونه الدائم، ملعون سنسفيل جدود من كان سـببا فـي تعيينه. مرزوق يعملها، كان يحوم في طرقات الكفر ويتبصص على شيء يلهفه، رمى بـلاه على شاكر وأخذ علبة السجائر وطالبه ببقية الجنيه، شاكر حلف بشرف أمه أنه لم يأخـذ مـن مرزوق مليما، أبعدته عن البوابة وقلت له كلمتين وزغدته مرتين.. لما قرأت في عيون ابـن بهية اسم الولد مرزوق لما سألته عمن سحب البهائم، لكن كيـف تعكـس عينـان دامعتـان موجوعتان اسما لشخص غائب؟ عينا الولد ابن بهية كانتا تزوغان مني، لـو كنـت عـاودت السؤال ربما كان قالها: مرزوق، زمن أغبر، القوالب نامت وقامت الأنصاف، أنصاف الرجال قاموا يعبثون، رقد الرجال فاستباح العيال مالهم، استغلبونا على آخر الزمان، استغلبوا جماعة عوف.. كأنهم سرقوني أنا، من يكون مرزوق وسط أولاد الليل الذين قطعنا دابرهم من الكفر؟ ابن ليل جديد يطل علينا ويرعبنا في الزمن الخسيس؟ ترى هل باعهم في سوق البندر أم أنـه خاف، ربما سار بهم في الليل بمعرفة ابن بهية، ربما يبيعهم غدا في سوق الخميس، يسـحبهم ويرميهم لأي جزار ويأخذ أي ثمن.

دخلت باب الدار المفتوح.. كان الرجل قد نام والأولاد ناموا.. باب الدار مفتـوح لـو دخل أي نفر وسحب مواشينا ما أحس به أحد، المال السائب يعلم السرقة المال السائب يعلـم السرقة.. دورنا مفتوحة في زمن غير الزمن الأول. الباب المسكوك يمنع القضاء المسـتعجل، لكن من يعودنا قفل الأبواب وقد عودونا أن الدار أمان والدنيا بخير، دعبست حتـى وجـدت الحرام، تلفعت به وخرجت ولم يشعر بدخولي أو خروجي أحد، ربما انتصف الليـل.. عـدت متجها إلى دار سليمان، قلت لنفسي أجرب ما دام النوم طار من العينين، كان الـدرك الـذي يحرسه ابن بهية يغط في نومه بعدما نام حارسه، حومت حول الدار وتسمعت الأصوات فكان السكوت جوابها، لو كان عملها لكان هناك على الأقل صوت أو حركة، قلت هي ليلة يعلم بها

ربنا، وخبطت على الشباك، لم يرد أحد، بعد معاودة الخبط فتحت أمه الشباك.. سألت بفزع وهي تتبصص على من خبط:

ــ مين؟ من اللي بيخبط؟

قلت وأنا أغير صوتي وأتخفى بالحرام:

ــ واحد زميله.

ــ زميل مين يا خويا؟

ــ زميل مرزوق.. مش ده برضه دار مرزوق.؟

ــ أيوه.. بس هو نايم.. عاوزه ضروري..؟

ــ لا.. أبدا.. أبقى أفوت عليه الليلة الجاية.

ــ طب أنت مين اسم النبي حارسك أقوله.

وتركتها دون أن أرد.. لا بد أنني جننت.. ترى أليس في هذا الكفر لص إلا مرزوق، لو كان سرق المواشي لباعهم ساعتها، ولو كانوا في داره لخاف.. ولو تجاسر وأبقاهم لطلع بهم الليلة إلى سوق الخميس.. لا بد أنني مسطول " ليلة كحل وقطران " مالي حتى بمواشي العم مصطفى " المال السائب يعلم السرقة " هو حر في ماله.. أكون في حالي.. لما تعاركت مع أنفار الوسية كان يراني ولا يفكر حتى في المجيء ليرى ما يجري في المعركة.. كل واحد غرقان في أحواله، من منهم تحمس من أجلي في شيء؟

ودخلت الدار.. كان الباب الموارب يسمح بخروج خط الضوء الرفيع علامة تميزه عن كل الدور المغلقة، سمعت الرجل يكلم نفسه فلم أشغل نفسي بالرد عليه.. التففت في اللحاف ورقدت.. سمعت صوت الشيخ سليم عوف يجلجل في وسط السكون بآذان الفجر.. وبدأت في أعقاب كل تكبيرة أصوات الديكة تؤذن والكلاب تنبح.. بعدها تداخلت الأصوات ولم أعد بقادر على تمييزها وسط النحنحات المتحركة في اتجاه الزاوية في مشوارها المتكرر لأداء الصلاة.

لما كان الأولاد يسألوني عن أبي أقول كما سمعت: مسافر مصر، وأضيف من عندي: وراجع، في أول الأمر كنت أحس نوعا من التفوق لكون أبي في مصر، إنما بعدها بدأت ولا أدري متى أحس بالخيبة كلما سألوني عنه، ربما بسبب الولد محمد ابن شلبي الذي قال للأولاد مرة أن أبي " طفشان " من الكفر، وكلما كنت أواجه عيون هذا الولد في " الكتاب " أجد السؤال المطروح وأقرأ الجواب أيضا، كنت أنسى ما كنت قد حفظته من آيات، أتلعثم عندما يحل علي الدور " لأسمع "، وكان الشيخ مرعي يربطني في الفلقة ويرفعها ولدان إلى أعلى بالقدمين ويظل هو يضرب بالعصا حتى أحس الوجع يسري من بطن القدمين ليصل إلى وجهي ورأسي، بعدها يأمرني بالرمح في شارع " الكتاب " ويطاردني بعصاه وسط شماتة

الأولاد، مرة سألت أمي عن أبي فقالت والغيظ باد على وجهها: مات، راح في نصـــيبه.. لـــم أفهم فعاودت السؤال ربما لأنني أنكرت أنه مات فقالت بغل أكثر:

ـــ ما تجبش سيرته.. فاهم، ربنا لا يرجعه.

ساعة العصر كنت أسحب لجدي الركوبة.. " ويشق " هو على الأرض، لما ينزل من فوق الركوبة آخذها وأربطها في " الخارجة " ويظل يدب بقدميه فوق الأرض فتهتــز تحتــي وأوشك أن أسر له بمخاوفي من أن يخرقها وأسقط في داخلها، يده الضخمة تهتز عند مستوى رأسي وبريق فص خاتمه الكبير يشد بصري إليه، كان يشير إلى حدود أرض جماعة عوف:

ـــ ومن أول الحديدة دي لغاية الزراعية الكبيرة طوالي كان أرض سيدك مصطفى - الله يرحمه، ومن الزراعية لغاية عزبة الكوم كان كله بتاعنا، ولحد النهـــاردة وبكـــره اســـمه حوض جماعة عوف، حاكم أسيادك كانوا رجالة الناحية كلها، وأرض جناين ولاد شـــلبي دي كلها في الأصل بتاعتنا، الله يرحمه سيدك مصطفى وسيدك علي، رموهـــا بتـــراب الفلـــوس، حاكم الأرض تكره اللي يفرط فيها، تكرهه موت، تفضل تلعنه لحد يوم القيامة، الأرض تحب اللي يصونها، إنما جماعتنا كانوا طيبين وفاتوها زي ما تقول زكا عن عيالهم، الغرض.. أهي الأرض دي أرضنا إحنا في الأصل.. حاكم زمام البلدين كان بتاعنا ".

وكنت أقول لنفسي أنني سوف أكبر وآخذ أرضنا من جماعة شلبي وأجعلها كما كانت ملكا لنا، يقول جدي:

ـــ ولولا أبوك وعمك فاتوا البلد كنا بقينا عيلة، ما كناش فتنا الخمس فدادين اللي عنـــد الجميزة ولا كنا فتنا الفدانين اللي جار أبوك عبد الغفار.. حاكم الأرض تحب الرجالة، تحـــب اللي إيده فيها، سيبك م الأنفار، عمر النفر منهم ما يراعيها زي صاحبها، ما هي الأرض زي العيل الصغير، من غير أمه وأبوه يغلب في الدنيا، أهي الأرض تبور لو ما تلاقـــيش رجالـــة قلبهم عليها كدة.

وأوشك أن أسأل الرجل عن أبي، عن سر غيابه لكنني أتخوف من نظراتـــه الحـــادة ساعة أن يذكره، أبتلع السؤال وأمضي جواره، ولما أركب فوق حمل البرســـيم فـــي طريـــق العودة وأراه ماشيا والأرض تحته تهتز وعيون الخلق ترقبه باحترام وخشية أحـــس بـــالزهو وأفرح بوجود الرجل المهاب ذو القدرة، أحس بالاطمئنان لأنه جدي، أتصور أبي فـــي مثـــل صورته، أتباهى بنفسي وأحلم بعودة أبي وأن نجتمع معا، جدي وأبي وخالي برهوم وأنـــا، أن أصبح رجلا مهابا مثل جدي، أن نسوق أولاد شلبي بطول الكفر وعرضه، أن نجلعهم يتركوا أرضنا لنعاود زرعها بأيدينا، لكنني أحس بالخزي كلما اكتشفت أن الأيام تمضي وأبي لا يعود أبدا، كان الرجل الذي لم أره أبدا هو عاري الدائم وحلم انتصاري أيضا، يطاردني ويطردني،

كلما حاولت أن أدفعه عني أو أن أجذبه نحوي لا يتزحزح وكأنه حجر الطاحونة الكبير المحطوط تحت سلم الدار.

في " الكتاب " سألني الولد محمد شلبي عن أبي، لطشته بكل عزم كفي فوق صرصور أذنه، صرخ الولد ثم سقط على الأرض، جاء " سيدنا " لما سمع الأولاد يقولون إنه مات، رش كوز ماء بارد فوق وجه الولد فأفاق إنما على صدغه علامة الكف ظاهرة، ولما سأل الأولاد أشاروا إلي، هز دماغه ومدني كعادته، إنما الولد محمد شلبي كف عن معاودة السؤال عن أبي خوفا على صرصور أذنه الأخرى.. قلت لنفسي وأنا أقرأ سورة مريم.. ربما ولدت بلا أب مثل عيسى ابن مريم، كدت أن أقولها للأولاد لكنهم لم يكونوا يسألون، ولما سمعت سورة مريم قبل كل الأولاد تعجب الشيخ مرعي للأمر وضرب كل الأولاد الكبار الذين لم يحفظوا وجعلت يومها أقرأ ولا أخطئ والشيخ مرعي مبسوط، وكنت أتمهل عند بعض الآيات ولا أدري لماذا ﴿ **قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا * قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا * قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا * قال كذلك قال ربك هو علي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا * فحملته فانتبذت به مكانا قصيا** ﴾ لم أكن فاهما لمعاني الكلمات، إنما كنت أقرأها بحماس لا أعرف مصدره، حماس كأنه يقين في حق يكتشفه الإنسان لنفسه وكان غائبا عن ذهنه..

وتعارك جدي مع منصور شلبي وأولاده.. كنت مع جدي وكان منصور يقف في عرض الطريق مع أولاده، تكلما معا بانفعال لم أعرف أسبابه ثم وجدت النبوت في يدي جدي يتحرك.. تفاداه منصور بالجري ثم عاد النبوت يطارده في سرعة غريبة كانت ضرباته وسط العصي الثلاث تفوز.. تخيب كل ضرباتهم وضرباته تصيب.. يده القابضة على النبوت كأنها يد جن مصور تعرف متى وأين تضرب.. بطح منصور وابنه الأكبر.. رمح منصور وترك أولاده.. تركهم جدي أو ربما تركوه، إنما طاله، لم يهدأ إلا عندما طاله عند التوتة، ناوله خبطة فوق وسطه، كنت قريبا منهما وسمعت منصور يعتل وكأنه تحت وطأة حمل ثقيل، كان سالم ابنه قد اقترب من جدي محاولا ضربه من غير أن يراه. صرخت محذرا فالتفت إليه وناوله واحدة جعلته يرتمي على الأرض قريبا من أبيه، ابن منصور الأكبر كان هناك حيث بدأت المشاجرة، جالسا على الأرض، كان منصور يتحدث إلى الناس الملمومين في عسر شديد من خلال فم يتدفق منه خيط الدم، لم ينطق ابنه سالم.. اكتفى بالنظر المفزوع إلى أبيه، كان الناس يتكاثرون وجدي واقف مكانه ينظر باستهانة إلى وجه منصور ولا يتكلم.. عندما ساعد الناس منصور على ركوب الحمار وسندوه قال جدي موجها حديثه إلى منصور:

ـــ النوبة الجاية بحش أجلك يا ابن المفضوحة.

وقال الرجال من جماعة عوف لجدي:

ـــ عفارم عليك سبع.

في الدار عرفت أنه تعارك بسبب أبي وعمي أو بسبب كلام قاله منصور عنهما، لـم أفهم إنما أحسست بنوع من الخوف.

في الكتاب عرفت من الأولاد أن جماعة شلبي خافت من جدي فلم يفكروا في معاودة العراك معه، وأن منصور شلبي راقد في داره، حتى لما مات اكتفوا بأخذ العزاء في المنـدرة وأشاعوا أنه كان مريضا بالقلب ونفوا ما كان يتردد من أن خبطة جدي عبد القـادر حشـت حزامه وعدمت صحته، وأنه عاش أسبوعا بعد المعركة عاجزا فيه عن الكلام أو الحركة، أما ابنه سالم فكان يمشي في دروب الكفر معصوب الدماغ أصفر الوجه فاقدا لجسارته القديمـة.. كأنه بنت فقدت شرفها كما كانوا يرددون، من يومها عرفت أن العصا هـي الشـيء الفعـال والحاسم في كفر عسكر، أن كل الأصوات تخفت عندما يلوح الإنسان بالعصا، كنت أتـدرب على حمل العصا في دروب الكفر، الصبية الصغار مـن أولاد العيلـة يطلعـون الأشـجار ويقطعون فروعها يهذبونها ويعملون منها عصى صغيرة، وكنا نعمل معارك وهميـة فأصـر على أن أقوم بدور جدي عبد القادر، ليس فقط لأنه جدي أنا، بل أيضا لأنني أعرف حركاتـه وأستطيع تقليد صوته ومشيته، عندما كنت أبدأ في تقليده يهلل الأولاد قائلين:

ـــ اهرب يا وله، أبوك عبد القادر أهه وفي إيده الشمروخ.

ويفرون، أحس وأنا أمسك فرع شجرة التوت أنني هو عبد القادر مصـطفى عـوف، كبير بحق وحقيق، قادر على إرعاب الكفر كله، لا يعترض طريقي رجل.. ألعب مـع الأولاد لعبة أبوهم عبد القادر مع أنفار السلطة كما سمعتها، ألعب لهم دوره فـي عركـة المصـرف الكبير، ومع منصور شلبي وأولاده، وعركته مع برابرة الهجانا كمـا سـمعتها.. أدب علـى الأرض كما يدب، يهللون لي فأحس بالنشوة وبالقدرة على الانتصار لكن يوما سلط الولد محمد شلبي ولدا من العمارية ليقول وسط تهليل الأولاد:

ـــ لو كنت شاطر بصحيح أعملنا أبويا عبد القادر مع ولاده حسن وعبد الحميد.

ساعتها أحسست بحرج شديد وعجزت عن الاستمرار في اللعب، قلت للولد وأنا أنظر إلى وجه محمد شلبي:

ـــ بكرة، أنا عارف اللي مسلطك.

ودخلت الدار، كان الأمر فوق قدرتي على السكوت، قلت لخالي برهوم أسأله:

ـــ هو سيدي عمل إيه مع ولاده يا خال؟

فنظر إليّ مدهوشا من السؤال ثم ضربني بقبضته فوق صدري وقال: غـور امشـي. ولما بكيت وسأله جدي عما جرى هز دماغه ونفى إن هناك شيئا يسـتحق القـول.. كانـت الحكاية في الدار سرا مفضوحا حتى بالكتمان، كنت أعرف أن هناك معركة خسـرها جـدي

طوال عمره وأن هذه المعركة كانت مع أبي الغائب وعمي الذي مات في مصر، أما التفاصيل فكانت صعبة المنال، وتصديق الأمر كان أصعب، وكنت أكتفي بالتخيل، ربما ضربوه وهو نائم أو وهو غافل، تخيلتهما مردة من الجن استطاعوا مرة أن يواجها الرجل المهاب فحلت عليهما اللعنة " وبالوالدين إحسانا " خرجوا عن طوع الأب فلعنهم وغضب عليهم قلبه، تقول جدي مبروكة إنهم "تاهوا في الغربة وتشتتوا في البلاد بسبب دعوات أبيهم عبد القادر، وأن عمي عبد الحميد مات بسبب هذه الدعوات وغضبه عليهما" كنت أقول لنفسي أحيانا أنه من الممكن أن يموت أبي أيضا قبل أن أراه.. ربما يقتله الإنجليز كما قتلوا عمي في الأزهر كما يقولون، أسألهم عن أبي فيسكتون، كأنهم أخرجوه من حسابهم تماما.. حتى خالي برهوم كان عندما أسأله لا يجيب وأمي لما أسألها عنه تطلب من الله ألا يرجعه إلينا أبدا، وكنت أعجب من شدة كراهيتها له وأقول لنفسي أنه من الممكن أن يجيء وأراه مرة قبل أن يموت، لكنه أبدا لا يجيء.. لا يفكر في أن يأتي ليكيد أمي ومبروكة ويصالح جدي عبد القادر ويساعد خالي برهوم وربما يحكي لي عما جرى بينه وبين جدي عبد القادر قبل موت عمي عبد الحميد.. ظلت الأيام تتوالى واشتياقي إليه يكثر، واللعبة التي كنت أجيدها ظلت ناقصة وظل وجه الولد محمد شلبي الشامت يسلط الأولاد وكأنه يعايرني بأبيه ويذكرني بفقدان أبي الغائب ويشوه سمعة جدي عبد القادر الذي أحبه لدرجة لا تسمح بأي شك في قدرته على كل الناس.. وكنت كلما ازداد شوقي لرؤية أبي أزداد كراهية له وحقدا عليه.

يوم الأربعين رحنا المدافن، صحانا الرجل قبل الأذان وظللنا نستف الرحمة في السبتين، شالت البنات رحمة " سيد " وذهب الرجل، قلت ربما يخف الحزن القديم لكنه زاد، قرأت الفاتحة على روحه لكن الرجل كان كالغائب عن الدنيا، يسألني ربما للمرة الألف من قتله يا صالح؟ والسؤال ينفذ من طبلتي الأذنين مسمارين محميين يعرفان الطريق إلى القلب، وعجزي عن الرد يجعلني أحس بالعار، كل العار، هانت جماعة عوف إلى حد أن قتلوا حفيد عبد القادر عند مدخل الكفر، هان صالح عوف إلى حد أن قتلوك يا سيد، كأنهم لما قتلوك قتلوا كل ما تبقى من كرامة لنا وقيمة، ذبحوا أصلنا القديم عند مدخل الكفر وسال الدم وغطوه ببعض الحشيش الجاف، والأيام التي فاتت منذ ذلك المساء اللعين لم تخفف حمية نارك يا سيد في الصدر، ومهما تحايلت لأظهر قويا أمام أبي فأنا مجروح بجرح لا تداويه كل الدموع، شيطان يترصد فرعنا وحده من جماعة عوف، أبي بوجهه الشاحب يعاود السؤال وكأنه خرج هو الآخر من أحد المدافن هاربا، الموت في العينين والشفتين وفي النبرات الغريبة على الأذنين:

ـــ بقى ما كانلوش ف الكفر عدوين يا صالح؟

الرجل انهدت قواه، مثلما انهدت قوى جدي عبد القادر منذ سنوات، ها هـو يرتمـي على الأرض في وضع متهالك منهار، يخرف يسأل الجدران الصماء ويتحسس فتحة المـدفن وكأنه يربت بكل حنان الأب على رأس طفله، حتى ولا أي أم شفتها طوال عمـري تتحسـس جسد طفل لها مهما كان عزيزا بمثل هذا الحنو، أوشك أن أكرهك يا سيد رغم موتك لكننـي أيضا أحبك، فقط لو كنت ترجع للحظة وتحكي عما جرى، تصف لي وجه من قتلك، ربمـا لا أكتفي بتقطيعه مهما كان وجعله عبرة وما يكون بعدها لا يهم، لأعود إلـى طرقـات الكفـر مرفوع الرأس، لكنك تعز علي حتى في الأحلام، لو تستجيب المقبرة لكف الرجل المعروقـة المستجدية والمستجيرة بكل ذرة فيها وترجع، تطل وتحكي، الرجل يهذي، فقد عقلـه، عـار آخر، في الماضي كان عاره أهون " طفشان " إنما اليوم وهو بيننا وعلى مرأى من كل نـاس الكفر مجنون أو حتى نصف مجنون يتحدث إلى أشباح خفية، معيرة كان أهون منهـا غيابـه الطويل، لو فتناه ينام في المدافن ويفضحنا، فضحنا فعلا، سيرتنا لبانة في كل الأفواه. فكـف يا رجل عن كل هذا التهالك الذي لا يليق، ها هم يتبصصون علنيا من بعيد، لا يودون حتى أن يقتربوا، كأنهم يعلنون أنهم يرون ويسمعون فقط من بعيد، تماسك يا رجل في هذه اللحظة حتى يفوت الناس، اصبر، لكن ما معنى الصبر في مواجهة الموت، القتل، الليلة نعاود دفن سـيد، الأربعين وليلة الأربعين، برهوم أيضا لما مات عملنا ليلة الأربعين وبدا لي ساعتها أن أحزان الرجل الكبير تضاعفت، سوف تتأجج النار أكثر في صدر الرجل، ربما يزداد جنونـا علـى جنونه، تزيد النار فيزيد العار، ها هو صالح عوف ينكسر عوده ويقف عاجزا بعد كل ما كانه حيال أب فاقد لوعيه وأخ قتيل يا كفر عسكر، إنما لكل عقدة حلال، مهما كانت الجراح غويطة فلا بد من دواء.. أولاد عوف عاشوا عمرهم قادرون على رد الصاع صاعين يا كفر عسكر..

البنات يوزعن الرحمة وكل مقرئ يأخذ نصيبه ويتلي ما تيسر، لصـوص الجبانـات يحوطوننا ويأخذون الرحمة ثمنا لكلام الله، يخطئون في الآيات ويلغوشون كـل مـنهم علـى الآخر.. في الضحى سندت الرجل فقام، لو تركته لظل جالسا دون أن نعرف إلـى منتصـف الليل، لولا الصدفة ما عرفنا طريقه بعد أن دخنا في كل الدور عليه وسألنا وكأننا نسأل علـى طفل تاه والخزي يشل اللسان عن تكرار السؤال.

دخلنا الدار، جلس هو على دكة النورج القديم، تماما مثلما كان جـدي عبـد القـادر يجلس، كأنه هو بعث من جديد إنما العود أكثر نحولا وأقل قدرة، أشرت لزكية أن تولـع لـه نارا لزوم الجوزة، أن تعمل له شايا، الشاي اللعين سحبوه من السوق أيضا، لا يوجد في الكفر شاي، أدوخ في المركز بحثا عن باكو الشاي فلا أجد، التموين لا يكفي، شاكر شلبي يغمزنـي كل مدة بباكو الشاي وكأنه يعطيني "قرش حشيش" أو حتى أفيون.. ترى هل يسـتمر الأمـر هكذا.. يا أولاد الكلاب، أخذتم مال البلد وستقتم دكاكينكم بكل الأصـناف، الممنوعـات لهـا

رفوف سحرية والأسعار كما تطلبون، إنما المهم أن يتواجد الصنف، غشوا الشاي مثلما غشوا في الزمن القديم كيماوي الأرض وخلطوه بالملح، يأخذ ثمن الشاي مضاعفا ولا يستحي وكما يقولون " اللي عاجبه الكحل يتكحل " لو درت في كل المركز ما وجدت غير شايك المخلوط يا شاكر، هذا الشاي يشربه الرجل مع الجوزة، هو زاده الوحيد، لولاه لخف البرج الباقي في عقله. سيد عوف يا شاكر أخوك من الأم فهل نسيت، هل أصدق أنك غيرت سلوكك معي بعد موت سيد بسبب حزنك عليه أم إنها مجرد مظاهر تحرص عليها أمام الناس، وأن كل ما تقوله مجرد غلاف تداري به فرحتك فيه أو فينا كلنا يا شاكر؟.

قال أبي وهو يوسع مكانا على دكة النورج ويربت عليه براحته المفرودة:

ــ ما تقعد يا صالح يا بني.

ــ أيوه يا با أشوف العيال عملوا إيه وأرجع.

دخلت اسأل عما جهزوه فلم أجد غير بقايا الرحمة وطلبت من الولد محمد أن يذهب إلى الشيخ راضي وينبه عليه هو والشيخ سليم بضرورة الحضور الليلة من أجل سهرة ليلة الأربعين في المندرة.. وكانوا في الصباح قد كنسوها ورشوها وفرشوا الحصر على الدكك والمصاطب كما أمرتهم.. عدت إلى مدخل الدار، قال أبي:

ــ هي الجميزة الكبيرة خابت ليه؟

ــ ما هي عتقت يا با، بأقول نقطعها ونستنفع بحق خشبها، بس بيقولوا حرام.

ــ أيوه.. أيوه.. كان على صحوي حدانا مطرح الطمبوشة كرم نخل، جه سيدي مصطفى قطعه، من يومها قل الخير وقلت البركة، حاكم نخل البلح مبروك، سنة والتانية وسيدي مصطفى مات.

ــ بيقولوا قطع البلح حرام، أصل البلح ملك، والنبي وصى على التمر.

ــ وعم برهوم سنة ما قطع العنبة اللي كانت في الجنينة ربنا اتولاه.

ــ ما هو العنب راخر نعمة من ربنا.

ــ الغرض يا صالح، قطع النخلة بقطع الأجل، هو الولد محروس راح فين؟

ــ تلاقيه بيلعب.

ــ يلعب دا إيه، قصر له شوية خليه يلتفت لدروسه، الله يرحمه سيد خد الابتدائية وهو زيه كدة.

ــ وسي عطية اللي كان حيلة أبوه فدان واحد أتربى وبقى عال العال.

ــ الله يرحمه سيد كان شاطر قوي، مرة وهو صغير بأبص في كراسة الحساب لقيته واخد ستة على عشرة، ضربته، قلت له لازم تأخذ عشرة على عشرة، وعنها، فضل شاطر طول عمره.

ها هو يعاود الحديث عن سيد، كلما حاولت أن أجره بعيدا عنه يرجع.. سيد يـا حلـم الرجل وأمله الضائع متى ينساك؟ سيد يا ماضيه وحاضره ومستقبله رغم موتك متى تتـزاح ليعيش ما تبقى له في سلام؟ ولماذا تلح لكل هذا الإصرار على عقله نصف الواعي رافضا أن تمنحه نعمة السكون في الأيام الأخيرة؟ ألا تخجل من روحك وأنت تحوم حوله كل ليلة تسلبه لذة الحياة وتحرمه المنام؟ ".

جاءت زكية بخنصري الشاي، أخذ خنصره بيد مرعوشة وبدأ يشـرب " يـا خيبـة وحطت علينا، خنصر شاي، أعرف أنك كييف والشاي ماسخ كما أرى، لو تطول اليـد، إنمـا الشاي ممنوع وأنت كييف، الشاي غشوه، والصنف غشوه، لعبوا في كل شيء ".

ـــ الشاي دا طعمه غلس يا وله.

أخذت منه خنصر الشاي، تذوقته، ماسخ وخفيف مالك أنت بكيفية الحصول على باكو شاي من شاكر شلبي، كفاك همك، ناديت زكية وناولتها خنصر الشاي، قلت لهـا: اضـبطيه، أخذته ودخلت أعرف أنها سوف تفرغه في البراد وتغليه ثم تعيد صبه، ربما تضع فيه ملعقـة سكر وتعيده، إنما ما حيلتي، أخذت الجوزة وجلست بجواره، ناولتها له وجعل يأخـذ أنفاسـا متلاحقة ويكح بين النفس والنفس.. دخنت أنا أيضا، لا أحب المعسل بلا حشيش، إنمـا لا بـد أرحم صدره المنهوك وأحتمل طعم المعسل لأحميه من الموت بفعل الـدخان، عـادت زكيـة بالشاي، أخذه منها:

ـــ الله يباركلك يا زكية يا بنتي، معلهش، بني آدم تقيل، استحملوني يومين لحد الأجل ما ينتهي، أرقد وأرتاح جنب الرجالة اللي راحوا، جنب سيد.

ـــ ربنا يديك طوله العمر يا سيدي.

قالتها زكية وهي تدخل. أعرف أنها تضيق بك يا رجل إنما لا تجرؤ علـى التلمـيح، قال:

ـــ ولما أموت يا صالح تحطني بإيدك جنب سيد، مش عايز حاجة تانية، تحطني جنبه وبس ويبقى كتر ألف خيرك يا صالح.

كدت أبكي، تماسكت، قمت من جلستي واتجهت إلى الباب " الوسـطاني ".. غلبتنـي الدموع عند باب " الزريبة " جعلت أنهنه مجاهدا ألا يحس بي أحد، أنهنه بحرقة، كان الـركن خاليا وكنت وحدي جالسا على طرف " الطوالة " أبكي.. سمعت صوته ينادي.

ـــ يا صالح.. يا صالح.. هو راح فين يا ولاد؟

قمت، مسحت عيني بكمي وأفرغت أنفي قبل أن أرد:

ـــ أيوه.. جاي أهه.. العجل كان حل وبربطه.

سمعته يقول محدثا نفسه:

ـــ ولا حل ولا حاجة.. يا صالح.

ذهبت إليه محاولا ألا يكون قد بدا علي أي تغير، سألني:

ـــ هو أبو الخير لف ع الكفر.

ـــ أيوه، من بدري.. لف نوبتين.

ـــ ما تبقاشي تخليه يلف لما أموت، سيد كان شباب ويستاهل إنما أنا عضمة كبيرة بقى ولا له لزوم العزا ولا الميتم حتى.

كنت أسمع صوت أبو الخير ينادي منبها الناس إلى ذكرى أربعين سيد، لا بد أنه سمعه، فاتت البنت زينب.. في عينيها حزن.. لولا ما حصل لدخلت في القطن، مهرها مدفوع وجهازها أوشك أن يتم، زواج البنات سترة.. ترى أي أجل سوف تتعطل دخلتها؟ حظها سيئ، قال أبي:

ـــ إلا القطن إزي حاله السنة دي؟

ـــ اللي ف الساقيات على ما هو إنما الشوية اللي تحت الجنينة حلوين شوية، الدودة خربت الدنيا والرش ولا هو نافع.

ـــ على أيامنا ما كانش رش، عمك عبد الحميد الله يرحمه بعد ما ختم القرآن كان واخذ باله م الأرض.

ـــ تعيش أنت، دا لولاش الواحد إيده في الزرعة كانت الأرض تعدم.

ـــ وفي شارع الأزهر، ما هو كان مجاور ف الأزهر، ضربوه بالعيار في رأسه طب ساكت زي سيد أخوك.

ـــ الله يرحمه.

ـــ أنا ما كانليش في الزراعة من يومي، دخت في الغربة.

ـــ ولولاه عليا كنت مت، حاكم كان شهم، كان شبه سيد الله يرحمه كدة. بس اندفن في مصر.. سيدك ما جاش إلا بعد الدفنة..

قلت لنفسي أن الاستمرار مع هذا الرجل سوف يودي بعقلي أنا الآخر.. ما عادت للحياة لذة، هذا الرجل قادر على نسج الأحزان في كل جنبات الدار، عند البوابة وجدت شاكر واقفا قال:

ـــ كنت ناوي أحصلك.. هو عم حسن لسه في الترب؟

ـــ لا.. رجع من بدري.

ـــ حاكم أمي عملت رحمة وناوية توصل لغاية الجبانة.

ـــ طيب، تعيش وترحم.

ـــ ما تأخذنيش يعني، ما أنت عارف.

تركته، قلت لنفسي أنه سخيف وفاجر، ماذا يريد، الرحمة، يا شوق ما زلت تتمحكين، "كانت خالتي وخالتك وتفرقت الخالات" لا نريده أن يوزع رحمة، يريد أن تنفرد أمه بالجبانة، تماحيك حريم، وماذا لو ذهبت وكان الرجل هناك؟ بعد كل هذه السنوات ماذا لو شافته أو شافها.. أمور غريبة، ما كان بينهم راح، ومن كان بينهم مات، حتى وأنت ميت يا سيد تطارد روحك المشاكل؟.. ميت وكل منهما يحاول أن يؤكد امتلاكه لك وحده دون الآخر، تستحق رحمة الطرفين إنما لا تحصل إلا على نصف الرحمة، ماذا أفعل مع الرجل يا شوق؟ أربطه؟ أمنعه لما تفكري في تشريف الجبانة؟ أقول له حضرتها ترغب في زيادة ابنك وحدها؟ جماعة شلبي توشك أن تحتكر حق زيارة الجبانة.. تكاد أن تطلب تحديد حركتنا في زيارة أمواتنا، في الخميس الكبير عملوها وبلعناها، أخرنا الرجل حتى بعثوا لنا مرسالا يعرفنا أنها زارته ورجعت، كأننا سوف نظل هكذا رهنا لإرادتهم، في العيد طلبوا منا أن نزوره قبلهم وأن ننهي الزيارة بسرعة، صحي الرجل قبل الفجر، زار ورجع قبل طلوع الشمس، أخذناه غصبا قبل أن ينهي الزيارة من أجل شوق.. ترى هل كان يعرف، هل طاوعنا لأنه أحس بما كان يدور دون علمه؟ كلاب أنجاس لا يحسون بما نحن فيه، أذهب يا شاكر واجعلها تذهب لتوزيع الرحمة على روح قتيلنا الذي توشك أن تأخذ منا ذكراه أيضا بعد ما أخذته منا في أحلى أيام شبابه.

عدت إلى الدار وأنا أغلي من الغيظ، جاهدت أن أبدو طبيعيا، كان الرجل قد دخل المندرة مع محروس وكان صوته يبدو طبيعيا وهو يجادل الولد في مسألة حساب. قلت لنفسي ما زال لديه شيء من القدرة على التمييز والأمل رغم كل شيء..

في الليل كان الشيخ راضي ينافس الشيخ سليم في قراءة ما تيسر وجاء خلق كثيرون للعزاء.. كان أبي يجلس عند طرف الدكة ويتوه أحيانا فلا يرد على من يجيئون لأخذ الخاطر، طلبت من محمد أن يأخذه إلى الدار وبقيت حتى تمت الليلة، وكان شاكر قد أصر على ملازمتي طوال الليلة في أخذ العزاء كأنه يعلن لكل الكفر أنه شريكي في سيد.

وأمي أيضا طلعت من الدار، زفوها لأمين شلبي بعد عركة حول الأرض، ميراثها من أبيها شقيق جدي عبد القادر الذي مات وترك أرضه وابنته وزوجته ليأخذ الكل جدي عبد القادر.. يتزوج جدتي مبروكة ويزوج ابنتها لأبي ولما يتركها تظل في الدار، ومرت السنوات وهي في الدار، ولما طلبها أمين شلبي فكرت في أخذ حقها من الأرض فظل خالي برهوم ــ وهو عمي أيضا ــ يغريها حتى وافقت أن تتنازل عن حقها قال جدي:

ــ بقى عايزة الأرض تديها لابن شلبي، ليه؟ وابنك الغلبان ده يتربى ازاي، إياك حسك عينك تفكري في قيراط بصابعك.

ارتحت لما عرفت لأول مرة أنني المستحق لميراثها وأنني بذلك أصبح لي من الغيط نصيب، وكنت أستعيد ما كان يقوله جدي عن حوض جماعة عوف الذي باعوا أكثره برخص التراب وغالبا لجماعة شلبي، وها هم يأخذون أمي أيضا، كرهتها في ذلك المساء وأنا أراها تتزين من أجل ابن شلبي، تبدو كئيبة الوجه خائنة، في أحلامي كنت أتوقع عودة أبي إلى الدار ليجدها في انتظاره، إنما ضيعت أحلامي بقبولها الزواج من آخر، ربما من يومها ازدادت كراهيتي لأولاد شلبي، وكلما تعاركت مع أحدهم ينهرني جدي ويحاول إفهامي أنهم ناسبونا وأصبحوا منا، وكنت أشعر أنه يخدعني وأن ما في قلبه يستحيل أن يخرج إلا بخروج الروح، شيء ما كنت أجهله أجبره على تزويج أمي لأمين شلبي، ولما سمعت أن أبي تكلم عن بنت عبد الستار شلبي ازددت حيرة وكراهية لكل صنف شلبي، ولا أدري لماذا تزايدت كراهيتي لهم. هل بسبب أنهم أخذوا أمي وربما يأخذون أبي أيضا أم بسبب ما كان يقوله جدي منذ سنوات عن الأرض التي سلبوها سلبا من عائلتي، وكلما تعاركت مع صبي في مثل عمري من جماعة شلبي يلومني جدي وأحيانا يحاول ضربي فأهرب، إنما كنت أحيانا أحس رغم كلمات اللوم والزجر الخفيف بأنه سعيد لنفس السبب، قال مرة لخالي برهوم:

ـ الولد ده من جماعة عوف بحق وحقيق، دماغه ناشفة وعندي.

قال برهوم مرة وهو ينظر إليّ بنوع من الحب.

ـ عايز تشوف أبوك يا صالح؟

أجبته بلهفة:

ـ الله يخليك يا خال خدني وياك مصر.

ـ كدة مرة واحدة، طب أنا راح أكشف حدا الحكيم وأنت تروح ليه؟

قلت متخابثا:

ـ ماني عيان برضه وعايز أكشف حدا الحكيم.

ضحك هو وجدي حتى رأيت عيني جدي تدمعان فعجبت كيف تدمع العينان بينما الوجه يضحك. كان وجه برهوم يزداد شحوبا، وكانت مشاويره إلى الحكيم في طنطا تتزايد، أحيانا كنت أوصله بالركوبة إلى البندر، إنما هذه المرة عرفت أنه ذاهب إلى " مصر " وأنه سيرى أبي أيضا، كان برهوم يبدو أكثر ضعفا من أي يوم آخر وكانت في عينيه لمعة قلقة وحيرة خفية المصدر. وكانت سلطاته في الدار تتناقص، ربما بسبب المرض أو كثرة خلافاته مع جدي، وسافر خالي برهوم وغاب، قال جدي وهو يلحظني خفية:

ـ مسيره خالك يرجع وتشوف أبوك يا صالح. ما هو أتكلم على بنت عبد الستار.

كنت في الغيط، بالتحديد فوق شجرة التوت، عندما سمعت الولد جلال ينادي بعلو حسه من عند سكة المصرف القديم:

ـــ يا صالح.. يا صالح.. خالك برهومة جه من مصر.

قفزت فرآني وظل يرمح ناحيتي وهو يتكلم:

ـــ وأبوك حسن وياه يا وله وعايز يشوفك.

رمحت ناحيته، تقابلنا عند المنحنى، أخذت ذيل جلبابي في أسناني مثلما فعل جلال وطرنا في اتجاه الكفر، قال جلال:

ـــ دا طول سيدك عبد القادر ولابس طربوش زي بتاع الصراف.

سبقت جلال بمسافة فجاهد أن يطولني: قال بعسر من خلال أنفاس متلاحقة.

ـــ ومعاه سلال كبير جايبه من مصر.

كنت أسمعه بصعوبة بينما الريح تصفر في أذني.

ـــ على مهلك يا صالح.. ما هو قاعد، في المندرة الكبيرة.مع خالك وسيدك. وأبويا وياهم كمان.

كنت قد ابتعدت عنه تماما، لم أكن أفكر في جلال، كنت أفكر في أبي، أن أراه، أن أسمع صوته، ألومه على كل هذه السنوات التي غابها عني، أن أحكي له عن المصحف الذي "ختمته " عن عدم رضاي عن جماعة شلبي وأملي أن أرى جدي معه، يتصالحان، أن أطلب منه البقاء معي في دارنا.. تعثرت في حجر، وقعت على الأرض كانت الوقعة شديدة فزحفت مسافة، تسلخت ركبتي وكوعي وراحتي اليمنى، لحقني جلال، أفقت لنفسي بسرعة وقمت، شدني جلال لما فكرت في معاودة الرمح.. طلب مني أن أغسل الدم عن ركبتي فلم أطاوعه، كنا عند مدخل الكفر، نفض جلال جلبابي وسرت أعرج، سبقني جلال، وصلت إلى باب المندرة الكبيرة، تأملت الوجوه، بحثت عن الطربوش فوق الرءوس فلم أجد، وجدت جدي وخالي برهوم وعمي عبد الغفار يحوطونه، كان الطربوش بجانبه وكان يبتسم في حيوية، كان شبيها بجدي إلى حد كبير، ربما هو أكثر قربا إلى جدي من برهوم بمراحل، كان يرتدي بالطو كشمير فوق جلباب وفي قدميه حذاء أسود وجنبه الطربوش والرأس عار، اقتربت بحذر لأتأمله أكثر، كانوا يتحاورون بحماس شغلهم عني، ازددت اقترابا، قال جدي وهو يلمحني قبلهم:

ـــ واد يا صالح.. مالك وشك أصفر كدة وينهج، أنت جاي رمح م الغيط؟

التفت هو إلي، تفحصني مستطلعا، قال برهوم:

ـــ طب قرب كدة وسلم على أبوك.

كانت عيناي مركزتان عليه وكانت عيناه مربوكتان بيني وبينهم، اقتربت أكثر، فتح ذراعيه فوجدت صدره مفتوحا لأخذي.. ارتميت في حضنه وظللت أبكي، أحاطني بذراعيه وكانت يداه تجوسان عبر الظهر والكتفين وصوته المشروخ يردد اسمي دون أي كلام آخر:

ـ صالح.. صالح.. صالح.

كنت أبكي بصوت، نسيت كل ما سبق أن علموه لي، السلام باليد وبخشونة تحول إلى ارتماء في الأحضان في استسلام ضعيف، لا كلام، ولا كلمة كانت على طرف اللسان تقدر أن توضح ما كنت أرغب في قوله.. أحسست بقطرات ساخنة من دموعه تتساقط فوق رأسي وفوق عنقي.

قال جدي:

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله.. حسن..

وظللت في أحضانه غير راغب في الابتعاد ويداه تتشابكان فوق ظهري.. قال عمي عبد الغفار:

ـ دا الفراق صعب يا رجاله، ربنا ما يحرم حد من ضناه..

قال جدي:

ـ أهو بقى راجل أهه.

ـ ربنا يخلي.

قالها عمي عبد الغفار.

قال خالي برهوم وهو يربت على كتفي:

ـ دا أبوك جايبلك جوز جلاليب جوخ معتبر يا وله. محدش لبسهم ف الكفر لسه.

شال جدي الطربوش ووضعه على دماغي، ضحكوا فضحكت، قال جدي وهو ينظر إلي:

ـ طب علي الحرام الخالق الناطق حسن ابني بس من غير شنب.

وضحكوا.. عملوني فرجتهم وموضوعهم في ذلك النهار الدافئ، ولأول مرة أفهم قيمة أن يكون للإنسان أب، رغم كل شيء كنت أشعر أنني أخصه أولا قبل جدي وخالي برهوم، أجلسني أبي بجانبه ورحت أتطلع في وجهه شارب أسود منسق وذقن حليق وسمرة أقل وجبهة أعرض من جبهة جدي، ولولا نحول خالي برهوم وشحوب وجهه لكان أكثر منه شبها، كانوا قد شرعوا في الحديث عن مصر وناس مصر، عن دكان حلواني في مصر وعن شريك لأبي فيه، حدثنا عن الإنجليز بكراهية فكرهتهم أكثر، قال برهوم:

ـ طب قوم يا صالح أغسل وشك وتعالى.

لما هممت بالوقوف وضع أبي يده في جيب البالطو وأخرج منه نصف ريال فضة، نظرت إلى جدي محتارا، قال جدي وهو يضحك:

ـ إيه، بتبص لي ليه؟ دا أبوك، يعني تأخذ منه ولا إحم ولا دستور، ويا داخل بين البصلة وقشرتها.

قال أبي:

ــ روح اصرفه كله، ما تخليش ولا مليم، ولما يخلص قولي أديك غيره.

أخذت منه نصف الريال بينما يحادثني وخرجت من باب المندرة، دخلت الدار، فكرت أن أداري نصف الريال في مكان أمين، احترت، طلعت إلى السطح، دخلت قاعة اللبن، وضعته تحت الصندرة ثم أخذته، وضعته في الطاقة ثم أخذته، فتحت له بالمنقرة في الأرضية، لففته في قطعة قماش قديمة وردمت عليه، نظرت إلى الأرض فوجدت الأثر ظاهرا، داريته بتراب ناعم حتى تأكدت من عدم ظهوره، نزلت وغسلت وجهي بسرعة ومسحت دم ركبتي براحتي المبلولة، قالت جدتي مبروكة وهي تلحظ لهفتي في الغسيل.

ــ على مهلك يا ضنايا، أهو أبوك افتكر وجه بعد ما بقيت راجل، لا ربى ولا شال ولا حط.

نظرت إليها غير عارف بماذا أرد عليها، كان واضحا أنها غير مرتاحة لوجود أبي، في هذه الساعة كرهتها، تمنيت أن تموت، كانت تحادث نفسها بأن أبي لم يأت من أجلي وإنما من أجل شوق بنت عبد الستار شلبي، وإنه لم يفكر في طوال السنوات، قلت لها محاولا تقليد خالي برهوم في جسارته عندما يحدثها:

ــ ما بلاش دوشة يا ولية.

سمعتها وأنا أتجه ناحية الباب الكبير تقولي " يخيبك " لم أهتم. عند باب المندرة وجدت جلال قلت له بسرعة:

ــ أبويا إداني نص ريال.

ــ إيه، بقى نص ريال بحاله؟ طب قول قرش.

ــ والمصحف الشريف نص ريال.

ــ طب هو فين؟

ــ شلته.

ــ شلته فين؟

ــ وأنت مالك.

تركت جلال غير المصدق وجلست بجانب أبي، كان جدي مبسوطا من أبي وعلى خلاف ما كنت أتصور وأسمع في الدار، لم يكن هناك عداء ولا حرب ولا كراهية، وكان خالي برهوم منهمكا مع عمي عبد الغفار في حديث عن الزرع والمحصول.. وأنا سعيد وسط الكل إلى حد لا يطاق.

لما جلسنا معا حول الطبلية وجاء العشاء حرص أبي على إجلاسي بجانبه، كان أبي يعطيني قطع اللحم بيده، آخذ منه وآكل شاعرا بحلاوتها في فمي، لم يكن مهتما بنفسه بل كان يطعمني بيده، وكأنني كنت آكل من طعام الجنة الذي يصفه الله في المصحف، قال جدي:

ـــ كل بقى يا حسن، الولد حيهيفك، حياكل منابك.

أضاف متضاحكا:

ـــ دا مفجوع وابن كلب.

قال أبي:

ـــ دا الخير كتير قوي، خليه يأكل من إيدي يا با.

قال جدي:

ـــ عرفت بقى إن الضنا غالي؟ أهو أنت والمرحوم كنتوا غاليين قوي، بس النصيب غلاب.

قال أبي وهو يحاول إضحاكهم:

ـــ كل يا صالح، تلاقيهم بيجوعوك يا وله.

قلت وأنا أمد إليه يدي بنصيبي:

ـــ طب كل أنت بقى منابي.

برفق أعاد نصيبي أمامي وقال لجدي وهو يضحك:

ـــ ما تسيبونا ف حالنا بقى، خليني أشبعه من إيدي يا با.

قال جدي:

ـــ دانت أهبل، والنبي يا حسن يا بني لو تأكل صالح بإيدك على طول تشبع، والخير كثير والحمد لله.

ـــ ربنا يسترها، بس حكاية الدكان، لولاه كنت فضلت، دي دار عبد القادر عوف اللي يدخلها يشبع.

ـــ دارك يا وله، أنا فاضلي مين غيرك أنت وبرهوم؟

في الليل كانوا يتكلمون عن شوق بنت عبد الستار شلبي، فهمت أن أبي خطبها، قلت لنفسي ما دام ينوي الزواج من الكفر فسوف يعود وأراه، قال لبرهوم:

ـــ وريت صالح الهدوم؟

قام خالي برهوم وجاء بقطعتين قماش صوف ثقيل ناولهم لي قائلا:

ـــ حاجة معتبرة يا صالح، تعرف يا حسن أن صالح ختم القرآن وبقى راجل آهه.

كان يضحك وأنا أقلب في القماش مبسوطا، واحدة لونها أخضر غامق والثانية رمادي فاتح، قال لبرهوم:

ـــ تفصلهم له عند عبد الرحيم ف البندر، اللي يعوزه يأخذه. بقبطان مجوز، وعــايزك تفصل له جزمة كمان وتهيئه، أوعى يغشك ف الجلد، أجلسيه وزي ما يقولك أدفع يا برهــوم، إنشا الله جنيه.

فرحت، تخيلت نفسي في الجلباب الرصاصي والحذاء قلت بسرعة:

ـــ بزراير

قال جدي:

ـــ هو إيه اللي بزراير؟

قلت:

ـــ عايزها جزمة برقبة وزراير زي بتاعة عطية ابن أبويا السيد.

نظر أبي إلى برهوم باسما وقال:

ـــ شفت بقى، برقبة وزراير بتبرق وأحسن كمان من بتاعة عطية.

كنت مسنودا إليه، أشعر بأن كل مطالبي يمكن أن تتحقق، شاعرا بأن وجوده يجعلنــي أكثر قدرة على المطالبة بما أريد، أن يكون الواحد منا مسنودا على أب، شعور جديــد كنــت أعايشه للمرة الأولى في كل عمري، وكان وجهه الباسم المريح يجعلني أطمئن وأرتاح.

في السكة يوم كنا نوصله أنا وخالي برهوم قلت له أنني أريده أن يعود ليعيش معنا في الدار ووافقني، كنت فرحانا والدنيا لا تسعني، كدت أطير من الفرح، قلت وأنا أبتسم له:

ـــ والنبي ما تتأخر يا با

ـــ حاضر.

أخرج من جيب البالطو الداخلي ورقة مطوية ودسها في يدي، لم أفهم إن كان يداريها من برهوم أم أنه أعطاها لي هكذا غمزا ليكون بيني وبينه سرا يجهله الكــل حتــى برهــوم، وضعتها في جيبي كلص يداري غنيمة وأنا أراقب خالي برهوم بطرف عيني خائفا أن ينكشف السر، نظرت إليه بامتنان وحب ولم أتكلم، جاء القطار وحملنا له الزوادة، وضــعناها علــى الرف، قبل أن يصفر القطار أخذني في أحضانه وطبع على خدي قبلة ووصى برهــوم علــى العناية بي وأن يسرع بتفصيل الحذاء والجلبابين، نزلنا بعدما صفر القطار ولوحنا له بأيدينا.. كنت أرمح بينما القطار يتحرك فمنعني برهوم خوفا علي وظللت أنظر إليه حتى غاب القطار نفسه وتاه في فراغ الأرض المزروعة ناحية شبين.

لما دخلنا الدار أسرعت إلى بيت " الأدب "، كنت متعجلا أن أعرف ما أعطــاه لــي وأعبث بالورقة طوال السكة، عندما أخرجتها وجدتها نصف جنيه جديد، طلعت بسرعة راغبا في إعلان الخبر. وجدت جدي في مواجهتي قلت بفرح:

ـــ شفت يا سيد أبويا إداني إيه؟

أخذه وراح يتأمله مبتسما وقال:

ــ ياه نص جنيه بحاله، طب خليه معايا وابقى خده ف العيد.

كنت لا أهتم ساعتها بالمبلغ، كنت أريد أن آخذه وأفرج عليه جلال وعطية والصبيان أمثالي في كل الكفر، إنما خفت أن أقول لجدي ذلك، كرهت نفسي ساعتها، إنما تذكرت نصف الريال فانزاح نصف الغم، وقلت لنفسي أن العيد آن وإن أبي سوف يعود هو أيضا، وأنه سوف يعطيني ما أريد فسرت غير مهتم حالما بالعيد وبأبي.

كانت الأيام تتوالى وأسأل عن موعد عودته فيقول برهوم الغائب حجته معه، وأنه سوف يأتي في الأيام التالية، إنما الأيام كانت تتوالى بطيئة، والأسابيع تتكاثر دون أن يبعث حتى رسالة ولما جاء ونظرت إليه لائما وجدته لم يفهم نظرتي وظل يحدثني وهو ذاهل عني، نسى حتى أن يبارك لي على الجلباب الجديد أو الحذاء ذو الرقبة الذي حرصت على إبقائه ليوم عودته. حتى لما طلب منه جدي أن ينتظر لتناول الغذاء رفض ونظر في ساعة جيبه وخرج قبل أن نتبادل إلا حديثا قصيرا، قالت جدتي مبروكة:

ــ هو كان جاي لنا ولا إيه؟ دا جاي لجل بنت عبد الستار يا ضنايا.

قال جدي:

ــ عقبال برهوم، يا وليه اتهدي واسكتي.

قالت هي:

ــ طب حتى كان يراضي العيل الصغير، هي حاتطير يا عبد القادر، قال على رأي المثل، من لقى أحبابه نسى أصحابه، معلشي يا بن بنتي ربنا يتولاك.

في الفرح كنت تائها، كنت مغلولا من كل الناس، من شوق وأمها وأبي وجدي عبد القادر الذي بدا فرحانا أكثر مما كنت أتصور، لم يلتفت هو إلي بل كان ينظر إلى شوق، في الزفة من دارهم حتى دارنا كنت عاجزا عن رؤيته، وبعد الدخلة أغلقوا عليهما باب المندرة ولم أره إلا في اليوم السادس عندما خرج معها إلى باب العربة المخصوص التي جاءت عند الباب لتوصلهم إلى مصر، وكانت شوق حلوة بشكل لا يدعو إلى الاطمئنان إلى فكرة عودته، لو كنت مكانه لظللت في مصر دون أن أفكر في العودة إلى الكفر، ساعتها فقدت ما تبقى لي من أمل في عودته إلى الدار أو حتى مجرد زيارته لنا أو الاهتمام بأموري ولا أدري لماذا خطر في خيالي أن أفتح المصحف وأقرأ سورة مريم من أولها لآخرها في ذلك المساء.

الناس لها الحاضر ، ها هم أولاد شلبي يترصصون على المصاطب بجلابيبهم الكشمير ورءوسهم العارية، عمد وأولاد عمد، أخذوا منا العمودية وخلعوا رءوسهم وداروا في الكفر على هواهم، وشاكر شلبي عمل مصطبة جنب دكانه ولم حوله الشبان من أهله، ورثوا الجسارة بالقرش ونسوا الأصول، دكانهم مفتوح في وش البوابة وكأنه شوكة مدفوسة في نن

عيون أولاد عوف، نسوا حكايتهم القديمة، نسوا جدهم الكبير الذي دخل الكفر حاملا خرجه على ظهره متلمسا في الكفر من يشتري منه ربع تمر أو بقرش خروب، ها هو شاكر يجلس بجلبابه المغسول المزهر والمكوي ورأسه العاري يلمع بدهان شعر كالبنت القارحة.. يتبصصون علينا وينهشون بالعيون لحمنا وبالألسن، لو كان حيا لطردهم ولعن سنسفيل جدودهم وسألهم عمن ورثهم الجسارة ليجلسوا عند بوابة جماعة عوف، لو كان الرجال الكبار ظلوا لخرجوا عليهم بالشماريخ وشتتوهم في دروب الكفر كما كانوا يفعلون، إنما من يسندني لأعملها معهم، والعمدة منهم ولديه في الدوار طابور خفر تحت الأمر ورهن الإشارة. ولهم حق.. فمن تبقى من جماعة عوف؟ شعبان الذي يشارك الدكتور بطرس ويعيش على الهامش، أم محمود الأهبل الذي تعلم في المدارس ووظفوه لكنه أهبل جعله التلاميذ مسخة يضحكون عليها كلما مر أمامهم " بالبيجاما " الباهتة، وغانم المرابي الذي تبرأنا منه، والجالس على باب داره ينتظر من تأتي إليه بحلة نحاس أو بطشت ليساومها على الفائدة، والذي لا يخجل من نفسه ويظل طوال النهار يعاير خلق الله بكل معايبهم ويسرد عليهم كل مخازيهم غير شاعر بأن وجوده نفسه عار وخزي لا يدانيه عار ولا خزي، ولطفي الأعرج الذي برع في السمسرة وخراب البيوت، يعرف البائع ويعرف الراغبين في الشراء، يخدع الكل ويتوسط مقابل عمولة مزدوجة ويزن على دماغ أصحاب الأرض ليبيعوها في سبيل العمولة، كل هؤلاء ينتمون إلى جماعة عوف، والرجال الذين يعتمد النفر عليهم قلة وسط كثرة تائهة في مشكلاتها الخاصة، هل هو الزمن الخسيس أم أنه غيم سوف ينزاح كما انزاحت من قبله غيوم.

وعندما قال سلومة ما قاله لم أسكت، دفست بوزه في طين المروة، كان يحاول أن يعمل فصيحا بلا لزوم، ساق الهبالة على الشيطنة وعلق جاموسته في الطمبوشة وهو يعرف أنني آت لأسقي، جاء بالولدين يحتمي فيهما حاسبا أنني سوف أسكت، قلت له في البدء: حل الجاموسة يا سلومة فلم يعجبه الكلام، قال كلاما لم أبلعه قال أنني غشيم وأنه سوف يسقي قبلي، قلت له عيب فلم يعجبه الكلام، قال: كل واحد يشوف روحه، قلت لنفسي أنني لو سكت له فسوف يستمر، ربما يذكرني بما جرى لسيد وبحالة أبي لإذلالي. هذا الصنف يخاف ولا يستحي، تذكرت ما كان قد قاله عند البوابة عن جدي عبد القادر: كان غشيم، صحيح أنني لما سألته أنكر إنما لم أصدقه، قلت لنفسي أيضا، أنت مجروح الآن يا صالح ولو سكت للكفر يركبوك ويهزوا سيقانهم، مسكته من خناقه ودفست بوزه في طين المروة، كان هزيلا في يدي وكأنه فرخ "بربر" نظرت إلى الولدين الآخرين فدلدلوا آذانهما ولم يتكلم أحد، تركته يمسح "الروبة" عن وجهه وشخطت في الولدين طالبا منهما الابتعاد. استدارا في صمت الخائف وحياد الجبان، كأنهما كلبين أجربين غريبين، لما وجد نفسه وحيدا جلس كحرمة منكسرة، شكله أضحكني فضحكت، لما شاف ضحكتي ترف على شفتي تجرأ وقال:

ـــ ربنا يهدك يا صالح، أنا كنت بهزر معاك.

قلب وأنا أحل جاموسته وأعلق الثور مكانها:

ـــ النوبة الجاية حتقطس في إيدي، وإن كنت جدع إبقى هات رجالة يحموك.

ـــ عيب يا صالح داحنا ولاد عم.

ـــ ما بقيش إلا أنت يا بن المراكيب تتنقور علي؟

ـــ داحنا قرايب.

ـــ قرابة مهببة وجيرة زي عدمها. أشوف روحي دا إيه؟

ـــ كنت بضحك وياك.

ـــ تضحك ولا عايز تضحك علي ولا شلبي يا نتن؟

تركته قائلا لنفسي إنه لن يفوتها بسلام، أعرف أنه سوف يدبر أمره، هذا النوع يتمسكن عندما يحس بالهزيمة، ربما يفكر في الاستعانة بأحد ويترصدني، فكرت في ضرورة الاحتفاظ بسلاح في "الخارجة" احتياط وسرت في اتجاه "الحوال" لأحول مجرى المياه إلى أرضي. "العنف سيد الأخلاق في كفر عسكر، لو أعرف من قتل سيد لمسحت عاره هذه الساعة ولتتقطع كل الألسنة من عند اللغلوغ وليسكت ولد مثل سلومة، ينخرس لسانه ولا يجرؤ أن يقول ما قاله" كل واحد يشوف روحه "آه يا ابن الخنازير. هكذا مرة واحدة: كل واحد يشوف روحه؟ كأنني أصبحت معيرة تنصبون القعدة على حسي، تعملوني لبانة في الأفواه التي تساوي والتي لا تساوي، كأنكم ظللتم تبحثون عن جرح تعايرونا به حتى تنتظرون لحظة الشماتة فينا، أصبحنا سيرة في كفر عسكر، فرعك يا عبد القادر يا عوف لا يواجه أغراب الكفر وإنما يواجه أيضا كل فروع جماعة عوف، كانت الطمبوشة تدور وصوتها يزغرد ويغيظ سلومة " العنف سيد الأخلاق يا كفر عسكر، لن يكون هناك حلم بعد ما جرى لنا"، لمحت محمد آت من بعيد، قلت لسلومة:

ـــ فز طس وشك بشوية ميه أحسن محمد لو شافك يعرف يا بن تفيدة، وابقى لم لسانك اللي عامل زي الفرقلة.

قام سلومة وغسل وجهه من التركيب وجلس، كان محمد قد وصل، قال وهو يخلع الجلباب:

ـــ أنا نازل الأرض أسقيها يا با.

قلت:

ـــ متخليك أنت وأنزل أنا.

لكنه كان قد نزل، تأملته وفرحت بصباه وجرأته، ينتقل في خفة عصفور ويفتح السدود الصغيرة ليسمح لمياه الرية بالوصول إلى كل الأرض، قلت لروحي أن هذا الولد من صـــلبي. شاطر بحق ولا يهاب، من نسلنا بحق، قلت لسلومة:

ـــ وكنت ساحب ولاد عثمان شلبي حماية؟

ـــ بلا كلام فاضي، يعني مش لاقي إلا ولاد شلبي أتحامى فيهم، أنت اللي مستقل بي، عاملني مسخة وناسي القرابة، داحنا ولاد عم يا صالح، كنت أحسبك تبقى معايا مش علي.

ـــ يعني أنت اللي فاكرها، أشوف روحي دا إيه؟ وقصاد ولاد شلبي كمان.

ـــ لك حق يا صالح، أنت الكبير برضه وعيب الواحد يقيم عينه فيك.

ـــ طب يا سلومة، خلاص، صافي يا لبن، قوم بقى ساعد محمد، واللي فات مات.

قام وقد انزاح عن وجهه الكدر وذعر لحظة العراك وبدأ يتحدث مـــع محمـــد فقلـــت لنفسي أنني أتسرع أحيانا في تصرفاتي إنما ربما كان ذلك بسبب ما أعانيه من مشـــاكل بعـــد موت سيد لدرجة أنني بدأت أشك في كل الناس ولا أميز العدو من الحبيـــب. ولمـــا ركنـــت دماغي على فرع التوتة غفلت مدة حتى صحاني صوت سلومة:

ـــ صالح.. اصحى.

وقمت، كان يبتسم وكأن شيئا لم يحدث ومحمد جاء يغسل نفسه ويلبس الجلباب، قلـــت لسلومة:

ـــ بعد ما تسقي ابقى تعالى حدا أبوك إبراهيم، أهو نسهر هناك الليلة.

ابتسم سلومة وقال:

ـــ أي والله من زمان وحشاني حواديته.

تركته وركبت الحمار وسحب محمد الثور والجاموسة والعجلين وعدنا إلى الدار.. بعد العشاء خرج محمد، سحب نفسه كعادته وخرج، فكرت في أخذ أبي معي إلى دار الجد إبراهيم إنما وجدته تائها في ملكوت الله، قلت لنفسي أذهب وحدي حتى لا تتحول السهراية إلى مندبة، الجد إبراهيم لا يكف عن الثرثرة في الأمور الفارغة لكن الليلة تفوت، لو أخذت أبـــي معـــي لحول الجلسة إلى كلام مسنون وجارح، خرجت في اتجاه دار الجد إبراهيم، عند البوابة كـــان الولد محمد واقفا وسط جماعة من الشبان، عوده الممتلئ عنهم وصوته الآمر وسطهم وثبـــات حركاته ذكرني ببرهوم أيام صباه، خفت عليه من العيون، قلت له عارفا أنه لن يسمع الكـــلام وإن كان يهاودني:

ـــ روح يا وله بدل اللطعة دي.

ـــ طيب.

قالها وهو ينظر إلي غير مرتاح للأمر، يعرف أنني غير جاد في مثل هذا الطلب وأنه لن يستجيب، عادة يسهر مع أصحابه إلى ما بعد السهرة بمدة، أحيانا يأتي في وش الفجر ويخبط على شباك المندرة وكأنه يود أن يجعلني أراه بنفسي وأفتح له بنفسي، على أيامي كنت أهوى السهر مثله إنما كنت لا أجرؤ على إظهار ذلك، كان خوفي من جدي عبد القادر يجعلني أتسلل خفية، أطلع إلى " المقعد " وأتظاهر النوم ثم أتسلل على سطح الحاجة مسعدة ومنه إلى جدارها المهدوم إلى " العليوة " إلى شارع ضيق أنفذ منه إلى البوابة وفي طريق العودة كنت أتخوف أن يراني أو يسمع صوتي، كنت أتعلق على الكتلة البارزة أو ألف من ناحية "العليوة"، إنما لم يخطر ببالي أن أخبط على شباك المندرة مثلما يفعل محمد معي، له حق محمد لأنني مهما فعلت معه فلن أكون قاسيا مثلما كان جدي، على العموم أنا كنت ابن ابنه الذي لم يرض عليه.

قال الجد إبراهيم وهو يصب شايه الأسود في الأكواب:

وكان سيدكم الحاج مصطفى عوف عمدة بحق وحقيقي، دواره مفتوح للغريب قبل القريب، طوال شهر رمضان الدبايح تندبح على بابه واحنا نلف على الخلق أنا وإخواتي، عبد القادر وعلي ومحمد وعبد الغفار ندي كل حي كوم، كنت لما أطهق م الشيلة أرمي اللحمة ف الترعة أو أحطها عند نفر من الأنفار وأرجع قبل الكل، أقول لروحي أن الرجل ده أهبل لما يدوخ عياله لجل شوية تملية ومقاطيع.

يضحكون، يقولون إنه لم يغلبه غلاب، قادر على تخليص نفسه من أي إشكال أو مسئولية بنكتة أو بعمل غير محسوب، قال ابنه عبد العزيز مرة أنه طلب "عباية" لزوم العيد ولما اعتبروها نكتة ولم يهتموا باعتبار أنه رجل كبير ولا يجوز أنه يهتم بالعيد، وجدوه يأتي إليهم لابسا العباءة ويدخل الدار مختالا بنفسه فضحكوا لكنه داوم في أيام العيد على إحكام عمامته وليس العباءة وأنهم لما سألوه عن مصدرها أفهمهم أنه رهن فدانا من أرض "المعرج" يقول عبد العزيز عنه: باستسلام سكتنا أنا وأخي والأولاد ثم تجاسرت وسألته:

ـــ إزاي بس يا با تعمل كدة؟

وإنه رد بحماس مدافعا عن نفسه:

ـــ ما قلت لكم يا خنازير محدش جاوبني، كنتوا عيازيني أعيد بهدوم قديمة؟

وأنه من بعد ذلك اليوم داوم عبد العزيز على الاهتمام بمطالب الرجل، يقول تعقيبا على هذه الرواية عندما تثار:

ـــ طب وإيه يعني، عليّ النعمة أبويا باع خمسة فدادين على رأس غيط "المدار" برطل حلاوة طحينية.

نتظاهر بعدم التصديق فيخرج المصحف الذي يحتفظ به في جيب صداره ويحلف ثم يضحك منتشيا بإسكاتنا حتى تدمع عيناه ويعقب:

ــ أصل زمان الأرض كانت كتير والناس قليلة، كان الكفر زمامه كبير على اللي فيه، كان خير كتير ولا كانش حد يعرف الطمع زي أيامكم الغبرة.

أقول لنفسي إن هذا العجوز الذي تعدى سنواته المئة بأكثر من عشرين سنة، عاش في خير وإلا لما احتفظ بكل هذا النشاط والصحة والوعي، وأن أبي الذي يعتبر أصغر من عبد العزيز ابنه فقد قدرته على التمييز، ربما لأن الجد إبراهيم ظل يرتع في خير الكفر ولم يترك الأرض، ظل سيدا لأرضه وعبدا لها في آن واحد، ربما لسبب إحساسه بالأمان لم يفقد نشاطه، وأنه بالحتم لا بد بسبب وجوده في الأرض ما زال يعيش، يضحكون على عبارة قالها ثم أجده يحلف مرة أخرى بالمصحف فأفهم أنهم جرجروه للحديث، أنه انفتح وسوف يسترسل، ما دام يحس أنه محط ريبة فيما يقول لا يكف عن سرد الحكايات القديمة محاولا أن يدلل بكل حكاية على صدق ما سبق أن قاله وسوف يستمر هكذا حتى يجد لدى الأولاد والأحفاد همهمات استحسان وتصديق.

ــ طب علي الحرام من ديني، أبويا الله يرحمه قال لي أنه اشترى عشرين فدان بور من واحد تركي بزعبوط فل وبردعة نص عمر، وبعيني دي اللي ح يأكلها الدود شايفه بيبيع غيط بحاله بشوال تمر، ومرة كنت وياه في السوق شفته بيأخذ حق جوز تيران تقولوا كام؟ قمع سكر وشرف النبي.

يشعر أنهم ما زالوا في مرحلة عدم التصديق، والضحكات على الأفواه مبسوطة لإمكانية استرسال الرجل، يسترسل:

حا نروح بعيد ليه، أنا واخد المصحف ده من راجل مغربي تقولوا بإيه؟ بزرعة برتقان بلدي، كانت الجنينة تيجي تسعة فدادين، وده جه فات علي وقاللي اقرأ لك الكتاب بحجر برتقان، قلت طيب، قعد يقرأ، بابص للمصحف وعايز أشوف جواه إيه؟ قفله وبص لي وقاللي: أنت عايز تطفش العفريت؟ ببص على العفريت حاشني، قاللي إنه مصحف مخصوص للمغرابة اللي بيقروا الكتاب، ولو خدته منه يبقى بتاعي وأقدر أقرأ لأيها واحد، يعني أقرأ الأول آية الكرسي وأفتحه يطلع لي ملاك أبيض يشاور ع الكلام المكتوب وأقرأه وبس، وقاللي إنه تعب م اللف وعايز يرتاح، الغرض مرضيش يديني المصحف أبدا إلا لما حمل زرعة البرتقان على جمال مغربي وحلفني ما فتحش المصحف إلا بعد العشا عشان الملاك يصلي المغرب أحسن حرام، وبعد العشا بفتح المصحف لا لقيت ملاك ولا جن ولا كلام بيضوي زي الرجل ما قال، أبويا سألني ع اللي حصل وريته المصحف وقلت الحكاية ضحك لما فطس

على روحه وقال لي دا مش بني آدم، دا يمكن جبريل عليه السلام وجالك ووصاني أحافظ على المصحف لأنه جاي من عند ربنا وشويه فيه كنوز الدنيا كلها.

ضحكوا عليه فاغتاظ أو تظاهر بأنه اغتاظ منهم وأوشك أن يحلف على مصحفه لولا أنهم منعوه وسأله عبد العزيز عن سر اهتمام جبريل به دون خلق الله فيقول:

ـ حاكم احنا نسل طاهر، فينا شيء لله، قلبنا تلاقيه أبيض زي الحليب وضميرنا خالص ونصدق كل حاجة، ما هو إحنا من نسل الحسين بن علي عليه السلام.

انظر إلى عينيه الواعيتين فأحسده وأكره شعرة الهبل فيه، أتذكر جدي عبد القادر الذي كان يحكي عما كان يجري في أيامه مؤكدا أن الجد إبراهيم كان عبيطا رغم أنه كان أكبرهم، ويؤكد أيضا أن الجد مصطفى أبوهم كان مزواجا مطلاقا وأنه أنفق نصف أملاكه على الحريم، حتى لما باع أرضه برطل الحلاوة أو قمع السكر كان في سبيل امرأة نالها ودفع من أرضه الثمن، كان جدي عبد القادر أنصحهم وأقواهم ولو كان أكبرهم ما تبددت أرضنا، كلامه صادق ومضمون كالجنيه الذهب، أما الجد إبراهيم فهو مهزار وهلاس وله مع الحريم فضائح ونوادر لا تحصى، يحكي وهو يلتفت ناحية سلومة الساكت:

ـ كنت فاتح قهوة مطرح الدكان اللي على البوابة وجايب واحد بربابة يقول للخلق سيرة أبو زيد وكان وياه ثلاثة رقاصين من سنباط الواحدة تقول للبدر قوم وأنا أقعد مطرحك.

يقاطعه عبد العزيز متعابثا:

ـ كانوا بيرقدوا فين يا با؟

يرتبك ويزوم ثم يقول محتدا.

ـ ياك لسه مصدق المرحومة أمك؟ كانوا بيرقدوا ف القهوة بعد ما أسكها عليهم.

يتجاسر عبد الونيس ويقول وفي صوته نبرات الراغب في الإغاظة:

ـ سمعت يا با إبراهيم من كام سنة لكن مش مصدق.

يحس الرجل أنه سيصبح محط للهجوم فيكشر ويلوي بوزه ويدفع عن نفسه قائلا بثقة الكبار:

ـ سمعت إيه يا ابن المراكيب أنت راخر؟

ـ قال بيقولوا إنهم ظبطوك مع هانم بنت مقلدية في قاعة التبن من سنتين.

يقول وهو منفعل بحق:

ـ بقى من سنتين يا بن ستين كلب، دي الحكاية دي من سن عبد العزيز ابني.

يضحكون فأضحك لأن هانم نفسها في دور أولاد أولاد عبد العزيز، ربما كانت مقلدية من دور عبد العزيز، هانم مفضوحة وسيرتها في الكفر معروفة وليس من البعيد أن تكون ضحكت على الرجل من أجل غرض، إنما يقولون أنهم ضبطوها معه فعلا وكانت عارية كما

ولدتها أمها، يحس الجالسون أن الجو سوف يتوتر وأن الجد إبراهيم سوف يستاء من مجلسنا فيحاول عبد الونيس إصلاح الحال.

ــ وهو حد يصدق الكلام ده يا با إبراهيم برضه؟

ــ ربنا ينكد عليك يا عبد الونيس يا بن أبو العنين.

يسود الصمت إلا من كركرة الجوزة في صمت المندرة وتزايد سحب الدخان الأزرق، تعميرة هذا المساء أفضل من سواها، جابها عبد الونيس من درويش الأعور، أشعر أنها أحسن أجدني أبدأ في الضحك، تنزاح كل المتاعب وأضحك، يقول سلومة وهو يصفق بيديه فرحا:

ــ صلوا على حضرة النبي المختار: السهرة احلوت.

ينظر إليه الجد إبراهيم شاعرا أنه لفت الأنظار إليه وترك الرجل الكبير ساكتا يشرع في الحديث:

ــ على صحوي بقى كان سيد بيبني الدوار اللي ع البوابة. كان واقف والرجالة بتفحت الأساس، قام واحد عبد كان اسمه بشير لقى زلعة سليمة بيقول لسيدي قاله:

ــ كسرها يا وله وارميها ما حناش ناقصين زلع، العبد طلعها سليمة وجه يشيلها لقاها ثقيلة، بيفتحها لقى فيها كنز، جنيهات ذهب بندقي من بتاع زمان، يمصمصون الشفاه وفي خيال الواحد منهم جنيه بندقي واحد، يقول سلومة:

ــ يا خويا هديت وبنيت لا لقيت ذهب ولا فضة، ولا قرش أبيض يوحد الله.

قال الجد إبراهيم:

ــ هو اللي زيك يا أرشل يلاقي حاجة، الكنوز دي لناس ناس، طب أبويا ما ضحك عليه راجل مغربي ست سنين، يقوله فيه كنز في دار العيلة، فضل يعزم ويقرأ ويكتب ويقول هدوا الجدار ده نهده هدوا الجدار ده نهده لما خرب الدنيا والآخر قال أن حارس الكنز زعلان ومش ناوي يفك عنه إلا بعد خمسين سنة، اللي يحسب يلاقيهم فاتوا، يعني أكيد ف دار العيلة كنز بس ينفتح لواحد وشه سمح مش زيك يا سلومة كدة.

نضحك على وجه سلومة المستطيل والذي غاصت فيه حفر الزمن الصعب وجعلته يبدو أكبر من عمره، الهم تحت الضحكة العصبية المصنوعة والتي يشدها اغتصابا من داخله ويرسمها بينما العينان تقسمان أنه مهموم بعبء أيامه وإن كان لا يبوح بما عنده عنادا أو ضعفا أو قدرة، لكننا برغم كل شيء نضحك، نغتصب الضحكات ونفرشها على الوجوه لتحلو السهرة وكأننا نحرص على أن يكون ثمن قطعة الحشيش لم يضع منا في الهواء بلا مقابل.

يسود الصمت بيننا، يعود كل واحد إلى نفسه، يتفكر أحواله، يمصمص الجد إبراهيم شفتيه ربما سخرية من أحوالنا، يحكي للمرة الألف حكاية العب المسحور الذي اشتراه جدنا الكبير، يعرف أنا حفظنا الحكاية لكنه لا يود أن يكف عن تكرارها، هذا هو طبعه، كل حكاياته

محفوظة إنما يشعر الواحد في كل مرة أنه يسمع حكاية جديدة، يصوغ الحكايات بطرق عديدة، عن العبد المسحور يحوم بالكلمات.

ـــ وكان سوق الثلاث مشهور بالخيل، أحسنها مهرة بعشرين جنيه، كـــان ســـيدي الله ينور قبره غاوي، ولما شاف الحصان لبد جنبه، تقولش مسمروه، أنا كنت عيل وفرحان اللـــي رايح معاه السوق، الغرض، كان حصان أبيض وزي القشطة، ما فيهش شعرة سودة، تقـــولش البراق النبوي، اشتراه ورجع فرحان زي اللي لاقى لقيه، وثاني يـــوم بعـــت بشـــير يســـحبه ويسرجه لقى مطرح الحصان عبد أسود غطيس مربوط في المربط من رجله وواقف يتلفـــت حواليه، يومها جه سيدي وبص له لقاه بيرطن بربري، مفهمش حاجة منه، قال لنا يا ولاد دا تلاقيه عبد مسحور من بلاد بعيدة، فضل ف الدوار يومين ولقيناه بينطق بالعربي، سيدي قـــال سيبوه على راحته، سبناه غطس ما بنش، خرج م البلد ولا شفناش وشه بعدها، قالنا سيدي أنه ملك من ملوك الجان، وصلي على النبي.

ونشعر بقشعريرة رغم أن الخوف لا يناسب أعمارنا، أوشك أن أصدق أنه حدث مـــا قاله الجد إبراهيم وإن دارنا فيها جن مسحور ما زال يلحظ حركاتنا ويترصدنا، يحلو للعجـــوز أن يسترسل في حكاياته عن الجن والمردة وعروس البحر التي طلعت له وكادت أن تخطفـــه، عن جمالها الفتان الذي سحره، عن لحظة الاختيار الحائر التي واجهها بين مملكة البحر كلهـــا وحياة الأرض، أكذبه بيني وبين نفسي إنما لا أفكر في معارضته راغبا في أن يكف عن ذكر هذه الحكايات، يسترسل في حكاياته عن شياطين الليل:

ـــ مرة وأنا ماشي ف الليل قرب الفجر جنب جدار زاوية عوف لقيت أرانب صغيرة بترمح، لونها أبيض على أسود كدة، كانوا صغيرين وحلوين والقمرة ضهر، قلت آخذهم وأبقى أديهم لأصحابهم بعد الصلاة، خدتهم في حجري ومشيت، وقبل ما حصل باب الزاوية لقيـــت جحش ماشي من غير بردعة، عمال يعلى ويوطى، يعلى ويوطى، قلت ده عفريت بيســـتعبط، قلتله: اتشطر على اللي قتلك بصيت ما لقيتوش وعلى باب الزاوية لقيت جدع واقف باحقق منه وأنا فرحان وبقوله قال يا خويا الجحش طالع يخوفني، رد علي وقال: جحش إيه يـــا جحـــش وفص ملح وداب، من يومها طلعوا علي قولة إبراهيم الجحش.

يسأله عبد العزيز وكأنه يساعده في إكمال الحدوتة:

ـــ والأرانب يا با.

ـــ ما نا جاي لك أهه، أنا ربك والحق خفت، لسة داخل من باب الزاوية وبـــبص ف حجري لقيت انصاص قوالب طوب أخضر، قلت يا بركة سيدنا النبي ورميت الطوب وسمعت صوت الشيخ سليمان بيقول الله أكبر.

يكف عن الحديث، أحس بالضيق من المجلس، أقوم قائلا لنفسـي أن النـوم أفضـل، أبحث عن مداسي التائه وسط زحمة المندرة بينما يضحكون فأشك في أنني أقـوم بحركـات مضحكة فلا أملك إلا أن أنفتح في الضحك بلا توقف وعندما ينتهي الضحك يمد الجد إبراهيم يده بفردة المداس ويقدم إلي عبد العزيز الفردة الأخرى مؤكدين أنني مسطول.

قال الولد من جماعة شلبي لما عاركته:

ـ متفرعن على إيه، دا نت بتشتغل "تمللي" بلقمتك.

عندما نظرت إلى حالي يومها تأكدت من صدق الولد، عرفت أنهم عملـوني عبـرة وأنني لا أختلف عن أي " تمللي " في الكفر، صحيح أنني أشتغل في غيطنا كما قلت للولد ابن شلبي، وصحيح أنها أرض جدي وخالي، إنما هل هذا يكفي، أن أصبح في الـدار آخـر مـن يعملوا حسابه، كنت في البداية صبيا لا أدرك إنما حتى لما أصبحت رجلا في مثل طول جدي وأعرض من برهوم لم يصبح لي أي رأي في أي شيء، برهوم الجالس دائما على مصـطبة من مصاطب البوابة، ووجهه الشاحب يعلن لكل من يراه ضعفه يأتي إلى الدار، يأمر وينهـي في غيبة جدي، وجدي كلماته أوامر هو الآخر، قلت لروحي: أنت غريب يـا ولـد ومهمـا اشتغلت فلن يلتفتوا إليك لن تلتفت أنظارهم إلى وجودك، فكرت أن أطالبهم بتزويجي من باب إشعارهم بأنني موجود لكن الفكرة لم تعجبني لأنني أصلا لا أفكر بجدية في الـزواج، ممكـن طبعا أن يزوجوني ولن يكلفهم الأمر الشيء الكثير، وتبطل حجتي، إنما كانـت عينـي علـى الأرض، على الأقل جزء الأرض الذي يخصني، ما تركته أمي ونصيب أبي فيهـا، فكـرت كثيرا وبحثت عن سبب لعمل معركة أغضب بعدها وأترك لهم الدار في انتظار حـل، كـان برهوم في وسط الدار وأنا راجع بالجمل والحمار، قلت له دون أن أنظر إليه:

ـ حمل النقلة دي يا خال.

كأنه لم يسمع لأنه لم يرد، كررت طلبي فقال وهو يتفحصني مليا.

ـ حملها واتكل على الله بعيد عني يا وله، أنا فايقلك؟

قلت وأنا أقصد إثارته أكثر:

ـ يعني أنت على إيدك الحنة، قاعد تبص لي يا خال ولا حتى بتساعد في الغـيط ولا في الدار؟

ـ طب علي الحرام مانا عامل حاجة ف نهاري يا صالح، أنت ح تشغلني يا وله؟

ـ حرام دا إيه، شاطر بس تحلف لي بالحرام والحلال، طب والمصحف ما أنا سارح بعد النهاردة إلا رجلي على رجلك لهي الدار دي دارك لوحدك واحنا مالناش فيها؟

كان برهوم مهدودا بفعل المرض، كان وجهه الأصفر يزداد شحوبا وجسـده يـزداد نحولا، في هذه اللحظة نظر إلي وكأنه فوجئ بي هكذا في مثل طوله وأكثر منه قوة، مد يـده

وأخذا عصاه المعووجة من جنبه وناولني بها فوق كتفي فأمسكته من طوق جلبابه وصوتت النسوة، وجاء رجال ليفصلوا بيننا، كان هو ينهج منفعلا ومحموما بالمفاجأة وكنت أجلس في مواجهته في وضع استفزازي جعله لا يكف عن السباب المتلاحق لي ولأمي ولأبي مستكثرا على نفسه أن أمسكه وكأنه صعق بما جرى، لما جاء جدي وسأل برهوم عما جرى لم يتكلم، أشاح بيده ثم قام تاركا الدار، قلت أنه سوف يسألني فأدافع عن نفسي لكنه سأل مبروكة، عرفت ساعتها أن حبها لبرهوم يمكن أن يجعلها تكذب وتكذب وتضيف ما لم يحدث لتؤكد له خطئي، لو كنت مكان جدي لصدقت كذبها المحبوك الذي كانت بارعة في اختلاقه وكل لحظة تقرر أنني هجمت عليه وخنقته بيدي وهو يخلص نفسه قائلا: عيب يا صالح روحي طلعت.

ـــ الواد يا عبد القادر زي الشحط ولا حدش كاسره، دا كان حيصور لنا قتيل النهاردة.

والتفت إلي الرجل، لم يبد عليه أنه صدق أكاذيب مبروكة، وقف قبالتي ورفت على ثغره نصف ابتسامة، لم يسأل ولم يتح لي فرصة للكلام، كانت يداه خاليتين ونصف الابتسامة تشرع في أن تكون أكثر اتساعا، لكنني لم أر غير نصف ابتسامة لأنني سقطت من طولي، لم أدر ما يدور حولي، دارت الدنيا بي ودارت، حاولت أن أتشبث بالأرض فمادت بي وكأن رأسي يخبطها رغما عني، لم أكن في صحوي تماما ولم أكن غائبا عن كل الوعي، كنت بين بين، سمعت أصواتا ولمحت برهوم وعمي عبد الغفار وآخرين يمنعون جدي من الوصول إلي، جاءني جلال والشيخ عطية وساعداني على الوقوف، رأيته رغم الحصار يفتح لنفسه طريقا وسط الأجساد المرصوصة بيني وبينه، في هذه المرة كانت في يمينه العصا، سمعته يجعر بصوته ويغطي على صوات مبروكة:

ـــ بقى يا خايب يا بن الخايب عايز تخنق خالك، عايز تقتله وأنا لسة على وش الدنيا، طب علي الحرام ما أنت بايت في الدار.

كنت أود فقط أن أنفذ من الموقف بالخروج حيا، خفت أن يضربني بعصاه فينتهي كل شيء، ساعدني الشيخ عطية على الانفلات من باب الدار وأخذوني عندهم.

قال الجد إبراهيم:

ـــ يخيبك، بقى عايز تخنق برهوم ويأخذوك قصاده؟

قال الشيخ عطية أنه من الأفضل أن يتركوني وحدي لأهدأ، حامدا لله لأن كف جدي لم يطل أذني وإلا لقتلني، بعد ذلك قلت له كل شيء، عن أرض أمي التي كتبوها باسم برهوم، عن أرض جدي التي آلت إلى برهوم حارمين أبي من حقه فيها، عن شغلي في الدار كواحد من الأنفار وبرهوم مرتاح وجدي يأمر فقط ولا يمد يده في شيء فسكت الشيخ عطية وسألني عن مطالبي فقلت بسرعة:

ـــ يكتبوا لي الفدادين بتوع أمي ويجوزوني وأنا أشيلهم على رأسي من فوق.

وسكت الشيخ عطية لكن الجد إبراهيم قال ساخرا:

ـ يجوزوك دا إيه؟ برهوم أكبر منك بكام سنة ولسة.

قلت لنفسي أن برهوم معلول وخائب ولا يصح زواجه إلا بعد أن يسترد عافيته، لو كان برهوم في صحته لضربني، ولو كنت ضربته ما تحمل الضرب، في دارنا يكون العنف سيد الأخلاق، بالعنف سيطر جدي على الدار ودرب عوف بأسره، وبالعنف خوف جماعة شلبي، لو ظللت ساكتا على حقوقي لأكلوني لحما ورموني عظما، برهوم يخافني الآن، والرجل الكبير سوف يعمل لي حسابا من الآن، أن يكون الواحد منا قويا في داره بحيث لا يتوه كأي شيء تافه فهذا هو المطلوب، في اليوم التالي لما دخلت الدار لم أهتم بنظرتهم، واجهتهم بكل ما استطعت من جسارة، دخلت الدار وفي تقديري أنني أما قاتل أو مقتول، لما لحظ جدي أنني لم أعد مهتما بشيء نظر إلي وضحك قائلا:

ـ عشنا وشفنا، ابن حسن عايز يجوز هو كمان، جاتك لهو، على أبوك اللي خيبته محصلتش حد.

قلت:

ـ ما هو اللي يعيش في الدار دي لازم يخيب.

ـ امشي انجر وجع ف رقبتك.

مشيت، من يومها بدأت أدس أنفي في كل أمور الدار، أفتي بما أراه دون أن يسألوني، أحاول إشعار الكل إنني موجود بها، أن لي حقا في هذه الدار وعليهم أن يسلموا به، في وجبات العشاء أدعي الغضب رافضا أكل أصناف لا تروق لي تماما، أفضل الجوع على التسليم هكذا لهم بكل شيء، أجعلهم يعملون حسابي، وإذا جاءني الغذاء على غير هواي أعيده كما هو قائلا لجدتي مبروكة أنني أطفح الدم في الشغل ولا يمكن أن يسعفني أو يسندني غذاء بسيط.

قال برهوم مرة وكان قد جاء يشق على القطن:

ـ يا صالح اعقل بقى وسيبك م اللي في دماغك.

ـ عايز إيه يعني، أفضل كدة شغال من غير أجرة؟ دا ابن شلبي بيقول علي تمللي باشتغل بلقمتي، طب إدوني أجرة زي الغريب.

ـ يا وله اختشي على دمك، الأرض ما هي قصادك أهه، هو أنا شايلها على دماغي؟

ـ أيوه صحيح الأرض قصادي، أنما مكتوبة عليك.

ـ دانت دماغك ناشفة طب روح حملها وشيلها.

قالها وكح بحيث أصبح عسيرا علي أن أتابع الحديث معه، ولما غاب عن نظري قلت لروحي إنهم لن يحسنوا معاملتي إلا إذا ابتعدت عنهم وأحسوا بالحاجة إلي.

قلت لجدي مرة وأنا أضاحكه:

هو أنا مش بقيت راجل قدامك، مستقل بي ليه؟

نظر إلي باستهانة وقال: هم، تابعت كلامي:

ـــ جلال وسلومة من دوري واتجوزوا، تكتبوا لي على زكية بنت الشيخ فضل.

قال وعلى ثغره ابتسامة ساخرة:

ـــ همك ع النسوان من دلوقت زي أبوك؟ طب استنى لما نجوز برهوم.

قلت:

ـــ أنا مالي ببرهوم، هو اللي مش عايز، يعني لو طلب حتقول لأ؟ الواحد يطفش منكم.

زام الرجل مستاء من كلامي فابتعدت عنه بخطوات حذرة متوجسة، أن يكون الإنسان في متناول يد هذا الرجل فهو الموت بعينه، الأولاد في مثل سني لا يضربهم أحد، كان علي أن أحمي نفسي بالحذر، صارت بيني وبين الرجل عداوة غير معلنة، إنما في كل مرة كنت أزوغ منه قبل أن يفكر في ضربي، كنت أقرأ في عينيه وعيدا بأنه لن يترك لي فرصة تتاح له لإذلالي، مرة كنت راجعا من الغيط راكبا الجمل، قابلني عند المصرف القديم وقال متعجبا وآمرا في آن واحد:

ـــ صلاة النبي أحسن، راجع بالجمل فاضي؟ مش هاين عليك تحمله؟

لم أرد عليه فتوقف قبالة الجمل وقال متابعا ما قاله:

ـــ طب نخ الجمل وانزل يا خايب يا بن الخايب.

ظللت في طريقي إلى الدار متجاهلا ما كان يقوله، عندما عاد كنت قد عملت حسابي، وقفت في صحن الدار أنتظر وصوله، الجمل بارك بحمله وفي يدي "شعبة" أتظاهر بأنني أسند بها الغبيط، كان الفأس ناحيتي وفي متناول يدي أيضا، والشيطان يلعب في دماغي لعبة المخاطرة، قلت لنفسي ساعة أن رأيته: لو بدأ بما يوحي أنه يريد ضربي أخبطه قبل أن يخبطني، يقولون إن أبي وعمي اشتركا في ضربه، هو عظمة عجوزة ولن أخافه، كان يمشي ناحيتي على مهل، نظر إلي فوجدني أتحفز، يدي الممسكة بطرف " الشعبة " تسلتها من حلقة الغبيط وطرف عيني يتأكد من وجود الفأس مكانها ناحيتي، نظر إلي متفحصا وكأنه يقيسني ويعرف مدى استعدادي للتمادي في مشوار الشر، ظل منتصبا مكانه دون حركة، في يمينه الشمروخ وفي عينيه مزيج من الرغبة في الضرب والامتناع عنه، وشيء من الحسد أو الكراهية لي يشع ويتوهج فوق الملامح، لوح بيده الخالية وهز رأسه، كدت أن أنهزم في مواجهته، لم يكن الخوف وإنما التذكر أن هذا الرجل هو بنفسه عبد القادر عوف الذي لم ينهزم من أي رجل من رجال الكفر، عبد القادر عوف الذي أحبه أيضا وأكره أفعاله، تماسكت

وظلت عيناه تتفحصان وتجوسان بحرية في كل ما بان مني خلف الجمل البارك بيننا، طالت النظرة المتبادلة بيننا والصمت يمتد لزمن لا أحسبه كان قصيرا، بعدها قال الرجل وهو يسند شمروخه على جانب من جوانب الدار ويلتفت إلي قائلا باستهانة من يعرض نفسه للمواجهة بلا شيء يحميه، عارفا أنه بوجوده المجرد يقدر أن يدفع عن نفسه أشد الأخطار وأقواها:

ــ اسمع يا وله، أنت ما لكش عيش في الدار دي، شوف لك داهية اتلقح فيها من دلوقت أهه، أنت سامع؟ مش عايز أشوف وشك هنا.

قال ذلك ثم استدار يعبث ببعض الأشياء وكأنه يتكبر على الدخول معي في صراع وجها لوجه مستهينا بي إلى حد جعلني أشعر بالضآلة والصغر، لحظات ثم خرج من الدار دون أن يلتفت إلي أو يعاود الحديث معي، قلت لنفسي أنه من الأجدى أن أخرج قبل عودته، إنه لو عاد ووجدني ما تركني لحالي، رجعت أجمع ملابسي في سبت دون أن أرد على "مبروكة" التي كانت تسأل عن وجهتي دون أن تظفر بشيء، لما حاولت هي منعي دفعتها عني وخرجت، وعندما شافني برهوم وحاول إعادتي خلصت ذراعي من قبضته وسرت وحدي إلى سكة البندر، سألت الغباش عن عنوان أبي مدعيا أنني ذاهب لزيارته في المحلة الكبيرة، ركبت القطار ووصلت، أوصلني حنطور ولم يكن أبي هناك، كان في الشركة لكن جدتي لأبي عرفتني ورحبت بي، سألتني عن الأحوال وعن ظروف الكفر، قلت لها إنني جئت لأشتغل في المحلة لأنهم طردوني، قالت إن مبروكة هي سبب كل هذا الضياع، كان علي حجرها طفل صغير، أشارت إليه قائلة: سيد ابن شوق، حكت لي عما حدث من انفصال أبي عن شوق، عن حيرته وارتباكه بالولد والذي ترعاه هي، عن زواج شوق بعد إتمام العدة من ابن عمها، قالت إن أبي تسرع بطلاقها وإنه كان من الواجب أن يصبر من أجل الولد، قالت إنه من العسير أن يظل حيا بسبب أنه لم يرضع لبن أمه بما فيه الكفاية، عن فلوس أبي التي راحت عليه وسفها عبد الستار، كانت حجرة وحيدة فيها سرير وكنبة وعلى أرضها حصير مفروش، عملت لي شايا، قلت لنفسي أن جدتي " مبروكة " حذرتني منها قائلة إنه من الممكن أن تسمني لو أخذت منها شيئا يؤكل، كانت هي تنظر إلي وأنا متردد في شرب الشاي، كأنها فهمت، فأخذته وتذوقته أولا ثم أعادت وضعه في الكوز وصبت كوبين وأخذت واحدا منهما وراحت تشرب قبلي واكتفت بأن وضعت الثاني أمامي، بان أنها فهمت فأسفت لأنني نسيت أنها جدتي هي أيضا وربما تحبني أكثر من مبروكة، قالت إن أعز الولد ولد الولد يا صالح يا بني.

لما جاء أبي قابلني بوجه بشوش خلافا لما كنت أتوقع ما كان يشاع عنه في الدار أنه لو رحت له لرماني في الشارع خلاصا من مشكلاتي، قلت لنفسي أنهم ظلموني طوال هذا العمر وكرهوني في أبي حتى أظل عبدا لهم، وإنهم لما وجدوني واعيا لنفسي طردوني، قلت

لأبي كل شيء من بداية الخلاف بيني وبين برهوم حتى لحظة الرغبة في معاركـــة الرجـــل وضربه، قال أبي متخوفا:

ـــ لا يا صالح، سيدك غشيم ويمكن كان خبطك خبطة تروح فيها، دا ربنا ستر، فاكر أنه خاف منك. دا ما يخافش م الجن، دا قاتل يا صالح.

اغتظت لأنه أنكر علي خوف جدي مني، قلت أنه ما زال يحسب جدي في نفس قوته الأولى وأن الرجل لم يعد كما كان، قال أبي أنه سوف يسعى لتشغيلي في الشركة، قال: كتبوا الأرض لبرهوم عندا في أنا، سكت وأنا أقول لنفسي: لو كنت مكانه ما تركتها أبدا وما هربت، لعن الأرض ومن يبكي عليها.

قائلا:

ـــ يا وارث مين يورثك؟ رزق هنا رزق هناك، وأهي لقمة بنأكلها.

قال إنه استغنى عن الأرض ولم يمت، إنه عاش مستورا وعـــوض عليـــه الله، لكنـــه عندما نظر إلى سيد الراقد على حجر جدته كشر وبدأ غير مرتاح ربما بسبب مرضه، قال إنه لولا عركته مع جدي لجاء إلى الكفر ليراني ويطمئن على أحوالي، قال إنه كان يرســـل إلـــى برهوم رسائل ويتلقى منه رسائل يطمئن فيها على راحتي، وأنه يكره الكفر وناسه ولا ينـــوي الذهاب إليه أبدا بسبب ما حصل له هناك يوم طرده جدي من داره ولعنه وأوشك أن يضربه.

بعد أسبوعين أو ثلاثة جاء أبي ووجهه مخطوفا كأنه هارب من عند الأمـــوات قـــال لجدتي ولي:

ـــ أبويا جه المحلة هو وبرهوم.

قلت وأنا استكثر عليه خوفه الزائد:

ـــ وإيه يعني، ما ييجوا ح يعملوا إيه:

قال:

ـــ دا راجل شرس وطبعه غلس يا صالح.

قلت متذكرا وقفتي قبالته غير مهتم به:

ـــ غلس على روحه، يعني حيقطع الرقابي.

ـــ أنا كلمت نفرين م البلد يحضروا وياه.

كان واضحا أنه خائف بشكل زائد، لم يعجبني خوفه عرفت أنه عاجز عن حماية نفسه من رجل عجوز وأنه عاجز بالقطع عن حمايتي: أن حياته في المدن جعلته يعمل حســـابا لأي شيء أكثر مما يستحق، إن ناس المدن يخافون من خيالهم ولا يقدرون على مواجهة أحـــد، إن أبي القديم واجه هذا الرجل وهو في عز أيامه لكنه اليوم يخشاه وكان من الواجب ألا يعمل له حسابا، قال هو:

ـــ أنا حبقى أسألك قصادهم: عايز تعيش هنا ولا تسافر البلد، لجل يروحوا من غير مشاكل.

قلت أنه يخاف على روحه ويصدرني أنا لمواجهتهم. وأنني ما عدت أخشاهم حتى لو أخذوا روحي، وعرفت في هذه الساعة أن جدي رغم كبر سنه أكثر رجولة من أبي وأنه علمني الجسارة وعدم الخشية بينما يعلمني أبي الخوف والرعب من أول تجربة، في أول موقف جاء يرتعد وكأنه داخل على جهنم.

عندما جاء جدي وبرهوم والضيفان كان أبي مخطوف الوجه مرعوش الكلمات، مخنوقا بحبل خفي جعله يتهته في حيرة وينظر إلى الضيفين وكأنه يستمد منهما الحماية، سألني أحدهما إن كنت أرغب في السفر إلى الكفر فقلت: لا، قام برهوم وضربني كفا هزيلا على صدغي وأنا ساكت أنظر إلى أبي وأنتظر رده لكنه قال في حذر:

ـــ مالكش حق يا برهوم، هو عمل إيه بس.

جعجع جدي كثيرا لكنني لم أهتم به، ظللت ساكتا بلا جواب. خرج الضيوف وبقينا وحدنا، أنا وأبي وجدي وبرهوم، أخرج برهوم عقد بيع أطيان وناوله لي، قرأت فيه أن ميراث أمي أصبح لي بيع وشراء قلت لنفسي: فرجت، الآن اعترفتم بوجودي، قال جدي وكأنه يصالحني بالكلمات الجافة:

ـــ وشرطنا لك يا هبل يا ابن الكلب على زكية، وإن مامشيتش أقل من ذلك ح نقطم رقبتك.

أخذت أبي خارج الحجرة، أفهمته أنني أفضل العودة لأنهم سلموا بما طلبت وأنهم سوف يغيرون معاملتهم معي، خاف أبي من أن يكون في الأمر خدعة فطمأنته أنني لو ظللت أشتغل هنا طوال عمري ما ادخرت ثمن فدان واحدا وأن ما أطوله أحسن من حبات عيونهم.

كان أبي غير راض عن ذلك الرأي، بان في عينيه شيء من الكراهية لي والذعر منهم، قال لجدي وهو مستسلم تماما:

ـــ ما دام يرتاح هو حر.

قلت لنفسي أنه أسلمني لهم دون أن يجعلني عزيزا، وكان من الواجب أن يتظاهر بأنه سوف يصر على بقائي ليعرفوا أن لي أبا يدافع عني ويفتح لي بيته في أي وقت، صحيح أن عودتي إليه ربما لا تحدث إنما كان الواجب أن يجعلني عزيزا عليهم قدر الإمكان ولو بالكلام.

لما قمنا للسفر لبس بنطلونه الأصفر وسترته الصفراء فبدا لي كحاجب المحكمة أو فراش المآتم، يحمل سبتا وضع فيه بعض الفواكه وقمع السكر وقطع الصابون ويمشي خلف جدي وكأنه تابع راض عن تبعيته، رفض جدي أخذ السلال منه إنما برهوم أشار إلي بأخذه ولا أعرف إن كان من باب عدم إحراج أبي أو أنه جعلني آخذه لنستفيد به، وفي القطار قال

جدي عنه أنه أهبل وأنهم ضحكوا عليه وأخذوا ماله وصرفوه ثم أخذوا منه شوق أيضا وأنـــه سيظل طوال عمره سواحا في بلاد الغربة. وأنه سيظل تائها إلى أن يموت في الغربـــة لأنـــه اختار ذلك ورضى به جاهلا كيف يطالب بحق من حقوقه في هذه الأيام التي لا يعيش فيها إلا الأقوياء القادرون على أخذ حقوقهم وحمايتها.

وأصبح لي في الدار حسا بعد ما كنت موجودا كعدمي، شعرت بأن لي سعرا بعد مـــا كنت بلا سعر، عندما باعوا القطن جهزوا المندرة الصغيرة ودخلت على زكية، عرفت يومها أن جدي أحسن لي من أبي، سايرت الرجل الكبير ففتح لي قلبه وعاملني بالحسنى، لـــم يعـــد ينظر إلي تلك النظرة القديمة على أنني مجرد صبي بلا أهمية، صرت في عينيه رجـــلا لـــه رأي في الزرع والحصاد ونظام الدار، بدأت أحتل عنده مكان برهوم، كان برهوم يزداد ضعفا وإصرارا على الفساد، الحشيش والحريم والسهر دون حد معقول، كان الصراع قد بـــدأ بينـــه وبين الرجل الكبير بسبب علاقات برهوم المشينة مع مقاطيع الكفر وسهراته غير المناسبة في دور مشبوهة، كان إسرافه يزداد وتتكاثر حوله الأقاويل وكلما نصحه جدي بالاســـتقامة هـــز دماغه وسكت استهانة بالرجل أو أطال لسانه وشتمه والرجل صابر عليه ومتحامل على نفسه مراعيا ضعفه البين، لما كان ينفرد بي كان يبدي غضبه عليه وكثيرا ما كان يطلب من الله أن يكون أجله قصيرا، كان برهوم عندما يحتاج إلى الأموال يبيع ما يطوله، البهائم والمحاصـــيل ويرهن الأرض، واستمر حاله على هذا النحو حتى جاء اليوم الذي رقد فيـــه عـــاجزا عـــن الحركة متهالكا منهارا على نفسه، ظل قرابة الشهر وجدي رافض حتى أن يوجه إليه أي كلام أو يدخل عليه حيث يرقد بعلته التي حولته إلى عود حطب أصفر وهش إلـــى حـــد مؤســـف، عندما دخل عليه للمرة الأولى لم يتبادل معه كلمة، نظر إليه مليا وظل مصلوبا في وقفته ينظر إليه ويتسمع صوت أنفاسه المتلاحقة المنهارة. في المرة التالية جلس جوار فراشـــه وزاغـــت عيناه وهو يهمس في لوم:

ـــ بقى كدة يا برهوم، تعمل ف روحك كدة؟

طالت رقدته وفقدنا الأمل في أن يعود كما كان، كل ما طلبه كنا نجيبه إليه وكأنه كان معروفا لكل من بالدار أنه ضيف راحل عنا في غد قريب وعلينا إكرامه، لما طلب أن يـــرى أبي سافرت إليه المحلة وعرفته بأن خالي صحته متأخرة ويطلبه. قلت له إن الحكيم قـــرر أن أيامه في الدنيا قليلة، عندما دخل عليه أبي كان وجهه أكثر احتقانا وزرقة، شاف أبي بالعينين وربما لم يدرك بالعقل أنه أبي، لما أفاق مد يده إلى أبي وأمسك يده وكلمه عن الأرض، عـــن ضرورة عودته إليها مهما كانت الظروف، قال لجدي أنه لن يرتاح إلا إذا عاش أبي في داره وأن الدنيا لم تدم لأحد والأرض خابت لأنهم ظلموه، لعن أمه الواقفة وقال إنها السبب في كل شيء سيئ بعدها لم يتكلم كلاما موزونا، كان يخرف وسطنا وروحه تأبى أن تخرج بهـــدوء،

ومرت الأيام الثلاث التي غاب فيها عن وعيه وجاءت اللحظة التي خرج فيها السر الإلهــي، كانت مبروكة تصوت وأبي واقف والدموع تتساقط من عينيه متلاحقة وكأنه " حرمة " عاجزة عن السيطرة على عينيها، وجدي جامد الوجه والبدن كصخرة لا تهزها الأحــداث وعينـــاه لا تطرفان، نظرته ساهمة مفجوعة إنما صلبة، وحتى عندما انسالت الدموع من عينيه غصبا لــم ترف عيناه وكأنه يتأبى الاعتراف بالدموع ويرفضها أما أبي فكان يندب ويهز البــدن الراقــد ولعابه يسيل على شدقيه كأنه مجنون، قلت لنفسي: إنه من الممكن أن يكون كل هــذا مجــرد افتعال مصنوع أثر ما قاله برهوم عن الأرض وضرورة أن تعود الميـــاه لمجاريهـــا، أي أن يعود أبي إلى الدار والأرض التي لعنها، أن يرث الأرض التي تركها كـــل هــذه الســنوات ويشاركني ابنه من شوق في الميراث، سألت روحي إن كان يستحق وكنـــت أحســـب أنــــه لا يستحق في أرضنا شبرا لأنه فاتها وكأنها لا تستحق اهتمامه واستماتته من أجل شبر منها ربما يبيعها ويصرف ثمنها على الحريم، "روحية" الثالثة بعد أمي وشوق تبدو حويطـــة وغويطـــة، تضيع الأرض لقاء بعض الدموع والكلمات المحبوكة، ووصية رجل فاقد لوعيه وغارق فـــي حمى المرض حتى شعر رأسه، لما كان في وعيه لم يفكر إلا في نفسه.

قالت مبروكة وعلى رأسها طين تيبس وعلى وجهها حسرة:

ــ شمتوا الحبايب والعدا فيك يا جدع، مين يسقي غيطك يا جدع، قولوا لأبوه مـــالوش ولد، قولوا ما عادلوش سند، راح الولد، راح السند والدار خراب بعد الولد.

كانت تندب وكان أبي مدهوشا من الكلام الذي يعني بالنســبة لـــه الكثيــر، إنكـــاره والتشكيك في وجوده، وجدي ساهم وكأن ما يدور حوله لا يخصه، في الخميس الأول وزعنـــا الرحمة بكثرة على المقرئين والطالبين حتى فاضت، قالت النسوة لجدتي مبروكة التي شـــالت سبتا فيه بقايا الرحمة في اتجاه الدار أن دخولها الدار ببقايا الرحمة لا يبشر بخير فربما يعنـــي موت واحد من رجالها، زوجها أو ابن بنتها لكنها بدت كما لو كانت قد تعمدت أن تدخل الدار بشيء منها، عندما فقدت ابنها لم تعد تهتم بشيء، لو مات رجال الكفر ما هزها أو حرك فيها شعرة، أعطت أبي حفنة تمر من سبت الرحمة، لم يكن قد فكر أنها تمنحها إياه ليأكلها فوضعها جانبا، أمسكته من خناقه وراحت تصرخ:

ــ خايف على عمرك يا حسن، خايف م الموت يا ضنايا؟ عايز تورث يـــا خويـــا ف الغالي، عايز تضيع الأرض على النسوان؟

كان أبي محتارا وعاجزا عن الجواب، لم يكن يتوقع منها عراكا في مثل هذا اليـــوم، في صباح اليوم التالي سافر أبي بعد أن عارك جدي ومبروكة، خرج من الدار غاضبا، قالـــت مبروكة إنه كان ينوي بيع الأرض وصرف ثمنها على الحريم، قالت إن خراب الدار سيحل لو بقى في الدار وأنه لو ورث زمام الكفر لضيعه، استشهدت بزواجه الثالث من روحية وإمكانية

أن يخلف منها هي الأخرى في أجل قريب، أشارت على جدي بأن يكتب الأرض باسمي لكنه كان تائها وغارقا في همومه لدرجة جعلته عاجزا عن الموافقة أو المعارضة.

آخر مرة شفت فيها سيد مصادفة، كان عند الكوبري مع سعاد بنت شلبي، أخته من شوق، قال وهو يداري خجله إنه فات على الدار ولما لم يجدني ترك سلاما وخرج، عرفت أنه ينتظر عربة يركبها في طريقه إلى مصر، هكذا دائما نراه صدفة أو يأتي ليطل علينا ويسرع بالسفر ولما تكون الأجازة طويلة لا نراه، نسمع أخباره من الناس، أحس بالعار من بقائه عند أمه وعدم التفكير في المجيء، في كل مرة يقول إنه ينوي المجيء إلينا مخصوص، هو حر، وهل مجيئه يفيدنا في شيء، وهل طالبناه بشيء ليتهرب منا على هذه الصورة، لا يربكني في الأمر إلا كلام الناس، الناس لا تترك الواحد في حاله، أن يزور أمه شيء لا عيب فيه، إنما العيب أن يجعل دار جماعة شلبي مرساة فيها يبيت ويبقى وإن زارنا فمن باب المجاملة وأداء الواجب في الكفر.

أحس بالحرج من كلام الناس، يسألوني عنه وكأنهم يعايروني بوضعه، كأنني مسئول عن تصرفاته، هو حر، دارنا مفتوحة إنما لا يمكن أن أجبره على شيء، علموه في المدارس أن ينسى الأصول، أن ينزل كفر عسكر دون أن يدخل دار جده عبد القادر إلا من باب أداء الواجب، كأنه من جماعة شلبي، يجهل ما يقال عنه، أبي نفسه لا يرتاح لدخوله دارهم، شاكر دائما معه، ما أن ينزل الكفر حتى أسمع أخباره مع شاكر، كان مع شاكر في السوق كان مع شاكر في الدار، كان مع شاكر في مندرة شلبي.

أخذني سيد من يدي وابتعد عن أخت شاكر، همس في أذني سائلا:

ـ شفت أبوك يا صالح؟

قلت وأنا أشعر بحرج لأنني وعدته بزيارته ولم أذهب إليه.

ـ والله يا سي سيد انشغلت في الأرض ومملكتش أروح.

ـ طب يا صالح، بس ابقى روح شوفه، لما أكون غايب تكون أنت مكاني، عايز أعرف أخباره منك.

قلت لنفسي أنني أذهب إليه فأجده ملويا بدون أسباب، وأنه يجعلني أشعر أنه غريب عني، يقوم بواجبات الضيافة وكأنني غريب عنه، لا أشعر أنني في دار أبي، أخرج بعاري ولا أجد مبررا لمعاودة زيارته، بعد كل محاولاتي معه أن يأتي ليعيش في الكفر لم أجد لديه إلا الرفض، الرفض ليس من أجل شيء إلا إشعاري بأنه يرفضني أنا، يرفض الاعتراف بأنني ابنه، كلما حاولت الاقتراب منه ابتعد وكلما حاولت الابتعاد عن سيد اقترب، قال سيد:

ـ إيه سرحان ف إيه يا صالح؟

ـ ولا حاجة، ما أنا كنت مستني نروحله سوا.

ضحك وسلم ولما طلبت منه أن أوصله شكرني وقال إنه لا لزوم للتعب وأشار إلى البنت، في الدار وجدت زكية وسط البنات لما شافتني قامت وتبعتني إلى المندرة، قالت:

ــ أخوك سيد كان هنا، بص وهو واقف ومشي مع أخته الصغيرة، بيقول مسافر بيها مصر.

ــ قلت:

ــ شفته.

قالت:

ــ هو عامل كده ليه؟ وأنا بقيت ف نص هدومي م الخلق. ده مرضيش حتى يقعد يشرب كباية الشاي.

أضافت:

ــ الواحد بقى ف نص هدومه من عمايله، دا الغريب يراعي كلام الناس، ومحمد ابنك مسك فيه ما فيش فايدة.

قلت لنفسي إنه عرانا من كل ما سترنا أمام الناس، أنه لو كف عن المجيء إلى الكفر يكون أحسن، قلت لنفسي أنه حر وأنني لن أطلبه بلساني، لن أحاسبه على أفعاله ويكفي أن يحاسب هو نفسه فليس جاهلا، كل مرة يعد فيها ولا ينفذ وعده. ربما لا يجدني من مقامه، مقامه ابن شلبي الذي خاب من المدارس أما أنا فمهما كنت في نظره فلاح، مرة قال وهو يضحك:

ــ والأجازة الجاية أقعد عندكم لحد ما تزهقوا مني.

من علمه أن الأخ يزهق من أخيه، صحيح لسنا من أم واحدة إنما الأم ماعون، المهم العصب، سيد قلب الآية، اهتم بأخوته من الأم وأهمل أخيه من العصب، ربما كان أبي هو الذي أوصاه بذلك، إنما الرجل لا يرتاح لدخوله دار شلبي، لو عاش أيام أجازته معنا يقطع ألسنة الناس، هو يدخل الدار كالخيال ثم يخرج حتى في المرات القليلة التي يبقى فيها ليلة أو ليلتين يجعلنا نتعلق به ثم يهرب، كلما حاولت الإمساك به يهرب، كأنه خيال أو وهم أشعر بالراحة لما يأتي، أمشي معه مرتاحا ورافعا رأسي أمام الناس " ها هو سيد حسن عوف يا كفر عسكر، ابن من تاه في بلاده الغربة، ابن حسن الذي عايرتوني به طوال عمري، هو أخي، أفندي مصروف عليه ثقله، دخل المدارس والجامعة وأصبح أستاذ بحق، له وزن وهيئة وقيمة ومقام، سيد أخي يا كفر عسكر فهل فيكم من يقدر على إنكار أن جماعة عوف فيها أساتذة يفوقون أولاد شلبي. حتى سيد الذي خرج أبوه من الكفر بلا شيء رباه وعلمه وأصبح كما ترون".

لو لم يكن الماضي منصوبا بيني وبين أبي، لو لم يكن الرجل صلب الـرأس عنيـدا لأصبحنا أحسن دار في درب الحاج عوف، سنوات ويتم عبد القادر تعليمه ويلحقه محـروس، سنوات وتصبح دارنا مزحومة بالأفندية، أحسن من دار العمدة، إنما أبي لا يسمع الكلام، سيد قال له مرة: انسوا الماضي وابدأوا من جديد، كان يرغب في تصفية الجو، قلت لنفسي ساعتها إنني مستعد لذلك بل إنني كنت لا أحلم بغير ذلك، إنما أبي كان يلوح لي بما جرى، يـذكرني بغلطتي الوحيدة ويلوح لي بالأيام التي كنت فيها في نصف وعي، أعود مرة أخرى، راجعـا من أمنيات نسجتها إلى حقيقة ما يدور حولي، ها هو أبي يرفضـني بإصـرار، يـرفض أن يصدقني، وأخي يحاول جهده أن يردم على الماضي، لو كان أبي وحده لما عاملته، فـي كـل مرة يسترجعني إلى الأيام القديمة، يجرني لأتكلم بمنطقها، يفسد كل شيء بفتح جرحنا القـديم المشترك، الأرض ميراث كان له وأخذته فماذا يهمه، جدي عبد القادر أعطاه لي، حتى ولـو كنت أخذته بالزور فهل أنا غريب، أرض عبد القادر عوف وأنا ابن ابنه.

لما كنت أحاول توضيح الأمر لسيد يطلب مني السكوت لم يكن يرغـب فـي سـماع حكاية الأرض، كنت أعرف أنه سمعها مني أكثر من مرة لكنني كنت أشعر بأنه من اللازم أو أؤكد له ما جرى، أن أوضح له أن أبي يفهم وأنه يحكي على هواه، يدعي أنني أخذتها بالزور بوضع اليد، أحيانا كنت أقول لنفسي أنه لا يصدقني، أنه يتظاهر بتصديقي ليرتاح، أنه لو كان يصدقني لجعلني سره ولجعل داري مقره، ربما يرتاب في أمري، الناس في كفر عسـكر، لا يكفون عن الثرثرة، ربما أفهموه أن له في الأرض نصيب، لو كان له حق ما منعته، أي حـق وهو الآن موظف له مرتب شهري وهو ما زال بطوله، الناس في الكفر بارعون فـي إفسـاد الجو، المظهر لا يهم، مظهره لا عيب فيه إنما هل أعرف ما في قلبه؟ الأمور الخفية خفية ولا يعلمها إلا الله، كلام الناس عنه كثير، مرة قال لي نفر:

ـــ دا أخوك سيد ده ناب أزرق.

خفت ساعتها وسألته عما يقصد لكنه لم يوضح أكثر من هذا، جعلني أشك فيه، أخاف منه، ربما يأتي ليعرف أسراري. ربما يدبر لي مكيدة، إنما كيف أصدق كلام الخلق عنه، لـو كان يسر إلي بما يسمع عني، يوهموه أنني أخذت نصيبه بأخذي الأرض وحدي، وهل كنـت أرفض أخذها وهي جزء من حياتي، بها أعيش وعلى خيرها أربي الأولاد، بامتلاكها يكون لي في الكفر سعر، من غيرها أصبح بلا قيمة، هكذا وجدتني مقطوعا لها ومربوطا إليها، لملمتها قيراطا على قيراط، ففككت رهونها وسددت ديونها التي خلفها برهوم، هي بالنسبة لأمثال سيد تعني مبالغ قابلة للضياع والصرف، من يعرف إن كان مستقيما في معيشته في مصر أم إنـه فاسد جاء يبحث عن حق قديم أصبح لا يخصه، ما له بي ولماذا أخشاه ولا أرتاح لـه تمـام الارتياح، ربما بسبب الأرض، خوفي على الأرض وعلى مستقبل الأولاد يزرع الشـك فـي

قلبي، لما طلبت منه أن يعود أبي إلى الكفر وافقني بسرعة، كأنها فكرته ونيته المبيتة، أخذني إليه بعد انقطع حبل الوداد بيننا لسنوات طويلة والرجل لم يوافق، عندما زرته في المولد قال إن سيد فاسد وإن سيره لا يعجبه، قالت امرأته الجديدة إنه لا يهتم بها كما كان يفعل، إنه لم يعد يدفع لهم شيئا، ومرة قال لي نفر من الكفر:

ــ دا سي سيد أخوك داير على حل شعره ف مصر، ابن خالي راح شقته لقى فيها واحدة ست وحلف أنه شافه سكران، دا كافر.

أمسكته من زنده وقلت ساعتها:

ــ ورأس سيدي عبد القادر لو كلمة طلعت من حنكك ليكون بحش أجلك، حسك عينك تتكلم عليه قصادي.

يومها كنت أشعر أنه من الواجب علي أن أحميه من كلام الناس، لم يكن أول من يكلمني عن سيد مثل هذه الأشياء، يشرب الخمر، يعاشر النسوة، لا يصلي، صحيح إنني لا أصلي إلا في المناسبات وأنا حامل كتاب الله، إنما هو لا يصلي حتى أيام الجمع رغم أنه لما ينزل الكفر يكون محطا للأنظار، يحسبون عليه خطواته، ربما تؤكد شكوكهم فيه أحاديث الناس عنه، يكونوا في حالهم، يصلي أو لا يصلي فهو أمر لا يخصهم، يحاسبون الناس ولا يحاسبون أنفسهم، يأمرون الناس بالمعروف وينسون أنفسهم، كفرنا غارق في الذنوب، الخير فيه قليل والشر زائد، حريم الكفر يتظاهرون بالعفة وفي الدور تسترهن الجدران وفي الحقول تسترهن أعواد الذرة وعتمة الأمسيات، أكثر من دار معروفة يلعب فيها رجال الكفر القمار ويتباهون بالسهرات، مقاطيع الكفر يتكاثرون ولصوصه يتزايدون، دار شفيقة ودار زبيدة وعدلات أوكار للفساد، القمار والحشيش وأحيانا راحة الرجال في أحضان النسوة، مالهم بنا، جدي عبد القادر كان يصلي في الأعياد وقلما كان يصلي في أيام الجمع فهل كفر هو الآخر ﴿**إنك لن تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء**﴾ وكما يقال إن الله أدرى بما تخفي الصدور، وأنا هل يقال عني بالمثل إنني كفرت، هل يكفر الواحد لو كف عن أداء فرض الله؟ الصلاة عماد الدين وأنا حامل لكتاب الله ومن نسل الحسين فهل سقطت عني الصلاة؟ أليس الله غني عني وعن صلاتي وصيامي، ربما كنت عاصيا وربما كنا نسل شياطين وحكاية نسل الحسين خدعة اخترعها جدنا الكبير ليداري بها خفاياه، بنى الجامع والزاوية وانشغل في أمور الدنيا. والحشيش هل هو حرام مثل الخمر؟ ولو كان حراما فكيف يسمح الشيخ مرعي لنفسه بتدخينه؟ كلها أمور خفية، أعرف أن الله غفور رحيم، كلما فكرت في هذه الأمور يخف عقلي، أوشك أن أتوه عن الدنيا، أن استرسل في هذا التفكير حتى أشرف على الضياع التام في منطقة بين الكفر والإيمان فأهرب بنفسي مستعيذا بالله من الشيطان الرجيم قارئا ﴿ **قل أعوذ برب**

الناس* ملك الناس إله الناس * من شر الوسواس الخناس * الذي يوسوس في صدور الناس * من الجنة والناس ﴾.

بعد موت برهوم زادت هموم الدار، حامت حولها الغربان وعشش الغم في الجدران، تحولت الدار إلى المندرة تتلقى فيها العزاء طوال النهار وجزء طويل من الليل، داستها نعال الخلق والعدو والحبيب، انكشف ما كان مستورا، حتى أولاد شلبي جاءوا لم يتخلف منهم نفر، توافد الناس على مدار الأيام وانهدت قوانا من تلقي العزاء، أحيانا يسألون عن أبي ويستنكرون غيابه عن الدار في مثل هذه الظروف وجدي ذاهل عما يدور حوله، كلما جاءه وافد يعزيه تنحدر من عينيه الدموع، تتزايد عندما يذكرونه بأبي، وشاعت في الكفر حكايتنا " عبد القادر عوف بكى يا رجال، راحت الجسارة وخفت الصوت العنيف وحل السكون المهموم على ملامح الرجل الكبير "في أول الأمر لم يكن من السهل أن أكلمه في شيء، كنت محطوطا في جو الغم ومغمورا بفعله، تهت في زحمة الأنفار وذابت كلماتي وسط الهمهمات، ولما لاحظت حمرة العينين في اليوم العاشر قلت له: ارحم نفسك، فنظر إلي وبكى بحرقة، قلت: الأعمار بيد الله فانسالت الدموع، لم يكف أبدا، ظل يبكي بلا صوت، أنصاف الكلمات التي تخرج من بين شفتيه جعلته يبد مختلفا تمام الاختلاف، وكأنما أصبح الرجل فرجة لكل من يراه، قلت لنفسي أن من يأتون لا يأتون من أجل العزاء وإنما لرؤية الرجل في وضعه الجديد، إن الدموع التي عزت عليه طوال العمر جعلتهم يأتون، خزين عمر الرجل من الدموع ينسال ويزيح عن وجهه كل أمارات القوة والقدرة القديمة، يشيخ هكذا ويبين عليه الكبر الذي دارته القوة أعواما بطولها. لو يكف الرجال والنساء عن المجيء ربما تخف الأحزان، لو كفوا عن ذكر برهوم ربما تروق عينا الرجل وينتبه لنفسه مرة أخرى، لكنهم داوموا على المجيء وشاركوا في الأحزان بالمظهر بينما يرقبون الرجل بالعينين كل معز بدوره، وعندما تغلبني الأحزان أتوارى بعيدا عن الخلق حتى لا تتم المهزلة ويلمحوا دموع الحسرة على ما صرنا إليه، جدتي مبروكة تتصدر مجلس الحريم، تنصب المندبة وتسبق الندابة في النواح والتعديد على برهوم، تلطم الخدين.

قال الجد إبراهيم لأخيه: فوق لروحك يا عبد القادر. شوف أحوالك الأربعين فات ولا لزوم للاستمرار في الأحزان.

كان جدي يتسمع والدموع تتساقط على لحيته التي تركها تطول فبانت الشعرات البيضاء أكثر من السوداء مؤكدة أنه شاب، كان صوته المنهوك مصحوبا ببحة غريبة تخرج من الكلمات المتقطعة فتجعلها غير مفهومة وغريبة على الآذان، وعوده ربما كان هو إنما انحنى واستسلم لانحناءة لم يكن معتادا عليها، وأسأل إن كان قد انحنى بسبب برهوم الذي لم يتوقع موته بمثل هذه السرعة أم أنه انحنى ليزيد فينا شماتة الأحياء؟

أصبحت دارنا خرابا وجفت الأشواق، حتى المواشي جفت وما عادت تـدر الحليـب، وكرم البلح لم يطرح وكأنه عاندنا هو الآخر، وكلما نزلت إلى الأرض حسبتها أكثـر سـوادا وغلظة، كأنها اسودت بالحزن هي الأخرى على ما صار، جفت ليس فقط لانشغالنا عنها بـل أيضا لأنها شاركتنا حزن الدار، والطين المتيبس فوق غطاء رأس جدتي المشدود على جبهتها بالطرحة السوداء أصبح علامة لها تتوج به نفسها وكأنها تقول لكل الناس إن النهاية المحتومة لأمثالها لا يمكن أن تنتهي إلا بتاج الطين، رفضت أن تزيله لما طلبت منها زكيـة أن تفعـل، رفضت أن تستحم، قالت بتصميم لا يقبل النقاش: في الميعاد. حسمت أمرها على أن يسـتمر الحزن عاما بطوله.

وكان علينا أن نحتمل، حتى لما ولدت زكية لم نشعر بغير العار فالطفلة التي كانـت تجعل للدار حسا أصبحت هي الأخرى غريبة في مجالس الهم المتكررة، والولد الصغير كـان يحس بها يجري في الدار فيخرج إلى الغيطان، يسرح بالمواشي أو يلعب بعيدا ونسأل عنه فلا نجده، كانت مبروكة هي صانعة الحزن وهي التي فرضته على الدار فرضا، كأنهـا باركـت حزن جدي ودموعه وجرته جرا لأن يستمر كل هذا الزمن وانقاد الرجل لها وسبقها، والشهور تمر وئيدة متأنية والعام لا يود أن يكتمل لينزاح عن الدار كابوس الهم المعشش، كانت عينـاه تزدادان احمرارا رغم أنه أصبح عاجزا حتى عن إفراز الدموع، نضب خـزين عمـره فـي الشهور القليلة وما عاد له إلا الصوت المغموم المقهور علامة تميزه عن كل الأصوات، وكلما ذكروا له اسم برهوم انسالت دمعة أو دمعتان بعسر شديد وتحولت حدقتي العينين إلى جمرتين ملتهبتين.

كان الولد مصطفى يرمح في صحن الدار وشافه الرجل، قال وهو يمسك عينه اليمنى بيده:

ــ بعد عني يا وله: طرفت عيني.

جاءت زكية لإبعاد الولد، قال هو:

ــ سيبيه يا بت، دا مش هو، دي حاجة كدة دخلت عيني وبتلهلب.

نظرت هي إلى عينه وبحثت عن شيء فلم تجد، إنما في نفس الليلة، بعد أذان المغرب قال:

ــ ما تولعوا يا ولاد.

كانت اللمبة تنير صحن الدار، عيناه تلمعان وتعكسان بريقها وسط الحمرة التي شملت بياض العينين فبانتا عينا ذئب جريح، قلت له أن اللمبة مشتعلة قال جادا.

ــ وبتكذب علي يا بن الكلب.

قامت جدتي مبروكة من مقعدها واتجهت إليه، نظرت إلى حبات عينيه وخبطت صدرها بيمينها قائلة:

ـــ مالك يا عبد القادر يا خويا؟ إوعى تكون انعميت.

كانت أول مرة أسمع فيها أو أفكر في عماه، لم يخطر ببالي إنما الكلمة رجتني فاهتزت يدي القابضة على كوب الشاي وسقط على الجلباب، اقتربت منه فوجدته يطل إلينا من خلال عينين مفتوحتين عن آخرهما إنما لا تطرفان، لم أصدق أنه أصيب بالعمى هكذا مرة واحدة، رفضت ما سمعته قلت وكأنني أدفع عنه العمى بالإنكار:

ـــ يا ولية اخرسي كدة بلا تلطيش.

لم يحرك جفنيه، ظلت العينان تلمعان في ضوء اللمبة ولا تتحركان، ظللت واقفا قبالته حاملا في يدي اللمبة وفكرت في شراء مرهم أو قطرة نداويه بها، بعثت إلى صبحي الحلاق فجاء، ترك لنا زجاجة قطرة حمراء في الصباح كانت العينان كما هما، صوتت مبروكة في وجهي:

ـــ سيدك انعمى يا صالح، سيدك انعمى.

كان الصوت كئيبا ومخيفا وحاسما في آن واحد، صوت واثق لا يقبل النقاش، كأنما تراهن على صدق ما تقول على حساب نور عينيه، أبعدتها عني قائلا:

ـــ انكتمي يا ولية.

لكنها ظلت تؤكد وتؤكد وتسرد الحكايات عمن فقدوا النظر في ظروف مشابهة أثر ضياع الولد أو الأخ، وحتى لما كان صبحي الحلاق يضع له المرهم كانت تصوت:

ـــ خلاص يا عبد القادر، خلاص يا خويا، انعميت، وقعدت زي البسيوني وأم إبراهيم؟

وهو جالس في مقعده لا يتحرك ولا ينطق بحرف، كأنه أسلم نفسه لها أو عاش في عالم غير عالمنا، بهدوء رهيب وتقاطيع صارمة لا تلقى أدنى اهتمام بما يدور، كأنما اللسان توقف هو الآخر أو تأكد من لا جدوى الكلام، وكأنما الأذنان كفتا عن السماع، البدن كله قاعد في اعتدال لا يكتمل بفعل الانحناءة التي أصابته مؤخرا. فجعلت منظره كله يبعث على الإشفاق، للمرة الأولى منذ فتحت عيوني لأراه أشعر ناحيته بالإشفاق، طوال عمري لا أشعر بغير الخوف منه ومن قوته، وحتى يوم واجهته كنت أتخوف منه وأتوقع حذرا أن ينالني بأذى، كان الإشفاق أمرا جديدا لم أعمل حسابه، جديدا على الوجه الصارم والبدن الواثق الذي عرفته كل عمري، ولم أكن راضيا بتصديق شيء. كل ما وصفوه عملناه ولم يثمر، ولما جاء الحكيم من البندر لم يفلح علاجه، قلت نذهب به إلى حكيم مشهور في مصر، يومها قال لي:

ـــ ابقى امشي جنبي يا صالح ومتخليش حد يلاحظ.

ومشيت جنبه حتى ركبنا وأنا أحس أن كل العيون تنصب علينا مؤكدة أنها تعرف الحكاية، والحكيم في مصر همس في أذني بأن الأمل ضعيف فهززت الرأس وعدت به إلى الكفر وسط عيون مستطلعة عارفة وهمسات شامتة أو مدهوشة أو محزونة على الرجل، على عبد القادر عوف سيد رجال كفر عسكر. "لم تنفعك الدموع الذي مات ارتاح في مرقده، وأنت ما زلت تدب الأرض بالقدمين العفيتين إنما لا ترى عدوا أو حبيبا، قتلت فيك القدرة أحزان، كانت بلا معنى ولم تكن تليق بك يا سيد الرجال، ربما استرسلت في البكاء حزنا على دموعك فبكيت، استرسلت في إفراز الدموع بعدما سقطت غصبا عنك دموع، بكيت انهزامك أمام الموت لما عجزت معك الحياة، ربما لأنك تذكرت وحدتك في نهاية الأمر بعد موت برهوم وموت عبد الحميد قبله وابتعاد حسن، تذكرت وحدتك وسط أخوة تتزايد خلفتهم وأنت وحدك تتناقص أنفاس الخلفة في دارك".

في التاريخ الذي حدده الحكيم أخذته وذهبنا، بلسانه قال إن الأمل ضعيف ورغم ذلك دفعنا له ما طلبه ثمنا لإجراء العملية على أمل أن يعود إليه البصر الضائع، ولم تثمر الأحلام، عاد كما كان كفيف البصر مجروح المشاعر، جلس على دكة النورج وسط الدار، كف عن الكلام إلا الضروري منه، ولما شكوت له الحال وعدم أمانة الأنفار قال بانفعال:

ــ روح لأبوك يا صالح، هاته يسندك في الغيط والدار.

قالت مبروكة:

ــ خللي أبوه في حاله، هو فاضي إلا للنسوان.

ولأول مرة يحتد الرجل بعد عماه، طوح عصاه ناحية الصوت وتعثر في خطواته ناحيتها، كان يلعنها بتصميم وكراهية:

ــ اخرسي يا بنت المراكيب، يا صنف واطي، حد سألك يا مسحوبة من لسانك.

أجلسناه غصبا وحاولنا تهدئته لكنه لم يهدأ، ظل يرمي عليها مسئولية خراب الدار وتشتيت أولاده وحتى أبي الذي لم يكن راضيا عليه في أغلب الأحوال بدا راضيا عنه كل الرضى ناسيا أخطاءه وتركه للدار، لائما جدتي مبروكة وجاعلا منها السبب الأوحد متلمسا له أعذارا جديدة، قلت لنفسي إنه لما فقد برهوم راجع نفسه فقرر أن يتشبث بوجود أبي ردا على ما كانت تقوله مبروكة من أنه فقد الولد وأصبح بلا سند، قال وهو محتقن الوجه:

ــ تبعت لأبوك مرسال ييجي وأنا لي كلام معاه، فاهم يا وله؟

كان مغلولا بصورة لم أشهدها قبلا، عيناه الكفيفتان تلمعان ببريق عنيد مليء بالإصرار والحماس.. قلت:

ــ حاضر، أبعث له.

جدتي مبروكة لم تكن مرتاحة لكنني كنت مجبرا على تنفيذ رغبة الرجل، لما جاء أبي واكتشف ما جرى لجدي جعل ينهنه ويبكي، لكن جدي استعاد قدرته الأولى وصلابته وراح يربت على كتفه مهونا الأمر قائلا إنه لم يعد له في الدنيا مطالب وأنه شبع منها، الأمنية الوحيدة هو أن يراه في الدار، أن يحس بأنفاسه مرة أخرى، أن ينصلح ما كان فاسدا وتعود المياه لمجاريها كما قال برهوم، أن تظل الدار مفتوحة بحسه.

قال أبي في يوم سفره:

ـ يومين بس على ما أحول أوراق الولد لمدرسة البندر.

قلت لنفسي يحول أوراق ابن شوق ويعلمه في المدارس بينما لم يسأل عني ولو برسالة. تركني لهم أطفح الدم ولما رحت له خاف منهم وسلمني لهم، يأتي وتعود المياه لمجاريها، تصبح الأرض له ويورثها لابنه الأفندي تربية المدارس ولأولاد روحية الذين يخلفهم على مدى السنوات التالية، يصرف على ابن شوق من كدي وعرقي وهو جاهل في أمور الفلاحة وسوف يجلس في الدار عمدة مثل برهوم، لم أكن بقادر على قول شيء إنما أبي لاحظ عدم ارتياحي لفكرة جدي فسألني:

ـ رأيك إيه يا صالح؟

ـ وأنا لي رأي في الكلام دة برضه.

وتركتهم وخرجت. ولما عدت عرفت أنه سافر لتحويل أوراق سيد وشحن الفرش لكنه غاب، وكان الرجل يبدو قلقا ومنطويا على نفسه، خاصمنا ولم يعد يكلمنا لإحساسه بعدم رضانا عن تصرفاته الأخيرة، كان لا يود أن يتبادل معنا أي كلام، ظل ينتظر ولما يقلق يتوكأ على عصاه ويطلع إلى السطح دون أن يفكر في الاستعانة بأحد منا، لو كان ابني مصطفى موجودا يطلب منه أن يقوده، لكنه في صباح يوم من الأيام قمت مفزوعا على صوت هبدة رجت الأرض، تلتها صرخة أو أنه خافتة فتحت عيوني فتسمعت الأنين، بعد لحظات سمعت صوت جدتي مبروكة تنادي:

ـ يا وله يا صالح.. الحقني بكوز ميه.. سيدك وقع ع الحجر وبيلقف.

أسرعت ناحيتها فوجدته مرميا على حجر الطاحونة القديمة والمركون تحت السلم، كان الدم ينزف من كوعه الأيسر وركبته اليمنى وكان يجاهد باستماتة أن يقوم فترتعش أطرافه وتخرج من حنجرته أنصاف آهات متلاحقة مستجيرة، سندته فلم أجد عزمه قادرا على مساعدتي للانتصاب به، كان علينا أن نحمله، وضعناه على مرتبة مفروشة في أرضية القاعة، بعسر شديد كان يأخذ أنفاسه ويتحسس سلسلة ظهره، كان يئن أنينا موجعا ويتحسس ظهره، اقتربت منه مبروكة وراحت تلطم خديها وتسأل:

ــ عبد القادر، إيه يا خويا اللي كان مطلعك فوق الساعادي؟ دي وقعة موت يا نضري، دي وقعة موت.

لم يكن بقادر على إسكاتها أو أخذ أنفاسه، ولما قربت من فمه كوز الماء أزاحه بيده وألقى برأسه على الوسادة وعلى الوجه آلام مكتومة، ربما كتمها بنفسه وكز على أسنانه في استماتة وإصرار على عدم الشكاية بالآهة أو بالكلمة. ولما راح في إغفاءة تركناه، قالت جدتي مبروكة إنه سقط على سلسلة ظهره على سن الحجر وأنها لما شافته وجدته يجاهد أن يستدير وأنها سمعت عظمه الظهر وهي تنتقل من مكانها مؤكدة أنه سوف يموت خلال أيام قصيرة، سمعناه في الليل ينادي بصوت جريح متقطع ونصف مدرك:

ــ يا ولاد.. اسقوني يا ولاد.. اسقوني.

ناولته زكية كوز الماء فكان يعب منه عبا بينما ينحدر من كوز الماء خطين نحيلين عبر الأشداق في اتجاه اللحية التي طالت وازدادت شيبا. عندما ارتوى رفع رأسه عن الكوز وتجشأ ثم جاهد أن يعتدل في رقدته فعجز، ساعدته ليرتاح فسمعت صوته السائل:

ــ أبوك ما جاش يا صالح.

قلت:

ــ لا

سكت، كأنما أغلقت بنفي مجيء أبي كل الأبواب إليه، مص شفته السفلى ثم أغمض عينيه وكأنه يطردني ويطلب مني أن أتركه وحيدا، وفي صباح اليوم التالي بدأ يئن في خفوت منهار كأنه انهزم إلى الحد الذي جعله يرتضي بالأنين ، تماما مثلما بكى في موت برهوم واسترسل في البكاء، بدأ الأنين واسترسل فيه حتى لما زاره الرجال الكبار أمثاله لم يشعر بالعار لأنه يئن ويتوجع على مسمع منهم، كأنه خلع عن نفسه ما تبقى له من برقع الحياء وتوقعت منه لما زاره الجد إبراهيم أن يطلب خروجي ليسر إليه بكلام لكنه لم يفعل، بل إنه لم يسأل عن أبي، حتى لما جاءت سيرته دعا له بحسن التساهيل والستر، ولما خرج زوار الصبح سألني:

ــ بقى ما تحصلش أبوك.. كده برضه؟ كان نفسي أسمع صوته قبل ما ودع.

قلت متحمسا دون أسباب:

ــ أبعث له تلغراف م البندر.

كانت نبرات صوته تجعلني أحس بالحزن عليه، وكنت أرغب في تنفيذ مطلبه الوحيد إنما جدتي مبروكة حذرتني من سرعة إرسال الخبر ومن وصول أبي:

ــ سيدك ميت ميت، يعني هو ح يحوش رجل النعش، ندبر أمورنا وبعدين نبعت له.

ــ إزاي؟

ـــ دلوقت الجو خليلك، يعني تقدر تكتب ورقة بالأرض بيع وشـــراء، الراجـــل لســـه صاحي وأنتم ويايا أهه.

ـــ يبقى حرام.

ـــ حرمت عليك عيشتك، عايز تطلع م المولد بلا حمص؟ على كيفك.

ـــ أمال أعمل إيه؟

ـــ يا ضنايا فوق لروحك، ما هو لو جه أبوك بمراته وابنه ترجع تمللـــي زي الأول، تشتغل بلقمتك، هو حيفضل من غير خلف؟

ـــ ...

ـــ دا حتى فدانين أمك متسجلين باسم سيدك وأنت لا سجلت ولا لك لو مات قصبه.

أحسست بالخوف، بالكراهية لكل من بالدار، لجدتي مبروكة التي فكرتت ودبرت ليس من أجل سواد عيوني وإنما لتمنع أبي من أخذ شيء. ولما كان برهوم حيا ظلت كـــل الأرض باسمه وكرهت أبي الذي استمر في العمل في بلاد الغربة في انتظار لحظة الميراث الجـــاهز، وكرهت جدي لأنه لم يعمل حسابي واكتفى بطلب عودة أبي ليرث الأرض ويصرف منها على ابن شوق وعلى زوجته التي كانت حامل وسوف تلد له خلفه يعلم الله عددها، وكرهت نفســـي أيضا لأن الشيطان غلبني وجعلني أوافق على رأي مبروكة كحل وحيد يضمن لي حقـــا فـــي الدار التي استعبدوني فيها سنوات العمر كله، والأرض التي سقيتها بعرقي وجهدي وعزقـــت طينها بعزم صباي وحملت إليها السباخ لتسميدها بشقاء طفولتي كل هذا من أجل برهوم الذي ظل يلهو ويعبث حتى مات من كثرة الفساد، ومن أجل الرجل الذي ظل قـــادرا وقويـــا حتـــى بعدما أصابه العمى، وبعدها أعود عبدا مصبوغا لأبي الذي لم أعرفـــه ولأخ منـــه أو أخـــوة يعلمهم في المدارس بينما أشقى، كرهت الكل كرهت أمي التي فاتت الدار وتزوجت في وقـــت كنت أحتاجها إليه، خلفت هي الأخرى وعاشت، وجدي مارس قدرته وقوته في ضرب الجميع ولم يتركني لحالي إلا لما شعر بالحاجة إلي. حسبتها في دماغي فوجدت كلام مبروكـــة فـــي صالحي.

من سكات كتبنا عقد بيع وشراء باسمي وكان الختم مع مبروكة فختمنا العقد واحتفظت به، مع نصف الريال الفضي القديم الذي ظل، احتفظت بالعقد ثم أرسلت تلغرافا للرجـــل، لـــم تمض ساعة حتى تزايدت آهات الرجل، كنت أود أن أخلص ضميري وأقول له مـــا جـــرى، أسرد على مسمع منه دفاعي عن نفسي والسبب الذي جعلني أطاوع مبروكة في كتابـــة عقـــد كاذب مستغلا رقدته، لكنني كنت أخشاه، حتى في هذه اللحظة كنت أخشاه غيـــر مصـــدق أن الآهات والأنات تخصه أو تقلل من قوته، شهودي على العقد أخذوا نصيبهم وخرجوا، كانـــت مبروكة قادرة على تدبير كل شيء، دبرت الأمور كلها ولم تترك شيئا للصدفة.

في الليل تزايدت آهات الرجل وجاء الجد إبراهيم بالكفن، في منتصف الليل أسلم الروح لخالقها فارتاح وفي الصباح جاء أبي وبكى، بكى إلى حد جعلني أفكر في مصارحته بكل ما جرى أحسست بالعار من نفسي، إنما مبروكة كانت تلحظني وتفسد علي كل محاولة لإكمال التفكير في هذا الأمر دون أن تتدخل، تقتحم دماغي وتعشش فيه بكلماتها المسنونة الأطراف، ولم أكن أعرف إن كانت هي الشيطان الرجيم أم أنها ملاك بعثه الله لينقذني من ضياع العمر الآتي..

ينطفئ شعاعنا الأصيل وتزداد من حولنا العتمة، نصبح غير ما كنا، يجيء الزمن الخسيس فينشر على دربنا عباءة الأحزان، حتى الفانوس الذي كنا نضيء به مدخل الدرب وفرناه وتركنا الدرب بلا علامة تميزه عن كل الدروب المحكومة بالعتمة، نجاهد للنفاذ إلى البراح، للتشعب في حيز أكثر اتساعا فلا نملك، في الزمن الفائت كان الزمام براحا يرتعون فيه لكنهم لم يورثونا إلا القليل، وحتى ما جاهدت لامتلاكه أصبح بلا قيمة، الأرض التي فتحت عيوني وحسبتها قادرة بطرحها على ستر الدار ناءت بحملها البشري، في صباي حسبتها تكفي وأنهم لم تفرض عليهم حدودا وإنما اختاروها عند المدى الممكن لنا أن نرعاه، واكتشفت الحماقة عندما وجدتها أضيق من جهدنا، وأعجز من أن تفي بالمطالب، كبر الأولاد وآن لنا أن نفكر في نصيب الولد ونصيب البنت، أن نسأل أنفسنا إن كان يكفي لفتح بيت الولد منهم فدان يتيم، مصطفى علمناه صحيح ووظفناه صحيح إنما بعشرة جنيهات، دبلوم التجارة الذي يحمله آخر ما كنا نتمناه في مشوار الصرف عليه ومحمد ظل في الدار، أصبح في مثل طولي وأعرض مني وجرؤ لسانه على المعارضة والعناد، عينه على الأرض وحساباته تدور حولها، ومحروس أصغر الصبيان علمناه أو كدنا أن نعلمه إعدادية عامة ومدارس الجيش كانت ملجأه المختار. أما البنات فما كن يطلبن إلا الستر والجهاز. وهل يجوز أن يرثن في الأرض ويتركن الأخوة في عسر وضيق؟

فجأة يفيق الواحد من نومه الطويل رغم أنه كان يحسب روحه صاحيا وواعيا لكل شيء، يفيق لنفسه فيجد روحه محشورا في زمرة المساكين بحق، يكتشف أن مستقبل الأولاد هزيل، الفدان الوحيد الذي سوف ينوب الواحد منهم ربما يساعد واحدا مثل مصطفى لكنه يعجز بالطبع عن فتح دار لولد مثل محمد، محمد يطلب منا بعناد أن نزوجه تماما مثلما كنت أفعل أيام برهوم وجدي عبد القادر، عينه على الأرض، على أنصبة البنات، يقول بثقة إن أرض البنات له بالرضا أو العراك، أقول لروحي إن فرعنا خاب وأن دربنا كله لم يفلح في شيء، سوف تتكرر الحدوتة القديمة، يطمع الولد في نصيب الولد والولد في نصيب البنت وكل واحد يجاهد أن يزرع الحد بعيدا عن حده الشرعي ليعيش. ولما يكتشف الواحد منهم ضيق الحيز الموروث يسخط، ربما يجحمني في تربتي ولا يطلب أيهم لنا الرحمة.

نحكي عن الستر وعدم الفضيحة، سترنا أكذوبة تكلفنا شراء ثوب الكشمير لزوم حسن الهندام، نتمسح في سعر المتر وأجرة التفصيل، ليقال عنا لخلق الله إننا ما زلنا مستورين، أما الفضائح فهي آخر ما يمكن أن تلحق بنا، على الأقل لن تصل إلى أسماعنا فنحن أولاد الأصول، فما زال لنسل الحسين حقا في حسن السيرة وسلامة الأصل يا كفر عسكر فمن فيكم يا رجال الكفر من نسل الحسين ليدخل معنا مباراة الأصول؟ أصلنا بشهادة الكل ثابت وفرعنا في السماء، أن يقال عنا ما يقال دون أن يصل إلى آذاننا فهو مباح، أن يقتل على مشرف كفرنا واحد منا بيد مجهول فليس في الأمر عار أو مهانة، ألم يستشهد جدنا الحسين ويصبح سيد شباب أهل الجنة؟ أن يتوه ثأرنا ويخفى على جهد وكيل نيابة المركز فيسر إلي بأنه حفظ التحقيق في مقتل سيد عوف لأن القاتل مجهول شيء بسيط وليس فريدا في نوعه، أن يتعلق أبي حتى هذه الساعة على وهم قدرتي على الثأر له أو حتى معرفة الفاعل وأعجز عن الفعل شيء لا يعيب، المهم أننا ما زلنا ندب على أرض ورثناها ولم نفرط في شبر منها، امتزجنا بها وراعيناها قدر المستطاع، عشنا على ثمارها وطرحها المبروك، لم نعرف الغش ولا سرقنا ولا قتلنا الضعفاء ولا حتى دخلنا المركز في تهمة، ومهما ثرثرتم يا هياكل كفر عسكر حول ما أصابنا به الزمان من بلوى فلن تنالوا منا، مهما تراجعنا أو انزحنا غصبا عن مركز الصدارة في الكفر فنحن أيضا أولاد عوف.

قال جدع أفندي ممن يتسكعون على البوابة:

ــ هو ده صالح عوف؟

لما سمعت الاسم وقفت فسكتوا، ظللت واقفا في انتظار أن ينطق لكنهم ظلوا صامتين، كنت أنظر إليه متوقعا أن يبدأ بالحديث مرة أخرى، همس أحدهم في أذنه فضحك وقال:

ــ واحنا مالنا، اللي على رأسه بطح يحسس عليه.

كانت المسافة بيني وبينهم خطوات، وكانت العصا في يدي عندما لوحت بها رمحوا ما عدا هذا الأفندي، قلت لنفسي: أبطحه هو ليتحسس بطح رأسه بدلا من أن يعرض بنا على البوابة، كان طرف العصا قد فتح جبهته وسال الدم وتجمع الخلق وسألوني عن السبب فلم أرد، سألوه فكان صادقا لما قرر ما قاله بالحرف، قلت له:

ــ حسس على رأسك بقى.

وضحك البعض بينما اهتم الآخرون بربط الجرح بشاش من دكان شاكر الذي خرج وجاء إلي وجاهد أن يفهمني أن الأفندي لم يخطئ في حقي وأنه لم يكن يعنيني في شيء وأنني تسرعت وربما كنت أصبته إصابة خطرة وهو ابن عمه ولولا القرابة ما كان يسكت، أشحت له بيدي قائلا:

ـ خبر إيه يا شاكر، انتوا حتعلقوا المشانق ع البوابة؟ لامم شوية صياع حواليك وفاضيين للتريقة ع الرايح والجاي.

ابتعد شاكر، قلت إنه من غير العنف ما عشنا في كفر عسكر، لولا قدرتنا على الدفاع لداسونا وضحكوا علينا، في الطريق إلى الدار كنت أسأل نفسي عن البطح الذي قال عنه الأفندي، ربما حالة أبي، وربما موت سيد، لكن سيد ليس غريبا على شاكر، هو أخوه من شوق فكيف يعايرني به قريبه، أليس له في العار نصيب إن كان موته يستحق المعايرة؟

أيام الصبوة كنا نسوق أولاد شلبي أمامنا، هذه أيام خسيسة، يتصدرون لنا في وسط البوابة، العنف أيامها كان عنوانا للجسارة والقدرة واليوم وسيلة للدفاع وإسكات الألسنة المفلوتة، فليأت أولاد شلبي كلهم، فليأت رجال كفر عسكر بما فيهم أولاد عوف أيضا، فلأكن وحيدا في مواجهة الكل، الناس لا تتركنا في حالنا، أما كفاهم ما صرنا إليه، أي بطح على رأسي لابن الزانية، أي بطح هذا الذي يتكلم عنه، صالح عوف يلعب معهم؟ مالهم بصالح عوف، الزمن دوخ الخلق وهم يتسكعون، زمن أغبر حير الناس والأفندية ذوي الرءوس العارية يتمسخرون على أسياد أسيادهم، يتنطعون متجاهلين عارهم المبين، كل رجال الكفر يعرفون حكايات جماعة شلبي وفضائح نسوان جماعة شلبي، ربما كان لكل رجل من رجال جماعة عوف فضيحة تخصه، قد يقولون عن غانم المرابي الكثير تماما مثلما نقول نحن عنه، نحاس دارنا في حوزته رهنا لسلفة، هو أعرف على كل حال بسقطاتهم، في دماغه سجل كامل عن كل العورات التي انكشفت لحريم جماعة شلبي، ربما كانت حميدة من أقاربك يا شاكر، إنما هي من نفس السلالة، اسمها حميدة مصطفى شلبي، وحكايتي معها معروفة، لولا سيد ما كنت توقفت عن معاشرتها، كنت أعاشرها عيني عينك وعلى رءوس الأشهاد، في أرضها كنت أمارس معها اللعبة ولم يجرؤ رجل من أولاد عمومتها على فتح فمه بكلمة، عشيقة مجانية من نسلكم يا أسياد الكفر ركبها صالح عوف، أي بطح فوق رأسي، سلاحي غير المرخص كان يزغرد في الأفراح وفي ليالي الري والحصاد، أسكتكم يا من تحملون البنادق المرخصة ولكنكم في الداخل من أنفسكم جبناء، تعرفون أن أيامكم في الدرب لن تطول، أنه سوف يجيء الزمن الآخر ونستعيد بالغضب ما ضاع، ولو حتى ظللتم على حالكم فلن يطولنا موكب الأنذال والمتنطعين، ربما أجرتم على سيد من يقتله، ربما لم يضع دمه هدرا وتتكشف الأسرار يومها ينسى الواحد كل شيء ويحمل سلاحه في وضح النهار ويقضي على الفاعل أو من أجره مع من يتعرضون له، وينتهي كل شيء.

كنت قد أمرتهم بعمل راكية نار وتدثرت باللحاف، وكانت الرطوبة تنفذ في العظم، غفلت عيناي بعدما أحسست بالدفء يطرد الرطوبة من المندرة، في النوم رأيت جدي عبد القادر، كان يعاركني في المنام، لكني حاولت الفرار منه يلاحقني، ينظر إلي بغل ويطاردني

فأرمح، في يده طفل وليس للطفل ملامح مميزة لكنني كنت أرغب في أخذه وأعجز، كلما اقترب منه استخدمه في ضربي بدل العصا، يتحول الطفل في يده إلى عصا، أسرع الخطو فيلاحقني بها، أتعثر وأقع وأوشك أن أستسلم فأجد الطفل يهوي فوقي وكأنه حجر طاحون كبير فأفز من رقدتي، أهرب، أرغب في أخذه فأراه معلقا في الفراغ لا يسقط ولا يختفي، في متناول اليد وبعيد عنها، أحس الخوف من احتمال سقوطه وتفتته وكأنه ولد من أبنائي، أجد جدي يعود، يلتقط الحجر الطفل ويغيب بينما أناديه بعزم صوتي ولا يجيب، يغيب عن الأبصار وأناديه وأحس اختناقا في صدري وأئن صارخا بلا صوت، أجدني مقيدا وعاجزا عن الحركة الطليقة، عن إخراج صوتي المحبوس، أجمع كل قواي في صرخة: إوعى، إوعى يقع، وعيتها وسمعتها واضحة، صوتي الخارج من داخلي سمعته ففزعت، كان اللحاف ملفوفا على ساقي اليمنى بحيث يشل حركتها، نظرت حولي فوجت الدخان المتجمع في أركان المندرة جعلها تعوم في سحاباته المتكاثفة، نظرت فوجت الراكية ما زالت تدخن. قمت وأخرجتها من المندرة لاعنا الأولاد الذين سكتوا ولم أسمع لهم صوتا، تناولوا جميعا بعد أن أوشكوا على خنقي بالدخان، خفت من المنام، قلت اللهم اجعله خيرا، تذكرت كابوسا شبيها ليلة مقتل سيد، أحلامي تفسرها الأحداث التالية، خفت على مصطفى، واستعذت بالله من الشيطان الرجيم، لم يكن النوم راغبا في معاودة المجيء فجلست وحدي، سمعت صوت الكلب يعوي، نفس العواء الجريح ونفس الكلب الغريب، خفت وتجسد في دخان المندرة وجه سيد وغصبا عني بدأت أسترجع ما جرى ليلتها وحلم الليلة يشغلني على مصطفى ابني.

كان الكلب يعوي وكلاب الكفر تنبح وتجاوب مع النباح والكلب يعوي، ليلتها نظرت من شباك المندرة فوجدته يقعي تحتها ويرسل عواءه، قلت للكلب: امش لكنه ظل يعوي، كررتها فكرر هو العواء، أخذت العصا وفتحت الباب واتجهت ناحيته فابتعد خطوتين وراح يزوم ويعوي، اقتربت فابتعد محتفظا بالمسافة بيني وبينه بحيث يصعب أن تطوله العصا. تكررت خطواتي ناحيته وخطواته بعيدا عني، تناولت حجرا فابتعد أكثر، كان كلبا أسود الشعر فحلا، تبرق عيناه في الظلمة وعواءه الجريح المهان يتردد على مسمع مني ولا يود أن يكف، كدت أطارده إنما قلت لنفسي: أنت مجنون يا صالح لتطارد كلبا في منتصف الليل، كل كلاب الدنيا تنبح ويستحيل إسكات الكلاب، سمعت عيارا ناريا ينطلق ورجعت متخوفا أن أصاب بنزلة برد ظللت أتقلب في السرير والنوم سلطان عزيز لا يجيء، ليلتها تذكرت سيد، هف على دماغي بلا مقدمات وجعلني أفكر فيه.

في الصباح فات محمد عطا بالمواشي، كان براد الشاي يغلي والفطور على الطبلية، ألقى تحية الصباح وعزمت عليه بالفطور، قال وهو يعبر باب الدار تتبعه المواشي:

ــ بيقولوا فيه نفر مضروب عند أول البلد.

سألته من باب العلم بالشيء:

ــ مضروب بإيه؟

قال مكملا ما قاله دون أن يبدو عليه أنه سمع السؤال:

ــ دا الدنيا مقلوبة هناك والعمدة بلغ المركز.

لم أهتم، كفر ملعون، كل يوم عركة ووجع دماغ، بدأت في الفطور، بينما كنت أشرب الشاي وجدت الولد محروس يدخل الباب رمحا، وقف مكانه ينهج، كان الوجه مخطوفا وكأنه هارب من أحد قمت بسرعة أنظر من الباب فلم أجد أحدا. سألته:

ــ مالك يا وله، حد كان بيرمح وراك؟

سكت الولد فعدت أسأله:

ــ جرى إيه، كنت بترمح ليه؟

ــ رحت عند الكوبري أتفرج، الناس بتقول عمك سيد..

سألته.

ــ ماله عمك سيد، أتكلم.

ــ بيقولوا هو اللي مضروب عند الكوبري..

لم أسمع ما تبقى، تناولت العصا ورمحت حافيا في اتجاه الكوبري، حسبته يتعارك مع أحد ويمكن أن أجده ما زال يتعارك وربما أصل قبل أن يفلت من عاركه، سمعت النسوة يتهامسن:

ــ أخوه، إيه ياختي؟ ــ دا صالح ابن عوف، أخوه.

عندما وصلت لم أر سيد، وجدت العمدة واقفا وجنبه ابن بهية وضابط المركز وبعض الرجال وجمع من النسوة في ركن من أركان الطريق الزراعي.

أحسست أنني جريت مشوار بلا فائدة، احترت فلم أعرف كيف أرجع، شعرت بشيء من الحرج من نفسي، وقفت مكاني فاقترب مني نفر لا أعرفه وهمس:

ــ دا مضروب ظرف ف قورته من ليلة امبارح.

ــ ابن مين؟

نظر إلي واستنكر عدم معرفتي قال:

أنكرت أنني أعرف، جاء آخر وآخر قال أحدهم:

ــ أنت ما تعرفش؟

ــ دا سيد أفندي.

ذهلت، كان يشير إلى كومة من الحشيش الأخضر.

واقتربت ناحيتها لأرى، منعوني لم أمتنع، قال العمدة:

ـ دا أخوه يا حضرة الضابط.. اللي بعتنا له يتعرف عليه.

خلصت نفسي من قبضة العسكري وامتدت يدي إلى أعواد الحشيش الأخضر، لما رفعتها ورأيت الحذاء والبنطلون الأسود

أسرعت إلى الناحية الأخرى ورفعت الحشيش وفوجئت بوجه سيد، كان الدم يغطي الوجه ويداري الملامح وعلى الجبهة وفي الجانب الأيسر ثقب غويط يمتزج فيه الدم بسائل أبيض لعله المخ، العينان مفتوحتان في ذعر مستسلم والفم ملوي ربما عن آهة أو صرخة أو نداء، تمنيت لو كان ما أره كابوسا يمكن أن ينزاح لو أفيق وأصحو، إنما كان ما أراه حقيقة، الضابط يجرني بمساعدة العسكري والخفراء وكنت أناديه بينما يقوم أحد العساكر بمعاودة تغطيته، كانوا في انتظار النيابة وعندما جاء وكيل النيابة سألني وأنا ذاهل إن كنت أعرف له أعداء فلم أعرف بماذا أجيب، لم يكن له في الكفر أعداء، إن كنت أتهم أحدا بعينه فلم أستطع، قلت لهم لا أعرف، ربما يعرف شاكر لأنه كان أكثر معاشرة له مني إنما لم أقل أي شيء، كنت مذهولا، في طريق العودة جاءني أحدهم بالعصا التي نسيتها جنب الجثة نظرت إليها ولم أمد إليها يدي، ما قيمة العصا، كنت قد أتيت لأحميه بها لكن الموت غلبني وأنهى كل شيء.

وجاء الطبيب الشرعي وقيدوا الحادث ضد مجهول وقالوا سوف يعرفون الفاعل فالحكومة لا تخفى عليها خافية، ولما صرحوا بالدفن واشترى فتحي كفنه غسلناه وظللنا ننتظر الرجل عصر اليوم التالي فلم يجئ، ولما دفناه جاء، وصل إلينا ونحن في المدافن، كان باب المقبرة ما زال طريا لم يجف طينه، كاد أن يفتحه ويدخل لكنهم منعوه، كان يتحسس بأصابعه باب المقبرة ويسألني عمن قتله، كنت عاجزا عن الجواب لأن السؤال كان مطروحا في دماغي ويحتاج إلى جواب: كنت أتماسك خوفا من مشاركته البكاء أمام الخلق في المدافن، هم علموني أنه من العيب أن يبكي الرجال، من علمهم أنه على الرجل أن ينضح غلا وقهرا ويمتنع على البكاء، من فرض عليهم التماسك في لحظات المهانة والتهالك، ولماذا انهار عبد القادر عوف بنفسه وبكى وهو معلمي وكان سيد رجال الكفر كله، وهل من الواجب علي أن أصمد في مواجهة الدموع أكثر مما صمد؟ لكنني كنت أرغب في البكاء، في أن أنفرد بنفسي وأبكي على كل حالنا، وربما كانت دموعي يومها في طريق العودة هي البطح فوق رأسي، هي العار الذي أستحق عليه المعايرة، إنما من في الكفر يحتمل كل هذه الأحزان ولا تدمع عيناه؟

كأن حياتي كلها مجرد استرجاع يتلوه استرجاع شبيه لذكريات الموتى، اجترها وأمتص لحظاتها المرة، كأنما الموت هو لحن عمري الحزين غطى على كل الأفراح التي صادفتها من خلال عنف ضرباته الرتيبة الصاخبة والتي لا تكف، مشدود للموت والأموات بحبال قوية تمنعني من لحظة أعايش فيها الفرح اليسير وأذكره، الذكريات السود انسدلت ستارا أثر ستار يحجب عني أشواق العمر بأسره، فتحت عيوني فلم أر الشعاع وإنما وجدت

العتمة، كأنما الموت هو قدري وعالمي، لربما كان صدفة أنني جئت في وقت لأشهد سقوط فرعنا من شجرة جماعة عوف، شاهد مطعون في جده وخاله وعمه وأبيه وحتى الأخ الوحيد، وربما تدور العجلة وتطوي في حياتي واحدا من الأولاد، أشهد الفرق بين أمسيات الزمن الفائت والتهاوي المهان لكل الرجال، وأبقى وحدي هكذا لأروي على من يجيئون من خلفتي سيرة الرجال، وربما تنتهي المناحة وتشرق شمس الأيام البيض، ينزاح الغم وتولد الأشواق، تأتي خلفه جديدة قادرة على زرع الأحلام وطرح الأمنيات، على شد الزمن الأصيل من حيث غاب والاحتماء به من مطاردات الموت أو استرجاع لحظاته.

أيام نعيشها مستورين أو واهمين في الستر، تجبرنا قلة الخير على السعي بحثا عن شريك يدفع لنا ثمن البهيمة ونسرح بها نسمنها ثم يجيء الوقت الذي يفرض علينا فيه أن نبيع ونقتسم للكسب، يأخذ الثمن المدفوع ويقتسم الفارق من أجل مجرد الاستمرار. نرضى يا رجال كفر عسكر بكل شيء، نرضى بتسليم خير الدار لتاجرة البيض والسمن، نرضى بأن يديننا شاكر بثمن السكر والشاي والدخان، لتظل الدار مفتوحة، ليبقى من رائحة عبد القادر عوف نفس أو أنفاس تتردد تحت سقف داره، ليقال إنه لم يعجز عن مواجهة الأيام العسيرة، ولعل الخير يأتي، لعل ضروع البهائم الجافة تمتلئ بالحليب والدسم، ولعل الأرض تزود غلتها وتمتلئ الأجران في مواسم الحصاد التالية، لعل الخلفة تفلح وتعوضنا عمن راحوا، كلما رأيت مصطفى تذكرت سيد، وكلما برطم محمد تذكرت صبوتي وعنادي، ولعل من راحوا خلفوا لنا بركتهم، لعلهم يحومون حولنا يطلبون أن نبقى، لنذكرهم بالخير ونترحم عليهم كلما جاءت سيرتهم وإلا فمن لهم في هذا الكفر يطلب الرحمة ويعيش حاملا من بعدهم أمانة الاسم الأصيل في هذا الزمن العويل؟

*

حكايات المدندش

في كفر عسكر

النّسَّافة وزمانها

سوف أحكي لكم حكاية الست النسافة وعيالها قبل أن يحين الأجل المحتــوم وينتهــي العمر فينساها الناس أو يغيروا ترتيب أحداثها أو يصبح عاليها واطيها شأن كل شيء يفــوت عليه الزمن الدوار أسرع من الساقية، والناس في كفرنا وكل الكفور المجاورة يولدون البغلــة ويعملون من الحبة قبة، صحيح أنني منهم، من نفس ناس الكفر "الأزرق" لكنني أختلف عنهم، عشت وسطهم صحيح لكن لكي أتفرج عليهم قبل أن أفرجهم على أرواحهم، أقلد أصــواتهم أو خطواتهم فيضحكون، حتى حضرة جناب العمدة الجديد يضحك عندما أقلد مشــيته أو أتنحــنح مثلما يفعل شيخ البلد العجوز في أنصاف الليالي، وربما أقلد لهم صــوت الثــور الهــائج أو الجحشة طالبة العشر، أو أنادي مثلما يفعل رجب الأعور عندما يسرح في دروب الكفر بحثــا عن فردة حلق مسلوتة من أذن طفلة أو بطة شردت فوق أســطح الــدور وتاهــت أو حتــى صديري طيرته الريح، ينادي ويمني الخلق بالمكافأة الحلال، أنا حسنين المدندش، حلاق حمير الكفر ومداوي جراحها، طبال الكفر وزماره، رداح الكفر ونداب الموتى والمغــدورين وكــاتم أسرار النسوان، لا خلفة ولا عيل وأنا الذي ولدت المواشي، تنفتح الأبواب إذا قصدتها، أتعشى وأشرب الشاي ولي من كل ذبيحة نصيب معلوم، ولساني حصاني المفلوت يوشك أن يرمينــي في الهلاك لولا لجام العقل، في طفولتي وصباي حفظت نصــف كتــاب الله وحملتــه علــى صدري، لكنني في صدر شبابي استدرت وانحرفت وسافرت ورجعت وقرأت كتب الأفنديــة وتلامذة المدارس، كنت أشحذها شحاذة أو أسرقها سرقة، أقرؤها وأداريها دون غرض معلوم، كتب عن الجن والناس والبلدان البعيدة وتواريخها، عن البحار والجبال وأنساب القبائل القديمة وسلالات الغجر، سافرت ورجعت، ومن حدود بلاد النوبة قبل التهجير حتى شــطوط البحــر المالح عرفت ناس وعرفني ناس، ورغم الفقر وقلة الحيلة معدود في الكفر ومحسوب حسابي، وأنا غرضي أن أحكي لكم حكاية النسافة، وأعرفها لمن لم يحضر أو يشهد أو يعــايش مثلمــا فعلت، وأنا لا لي في الثور ولا في الطحين، غاية ما هناك أنني ضحكت في عبي مرة، كانت ضحكة عاقلة في الأول، وكان من الممكن أن تفوت مثل آلاف الضحكات التي فاتــت، لكنهــا كبرت وزادت عن حدودها، مطها شيطان ومطها حتى جلجلت في أركــان الــدار وخرجــت

للشارع، سرحت في دروب الكفر مثلما كان رجب الأعور نفسه يسرح في دروب الكفر، قال الناس للناس إن حسنين المدندش قد انخبط في عقله وأنه على جناب العمدة مسئولية طلب السراية الصفراء التي هي في العباسية أو التي هي في الخانكة، أنا نفسي قلت لنفسي إن العقل الموزون الساكت قد أصابته بالفعل لطشة غير معمول حسابها، وكنت أقف في أمان الله أمام جثة المرحوم رجب الأعور مشرفا على الولد ابن بحر الذي يغسله وبعينه الحولاء ينظر إلى الكفن المفتخر من الحرير الياباني سبع طاقات، لعلني فكرت أن الولد ابن بحر سوف "يسلته"من فوق جثة رجب الأعور بعد أن يدفنه، لعلني فكرت أن رجب الأعور الذي عاش عريانا وجوعانا أو هفتانا وفي بعض الأحيان مضروبا على قفاه أو مزغودا في صدره هو نفسه رجب الأعور الذي تجمع من أجله كل أكابر الكفر والكفور المجاورة بما في ذلك حضرات العمد، مسكينا عاش ومستورا من حيث لا يحتسب يموت، لو رأى نفسه لدقيقة واحدة وهو محاط بكل هذا الاهتمام لتخلص من فقر الدم والبلهارسيا ودود البطن وتلك الأمراض الأخرى المخفية التي كان يحملها ولا يعرفها أحد، لعلني فكرت في كل هذه الأشياء في لحظة واحدة فانفلتت الضحكة، ولعلني قرأت في عيون الناس خوفهم، أراهن بكل ما تبقى من عمري أنهم جميعا كانوا يرغبون في الضحك ويكتمون الرغبة، ناس كفرنا "البرتقالي" تنقصهم الجرأة يا ناس، نقصت قدرتهم على أن يقولوا للأعور: أنت أعور، نقصت فيهم الرغبة في الضحك والفرح ونسيان الهم الراكز على القلوب، ولأنني ضحكت وحدي وفي حضرة كل أكابر الناحية فقد أبعدوني بالقوة الجبرية وأنا أضحك وأضحك، أتمثل وجه ابن النسافة وقد زاغت عيناه وانحنى قفاه. وأراه وقد ارتمى على الأرض بحثا عن مداس حضرة العمدة ابن العمدة "وأنا في عرضك وطولك، وأنا وقعت من السماء وأنت يا جناب حضرة العمدة تلقيتني، ما لي في الكفر غيرك، أنت أهلي وناسي وعزوتي إن كانت لي في الكفر عزوة"، وكلام مثل هذا كثير سمعته والعمدة جامد في مكانه لا يرد بخير ولا بشر، لا يعد ولا يرفض وكأنه يشجع الولد على الاستمرار، كل هذا رأيته مثلما رآه غيري لكنني ركبته على بعضه وزودت عليه ما كنت أعرفه عن النسافة وابن النسافة ولا يعرفه الناس فكبرت الضحكة والموت حاضر يحوم معلنا عن نفسه بالارتكاز على جثة رجب الأعور، وفي كفرنا وكل الكفور ينكتم الكل في حضور الموت، أشقى الأشقياء وأضعف الضعفاء، أغنى الأغنياء وأفقر الفقراء يتساوون مثلما يتساوى الأتقياء والمفسدون في الأرض، كلهم كلهم يحصلون على الرحمة ودمعة الإشفاق، الغريب والقريب، العدو والحبيب، لكنني نسيت وضحكت، أضحكني ابن النسافة فأنساني الأصول، ويلزم أن أبين لكم أن موت رجب الأعور في هذا الوقت بالذات كان بكل الحسابات نكبة لعصام ابن النسافة، وقد علا نجمه في السنوات الأخيرة أكثر من كل من علا نجمهم، وكأنه الوحيد المسموح له بالامتلاك من بعد انعدام الملك، ثم تزويد حيز

الامتلاك ومعاودة تزويده في الأرض وعارف سر الزمن، يلاعب الكل ويكسب دائما، وأن أمه النسافة دعت له في ليلة قدر واستجابت السماء، وقال البعض الآخر أنه مجرد "هلفوت"بلا مبدأ باع كل شيء وفرط في كل شيء من أجل القرش وأنه لف ودار حول نفسه وحول الناس مثل حجر طاحونة مشروخ في أساسه وإن لم يلحظ الشرخ غير القلة القليلة التي قال بعضهم للبعض الآخر إن الحجر المشروخ الدائر لابد من لطشه أو كسره، وهاهي لطشة لا كانت معمول حسابها عنده ولا خطرت على بال أمه، تلك التي عاندت وعاندت وعاندت، ركبت رأسها ولم تستجب لرجاء الكبار أو الصغار، والعند في كفرنا "الزهري"يورث الكفر كما يقولون، العند يعمي المعاند فلا يلحظ ما هو أبعد من ظل قدمه، وليس في كل مرة تسلم الجرة كما تعرفون، يوم طلاق بنت زهيرة كان يوم، خرجت بقميص النوم، ولولا أن سترتها أمها بثوبها وشالها لشافها الناس وهي خارجة من دار النسافة نصف عريانة ويا مولاي كما خلقتني، تنازلت عن كل حقوقها، ذهبها وعزالها ومؤخر صداقها وحضانة الولدين، بل إنها قالت لرجال المجلس الملموم من ذوي الشوارب إنها على استعداد لأن تقص شعرها الذهبي الناعم وأن تهديه للنسافة أم الولد عصام إذا طلبته، وحقي برقبتي يا ناس، لعل المجلس الملموم والذي جاء ليشهد شعر بالحرج فأعفاها وإن كان لا يؤيد جرأتها في اتهام المرأة وابنها بالبخل ودناءة النفس، لكنها على كل حال وبحسابات أكثرية ناس كفرنا ضيعت حقوقها بكلام فارغ نطق به لسانها المفلوت ساعة غضب، وربما كان هذا الكلام الفارغ نفسه سببا في إسراع النسافة بإعادة تزويج الولد، اختارت بنت نفيسة وضحت بالكثير، استجابت لكل الطلبات وكأنها تنفي بما تدفعه عن نفسها تهمتي البخل ودناءة النفس، صحيح أن بنت نفيسة كانت في الإعدادية لكن ما قيمة الإعدادية إذا ظهر العريس المستور في كفرنا؟ قلت لكم في الأول أن الزمان دار واستدار، وأنه في كفرنا "الوردي"ارتفع نجم ناس وانطفأ سراج ناس، انكشف من كان في الأصل مستورا، وتغطى في غفلة منا من عاش عريانا خلال تلك السنوات الأخيرة التي تعد على أصابع اليد الواحدة، لكن الأمر لا يثبت على حال أبدا، وسبحانه علام الغيوب فمن كان يعلم أن زواج ابن النسافة من بنت نفيسة سوف ينتهي تلك النهاية التي ذكرتني "بدحديرة"الواطية أيام زمان، أيامها كان أشجع ولد فينا يحاول النزول على مهل فيجد نفسه يتدحرج غصبا حتى يصل إلى فراغ الواطية وأرضها التي غطاها النشع، ينعاص جلبابه ويجلس في شمسها حتى يجف ويفرك الثوب دون أن يفلح في إزالة كل الأثر مهما حاول، ربما لأن طين الواطية كان لا يخلو من عطن أخضر يلبد في نسيج أقمشة جلابيب العيال ولا يزول أبدا.

يوم وصول العبدة البربرية وعيالها زمام الكفر:

كان حر "بؤونة الحجر"يشويني، وكان حجر جلبابي المملوء بثمار الخيار يرطب قلبي ويشفيني، كان شيطاني قد أغراني في الظهر الأحمر فطاوعته وأعطاني، ساعدني على جمع خط الخيار من "مدادة" الحاج مصطفى، وكانت الدنيا من حولي ساكنة إلا من طنين الذباب السارح من ناحية المدافن، ومن وسط الشرد سمعت صوتها ينادي:

ــ إدلعدي ياللي فايت.

قلت لروحي "صوت غريب" قبل أن ألتفت وأراها بعودها النحيل وسمرة ملامحها التي تميل إلى السود أكثر، أسنانها منتظمة ومشرقة البياض، شيء مختلف يؤجل المشاوير المستعجلة، قلت وأنا أفرغ حجر جلبابي عند جذع الجميزة العجوز:

ــ نعمين.

وكنت أشرب من زير إبراهيم السقا المحطوط سبيلا لله والذي لا يساويه أي زير في كل الناحية في تبريد الماء أو الجوف وأسمعها تكلمني:

ــ يسترها معاك تدلني على دار شبل المنسي يا خويا.

نظرت فرأيت إلى جوارها طفلتين جميلتين، بياض بحمرة وشعر أسود مدهون بزبدة والعيون شاردة لغزالتين في الثانية والثالثة من العمر فقلت يا سبحان الله، وكان هناك في الناحية الأخرى بالقرب من كوم الخيار ولد في الخامسة بعينين مدورتين تنظران بجرأة بينما يقضم الفم من خيارة وفي القبضة الأخرى خيارة، أمتلكهما وتأكد من امتلاكهما والعبدة البربرية تقول بصوتها الخافت الذي يؤيد أكثر مما يحتج:

ــ يا وله..

ــ سيبيه.

قلت لها وأنا أتناول خيارتين وأمسحهما في ذيل جلبابي وأناولهما للبنتين المترددتين في الأخذ لولا التشجيع:

ــ غريبة يا ست؟

ــ غريبة وقريبة.. يستر عرضك ويقويك.

أقول لكم الحق، تعاطفت معها، كانت تبتسم ببشاشة وضعف فتبرق أسنانها القوية المنورة، وقلت لنفسي أنه من الممكن أن يعشق الرجل امرأة بسبب انتظام أسنانها وينسى أنها بربرية، ثم استعذت بالله من شياطين الظهيرة، قلت وأنا ألمح العربجي حسن عمارة يسوق البغلة المعاندة:

ــ لمي الخيار ويايا لجل ما نركب مع العربجي اللي جاي دهه.

شاورت لحسن عمارة فأوقف البغلة "الحرنانة" بعسر حتى ركبنا، وعندما ساقها سألني:

ــ على فين يا مدندش بالضيوف اللي وياك؟

ــ دار شبل المنسي، وصلنا أنت بس لحد البوابة.

ــ أمال الخيار ده كله منين؟ بتاعك؟ دا لسة صابح بنواره.

ــ بتاعي وشاريه م البندر، ح أتاجر فيه يا جلاب البلاوي.

ــ وماله.. بتاعك بتاعك..

عند بوابة أولاد عوف كانوا في الأركان يحتمون من سخونة الشمس ببعض الظلال التي تكسو واجهات الدكاكين ومداخل الدور، نزلت وساعدت البربرية وعيالها على النزول بينما كان حسن عمارة يشير إلى الخلق وكوم الخيار، يكيدني ويدعوهم لمكايدتي:

ــ خيار المدندش، جايبه لكم مخصوص تبلوا ريقكم وتدعوا له، يعني هو شاريه بصدق؟ مد إيدك منك له وخذ.

كنت أنظر إلى كوم الخيار الذي يتناقص بسرعة، والبغلة المعاندة وقد طاوعت بالوقوف ثابتة، والبربرية وقد حملت الولد على كتفها وسحبت البنتين إلى ركن ظليل تنتظرني، قلت لحسن عمارة وأنا أشير للبربرية لتتبعني:

ــ اللي يتفضل م الرجالة توديه الدار ياللي ينحش أجلك.

سمعتهم يضحكون وسمعت تعليقاتهم التي تكشف سر خياري وشيطاني الذي أغراني وأعطاني ولكنه تخلى عني وما حماني، جاملت البربرية بكلام لا أذكره حتى وصلنا إلى باب الدار الموارب والغطسان مسافة درجتين سلم تحت مستوى الدرب، خبطت بالسقاطة الحديد فرأيت وجه أم المحمدي تنظر ناحيتي والبربرية والعيال وتأكل من خلال ما تبقى في فمها من أسنان مكسرة غير منتظمة:

ــ عاوز إيه مننا يا مدندش؟

ــ غريبة وبتسأل ع الدار يا أم المحمدي.. خبر إيه؟

ــ عاوزه إيه يا ختي؟، أنا لا أعرفك ولا شفتك قبل كدة.

ــ أنا مرات المرحوم فرج الله اللي مات في السد، ودول عياله.

بذلك ردت البربرية على أم المحمدي، وعلى غير توقع انسك الباب الكبير وسمعنا صوت "الضبة"وهي تسكن في المشقبية الخشبية، تبادلت مع البربرية نظرة استنكار وقبل أن أقول لها رأيي في أم المحمدي وقلة أدبها قالت هي وكأنها تفتح أمامي طاقة مسكوكة:

ــ وديني لحضرة العمدة يا مدندش، ينصرك على مين يعاديك.

قالتها برجاء وصدق وعشم جعلني أشعر بأنني على استعداد لأن أسلمها روحي إذا طلبت، أنا الغلبان الحاوي فاعل الأفاعيل الذي لم ينتصر على من يعاديه مرة في كل عمره،

أنا القوال الذي يحتال كل يوم لكي تستمر الحياة ولكي أحمي نفسي من اكتمال الهزيمة، بلا سند حقيقي يسندني، لا عزوة ولا أرض ولا دار عليها القيمة، وتأتي تلك الغريبة لتدعو لي بالنصر، كأنها عرفت جرح عمري وحاولت بدعوتها أن تداريه، يعاديني في الكفر فقري وقلة بختي والجهل الحاكم المتحكم في مصائر الواعين، هي القسمة غير العادلة التي ورثاها دون أي اعتبار للقدرة، كنت أفكر وأنا في اتجاه دوار العمدة البعيد، وكانت تحمل الولد راكبا على كتفها وأحمل البنت الأصغر، ومن درب عوف لدرب شلبي يا قلبي لا تحزن، كانت أخبار الخيار قد سبقتني لكل الناحية، وكانوا يشاكسونني على عادتهم لكنني لا أرد، وعندما وصلنا الدوار طلبت مقابلة العمدة، لعله كان قد صحا من تغفيلة القيلولة لحسن الحظ لأنهم سمحوا لنا بالدخول دون انتظار طويل، عرفته على البربرية وقلت له كلاما في صالحها وكأنها من لحمي ودمي لدرجة أدهشت جناب العمدة، لكن المرأة أدهشتني وهي تقول للعمدة بدون مواربة:

ــ عندي كلام ما يتقالش غير لحضرتك، بيني وبينك يعني، ما تزعلش يا مدندش.

وكأن العمدة كان ينتظر منها أن تقول ما قالته، أشار ناحيتي بإصبع يده فخرجت وأنا أسمع صوته الآمر:

ــ استنى في السلاحليك لحد ما أبعث لك يا وله.

وطال انتظاري واحتمالي لسخافات الخفراء يسخرون مني وهم ينظفون السلاح ويشربون الشاي المصبوب قبل دخولي ويتوعدونني بالحبس في السلاحليك شأن اللصوص ومن تجوز عليهم "الجرسة" متناسين أنني من أتباع العمدة نفسه، لكن خفراء كفرنا لهم طبع واحد، يتباهون بالسلاح الميري في الدوار وقد يرتجف الواحد منهم وهو يحمل نفس السلاح في "الدرك" إذا سمع بدخول شقي إلى زمام الكفر أو عبور جماعة من أولاد الليل من سكة الكفر الزراعية، وعندما يحصل الواحد منهم على كوب شاي فإنه لا يتركه إلا خاويا، يلوك رشفاته بتلذذ وكأنه يعاير الدنيا بأسرها لأنه يشرب الشاي، هل أغفيت في جلستي المركونة إلى الجدار أم أنها كانت إغماضة عين صحوت منها على نداء البسطامي يطلبني للدخول إلى مضيفة جناب العمدة، كانت البربرية تجلس على الدكة المفروشة والعيال إلى جانبها، قال العمدة شاخطا:

ــ شوف يا مدندش، ح تأخذ وياك اثنين غفر، البسطامي ومرعي، تدخلوا دار شبل المنسي، وسيان برضاهم أو غصب عنهم ح تسكنوا أم العيال دهه قاعة ستك "عالية"، ومن أي ناحية تدبروا لها فرشة وغطا تكفيها هي والعيال، واللي يعترض جرجروه ع الدوار.

كنا مثل جيش محمد علي الطالع لفتح عكا، البسطامي ومرعي في الأمام وعلى كتفيهما البندقيتان، وأنا والعبدة البربرية حاملة الولد الراكب "حماري" على كتفها الأيمن، وأنا

أحمل البنت الأكبر هذه المرة بينما تحمل البربرية البنت الأصغر على صدرها والناس تطل ولا تفهم، يتبادلون الهمس بعدما نعبر، وعند البوابة وجدنا عشرات الرجال من أولاد عوف يتقدمهم شبل المنسي نفسه الذي اقترب من البربرية واختطف الولد بشوق ولهفة يشبعه تقبيلا وضما ثم يفعل نفس الشيء مع البنتين وكلنا في دهشة، لكنه كان يتباكى ويفسر لمن يطلب التفسير:

ــ ولاد ابن عمي فرج الله، ولاد الغالي اللي راح ولا رجعش، اللي غطس يا ولداه ما قبش وهو ف عز شبابه، ما عتروش على أثره، زمايله قالوا إنه اندفن ف جسم السد العالي نفسه، أهم دول اللي فضلوا لنا من ريحته، بس اللي خلف ما ماتش يا ناس، اللي خلف ما ماتش.

مصمصوا الشفاه ترحما وإشفاقا وتعجبا واندهاشا ومجاملة، وسبقنا شبل المنسي وقد احتفظ بالبنت الأصغر يحملها ويضمها ويقبلها، وكان الباب المسكوك قد انفتح على مصراعيه باختيار سكان الدار الكثار، ربما شعر الباب نفسه بقوتنا فانفتح، وكانت أم المحمدي هي التي استقبلتنا بالترحيب، وفي حضنها أخذت البربرية وعيالها بالتتابع وأشبعتهم تقبيلا حتى شعرنا بالملل، بعدها شالت المساند إلى الحصير ووضعتها مسنودة إلى الحيطان في قاعة الست عالية المكنوسة، كانت تتودد للبربرية وتعتذر عن جهلها والأخرى تسمع ولا تصدق وتبدو لنا من النوع الذي إذا قدر فهو لا يعفي، لكنها سكنت بعيالها في زحمة الدار وخرجنا كل واحد في اتجاه، الخفيران المسلحان لناحية دوار العمدة لتقديم التمام، وأنا في اتجاه داري أفكر إن كان العمدة قد قدم للبربرية خدمة أو أنه عمل فيها فصلا بتسكينها تلك الدار وهو العارف لحالتها وطباع سكانها، وقلت لروحي إنه سوف يكون من الصعب أن تحتمل الدار سكانا أكثر وهي التي تضيق بمن فيها، شبل المنسي وأم المحمدي وأولادهما، ورجب الأعور في المقعد العلوي وسطح الدار، وأم شبل فوق الفرن ووسط الدار تخدم نفسها بنفسها رغم العمى وثقل الحركة، ثم نعمة الله بعيالها الخمسة الصبيان منذ طلقها مصطفى الجزار وأقسم بأنها بهيمة إسكندراني لحمها أبيض بحمرة لكن مخها جملي، يرمي لها وللعيال "سقط" ذبيحة من كل أربع ذبائح يذبحها مدعيا أنه الشرع بحساباته بافتراض أنه زوج لأربع أو من الممكن أن يكون زوجا لأربع، تسكن قاعة الست "زين" وحجرة الواجهة محجوزةومسكوكة على أشياء تخص الأستاذ فهيم كاتب الشهر العقاري في البندر، كبير الدار بكل الحسابات وإن لم يسكنها لربع قرن بعد أن حصل على الابتدائية وعينوه كاتبا يسكن البندر ويطل على الكفر في الأعياد والمناسبات ثم يرحل محاطا بكل سكان الدار حتى يركب بعد أن يدس في كف رجب الأعور ما تجود به نفسه لأقرب الأقربين وهو العارف كما يعرف كل ناس الكفر أن دخل الدار منعدم لا قيراط

ملك ولا قيراط إيجار ولا بهيمة تحلب، ولولا مواسم الحصاد وزكاة المال والأعياد ما دخلت الدار حفنة حب ولا انخبز في فرنها رغيف.

نسافة الكفر: نسافة الناحية:

أول شيء اشترته البربرية من البندر كان مجموعة غرابيل، كل غربال شكل وحجم وعمق، مجموعة غرابيل مختلفة في كل شيء لدرجة تجعل الإنسان يراجع نفسه ويسأل الآخرين الذين لم ينتبهوا مثله إلى وجود كل هذه الأنواع من الغرابيل، وفي كفرنا "النعناعي" تسرح الأسئلة وتبحث عن الجواب الكافي الشافي، سألوني باعتباري مسئولا فسألتها وجاوبتني، أراحتهم وأراحتني:

ــ مش كل حبة ولها كيال؟، طيب، يبقى كل حبة ولها غربال، خبر إيه يا مدندش؟ بقى غربال السمسم ينسف الشعير؟ ولا غربال حبة البركة ينفع مع القمح؟ طيب الذرة كام نوع؟ والرز والحلبة وتقاوي البرسيم و.. يوه.. نسيت أولع ع الشاي.

قالتها وقامت، شطفت أكواب الشاي المشطوفة، وحطت براد الشاي فوق الراكية مصقولا ورائقا يفتح النفس، وكانت أسنانها تلمع فيرفرف القلب مثل يمامة وحيدة ولا أجرؤ على الكلام، أسمعها وأحفظ منها، أكتشف أنه من الممكن أن يكون في هذه الدنيا غرابيل بعدد أنواع الحبوب التي تطرحها الأرض، كل أنواع الأراضي في كل بلاد الدنيا المسكونة، وهي تمد يدها بكوب الشاي رجعت لقاعة الست عالية وسمعت البربرية:

ــ ح اشتغل نسافة يا مدندش، تساعدني؟

ــ تحت أمرك.

وكان علي أن أفي بالوعد، عرفتها بالأجران في كفرنا في كل مواسم الحصاد، ثم ذاعت شهرتها وذاع صيتها فوصل إلى كل بلدان الناحية، يطلبونها بالام "العبدة البربرية أو البربرية النسافة" أو أم الولد الأسمر "والبنتين البيض" واتفق كل الناس أنها أبرع من أمسك بالغربال لينسف الحب وينظفه من كل الشوائب، واختصرنا اسمها وصار الكل يناديها "النسافة" ويتحدثون عنها "النسافة" وكأنها الوحيدة التي تستحق الاسم وكأنه قبل أن تجيء لم تكن هناك نسافات ولا نسف.

قالوا إن العمدة عمل كل الممكن والمستحيل ليحصل لها على معاش باعتبارها أرملة المرحوم فرج الله واعترض البعض لأن فرج الله اختفى ولم تطلع له من الحكومة شهادة وفاة، وأنه لابد قبل الموافقة على صرف أي معاش رسمي من شهادة وفاة رسمية مختومة بالنسر، لكن العمدة تبع الحكومة ولن يغلب في استخراج شهادة وفاة، وقالوا إنه ساعدها في امتلاك الدار من كل الورثة غير المقيمين فيها، أولاد حبيبة وأولاد زاهية وأولاد الست عالية وورثة

الحاج مرسي، والحقيقة التي أعرفها أن المرأة أرادت أن تؤمن وجودها فدارت على بيوت الورثة وهي تسحب عيالها تستدر العطف وتطلب التنازل عن حصص هزيلة من ميراث هزيل في دار هزيلة هي في واقع الأمر أوطى دار في الدرب وكثار كان الورثة وكثيرة كانت مشاويرها لكنها أثمرت على كل حال حق الولد في امتلاك أربعة أخماس الدار، بل إن الأستاذ فهيم كاتب الشهر العقاري أخلى لها حجرة الواجهة التي ظلت طوال السنوات مسكوكة ومسكونة بالفئران وعناكب الجدران.

أية واحدة مكان أم المحمدي كانت تشيط مثلما شاطت وأكثر، ولأن أم المحمدي معروفة في الكفر أكثر، ولأنها تدخل بيوت الخلق أكثر ـ تساعد في خبيز أو عجين أو تطحن حبا أو تبني صومعة للغلال فوق سطح دار أو تساعد في غسيل أو طبيخ أو أي شيء، أي شيء يحتاج لجهد مبذول بمقابل أو بغير مقابل إلا الود والسماح لها بأن تفك نفسها بكلام عن النسافة وأفعال النسافة وكيد النسافة وبحرها الغويط الغويط الذي لا يعرف الناس "قراره"، كانت النسوان في كفرنا تسمع وتهمس في الآذان بما تسمع، حتى تلك الحكايات التي يصعب تصديقها عن عشق رجب الأعور للنسافة ورغبته في الزواج منها وتضحيته بشقاء عمره طوال السنوات لكي يرضيها، وكيف أنها وعدته ولم تصدق أبدا، واربت له باب الرجاء ولم تفتحه أو تقفله فصار خاتما في إصبعها تسيره بحسب ما تشاء وقتما تشاء لكنها في الآخر قالتها له بعد أن فاته كل قطار وما عادت فكرة الزواج منها أو من غيرها تشغله بحق مثلما كان في السابق، قالتها له:

ـ دا حنا أخوات يا رجب، ومن غير جواز أنت سندي وراجلي طول السنين اللي فاتت، يرضيك يا خويا معاش العيال ينقطع؟ ما هي اللي بتتجوز معاشها ومعاش عيالها بينقطع.

ورد عليها بشهامة وهو الأبيض وهي البربرية:

ـ لا.. ما يرضنيش.. بلاش جواز يا أم الولد.

تقول أم المحمدي لنسوان الكفر إن رجب الأعور كان يسرح في الغيطان أو يشتغل في دور الخلق ويرجع للبربرية يفرغ أمامها ما حصل عليه من ثمار، خضراوات أو فاكهة، أو قروش نقصت أو زادت، يرميها على الحصير في متناول يدها ويقول عبارته التي لا تتغير:

ـ رزق العيال.

وأي واحد مكانه كان من الواجب أن يعمل ما عمله رجب الأعور، أولا لأنه ابن عم المرحوم فرج الله، ملزوم بالصرف على الأولاد، وثانيا وهو الأهم أنه لم يجد في الدار أو الدرب صدرا حنونا أو قلبا طيبا يريحه وهو العطلان أكثر منه الباحث سعيا عن رزقه في كل

الحالات يأتيه لباب داره، وفي كفرنا لم يمت واحد بالجوع كما تعرفون، وهو وإن جار الزمان واحد من أولاد عوف، أصل البلد رغم كيد الكيادين.

تزويج البنت الأكبر:

دخلت كفرنا سيارة ملاكي أكبر وأفخم من سيارة المأمور ومن سيارة ابن الباشا الكبير ساكن "سرايته" في وسط البندر، أنا لا أعرف في أنواع السيارات ولا أسعارها لكنني آخـذها بالشبه، والسيارة التي دخلت كفرنا في ذلك الصباح الصيفي الرائق كانت أفخم سيارة رأيتهـا في حياتي، رمحنا نتأكد من دخولها ناحية البوابة فرأيناها، كان السائق البربري يحاول أن ينفذ بها داخلا الدرب ولا يفلح، حتى عندما تدخلت متطوعا لأكون دليله لم ينجح فـي أن يفلتهـا ويدخل، ولم يكن ذلك بسبب نقص براعة في القيادة كما قال البعض، كان السبب الحقيقي هـو طول السيارة وعرضها وضيق مدخل الدرب وزاوية البوابة، ما غاظني وجعلني أفعـل مـا فعلت أن الزجاج المسكوك كان معتما لا يكشف من يركب بداخلها، قلت للسائق البربري الذي نزل وجعل ينظر إلى المسافات الخالية من الأركان الأربعة إننا نستطيع لـو أراد أن نحملهـا بعون الله فاستمهلني وفتح الباب الأمامي وتحدث إلى الراكب الوحيد في المقعد الخلفي شارحا له فكرتي، فهز رأسه لابس العقال موافقا، اغتظت وقلت لروحي إنه لو كان الملك فـؤاد أو الوالي محمد علي نفسه نزل كفرنا في الحلم راكبا مثل هذه السيارة لفضل النـزول والمشـي حتى يصل إلى دار من يقصده، سألت السائق البربري عن قصد الراكب لابس العقـال فقـال بأدب:

ـ دار الست هانم أم عصام فرج الله.

كدت أضحك من بلاهة البربري لأن الدار كانت على بعد خطوات قليلة ولأنـه قـال على البربرية النسافة ست هانم، لكنني لم أضحك، قلت أعمل ما يشفيني وناديت على الرجـل ثم هتفت:

ـ هيلا هوب، بإيدينا يا رجالة وشباب الزمن الوردي في الكفر الوردي، هيلا هـوب ارفع، وانزل بشويش.

كانت السيارة قد أصبحت خلف خلاف، مقدمتها اليسرى مدفوسة في جـدار المـدخل الأيسر ومؤخرتها اليمنى في تجويف جدار "الملقف"، شيء مسخرة معمول بفعل القوة الغشيمة عندما تطاوع دون أن تفكر في غرض من يقودها ولو انكسر فانوس أو انعوج رفرف مثلمـا حدث بالفعل وقد انحشرت السيارة "بورب" بحيث أوقفت الحركة من الناحيتين، وفـات وقـت قصير لكنه كان كافيا لأن تتحول البوابة إلى سامر حقيقي من الناس والدواب تتوسطه السيارة، يطالبونني دون خلق الله بتخليص مدخل البوابة من الخازوق المعدني المحطـوط بميـل فـي

مؤخرة البوابة، قلت لهم توسع لبوز السيارة حيزا من زاوية جدار المدخل الأيسر المبني بالطوب الأخضر والطالع من طين أرض كفرنا "الأخضر" فزاموا بين رافض ومؤيد وساخر يرغب في إطالة الزمن الضائع، فبدا لي كفرنا "أخضر بزرقة" تلمه زمارة ولا تفرقه عصا ولا شمروخ ولا سلاح في أغلب الأوقات، قلت لنفسي أتصرف، وبإشارة مني فتح السائق باب السيارة الخلفي لأدخل وأجدني إلى جوار الرجل لابس العقال والجلباب الأبيض وقد احتفظ بربع لحيته مهذبا بإتقان وبراعة، قلت أستعجله:

ـــ ح تتفضل تنزل وتمشي خطوتين، العربية مش ح تدخل.

ـــ إيش لون؟

كررت كلامي بأكثر من طريقة وبدا لي أن الرجل يفهم ويتظاهر بعدم الفهم، نوع من العناد الحصاوي الذي يركب البني آدم لأسباب لا نعرفها أو بدون أسباب في الزمن "الأخراني"، لكن الرجل كان يبدو كالملسوع وهو يهدر بما لا أفهمه مع أنه عربي، وللحظة انحطت نظرتي على العكازين المعدنيين المركونين في الناحية الأخرى مسنودين على الباب الآخر، لعلني كنت أراهما ولا أعرفهما، لعلني فكرت أنها لا يخصانه هو رغم أنه أشار إليهما عدة مرات، شعرت بالوجع يمسك كل بطني وأحشائي، بل أنني شعرت بالقرف من نفسي، وبعسر أمسكت روحي، ثم ارتميت ناحية الرجل أقبل رأسه وكتفيه والجزء العلوي من صدره ربما كنت أهدر بالبكاء وأنا أعتذر.

ـــ سامحني يا خويا.. المسامح كريم.. سامحني ما كنتش أعرف.

والرجل في حيرته يهدئني بعبارته المكررة:

ـــ لا تشغل بالك.. لا تشغل بالك.

كان بطني ممسوكا لا يزال وهم يطلون من الأبواب باندهاش وحيرة، يضربون الكفوف ويفسر البعض أمرنا للبعض الآخر على أنه قرابة كبيرة وغياب طال ومفاجأة لقاء غير محسوب:

ـــ يمكن واحد من ولاد عمه.. ولا أخوه اللي من أبوه اللي كان بيحكي عنه، كانوا بيقولوا مات تحت قطر، خبر إيه يا مدندش، ما تحمد ربنا اللي لقيته بعد غيبة، وحد الله... والله طلع لك أهل يا مدندش على آخر الزمن.

وكلام كثير سمعته، ولابد أن كثرة الكلام، أعادتني للمأزق الذي صنعته عندما طاوعت شيطاني الذي أغواني وما أعطاني غير وجع البطن، قلت لروحي أتوب وأعمل الطيب وقررت أن أحمل الرجل على كتفي لحد باب الدار، ومن دون كلام شعرت أن الرجل فهم غرضي فسلمني روحه أحمله بالطريقة الأفضل، وكان السائق ينظر ناحيتنا بعينين مطفأتين لا بريق فيهما ولا وهج ولا فهم، نظرة تليق بعبد بربري ينتظر الأمر وينفذه وقد

أمرته بإحضار العكازين المعدنيين وأن يتبعنا فنفذ أمري، والعبد يا سادة نوعان، عبد بربـــري وعبد غير بربري تماما مثل الحر، حر بربري وحر غير بربري، لكنه شاع في بعض مجالس الجهلاء أن العبد لا بد أن يكون بربريا أسود، لكنني عرفت على امتداد العمر الـــذي عشـــته والناس التي عرفتها والبلدان التي زرتها والبيوت التي دخلتها عبيدا ببشرة ناصعة البيـــاض، عبيدا بمعنى كلمة عبيد في مراكز محترمة وجلدهم أبيض، نفوسهم تقبل الضيم وعلى استعداد لتقبيل الأيادي، كل الأيادي، ربما يقبلون يد العبد الأعلى منزلة وهم يعرفون أن نفـــس العبـــد يقبل في الخفاء يد العبد الأعلى أو السيد الأدنى، وسبحانه موزع الأرزاق على عباده والقـــادر وحده على تخليص العبيد من وضاعة أفعالهم وانحطاط نفوسهم، تبارك جل شأنه أعطاني حس الفقراء الذي لا يخيب وزرع في قلبي الجسارة فعرفت أن الدنيا "برطوشـــة" قديمـــة يســـكنها التراب ويغطيها، وأن الأكابر مناظر والسواقي تدورها المواشي وأن الشـــمس رغـــم قوتهـــا وشدتها لا تقتل دود الأرض، وأن العصا السابقة سابقة، ولأن الموت نهاية كـــل حـــي كمـــا تعرفون فأنا أشهدكم على غيظي من هؤلاء العبيد الذي قبلوا أن يعيشوا أعمارهم عبيدا مع أنه في إمكانهم أن يعيشوها أحرارا، حتى لو كانوا أفقر الفقراء أو أعجـــز العجـــزة أو أضـــعف المحكومين فكل ذلك لا يمنعهم من أن يعيشوا أعمارهم أحرارا، على هذا النحو كنت أفكر يـــا سادة وأنا أحمل على ظهري الرجل الخفيف الخفيف مثل "شمال" برسيم محشوش سرقة مـــن غيط عدو.

كانت "بحراية" الدار غويطة لكن واحدة من البنتين كانت تضع كرسي حمـــام يســـاعد على النزول وكأنها كانت تعرف غرضي قبل أن أصل، وبسلامة الله نزلـــت وقـــادتني نفـــس البنت في اتجاه حجرة المدخل المحطوط تحت شباكها كنبة وتحت الكنبة حصـــير مفـــروش، أنزلت الرجل بحرص وأجلسته على الكنبة ثم جاورته، وكانت البنت ما زالت تنظـــر ناحيـــة الرجل وتنتظر، كأنها حسبته لعبة من ألعابي أحركها بمفاتيح مثل "الشيكو بيكـــو" فـــي مولـــد البدوي، لكن الرجل نطق وهو ينهج من التعب:

ــ يعطيك العافية.. ويعطيها.

قال الكلمة الأخيرة وهو ينظر ناحية البنت التي اكتشفت فجأة خطأ وجودها في المكان فغطست في بطن الدار التي بدت لي على غير العادة ساكتة "هس"، ومرة أخرى سمعته يقول لي وهو يبتسم فتظهر أسنانه المنتظمة المشرقة وراء ابتسامته الودودة وهو يمد يـــده نـــاحيتي بالورقة الخضراء:

ــ يعطيك العافية.

ترددت فدسها في كفي مطوية وكأنه يتعجلني قبل أن يرانا أحد، أخذتها ودسستها فـــي جيبي فبانت على تقاطيعه المتسامحة علامات انشراح، وعندما دخلت النسافة أم الولد والبنتين

تبتسم وترحب بالحاج زايد الذي نور المكان والبلد وكل الناحية تأكد لي أنها تعرفه منذ زمن طويل، كانت ترطن معه بنفس اللهجة، تفهم عنه ويفهم عنها، وكنت أنا مثل الأطرش في الزفة لا أفهم، لكنها اكتشفت وجودي فجأة وتذكرت فجأة أو تظاهرت بأنها تذكرت.

ـ يقطعني، مش عارفة مين اللي كان عيزك على البوابة يا مدندش.

قلت أسلم وأقوم، فكرت وأنا أتلكأ على البوابة وقد خلت من السيارة التي تركتها محشورة في مدخلها خلف خلاف ولا أدري كيف ولا متى أبعدوها، وقلت لنفسي وأنا سرحان في اتجاه السكة الزراعية أن البربرية طردتني من دارها بلطف وأدب بعد أن أديت دوري وأخذت الثمن، تذكرت الورقة فأخرجتها، وتأملتها، كنت قد سمعت عنها ورأيتها من بعيد، لكنني لم أمتلكها أو أحلم بامتلاكها، من غيرها يمكن أن يعيش أمثالي، ومن أجلها خرج شباب الكفر ورجاله، ساحوا في أركان الدنيا، يسافرون، ويرجعون ويتحدثون عن الورق الأخضر وأسعاره بدلا من سعيهم السابق من أجل تغطية أرض الكفر بالنبت الأخضر، عادوا ولونوا الكفر باللون الأحمر، بالطوب الأحمر، بنوا الدور الجديدة على جانبي السكة الزراعية وعلى امتداد البصر ثم دخلوا وهدموا الدور القديمة المبنية بالطوب الأخضر وأقاموا مكانها دورا جديدة بالطوب الأحمر، صار كفرنا الأخضر كفرا أحمر بفضل الورق الأخضر، يتباهون علينا بالقرش البراني ويؤكدون أنه قادر على تبديل الناس وأسعار الناس، زمن براني فتح السادات للخلق بابه فتبدلوا ورطنوا بلهجات غريبة، وفي الزمن الفائت كنا نقول عن القرش المغشوش والشلن المغشوش ونصف الريال المغشوش والريا المغشوش "براني"، كان أصحاب الدكاكين يدقونه بمسمار على باب الدكان أو جداره أو حتى الفاصل الخشبي الذي يفصل التاجر عن زبائنه.

كنت في الخلاء أدعو الله بصوت ويسمعني:

ـ "يارب الأقوياء امنحنا القوة حتى لا نضعف مثلما ضعف كل شيء من حولنا، الزرع والضرع وفحولة الثيران والتيوس والكباش، خلصنا من الوهن الذي طال مجرى الرياح الذي هو تفريعة من نهر نيلك، ساعدنا على الصد والرد ومقاومة الزمن البراني والقرش البراني، أجرنا لأننا قبلهم عرفناك وقبلهم عبدناك ولا مجير سواك".

تحت شجرة السنط شحيحة الظلال قعدت، لا تراجعت ولا استخسرت، كانت الورقة الخضراء مفرودة في يدي وكان عود الثقاب الذي أشعلته يقترب من طرفها باللهب، يشعلها وتسرح فيها النار حتى تحولها إلى رماد يميل إلى السواد عدا تلك المساحة التي كانت ممسوكة بالإصبعين الملسوعين يتخلصان منها بالرمي في الوقت المناسب فتظل النار حتى تحول الجزء إلى نفس الرماد الأسود المتماسك في البداية لكنه الهش القابل للتفتت عند أقل ضغط.

جهلي في الكفر أكرم لي من معرفتي، جهلي أو ما يبدو لهم أنه جهلي يعيشني بينهم، وإذا أظهرت لهم معرفتي بالأشياء جرجروني إلى سكة المشاكل وعاصوني بالهباب، جربت نفسي عشرات المرات وما اتعظت، ظللت على حالي مفلوت اللسان إذا لزم الأمر وزادت عن حدها المساخر، مكتوما وساكتا إذا هانت ولانت وفاتت على خير، لكن يا سادة هل كان يجوز لرجل مثلي ضرب الدنيا برطوشة أن يسكت وقد شاع في الكفر أن الرجل الخفيف مثل "شمال" برسيم محشوش من غيط عدو قد عقد قرانه بالفعل على البنت الأكبر من عيال النسافة في نفس عصر هذا اليوم بينما كنت أدعو الله في الخلاء أو بعدها بقليل، هل كنت أسكت؟

قلت ما قلت وردحت ما طاب لي الردح للنسافة والمأذون وشاهدي عقد الزواج، قلت أنها باعتها وأخذت الثمن ورقا أخضر، لكن كلامي ذاب في زحمة الأصوات التي تسكتني وتلك التي تلعنني والأخرى التي تحذرني لكنني لم أتوقف حتى حملوني حملا ووضعوني في حجرة "السلاحليك" ربطوني بالحبل وضربوني بالشوم فانهدت قوتي وانشرخ حلقي من كثرة الصراخ، فتشوني وسألوني عن الورقة فما صدقوني بأنني حرقتها، لكن العمدة صدقني وأمرهم بحل الحبل، أخجلني يا سادة لأنني كنت قد عرفت أنه أول الشاهدين على عقد القران، شهد العمدة لصالحي يا سادة:

ــ المدندش ده بركة ما حدش ياخد على كلامه، دا درويش وزاهد ف الدنيا ولا حدش عارف قيمته، علي النعمة نهار ما يموت لأبني له مقام على حسابي.

قلت لنفسي أسايره، أبين له ولهم علامات جهلي وقلة معرفتي، جهلي يعيشني ومعرفتي تهينني وتقلل من قيمتي، تعوضني بالهباب وسخام النيلة، هل كنت بارعا وأنا أحول أكابر الكفر إلى سامر يتفرج على ملاعيبي ويضحك، أو أنهم هم الذين كانوا يرغبون مثل العمدة أن أكتفي بدور الطبال الزمار النداب الحاوي، أفرجهم على أرواحهم ولا أتجاوز حدودي؟ وهل عقدنا في تلك الليلة صلحا مثل صلح الذئب على الغنم؟ ربما نكون قد اتفقنا والصلح خير كما تقولون ونادرا ما تصدقون.

تزويج البنت الثانية:

إذا كان العجوز العاجز ساكن البلاد البعيدة قد استطاع خلال ساعات أن يأخذ بنت النسافة الأكبر ويسافر بها ويتسبب في كسر واحدة من أسناني بسبب قلة عقلي وانفلات لساني، فهل كان من الحكمة أن أفتح حنكي بكلمة مع أو ضد حضرة الصول عسران ابن الأصول ساكن الدرب المؤمن الذي لا يتخلف عن صلاة في موعدها؟ لا يحب الكيد ولا النميمة وله من الحاجة أمينة بنت عمه خمس بنات، زواج مرتاح، له أرضه وماله ولها أرضها ومالها، عاقلة وراضية بنصيبها لكنها تشاركه القلق وحلمه في أن يخلف ولدا ليرثه ويحجب مطامع أولاد

العم والأخوة وأولادهم، ولأنه رجل تقي وعاقل فقد فوض الحاجة أمينة ذاتها لكي تحل المشكلة بما هو لائق.

قال الناس للناس أن الصول عسران رجل أصيل، صبر وطال صبره ولم يطلب من الحاجة أمينة إلا بعد أن انقطع عنها الدم وصارت مثل البئر القديمة لا تعطي أو حتى تعد بقطرة ماء، وقالوا إنها فكرت واهتدت إلى أنسب الحلول، بنت النسافة، صبية حلوة تغوي العابد وهي من نفس العائلة مهما قيل إنها من الفرع المائل، مقدور عليها ومقدور على أمها النسافة وعلى الولد ابنها وأقل شيء يرضيهم، هكذا قال الناس للناس قبل زواج الصول عسران من البنت بأيام، وقبل أن تذهب الحاجة أمينة بنفسها إلى دار النسافة وهي التي لم تخرج من دارها أبدا أبدا لتدخل أية دار في الكفر، كانت تخرج طبعا في المناسبات الضرورية، زيارة المأمور في البندر أو الذهاب إلى الطبيب لعمل فحوص يصعب أن تتم في الدار، زيارة الحسين أو السيد البدوي أو السفر لابن عم الصول عسران ساكن القاهرة قبل موعد الطائرة الذاهبة إلى بلاد الحجاز أيام الحج، وفي كل الحالات كانت السيارة المخصوص تقف أمام الباب في انتظارها وهي تخطو من باب الدار إلى باب السيارة وقد غطاها الملس وغطى وجهها طرف الطرحة "الشيفون" السمراء بحيث يحق لكل ناس الكفر أن يقولوا إن أحدا لم ير ذيل جلبابها أو كعب قدمها أو كفها على امتداد السنوات التي عاشتها في دار الصول عسران قبل أن يصل إلى رتبة الصول، قالوا إن النسافة لم تعترض على شيء ولم تطلب أي شيء أكثر من مجيء الحاجة أمينة بنفسها إلى دارها تشرفها وتطلب بلسانها البنت لحضرة الصول عالي المقام ابن الأصول الطيب، مالنا إذا كانت الحاجة أمينة قد اعترضت على الزيارة أو لم تعترض؟ مالنا إذا كانت النسافة تقصد أو لا تقصد أن تقول لأهالي الكفر إن رأسها برأس الحاجة أمينة سواء بسواء، مالنا نحن لكي نفتي بما لا نعرف؟ الذي حدث هو أن الحاجة أمينة راحت بنفسها لدار النسافة وأن حضرة جناب العمدة حضر الاتفاق، وأن البنت راحت بزفة إلى دار الصول عسران، لكن ناس الكفر قالت لناس الكفر بعد مرور الأيام والشهور والأيام والشهور أو بعض السنوات أن الصول عسران راحت أيامه، وأنه لم يعد بقادر على سقاية الأرض العفية العطشانة، وكلام يولده الغل والشماتة في الرجل الطيب، يقابله كلام ناس آخرين للناس بأن البنت رغم الصبا والجمال كانت أرضا بورا وعاجزة عن رعاية البذرة الصالحة أو إخراج النبت المأمول.

وقال ناس الكفر إن الحاجة أمينة عملت بأصلها، غصبت على روحها وراحت لدار النسافة ماشية وطلبت بلسانها أن تأخذ بنت النسافة الأصغر ضرة لها، وتعهدت بأن تحميها وترعاها كواحدة من بناتها، وأن الصول عسران لم يستطع أن يداري عشقه للبنت الصبية الحلوة الكيادة التي ظلت تعده بالولد، وكم من أمسيات احترق فيها قلب الحاجة أمينة بنار

الغيرة والبنت الصبية الحلوة تزداد حلاوة وتحمل بدل الجنين لحما طريا يــرتج إذا قامــت أو قعدت أو سارت أو نامت، حتى ادعاءات الحمل والتظاهر بالوحم وتأكيدات كل الحكماء الذين زاروها في الدار بأنها أرض مالحة وعاجزة عن رعاية الثمرة لم يمنعها أو يمنع النسافة مــن إشاعة أخبار الحمل الكاذب المتكرر ومؤامرات الضرة العاقر أم البنات الأكبــر منهــا التــي تسحر وتكتب وتكيد لها حتى لا يكبر الجنين، الغريب أن الصول عسران صدق وعاش علــى الوهم في صف النسافة وبنتها، وقال الناس إن موت الحاجة أمينة المفاجئ كانت وراءه حكاية كبيرة شاركت فيها النسافة وبنتها والصول عسران للخلاص منها بالسم بــدلا مــن الانتظــار والاحتمال حتى يجيء أجلها المحتوم، وقالوا إن خلو الدار لبنت النسافة ســيدها وزود دلالهــا على الصول عسران، تطلب فيلبي وتشير فيطاوع، نسى خلفة الولد وانشغل بالبنت، وقالوا إن البنت كانت وراء ما بدا للناس من حماية الصول لابن النسافة، تلك الحماية التي جعلته يتاجر في الورق الأخضر الذي كان يأتيه بشيكات أو تحويلات أو عملة منقولة من البلد البعيد بعلــم الغريب العاجز أو بغير علمه، لكن الولد كان يتاجر في الورق الأخضر مثلما كان يتاجر فــي حديد التسليح والطوب الأحمر والأسمنت وزيت التموين وعلف المواشي والسماد، الممنوع قبل المسموح والكل يفوت له إكراما لحضرة الصول من أول المأمور حتى عمدة الكفــر مــرورا بمفتشي التموين والزراعة والصحة والضرائب وكل مصالح الحكومة حتى امتلك وزود حيــز امتلاكه ثم امتلك وزود حيز امتلاكه وهو الجاهل الذي لا يفك الخط لأنه ببساطة لــم يــدخل مدارس مثل البنتين، ذلك أن أمهم النسافة قالت بعد وصولها زمام الكفر بأيــام إنهــا فقــدت شهادات ميلاد العيال في مشوارها الطويل الذي قطعته كما كانت تدعي مشيا على الأقدام من جنوب أسوان وحتى دروب كفرنا المنقوشة كفوفه بالحنة الحجازي تماما مثل كفــي النســافة وقدميها، وفي كفرنا المنقوش بألف لون لا يسأل الناس عن علو نجم النفر أو دخوله في بــرج سعده ما دام مسنودا ومحميا بالحق أو بالباطل.

كبار صغار: صغار كبار:

يوزن النفر في كفرنا بما يملك، المسألة بسيطة ولا تحتاج إلى دليل، يكبر الصغار في غفلة منا ونراهم وقد زاد طولهم وكبروا ولا يحق لنا أن نعترض علــى ولــد زاد طولــه أو عرضه مثلما قال الصول عسران للولد عصام في محاولة خفية لكي يذكره بحاله قبل أن تبدله الأيام بمساعدة الصول نفسه، ربما كان يحلم بشيء من العدل المفقود في عقد البيع الأخيــر، وإذا كان للبيع والشراء أصول في رأي البعض فهو في رأي البعض الآخر صيد فــي المــاء العكر، البيع والشراء شطارة كما قال الولد عصام وهو ينظر ناحية أمه النسافة وأخته السمينة التي سحرت الصول ولعبت بعقله حتى فرط في كل ما كانت تملكه يــداه ومــا ورثــه عــن

المرحومة أم البنات بأبخس الأثمان ولنفس الولد عصام ابن النسافة، ربما كان اعتراضه الأخير على هيئة الولد البخيل النحيل ــ الذي وضع على كتفيه عباءة عربية مشغولة بخيوط الذهب ــ مجرد رفرفة ذبيحة فات على عنقها نصل السكين الحامي بأسرع مما كانت تتوقع، كان الرجل كما قال لي بعدها يا ناس يراجع سنوات عمره ويشعر بغربة عن روحه والناس الملمومين في قاعة داره الجوانية ليشهدوا على عقد البيع وكلهم مسدودة أفواههم ببقايا العشاء الدسم الذي أعدته البنت بمساعدة أمها النسافة، لكن شيخ البلد قالها ضحك في جد:

ــ مالكم مستعجلين ع الراجل كدة ليه، براحته، ما هي بيعه تهريبه؟ وما هو موافق ع السعر، وقدروا أنه رخيص، يعني هو ح يروح فين؟ مش أخو مراته اللي باسطاه ومريحاه، أهو أولى من أخواته وعيال أخواته اللي عايزين يورثوه ع الحيا.. ولا إيه يا عمدة؟

ــ مظبوط يا شيخ البلد.

قالها وداري ضحكته فداري كل واحد في المجلس ضحكته حتى وقع الصول على عقد البيع، نزل مقامه بمساحة الأرض التي باعها، لكن هل كبر مقام الولد بمساحة الأرض التي امتلكها؟ انطفأ سراج وكان من الواجب أن ينور في القاعة سراج، فهل نور ابن النسافة مكانه وملاه؟

كنا قد اتفقنا على أن يوزن النفر في كفرنا بما يملك فهل لعبت بعقلي عقول الناس؟ نفس الناس من أهل الولد هم الذي أنكروه وتندروا عليه، قالوا أنه لو ملك البسيطة فسوف يباركون له، إنما هل تدخل في دماغ أحد مثلا أن يتصدرهم في المآتم والأفراح أو أن يرجعوا إليه في أمور زواجهم وطلاقهم وبيع دورهم وغيطانهم ومواشيهم مثلما كانوا وما زالوا يفعلون مع كبراء الدرب؟ ربما تكون المسافة قد تعجلت وبعدت الولد في المناسبات التي تصادف أن مرت على كفرنا "الملاوع"، موت بنت خال الصول وظهور ابن مهران المنسي عوف ثم سفر عدنان المنسي ابن عم فرج الله نفسه، وفي كل هذه المناسبات وقف الرجال الكبار للولد بغير ود، يزيحونه إلى الخلف ويتقدمونه وقد يمتنعون عن مصافحته أمام الناس وهو من لحمهم ودمهم، ولا بد أن يكون الولد قد شكا لأمه من أفعالهم، وربما يكون قد بكى من قلة حيلته وعجزه عن حماية روحه من غمزاتهم وهمساتهم، ذلك أن النسافة لبست جلبابها الأسمر وراحت بنفسها على دار عدنان المنسي، وجهت كلامها للصول عسران وهو يتوسط الأكابر أولاد عمه، تقصدهم وترمي كلامها عليهم وإن اتخذت من الصول عسران سلما تستند عليه:

ــ هو الصغير بيفضل صغير يا جوز بنتي؟ دي الدنيا دواره، شايلين عصام ابن المرحوم فرج الله وزاعقين له يا كبار؟ دا ما يجيش قد عيل من عيالكم، خذوه في وسطكم وكبروه.

وإذا كانت حيطان المندرة اهتزت أو نطقت يكون الكبار اهتزوا أو نطقوا، استكبروا أن يرودا على حرمة بربرية أم ولد باهت لا لون ولا طعم شاعت أن تحشره حشرا في وسط الكبراء شفاها الله ونولها مرادها في زمن غير زماننا ووسط ناس غيرنا، وشفانا وشفاكم من سكوتنا الطويل عن الحق لمصلحة الباطل.

أصل النسافة:

ـ حسنين صار حرامي، أسرق فلوس أنا يسامح، أسرق هدوم أنا يسامح، أسرق أكل شرب أنا مش يزعل أو يتكلم، لكن أسرق أموات بلد عشان دهب أنا موش يسامح، بيع جدود أموات عشان فلوس أنا أسلم بوليس، أنت روح سجن.

كنت مجرد صبي سفرجي، وكان السفرجي نوبي في خدمة "الخواجة" من سنوات، شغلوني قبل السفر بأيام، وركبت "الذهبية" من ساحل روض الفرج ونزلنا بحر النيل، كانت أول مرة وآخر مرة أركب فيها بحر النيل، نزلنا شطوط وشفنا بلاد وكلمنا ناس لا كنت أعرفهم ولا حلمت بأن أراهم، وعرفت من عم دهبين هدف مشوارنا وشاركته الفرحة لأنه راجع لبلده وناسه في بلد اسمها "أبريم" بين الشلال الأول والثاني، كان الخواجة إنجليزي دفعت له الحكومة آلاف الجنيهات ليكشف بلاد النوبة من أول شلال لحد الشلال الرابع، وعرفت بلاد النوبة وناسها سمر الوجوه ذوي القلوب الطيبة، ظللت في خدمة "الخواجة" أساعد عم دهبين ثلاث سنوات، أراهم يحفرون مدافن الملوك ويأخذون الكنوز، ذهب وجواهر وأشياء لم أر مثلها أبدا، ويقولون إن تعلية خزان أسوان سوف تغرق كل هذه الأماكن بالمياه، وعرفت من عم دهبين وغيره أسرار المدافن، مدافن فيها ذهب وكنوز ومدافن نهبها ناس من أهل البلاد أو من الغرباء، مدافن لا لها عد ولا حصر وكلها مبني بالطوب الأخضر، ووسوس لي شيطاني فأغراني، قلت أعمل للزمن الآتي حسابا، ووسوست أنا في أذن ولد من سكان البلد عارف مداخل مدافن، كان يعرف ويداري، يتفرج عليهم وهم يحفرون في عكس المداخل ولا يدلهم على الحقيقة، ومرة سمعته يتحدث إلى عم دهبين بسخط وغيظ من "الخواجة" سارق الكنوز بموافقة الحكومة وفلوس الحكومة أيضا، حاول عم دهبين أن يغير فكرته لكن الولد كان يظن أن كنوز المدافن هي ملك لأهل البلد التي سوف تغرق بعد تعلية الخزان، كان البلد اسمه "بلانه" وكان الولد اسمه ونيس، قلت له يا ونيس لا تعتمد على عم دهبين، دهبين شغال مع الخواجة من سنين، وقلت له شاركني وأنا أفيدك، أنا غريب عن بلادكم فساعدني وساعد روحك، واتفقنا ونزلنا بليل، وحفرنا أنا وونيس وسط السكون وضوء القمر يرشدنا حتى طلع الفجر وبانت لنا بوابة المدفن، جمعنا من فوق عظام الموتى خلاخيل وعقود وأساور وحلقان ومكاحل وأشياء أخرى لم أر مثلها أو أعرف لها اسما لكنها كانت من الذهب الخالص أو

الفضة، وأخذنا كنزنا وأخفيناه في حفرة، ثم نقلناه في اليوم التالي في حفرة أكبر، وبعد أيام اقتسمناه وأخذت نصيبي وأخذ الولد نصيبه وما عدت أراه، ولا أعرف من رآني وعرف سري وباح به للخواجة الإنجليزي، ورأيتهم يرمحون في كل اتجاه، يطلبني عم دهبين ويسألني عن الكنز المخبوء فلا أبوح، يأخذني إلى الإنجليزي فيسألني ولا أبوح، يأتي ضابط وأفندي ناعم البشرة هادئ الملامح يسألني ويعدني بالسماح فلا أبوح، يحبسونني في قاع الذهبية أياما لا أبوح فيها بشيء، ثم أفاجأ بالولد ونيس وقد جاءوا به لا أدري من أين، ينكشف كل شيء وتظهر الأشياء المدفونة في حرتين، صار ما كنا نحسبه ملكا خالصا لنا في حوزتهم، غضب الخواجة مني أكثر من غضبه من الولد ونيس، وحبسوني فترة ثم رحلوني إلى مركز كفرنا وأمروني بألا أفارقه إلا بإذن مكتوب ومختوم من مأمور المركز نفسه، كنت أشعر أيامها بالغضب والسخط، لكنني اكتشفت بمرور الأيام أنني كنت أعمى القلب لأنني وأنا واحد من أولاد البلد المسلوب كنت أسلبها وأحسبني من الشطار، لم أكتشف إلا بعد أن قرأت وقرأت ولم أبح بما فعلته لأي إنسان على وجه الأرض، دفنت كل شيء في مقبرة من صنعي ونسيت كل شيء، ربما من بعدها هان عندي أي شيء، وعشت على هواي إن كان لي هوى، محبوسا باختياري في حدود الكفر بعد أن انتهت سنوات الإقامة الجبرية في حدود الكفر والمركز، أعيش بجرأة من يملك أي شيء مطلوب يملأ خواء البطن، كل شيء يسد الجوع مسموح لأمثالي أخذه، وكلام الخواجة الإنجليزي في ذاكرتي محفوظ، أتذكره وأعيده لنفسي بنفسي وبصوت كأنني عيل في كتاب فرحان لأنه حفظ الواجب واطمأن على قدرته على تسميعه في أي وقت، لكنني كنت الولد والفقي في نفس الوقت، أنا حسنين المدندش الذي صدق الغريب ذا الوجه الأحمر عارف حرمة الأموات والغاضب من أجل آثارهم أصدق غضب، عالم وأنا جاهل بأغراض الغرباء.

ذات مساء وأنا عند النسافة قالت لأم المحمدي تسكتها:

ــ وأنت تسأليني ليه عن أصلي وفصلي، أنا من بلاد النوبة أحسن وأشرف ناس في البر كله.

ــ نوبة إيه، قال نوبة قال.. بلدك إيه وأهلك فين؟

ــ مش ح أرد عليك..

لكنها ردت على سؤالي عندما سألتها لأي البلاد في النوبة يرجع أصلها، ذكرت اسم بلد الولد ونيس عارف مدافن "بلانه"، تذكرته ساعتها وحدثتها عن سفرجي اسمه عم دهبين من بلد اسمها أبريم فقالت بلهفة:

ــ خالي دهبين الله يرحمه، أنت شفته فين؟

ولم أرد، خفت أن أحكي أي شيء مما جرى لي أيام السفر في الذهبية، لكنها كانت تسألني على فترات متباعدة إن كنت قد ذهبت إلى بلاد النوبة أو صاحبت واحدا من أهلها فأنفي ذلك وأسألها بدوري عن بلدها فتذكر في كل مرة اسما آخر وبلدا آخر حتى بدا لي أنها ذكرت أسماء كل البلدان بين الشلال الأول والشلال الرابع، وبيني وبينكم لا يكفي أن يعرف الواحد منا أسماء البلدان ليكون من أهلها، ومهما قالت هي أو قلتم فأنا لا أصدق كل رواياتها عن طفولتها وصباها أو كيف عرفها فرج الله وأعطاها اسمه ونسله واسم الكفر الذي تلجأ إلى دروبه إذا غاب عنها أو أصابه ضرر، ويزيد شكي في النسافة التي لا شفنا معها عقد زواج ولا شهادات ميلاد للعيال ولا صورة تجمعها مع فرج الله فأقول لنفسي لا هي أم العيال ولا تزوجها فرج الله ولا هي من بلاد النوبة ولا من شمال أسوان، أقول إنها مجرد عبدة بربرية من حدودنا مع السودان عثرت على العيال وعرفت أصلهم وفصلهم وكفرهم فجاءت لتداري نفسها بيننا ربما هربا من عملة عملتها أو حكم صادر ضدها، لكنني أراجع نفسي وأسأل عن الكيفية التي حصل بها العمد للنسافة على معاش وهو المعروف بعدائه لأولاد عوف، وهل أكذب نفسي وأصدق أنه عملها خدمة لله بدون غرض غير خدمة امرأة غريبة أم أيتام غاب رجلها وما عاد، كنت أبحث عن سر اهتمامه بالنسافة وعيال النسافة ومعاش النسافة حتى سمعت الست فطوم تقول في قعدة نسوان:

ــ ما هي من لحمنا ودمنا، أمها بربرية سودانية وأبوها شلبي، ساعدناها وكبرنا لها عيالها ولسة كمان ح نكبرهم.

كانت تنظر ناحيتي وكأنها اكتشفت وجودي فجأة فسألتني:

ــ مندندش، إحنا بنتكلم على مين؟

ــ لا بسمع يا ست ولا بشوف ولا بأنطق.

ــ عفارم عليك.

لكن قرب الأجل غيرني، خلق في عقلي دبورا زنانا، يلسعني ويجبرني على البوح بما كان، هو نفس الدبور الزنان الذي جعلني أضحك على جثة رجب الأعور الملفوف في الكفن الحرير الياباني سبع طاقات، تذكرت يومها مدافن الملوك والملكات المنهوبة وقلت إن الولد ابن بحر لن يرقد أو يهنأ باله إلا بعد أن يسلت الكفن من فوق جثة رجب الأعور ليقابل رب كريم عريانا كما عاش بيننا.

بنت نفيسة:

طول بعرض وصحة وبنت خال العمدة من بعيد، أنتم تعرفون أن ابن عم الأم في كفرنا هو أيضا خال ولكن من بعيد، طلبها الصول عسران لابن النسافة قبل مرضه الأخير

بأيام، ولابد أن النسافة ضغطت على الصول عسران عن طريق البنت ليذهب ويطلب البنت للولد رغم علمها بعدم حب العمدة للرجل، لكنه راح ووافق العمدة على تزويج بنت نفيسة لابن النسافة بشروط أملاها وكتبها الصول عسران على مضض تنفيذا لرغبة العمدة، وعندما نقل الشروط للنسافة وافقت، وافقت أن تجهزها بجهاز جديد وأن تكتب لها باسمها أرضا كانت قد اشترتها من عم البنت بياع الأرض عرفان، وأن يكتب لها مؤخر صداق كبير، وأن تعمل لها فرحا كبيرا يدعى له الأكابر وتذبح ذبائح حددها تكفي لتغذية كفرنا "الهفتان" يومين أو ثلاثة، وأشياء أخرى مثل الذهب والنحاس والصيني، طلبات لتعجيز النسافة وابنها، هي في حقيقتها رفض بأدب وإهانة في نفس الوقت، نوع من التحدي أو التحكم في الولد، لكن النسافة قبلت كل شيء وفي بالها أنها تخطو آخر خطوة في سكة الطلوع لأعلى مكان في الكفر، وكأنه كان هناك شرط سري عرفناه يوم دخول الولد على البنت، ذلك أنه توافق وأن كان هو نفسه عصر يوم خروج الصول عسران من دنيانا ودفنه في مشهد رج الكفر وكل الناحية في الظهيرة الحامية الملتهبة في الخامس من بئونة الحجر، سمعناهم يقولون إن النسافة نصبت الفرح وأن العمدة راح بنفسه عصرا فكان من الواجب علينا أن نشارك رغم التعب والصهد والغم والسؤال الخبيث الذي يتردد على الألسنة وكلنا نعرف أن كل شيء كان جاهزا ومركونا بلا تحديد ثم جاء الأجل فاختطف الصول عسران ونقلوا البنت للولد، هي "دقة نقص" على كل حال شارك فيها كل من حضر الفرح وكنا كثارا، نسينا الموت وتفرجنا على الغوازي وأكلنا اللحم قرب منتصف الليل مشويا ومقليا ومعمولا على هيئة شرائح ومستطيلات ومربعات غطسانة في أطباق الأدام و "الدمعة"، وكل أولاد عوف أهل الصول عسران حزانى على الميت وعلى الأصول التي ما عاد يصونها أحد، قاطعوا الفرح، حتى أطفالهم الصغار قاطعوه، وانشرخ كفرنا فوق شروخه القديمة شرخا جديدا، هو شرخ نافذ في القلوب يصعب أن يداويه طب أو دواء، لكن ربك سلط أبدانا على أبدان، سلط بنت نفيسة على النسافة أو سلط النسافة على بنت نفيسة فطارت في الدار نار ولم تنطفئ أبدا، كل يومين عراك وردح وقلة قيمة، غضب وصلح ومجالس يحضرها العمدة أو مشايخ البلد، ثم عراك جديد وردح وغضب ومجالس لا يحضرها العمدة، يحضرها واحد من مشايخ البلد، ثم حمل وعراك جديد وولادة وعراك جديد وغضب ومجلس بلا عمدة ولا شيخ بلد ولا حتى خفير، وتطول ألسنة النسوان فتخوض في السيرة مرة لصالح بنت نفيسة ومرات لصالح النسافة، تلك التي احتملت واحتملت على عكس ما كان يظن كل الناس، وفسر الناس للناس حكاية احتمال السباب من زوجة الابن للحماة على أنه خوف من فقدان الأرض المكتوبة باسم البنت أو دفع مؤخر الصداق أو خراب الدار عندما تأخذ جهازها المكتوب في القائمة الشاهد عليها العمدة ومشايخ البلد، وقالوا إن النسافة جرؤت في لحظة غضب أن تلعن العمدة الذي تحول إلى لبانة على لسان البنت تهددهم

به وتخوفهم وتتحداهم لأنه خالها ويخاف على مستقبها، جرؤت النسافة ولعنت العمدة في القاعة الجوانية التي ورثوها من الصول عسران، لكن حيطان القاعات رغم قدمها لها آذان تسمع وتسجل وتوصل في الوقت المناسب، وعندما عرف العمدة بما جرى أقسم يمينا بالطلاق من زوجاته الثلاث ألا يتدخل أو يسمح لواحد من أعوانه أو أصحابه بأن يتدخل في النزاع بين البنت التي هي قريبته من بعيد والنسافة التي كان يحسبها مؤدبة وتحفظ الجميل لمن ساعدها بشهادة كل ناس الكفر أيام كانت حافية القدمين تكمل عشاءها والعيال نوما، فلولاه ما حصلت على معاش الفقيد المفقود الجثة، ولولاه ما تزوجت البنت الأولى من الغريب الذي فتح لهم باب الرزق بلا حساب، ولولاه ما اشترى الولد في زمام الكفر قيراطا أو تاجر في أي شيء، ولولاه أيضا ما تزوجت البنت الثانية أو انتقلت أملاك الصول عسران وأملاك الحاجة أمينة إلى الولد الذي لا يساوي في نظر حضرة العمدة شعرة في ذيل كلب، ولولاه ولولاه ولولاه، كلام كثير قاله حضرة العمدة لرجاله وأنا بينهم، تغيرت نفوسنا من ناحية النسافة وفكرنا في عمل كل شيء يطلبه العمدة لكن الرجل لم يطلب، ترك لنا مسئولية رد شرفه وشرف بنت بنت خاله، وبين يوم وليلة كره أكابر الكفر من الناحيتين نسافة الكفر، ونادرا ما يكره أكابر كفرنا المقسوم نصفين نفس النفر، ولا أحد يدري إن كان الكبار قد أثروا في الصغار أو بعضهم على الأقل أو أن الصغار كرهوها لأسباب أخرى غير تلك التي تخص الكبار، لكن كفرنا المقسوم نصفين عاد وانقسم على روحه عدة أقسام أكثرها لا يحب النسافة ولا ابنها المتهم بعدة تهم جديدة غير الشح وكونه مثل خيال المآتة لا يهش ولا ينش، قالوا إن الصول مات مسموما بيد الولد أو لحسابه، وقالوا مات مغموما من طول لسان الولد الذي كان ينطح بالكلام مثل كبش مخصي أو تيس مطلوق وسط ثيران، وقلنا إن الحكاية من أساسها مشكوك فيها وتحتاج إلى أكثر من إثبات، إذ كيف تفد على الكفر امرأة غريبة ومعها ثلاثة عيال فتعيش في ظل الأكابر والعمدة لسنوات ثم تطلع على السطح العالي وتجرؤ فتخاصم الكبار من الناحيتين بالفعل أو بالقول؟ ولو كان لها أهل في الأماكن التي ذكرتها للناس فهل كانوا يتركونها هكذا تحارب وحدها وتعيش وحدها وتتصرف في كل شيء من دماغها وهم أكثر الناس حرصا على صلة الرحم والدم، لا يفرطون في أي إنسان عاش بينهم وشرب ماءهم أو أكل خبزهم مهما طال السفر أو الابتعاد.

ولدت بنت نفيسة ولدين توأمين فحسبنا أن العداوة بينها وبين النسافة سوف تزول أو حتى تنقص لكنها زادت، زادت وفاحت رائحتها عفنا وتهما متبادلة بالفسق والفجور وكل ما يشين الطرفين، الخطير أنه لم يعد هناك من يهتم بالتدخل لإطفاء النار، ربما تدخل ناس في السر لتزويدها اشتعالا، ولم يعد هناك أي رجاء في التعايش بين امرأتين أكلت كل واحدة من لحم الأخرى بحسب قدرتها على الأكل والهضم، وقال عقلاء لهم أغراض للولد:

ـ زي ما دخلتم بالمعروف، تسيبوا بعض بالمعروف.

ووافقت النسافة، لكن العقلاء نصحوها:

ـ بس خسارة اللي ح تأخذه.

ـ ما هو إحنا ما فيش ف إيدنا غير كدة.

ـ لا فيه..

أشار العقلاء بنقل ملكية كل شيء لشخص مأمون، شخص من اللحم والدم لا رجاء منه ولا خوف من أطماعه، شخص مضمون في اليد اليمنى للنسافة وابن النسافة، وكان الشخص هناك في نفس الدار يتحرك أمام العقلاء، عريانا أو شبه عريان رغم تبدل أحوال أهلها، كان رجب الأعور أمامهم وأمامها مثل كتاب مفتوح على صفحات بيضاء خالية من أي كتابة، لا يملك هو نفسه إلا براد الشاي المخصوص وعلبة الدخان وفيها دفتر البافرة "الملوكي" يلف الدخان في أوراقها إذا رغب في أن يعتدل مزاجه أكثر أو أن ينسجم أكثر فيدخن لفافة لفها بأطراف أصابعه ليوفر في تكاليف التدخين أيضا مثلما يوفر اللقمة والهدمة لصالح ابن المرحوم فرج الله، اليتيم المحتاج إلى كل قرش ليسنده بحسب ما كان يقول لكل الناس صادقا وهو يدافع عنه إذا اشتكى منه أحد.

ـ يا ناس حرام عليكم.. دا يتيم ومقطوع ووحداني، اللي زيه تجوز عليه الصدقة وفلوس الزكا.

ـ أصل أنت نايم على ودانك يا رجب، عصام دخل ف ديوان الأعيان وأصحاب الملك الأكابر، أنت أهبل ولا بتستهبل؟

ـ ولو.. ولو.. برضه غلبان.

ولم يكن هناك أي جدوى من الاستمرار في مجادلة رجب الأعور حول فكرته عن عصام ابن النسافة وابن فرج الله.. كانوا يريحون أدمغتهم ويكفون عن مجادلته ما دام مصدقا نفسه على هذا الحد وعاجزا عن اكتشاف كل ما تغير في حياة الولد وحياة أمه منذ زوجت البنت الكبرى للغريب لابس العقال وبعد أن زوجت الصغرى للصول عسران وجرؤت مرة على سب حضرة جناب العمدة عندما بدا لها أنه انحاز إلى بنت نفيسة، ولأنها كانت بحساباتها عركة العمر كله فقد تعاملت مع كل الناس من أول وجديد بحسب مواقفهم معها أو مع بنت نفيسة، ولأنها عركة العمر كله رمت النسافة بكل ثقلها بأمل أن تنتصر، كأنما أعماها العراك عن رؤية ما كان يلزم أن تراه، كان العقلاء أو من فكرت هي أنهم عقلاء يأتون ويتكلمون بحسب هواها وبحسب ما تود هي أن تسمع، وفي كفرنا المنقوش بكل الألوان ينطق اللسان أحيانا بغير ما هو في القلوب، وربما في مثل هذه الحالات ينطق اللسان بحماس أكثر وببراعة أكثر، قال ابن الغباشي للست النسافة وهو ينظر إلى رجب الأعور في ذلك المساء:

ـ علي الحرام من ديني أطلعكم منها زي الشعرة ما بتطلع م العجـين، هـي حتـة الأرض المكتوبة باسمها وبس اللي مش ح أقدر أتصرف فيها براحتي.

ـ حتة الأرض دي ما هي خلاص يا بو الغباشي، دي معاها عيلين وح تأخـذ نفقـة ومؤخر صداق وعدة.

ـ بلاش طلاق يا ست أم عصام؟

ـ لا ح يطلقها.. لما يكون آخر يوم ف عمري وآخر حفان قمح في داري..

ـ نبقى نشوف كلام أبو الغباشي.. أهو شغال ف المحاكم طول عمره ويعرف سـكة الخلوص يا ست أم عصام، إحنا تهمنا مصلحتك.

على هذا النحو تحدث أقدم شيخ بلد في الكفر، الحاج داود أبو راضي، فجهزت النسافة نفسها لسماع كلام ابن الغباشي، ذلك الذي اقترح نقل ملكية الدار والأرض وكافة ما تملك هي أو يملك عصام إلى رجب الأعور وساعتها لو لفت بنت نفيسة ومعها ألف عمدة مثل عمـدة كفرنا على أبواب المحاكم فلن تحصل على شيء، لا مؤخر الصداق ولا نفقة لها قيمة لهـا أو للولدين التوأمين، واشترط أن تكون الكتابة والتسجيل قبل الطلاق، تهريبة يلجأ إليهـا النـاس عندما يتكايدون ويتعاندون فيكفرون بالنعمة وينكرونها، كلام سمعناه قبل ذلك مئات المـرات ورأيناه يتحقق بالفعل، لكن العبرة بالختام، ختام لحكاية النسافة وابن النسافة لم يكن يخطر على بال كما تعرفون، وأنا فكرت أنه ولا بد كان وراء تلك النهاية تدابير وترتيبات معمولة بوعي، وعي شياطين وأبالسة يستخدمون الناس لتحقيق أغراضهم، ومهما كان وعي النسافة فهو وعي امرأة غريبة جاءت من خارج حدود كفرنا "التفاحي" لتعيش وتصعد وتملك وتجعل اسمها على كل لسان، لكنه خانها الوعي، خانها الوعي لأنها صدقت كل ما كان يقال لها بهدف إرضـائها أو مجاملتها أو التظاهر بالوقوف إلى جانبها في وجه خصومها، والعناد يـورث الكفـر كمـا تعلمون بالإضافة إلى قلة التمييز الواصل إلى حد العمى، كان شيخ البلـد داود أبـو راضـي والذي هو ابن عم عمدة الكفر يذهب إلى دار النسافة، يجبر خاطرها بكلمات طيبة، يطالبهـا بالسماح والصفح عن البنت التي قل أدبها وطال لسانها على أم رجلها وصاحبة الفضـل فـي تنصيبه نفرا معدودا وسط ناس الكفر، كلام لا شبهة فيه ولا شك، ورجل يقصد الخير والصلح ومعه في مشوار الذهاب والرجوع ابن الغباشي الذي كان يحرث لها الأرض، أرض الخصام طبعا بلسانه المدرب على الكلام في قضايا المحاكم وأقوال المحامين والقضاة وموظفي الشهر العقاري وغير ذلك من الجهات، يحرث أرض الخصام والبنت في دار أمها غضبانة ولا مانع عندها من الرجوع لو تنازل عصام وتعطف بحسب ما كان يقول شيخ البلد، لكن الولد ركـب دماغه وركبت أمه دماغها، رأساهما وألف سيف أن لا بد من رد الصاع صاعين، وقلة الأدب بانتقام لا كان ولا جرى، وأنا نبهت النسافة بأنه في مثـل هـذه الحـالات يكـون الخـروج

بالمعروف أفضل، أو الاستمرار بالمعروف أرحم من أجل التوأمين، سمعت كلامي وتغيرت لهجتها في الكلام، بدا لي أنها وضعتني في خانة أنصاف الخصوم وأنا الخائف عليها من التمادي في كل هذا العناد، قلت لروحي لو جاءك الغضب يا مدندش فاعمله طوعا ولا تخسرها، كنت مندهشا مما أصابها إلى حد الشك في كلامي وهي التي كانت تعرف طوال الوقت أغراضها وتحققها غرضا في إثر غرض، وكانت تعرف كيف وإلى أي حد تخاصم ومتى تتساهل وتصالح أو تسامح أو حتى تسعى للحصول على عفو الخصوم أو تتشدد وترفض، لكنها في هذه المرة كانت قد فقدت التمييز بين الصاحب والخصوم، اختلط عليها الأمر وبدا لي أنها تضرب دماغهما في جدار صلب ولا تحسب حسابها لاحتمالات الخسارة، على الأقل خسارة الناس الذين وقفوا إلى جانبها ومن بينهم العمدة، صدقت كل ما قاله ابن الغباشي عن إمكانيات تسليم الأرض المكتوبة باسم بنت نفيسة إلى من يزرعها ولو بعقد إيجار مزور، وأنا يا ناس جربت ناس كفرنا المدفونة في قلوبهم كلمة الحق والمنطوقة على بعض ألسنتهم الأكاذيب المزوقة بمعسول الكلام، قلت لروحي: أنصح صاحبك من الصبح لحد الضحى.. وأمسك لسانك حتى لا ينفلت مثل جواد جامح بلا لجام ويقول الكلام الصريح، الكلام الصريح يا مدندش يكره فيك الأكابر ولا يحمي الفقراء أو الطالعين على السلم ينظرون إلى أعلى ولا يعملون حسابا للرماد والتراب ينزل فوق رءوسهم ويعرف حدقات العيون.

قال دواد أبو راضي للنسافة:

ــ كانت غلطة يا ست أم عصام، البنت دي ما كنتش من قيمتكم، طيب علي الحرام لو طلبت عيلة من عيالي كنت أجهزها وأوصلها لحد باب الدار..

ــ وهو حصل إيه يا شيخ البلد؟.. الغلط يتصلح، وأنت أقل واحدة من بناتك ح تشرفنا وتطلع بينا العلالي، بس أنت توافق..

ــ يحلها ربنا..

ــ نقرأ الفاتحة..

وقرأنا الفاتحة.. وانفتح مشوار نقل الملكية باسم رجب، وبين يوم وليلة صار المالك الرسمي لكل الأرض وما تحتويه الدار، لكن رجب خدع الكل ومات، مات دون مقدمات، لا مرض ولا رقاد ولا شكوى من أي شيء.. الأعمار بيد الله طبعا، لكن الله جعل لكل شيء في هذه الدنيا سببا، وأنا سألت نفسي عن أسباب موت رجب في ذلك التوقيت الغريب فلم أجد عندي أو عند غيري جوابا للسؤال، كانت الأسئلة تدور في مدارات أخرى، الورثة، ورثة المرحوم الذي لم يخلف للدنيا من صلبه وريثا شرعيا والذي تتشعب فروع ورثته الشرعيين وتتزاحم، تتداخل مثل فروع جميزة كبيرة في كل اتجاه، أخوات وأولاد أخوة وأخوات وأصحاب ديون مكتوبة لم يكن يحسب حساباتها أحد.. ديون مكتوبة ومختومة بخاتم المرحوم

وبصمة يمينه، وأنتم تعرفون ما يجري في مثل تلك الحالات، تتوزع التركة بحسابات لا فصال فيها ولا عواطف، الغريب أن كل الأوراق كانت لا تزال في قبضة شيخ البلد وشيخ البلد تابع للعمدة، والعمدة في مثل هذه الحالات حاكم بالعدل والشرع والأصول، والغريب الغريب يا ناس أنه في عصر نفس اليوم كانت بنت نفيسة قد حصلت على كل محتويات الدار المسجلة في قائمة المنقولات، أخذتها وتركت الدار على البلاط فعلا، وكما يقولون في كفرنا الليموني مال تجيبه الرياح تأخذه الزوابع، فهل كنست زوبعة العمدة كل ما حوطت عليه النسافة وابن النسافة في غفلة منا، كنسته وأعادتهما إلى أيام البدايات الأولى التي تعرفونها، لكنه لم يكن قد تبقى عند النسافة نفس القدرة على معاودة النسف في الأجران، ولا كانت قد حافظت على عطف الأكابر عليها أو استعدادهم لمساعدتها في أن تصلب طولها وسط ناس الكفر أو تقيم للولد عوده الذي انحنى قبل الأوان.

لكنه لا شيء يبقى وأنتم تعرفون، حتى حضرة جناب العمدة الذي هو في نهاية الأمر من بني آدم مثلكم لم تطل فرحته، فلقد جاءت نهاية الأفندي المغدور لينشغل الناس بها زمنا وتلهيهم عن المصير الذي صار إليه الكفر وناس الكفر وعمدة الكفر "المشمشي" في الزمن "المشمشي".

المغدور وأيامه

سأحكي لكم عن أيام المغدور المعدودة والمحسوبة، تلك الأيام التي يصعب نسيانها والتي شاعت أخبارها في كل الناحية والنواحي المجاورة لكفركم "الحنبلي"، عن ابن البلد الذي قالوا وهو مرمي ينزف قطرات الدم الساخن أنه غريب مضروب بعيار غريب آخر، أنا صدقت والناس صدقت أو كانت عندنا جميعا رغبة في التصديق، ولناس كفرنا قدرات مشهودة في التظاهر بعكس ما يعرفون والنطق بمعكوس ما يرغبون، كان المنظر غريبا على العين محيرا للعقول، بدن مرمي ومحاط بذيول جلابيب الخفراء، والعمدة مسنود على حديد الكوبري وسط رجاله يشيرون إلى كل خارج من حدود الكفر بالرجوع، اقتربت أنا من حضرة جناب العمدة وسألت وجاوبني، نصحني بتأجيل الخروج من دائرة الكفر لحين وصول النيابة وحكيم المركز للفحص والتحقيق، خوفني من أن يطول ذيل جلبابي نقطة من دم الغريب تجرني غصبا عني للسؤال الصعب عن علاقتي بالغريب، قلت لروحي ساعتها أنه لا شأن لي بمن يعبرون فيسقطون عند حدود كفرنا "السنجابي" والعمدة رغم حداثة عهده بعمادة الكفر عارف مصلحة الكفر وناسه، وأنا كدت أرجع مثل كل الناس الصاحية في تلك الساعة البدرية بعد الفجر وصلاته وبزوغ ضوء النهار، لكنه حدث أن سمعت أنة مجرد أنة أعادتني وألقت بي في سكة العناد الحصاوي فكان ما كان مني ومنهم في ذلك النهار البعيد، كل هذا لا يهم الآن، لا يهمني على الأقل لأنني سوف أبوح لكم بكل شيء في الوقت المناسب، ما يشغلني الآن هو سر انشغالي بالمغدور ابن عوف، أنتم تعرفون أن كفرنا مفتوح من كل نواحيه على "البحري"، ناس تدخل وناس تخرج والناس يا ناس أنواع، ناس تدخل وتخرج مثل ريح البطن لا وزن ولا معنى، ناس فاترة وعابرة مثل أي شيء فاتر وعابر، لا تلفت الأنظار ولا تنبه العقول عكس سيد أفندي، سيد أفندي كان جمرة نار لهيبها يخطف العيون الغفلانة ويصحي النفوس "السهتانة"، وصوت الجمر يا ناس لا يسمعه إلا الموعود بالسمع والمكشوف عن قلبه الحجاب، وأنا بعد الذي جرى وكان في أواخر الأيام زاد عشمي في ناس الكفر من جديد، صحيح أنني كنت في بعض الأوقات أيأس منهم، نركب خيبة أملي فيهم جمل الملامة والعتاب ونسرح في

الدروب، أقول لروحي "أنت يا مدندش تؤذن في مالطة" تعدد مثل النسوان وتندب، وأنا أبــوح لكم الآن بكل ما كان، حتى خوفي الذي أسكتني أبوح به وأعترف لكم بأنني خواف بطبعي من لساني المفلوت، لساني اللتات العجان الفتان المعاند، واللسان المفلوت قادر أن يشــد صـــاحبه وراءه إلى أجله المحتوم قبل الأوان بأوان، وأنا شفت بعيني رأسي موتي ومــوت المغــدور، شفت دم الموت وهو يتقاطر نزيفا يوحي بالصحو إلى الأرض فتشربه الأرض الخرساء التـــي لا تشبع أبدا، أنتم تعرفون أكثر مما أعرف أمواتكم القدامى الذين غدرت بهم نبابيت وشماريخ وبنادق الخصوم، وأنا لم أشعل أيامها بالتعديد قلوبكم المردوم عليها بنعمة السكوت والنســيان، بيني وبينكم كانت عدودة أمل يا ناس، عدودة تحلم بإزاحة الهم الثقيل الراكز علـــى القلــوب، عدودة وجعت قلب عمدة الكفر أيامها أكثر مما وجعت قلوب الناس، وسوف أبين لكم ذلك في وقت آخر، أنا نفسي كنت قد وعدت بأن أكف، وعدت العمدة مرة، لكن وعد اللســـان شـــيء والقدرة على إسكاته شيء آخر، ثم إنني كنت أقولها لروحي، لكن عيال الكفر ملاعين سمعوها وداروا في دروب الكفر ورددوها، سمعتها نسوان الكفر وقالتها العجائز بتحريفات غيــر مـــا قلتها في المغدور الذي عرفته وجالسته وسمعته، عرفت أشواقه الساكنة في حشـــا قلبـــه كـــل سنوات غيابه عن كفرنا "الدندراوي"، كلام لا يخص ندابة ولم تسمع على وزنـــه الآذان فـــي سيرة الأموات.

ميـــن رجعك يا بنـــي	مين رجعك للموت؟
إزاي كـــــدة تسيبني	للنطع والهلفـــــوت؟
مش كنـــت جاي تبني	وتوعي ناس البيوت؟
يطولوك نيـــاب الديابة	وينهشوك وأنت ساكت؟

أنا قلت لكم أنها كانت مجرد أنة، أنة واحدة سمعتها منه، هل جرب أحدكم أن يصحو من نومه العميق على صوت أنة أو همسة لطفل أو طفلة تسبح في بحر نومها؟ أنا لم أجـــرب ذلك أبدا لأنني لم أخلف للدنيا أي خلفة من صلبي، نصيبي من الدنيا أن أكتفي بالنظر والسماع والقول، وفي هذا الصباح البعيد سمعت وقلت ونظرت ودخلت التجربة من أوســع الأبــواب، كأنني كنت الأم والأب يصحوان معا على أنه الموجوع، كأنني عوضت حرماني من الخلفـــة في تلك اللحظات، سمعته فأحياني من مواتي وأنا الغريب المقطوع من شجرة الأموات جربت، صحيح أنني عشت في كفركم "الشلبي" وحدي، لا زوج ولا خلفة ولا حتى حلم في مســـتقبل، لكنني جربت وأنا أسمع الأنة، أستعيدها على مسامع نفسي بنفسي، وكأنها شريط غنوة ترتاح لها غفلت عن سماعها لحظة واستعدتها لنفسك بنفسك، صحيح أن الأنة كانت وحيدة ولم تتكرر لكنني استعدتها وأفقت لروحي فالتفتت، ولم أتردد في الرمح ناحية البدن المرمي، ناحية ســيد أفندي المغدور والمحروس بأبدان الخفراء وبنادقهم، أطل على الوجه المطلـــي بخيـــوط الـــدم

وأرى العينين الصاحيتين تنطقان بكل اللوم وكل الرجاء وكل الوجع وكل العشم، تتحركان ناحيتي فتجعلني حبلا واصلا بين احتمالات الموت المدبر بخسة وإمكانيات الحياة، لو كان أي واحد منكم مكاني يا سادة من كان يسكت؟ لو تأكد لأي بني آدم أن المرمي عند مدخل الكفر هو فلان ابن فلان ابن فلان ولتاسع جد حسب ما تحفظ الذاكرة، لو تأكد النفر من الشبه وأشكال الملابس وخصوصية النظرة ونبرات الصوت بينما الخفراء يحرسونه ويحيطونه بأمر حضرة العمدة حديث الوعي والخبرة، الجاهل بالناس ومقامات الناس، القائل عن ابن أصل الكفر غريب مجهول، مجرد عابر سبيل مضروب ودمه الذي ينزف في تلك الساعة البدرية من الصباح، لو حصل ما حصل وكشفت الكذبة العرجاء عن خسة التدبير فهل يملك الإنسان المقدرة على السكوت؟ هل يستطيع أن يطبطب على كتف العمدة ويقول له عفارم عليك يا سبع؟ هل كان يقول لروحه "وأنا مالي"؟ ويهرب بجلده، أن يحتاط ويلاوع ويتظاهر بأن المرمي على الأرض يستاهل ما جرى له؟ لا أظن.. لا أظن، ومع ذلك ليته حصل، ليتني فعلت، لكنني نسيت روحي ونسيت أنني في زمام الكفر "الشلبي" ونطقت، كرهت ساعتها العمدة وأباه وجده، وطال لساني أو حاولت، بكل عزمي حاولت أن أعمل لهم مقدمات جرسة، لكن كفوف الخفراء الخشنة وكعوب بنادقهم أسكتتني، نزل على لساني شلل وعلى أطرافي شلل، انخرست، أبوح لكم بسر، أشعر أنني ساهمت في قتله، في تصفية دمه على التراب، صعب علي حاله فأخطأت ونطقت فانضربت وانخرست وفهمت أن حركتي في المكان تساوي موتي، لعلني خفت على روحي فحافظت على حياتي بالانكماش في المكان مشاركا في الجريمة بالسكوت، لعلني لو كنت حويطا لكنت تظاهرت بالتصديق وتباعدت في اتجاه البندر أبلغ الحكومة أو الإسعاف، أو حتى أتراجع إلى الكفر أهمس بما جرى لأي واحد من أولاد عوف وهم كثار كثار مثل ذكور النحل الذي يسعى وراء الملكة، مجرد سعي ناتج عن الفراغ ودون أمل كثير في أن ينالها، وحتى بوعي أن الذكر الذي سوف يصل إليها وينالها مقضي عليه وهالك بعدها، لم أفعل أي شيء، لا هربت ولا قمت ولا سكت ولا حتى تنفست بكلام له معنى، حتى بعد أن جاءت شمس الضحى وزادت الحركة وتبادل خلق الله الحكاية الحقيقية عن المغدور ابن عوف الذي تلقى رصاصة في دماغه أودت بعمره والأعمار بيد الخالق طبعا، حتى عندما اكتشفوا الخدعة المدبرة لم ينطق أيهم بشيء فهل كنت أنطق؟ حتى عندما أيقنت أنه انتهى وما عاد فيه أي رجاء لم أنطق، رأينا صالح عوف يجري في اتجاهي بقدميه العاريتين، يرفع عن البدن نبات الحلفا وحشائش الجسر، يتأكد أنه هو مثلما تأكدت أنا قبله، يلطم كما تفعل النسوان ويهدر مثل ثور هائج مسلوق ومسلوخ جلده حي في نفس الوقت، كان يهدر ويرج الأرض وأنا أنظر ناحيته فقط، لعلني كنت أنظر إليه مثلما فعل الأفندي معي قبل ساعة زمن وهو حي، يدعوني لأن أحاول، أكتم بيدي جرحه، أو أحمله على كتفي وأرمح في

سكة البندر، أطلب الإسعاف فلعل وعسى أن تكون الطلقة على السطح جارحة لكنها ليست بقاتلة، لعلني كنت أنظر إلى صالح بنفس الطريقة ولعله لم يلتفت أو التفت التفاتة هينة لانشغاله بما هو أهم وأخطر، كنت أنازع بوهن وحذر أرغب في البوح بشيء وأعترض على فكرة البوح في ذات الوقت، كنت قد أسلمت روحي للموت والشلل في ذات الوقت، مثل أرنب بري لا يملك القدرة على تخطي حاجز الهلع والخوف الكامن داخله من البني آدم الذي كان في ذلك النهار الأغبر مجرد عمدة مبتدئ في كفرنا "العجوري" ، وعندما جاء وكيل النيابة قلت لن أقول، هكذا فكرت، لو قلت، لو تجرأت ورحت وقلت هل كان يصدقني، وإذا صدقني فمن أدراني بحقيقة الفاعل، قد لا يكون للعمدة الشلبي صلة من أصله بمن ضرب، وربما كانت مجرد صلة تحريض ينحبس فيها عدة سنوات "وتبوش" القضية، وإذا لم يصدقني وكيل النيابة فهل يسكت العمدة؟ أم أنه سوف يستف لي التهم ويأتي بشهود زور على جنوني وإجرامي وقلة أدبي، شهود من كل أكابر الناحية على سرقاتي من غيطان الخلق، وشهود على علاقاتي بأولاد الليل وقطاع الطرق، وتهم كثيرة تلبسني مثل ثياب تفصيل وبالمقاس، دبرتها في عقلي وباختياري أطفأت نار قلبي بالخرس، وتواطأت مع العمدة الذي قالت عيناه بدلا من لسانه، تتوعدان باقتدار وقدرة، أنا لم أجرب أن أعرف من هو أكثر منه قدرة على الفجر في كل من عرفتهم في كل عمري، كان قادرا فاجرا بحق، لا خجل ولا حياء والعينان الضيقتان تتسعان غضبا في محاولة للتخويف، قلت لنفسي أفوت عليه وعلي الفرصة، ألعب دور الخواف، الأرنب البري الغريب الذي تخطى حدود المسموح. كان الأمر قد انتهى وعمل الناس ما يلزم، أخذوا تصريح الدفن وحافظوا على كرامة الميت، وفي كفرنا "البقري" يقولون إن كرامة الميت دفنه، دفنوه مثل العار في الليل الساكت الذي يزود سواده اللطم والندب والصوات، وأنا قلت في نفسي العدودة قبل أن ينطق بها اللسان بزمان، ومن كان له في كفرنا ظهر يا ناس لا ينضرب على بطنه، فما بالكم بمن له في الكفر ألف ظهر وظهر؟، وما بالكم بمن نزف الدم حيا في حراسة عمدة جاهل بحقيقة خلق الله في الكفر "الترابي"، أنا لا قلت ولا بحت، سألوني من بعيد لبعيد عن أشياء، سألوني من بعيد لبعيد عن أيام المغدور وكلام المغدور فجاوبت من بعيد لبعيد، وعندما اعترض حضرة جناب العمدة على آخر عدودة قلتها في "الجدع" سألوني عن سر اعتراضه، قلت لهم قلبه خفيف وجلده ناعم، وعندما سألوني عن أسباب ابتعادي عن الدوار وقعودي عند بوابتهم قلت لهم إنني أميل لهم، لدربهم، لناسهم، لشهامة رجالهم فهل في هذا أي شيء غريب؟ لحم أكتافي من خير أولاد عوف يا ناس.

ـــ "إن قلت ما تخاف وإن خفت ما تقول".

قالها صالح وهو يقيسني بنظرة، كان معه حسان ابن طه وابنه طالب الحقوق، قلت له أن يتركني في حالي، وقلت له إن العين وإن كانت بصيرة فهي لا تعلو عن الحاجب، دعاني

حسان لشرب الشاي فاعتذرت بأنني كرهت الشاي وضياع وقت الناس في إعداد الشاي، قلت له إن أكره شيء كرهني في شاي الغيطان هو انطفاء اللهب والجمر تحت بزبوز براد الشاي المغلي في الراكية، وقلت:

ـــ المرحوم كان جمرة نار.

ـــ ولسة في الحشا جمره يا مدندش.

ـــ خايف يكون كلام في الخلا يا زين شباب الكفر، يا عم الشباب وخالهم وأبوهم.

ـــ أقعد يمكن تكون دليل التايه وينوبك م الحب جانب.

ـــ يا ريتني كنت شفت ولا سمعت، كنت اتكلمت يا سي حسان.

ـــ ولا حتى شميت ريحة الريح؟

ـــ يا ريت.

هربت من الجواب بالسكوت وهربت من كوب الشاي، لكنني نظرت إلى صالح نظرة، ربما أكون قد تواعدت معه، نسج السكوت بيننا خيطا نحيلا نحيلا مثل خيط عنكبوت في قاعة مهجورة، وكان للخيط النحيل بيني وبينه طرفان مثل كل الخيوط المنسوجة بيني وبينه، علاقتي به كان لها طعم ولون غريب، فكان كل واحد منا يعرف أن الآخر هناك، موجود وحاضر، سامع وفاهم حتى ولو كان الكلام موجها للغير، كان يبدو دائما أنني لا أهمه في شيء، أنني أقل من أن يعترض على وجودي، صالح لم يعترض أبدا على وجودي في المكان، لكنني كنت أشعر أنه يفهمني ويقدرني من غير اعتراف منطوق، ما جدوى البوح بالرضا عني من واحد مثل صالح عوف، وما دامت علامات الرضا بالسكوت ظاهرة فماذا كان ينقصني منه؟ وهو الغشيم الغشيم المستعد أن يعارك الناموسة إذا زنت على مقربة من أذنه، كان في بعض الأحيان يوجه الكلام لغيري فأفهم أنه يقصدني، تصلني رسالته، وكنت أقلده، أقول الكلام لغيره في حضوره وأشعر أن رسالتي وصلته وفهم قصدي، ربما كنا أولاد نجم واحد أو ندور في فلك واحد ونخشى الاصطدام، نتحاشاه ونتباعد رغم القرب، وربما لم أوافقه في عمادة الكفر التي تركها تطير من بين أصابعه وكأنه ـــ أستغفر الله ـــ يرفس النعمة، لو كان احتفظ بها ولم يفلتها هل كان يحصل في كفرنا "السنجابي" ما حصل يا ناس؟ لكنها على كل حال راحت عليه وعليهم.

نرجع لحكاية الخيط العنكبوتي الواصل بيني وبينه، شدني الخيط في تلك الليلة ومشاني من داري لحد غيط صالح البعيد عند الترعة الكبيرة التي تفصل زمام كفركم عن زمام أرض سكان عزبة "الغرباوي" وكان صالح قد هجر الكفر والدار، سكن الغيط البعيد وصار ينام مثل وحش البراري في خلاء الغيطان أو في زريبة المواشي، طلباته يقضيها له البعض من الكفر أو من دكاكين العزبة، لكنه حرم على نفسه السكن والحريم وغسل الثياب أو تبديلها بعد ما

حصل الذي حصل للأفندي المغدور، لعله كان يشعر بالذنب لأنه لم يكن هناك ليحميه من العيار الطائش الذي طاله أو العيار المتربص الذي أودى بعمره، ولعله كان يلبس عاره ويتوارى به بعيدا عن عيون الخلق، لكنه كان هناك في الطل رغم برد الشتاء يتغطى بحرام خفيف مثل الشاش، فيه من الحرام اسم الحرام ومن الصوف ملء قبضة يد في برد "طوبة" وعراء الغيطان، كان قد صام عن الكلام ونصف الزاد، يأكل الضروري ليحافظ على عمره، يكثر من شرب الشاي وتدخين المعسل، يدخن حتى تركبه الكحة ويحتقن وجهه بالدم، تحمر عيناه فتبدوان للناظر مثل عيني ذئب شارد وهربان من قطيع كلاب صيادة لا تكف عن النباح، كان خيط العنكبوت يسحبني ناحيته وسط النهار أو بدايات الليل قبل ذلك، لكنه لم يسحبني إليه مثلما فعل في تلك الليلة بعد أن انتصف وقبل أن يؤذن فجرها للصلاة، ووسط ناس الكفر كنت أتوه، أشاركهم جلسات القيلولة أو سهرات الصمت حول براد الشاي وجمرات اللهب وهي تحرق المعسل وكأنها تطفئ ما هو قابل للاحتراق، ووسط الناس كنت أتحاشاه ولا أتصادم معه. لكنه كان في ذهابي إليه في تلك الساعة وأنا العارف أنه ربما نام أو أحاطه القلق فارتكز نصف نائم نصف صاح وقد توحد مع روحه مثل نجم وحيد في سماء شتوية ملبدة بالغيوم والسحب وإمكانيات الرعد، كان المشوار طويلا والتلفيحة التي أحطت بها رأسي وأذني وعنقي عاجزة عن صد الريح، لكنها قدماي تتابعان السير، كأنه كان نذرا ويلزم أن أوفيه رغم الصعاب، وأنا من وفى في كل عمره كل نذر، هل كنت نذرت نفسي مرة من غير علم نفسي لريح الشتاء وعواصف الأيام؟.. هل كان يلزم أن أذهب إليه في تلك الساعة لأشير إليه بطرف إصبعي فيفهم عني رغم السكوت وعدم النطق؟ ربما كنا قد تواعدنا على المكان وحددنا الزمان في غفلة منا، ذلك أنني وجدته على نفس الحال الذي تخيلته، مرتكزا على كفه المسنودة على ذراعه المسنودة على كوعه المسنود على "طوالة" المواشي الخالية وسط "الزريبة" عيناه تنظران إلى السماء المعبأة بالسواد والسحب المعتمة، لعله كان يجاهد أن يصطاد نجما بعيدا يتخفى وراء السواد، يجاهد بيأس كامل وأمل عنيد في أن يراه.. وعندما دخلت لم يتحرك من مكانه ولم يلتفت ناحيتي أو حتى يهتز.. سمعت صوته الآمر يهمس بود:

ــ اقعد يا مدندش.

وقعدت، لعلني نظرت في اتجاه الفراغ الذي كان ينظر إليه أبحث بدوري عن النجم المستحيل أو الشهاب الغارق في بحر السواد.. وكان هناك في الراكية بقايا جمرات توشك على الانطفاء تحت رمادها الهش، نفخت الرماد فبان ضوء اللهب الشحيح وكان هو ما زال على حاله، ومن البعيد البعيد سمعت صوته رغم الاقتراب إلى حد التلامس:

ــ ولع الراكية.

كنت أعرف الركن الذي وضع فيه عيدان الحطب وقطع الخشب الجاهزة للاشتعال، فتحسست بكفي وحصلت على عيدان الحطب، لكنني لم أجد غير كتلة خشب مستطيلة، شريحة وحيدة أطول من طول ذراع، أخذتها وركنتها إلى جواري بينما كسرت عيدان الحطب الجاف وألقيت بها فوق بقايا الجمرات الملتهبة، ونفخت فيها عدة مرات، ولا بد أن رماد الجمرات غطاني قبل أن يتناثر الشرر القليل ثم يتكاثر ويتزايد قبل أن يندلع لسان النار، أسمع طقطقات العيدان وهي تزغرد للسان النار أو تزغرد به، وأراه وما زال على حاله وإن التفت ناحيتي بنظراته نصف التفاتة، بطرف عينه يراني وبطرف تلفيحتي أراه، وضعت كتلة الخشب فوق الراكية فبدت لي مثل "معدية" عريضة فوق شاطئين لبحيرة مدورة يطلع منها لسانان من لهب عنيد، يحوطانها وهي ساكنة على حافة الراكية رغم هوس النار ووعيدها المسموع، وبدأت في ضوء اللهب أراه ويراني، يعجز كل منا عن إنكار وجود الآخر، أما أن يسعى أحدنا وراء الآخر مسلما له بحق التقدم عليه أو أن نتعارك، نتقاتل مثل أي وحشين غريبين في مثل هذا العراء وذلك الصقيع الذي يحيطهما رغم وجود النار وقد تمكنت من منتصف كتلة الخشب، أحاطتها مثل حزام عريض ونالت وسطها فاشتعل رغم سلامة الطرفين وابتعادهما عن النيران، وبكفه ولا أدري لماذا فعل، رأيته يهوي على كتلة الخشب الملتهبة والساكنة في وسط النار.. يهوي عليها فيقسمها نصفين، والغريب أن النصفين لم يكتفيا بالانقسام وإنما سمح أحدهما لآخر بأن يركبه ركوبا كاملا.. وفي وسط الراكية صارت كتلة الخشب كلها محاطة بلهيب النار بعد الانقسام.

ــ قول..

قالها فشعرت بأنني قابل للانقسام إلى نصفين تماما مثل كتلة الخشب، وفكرت أن الكتلتين من الخشب تطولهما نفس النار رغم ركوب الواحدة فوق الأخرى في قلب الراكية، نظرت إليه وقلت باستسلام:

ــ كان جمرة نار.

ــ قول..

ــ أنا كنت ناوي على سوق الخميس منعوني..

ــ غنيها يا مدندنش..

غنيت الغنوة وشعرب بالدفء، كان خيط العنكبوت قد تحول إلى حبل تيل مجدول قادر على جر فحل جاموس، ابتسم لي واتفقنا بالصمت الذي أحاطنا على عدم الكلام في أي موضوع، كان قد عرف ما يكفيه وكنت أعرف أنه عرف ما يكفيه ويعرف أنني عرفت أنه عرف ما يكفيه، كان الصهد يحوطني ويزيح عني رعشة البرد التي أوشكت أن تسكن بطني، وكانت السماء هناك مشحونة بالسحاب والرعد وربما بماء المطر أو كرات الثلج الصغير ،

وكان فراغ الغيطان يشهد أنني لم أبح بشيء ولا هو فكر في أن يسألني عن شيء على وجه التحديد، تمددت على الأرض فغطاني بطرف حرامه الخفيف الذي كان يسمح لصهد النار بالدخول إلى أطرافي يدفئها، وقبل أن أغفل أو أنام سمعت صوت الأذان ينادي لصلاة الفجر من زاوية عزبة الغرباوي، ربما سمعته بصحيح وربما خيل إلي أنني سمعته قبل أن أغطس في النوم ولا أصحى لروحي إلا على هزة من كف صالح، وكانت هناك رغم سواد الليل شمس طالعة ونهار قلت فيه الريح وسرحت إلى الأفق البعيد منه سحاباته المعتمة التي كانت تملأ سماء الليل ولا تنزاح.

لا أذكر كيف رجعت إلى داري في الكفر ولا أعرف بماذا كنت أحس، لعلني كنت أشعر بنشوة تحت الجلد وخجل في الدماغ، شيء مختلط ونادر الحدوث، كنت أسحب نفس وأتسحب في دروب الكفر وأنا ذاهب إلى داري، لا أرغب في النظر إلى أحد أو أن ينظر إلى ناحيتي أحد، كأنني كنت عذراء فقدت عفتها باختيارها ورضاها لحبيب قلبها الذي رغبت فيه وتمنت وصاله، سعت إليه ووهبته روحها ثم أفاقت على ضرورة الرجوع إلى دارها لتسكن وتتدبر أمرها في مستقبل الأيام، كأنني كنت فارسا قطع الطريق الصعب إلى مخبأ الغول، وبالحربة أو بالسيف مزق أطرافه وسيح دمه على الأرض ثم عاد، وعندما كنت في داري شعرت أنني كنت أتشمم رائحة الريح وأرى على نحو خاطف ما سوف يجري في كفرنا "العواف" من أمور في مستقبل الأيام.

ليلتها كنت أقبع في ركن المندرة المزحومة بالرجال، يحيطونه ويصبون عليه النظرات، وكان هو يتكلم بحماس لا يشوبه أي حذر، كأنما لم تكن للحيطان آذان في دار صالح، حتى عندما حذره حسان ابن طه مداعبا:

ـ الكلام ده يودي ورا الشمس لو حد مننا قاله.. بس أنت يا سي سيد باين عليك مسنود.

ـ مسنود بالناس.

ـ محدش في الحاجات دي بيعمل حساب للناس.

ـ طيب نسأل المدندش.

قالها سيد أفندي وهو ينظر ناحيتي، وكأنه مد ناحيتي حبلا وطلب مني أن أتعلق به وأخرج من أعماق الجب الذي كنت أتوارى فيه، أطلع إلى السطح وأبدي رأيا وسط أكابر ومدرسين وطلبة في الجامعة والمدارس، قبلها قلت لروحي كن في حالك يا مدندش، كل لقمتك بالسعي وأحمد ربك، مالك أنت بأيام الملك الذي طردوه أو أيام عبد الناصر التي جاءت بعد اللواء محمد نجيب، صحيح أنك يا مدندش بني آدم، لكني هل كل بني آدم منا مسموح له بأن يقول للخلق رأيه في الحكام؟ والرأي شيء غير التعليق السريع أو النكتة العابرة، قلنا نكتا

كثيرة في الملك واللواء وقلنا أكثر في عبد الناصر ونقول في السادات، لكن هل النكتة تقدم أو تؤخر يا ناس؟ ألف نكتة تفوت وألف نكتة تفوت، وألف ألف نكتة تتوالد وتموت لكن الحاكم يبقى حاكما والمحكوم محكوما، وهذه طبيعة الدنيا بأسرها، لكن يا مدندش الرأي شيء آخر، وما يقوله سيد أفندي رأي في الحاكم والناس ويلزم أن تقف معه أو ضده، كنت يائسا من الناس وسكوت الناس وكلام الناس، وكان هو يحلم بناس غير الناس، ناس تقول الرأي ولا تتردد، ناس تدافع عن حقها بلسانها وعقلها وفعلها، وجادلته، قلت له إن ناس كفرنا وكل الكفور المجاورة اختارت السكوت لأن الكلام طنطنة حروف، ولأن أدوات الفعل معدومة والوعي القليل مزروع في سكك السعي وراء اللقمة، وقلت له ما كنت أعرفه عن هوجة عرابي وأيام سعد زغلول والحماية وبنادق الإنجليز، وسألته إن كان الدم الذي سال قد بنى في الأرض قصرا للمكافحين أو حتى عشة؟ وقلت وقلت وقلت، كأنني كنت في جرة وخرجت للناس، كأنني كنت محبوسا في قمقم وفتح لي سيد أفندي الغطاء فتجاسرت ونطقت ونلت استحسان الكل بما فيهم سيد أفندي نفسه وختمت كلامي بالرأي الصريح:

ـ عبد الناصر كسر قلوبنا بالهزيمة وسلمنا للسادات. والسادات باع واشترى فينا وخد عمولته من دمنا!؟

كنت جريحا وكانوا جرحى، وكان سيد أفندي مثل جراح محبوس في غرفة مملوءة بالآهات والوجع، عاجزا عن معالجة الكل في نفس الوقت وعاجزا في ذات الوقت عن الاختيار، من أين يبدأ؟ وإلى أي موجوع يمد يده ويحاول أن يداوي ويخفف الآلام وبأي حق يترك الآخرين وهم ينزفون ويصرخون ويطالبون بتخفيف الوجع، وربما أشفقت عليه ساعتها وهو يتعرض لسخرياتهم في حلمه المستحيل، يستشهدون بكلامي وكأنه نهاية المطاف، خلاصة الحكمة الساكنة في القلوب وهي تواجه كلام الأفندية المطلي بآراء العقلاء الذين قرأوا كلامهم في كتب الجامعة ومطبوعات الحكومات، وأنا قرأت بعض هذه الكتب وكادت أن تبدلني، تغيرني، تنزع عن جلدي جلدي وتغطيني بجلد غيره، لكنني كنت مزروعا في طين الأرض، محميا برائحة الغيطان ونسيم الفجر وخبث الناس وحيطتهم من غريب حتى ولو كان أفنديا سرح في أركان المدن البعيدة مع أب له فات الكفر برضاه في رأي البعض وغصبا عنه في رأي البعض الآخر، وفي كفرنا يحق لك الخروج والدخول طبعا ولن يتغير شيء بشرط أن تكون على ذمة الكفر، مربوطا معه بخيوط الود أو حتى العداوة، سيرتك موصولة ودائمة وكأنك تارك فيه ظلك أو بعض نفسك، أولادك أو دارك أو ميراثك أو زوجك أو حتى عملة عملتها فنلت بسببها الإعجاب أو الغضب، تخرج وأنت على ذمة الكفر وترجع في أي وقت حتى ولو عدت في أرذل العمر بعد تأبيدة قضيتها في اللومان مثل السعيد ابن نجاتي الذي قتل عمه وأمه ودافع عن شرفه فاستحق أن يبقى اسمه على ألسنة الناس رمزا للسكوت الطويل

انتظارا للوقت المناسب، وعندما جاء الوقت فعلها وسلم روحه لمأمور المركز، أيامها كان ناس من الكفر تقول إنه شهم وناس تقول إنه خسيس لسابق معرفته بمسألة علاقة أمه مع عمه التي فاحت رائحتها وزكمت كل الأنوف، كان يبدو مثل عبيط مفتوح الشدقين بمناسبة وبدون مناسبة، يسمع الكلام الجارح ولا يرد، وكان بعض شباب الكفر يزغده في صدره أو يلطشه بالكف على صدغه، لكن السر كان في قفاه، ذلك أنه عندما تلقى أول صفعة على قفاه أفاق، كان عباس ابن بحر هو الذي صفعه على قفاه وقال له في ساحة المولد:

ـ عمك راكب على جدار داركم حماري يا تيس.

يومها تحسس قفاه وردد:

ـ تيس، تيس، وكل وقت وله أدان يا عباس يا بن بحر، ياللي بنت عمك فرشت تراكيب الغيطان بثوبها للي يسوى واللي ما يسواش.

وضحك الناس، وضحكت أنا مثلهم، لكن ضحكنا تحول إلى اندهاش في فجر نفس الليلة ونحن نسمع ما جرى لأم السعيد ابن نجاتي وعمه، كان الرجل والمرأة هناك في نفس الدار أشباه عراية وفي وضع فاضح رغم حرصهما لحظة المفاجأة على التستر، وكان هناك إلى جوار الجسدين رأسان مفصولان على ما يبدو بضربة واحدة محكمة التصويب، ضربة قادرة ومغلولة ومفلوتة بعد طول السكوت، وكان السبب كما لاح لي ولكل الناس مجرد كف على القفا، لسعة غير محسوب حسابها جاءت من حيث لا يحتسب، من راحة يد عباس ابن بحر، ذلك الذي اختفى هو أيضا في نفس الوقت، كان السعيد قد أسلم نفسه لمأمور المركز، أقر واعترف بما فعل، وفي المحكمة دافع عن شرفه بكلام قليل لكنه كان حريصا على إبلاغ من جاءوا من الكفر بأن يقولوا لعباس ابن بحر إنه مديون بدم بنت عمه لناس الكفر، طلب المحامي الذي عينته الحكومة للدفاع عنه من قاضي الحكومة الرحمة وتخفيف الحكم على الجاني الذي نزع الله من قلبه الرحمة، فنطق القاضي بالمؤبد بدلا من الإعدام، من يومها ظل السعيد ابن نجاتي في ذاكرة الناس، لكن ابن بحر الذي اختفى لم يختف من الذاكرة تماما، ظلوا يذكرونه ويذكرون المثل القائل بأنه هناك في هذه الدنيا ناس بيوتها من زجاج لكنها لا تكف عن رمي الناس بالطوب، وأنا يا ناس كفرنا "المستكاوي" مندهش من ناس كفرنا "العندليبي" الذي يتصرفون في بعض الأمور المتشابهة بطرق مختلفة، يتذكرون الجسور والرعديد، القاتل والمقتول، الجاني والضحية بشرط أن يكون ذلك في زمام الكفر وعلى ذمته، أما من تباعد أو ابتعد فلا يخصهم في شيء.. حتى لو كان ما يربطهم به هو الاسم والدم وتقاطيع الملامح وهيئة الأبدان.

نرجع لحكاية سيد أفندي:

هل كنت أنا أقرب إلى ناس كفرنا "العنابي" من سيد أفندي؟ هل كنت أنا الغريب الحقيقي المقطوع من شجرة الأموات أقرب لقلوبهم منه إلى هذا الحد؟ هل ظلمه الناس حيا وقد جاء إليهم بعد طول الغياب إلى حد أنهم كانوا يودون لو كنت أستطيع أن أنتصر عليه أو أن يشهدوا هزيمته ولو كان ذلك عن طريق الغريب المدندش؟ أعرف أنه تربى في الغربة لكنه مولود في كفركم "القراقيشي" عاش في المدن البعيدة، على غير إرادة منه، ومهما اختلفتم أنتم في مسألة حسن عوف مع عبد القادر فهو يا ناس منكم، رجع لكم بعد أن طاف ولف ودار في المدن البعيدة، صحيح أنه راجع ليكون قريبا من قبر ابنه، لكنه رجع، ناس من عواجيز الكفر قالت أنه أخطأ عندما ترك الأرض والناس والأهل وانقطع، وأنه أسلم روحه للمدن البعيدة، جعل شوارعها تسكن ذاكرته وذاكرة ابنه بدل الغيطان والسواقي وريح الأرض، واستسلم في أول عراك فاستحق النسيان، بينه وبينكم مسافة يصعب اجتيازها، مثله مثل الولد، ذلك الذي جاء بإرادته ليعرف ويتعرف ويكتشف، ربما لأن البعيد عن العين في كفرنا "الكموني" بعيد عن القلب، ما علينا، ناس أخرى من عجائز الكفر قالت كلاما آخر، قالوا إن حسن كان أضعف من أن يقف في وجه الأب القادر، وقالوا إنه اشترى عمره بالابتعاد.. وقالوا إن الولد مسكين على كل حال.. لكنهم جميعا، كل عجائز الكفر شعروا أنه لم يعد يخصهم، لا هو ولا ابنه الأفندي الراجع، كان الكفر بكل ناسه رغم اختلافاتهم اتفقوا عليه، كأنهم لم يباركوا يوما دخوله حدود كفركم "البنفسجي" أو معاملته على أنه واحد منكم، أنا أثرثر مجرد ثرثرات، أعرف ذلك، لكنني أفكر معكم بصوت مثلما كان هو يقول.. أفكر بصوت فاسمعوني.

المسألة في غاية البساطة، كان من الممكن أن يطلع منكم برضاكم أو غصبا عنكم، ويعود إليكم بالمثل، برضاكم أو غصبا عنكم، شيء مثل نقطة الدم التي تعصرها من إصبعك بعد شكة بالدبوس أو الإبرة، بإرادتك أنت رغم الوجع تعتصرها وبرغبتك أيضا تمتصها، دون أي احتمال للشعور بالقرف، هي نقطة من دمك أنت تدخل في فمك أنت باختيارك، ولو أجبرك الحكيم على ذلك ربما ترددت ألف مرة، ببساطة كان هناك حاجز غامض لا أعرفه يفصل بينكم وبينه، بيني وبينه لم يكن هناك أي حاجز أو مسافة، ربما لأنه وسط الزحام كان يبدو لي وحيدا مثلما أنا وحيد، وحيدا وحزينا ويحاول أن يتصالب بعسر، أن يحدثكم عن تاريخ الفراعنة أو يحكي لكم تواريخ الثورات أو عادات القدامى، كان يجاهد أن يصل إليكم مثلما أجاهد أنا منذ نزلت ميدان كفركم وورثت صندوق الدنيا وطبلة المدندش الكبير وصاجاته، ثوبه وزعبوطه وطرطوره وطول لسانه، أنا حسنين المدندش ابن حسنين المدندش مولود وسط ناس الكفر ورغم الاغتراب والابتعاد كنت أعود، لم يعترض أي نفر منكم على سفري أو رجوعي، ربما لأنني كنت أسافر وأنا على ذمة الكفر، ذاهب أو راجع، غائب أو مقيم وأنا على ذمة الكفر، أما هو.. فكان كما قال الجد طه في إحدى السهرات:

ـ ابن البلاد البعيدة، مين يعرف إن كان هو هو اللي يخصنا ولا الخلق في المداين بدلوه، لبسوه بدلة وغيروا لهجته فصار منهم، يخصنا منه اسمه وكسمه، لكن بيننا وبينه حدود..

كان بينه وبينكم حدود.. وكانت بينه وبين صالح مسافة باتساع الغيطان التي زرعها صالح وانزرع فيها، وكان يغني في الأمسيات أحيانا والخلاء يحوطنا وفي صوته أسى غويط غويط:

"أنا المصري كريم العنصرين "

فأوشك أن أقاطعه وأسأله إن كان بالفعل كذلك، لكنني كنت أخجل من نفسي، أوبخ روحي لأنني نسيت أنه أول طرح مبروك ما بين أولاد عوف وأولاد شلبي، هؤلاء القدامى وهؤلاء الجدد على الكفر الذين أوشكوا على امتلاكه، وأحيانا كنت أرد عليه بحماس أكثر من حماسه:

"أنا المصري كريم العنصرين "

فأينا يا ناس كان المصري كريم العنصرين؟

بيني وبينه زالت كل الفواصل والحدود، ارتحت له وارتاح لي، كان يكاشفني وأكاشفه، يحكي عن سنوات اغترابه وأحكي عن سنوات الرحيل، السعي المجنون وراء اللقمة وأيام العشق التي جرجرتني وراء بنت العرب التي جاءت الكفر مرة تستجدي ما يجود به الأكابر فخطفت عقلي، أسرت قلبي وروحي. جعلتني أسعى خلفها منشدا للسيرة النبوية والهلالية وسيرة عنترة، أغني وترقص هي ومن كنت أحسبه شقيقها يلم النقوط، يكنز الجنيهات بدعوى أنه ينوي تجهيز البنت يوم يتقدم لها ابن الحلال الذي يستحقها، أيامها كنت أحسب أنني ابن الحلال الذي يعنيه حتى كان ما كان، حكايتي مع وهيبة قلتها له بكل ما كان فيها من تفاصيل، وكان يحسن السماع، يدعوك لأن تواصل الحكي دون حذر، تحكي وكأنك تقول لروحك في الخفاء دون أي خجل أو تردد أو رهبة، وهيبة لحست عقلي وتوهت روحي وأفقدتني كل أمل في الدنيا وبعثت في مشاعري كل ألوان الرجاء والحلم، وهيبة التي لم أبح بكل سيرتها لأحد غيره غيرتني وأعادتني للكفر مدندشا آخر، وأنا قلت لكم بعض ما كان من وهيبة، لكنني لم أقل لكم كل شيء، وقد لا أقول لكم كل شيء أبدا، يكفي أن تعرفوا أنها كانت وراء انفرادي بروحي كل هذا العمر دون زواج أو خلفة، من أجلها سرقت ولوثت كفوفي بدم البشر، وكانت هي السكين الذي سرق عمري، سكين مسنون النصل شديد النعومة إلى حد الذبح دون وجع كثير، ذبح الناعم كالحرير وأنعم، ذبح يبقى الرأس مكانه ولا يظهر أثر النصل فوق ثنيات العنق، هو نوع من الذبح المخصوص ذلك الذي جربته مع وهيبة، ووهيبة كانت أعرابية، دخلت كفركم "السهران" تهز وسطها وتطلب الثمن فطالتني بعينيها الحويطتين المكحولتين تحت

جبينها الهلالي وصوتها مثل كروان يسبح في الفراغ بحمد الله على الصحة والجمال والسـتر، سرحت وراءها دون علمكم طبعا، لكنها كانت وراء هجرتي وعودتي، غيـابي ورجـوعي، وراءها درت في كل بلدان البر، الريف والحضر، بحري وقبلـي، الجبلـي والصـحراوي، وهبتني وهيبة من حسنها أقل القليل لكنها أشبعتني وروتني، توهتني وأعادتني لأصلي، ولـولا كلامها ما رجعت إلى كفركم "المسامح" أعيش وسطكم وأحصل على رزقـي، ويبـدو أنهـا حسبتها حسبة صحيحة لأنها كانت بارعة في الحساب، عرفت منتهى عزمي وأدركت أنني لا أقوى على الاستمرار معها وحولها وهي محط أنظار ناس تشبه الغيلان، رأتني مثـل عـود قصب معصور وممصوص خيره فأوحت لي بأن أرجع، وأنا مع البدوية كنـت أطـاوع دون مناقشة، كنت مثل خاتم في إصبعها، طيعا مثل قط رومي ووفيا مثل كلب أرمنـت، رجعـت وصدقت أنها سوف تتخلص من كل ما يعوقها عن الحياة معي وترجع إلى كفرنا "النعنـاعي" تعطيني بقية عمرها وتأخذ ما تبقى من عافيتي، قلت لكم إنني صـدقت ورجعـت، انتظـرت وانتظرت، لكنها لم تأت قط، لا جاءت كفرنا أو أي كفر أو بلد في كل الناحية، مـن نـاحيتي عملت بالوصية:

ـ إوعاك يا مدندش تبص لحد غيري.. إوعاك أرجع ألاقيك متجوز واحدة من بنـات الفلاحين.. استناني، مهما طال الغياب استناني.. ح أرجع لك وأعيش ويـاك، وح أعوضـك وأنسيك سنين الحرمان والغلب.

بذلك قالت البدوية، وأنا من ناحيتي صدقت الوعد، وقلت انتظر، وطال انتظاري ولـم تظهر علامة الرجوع أبدا، لكنني لم أيأس، كنت أستعيد عينيها الحويطتين وأسألها عن موعـد الرجوع فتهرب مني مثل جنية صغيرة، أسرح بالخيال في أعقابها ولا أطولها، لكنه يبقى فـي ركن القلب بعض الرجاء في أن ألتقي بها في العمر مرة، مرة واحدة، ظـل حبـل الرجـاء ممدودا وموصولا بيني وبينها، سنوات وسنوات فاتت من عمري، خرج السعيد ابن نجاتي من حكم المؤبد بعد أن قضى ثلاثة أرباع المدة، وأنا لم يصدر حكمها بالعفو عني، قلت كل شيء لسيد أفندي، قلت كل شيء وكان يسمعني، يدعوني للاستمرار في الحكى، أراحني، خفف عني وضاحكني وأزاح عني وهم الانتظار بلا جدوى، أكد لي أنها ما دامت قد وعدتني فسوف تفي بالوعد، وحكى لي شيئا عن وعد الحر، وعد العربي الحر، كان الأفندي يحب العـرب، كـل العرب والأعراب والبدو المتنقل، وكان يحب عبد الناصر ويكره السادات، وكان يحلم مثلمـا أحلم بالأعرابية، يحلم بوحدة العرب ويحلم بالزمن العربي ويبثني أشواقه لذلك اليـوم البعيـد الذي تعود فيه وهيبة ويتوحد كل العرب، وكنت أشعر أنه مصاب بنوع نادر من أنواع الخبل، خبل العرب إن جاز لي أن أقول: كان يرى أنه من الحتمي أن يجيء اليوم الذي يتوحد فيه كل العرب، يتقابلون في واحدة من عواصم العرب، يتعانقون ويختارون قائدا أو زعيمـا يتـولى

أمرهم في مسائل الحرب والسلام، العجيب العجيب أنه كان يتخيل هذا القائد أو الزعيم ويصفه لي فأرى وجه عبد الناصر الطالع وقد تألق بالشباب وازداد وعيا بدوره الكبير، ما علينا، ما لنا بعد الناصر الذي اختلفت معه في شأنه، ثم ما لنا بالسادات الذي أوشكنا أن نتفق في شأنه، ثم من أكون أنا ليكون لي رأي في المسائل السياسية وهي وظيفة الأفندية؟ ربما يكون سر تباعد ناس الكفر عنه هو هذا الاهتمام الزائد عن حاجتهم بالسياسة، اهتمامه هو طبعا الذي يزيد عن مقدرتهم على الانشغال، السياسة في كفرنا لقمة عيش وثوب ومسكن يريح النفر فيه جنبه ويقيه سخونة الحر في الصيف ورعشة البرد في الشتاء، السياسة في كفرنا شاي وسكر وزيت ودقيق وسمن وقرش جار في الجيوب وسداد ديون، ما لنا بالسياسة؟ وهل نفعتنا السياسة أبدا، راح الملك وصفقنا لمحمد نجيب، ذهب محمد نجيب وجاء عبد الناصر، صفقنا لعبد الناصر حتى أدمينا أكفنا من كثرة التصفيق وراح عبد الناصر فطلع لنا السادات، حكى لنا كل يوم حكاية شكل عن جدته وأخواته وناس كفره الأصغر من كفرنا وكأننا لم نذهب إليه أو نعاشر فيه ناس، هل أطعمنا السادات كما قال؟ وهل؟ وهل وهل؟ وما قيمة السياسة ومن يشتغلون بها إذا كان ما نتمناه لا نلقاه وما نحلم به لا يتحقق؟ الناس في كفرنا وكل الكفور المجاورة تموت بالمرض الناتج عن الإهمال والجوع أو تموت بالغدر مثل سيد أفندي، وهناك دائما ذلك المجهول المعلوم لنا، مجهول لهم هم يحرصون على تأكيد وجوده وكأنه من مصلحة البعض أن يظل البعض مجهولا للبعض رغم كونه معروفا للناس، أرزاق هي تتوزع في الخفاء والعلن لكن رائحتها تفوح حتى ولو كانت في البعيد البعيد، ربما لأننا ورثنا في خلايانا المقدرة على كشف الأسرار فصار كل شيء في حياتنا واضحا وظاهرا مثل شعاع الشمس وكل المطارات السرية والحسابات السرية وشروط المعاهدات السرية مثلما قال لي ذات مساء صاحبي الذي خطفه المجهول المعروف، سيد أفندي المغدور قال لي وصحاني من غفلتي، أو قل إنه أكد لي صدق ظنوني، كان بالنسبة لي مثل كتاب مفتوح وكنت بالنسبة له معروفا ومقروءا، فهل مت أنا في ذاكرته بينما مازال يحيا في ذاكرتي؟ وإذا كان ذلك كذلك فمن منا الذي مات؟ وإذا كانت ذاكرته التي انطفأت مثل سراج وهاج انتشر ضوؤه قبل أن تعصف به الريح الصرصر العاتية فانطفأنا وساد حولنا الظلام بينما هو باق، كأنما أخذنا نحن من منطقة النور إلى منطقة العتمة بعيدا عن أي ضوء أو شعاع فدعاني لأن أندب نفسي فيه وقد توحدت فيه زمنا لا يفصل بيننا فاصل، تصاحبنا وتساوينا وتبادلنا الكلام المفتوح بلا حواجز أو حدود، دعاني لأن أفتح مغاليق نفسي وأن أفسح للساني حرية البوح والقول بلا تردد أو مخافة، دفعني دفعا لأن أعلن خلافي معه ولا أكتمه. كنت أفعل أحيانا لكنه ليس دائما فلمن أبوح من بعد رحيله بسر المفاسد والأكاذيب؟ ولمن أشكو وقد شاخ القلب وشابت خلايا الدماغ من كثرة ما شفنا في عمرنا من مراوغات؟ مراوغات الكبار.

قبل أن أعرف سيد أفندي كنت أتفنن في سرقة الكتب لأقرأها، وكنت أصدق نفسي بأن من يملكون الكتب نادرا ما يلتفتون إليها أو يضيعون الوقت المناسب في القراءة، يقرأ الكتاب من لا يملكه، على الأقل يتمني قراءته، وفي الكثير من بيوت الأكابر كنت أرى صفوف الكتب وقد غطاها الرماد الدقيق بما يؤكد أنهم لم يقلبوا صفحاتها مرة، كنت أحتال وأسرق الكتب من أكابر هذا الزمان المقلوب إذن، أقول لروحي إنه حلال لأمثالي أن أعرف أي شيء آخر غير ما أعرف، بيني وبينكم تهت، الكتب متاهات ودهاليز ومسالك ملفوفة لكنها تدعوك لأن تتحسس السكة رغم السواد والعتمة، ما علينا، أخطر شيء، أخطر شيء في هذه الدنيا أن تتبدل، تتغير أفكارك عن الأشياء، باختيارك أحيانا ودون وعي في حالات أخرى، وما جرى لي بعد أن قابلت سيد أفندي هو شيء من هذا، سرقت منه كتابا، كنت قد أوصلته إلى دار صالح في ثالث زيارة أراه فيها، حملت عنه حقيبة وسألته:

ــ مالها ثقيلة كدة ولو أنها صغيرة.. معبيها زلط يا سي سيد؟

ــ أبدا.. فيها كتابين..

قلت لسيد أفندي بيني وبين نفسي "أنت الجاني على روحك" تحمل كتب أفندية البنادر إلى كفرنا "الفركوحي" وتظن روحك قادرا على الخروج بها وأنا موجود؟..

جاوبته على أسئلته في السكة من دحديرة الكوبري حتى دار صالح، ناولته الحقيبة عند الباب واستأذنت رغم دعوة أهل الدار لي بالدخول، وعدته بالمرور في الليل، وفي الليل نصبوا في المندرة سهراية شاركتهم فيها، وأنا خارج دفست الكتاب في عبي، كنت قد رأيته وأنا داخل فوق رخام الترابيزة المحطوطة أسفل دولاب الحائط في قاعة صالح، قبلها كنت قد امتلأت، حصلت على "ورك" ذكر بط محمر لزوم إكرام الضيف وضيفت الضيف، وفي داري أخرجت الكتاب وفي ضوء المصباح الخافت عرفت بيرم غير بيرم مؤلف أهل الهوى يا ليل، بيرم شاعر دمه خفيف عارف للناس وطباع الناس، سهرت الليل بطوله حتى قرأت آخر صفحة من الكتاب، أقول لكم حقيقة غابت عني، بيرم حببني في سيد أفندي، ربط بيني وبينه برباط خفي، شيء غريب لم يحدث لي من قبل، أن يحببني كتاب مسروق في صاحب الكتاب المسروق لكنه حدث، كان النهار الطالع يملأ وسط داري بشمس الله الدافئة، وعندما رحت أفتح الباب للطارق كان قد لمح الكتاب بنظرة خاطفة سارع بتفويتها، رحبت به وأنا مندهش أشد الاندهاش، دخل الدار ببساطة وجلس على الحصير الذي فرشته تحت شمس الضحى، قلب في الكتاب وسألني ببساطة:

ــ قريت فيه؟

ــ قريته كله يا سي سيد.. ده دنيا بحالها.

ــ غريبة..

كانت عندي تلقيمة شاي وعلية سكر كاملة، فشربنا الشاي واتفقنا أن آخذ منه الكتب لأقرأها وأعيدها إليه بعد القراءة، حدثته عن الكتب التي قرأتها وتلك التي سرقتها ولم أكملها فتخلصت منها بالبيع، وحدثته عن طعم الكتب المسروقة التي يقرؤها النفر ويخرج لسانه من بعيد لبعيد لأصحابها:

ـــ أنا يا سيد أفندي لا دخلت مدارس ولا كتاب، بس اتحايلت واتعلمت، شغلت روحي بالحروف والكلام وقريت، ساعدني العيال الصغار ف الأول، وعاندت روحي لحد ما صار كل الكلام المكتوب مقري.. تصدق بإيه؟ لحد النهاردة ما عرفش أكتب اسمي، مكتوب عليك يا مدندش تقرأ وتقرأ وتعجز عن الكتابة، شفت واحد زيي كدة يا سيد أفندي، يقرا ما يكتبش..؟

ـــ وشفت اللي بيكتب ولا يقراش..

ـــ عجايب.. دي الدنيا على كدة مدورة بصحيح..

ـــ مدورة فعلا يا عم حسنين.

كانت أصدق عم حسنين سمعتها في كل عمري، ومن ساعتها بدأت علاقتي معه تأخذ شكلها المخصوص.

طلب مني علام أن أفوت على داره، أشوف طلبات أهل الدار، ذهبت فوجدت الست أم شاكر مشغولة بتجهيز زيارة، أول ما شافتني وصفتني بأنني ابن حلال.. طلبت مني ان أرافق شاكر إلى شقة سيد أفندي في الحلمية الجديدة، دست في يدي ما قالت عنه أجرة السفر لي ولشاكر، وأشارت إلى سلة الزيارة، المشوار لا بأس به لكن زمالة الطريقة صعبة، وشاكر لسانه مقلوب وغلاظ وأنا لم أعد أحتمل سخافات الصغار ولا أوامر الكبار. كان سيد أفندي يتراءى لي ويمنعني من الاعتذار عن المشوار. استعنت بالله وحملت السلة، طلبت من شاكر أن يلحقني عند السكة الزراعية لكنه زام وبرطم قبل أن نبدأ المشوار:

ـــ مستكبر تمشي ورايا بالسبت يا مدندش؟

ـــ اختشي عيب يا شاكر.

قالتها أمه قبل أن تلتفت إليّ لتطيب خاطري وتزيح ترددي وقد وقفت عند الباب مبديا عدم ارتياحي لكلام الولد: عيل.

ـــ معلهش يا مدندش، عيل وما يدركش، عشان خاطر سيد. أنت مش عاوز تشوفه ولا إيه؟..

من أجل سيد احتملت شاكر حتى وصلنا إلى شقة سيد أفندي، كان في الشقة مجموعة من الشباب في مثل عمره، هللوا وهم يتشممون محتويات السلة، يتضاحكون وهو واقف مكانه يرحب بنا بينما هم جاهزون للترحيب بمحتويات السلة، كانت زيارة عمرها قصير، زيارة بنت ساعة زمن بفضل الأسنان المسنونة للأفواه النهمة، لكنها كانت أكلة فطير وأرز مدسوس

ودجاج محمر تشبع، شبعوا وشبعنا ثم تسللوا مغادرين وتركونا، أنا وسيد أفندي مع شاكر، كان شاكر يبدي غضبه من أصحاب سيد أفندي الذين بدوا له متطفلين لا يخجلون، وكان سيد أفندي يدافع عنهم يقول إنهم أصحاب عمره وأنهم لولا الحب ما فعلوا ذلك الذي فعلوه، كنت مشغولا بالكتب فوق رفوف المكتبة بطول الجدار، كتب كثيرة تصلح للسرقة لكنها تحتاج إلى جرار بمقطورة، تناولت كتابا لأقرأه فوجدت شاكر يسألني:

ـ أنت جاي تقرا هنا؟ قوم وديني عند بنت عمتي.

كأنني كنت عبده الذي اشتراه علام، كدت أغلط وأفرد لساني لولا سيد أفندي الذي تدخل في الوقت المناسب، هدأ شاكر ووعده بأن يوصله بنفسه إلى أي مكان، في الليل جاءوا، نفس المجموعة ومعهم شيخ ضرير يحمل عودا ملفوفا في ثوب قديم.. وبسرعة أخرجه وجلس يدندن ويختبر الأوتار.. غنى لنا الشيخ أغنيات جديدة لم نسمع بها أبدا، أغنيات عن الحرب والسلام والجرح الذي ينزف الدم ويجرح الكبرياء.. وكانوا يرددون وراء الكفيف أغنياته بحماس، أنا نفسي حفظت بعض الكلام بسرعة وجعلت أردد مثلهم أغنيات الشيخ الضرير المعاند ضد الحكومة والحكام، وبيني وبين نفسي شعرت بالفرح، ها هو بعض ما نرغب في البوح به يقال ويتغنى به أولاد المدن بينما لا نسمع غير نشرة الأخبار وبرامج تنظيم الأسرة والمسلسلات البلهاء، وكان الليل قد انتصف من ساعتين أو أكثر عندما فكروا في الرحيل، تركونا بعد أن أشعلوا في الذاكرة ما كنت أحسبنا نسيناه ونساه كل الناس.

كانت شقة الحلمية كشفا جديدا، فيها تعرفت على أفندية مثل سيد أفندي، أساتذة وشعراء وأولاد ليل حزانى من أجل البلد، عرفت فيها أن ما يملكه الواحد منهم هو ملك للآخر في ذات الوقت، يتبادلون السجائر والقروش وبعض الثياب، يتحاورون ويتجادلون حتى صباح اليوم التالي، يبحثون عن الحل المستحيل وليست في متناول أياديهم أدوات الحل، كنا في تلك الأيام نعيش الذكرى الثالثة لهزيمة جيشنا في سيناء، جيشنا المحروس هزمته جيوش الأعداء، وكان على الناس أن تصير جيشا لكنه كان مستحيلا، وكانوا يشعرون أحيانا بالغضب واليأس، لكنهم أيضا لم يفقدوا كل الأمل، كانت مجرد أيام تلك التي عايشتهم خلالها لكنها كانت كافية لأن أعرفهم ويعرفونني، أصير صاحبهم ويصبحون أصحابي، يستعيرون الكتب من سيد أفندي ويحملون إليه الكتب التي لا يملكها ويرغب في قراءتها، ها هي الكتب في متناول اليد لكنها لا تدعوك للتفكير في سرقتها يا مدندش ربما لأنها لا تستقر في المكان، تتحرك، تتناقلها الأيدي وتطالعها العيون الجسورة الباحثة بين سطورها عن الحل الكبير لهمنا الكبير بعد الانكسار، الكتب لمن يقرؤها والسجائر لمن يدخنها والقروش لمن يقترضها والخبز القليل لكل الأفواه، دنيا غريبة لم أعتدها أبدا، لكنها جديرة بالتأمل والتفكير فيها، وسيد أفندي مجرد واحد في وسط ناس تقول كلاما غاضبا عن الحرب والهزيمة، تتجادل في ترتيب المسئولين وتتفق في

العداء لصهاينة اليهود والأمريكان، كلام مثل كلام الراديو وكلام عبد الناصر لكن بشكل مختلف لأنه يدين الكل، الحكومة وعبد الناصر والاستعمار والأغنياء في كل أطراف الدنيا.

كانت زياراتي لشقة الحلمية قد أصبحت عادة، كلما زهقت من صندوق الدنيا أذهب إلى هناك، أجالسهم وأشاركهم كل شيء السهر والكلام والغضب وبعض الفرح والتنكيت على الكبار، يسألونني الرأي ويدفعونني لأن أقول فأقول، يهلل فاروق أفندي.

ـ سامعين الكلام يا أفندية يا بتوع المدارس.. الأمل في الشعب.

ـ المسألة مش بالبساطة دي يا فاروق.

ـ لأ.. هي بالبساطة دي، لازم تنزلوا للناس، تسمعوا الناس، تتعلموا منهم، قول لنا موال يا عم حسين.

كنت أستجيب لفاروق أفندي أكثر مما أستجيب لأي واحد منهم، أشعر أنه يرتاح لوجودي وكلامي وصمتي، كأنه مسئول عني وعن تفجير مشاعري، أقول موالا فيهلل، تتداعى في ذاكرتي مواويل الهم المدفون في الأحشاء فأنطق بها، أنسى روحي حتى اكتشف بدايات انشغالهم عني، أسكت في الوقت المناسب أو أنسحب خارجا من المكان مدعيا حاجتي إلى الرقاد، أسمعهم يتحاورون وأسمع باب الشقة وهو ينفتح ليدخل صاحب جديد أو يخرج صاحب طالت قعدته، وكثيرا ما كان الصبح يطلع وهم على نفس الحال، ليلهم نهار ونهارهم ليل وأنا رغم السن مأخوذ بهم ومعهم، كأنهم بهية العربية التي جرجرتني وراءها وسحرتني وجعلتني على الرغم مني مستعدا للسرقة والقتل لأرضيها، لكن بهية رغم كل فسادها لم تكن تشعر بقلقهم وإحساسهم الدائم بالمطاردة، كانوا يتحدثون عن المباحث وأمن الدولة والمخابرات العامة التي لا بد أنها تراقبهم والتي ربما تزرع في وسطهم جاسوسا أو أكثر بهدف نقل أخبارهم، ولم أكن أنشغل بمثل هذا الكلام حتى سمعت فاروق أفندي الذي كنت أحبه يسأل سيد أفندي هامسا بينما كنت أرقد في الحجرة المجاورة:

ـ أنت متأكد منه؟

ـ عادي.. دا راجل غلبان.

ـ المصيبة أنهم ما بيشغلوش إلا الناس الغلبانة.

ـ معقول..؟ دي تبقى مصيبة.

ـ إحنا اتحمسنا له أكثر من اللازم.. لازم نحتاط منه..

ـ وطي صوتك ليسمع.

كنت قد سمعت، وبخت نفسي بنفسي على التردد عليهم والإقامة المتواصلة بينهم، لا هم من سني ولا مركزي يناسب مراكزهم، وأنا رغم كل شيء مجرد طبال ونداب ومنادي وحافظ كلام فارغ أضحك به على العيال وهم ينظرون من العدسات إلى الرسوم التي تظهر

لهم في صندوق الدنيا، ما لي بالأفندية أصحاب الرأي من الشعراء والسياسيين ومن يكتبون للإذاعة والصحف ويغنون كلاما ساخنا عن الأحوال؟

كنت قد قررت أن أبتعد لكنني ابتعدت ببطء، انتظرت عدة أيام بعد ان سمعت ما سمعت حرصت خلالها على قلة المشاركة في جلساتهم، أدعي قضاء مصلحة لي في الحسين أو السيدة وأظل ألف وأدور حول الأماكن وحول نفسي حتى يهدني التعب وأرجع، أعتذر لهم وأرقد في أي مكان، أرى نظرات الدهشة في عيونهم ولا أقدر على تفسير ابتعادي رغم ما قاله فاروق أفندي مرة:

ــ أنت بتغطس تروح فين يا عم حسنين؟

ــ بزور أهل الله يا سي فاروق أفندي والمعارف.

ــ أهل الله؟ كويس أن لك معارف مش بقولكم؟

قال عبارته الأخيرة وهو يجول بنظراته في كل الوجوه، كدت أبكي وأنا وحدي في تلك الليلة، لكنني في الصبح كنت راكبا أول قطار في سكتي للكفر وكأنني مطرود من جنة الدنيا إلى جحيمها، يسألني أهل الكفر عن مصر وناس مصر فلا أمد حبل الكلام على غير عادتي معهم، كنت أحاسب نفسي وأحذرها من أن تطلع مني كلمة زائدة عن سيد أفندي وأصحابه، وما دمت أنا قد تعرضت لمخاوفهم مني وشكوكهم في أمري فلا أمان لأحد، هكذا منعت نفسي من مشاوير السفر وجاهدت لأنسى شقة الحلمية وناسها وكلامهم. وبدا لي أن الأمر لم يعد يشغل أي واحد من ناس الكفر حتى كان ذلك المساء الذي استدعاني فيه عمدة الكفر وسألني:

ــ إيه حكاية شقة الحلمية اللي كنت لابد فيها يا مدندش؟

ــ مفيش يا حضرة العمدة.

ــ لأ فيه.. أنت فاكرني نايم على وداني؟ أنا جاياني إشارة م المديرية بتسأل عن سيد عوف، أصله وفصله وأهله وناسه وأصحابه..

ــ ونا يخصني إيه بس ف كدة يا حضرة العمدة.. أنا كنت باشيل له الحاجات اللي الست والدته بتبعتها له أو اللي سي صالح بيشيلهالي، موصلاتي يعني.

ــ بقى ما تعرفش أنه كافر وشيوعي يا مدندش..؟

ــ شيوعي..؟ يعني إيه يا حضرة العمدة؟ وكافر كمان؟

ــ أيوه يا خويا.. ومقبوض عليه من شهرين، أنا لولا باقي عليك كنت حطيت اسمك وسط الأسامي.

ــ أسامي مين يا حضرة العمدة يستر عرضك..؟

ـ اللي ح تروح ورا الشمس، هما فاكرين الحكومة نايمة على ودانها؟ الكـلام ده إن دار في دماغك يبقى يحش أجلك، روحك ف إيدي م النهاردة، اقدر أرميك في سفا العفاريـت وأقدر أداريك وأداري عليك لو طاوعتني.

ـ أنا خدام التراب اللي حضرتك بتدوس عليه يا عمدة.

ـ فز قوم بقى، على دارك عدل تلزمها لحد ما أبعث لك إنما قوللي الأول.. لما كنت بتروح هناك يا وله.. كنت بتشوف إيه.. بتشوف مين؟ وكانوا بيقولوا إيه.

ح أقول لحضرتك كل حاجة.. بس اعفيني دلوقت، أعمل شارب زيت خروع وحاسس أني مكتوم.

ـ خطي أطلع بره جاتك القرف اللي يقرفك، وأنا أقول الريحة النتنة دي كلهـا جايـة منين.

أسرعت بالخروج هربا ورهبة قاصدا داري، الغريب الغريب أنني في المسـافة بـين الدوار وداري كنت أشعر بثقل شديد وليونة في الطبيعة تصل إلى حد العجز عن احتمالهـا أو الإسراع بخطواتي إلى داري لأدخل بيت الراحة وأرتاح قبل أن ينفلت عيـاري فـي وضـح النهار.

في كفرنا "النوري" تعيش "البهاليل" أمثالي على طاعة الحكام، بإشارة من أصغر خفير أو شيخ خفراء ينقلب ميزان الدنيا من الأبيض المزهزه إلى الأسود "الغطيس" ومهما قلت لـي عن وسع الدنيا ورزقها المقسوم للبني آدم يناله هنا أو هناك، مهما قلتم لـي عـن إمكانيـات الخروج والسعي فلن تتغير فكرتي بأن الدنيا هي حدود كفرنا "الشرشابي" وأنا أعـرف أننـي مقطوع فيه، لا سند لي من أهل معمول حسابهم أو أرض ملك فـي الزمـام تتطلـب البقـاء والرعاية أو حتى رزق مضمون أو ضمان، لا شيء، لا شيء من كل هذا يملكه البهلول الذي هو أنا ولا يفكر في الرحيل، وحتى إذا رحل فعلى موعد متعجل للرجوع، وأنا خرجـت مـن كفركم يا ناس وغبت، غبت وغبت ورجعت لأنني كنت على ذمة الكفر مثل امرأة مكسـورة الجناح في عصمة رجل جبار ومفتري وقادر لا تملك مثل هذه المرأة الجرأة على الفرار مـن دارها إلى أي دار، وإذا خرجت من بابها بدون رضاه أعادها ذليلة على بيت الطاعـة بحكـم الشرع وبحكم القوة والقانون، كفركم "البهلولي" يا سادة هو سكني وموطني وميراثـي وبيـت طاعتي من قديم الأزل وحتى نهاية الأجل، وأنا لا أقول لكم ذلك بسبب خـوفي مـن فكـرة الخروج وكأنني قرموط سمك طالع من بطن الترعة ومرمي على شطها يتلوى فـي سـخونة شمس "بئونة" الحجر، قرموط سمك يقاوم الموت بنفسه الطويل أكثر من كل الأسـماك التـي عرفناها، يطول الوقت أو يقصر لكن عمره مرهون بعودته إلى بطن الترعة، من هذه الناحية اعتبر نفسي قرموطا من سمك ساكن في قاع الترعة وقد جرب الشط وتاب عـن الخـروج،

صحيح أن الرزق في القاع شحيح والعطن والعفن أكثر لكن ما هو البديل؟ الخروج للبهلول القرموط موت محتوم وفناء، يقول بعض الأكابر إنني كنت في صباي وشبابي خفيف الحركة والدم واليد والعقل واللسان وأنا لا أعترض، لكن خفة الحركة والدم واليد والعقل واللسان ضد الرحيل، صدقوني، أنا رحلت وجربت، حملت صندوق الدنيا وسرحت في البنادر البعيدة وكانت الدنيا براحا مفتوحا بلا حدود، لعبت مع ناس البنادر مثلما يلعب القط مع الفأر، شاغلتهم وشاغلوني، شغلوني في كل شيء من بواب إلى فران إلى صبي جزمجي أو قهوجي أو عتال نصف عطلان أو أشغال أخرى قمت بها برضاي أو غصبا عني لأدفع عن روحي تهمة العجز أو عدم القدرة على الاحتمال، لكن أي نوع من الاحتمال يا ناس؟ هل تنبت الحبة الصالحة في أرض غير أرضها؟ أنا عرفت مثلا أن ثمار البلاد الباردة لا تطيب في البلاد الساخنة، وزرع الصحاري غير زرع الجبال، وأنتم أهل الزارعة من قديم الزمان، هل جربتم مرة أن تغرسوا حبات القمح في طين الأرض أيام الحصاد؟ لا بد أنكم جربتم أو أن أجدادكم جربوا وتأكدوا بأنه لا يطيب الحب والثمر إلا في أوانه وأرضه، ومن هذه الناحية أيضا أراني مثل بذرة أو حبة مدفوسة في طين الكفر خروجها موت وفناء، طيب إذا كان الأمر على هذا النحو فكيف لا أستمر في الحياة وكل ما أرجوه لقمة تسد الجوع وهدمة تستر البدن بينما تتكفل جدران الدار بحمايتي من الشرد وعواصف الريح ووحل الأمطار؟

نرجع في الكلام إلى عمدة كفرنا "النوري" وما طلبه مني بسيط وسهل من ناحية وصعب مستحيل من ناحية أخرى، يتوقف الأمر على فكرة البني آدم عن نفسه وفكرته على الآخرين، يمكنني مثلا أن أكذب من كثرة الخوف أو احتيالا للحصول على وجبة دسمة تسند قلبي، كذبي في هذه الحالات مفهوم ومكشوف واضح وضوح الصدق، ويمكنني أن أساير أي واحد من أهل الكفر في كلامه عن غيره، كل واحد في نفسه سلطان ويحق له أن يرى نفسه أفضل أو أقوى أو أضعف أو أذكى أو حتى أغنى من غيره أو أفقر، وعندما أسمع فلا بد أن أساير وأدعم وأشجع وأهدي، وأحيانا أضع على شعلة النار مزيدا من "السبرتو" أشعلها نارا حامية وأنا عارف حدودها ومداها وإمكانيات ضررها، في أوقات أخرى أعترض وأقوم بدور عسكري المطافئ حامل الخرطوم الكبير الطويل والماء يندفع بشدة لتخمد النيران في أقصر وقت، أقوم بذلك أحيانا، كل وقت وله أذان كما يقولون، وكل إناء ينضح بما فيه كما يؤكد الشيخ رجب خريج الأزهر المعجباني ملفوف شال عمته الحرير الأبيض بطريقته الخاصة جدا والتي حاول العشرات وربما المئات تقليدها دون نجاح، ظلت عمامته في الكفر وكل الكفور المجاورة وربما البنادر ملفوفة بشالها الحرير الأبيض على نحو مختلف ومخصوص وصعب تقليده أو حتى وصفه، والناس كلها سلمت للشيخ رجب بحق الاختلاف والانفراد بهذه العمامة حتى صارت علامة مسجلة يضعها فوق الكرسي فيعرف الناس أن الشيخ رجب موجود في

المكان، يظهر لهم فيتبادلون معه الضحك لأنهم عرفوا وجوده عندما وجدوا عمامته، العمامة والشيخ رجب شيئان لا ينفصلان، توأمان وعلامتان من علامات كفرنا "البرقوقي" الذي يحرص كل نفر فيه على أن تكون له علامة أو سيرة وصفة، فاسمحوا لي بأن أظل كما كنت بينكم بصفات مختلفة تدعو إلى الضحك والسخرية أحيانا وتثير العطف والشفقة في بعض الأحيان، هذا من ناحيتكم أنتم، أما من ناحيتي أنا فالأمر يختلف لأنني ببساطة إنسان مختلف وجد نفسه بينكم وتعلق بهواكم على طريقته، تزعجه الأحداث فلا ينزاح وتطرده الإدارة فيحتال ليبقى، وكل ما هو مطلوب من البلهول أن يعرف متى وكيف يميل ناحية الاتجاه المضبوط في الوقت المناسب، هي لعبة مثل المشي على السراط، شغل بهلوانات وبهاليل وأرجوزات في هامش الهامش على ما يظهر للإدارة وهم في قلب القلب من نبض الحياة في كفرنا وكل الكفور المجاورة يا ناس.

أحكي لكم إذن عن ضرورة الطاعة، طاعة المتخاصمين، لنفرض أن بهلولا مثلي تقابل مع عمدة الكفر مرة وسمع منه مثل ما سمعت من عمدة كفرنا حول ما كنت أسمعه أو أراه في زياراتي لسيد أفندي عوف وقد وعدني وتوعدني في نفس الوقت، بيني وبينكم شعرت ساعتها بالرهبة، كنت أظن أنه ليس هناك غير واحد من اختيارين لا ثالث لهما، أن أبوح بما قد يضر من فتح لي بيته وقلبه فأفوز برعاية العمدة وأنا في الواقع أخون عيش صاحبي وملحه،كلامي عنه لحضرة العمدة من أولاد شلبي معناه أنني سوف أسلمه سلاحا قادرا على الطعن في ظهر واحد من أولاد الخصوم، واحد ممسوك في قبضة الحكومة لأسباب لا أعرفها ولا يعرفها عمدة كفرنا نفسه، عمدة كفرنا كان يتودد للمركز وعساكر المركز، يتحدث عن المأمور وكأنه ملاك نازل من السماء أو نبي مرسل وكان عمدة كفرنا كذابا يا ناس وكل ما يهمه هو البقاء في مركزه لا مانع عنده من رشوة المخبرين والعساكر وصغار الموظفين في الشهر العقاري وتحقيق الشخصية وتفتيش الري والزراعة والصحة وكل من يظن هو أن له علاقة بالمأمور أو أعوانه، وأنا أعرف كما تعرفون أن عمادة الكفر لم تنتقل من أولاد عوف إلى أولاد شلبي ببساطة ويسر، كانت وراء المسألة مصاعب ومشاحنات وثأرات ودماء مهدرة، كان الأمر عسيرا بحق، فيه سعي متواصل من ناحية وكسل متراخ بليد من الناحية الأخرى، وقد فكرت في أن أجرؤ وأذهب بنفسي إلى حضرة المأمور أحدثه عن أفكاري ومخاوفي من إمكانيات أن أتعرض للخطر إذا أبديت أي نوع من الاعتراض على أن أتحول إلى نمام في موضوع لا أعرف قيمته أو أهميته لأنني ببساطة لا أعرف أي شيء في السياسة أو بحورها الغويطة، لكنني تراجعت لأنني قلت لروحي "كل مأمور فوق منه مأمور أكبر فلأي المأمورين نلجأ؟" وقلت لروحي أيضا "لا بد من وجود الحل الثالث" على وزن العالم الثالث الذي يحكي لنا عنه الراديو والتليفزيون في نشرات الأخبار، وأنا وصلت للحل الثالث عن

طريق الست شوق، قلت لروحي: شوق بنت عم حضرة جناب العمدة وهي في نفس الوقت أم سيد أفندي، ومهما طال ابتعاده عنها أو قل اقترابه منها فهو قطعة منها، بينها وبينه حبل سري ممتد على امتداد العمر كله، وفي ساعات الخطر تحمي الأمهات أبناءها بالأنياب والأظافر، هكذا علمتني الحياة.

في المندرة كنت وحدي مع الست شوق أحدثها عن كل ما دار بيني وبين حضرة جناب العمدة، أذكرها بما كان من أمر ذهابي إلى سيد أفندي بأمرها ولأجل خاطرها، وأنه لو أصابني ضرر أو أصاب ابنها مكروه من ناحية حضرة العمدة فسوف تكون هي السبب ولو بشكل غير مباشر.

ـ والحكاية يا ست شوق ف إيدك وإيد ابن عمك، واللي أعرفه أن الضوفر ما بيطلعش من اللحم، وأن طلع يبقى بالدم.

كانت مثل قطة أصابها سعار أو وحش جريح محبوس في قفص حديد، عيناها زائغتان تبحثان عن سكة للحل، والحدقتان تتسعان وتضيقان وشرايين البياض تزداد حمرة فتلونه بلون الدم القاني، شعرت بالخوف منها أو عليها وندمت لأنني فاتحتها في الأمر، كنت حائرا إن كانت قد عرفت ما جرى لسيد أفندي قبل أن أعرف أو أنها فوجئت بأخبار حبسه مع أصحابه، كل ما فعلته أنها قامت، مدت يدها لتأخذ "الملس" وتتغطى به، تنظر ناحيتي وكأنها اكتشفت وجودي في المكان، تشير بسبابتها وتحذرني وكأنها في نفس الوقت تصرفني:

ـ اللي قلته يا مدندش ما يتحكيش لحد، بأجلك لو فتحت حنكك.

وببطء تسحبت من المكان خارجا وقد عاهدتها بهزة من رأسي تعني الموافقة، وفي سكتي للدار وقد خرجت من دارها بدا لي أنني سمعت خطواتها المتعجلة في اتجاه دوار العمدة، ذلك أنني لم أجرؤ على الالتفات خلفي وقد كانت السماء ملبدة بالغيوم وسحابة كبيرة سوداء تداري ضوء القمر وتعتم السكة وتبعث في القلب المخاوف.

في الكفر قالوا إنهم سمعوا صوت العمدة مجلجلا في منتصف الليل الساكت، يتعارك مع أهل بيته ربما ويردد نفس العبارة التي يقولها في كل الحالات الصعبة لتبرير ما لا يعجب الخلق من أفعاله:

ـ أنا ما لي.. أنا عبد المأمور.. بقولك عبد المأمور..

وربما لم يفسر الناس كلام العمدة أو يعرفوا على من كان يتوجه بالكلام بنفس طريقتي في التفسير، وربما كنت قد أخطأت التقدير أو أخطأوا لكنني على نحو غامض شعرت بنوع من الارتياح وإن لم أتخلص من أوجاع بطني أو ليونة الطبيعة عندي، أو من ذلك الانتفاخ الذي أصابني وفجر من الفتحتين رياح البطن تنطلق رغم الإرادة وتنشر في المكان رائحة العفونة الخانقة.

مات عبد الناصر فبكيناه، بكاه الصغار والكبار، لكن رجالا من ناس الكفر لم تنشغل بالأمر أكثر من عدة أيام، وفكرت أنه لا يخصهم في شيء من يتولى حكم البلاد، ما يخصهم هو الضيق أو الفرج، سهولة الحياة أو مصاعبها، لكنني كنت مخطئا، ذلك أنهم رغم ما يبدو في الظاهر ينشغلون، لكنه انشغال من لا يشارك إلا في أيام الاستفتاء، يذهبون بتثاقل مخافة أن يدفعوا الغرامات إذا تخلفوا، يؤشرون في خانة الموافقة رغم الاعتراض، أو هكذا يؤكد البعض منهم للبعض الآخر:

ـ مش وافقت برضه؟

ـ وافقت.. ما هو وافقت ولا ما وافقتش ح ينجح، هو فيه غيره؟ خليها على الله.

ـ واللي ما راحش العمدة سدد قصاد اسمه الله يستره.. يعني ما فيش غرامات النوبة دي..

ـ العمدة بيقول أنه قريب السادات.

ـ قريبه من أنهى ناحيه؟

ـ أهو كلام.

ـ بس الراجل ده باين عليه نبله.

ـ العمدة ولا السادات؟

ـ الاثنين يا أخي.. مش بتقول إنهم قرايب؟

يقولون ويضحكون، يضحكون وكأن الأمر لا يشغل بالهم في قليل أو كثير، الناس في كفرنا مثل الآبار الغويطة يصعب الوصول إلى قرارها، ولا بد أنهم يختلفون عن ناس البنادر، ناس البنادر يطلقون النكات ويقولون الرأي أحيانا دون لف أو دوران وكأنهم يستندون على جدران صلبة تحميهم، أنا شفت وسمعت في شقة سيد أفندي كلاما يوصل لأبواب الليمان، كانوا يتبادلونه بجرأة وجسارة في وجود من يعرفونهم لأول مرة، كانوا يقولون عن عبد الناصر ما قاله مالك في الخمر على مسمع مني وبلا حذر، صحيح أن فاروق أفندي حذرهم مني لكنهم لم يخففوا من كلامهم أو يتبدل رأيهم، وصحيح أنهم أخذوهم وحبسوهم بحسب رواية العمدة التي لم أتشكك في صدقها هذه المرة رغم شكوكي في الكثير الكثير من أقواله، كانت الشواهد كلها تؤكد أنهم أخذوه وحبسوه مع كل أصحابه، ما كان يدهشني أنهم كانوا يتكلمون بنفس الطريقة التي يتكلم بها الراديو والتليفزيون في نشرات الأخبار، صحيح أنه كانت هناك بعض الفروق لكنها فروق بسيطة، وليس من الممكن أن يتكلم كل الناس مثلما يتكلمون في نشرات الأخبار طبعا، كان سيد وأصحابه يتكلمون عن الاشتراكية والحل الاشتراكي والرأسمالية العالمية وتذويب الفوارق وبيان 30 مارس وإزالة آثار العدوان والأمم المتحدة والاتحاد الاشتراكي والوحدة العربية والتصنيع والسد العالي وتأميم القناة، وكل هذا

الكلام سمعناه بآذاننا، فكيف سمح عبد الناصر لعساكره وضباطه بحبس هؤلاء الذين كانوا في الواقع يرددون أفكاره وكلام إذاعاته؟ كنت أسأل نفسي وأنا الواثق من أن سيد أفندي كان من أشد المتحمسين لعبد الناصر ومن كلامه ما زلت أذكر بعض العبارات:

ـ كفاية يا مدندش إنه أول مصري يحكمنا من آلاف السنين.

ـ عبد الناصر زعيم بيحب بلده.. بس يا خسارة.

ـ رفع رأسنا في كل بلاد الدنيا.

ـ عاوز يعمل وحدة عربية ويحرر الشعوب.

وكلام غير هذا كثير سمعته بأذني ووافقته عليه، لكنه انحبس في زمن عبد الناصر وخرج في زمن السادات، في أوائل زمن السادات، رأيته وهو ينزل من باب السيارة وبدا لي أن حركته كانت أبطأ وأن وزنه كان أزيد، اقتربت منه بلهفة لأساعده وأحمل عنه الحقيبة، ابتسم لي وهمس:

ـ ازيك يا عم حسين؟

ـ الله يسترك، حمد الله على سلامتك، بقى هي مصر واخداك مننا على طول كدة يا سي سيد؟ هي البلد دي ما لهاش فيك نصيب؟.. دانت واحشنا خالص، طيب تآمن بإيه، كنت ح آجي أزورك في شقتك الجديدة، أيوه، ما أنا عارف العنوان.. بس بعيد عنك رجليا تعبت م اللف والدوران.. زرجنت يعني، وأهو زي ما أنت شايف كدة حطيت مرة واحدة.

كان يسمع كلامي ويبدو هادئا وكنت حريصا على أن أسمع كل من يرانا صوتي، كنت أرغب في إعلان وجوده دون أي إشارة إلى أسباب غيابه التي أعرفها وربما لا يعرفونها، وكان هو قد أحاط نفسه بالصمت الكامل فلم أفرغ كل ما كان مخزونا في قلبي وعقلي وعلى أطراف لساني من أحاسيس ومشاعر وأسئلة، وبدا لي وأنا أسير إلى جواره عند شاطئ الترعة أنه تباطأ في نفس المكان الذي أخرجته طفلا موشكا على الغرق في مائه، تذكرته طفلا ولا بد أنه تذكر لأنه كان ينظر ناحيتي متأملا وكأنما يتأكد أنني هو نفس الشخص الذي كانت نجاته من الموت على يديه، لكنه لم يتكلم، وزنت بالقرب من أذني ذبابة ملحاحة فتذكرت ما قاله فاروق أفندي في آخر مرة زرته فيها، وخفت أن يكون قد ظن هو الآخر أنني غير أمين على الأسرار، غطاني عرق مباغت لا علاقة له بشمس الظهيرة الطالعة، وعلى غير إرادة مني سألته:

ـ على أنهي ناحية يا سي سيد؟

ـ الوالدة.

فرحت، أحسست أنني سوف أوصله لها وقد عاد بعد طول غياب كابدت فيه الخوف والقلق، وأنها لا بد سوف تتذاكر تلك الليلة التي حدثتها فيها في أمره وما كان عمدة الكفر قد

قاله عنه وكيف حافظت على السر مكتوما لم أبح به حتى لنفسي في وحدتي بين الجدران، لكن ما حدث خيب رجائي فعند الباب كان هناك علام يتناول مني الحقيبة ويرحب بسيد أفندي ويكاد يسد فراغ الباب الموارب ليمنعني من الدخول، بل إنه قال بجفاء وغلظة:

ـ كتر خيرك يا مدندش.. ابقي عدي علي بعد المغرب في الدكان، عاوزك..

كأنه ألقى على جردل ماء سكن بين ثيابي وجلد بدني، رجعت من حيث أتيت وقد جف حلقي وزاغت نظراتي وانطفأ في القلب شعاع الفرحة وكدت أتعثر في خطواتي بينما تنبح كلاب الواطية على غير عادتها وكأنني غريب ترتاب الكلاب في أغراضه وتوشك أن تمنعه من العبور.

في الليل الساكت كنت وحدي، مقهورا وعاجزا عن احتمال وحدتي في الدار أو القدرة على الخروج بحثا عن سهراية في أي ركن من أركان الكفر، شيء يشبه الحبس الذي سمعت عنه ولم أجربه، والحبس ليس مجرد جدران وحارس يمنعك من الخروج والدخول بحريتك، الحبس أنواع، وأقساها ذلك النوع من الشعور بضيق الدنيا من حول النفر منا، ذلك الضيق الذي يسك كل السكك في الوجه وينفي وجود الأماكن رغم وجودها وكثرتها، شيء مثل الشلل والسواد وكراهية الوجود نفسه، إنه حبس بغير حراسة ولا جدران، ليلتها كنت أدور حول نفسي في دائرة صغيرة صغيرة، كأنني كنت نحلة تدور في نفس المكان، يتوه عقلي الدوران في المكان وامتداد الزمان، شيء يشبه الكوابيس التي تصيب المكبوس فتكتم أنفاسه وتمنعه من الصراخ أو الحركة، يتوقف الأمر على قدرة المكبوس على تحريك طرف أو إخراج صوت، علام كان في تلك الليلة كابوسي الذي يحاصرني في مكاني ويحبسني في بدني، يجعلني أدور على كعبي ولا أملك القدرة على الخروج من مداري، لكنه كان كابوس الصحو الذي يختلف عن كابوس الرقاد، لعله شدني لأن أستعيد كل ما جرى لي في كل عمري، كيف دوختني الدنيا وحرمتني من القدرة على الرد، كيف سلبتني كل الحقوق ووضعتني في خانة الضعفاء والمحصورين، وعلى أي أساس أخذت مني وأعطت لمن هم أقل وعيا وإحساسا بالناس وتصاريف الأحوال؟

مطرود أنا من كل مكان وإن كنت موجودا في كل الأماكن، لا حساب لي رغم ما يبدو لي في لحظات الانبساط أنني محسوب ومرغوب ومطلوب، لكنه في اللحظات الحاسمة أراني في هامش الهامش أكابد السكوت رغم امتلاء القلب برغبة الصراخ وقدرة اللسان على البوح والشرح والكلام، كأنني مقطوع اللسان بالفقر والعوز وعدم الاستناد الحقيقي إلى شيء أو أحد، وحدتي بعد كل هذا الزمان من السعي قاسية، ربما يصيبني مرض فلا أجد من يرعاني أو يحوطني بالعطف أو الاهتمام، لا زوج ولا أولاد ولا مال وعزوة، لكنني أيضا

وفي نفس الوقت أكره السكوت، كأنني مسئول من غير تكليف بأن أتكلم في كل شأن من شئون كفرنا الغفلان.

كنت أراني طائرا في منعطفات الكفر وأركانه والظلام يحيطني، ولم أكن أملك أجنحة الطيور لأرتفع إلى أعلى البيوت في مساحات الفراغ، كنت فقط أشعر بأنني أخطو في الخطوة الواحدة مساحات ومساحات، أدفع بأطراف أصابع القدم أرضية صلبة فأرتفع إلى ما فوق الأرض ذراعا أو باعا، مفتوح الساقين وشاعرا بمخاطر السقوط دون سقوط، وعندما أهبط وألامس الأرض أدفعها بأطراف أصابع القدم الأخرى فأعاود الارتقاع لكنني أستشعر الخطر من إمكانيات الاصطدام بأي جدار أو باب مسكوك، معلق أنا ولا حيلة لي أو قدرة على التحليق عاليا للخلاص من كل السواد وكل العتمة أو حتى الوقوف في المكان، وكنت أقول لنفسي إنني أحلم فقد عزت الأحلام، ولعلها كانت هي الريح التي حركتني وهزهزتني وأعادتني إلى حالة الصحو لا أعرف أنها كانت مجرد تغفيلة أفقت منها في نفس اللحظة التي سمعت فيها صوت الشيخ رجب وهو يؤذن لصلاة الفجر وينادي بصوته المميز أن الصلاة خير من النوم، كنت أشعر بالوجع في أطرافي وبدني وكان النوم يغالبني فتركت صحن الدار حيث كنت في غفلتي وتمددت على طرف الفرش، غطيت نفسي لأطرد رعشتي ولم أشعر بشيء حتى سمعت الخبطات على باب داري، قمت بكسل لأفتح الباب وأراه، كان واقفا والشمس ساقطة على رأسه من الخلف، أفسحت له فتحة الباب أكثر ودعوته للدخول:

ـ اتفضل يا سيد أفندي.. اتفضل، دي خطوه عزيزة، اتفضل، دانا زارني نبي، الدار مش قد المقام.. ما تآخذنيش يا سيد ع الفقر اللي محاوطني، دقيقة واحدة أفرش الحصيرة ع المصطبة.

أسرعت لأرفع الهلاهيل من فوق المصطبة قبل أن أفرشها وأمسك الباب، جلس يتأملني ويتأمل المكان قبل أن يسألني:

ـ ازي صحتك يا عم حسنين؟

ـ بخير يا سي سيد، بخير، المهم أنت، ازي حالك، أجيب لك فطار ولا أعمل لك شاي..؟

ـ ما تشغلش نفسك.

ـ يا خبر.. دانا لو أملك أعمل لك اللي يليق بيك، بس الحال زي ما أنت شايف، الفقر يا سي سيد بيحرم البني آدم من حاجات كثير، حتى من القعاد مع اللي غاب، مجرد القعاد والطمان، لك وحشة..

ـ ما تزعلش يا عم حسنين.

ـ أنا اللي زعلني إني اتحرمت أقعد معك وأسألك، أشوفك وأتأملك وأسمع كلامك اللي اتحرمت منه، منهم لله اللي غيبوك عنا الوقت ده كله، بس أنت كويس، أيوه أنت كويس أهه، الست الوالدة قالت لي أكفي ع الخبر ماجور، وأنا لساني ما نطقش بحاجة لا سمح الله، الحاجات دي يلزمها الكتمان برضه، بس أنت كويس..

كنت حائرا ومشحونا بعشرات الأسئلة، وكنت خائفا أن أنطق بما لا يليق وكان يسمعني ويتابع حركاتي بينما أجهز له ولي براد الشاي، أصبه وأناوله الكوب فيأخذه ويشرب ربما ليرضيني ولا يشعرني بالفارق بيني وبينه، لم أذكر له ما جرى من العمدة أو ما قاله عنه أو ما قلته أنا للست شوق، كنت أشعر بالارتباك وأخشى أن يفرغ كوب الشاي قبل أن أفرغ له ما كنت أمتلئ به من الأشواق أو أعرف ما كان من أخباره، لكنني كنت في نفس الوقت عاجزا عن السؤال المباشر، ولابد أنه اكتشف قلقي قبل أن يباغتني:

ـ العمدة كان عياز منك إيه يا عم حسنين؟

ـ كان عيازني أبعبع شوية، بس أنا خفت عليك، خفت أغلط في الكلام، ما هو أنا أكيد كنت ح أغلط ف الكلام، أنا ما عرفش في الحاجات دي اللي يفيد م اللي يضر.. بس قلة الكلام أحسن.. ولا أنا غلطان؟ هي طبعا الست الوالدة لا بد أنها قالت لك، أنا ما كانش هاممني نفسي، على رأي المثل، إيش ياخد الريح من البلاط؟

ـ فاكر فاروق يا عم حسنين؟

ـ إلا فاكره.. بس أنا واخد على خاطري منه، أنا سمعته بوداني بيقول كلام ما يصحش إنه يتقال.. كتمت ف روحي ورجعت، إوعاك يا سي سيد تكون..

ـ واحنا في المعتقل يا عم حسنين اكتشفنا أن هو اللي كان بيكتب عننا تقارير..

شعرت أنني خرجت لتوي من قاع القاع إلى سطح الدنيا، ونورت الشمس بضوئها قلبي، كان هو يتكلم ويحكي عن أشياء لا أفهمها، عن الغدر وبيع الصحاب، عن البوح بما لا يجوز البوح به للحكام، عن الوشاية بالخلق والخداع، وعن الحبس والضرب وأوشك على البكاء، لكنني في ذات الوقت كنت أشعر بنوع من الارتياح، ربما لأنه كان في هذه اللحظات ماثلا أمامي يتكلم بصوته، وربما لأنني رغم الجهل لم أخدع أو أنخدع أو أخون.

يوم نشلته من بطن الترعة:

زاد البحر الكبير وملأ الترع فامتلأت ترعة كفرنا بالماء والطمي، نزل الأولاد وعاموا بين الشطين، سحرهم البحر ونساهم "صندوق الدنيا"، كنت أراهم يرمحون عرايا كما ولدتهم أمهاتهم يرمحون ويرتمون بقفزاتهم نحو الماء، ينزل الصغار أكثر بحذر من جنب الشط ثم يتراجعون، صعب أن يحصر البني آدم أطفال الشطآن أيام الفيضان، لكنني كنت

أراهم وأنا أجلس فوق الدكة جنب صندوق الدنيا، حيلتي ووسيلتي لاكتساب الرزق في تلك الأيام، قمت أطرد ولدين يتراميان بحفنات الطين، يغترفانها من قاع الترعة ثم يرمح الواحد منهم وراء الآخر، يرمي "بجالوص" الطين الأحمر في اتجاه الآخر ثم يفر منه ويغطس مرة أخرى في ماء الترعة، أصابت حفنة من طمي الترعة غطاء الصندوق فقمت أطردهما وألعنهما بغضب، وبدا لي وأنا أنظر ناحية البنت حميدة التي كانت تركب كتفي الولد عزوز "المنحنح" بدا لي أن فقاعات تطلع من جوف الترعة، فقاعات صغيرة لكنها مستمرة، صرخت في البنت فقفزت مبتعدة وقفز الولد عزوز أيضا وغير مكانه، وبدا لي أنني رأيت ظهر كف صغيرة تضرب السطح الغريني ثم تختفي، وربما كانت نظرات الولد العبيط والبنت "الهبلة" هي التي دلتني وأكدت لي ظنوني، كان سطح الماء ما زال يأخذ الفقاعات الصغيرة، تصعد إلى السطح قبل أن تتلاشى، وبالمداس دست على طرف شط الترعة، ومددت يدي، علق بكفي شيء، فتحسست وأنا أنزل أكثر وكأني أصيد قرموطا بكلتى الكفين، أمسكت البدن الغارق في بطن الترعة، وسحبته، كان ضئيلا ونحيلا وخفيف الوزن، وكان الطمي بقاع الترعة عالقا بنصفه الأسفل كله، كأنه عود مغروس في الطمي، وبعسر خلصت نفسي وخلصت الولد، وفقدت مداسي، قلبت الولد وطبلت على بطنه فأفرغ من المنخارين والفم رشاشات الماء، وأحاطني الخلق لا أدري كيف من كل اتجاه، سألوني إن كنت أعرف ابن من هذا الولد، كان في الثالثة وله ثياب تشبه أطفال البنادر فلم أجاوبهم، كنت مشغولا بإفراغ ما تبقى في جوفه من ماء الترعة، وعندما أفرغ الولد الماء المخلوط ببقايا الطعام الذي لم يهضمه اطمأن قلبي، كان الولد يبكي ويزيل خوفي من أن يكون قد اختنق بالغرق، وبدا لي رغم الخوف البادي في عينيه أنه ولد من جديد، فرت البنت الهبلة والولد العبيط من المكان، وحملت الولد في حضني أدفئه وكان يرتعش حتى جاءت امرأة من درب شلبي وأطلت على وجهه ثم خبطت صدرها بفزع:

ـ يا دي اللهو يا دي اللهو، يا خيبتك يا شوق يا بنت عبد الستار..

ساعتها عرفت أنه ابن شوق من حسن عوف، كانت المرأة بنت فضالي أمامي تندب وأنا أحمل الولد في حضني وأحاول إسكاتها دون فائدة ـ حتى وصلنا دار علام شلبي، وهناك جرى ما جرى، أم الولد أخذته في حضنها لكن علام لطم خديه قبل أن يلطمني بالكف ويسبني بأوسخ الشتائم:

ـ وجايب لنا نصيبه لحد باب دارنا يا خنزير؟

ـ ما هو صحيح.. آخرة خدمة الغز.

ـ غز إيه يا ابن ستة وستين كلب؟

ومرة أخرى صفعني، كنت في داره ، أسمع شتائمه ولا أعـرف كيـف أرد عليهـا، صعب علي حالي "ومداسي" الضائع وعجزي عن الرد، وصعب علي أنني عملت الخير فيمن لا يستحق أو يقدر.. لكن أم بكري سحبتني من المكان، زغدتني في صدري بخفـة قبـل أن توضح رأيها وكلانا في وسط الدرب بعيدا عن دار علام:

ــ ما هو أنت برضه غلطان يا مدندش، طلعت الولد م الترعة يبقى كان تكمل جميلك وتوديه لسته أم أبوه ف الناحية التانية، جايبه لجوز أمه؟ دا جوز أمه.

وتنهدت، تذكرت، كلام المرأة بنت فضالي أعماني وسحبني لسكة الندامة، وكـلام أم بكري هداني وذكرني بما أوشك أن يغيب من بالي، ونصحتني أم بكري بأن آخذ الولد وأسلمه لأهله هناك في الناحية الأخرى، كنت مترددا وخائفا من زفارة لسان علام، لكنني تذكرت مـا قاله عن الولد، وعدت وسخونة الأرض تلسعني وقد انتصـف النهـار وزاد صـهد الشـمس فذكرتني سخونة الأرض بمداسي الذي ضاع مني، وقبل أن أصل إلى باب الدار كنت أسـمع الصراخ والأصوات تتداخل، وعلى الباب وقفت فساد صمت مؤقت وعاودوا الصراخ، لكننـي كنت ما زلت أقف مكاني كصاحب دين يرغب في استرداده، سألت بنت فضالي وهي تلومني هي الأخرى:

ــ عايز إيه تاني يا مدهول، عايز تخرب عليها يا للي ينحش أجلك؟

كانت تنظر ناحية الست شوق، تلك التي كانت تجلس على الأرض، مربوطة الـرأس بطرف طرحتها وكأنها قاعدة في "محزنة" نسوان، والآخر جالس يهز بدنه فـي كـل اتجـاه، لليمين واليسار للأمام والخلف، كأنه فقي من نوع غريب، ساكت غصبا، ربما لكي يحرمنـي من معرفة أسباب غضبه بمزيد من الكلام، وعلى غير إرادة مني نطق لساني دون تردد:

ــ هاتوا الولد..

تبادلوا النظرات، هل ترددوا أو أنهم كانوا يرغبون في ذلك ولا يهتدون إلـى الفكـرة التائهة عن عقولهم؟ ببطء حملته بنت فضالي من "حجر" شوق وناولته لي، أخذته في حضـني وخرجت من دربهم بسرعة، ولم أشعر بسخونة الأرض وأنا أدخل الدرب الآخر حيـث أهـل الولد وناسه وجدته لأبيه التي قابلتني واختطفته مني خطفا وهي تستدير في اتجاه دارها، تنهج من أثر الرمح وتقول بعسر:

ــ يسترها معاك يا مدندش، يسترها معاك يا مدندش، يسترها معاك ويخليك، الخلـق قالت لي ما صدقتش.. عمر الولد ده على إيديك.. يسترها معاك..

وفي وسط الدار كنت أجلس وقد غيرت للولد ثيابه، وحطت لي على الطبلية ما كـان حاضرا من خبز طري وجبن ولبن وعسل أسود، وتعتذر لأن الدار ليس فيها طبـيخ، تربـت على ظهر الولد بحنو وتعدني بمداس جديد.

في كفرنا "النعناعي" لا ينضرب على بطنه إلا من ليس له ظهر، ولا ينضرب على ظهره إلا من ليس له سند أو عزوة أو نسب يحميه، والبهلول البهلول الناصح يحتال على الدنيا ويلاعب خلق الله، يهرب منهم إن كان الهرب ضرورة، ويداديهم إن أفلح، وإذا انقلبت أحوال الدنيا فلا مانع من أن ينقلب البهلول ويسبح في التيار، لكن الليثي ابن ابن الشحات ــ صبره الله على ما بلاه ــ لم يكن بهلولا ولا ناصحا، مجرد نفر "تمللي" بلا أهل لهم وزن أو قيمة ويجرؤ على نزول غيطان الأكابر، يجمع من جنينة الحاج مرسي ملء غبيط من العجور فيراه أنفار الحاج مرسي ويطاردونه ويمسكون به ويتوجهون إلى دوار العمدة الجديد الذي جاءته عمادة الكفر بشقاء العمر وحفاء الأقدام بين البندر والمأمور وأكابر المديرية، مثل هذا العمدة لا بد أن يثبت لناس الكفر أنه قادر وعادل ولا يحيد عن الحق شعرة، يزرع هيبته على حساب البسطاء وضدهم بدون رحمة، الحرامي في كفرنا بعملته حتى لو كانت السرقة خط عجور أصفر أو مدادة قثاء.

كنا في أواخر الصيف والشرد كابس على الأنفاس عندما طلبني شيخ البلد وطالبني بأن أزف الليثي ابن الشحات في دروب الكفر، جرسة مخصوصة والقصد منها تخويف الناس من حضرة جناب العمدة، وأنا طبال الكفر وزماره أعرف أصول مهنتي، أنسى صاحبي في مثل هذه الحالات وأقوم بما هو مطلوب مني لأعيش في منطقة الأمان، باختصار جرست الليثي ابن الشحات ودعوت الناس للحضور أمام دوار العمدة ليشهدوا بأعينهم ويسمعوا بآذانهم ما سوف يكون بعد التجريس، أنزلناه من على الحمار وأخذه الخفراء وربطوه بحبل قنب، إلى شجرة البأس، ظهره للخارج وبطنه وكل حاله في حضن الشجرة، وبالمقص قص أحدهم جلبابه من الناحيتين بحيث انكشف ظهره تماما لأن الجلباب كان ملبوسا على اللحم، نادى عمدة الكفر على البرقوقي الذي كانوا يخوفون به العيال أيام كان قاطعا للطريق وقبل أن يعينه حضرة العمدة خفيرا لا ندري كيف، لكنه عينه وهو الوحيد صاحب الحق في تعيين الخفراء على أيامنا، ناوله الفرقلة المعمولة من التيل الأبيض المجدول بإحكام وأمره بضرب المربوط على مهل ودون استعجال، برم البرقوقي شاربه المبروم وفرد ذراعه الطويلة ونزل على ظهر الليثي فاهتز جرع الشجرة واهتزت الأوراق، جعر الليثي بعزم صوته:

ــ آه.. أنا في عرض حضرة جناب العمدة.. سماح يا عمدة، أحب على إيدك، أحب على رجلك..

لكن العمدة أشار للبرقوقي ليواصل فواصل، كانت العلامة الثانية أبعد من العلامة الأولى وأقرب من العلامة الثالثة والولد يجعر:

ــ وأحب على مداسك يا حضرة جناب العمدة.

لكن العمدة أشار للبرقوقي فواصل على مهل حتى لم نعد نتبين الخطوط التي تداخلت وتقاربت ولونت ظهر الليثي بالأحمر المائل إلى الزرقة، وكان صوت الولد قد بــح وأصــبح خافتا والفرقلة تتلون بالأحمر القاني، كان ظهر الولد ينزف الدم وتيل الفرقلة يتشبع بالدم ثــم يتلوى طرفها على الأرض في حركة مقصودة فتسف الترب وتسود قبل أن تتجه إلــى ظهــر المربوط الذي انقطع صوته قبل أن يشير العمدة بطرف إصبعه للبرقوقي فيكف، قــال النــاس للناس:

ــ العمدة ده مفتري.. الليثي غلطان.. دا انحش أجله، لا.. دا كدة انقطع خلفه يا ولداه، ملعون أبو الزمن الشلبي.

وأنا قلت لروحي أن الليثي انتهى، إن عاش يعيش مثل خيال المآتة، وإن مات فلحساب عمدة الكفر الجديد، ذلك أنه في مثل زماننا لا يجرؤ أي واحد أن يقول إنه غلطــان، حرامــي ممسوك بسرقة، صحيح أنه لم يسرق البهائم أو الدور، لكنه سرق الزرع فــي زمــان غيــر الزمان الفائت، سرقة الزرع في السابق لم تكن تسمى سرقة، كان الأكابر يقولونها للأنفار:

ــ ما دام يا ولد بتاخد م الغيط لجل أكلك وأكل عيالك تبقى ما بتســرقش، دا الغــيط سبيل للسائل والمحروم.

على هذا فتحنا عيوننا وعقولنا، فهمناها مثل كل ما فهمناه من عادات وأحكام وحكــم، لكنه جاء اليوم الذي يتمزق فيه ظهر من ليس له في الكفر عزوة أو أهل مــن أجــل غبــيط عجور، وأنا راجع سألت نفسي بيني وبين نفسي، هل لو كنت مكــان الليثــي كــان العمــدة يضربني؟ واستبعدت الفكرة تماما وفكرت أنني غير الليثي وغير كل "تملية" الكفر، أنا بهلــول وطبال، زمار ونداب، عمال جرس وفضائح، رقاص ورداح ومعدد على الأموات، من غيري لا يستقيم حال الكفر، أنا غير الأنفار، كاتم أسرار النسوان وأشباه الرجــال فهــل ترعشــني وتخوفني فرقلة في يد البرقوقي مزقت لحم ظهر حرامي عبيط بواس أيادي ومداسات؟ أنا نفر غير كل الأنفار، أنا البهلول الأوحد، ربما أكون قد فكرت بهذه الطريقة لأنــه مثلمــا لســاني طويل فيدي طويلة وخفيفة، بل إنه يصعب أن أتذكر يوما فات دون أن أمد يدي على زراعات ناس الكفر، الفقير قبل الغني، حضن برسيم للأرانب، حزمة فجل أو سريس، ســيالة مملــوءة بقرون الفول أو ملء منديل جميز أو توت أو طبخة بطاطس أو قلقاس، طيب لو أنني لم أفعل في أحد الأيام فكيف أعيش؟ آكل طوب؟ ملعون أبوك يا ليثي قلبت ميزان عقلي وشككتني في روحي".

مثل الوسواس الخناس ركبني عفريت الليل، شيطاني الكافر الزاني، أخرج لي لســانه العقربي ولسعني بالسؤال: هل تجرؤ بصحيح يا ولد أن تنزل أي غيط من غيطــان الأكــابر؟ وجاوبت الوسواس الخناس بأنني أقدر فسألني إن كنت أجرؤ على نزول "الجنــاين" الملفــوف

على أشجار الكازورين التي تحيطها سلوك فيها أشواك؟ فقلت لشيطاني: أقدر، كنت أعرف أنه يقصد زراعات الأكابر من ناحية العمدة الجديد الشلبي، وكنت أرغب في إسكاته وإنهاء الكلام، لكن لسانه الممدود كان يسكن لساني وينطق بالكلام بصوت هو صوتي فأرد عليه بصوت هو صوتي، كأنني واحد ضد واحد يتجادلان في أمر مهم، يتبادلان الاتهامات والسخريات ويتعابثان، يتضاحكان ويتعاركان ويتشاتمان، هي عادة اعتدتها كلما اختليت بنفسي في أوقات القلق التي تطرح فيها الأسئلة التي لا أعرف لها ردا، أو أوقات الرغبة التي لا أملك لها حلا، انقسم إلى قسمين، بني آدم وشيطان، ملاك وإنسان، رجل وامرأة فاجرة، طفل وكهل، مملوك ومالك، حاكم ومحكوم، وعشرات أخرى من الأزواج المتضادة، الغريب الغريب أنني كنت أفض الاشتباك وأصل إلى رد السؤال أو تحقيق الرغبة، أهمد وأرتاح وأسكن مكاني، وما كان يخيفني في مثل هذه الحالات إلا ظهور الشخص الثالث، العاقل الذي لا ينحاز إلى أي الطرفين والذي هو أنا أيضا ولكن في منطقة الفرجة بعقل وعندما كنت ألمح ظله كنت أسارع بإسكات النفرين المتشاحنين، أسكتهم لأنه لو لم أسكتهم لطاش ميزاني وفقدت توازني وطار البرج الساكن دماغي وهذا هو ما تسمونه الجنون وما هو بجنون، هو في حساباتي نوع من الاستغناء عن كل ما هو خارج حدود الوعي والبدن، نوع من الكفاية والقدرة على استمرار اكتشاف السراديب والمسالك لكي تستمر الحياة، استقلال أو اكتمال ولو بالوهم لأن الكمال لله وحده ولعبده وسيد خلقه نبي الإسلام محمد شفيع المنكسرين والمنهوبين والمضروبين على بطونهم وظهورهم وأقفيتهم في يوم الدين.

قلت لكم إن الوسواس الخناس ركبني حماري وسلط نصف لساني على نصف لساني، حطني أمام روحي فأما أنني مجرد نفر بلا قيمة ولا وزن ولا قدرة، نفر لا يحسب الأكابر له حسابهم وهو ما أميل إليه، أو أنني برغم كل هذه الصفات التي قد تبدو على السطح للجهلاء، أقول أنني شخص مهم وله قيمة ووزن وقدرة، محسوب حسابه وله امتيازه الخصوصي عند الأكابر والأصاغر، وعلى رأي المثل "الماء الجاري يكذب الغطاس" وأنا غطاس ركب دماغه شيطانه الكافر الزاني وسيره على هواه، رماه في جنينة الحاج مرسي في وضح النهار، جعله يأخذ ملء حجر جلبابه عجورا أصفر رغم أنه لا يحتاج لأكثر من واحد أو اثنتين، ومن تحت السلك خرجت كما دخلت، وفي السكة رآني من رآني، شاكسوني بمرح وذكروني بما كان من أمر الليثي عند الدوار، لعل البعض منهم كان يرغب في استنكار ما جرى للولد أو ينفيه من دماغه، لعل البعض منهم شاء أن يطمئن نفسه بأن العدل الذي ادعاه العمدة لم يكن عدلا، ولعل البعض أراد أن يوقعني في شر أعمالي فلكل نفر في هذه الدنيا حساده وكارهو الخير له مهما كان هذا الخير قليلا لا يزيد عن حشو الجوف مجرد حشو الجوف وسترة البدن، وأنا لا أعرف حسادي بالاسم وإن كنت أشم رائحتهم من بعيد البعيد، صحيح أن العبد وسيده على باب

الله وأن الأمر لا يستحق لكن نفوس الناس لا تتشابه، وخسة الطبع تنمو وتـزداد كلمـا قفـز الوضعاء بلا أسباب فملكوا ما لم يكونوا يتصورون أو يتصور الناس أنه من الممكن أن يئول إليهم أو يصير في حوزتهم، تزداد خسة الطبع عند العبيد الفقراء أو الفقراء العبيد وهم عكـس الفقراء الأحرار كما تعرفون. ويا ويل الفقراء الأحرار من الفقراء العبيد يا ناس.

يومها كنت أمسك ذيل جلبابي المرفوع عاملا من فراغه "حجرا" تظهـر منـه ثمـار العجور، ولم أكن قد وصلت إلى الساقيات الثلاث عندما سمعت الصوت الطـالع مـن قلـب حوض أولاد عوف يحذرني وينبهني، لم أكن أعرف صاحب الصوت رغم أنه كـان مألوفـا وهو يخصني بالاسم:

ــ اهرب يا مدندش، الغفر بترمح وراك.

كانت مجرد التفاتة لمحت فيها وجه البرقوقي جنب فرحان الشوكي وهمـا يسـرعان بخطواتهما ناحيتي، مشي بهمة كأنه الجري، مشي يليق بالخفراء والعسكر في البنـدر وهـم يحملون البنادق على أكتافهم، كانت بيني وبينهما مسافة تسـع ثـورين أو بقـرتين وحمـار مسحوبين بحبل ساعة الرواح، فتحت قبضتي على ذيل جلبـابي فتسـاقطت ثمـار العجـور متدحرجة في منحدر ترعة المروي وشعرت بأنني خفيف وقادر على الطيران، وفـي وسـط الزرعات وعلى مجاري التراكيب كنت أرمح والخفيران يتصايحان وينقسمان إلـى فـريقين يتناديان ويطلبان ممن يلقاني من الخلق اعتراضي أو الإمساك بتلابيبي، كأنهما عصـابة مـن قطاع الطريق يحاصران ضحية في وضح النهار ويهددان بضرب النار، وكنت مثـل الـريح الطيارة أفر وأرمح حتى وصلت إلى البناية المعمولة زريبة لمواشي عبد القادر عـوف عنـد رأس غيطه، من لهفتي دخلت أحتمي بها وأطل من فتحاتها لأرى إن كنت على مرأى من أي واحد منهما أو إن كان قد اقترب، رأيته بشاربه الكثيف الذي اشتهر به وهو يقف في منتصف فراغ مدخل الزريبة فضمنت النجاة، قلت أستجير به وأنا ألتقط أنفاسي:

ــ أنا ف عرضك يا با عبد القادر.

ــ بترمح من مين يا وله؟

ــ م البرقوقي والشوكي، عايزين يضربوني بالنار..

ــ نار.. نار إيه؟ أنت قاتل قتيل ولا عامل عمله، تعالى الناحيادي.

وأنا أقترب منه خارجا من فتحة الزريبة متلصصا بنظراتي بقلق أقل فكرت قبـل أن أرد:

ــ ورحمة العمدة الكبير ما عملت حاجة تستاهل، طب أهو أنت يا با عبد القادر ابـن عمدة، وكان ممكن أنك تبقى عمده، بقى هو اللي ياخد عجورتين يأكلهم ينضرب بالنار؟

ــ كدهه.. عجورتين؟

ـــ ورحمة أبويا عجورتين، ليه ما هم مقطعين جلد الليثـــي ابـــن الشـــحات عشـــان عجورتين، دول ناس مفتريين.

ـــ طيب اقعد.

قعدت بينما ظل هو واقفا، كان البرقوقي قد ظهر لي دون أن يخيفني، كأن الأمر لـــم يكن يخصني، وهل كان يحق لي أن أبدي أي انشغال وأنا في حماية عبد القادر ومسنود على جدار زريبة مواشيه؟ كانت خطوات البرقوقي الذي اقترب تتباطأ وتصير تسكعا بلا هـــدف أو تردد، وفي الناحية الأخرى انطلق نباح الكلب الأبيض الكبير فنظرت لأراه يعترض فرحـــان الشوكي الواقف قرب مدار التابوت المهجور وقد أمسك بندقيته بكلتى يديه وكأنـــه عســـكري يهودي على الضفة الأخرى يحرس المكان، لكن الكلب كان ينبح بثقة مالك الزمام، ينبح ويهز ذيله ويتقدم ليستعيد مسافة والشوكي ساكن في مكانه ويوشك أن يكون حائرا بسلاحه، وكلمـــا تقدم الكلب أكثر هوش ناحية الكلب بطرف سلاحه فيزداد الكلب صخبا وعنادا وتقـــدما حتـــى أجبر الشوكي على التراجع، علق سلاحه على كتفه ولم يفلح في أن يداري خزيـــه، انســـحب الشوكي واستدار فلم يتقدم الكلب أكثر، نبح نباحا مطمئنا وأسرع ناحية أقدام عبد القادر ليقعي وهو يهز ذيله المنتصر مثل راية، كلب أبيض أصيل من سلالة كلاب أصيلة، كلب ناصح يشم رائحة الظالم والمفتري وابن الحرام، كلب ابن عمدة ابن كلب عمدة راحت من فـــرع أســـرته عمادة الكفر فضيعها الفرع الآخر لحساب محدثي نعمة مفترين على الفقراء من خلق الله، كنت أتأمل الكلب بإعجاب ودهشة عندما سمعت صوت البرقوقي وقد وقف إلـــى جـــواره فرحـــان الشوكي الذي لف ودار ليحتمي بزميله:

ـــ العواف عليك يا با عبد القادر؟

ـــ يعافيك يا برقوقي.. ما لكم؟

ـــ مفيش حاجة تستاهل يا با عبد القادر.. مفيش، بس أنت حقـــاني ومـــا يخلصـــكش عمايل المدندش، بيبهدل ف زراعة الخلق ويدهوس في الجناين، وما دام احتمى فيك ما لنـــاش عنده حق، لجل خاطرك أنت ما لناش عنده حق، وسماح يا مدندش بس تتعهد لنا قصاد أبـــوك عبد القادر أنك تستقام، هو حد ف الكفر بيتأخر له ف طلب يا با عبد القادر؟ لزومه إيه بقـــى تقليع الزرع؟

نظر عبد القادر ناحيتي فأصابني خجل، كان ينتظر جوابي ولا أجد ما أقوله غير مـــا قلته:

ـــ اللي تؤمر بيه يا با عبد القادر ماشي على رقبتي.

ـــ وأنا ضامنه يا برقوقي، بس إن غلط ترجعوا لي وبلاش حكاية الرمح ف الغيطان، هو أنتو فاضيين؟ اتفضلوا الشاي.

بذلك قال عبد القادر فأراحني، طمأنني على ضمان حمايته لي ومن ورائه كل أولاد عوف، شوكة العمدة وناسه الساكنة في حلوقهم، ألقى البرقوقي تحية السلام فرد عليه عبد القادر وهو يجلس إلى جواري، يتابعهم في صمت وهم يتباعدون بينما راحته تداعب رأس الكلب في حنو وكأنه طفل رضيع، قام وقد تذكر شيئا فطاف بنظراته في أركان الغيطان ثم ثبت نظرته على مجموعة من الأطفال ترمح بين نخلات البلح فنادى.

ـ يا سيد.. سيد.. تعالى بسرعة، أوعى تقع.

كان سيد يرمح في اتجاهه بفرح، ارتمى في حضن جده وقد مال ليلتقطه ويحمله، كان الرجل يضحك بغبطة وسعادة وأنا أقترب منهما، أتأمل الولد الذي أنزله جده على الأرض قائلا:

ـ لأ.. لأ.. إحنا ح نتخاصم يا حسنين أنا والولد ده. أنت يا ولد مش متفق ما تبعدش عني..؟

قلت أشاركه الفرحة بسيد:

ـ بسم الله ما شاء الله.. بسم الله ما شاء الله.. معلش يا با عبد القادر، ما عادش يبعد تاني..

أشار عبد القادر إلى شجرة التوت وهو يأخذ كف الولد الصغيرة في يده:

ـ نزل السبت المتعلق ده وطلع لنا الغدا على ما أغسل للعكروت ده إيديه.. شوف إيدك بقت عاملة إزاي يا سيد؟

كنت أسمعه رغم انشغالي بإنزال السلة المعلقة على فرع الشجرة وإخراج الطعام لأضعه فوق الحصير المفروش تحت العنبة، أسمعه وهو يهدهده ويلاغيه ويغسل يديه من ماء القلة، يمسح عن وجهه بكفه المبلولة آثار اللعب والعرق ويجففه بطرف جلبابه الخفيف.

يعود في اتجاهي ويجلسان، يتذكر:

ـ الولد ده كان عمره على إيديك يا حسنين، ومهما عملنا لك مش ح نقدر نكافئك.

ـ يا خبر أبيض يا با عبد القادر، تكافئوني إيه وأنا لحم كتافي من خيركم؟ دانا عايش على حسكم ف كل الناحية، طيب دا كفاية وقفتك معايا النهاردة، دي تسوى الدنيا بحالها، أصل أنت ما شفتش اللي عملوه ف الليثي.

ـ محدش منهم يستجري يبص لك.

ـ بحسك برضه..

ـ وأصل دول ناس لمامه، شبع من بعد جوع، أنت إيه اللي كان وداك؟

ـ يمين بالله ما أنا عارف يا با عبد القادر، أنا حتى ما بحبش العجور.

ـ تبقى رزالة يا ولد.

ـ وماله يا با عبد القادر لما النفر يتازل ويلقح بلاه ع الناس دي؟ يستاهلوا ولا ما يستاهلوش؟ دول كلهم كده.. ولا على إيه؟ بلاش عشان سواد عيون سي سيد، إنما ما قلتليش يا سي سيد، بتحب جدك قد إيه؟

فتح ذراعيه على اتساعهما فضحكنا، ربت عبد القادر على ظهره قبل أن يضع في فمه لقمة صغيرة ويدعوه لمضغها وهو يمثل للولد كيفية مضغ الطعام بطريقة أضحكته، وساعتها صدقت المثل القائل إن أعز الأولاد هم أولاد الأولاد، لم تأت سيرة حسن ولم أشأ أن أسأل عنه حتى لا أقلب المواجع لأن مثل هذه الجراح لا تطيب ولأنه ليس لهجر الأرض والأهل طب ولا دواء، قلت إنه مغفل لأنه ترك الكفر وناسه، وأنه فشل في زواجه مرتين وجنى على الولدين، وأنه يوم يموت عبد القادر فسوف تكون تلك بداية خراب الدار.

ـ رحت لحد فين يا مدندش؟

أفقت على سؤاله وكاد لساني يبوح بما كان يدور في عقلي لكنني منعته، قلت للرجل وكأنني أرمح هاربا:

ـ ح أروح فين يا با عبد القادر؟ أنا وياك أهه.

لم يكن يصدقني لكنه تنهد، نظر إلى الولد وقال بينما يهز رأسه:

ـ أبوه ح يتجوز تاني اليومين دول.

ـ تاني؟

سألت باندهاش فتابع هو:

ـ خلصناه من بنت شلبي بطلوع الروح، كانت ح توصله للقتل، وأهي جابت عيل ملوش ذنب، يروح فين ده؟ أفرض أني مت ح يروح فين عيل زي ده؟ لجوز أمه ولا مرات أبوه؟

ـ يديك طولة العمر يا با عبد القادر، يديك طولة العمر، حسك في الدنيا بحالها، وربنا يخليك لهم، أهم بيدلعوا عليك.

ويبدو أنني طيبت خاطره ففتح لي في تلك الظهيرة قلبه فرأيته صندوقا مسكوكا على تل من الأحزان، ورأيته كتابا مفتوحا واضح الصفحات على عكس كل ما كان يقال عنه، أشفقت عليه وأنا المقطوع الضائع والمحروم، قلت لروحي إنه لا المال ولا الصحة ولا عزوة الرجال تقدر أن تداوي جرحا مثل جرحه، وقلت إن النعمة ثقيلة على بعض الناس، ثقيلة على واحد مثل حسن ذلك الذي لم يكتف بالفرار، وإنما رمى هموم خلفته على الرجل، وقلت لروحي إن الرجل بانت عليه علامات الشيخوخة فجأة وأنه مثلنا يشكو وقد كنت أحسبه ماردا لا تطوله الأحزان، لكنه كان حزينا في تلك الظهيرة ولم يكن يداري حزنه، كأنما اطمأن إلى

قدرتي على الكتمان أحيانا، حتى عندما جاء صالح وجلس إلى جوار سيد لم يتوقف الرجل عن البوح بأسباب حزنه وقهره في أواخر أيامه:

ــ اللي زيي كان يقعد يرتاح في وسط عياله وعيال عياله، مش يفضل ناعي الهم على طول..

ويبدو أن صالح لم يكن يرضيه أن يسمع تلك النغمة من الرجل، ذلك أنه بجرأة قاطعة وملء فمه بقايا طعام:

ــ يا سيدي افتكر لنا حاجة حلوه تفتح النفس.. ما تقول حاجة يا سيد أفندي.. يا غالي يا بن الغالي، هو يخلف وغيره يربي ويعلل ويشيل الهم.

قال عبارته الأخيرة وهو يربت ظهر الطفل الذي لم يكن قد أكمل عامه الخامس بعد والذي كان ينظر باندهاش وعجز عن الكلام، وزام عبد القادر معترضا على طريقة صالح الخشنة، وتقابلت نظرات الرجل مع الشاب المفتون بصباه والذي يتجاسر على المقاطعة على غير ما كنت أتوقع، لكن عبد القادر لم يفوتها له، قال وكان يعني ما يقوله:

ــ قوم من قصادي دلوقت لحسن أقوم أدفس رأسك ف الطين.

وبخفة قام صالح، تباعد وهو يبرطم بكلام غامض لكنه اعتراض الواثق من الفوز في نهاية المطاف وربما المتأكد من تحقيق كل أغراضه في الزمن الآتي.

سوق الخميس في البندر تجار وسماسرة وشطار ولصوص مواش وجزارون وضحايا ونصابون، القرش فيه صياد واللسان سلاح مسنون وله حدين، ولأمثالي في السوق رزق بسيط لكنه يرضيني، شيء مثل الحسنة المخفية أتناولها في كفي بغمزة عين أو ضغطة كف، أدسها في جيبي وأنصرف لحالي أو أبقى مع من أعطى إن كان يميل إلى مشاركتي سكة الرجوع، نثرثر في سلامة البهيمة وسعرها المعقول إن كان شاريا أو نجاحنا في الحصول على الثمن المناسب وإفلاتنا في نصاحة التجار وحيل السماسرة إن كان بائعا، أتحول إلى شريك مرفوع في سكة الرجوع وأستشعر الدفء إن دعاني للغداء احتفالا بالنجاة على هذا النحو إن كان وقوفي معه بالفعل قد نجاه، وأنا نوادري في السوق قليلة وخبرتي به أقل، غاية ما هناك أنني في العادة أذهب لأشعر بونس آخر غير ونس السهرات في الليل الممدود، يسرقني نهار السوق من هم النهار كما تسرقني السهراية وحسن الصحبة من هم الليل، ولأنني لا أحب السمسرة لا يرتاح لوجودي السماسرة لأنني بحسب أقوال البعض منهم مثل قطاعين الأرزاق، لساني مفلوت وقادر على تنبيه من يهمني أمره في الوقت المناسب، وقد حاولوا معي عشرات المرات فلم أتعلم أو بدا لهم أنني لن أتعلم، والحقيقة أن المسألة ليست سحرا ولا طلاسم ولا حتى خبرة كما يقولون، المسألة قلة ضمير، السمسار الشاطر الشاطر هو الذي تخلص من ذمته أو على الأقل تركها في الظل عند باب السوق قبل الدخول، يتآمر مع

الطرفين إن استطاع أو يتآمر مع طرف على الطرف الآخر، يبيع البائع للمشتري أو يبيع المشتري للبائع، لكنه في كل الأحوال لا يترك الطرف الذي تآمر عليه قبل الحصول على أتعابه وبإلحاح ثم يستدير ليأخذ ممن لعب لحسابه في الخفاء ويأخذ، ورشاد الأعور ساكن الدار المجاورة لداري يفعلها في كل خميس ويعرف في كل سوق كيف يفلت من ملامة المخدوعين، وفي ذلك الخميس كان رشاد الأعور هناك، وكنت أراه وأعرف من نظراته أنه باع ابن بلده الفقير للتاجر الجزار، كانت جاموسة ابن الشرشابي واقفة وإلى جوارها عجلها الرضيع، جاموسة تستحق بصحيح لكن رشاد الأعور الملعون غمز بعينه الوحيد لمعارفه من السماسرة بما يعني عدم الاقتراب، ومن بعيد كنت أراه يحوم حول التاجر الجزار ويتهامس معه مبديا على ما بدا لي أنه بارع في توقيف الأحوال، باختصار وبدون الدخول في تفاصيل صعب علي حال ابن الشرشابي وهو واقف إلى جوار الجاموسة وعجلها تحت الشمس الحامية دون أن يقترب منه واحد يوحد الله، وعندما جلس على الأرض في يأس جاءه رشاد الأعور وتحدث إليه بكلام، اقتربت فأشار إليّ رشاد طالبا مني الابتعاد:

ــ أسرح في حتة تانية يا مدندش.

ــ لهو كان سوق أبوك يا رشاد؟

ــ لم لسانك لأحط البلغة في حنكك.

ــ بلغة مين يا بو بلغة، علي الحرام أقطعها على نافوخك.

كان ابن الشرشابي يبدو مثل غريق تعلق بقشة التي هي رشاد الأعور، لكن القشة تتعارك وربما تطيرها رياح العراك، قام ابن الشرشابي واتجه ناحيتي وأوصاني بأن أقصر لساني من أجل خاطره، وبأن آخذ حقي من رشاد في الكفر بدلا من الفضائح في السوق وسط الغرباء، بيني وبين نفسي لم أكن مرتاحا لكلام ابن الشرشابي لكنني طاوعته وسكت، بل إنني تباعدت واحتميت بظل شجرة توت في ركن السوق، طلبت من البنت التي تصب الشاي من برادها أن تصب لي كوبا وأوصيتها بتزويد السكر، وأنا أحب الشاي الزائد سكره، جلست وهدأت وأوشكت أن أنسى عراكي والنسيان نعمة، لكنني سمعت سمسارا من عزبة الشراقوة يتحدث مع سمسار آخر بصوت مسموع عن الجاموسة وعجلها التي سوف تباع بنصف الثمن، انتبهت ونظرت فرأيت التاجر الجزار ورشاد الأعور وسمسار عزبة الشراقوة يحيطون بابن الشرشابي، وزن في دماغي دبور: "ربما يا ولد عاركك رشاد لكي يبعدك، وربما ضحك على ابن الشرشابي بأي كلام، ربما لو ظللت في نفس مكانك يخسر ابن الشرشابي جاموسته وأنت موجود لكنه وجود كالعدم، وقلت لروحي ما لك أنت بابن الشرشابي يا مدندش؟ كن في حالك يا مدندش، أنت تجر على نفسك البلاوي يا مدندش، لا هي جاموسة أمك ولا عمك ولا ابن الشرشابي من أهلك، قلت لروحي ولكن كلامي لروحي مردود عليه، هو كلام فارغ في واقع

الأمر، نوع من الهروب والخوف وتبرير السكوت على الغلط، المهم أن سمسار عزبة الشراقوة رجع وهمس في أذن الآخر فتبعه بهمة، كنت أراهم يحيطون بابن بلدي مثل نصابين مولد البدوي، وقلت إنني ما لم أتدخل فسوف يبيع ابن الشرشابي بخسارة كبيرة ولن يرتاح في تلك الليلة ضميري، وقمت ولحسن حظ ابن الشرشابي في الوقت المناسب، عندما رآني رأيت في عينيه نظرة انكسار المغصوب المغلوب على أمره والذي أجبرته الحاجة على البيع بسعر بخس ربما ليسد دينا استدانه أو يقضي غرضا طارئا لم يعمل حسابه، قلت لأقطع كل الألسنة التي كانت تحاصره بكلام يكسر المجاديف مثل: خلص روحك، الفلوس جاهزة، توكل على الله.. السوق انفض.. بارك له يا جدع.. سلمه حبلها.. بكيفه.. طلع الفلوس وعدها له على البركة.. عصابة يا ناس فهل كنت أسكت؟ لم أسكت، أمسكت حبل الجاموسة في يميني وقلت للتاجر:

ــ مش ح نبيع.

ــ وأنت داخلك إيه؟ امشي انجر من قصادي..

ــ أمش إزاي؟ دانا شريك في الجاموسة دي.. ما تتكلم يا شرشابي..

ــ أيوه شريك.. شريك بالربع.

ــ بقى ده وش شركة ده؟

ــ مش وش شركة ليه، ناقص إيد ولا رجل؟

وطال الكلام ووقفت المركبة على شط الأمان قبل أن تتجرف في منحدر الخسارة الظاهرة، ومن جديد بدأ الفصال، زاد السعر خمسين جنيها لأجل خاطري كما قال التاجر وأعوانه وطلع ابن الشرشابي من الحفرة التي حفرها له رشاد الأعور، واحد غير رشاد الأعور كان يطق يموت، تصيبه حمرة الخجل وقد انكشف كل غطاء ساعة عد الفلوس، فالتاجر الجزار وقد بدا له أنني حويط وغويط وقادر على تسيير دفة المراكب أو توقيف المراكب التي تسير فكر بسرعة أن يشتريني لحسابه، ناولني ما فيه النصيب فلم أمانع، أخذته وأضفته إلى الفلوس التي قبضها ابن الشرشابي لأؤكد للكل أنني شريكه بحق وأنني لم أتدخل رغبة في التدخل أو الربح أو قطع الأرزاق، واحد غير رشاد الأعور كان ينكتم كتمة المدمس لكنه بعبع وهاج وطالب بأتعابه من الجزار التاجر، أتعابه وأتعاب أتباعه الذي عطلوا أشغالهم من أجل هذه البيعة فنظر إليه التاجر باستخفاف وقال:

ــ علي الحرام من ديني أنت ما تنفع سمسار ولا تستاهل في السوق خمسة أبيض.

ــ عيب يا معلم، أنت في سوق بلدنا وما يصحش.

ــ أنت خليت فيها عيب يا أعور؟ بلدك إيه يا بو بلد. أنا مش دفعت الفلوس بزيادة يا أعور..؟ دفعت إنما مبسوط ع الأقل كسبت راجل، امش بقى غور من وشي منك له له.

قالها وعيناه تقدحان شررا مشرورا قابلا لإشعال كل ما يعترضه، تسحب رشاد الأعور خطوات ثم فوجئت به يرجع وقد رفع فردة مداسه ونزل بها في اتجاهي لولا أن سترها الستار فأبعدت دماغي في الوقت المناسب، وطارت في السوق شرارة العراك واكتشفنا أن للتاجر الجزار في أركان السوق أعوانا وصبيانا جاهزين للضرب بالسكاكين والعصي ويقدرون على الفرار في أنسب الأوقات وقد فعلوها، تركوا في أرض السوق قتيلا مجهولا وخمسة جرحى أو مصابين بكسور قطعية تنزف ومن بينهم رشاد الأعور نفسه وأنا كنت أفترش الأرض وأبكي حالي ما زلت بسبب ما فعله رشاد الذي رفع مداسه بغرض ضربي وإهانتي فرماه الله بمن هو أقوى منه وأقدر، التاجر الجزار أسلم حبل الجاموسة لواحد من صبيانه وكأنه فص ملح ذاب في فرع النيل، كان ابن الشرشابي على جانبي، يطيب خاطري ويستشهد بما جرى للسماسرة على يد أتباع الجزارين، يطالبني بأن أحمد الله وأشكر فضله فأحمد الله وأشكر فضله، عيبي بحسابات هذا الزمان أنني كنت دائما أحمد الله وأشكر فضله على الصحة والستر والرزق القليل، وعيبي أنني أحببت كل ناس الكفر وأحببت تراب الكفر فهل يستحق مثلي في هذا الزمان ضرب المداس؟ يضربني رشاد الأعور وقد كبرت وقلت قدرتي على الحركة المألوفة؟ وماذا لو لم يكن هناك ذلك النوع من الرجال الذي قال أنه كسبني باعتباري رجلا وليته ما قال لكي يعفيني من مشروع الضرب بالمداس الذي هو إهانة ما بعدها إهانة، أنا حسنين المندنش الذي شفت في عمري كيف تغيرت الأحوال وتبدلت وكيف كانت مصائر الكبار والصغار تأتي مخالفة للبدايات، فاروق الملك نفسه بدا تقيا ونقيا وأشاعوا أنه يصلي فروض اليوم في أوقاتها، ملك مثل الحلم والأمل يخيب فيه الرجاء في آخر المطاف، يطرده عساكره وضباطه بعد أن فاحت رائحة مفاسده من كل ناحية، قمار وحريم وعربدة وسمسرة في السلاح وخيانة بلد، ومحمد نجيب الذي حدثنا عن القناعة والسماحة ولقمة نرميها للقطة، أزاحته مطامح ضباطه وحددوا إقامته كما قال أصحاب سيد أفندي، كأنه مسجون في المرج حتى يحين أجله المحتوم، وعبد الناصر الذي بشرنا بانتهاء عصر الاستعباد، طالبنا أن نرفع الرءوس، وارفع رأسك يا أخي، وأيها الأخوة المواطنون، والنصر في بورسعيد بعد تأميم القناة الذي لم أكن أفهم معناه وأوافق عليه، حديد وصلب وجمعيات زراعية واشتراكية عربية وإحساس بأن البلد بلد البسطاء أمثالي هؤلاء الذي استعادوا كرامتهم رغم ما كان يشاع عن إهدارها في الخفاء خلف أسوار السجون والمعتقلات، أشياء سمعت عنها ولم أشهدها بنفسي لكنني تأكدت من حدوثها عندما أخذت عساكره سيد أفندي وأصحابه، والغريب الغريب أن من وشى بهم وكتب عنهم التقارير كان فاروق أفندي، كأنما تأتي للنفر الضربة من حيث لا يتوقع فتطحنه وتتوه وعيه وتفقده الثقة في الدنيا والناس، وكيف انتهى عبد الناصر الذي كان مثل الشهاب الطالع، الزارع في القلوب حلم المستقبل والقادر

على تحريك مشاعرنا في الاتجاه الذي يريده، كيف انتهى عبد الناصر وقد انكسرت شوكته وتحامل على عوده الفارغ الذي كان يداري موته بحسرة قبل الموت بسنوات، بدايته غير نهايته، والسادات الذي انحنى لصورة عبد الناصر وعاهدنا أن يمشي على هدى خطاه، الوفي للذكرى والذي بدا للناس في العباءة وبدلة التشريفة وياقات قمصانه البيضاء وكلامه عن حكايات جدته وناسه في ميت أبو الكوم القريبة من كفرنا الموعود بأولاد شلبي، يتقافزون مثل القرود ويملكون، يصاحبون أولاد الليل ويدفعون لهم كي ينفذوا أغراضهم، يأخذون عمادة الكفر من الفرع الخائب في أولاد عوف ويركبون على أكتاف الفقراء ويسلخون جلودهم إذا فكر الواحد منهم في أن يرفع رأسه، الخطير الخطير أن أشكال الظلم وأنواعه تختلف من زمن إلى زمن لكنها أبدا لا تنتهي أو تزول، يظل الفقراء مطية لمن يملكون ويحكمون ويتحكمون، حتى من شارك الفقراء فقرهم زمنا يتناساه ويردم على ماضيه إن استطاع وينسى ذاكرة الناس أو يتوهم أن ما فات مات رغم أن ما فات يبقى ولا ينتهي أثره بهذه البساطة، ما لنا بزمن السادات الذي انتهى بضرب النار، لا شيء يأتي من فراغ كما يقول الأفندية وتقول الكتب المطبوعة، كان السادات يحكي لنا الحكايات، ويبدو أنه كان يحلم في الليل ويفسر لنا الأحلام كلاما يطير النوم من عيون البعض ويجلبه للبعض الآخر، لكنه حارب اليهود وكسب الحرب خلافا لكل ما تصورناه، وصالح اليهود أيضا خلافا لكل ما توقعناه، وأنا لا أفهم في السياسة شيئا، لكنه أفرج في أوائل أيام حكمه عن المحبوسين في مسائل السياسة إلى حد القول بأنه لم يكن في المعتقلات مساجين ثم انتهى أمره بحبس الآلاف والآلاف من أصحاب المناصب ومن كانوا بحساباتنا يعملون لحسابه، ولأنني لا أفهم التفاصيل فإنني أكتفي باستخلاص العبرة الظاهرة من تبدل الأحوال واختلاف المصائر عن البدايات كأنه مكتوب علينا أن ننتهي على عكس ما بدأنا، شيء خطير ذلك الذي يصيبنا يا ناس، فلماذا نحن دون سائر خلق الله في كل أركان الأرض يحصل فينا؟ وهل نستحقه؟ وهل أستحق أنا البهلول الحاوي والعارف كل مخازيهم والساكت على بلاويهم أن يرفع رشاد الأعور مداسه على مشهد ومرأى من كل ناس السوق غرباء ومعارف، يرفع مداسه قاصدا رأسي أو دماغي أو عقلي؟ رشاد الأعور؟ النهاب السراق النصاب السمسار معدوم الذمة، وهل جاء زمنه وزمن أمثاله بحق وغربت شمس أمثالي من القانعين بالستر وعشاق الخير لكل الناس؟ صحيح أنني بحسابات البعض "ولا في الكير ولا النفير" لكنني أشارككم في المكان والزمان، أنا بحسب كلام عبد الناصر مواطن ولي في بلدكم ميراث، وليس من الضروري أن يملك النفر في زمام الكفر الذي يعيش فيه أرضا ليحصل على حقوق المواطنة، ويحصل عليها كل من عاش وتربى وشارك واحتمل وتحمس للمستقبل وحافظ على صفحته بيضاء وبشرف عاش، وهو مجرد كلام في كلام في كلام بحسابات من طلعوا على سلم الصعود فوق البسطاء في غفلة فصاروا بشرا من نوع آخر

جديد غير البشر الذين كنا نعرفهم في الزمن القديم أو الذين كنا نتمنى أن نلقاهم في مستقبل الأيام. وفي كفرنا وكل الكفور البعيدة يعيش البعض منا ليحافظ على النسل والبعض الآخر ليحافظ على الثروة وحيز الامتلاك لكنه هناك ناس تعيش لتحافظ على ما حفظناه عن الأجداد من أقوال وأمثال وسير وأفكار سواء كانت في علاقة الرجل المخلوق بربه أو بغيره من عباد الله، ولأنه لا شيء يبقى على حاله تتبدل في الظاهر أمور وتبقى في الكامن أمور لا تقبل التبديل، وربما بسبب ذلك حبسوا ثم قتلوا سيد أفندي وأمثاله، هؤلاء الذين عاموا في عكس اتجاه الريح، ولأن رياح التبديل فاتت على كفرنا فتسيد التجار والسماسرة وبياعو الكلام الحلو من طرف اللسان فصعدوا فلا بد أن دور أمثالي قد انتهى وراح أو لا بد من أن ينتهي ويروح، لكنهم يعيشون في غفلة إذا حسبوا أن الأمر سوف ينتهي بإهانة في سوق الخميس يرتكبها سمسار خطاف لا يعرف الحياء معدوم الضمير يدخل السوق وقد ترك على بابه ما تبقى من ذمته إن كان قد تبقى منها شيء، ينزع من قلبه كل أشكال الرحمة ويتاجر دون رأسمال في مواشي الخلق ولا يتراجع إذا جاءته الفرصة لبيع الناس وشقاء الناس وعرق الناس، سوق الخميس والقرش الصياد والعمولات المستورة والمكشوفة وزمن من يتسيدون دون أن يصبحوا بالفعل سادة، ذلك أنهم يتبعون السادة الأكبر الذين ساعدوهم على أن يتسيدوا على من هم أكرم منهم وأوعى إلى حد أن يتخطى سمسار نصاب حدوده مع بهلول حر لم يبع روحه للسفهاء.

موت عبد القادر كان نهاية زمن وبداية زمن، على الأقل في داره ونسله وأرضه، مشهده جمع البعيد والقريب، الذين خاصمهم وخاصموه والذين احتملهم واحتملوه، كان رغم العمى المفاجئ الذي أصابه في أواخر أيامه حاضرا ومؤثرا، موجودا في أذهان الناس وصاحيا، لكنه عندما مات تحول إلى مرحوم فات تركة يلزم أن يتسلمها وريث أو رثة، ورغم وجود حسن كانت الناس تعزي صالح أكثر وكأنه الأصل والآخر فرع، حسن نفسه لم يكن واعيا بما يدور حوله، لقد رجع ومعه سيد الصبي وزوجة جديدة من أهالي البندر، والدار لم تكن خالية لتسعه مع الآخرين الذين توافدوا وأقاموا كأنما عن قصد وبأهداف مبيتة دبرها أكابر الفرع، حسبوها وانتهوا إلى اختيار صالح وأولاده، سمعنا عن مشاحنات بين الحريم لم نعرها في البداية أي اهتمام، ورأينا سيد يرمح وراء الحمار ببنطلونه القصير وقميصه الأبيض وحذائه الأسود، لبس مدارس يخالف ثياب الفلاحين، وقلنا إنه لابد سوف يحول أوراقه إلى مدرسة البندر لكنه لم يفعل، كأنما كان حسن يعرف أو يحس أن وجوده في الكفر مؤقت، ومثلما جاء رحل، جاء بليل ورحل بليل وتحدث الناس عن أوراق مكتوبة ومختومة تنقل ملكية الأرض والدار إلى صالح بالبيع مدفوع الثمن وبشهادة إبراهيم ابن إبراهيم وعطية ابن علي وهما أقرب الأقارب، قلنا إنه من الممكن أن يكون عبد القادر قد وقعها بالفعل وختم عليها

بخاتمه أو بصمها ببصمته كي يحافظ على ميراثه في يد من يحميه ولا يبدده، وقلنا إنه من الممكن أن يكون بريئا من مثل هذا التصرف الذي لا يرضي الشرع أو الأصول، ويمكن أن يكون العقلاء من فرعهم قد دبروها لحسابات حسبوها، فكروا أنه من الممكن أن يبعدوا الوريث الأصلي لينفردوا بصالح وهو قليل الخبرة ويمكن زحزحته أو حتى تسييره حسب الهوى والمصلحة، ولكل واحد في هذه الدنيا حساباته، فرع شوكته بارزة وقد لاحت الفرصة لكسرها حتى تتساوى الفروع فلماذا لا يفعلون؟ وقد فعلوا بتدبير أو بالتواطؤ أو بالسكوت، وهكذا تحول موت عبد القادر إلى نهاية زمن وبداية زمن، نهاية زمن الطيف السارح في البلاد البعيدة والممكن رجوعه إذا تصالح مع عبد القادر يوما، كان حسن في كل الأذهان طيفا قابلا للرجوع وريثا لعبد القادر لكنه عندما خرج كان الطيف الغائب قد اختار أن يبقى هناك، أن يتباعد عن ذاكرة الناس وتتمحي سيرته باعتباره من ناس الكفر، يغيب غيبته ويرجع عندما يحين الوقت، قلت لكم مرة إنه لم يكن على ذمة الكفر وهذا صحيح إنما بعد موت عبد القادر، قبلها كان على ذمة الكفر وكنا ننتظره، لكنه لم يرجع إلا ليشيع الجنازة مثله مثل أي غريب، وكانت الناس تتكلم قبل أن تعرف ما سوف يحدث، عن الميراث الشرعي الذي سوف يصل إليه رغم التباعد والابتعاد، فالشرع في كفرنا هو الشرع، لكنه ليس بالشرع وحده يتعامل الناس في مثل هذه الأمور، كنت أتذكر جلستنا يوم العجور الذي احتميت فيه بعبد القادر فحماني، أتذكر كيف كان يحنو على سيد الطفل ويداعبه بكل الحب وكل الأشواق كأي جد يتمنى إسعاد حفيده عندما يراه بعد طول غياب، كيف غضب من صالح وثار عليه وأمره بالابتعاد لمجرد أنه تحدث إليه بطريقة لا ترضيه، صحيح أنني فكرت يومها أن صالح سوف يكسب في نهاية المشوار لكنه لم تخطر ببالي احتمالات أن يسكت أو يوافق مثل هذا الرجل على ظلم حفيده الأصغر لحساب حفيده الأكبر، وربما بسبب ذلك فكرت أن في الأمر حيلة مدبرة لم يعرف عنها الرجل أي شيء أو يفكر في تدبيرها في حياته، والمسألة من أولها إلى آخرها مجرد اجتهاد، اجتهاد نفر بعيد عن الدار وأهلها، شيء أقل بكثير من اجتهاد المحاكم والقضاة الذين يحكمون في قضايا المواريث وعندهم كل الأوراق وكل إمكانيات العدل، ومع ذلك لا يتحقق كل العدل، وهل تحقق في كفرنا العدل أبدا؟ العدل كلمة منطوقة ومكتوبة ومقروءة، كلمة لها وزن وقدرة على إراحة النفوس إذا تحققت مرة، وعلى إزهاقها عندما يعتم على نورها جدار الظلم القادر أن يحجب عنا شعاع الشمس، لكنه يحدث أن يعرف الناس أو يعرف القاضي حقيقة الأشياء وينطقون عن الهوى، يقول الناس معكوس الحقيقة لمصلحة محسوبة أو محتملة، ويحكم القاضي بعكس ما يشعره لأنه محكوم بأوراق وشهادات بشر وبراعات محامين في الدفاع عمن دفعوا لهم الأتعاب، ولأن العدل لم يتحقق أبدا فقد كان من الممكن أن يحدث ما حدث عندما خسر صاحب الحق الشرعي قضيته أمام ابنه رغم اقتناع

الناس وحسن نوايا من نطق الحكم محكوما بما لا يملك تجاهله مكتوبا في الأوراق، وآه من الأوراق، تحكمنا وتتحكم في مصائرنا، تخدعنا أو تنور طريقنا، تعلمنا الحقيقة أو تفسد أدمغتنا، تروى عطشنا أو توردنا في صحراء الكذب ناحية السراب، تفيدنا أو تضرنا ولا نملك إذا عشقناها إمكانيات الخلاص من أثرها أو سحرها على مدى الأيام.

في كفرنا "الخروبي" يذكر الناس محاسن موتاهم ويتناسون المعايب، ولأن الموت نهاية كل حي فهم يذكرون محاسن الأموات دائما وكأنهم يبادلون ما يفعلونه اليوم بما سوف يفعله الأحياء يوم أن ينتهي أجل الواحد منهم في الساعة المكتوبة، هو عمل طيب على كل حال وإن كنت أشك أحيانا في أنه خالص لوجه الله وحقيقة الموت، ذلك أن البعض ينسى أو يتناسى تلك الحقيقة البسيطة المتكررة ويتعامل مع الدنيا وكأنها سوف تدوم، مع أنها لم تدم للنبي المرسل ولا دامت للملوك أو الأكابر أو حتى للفراعين الذين حكموا الدنيا بأسرها وتذكروا حقيقة الموت فحنطوا الأبدان وابتنوا مدافن وأهرامات لحفظ تلك الأبدان وكأنما لنتعلم منهم تلك الحقيقة، ولقد حاولنا في كفرنا أن نذكر محاسن حضرة جناب العمدة القتيل فعجزنا في أول الأمر لأن سيرته خلت من المحاسن، وتذكرنا عباءاته وجلابيبه وشيلان عماماته وقفاطينه وطاقياته المشغولة بالإبرة وبغرزة رجل الغراب لا ندري لماذا، وموت الأغنياء في كفرنا "البطيخي" غير موت الفقراء مثلما هو موت الصبي غير موت العجوز وموت التقي غير موت الفسدان، كان المرحوم الذي لا تجوز عليه غير الرحمة "فلاتيا" وكذابا وسكيرا ومقامرا ونهابا وظالما، حتى في موته كان ظالما للفقراء، يرحمه الله فللأموات حرمة وللكفار نار جهنم وكل شيء بعلم الواحد القهار.

بيني وبينكم أنا مكتوم وأرغب في البوح، بالأمس حضرنا ذكرى الأربعين فيحق لنا أن ينفلت اللسان ويشهد بما كان، انضرب العمدة برصاصة مجهولة المصدر عند باب الدوار ونزف الدم حتى جاءت الإسعاف، حملته السيارة مع أهله وناسه وبينهم الدكتور برهان ومن باب الاحتياط أخذوا الزناتي ابن الشحات، وتبادلنا الأسئلة عن السبب فالزناتي مجرد نفر "تمللي" يشتغل في الغيط والدوار بلقمته وكسوته وخمس قراريط يزرعها خلافا لكل أنفار الكفر، النفر في كفرنا يأخذ من القراريط عشرينا أو يأخذ فدانا لحسابه مقابل كده وشقاء روحه، إنما الزناتي منكوب بالشغل سخرة طرف حضرة جناب العمدة، مص دمه حيا وميتا، وهي المرة الأولى التي يمص فيها إنسان دم إنسان حتى ينهي أجله، كان الدكتور برهان يعرف ولا ندري كيف أن فصيلة دم الزناتي هي نفس فصيلة دم العمدة الذي انضرب بالنار، ولأنها فصيلة نادرة طلب الدكتور برهان من الزناتي ابن الشحات أن يركب فركب في استسلام وطاعة ولم يكن يدري أنها آخر ركوبة، من دمه نقلوا للعمدة في المستشفى المخصوص بإشراف الدكتور برهان كل ما طالوه، وأنا أمرني شيخ البلد بأن ألف وأدور

وأنادي على من يتطوع للعمد بدمه نظير وعد بمكافأة، أدور وأنادي فلا يتحمس الناس، حتى أهله لم يتحمس منهم غير العارف أن فصيلة دمه مختلفة، ومن لا يعرفون في مسألة الفصائل لا يذهبون، وطالت ساعات السعي والانتظار حتى جاءت الإشارة بانتهاء أجله المحتوم فلا نفعه دم ابن الزناتي ولا دم شفيقة بنت المساح تلك التي أخذوها من بين من أخذوهم غصبا عن أنوفهم وحبات عيونهم بالتخويف والتهديد فاستسلموا وأسلموا أنفسهم وركبوا عربات أولاد شلبي المخصوص وراحوا للمستشفى المخصوص تكشف عليهم الممرضات فلا يجدن غير شفيقة بنت المساح التي ينفع دمها من بين كل من راح برضاه أو غصبا عن أهله وناسه، المهم أن العمدة الجديد راح في خبر كان وبعيار واحد مطلوق في الكبد حسب ما قال الدكتور برهان ابن عم القتيل، ذلك الذي لم يهدأ طوال الوقت أو يرحم الزناتي أو بنت المساح، فبعد ساعة واحدة من موت العمدة مات الزناتي بهبوط في القلب كما قالت الحكيمة ونهاية أجل وطبيعي كما قال الدكتور برهان للناس، المهم أنه في الصباح التالي اتجهت إلى مدافن كفرنا جنازتان، واحدة يتقدمها أكابر الناحية ورجال الإدارة ومأمور المركز وبعض أهالي العمدة بينما كل ناس تمشي في جنازة الزناتي ابن الشحات "ويا دايم أنت الدايم ولا دايم غير الله.." يرددونها مثلما رددوها في جنازات الشهداء، طال اليوم وطال وحل المساء فانفتحت مندرة العزاء المجاورة للدوار فلم يذهب من الأهالي إلا بضعة أنفار، ربما لأنهم كانوا في مندرة أولاد الشرقاوي التي انفتحت لأخذ العزاء في الزناتي ابن الشحات، وربما كانت هي المرة الأولى التي يتفوق فيها الفقراء على أصحاب السلطان في منادر العزاء، وخلافا لكل ما كان مألوفا انقلبت حسابات الأكابر عن كفرنا الغويط الغويط مثل بئر يوسف عليه السلام.

امتلأ الكفر بالعسكر والمخبرين وعاد وكيل النيابة بعد أيام ليعاين المكان مرة أخرى رغم أنه عاينه يوم ضرب العمدة، قلنا إنه لا بد قد وصلت إليه معلومات جديدة حقيقية أو شكاوى كيدية تتصل بما جرى، وكان المأمور هناك في الدوار، ودوار العمدة بناية جديدة من أيام الحاج مرسي، مخفية من الخارج وراء سورها من شجر الكازورين والكافور الموصلة جذوعه بالأسلاك الشائكة ما بين كل سلك وسلك قيراطان أو ثلاثة قراريط بمقاس أصابع اليد وحتى ارتفاع قامة أطول رجل في الكفر، والدوار محروس بالخفراء وكلاب المرحوم المشهورة بأكل اللحم والتي لا تكف عن النباح عمال على بطال وتوشك أن تقطع الطريق على العابرين، بناية في وسع على سكة مخصوص، وربما بسبب كل ذلك احتار حضرة وكيل النيابة وغضب المأمور، من شدة غضبه حلف بشرفه أنه لن يهدأ أو يهنأ له بال قبل أن يعرف الفاعل المجهول، وربما بسبب اليمين الذي حلفه عاد وكيل النيابة ليعاين المكان من جديد ويسأل الخفراء، ومن ناحيته عين المأمور حضرة الصول عرفان لحفظ الأمن وحماية الضعفاء من الأقوياء وإدارة شئون الكفر، أصبح كفرنا "المستقيم" بغير عمدة فترة من الزمن طالت

وطالت خلافا لكل الظنون، صار الأمر في يد العساكر الذين يأمرهم حضرة الصول عرفان، وصار كفرنا "البهلولي" اسما على مسمى، بيني وبينكم ارتحنا من سخافات البرقوقي والشوكي والبهنساوي ومشايخ البلد الطماعين مفتوحي الحلوق والبطون بلا خجل ولا حياء، وغاية ما كان يتكلفه ناس كفرنا الكرماء هو اللقمة اللائقة يقدمونها للعساكر ولحضرة الصول، ناس في مهمة حراسة كفر وقد تركوا بيوتهم وأولادهم في البندر من أجل خاطرنا فهل يستخسر ناس الكفر فيهم اللقمة أو كوب الشاي أو السيجارة أو أي شيء يحتاج إليه الغريب الساكن في غير مسكنه، أنتم تعرفون أن الكلام في مثل هذه الأمور عيب، لكن بعض ناس الكفر كانت تتكلم عن اتساع بطون العساكر واتساع ذمم المخبرين وصل الأمر إلى مبالغات وتشنيعات لا يصدقها العقلاء حول دخول عسكري إلى دار يطلب الشاي أو الدخان أو يشارك في وجبة عشاء فيأكل اللحم ويترك لأهل الدار الجلد والشغت والعظام، وصل الأمر إلى اتهام البعض بطلب الطيور الحية وعلب القشدة والسمن المقدوح والجبن القريش، يطلبونها الواحد تلو الآخر قبل أن يسافر إلى بلده في أجازة الأسبوع، سمعنا هذا الكلام وأكثر منه مثلما سمعنا عن الصول عرفان الأكثر جرأة والذي كان يطمع في الخروف الحي أو النعجة، يهدد بإمكانيات توجيه التهمة المعلقة في دائرة المجهول ما لم تنفذ له كل الطلبات، طلباته وطلبات حضرة المأمور، ولا مانع من ذكر وكيل النيابة والطبيب الشرعي وبعض أهل الحل والربط في إدارة المركز، وصحيح أن مثل هذه الأمور يمكن أن تحدث مع الأكابر، لأن الأكابر يملكون وغالبا ما يدفعون ولا يتكلمون لأسباب لا يعرفها أمثالي من الفقراء، يمكن مثلا أن الأكابر من أهل العمدة كانوا يسعون من ناحيتهم إلى معرفة الفاعل بكل الوسائل، ولابد أنه من بين الوسائل المشروعة إرضاء من يملكون إعطاء الموضوع اهتماما يزيد وينقص حسب الأحوال ودرجة رضاهم عن أصحاب الدم وضد من أراقوه على عتبة الدوار.. الغريب الغريب أن القتل تم على عتبة الدوار يا ناس، لا أحد رأى ولا كلب نبح ولا ظل نفر بان فهل جاءت الرصاصة من ناحية جن أزرق يتخفى عن عيون الناس أو طبت من السماء؟ ولأن المأمور من أنشط المأمورين فقد أمر بتفتيش كل البيوت المشكوك في أمرها أو المحتمل أن لأصحابها دورا ولو من بعيد، عثروا بالطبع على بنادق ومقاريط وأسلحة أخرى بدون تراخيص فصادروها وأخذوا أصحابها رهائن لحين التأكد من استخدام أحد هذه الأسلحة في الحادث، وطال الاحتجاز رغم ما قيل من أنه ولا سلاح من تلك التي صادرتها الحكومة له علاقة بالرصاصة المطلوقة، عملوا قضايا حيازات بدون تراخيص طبعا قبل أن يخرج من أخذوهم ظلما، وربما بسبب ما جرى لهؤلاء بعد القبض العشوائي غضب أكثرية الناس في كفرنا "الصالح" من المأمور ورجال الضبط ومن كل الحكومة، تلك التي تعرف ولابد أن القتيل له أعداء من الكفر ومن خارج الكفر وأن سمعته سيئة وسيره أعوج فكيف انقلبت من أجله الدنيا ولم تحرك نفس

الحكومة واحدا يسأل الناس رأيها في تصفية دم الزناتي الشحات قطرة قطرة وحتى آخر نقطة تفصل بين الموت والحياة من أجل سواد عيون العمدة الذي لم يكن في كل عمره عـادلا فـي شيء، وهل للفقر والغنى في نظر الحكومة كل هذا التأثير، ألم يلاحظ رجالهم ليلـة العـزاء انعدام المعزين من ناس الكفر عن الاتجاه إلى مندرة العمدة التي بناها الحاج مرسي بعـد أن عينته الحكومة عمدة فكان يراعي الأصول أحيانا ولا يخلع برقع الحياء كما فعل ابنه من بعده، صحيح أن كليهما افترى لكن هناك فرق، وصحيح أنه بعد موت الليثي الشحات الـذي مـزق البرقوقي ظهره العريان بأمر الحاج مرسي، صحيح أن الحـاج مرسـي أخـذ أصـغر أولاد الشحات ورباه من خيره، لكنه ليكون عبدا مجانيا قليل التكاليف، يخدم ولا يحق له أن ينطـق وهو في قبضة العمدة وابنه الذي تولى من بعده، كأنه بهيمة لا يحق له الشكاية إذا تعـرى أو جاع أو صفوا دمه بشهادة الجميع مدعين أنه تطوع باختياره لينقذ ولي نعمتـه، سـيده وابـن سيده، لكنهم لم يعرفوا أن الناس في كفرنا "الصالح" تتناسى بإرادتها زمنا لكنها لا تنسـى، أن أسباب الغضب كانت ساكنة في قيعان القلوب وجاهزة لمن يطلقها بسهم آخر جديد فتظهر على السطح شتائم وتشنيعات وشائعات ونكات حزينة عن العمدة ونجاسة ذيل العمدة وأصل نـاس العمدة، بداياتهم غير البعيدة وهم يفدون إلى كفرنا بالحيل والألاعيب واكتساب ثقـة البسـطاء أولا ثم الانقلاب عليهم وقد امتلكوهم، وربما التقط المخبرون والعسكر مثل هذا الكلام وأبلغوه لحضرة الصول عرفان فأبلغه إلى حضرة المأمور الذي أمره بالبقـاء وزوده بقـوة إضـافية وأرجأ تعيين عمدة جديد إلى وقت آخر، ربما إلى أن تهدأ النفوس وينسى الناس مـا جـرى، ورتب العساكر أمرهم على مأمورية طويلة ورتب الناس أمورهم على احتمال المزيـد مـن واجبات الضيافة الجبرية، يؤدونها غصبا وعلى مضض "واصبر على جار السوء" وبقدر مـا استباح العساكر خبز البيوت بقدر ما سمح الناس لبعضهم في استعادة سـيرة العمـدة وذكـر بلاويه المخفية والظاهرة، كان المرحوم مصيبة وحطت على أدمغة الفقراء حيا وميتا، الكـل خسر في وجوده وبعد رحيله، وأنا خسرت الكثير الكثير ما بين موت سيد أفندي غدرا وموت العمدة قصاصا عادلا من رب السماء، ذلك أنه طوال هذه الأيام كان أتباعـه مـن النمـامين والخفراء والواشين الكذبة يضعونني حيثما كنت تحت الملاحظة، ولا بد أنهم كانوا يحسـبون خطواتي ويسجلون أقوالي لينالوا عنده الحظوة وتزداد ثقته فيهم، قبلها أيضا لم يكن بيني وبينه عمار، مرة طلب مني أن أكون جاسوسه على سيد أفندي فدافعت الست شوق عن سيد أفنـدي وعني، وفي زمنه تجاسر رشاد الأعور ورفع مداسه بهدف ضربي أمام الناس في السوق لولا شهامة الغرباء، وفي زمن أبيه أيضا طاردني الخفراء لولا حماية المرحوم عبد القادر، كيلـي منه طفح وفاض مثل بقية خلق الله من الفقراء، وإذا نسيت كل شيء فهل أقدر علـى نسـيان وجه الزناتي وهو راقد وخرطوم مص الدم مثبت في ذراعه وقطرات من دمه تتساقط بضعف

في الزجاجة بينما الزجاجة الأخرى المملوءة بدمه معلقة في ذراع العمدة، امتصـــاص لآخــر قطرة بأمر الطبيب الجاهل برهان ابن زاهر ابن هارون، ساعتها طردني برهـــان لكنـــه لـــم يخدعني لأبدل فكرتي بأن ما كنت أراه هو امتصاص دم الفقير العاجز لحساب الغني المالـــك القادر الذي تجبر واستباح كل شيء حتى دم شفيقة بنت المساح التـــي أصـــابها شـــلل لكنهـــا بالإشارة تبوح رغم الخرس إذا ذكرتها بما جرى في ذلك النهار البعيد، يومها وأنا راجع مـــن سكة البندر تمنيت أن يغور من الدنيا ليتأكد لي عدل السماء، ويومها طال الســـوس مخـــزون القمح في داري لأول مرة رغم أنه كان في "الزالوع" فوجئت بالسوس يزحف خارجا من فتحة صغيرة، كنت أشعر بالحزن والوجع والخوف من ذل السؤال وقد فسد المخزون، لكنني أيضا خلعت طاقيتي ورفعت رأسي للسماء أطلب عدلها ومن الله رحمته فاستجابت السماء وجـــاءت الإشارة في نفس الليلة بأنه مات وأنه لم ينفع معه طب ولا دواء ولا مد الدم المســـلوب فـــي عمره يوما، بانت لي الأمارة وتحقق الرجاء ففرحت بيني وبين نفسي ونسيت همـــي وقلـــت للسوس اشبع بقمح "الزالوع" فسوف يأتيني رزقي ولن أجوع، وليلتها رأيت في المنـــام ســـيد أفندي المغدور ينهض من رقدته على الأرض، رأيت الدم الممزوج بالأرض يتطهر من كـــل الشوائب ويرجع إلى مكانه، وبيده شد على يدي مرحبا ثم ناولني حقيبة خفيفة كما كان يفعـــل، وإلى جواره سرت في المنعطفات حتى دخلنا دار صالح الذي أخذه في حضنه وكأنما استعاده من قبضة الموت، فهل كان صالح هو الذي استعاده بالفعل، لا أدري، لكنني عندما صـــحوت من نومي كنت أشعر بالراحة وكأنني بالفعل استعدت للحياة سيد أفندي المغدور.

حكم العساكر كفرنا بعد موت العمدة يوسف ابن مرسي، كان الصول عرفـــان ينـــام ويقوم ويجلس في النقطة الثابتة والعساكر والخفراء والمخبرون وبرابرة الهجانة يتوجهون إليه ومنه يأخذون الأوامر، ورغم السعي وكثرة الأسئلة لم تتوصل الحكومة إلى بداية الخيط فـــي مسألة موت العمدة يوسف أو موت الزناتي في المستشفى الأميري، كانت الناس فـــي الكفـــر ساكنة على غير عادتها، ربما بسبب وجود العساكر الغرباء والصول الداهية لم يعد ناس الكفر يثرثرون، حتى الأطفال كانوا لا يتكلمون مع أي غريب، كأنهم اتفقوا فيما بينهم على الكتمان، وأنا كنت في السابق أظن أن ناس الكفر مجرد فئران داخل مصيدة مفتاح بابهـــا فـــي جيـــب المأمور أو من يتبع المأمور، لكن ما جرى أكد لي أن فكرتي كانت غلطا في غلط، وعنـــدما طال وجود العساكر الغرباء والصول الداهية، لم يعد ناس الكفر يثرثرون، حياتهم بشكل جديد، طلباتهم يدبرونها قبل غروب الشمس من الكفر أو من البندر إنما قبل غروب الشمس وبدايـــة منع التجوال، كأنهم كانوا بذلك يريحون الصول من طلباتهم بأن يسمح لهم بقضاء الحاجات أو الحركة في دروب الكفر ليلا بإشراف العساكر، أو كانوا يريحون أنفســـهم، وهـــؤلاء الـــذين اعتادوا السهر في المقاهي كانوا يسهرون في البيوت، كل ليلة في بيـــت، يتجمعـــون حـــول

"راكية" الدار ويدخنون المعسل السادة أو المغموس بالحشيش، والغريب أن بعض العساكر والمخبرين كانوا يأتون ويشاركونهم السهر، يتحدثون عن الجنازة الحارة والميت الكلب أو الذئب أو الحنش الذي تسبب في اغترابهم وابتعادهم عن بيوتهم وعيالهم والذي حرمهم من الرقاد المرتاح، يقولون مثل هذا الكلام في محاولات متكررة لفتح سيرة يوسف أو معرفة أسماء أعداء يوسف من أهالي الكفر، لكن الناس كانت تتبادل النظرات ولا ترد، كانت دائرة المراقبة تضيق وتضيق حول الناس لكنهم لم يفشوا سرا أو يبح أي واحد منهم بشيء ولو كان مجرد ظنون أو شبهات يفكرون فيها، كأنهم آمنوا أن الحكومة حكومة وأن الأهالي أهالي وأن من وظائف الحكومة حماية الأمن والنظام ومعرفة أسباب الجرائم وأسماء من ارتكبوها، كأنه كان الناس في كفرنا يعيشون في واد والحكومة في واد آخر، وصحيح صحيح أن الكثيرين كانوا يعرفون أو على الأقل يظنون لكنهم سكتوا، ورغم الكلام عن العدل وضرورة أن يبوح من يعرف بما يعرف ليتحقق في الدنيا عدل الحكومة وحتى لا تسود في دروب الكفر فوضى لا نهاية لها، وكلام كثير مثل هذا قاله الخفراء والعساكر والمخبرون لكن الناس ظلت على حالها ساكتة، ربما كانوا يقولون لأنفسهم مثلما كنت أقول لنفسي.. وأين كانت الحكومة وعساكرها أيام مقتل سيد أفندي؟ وأين كان رجالها ومخبروها عندما تمت تصفية دمه؟ أم أن الأمر من أوله لآخره مجرد غابة يتحكم فيها ويحكمها من يقدرون ضد من لا يقدرون؟ كانت المسألة بحساباتي وربما بحسابات الناس هي تحقيق العدل الرباني في الوقت المناسب لأنه من قتل يقتل، ولأن الله مالك الملك يمهل ولا يهمل، عدله سبحانه أعدل من عدل كل حكومات الدنيا، لكن حكومتنا كانت عن هذه الحقيقة البسيطة غفلانة أو جاهلة، والوحيد الوحيد الذي استفاد من وجوده كل هذا الوقت في النقطة الثابتة كان الصول عرفان، لعله كان يطلب من الله أن تظل هذه القضية منظورة ووجوده ممدودا إلى أجل غير مسمى.

كان الأكابر من أولاد شلبي يذهبون إلى مكتب المأمور ومكاتب الإدارة لمتابعة آخر الأخبار، وشاعت إشاعات عن إكراميات قدمها البعض منهم لأتباع المأمور أو للمأمور نفسه لكي يرضى عنه ويزكيه لمنصب العمدة الخالي، وقال البعض إن المأمور لم يمانع في إعطاء الوعود لأكثر من واحد منهم، ولابد أنهم تأخروا كثيرا قبل أن يكتشفوا الخدعة، فالمأمور نفسه صدر قرار بنقله إلى البداري وهي مركز في الصعيد الجواني لا يذهب إليه غير المغضوب عليهم من رجال الإدارة، ضاعت الهدايا والإكراميات على الساعين والصيادين في الماء العكر وجاء مأمور جديد بوجه جديد ورأي جديد فتمنينا أن تعود عمادة الكفر إلى أولاد عوف مرة أخرى، لكن الصول عرفان كان هناك لا يزال في النقطة الثابتة يفتي ويتكلم عن استحالة عودة نظام العمادة إلى كفر مشاغب مثل كفرنا كل يوم يسقط منه قتيل وناسه مثل العميان الطرشان أو المخروسين الساكتين، يقول ويضحك ثم يمد قدميه ويخلع مداسه الثقيل فتفوح من قدميه تلك

الرائحة النتنة التي تزكم الأنوف وتجبرنا على الالتفاف إلى ناحية أخرى قبل أن نتباعد عـــن نقطته الثابتة أو نفكر مجالسته وقد دعانا للجلوس.

سلمان ودواره

سلمان ابن بنت هارون أعطاني عمري وأعطيته عمره وسبحان مسبب الأسباب فقد كان كلانا منذورا للموت أو هكذا قالوا، قالت أمي لنساء الكفر وقال أبي لرجاله وقال الناس للناس، سلمان تربى في حضني وتربيت أنا في حضنه وكان الناس يقولون لنا دائما.. أنتما أخوان شقيقان، ولا بد أننا كنا في ذلك الزمن البعيد مثل توأمين لا نتباعد عن بعضنا أبدا، كنت أحسبه شقيقي ابن أبي وأمي حتى تكشفت لي في طفولتي بعض الأمارات وبانت لي وله بعض معاني الحكايات، لكنه لم يكن لمثل هذه الأمارات أو الحكايات في ذلك الوقت أي أثر محسوس، كان سلمان بحسب ما قالوا ابن بنت هارون التي ماتت بعد ولادته بساعات، وكانت أمي في نفس الليلة تلدني، ولقد ولدت أمي من قبلي تسعة عشر بطنا خائبة بحسب ما كانت تقول "تلد وتدفن" تلد وتدفن بعد ساعات أو أيام وفي أحسن الحالات بعد ثلاثة أسابيع، وفي حالتي اختلف الأمر، حملوا إليها سلمان فأرضعته من لبن "المسمار" مثلما أرضعتني، نيمتني إلى جواره فحماني من غضب الجن الساكن تحت الأرض.

كان أبي أيامها يطبل لهارون ونسل هارون، وكان يقول أن خبز دارنا من خيرهم وأن أدامهم يملأ بطوننا مقابل رعاية سلمان الذي بقى معنا، كان أبي يتباهى بوجود سلمان في دارنا وكانت أمي هي الأخرى ترعانا بالعدل دون أن تميز أحدنا عن الآخر:

ـــ والنبي يا ختي كنت أمد إيدي والدنيا مدغششة وأرضع العيل منهم لحد ما يشبع أرجعه مطرحه وآخد التاني ما عرف أنهو منهم ابني وأنهو ابن بنت هارون، وربنا شاهد على كلامي.

كانت أمي وبقيت تملك ثديين مدرارين، أرضعت من قبلنا كل أطفال الناس في كفرنا أو على الأقل أكثرهم، ومن هذه الناحية فأنا شقيق للكل مثلما أنا شقيق سلمان، وكانت أمي النحيلة تؤكد للكل أن الجن الساكن سابع أرض يركبها وأنه يتجلى لها في الظلام ويحذرها من أي تفرقة في رعاية سلمان ورعايتي، كانوا يهددونها فتعدهم بالعدل الكامل، وكانت تنفذ وعدها بحذر ودقة، فمن نفس اللبن كنا نتغذى وعلى نفس الفراش كنا ننام، وبنفس الغذاء فطمتنا مثلما كانت تنظف جسدينا في نفس الوقت، كانت تخشى، إن هي فرقت بيننا في أي شيء من غضب الجن الساكن سابع أرض، ولها معهم تجارب مؤكدة، هو جن غضاب لا يرحم، فبضربة كف كان ينهي عمر كل مواليدها قبلي، كان يضرب المولود في كل مرة

ويترك آثار الكفوف ظاهرة لها وواضحة على أجزاء متفرقة من أجسام المواليد الذين فقدتهم قبل مولدي.

ظل سلمان في دارنا حبلا سريا يجذبنا إلى دار هارون وبسببه كان خير دارهم يصل إلينا، فالزائر منهم يأتي بجلبابين أو بقميصين ولباسين، والمانح في الأعياد يعطيني مثل سلمان القرش الأبيض فتفرح أمي أو أم سلمان أيضا التي هي أمي وأمه بخالص السماح والرضا والقدرة على التربية حتى كبرنا وصرنا نذهب معا إلى الكتاب كل صباح ونحاول وسط العيال أن نحفظ دون أن نفهم معنى الآيات.

سأحدثكم عن يتم الفقراء، الفقراء يتامى يا ناس حتى في وجود الأب والأم، كنت صغيرا عندما أخذوا سلمان إلى دار خاله عزت شلبي، عزت شلبي ابن هارون جاء في المساء وجلس في صحن دارنا، كانت أمي تبكي وكان أبي ينظر ناحيتي ولا يتكلم، لكن عزت كان يحتضن سلمان وحده ويبعدني، وعندما قام حمله وحده وأزاحني عن سكته، أمر أمي بأن تسكت وأن تسكتني أيضا وأنا أصرخ وأطلب منه إعادة أخي سلمان، وأمسك بي أبي، حاول إسكاتي بالكلام فلم أسكت فحط كفه على فمي وحملني وأنا أرفس الهواء وجلباب أبي وبطنه وعزت شلبي يخرج من دارنا ويخلو مكان سلمان فيصبح الفراش باردا وأشعر بضياع نصفي، وفي الصباح أهرب وأذهب إلى دار عزت شلبي، أبحث عن سلمان ويسعى ناحيتي، نهرب معا إلى خلاء الغيطان حتى يعثروا علينا، ومن جديد يأخذونه بعيدا عني ويأخذونني بعيدا عنه، ولا بد أنني كنت في الرابعة أو الخامسة من عمري في تلك الأيام ولا بد أنني لم أكن على استعداد لتصديق تلك الأكاذيب التي كرروها على مسامعي قائلين أن سلمان ليس أخي وأنه ابن بنت هارون التي ماتت بعد مولده وأن أمي أخذته لترضعه مثلما أرضعت العشرات قبله وبأجر، لم أكن أصدق الكلام المسبوق بكلام عكسه حول أننا أخوان شقيقان، سلمان نفسه كان يهرب من دار خاله ويأتي إلى دارنا، يلعب معي ويوسخ ملابسه التي كانت تختلف عن ملابسي، وكانوا يأتون ويأخذونه بغضب وفي بعض المرات كانوا يوبخون أمي أو أبي لأن ابنهم سوف يفسد الولد ابن الناس ويحرضه على الهرب من دار العز التي يملكها خاله عزت إلى دارنا الخربة، كانت أمي تبكي وأبي يسكت ونادرا ما كان يرد، لكنني وجدت الحل في الذهاب إلى سلمان، ألعب معه دون صوت وأكتم أنفاسي، وساعة العشاء يضعون لي شيئا من طعام على سطح لقمة جافة فآكلها لأسد جوعي من كثرة اللعب والغياب عن دارنا، كنت أبقى هناك حتى يصرفوني بخشونة أو بسخرية غليظة فأنصرف، كان سلمان في دمي وكنت في دمه، وكنت كلما حصلت على شيء يقبل القسمة أرمح إليه وأقتسمه معه، برتقالة أو حفنة بلح تمر أو حتى "شرش" جزر، وكان هو من ناحيته يفعل نفس الشيء أو يحاول ولا يتمكن فيحدثني في اللقاء التالي عن عنقود العنب الذي حصل عليه ولم يستطع أن يشركني في حباته

أو حفنة الزبيب البناتي التي احتفظ لي بنصيب منها، كان بيت عزت شلبي مثل الجدار الـذي يسد حارتنا ويمنع وصول الشمس إلى واجهتها، ولا بد أنني سئمت مـن كثـرة المحـاولات الفاشلة في عبوره بعد الصعود فوقه وركوبه كما أركب الحمار، ذلك أن النزول من فوقه كان يعني بحسب ما سمعت من الكبار "كسر رقبتي على صدري" ، ولست أعرف كيف كنت أفكر هكذا وأنظر إلى الجدار ودار عزت شلبي بنفس الطريقة، لكنني قللت من الذهاب إلى هنـاك، وإذا ذهبت تحدثت إلى سلمان أو استمعت إلى حديثه قبل أن أتسحب خارجا من الدار دون أن يهتم بدخولي أو خروجي أحد، كنت أشعر بالمهانة وأنا وحدي، وكنت أبكي أحيانـا عنـدما ينشغل سلمان عني بأكل شيء دون أن يعطيني خلافا لما كان يحدث في السابق، لكنها كانـت أوامر الكبار التي بدأ ينفذها لينول رضاهم، كان سلمان يتبدل في دار خاله، وكنت أنا أتبـدل في دروب الكفر ودور الخلق ومشاوير المدافن في صباحات كل خميس للحصول على رحمة الأموات الجدد من الفواكه أو القرص والقراقيش، كنت أتبدل في الغيطان الممتدة والتي تهـب البني آدم خيرها دون سخرية أو تأنيب أو طرد، وكنت أستطيع أن أدبر حـالي مـن طلـوع الشمس وحتى إلى ما بعد غروبها بساعات، آكل وأشرب ونادرا ما كنت أجوع، لكن سـلمان كان يتبدل بطريقة أخرى، لبس الجزمة والشراب مع القميص الأفرنجي والبنطلـون القصـير وحمل مخلاة الكتب والكراريس وصار من تلاميذ المدرسة في البندر، أقابله بكل الشوق فيرد علي بأدب، أدب أولاد الناس الذي يغيظ، أدب لا ينكر الحب لكنه لا يظهـره، أدب الأفنديـة الغرباء وهم يأخذون الأنفار لخدمة الباشا والبك باللقمة التي تسمم البدن، على هذا لنحو كـان يتحدث أبي عنهم، عن الأفندية الغرباء وعن الأفندية الجدد من أولاد شـلبي، وكنـت أفهـم مقاصده، ولا بد أنني كنت في السابعة أو الثامنة عندما كان أبي يحدثني عن كل ما يخفيه فـي عقله من أسرار، يستشيرني في كيفية الخروج من ورطة أو مشكلة وأرد عليه فيهـز رأسـه استحسانا في بعض المرات أو يعترض بشدة في مرات أخرى، ولم يكن يكتفي بـالاعتراض، بل كان يوبخني على عدم الفهم أو التفكير بشكل أهبل، كنت شريكه وكـان شـريكي نتبـادل الكلام الفارغ والكلام المهم ونشعر بالونس عندما تخلو لنا دروب الكفر أو براح الغيطان.

كان حديثنا معا هو الذي هداني إلى حقيقة يتم الفقراء، فسلمان ابن بنت هارون الـذي كانت أمي تتباهى بأنها قامت بتربيته إلى أن زال همه هو سلمان الذي كانت تتسمى باسمه في بعض الأحيان فيناديها البعض بأم سلمان وتجاوبهم بفرح، سلمان الذي قاسمني فيها هو نفسـه سلمان الذي أخذه عزت وعلم قلبه النسيان إلى حد إنكاري في بعض الحالات، وعندما كنـت أسأل أبي عن الأسباب كان يجاوبني بنفس الكلمات التي حفظتها عن ظهر قلب:

ــ ما هو كدة يا حسنين يا بني، لا العين بتعلا على الحاجب ولا الميه بتطلع العالي.

ــ ليه.

ـــ أهو كدة وخلاص، وما عرفش ليه.

وكنت أشعر أنه يعرف ويداري، يتأكد لي عجزه وهو الواعي بأحوال الناس وأغراض الناس وأصول الناس، كنت أقول لنفسي إنه يتيم وأن أمي يتيمة وأنني يتيم، يجمعنا كلنا يتم الفقراء، فلا خدمة الأكابر ولا التضحية من أجلهم تحمينا من غضبهم ساعة الغضب، ولا رضاهم عنا في بعض الأوقات يشفع لنا عندهم أو يجعلهم لنا سندا أو ظهرا يحمينا من الضرب على البطون والأقفية والأصداغ، ومهما دارت الأيام فلن أنسى ما فعله عزت فينا يوم جاء الخفيران يطلبان أبي لمقابلة حضرة العمدة مرسي، كنت في صحبته ورأيته وهو يقف مطرقا والحاج مرسي يوبخه ويهينه دون أن يرد، وكان عزت هناك جالسا على الدكة وإلى جواره سلمان، وعرفت أن في الأمر بطة مأخوذة من سرب البط السارح في الترعة ويدعي عزت أنها تخصه، كنا بالفعل قد تعشينا في الليلة السابقة بلحم بطة، ولم تكن هي المرة الوحيدة التي نتعشى فيها بلحم بطة، لكنها كانت المرة الأولى التي يتهمون فيها أبي بسرقة البط، البط بط ربنا، والترعة ترعة ربنا والسمك سمك ربنا، وزرع الغيطان زرع ربنا، لكن الدنيا في ذلك النهار بدت وكأنما انقلب ميزانها، قام عزت واتجه ناحية أبي وبكفه الغليظ ضربه فوق صدغه، مال عود أبي فعدله عزت بكف آخر وأنا أصرخ، وأمي التي طلعت من تحت الأرض تصرخ وعزت يركله في بطنه وأبي يتلوى:

ـــ ح أطفحها لك دم يا ابن الكلب يا حرامي

ولولا تدخل العمدة مرسي ما كف عزت عن ضرب أبي، ولولا شفاعات الناس ما تنازل عزت عن تجريسه في الكفر كله بسبب تلك البطة، كان يلهث مثل كلب مسعور ومن بين أشداقه يتناثر اللعاب وأبي مسنود على الجدار مثل خيال مآتة لا يرد ولا ينطق بالدفاع أو الاعتراض، مستسلم تماما وجاهز لتنفيذ الأمر، وكان الأمر في ذلك النهار أمر عزت شلبي:

ـــ يتجرس..

نقل العمدة مرسي نظراته بين شيخ البلد الساكت وعزت شلبي الغضبان وأبي المحكوم معدوم الحيلة وأمي التي تعوي مثل كلبة تلد، كانت في نظراته رغبة في عدم التنفيذ وعلى لسانه موافقة:

ـــ يتجرس.. بس إزاي؟

ـــ زي كل الناس.. لجل ما يتربى ويتأدب.

ـــ أيوه أيوه.. بس مين اللي ح يجرسه يا سي عزت.. حقاشي يجرس المندش روحه.. أنت ناسي أن هو اللي بينصب الجرسة؟

قالها وضحك فأضحك كل من كان حاضرا في المكان إلا عزت الذي كان غضبانا يتقافز إلى أعلى وشب على أظافر أصابع قدميه وكأنه من الممكن أن يزداد طولا، لكنهم

ضحكوا وأجبروه على الضحك غصبا عنه، وكأنه يسايرهم بالضحك حتى لا يقال إنهم ضحكوا عليه، لكنه تحكم في نفسه فجأة واقترب من أبي، لطشه بظهر كف يده اليمنى على صدره فسمعت صوت الصدر وهو يئن أنه وحيدة وعزت يحذره:

ـ علي الحرام المرة الجاية لتجرس روحك بروحك يا مدندش.. تزف نفسك وتلم عليك عيال البلد ويقولوا حرامي البطة وراك.

ـ خلاص بقى يا سي عزت هو ح يستجري يمد إديه على ريشة من ريش بطك بعد كدة؟

قالها شيخ البلد ليطيب خاطر عزت وضرب أبي كفا على قفاه وهو يأمره بينما يدفعه دفعا للابتعاد عن المكان:

ـ غور من هنا الساعادي جاتك الغم وأنت عامل زي قحف النخل ما لكش فايدة كدة.

وكأنما منحه كف القفا حرية الابتعاد عن المكان فرمح وأنا أرمح خلفه وأمي ترمح خلفنا وتناديه ولا يرد.. وعندما دخل الدار مفتوحة الباب انزوى في الركن البعيد عند باب بيت الأدب وكنا نسمع شهقاته وهو يبكي ولا نجرؤ على الاقتراب، وأنا فكرت في الكيفية التي يستطيع بها أي واحد في الدنيا أن يقوم بتجريس نفسه بنفسه، كيف يطبل ويحدي للعيال والناس وهو راكب حمار الجرسة بالمقلوب وعلى وجهه عجين الدقيق أو الجير وهباب الفرن، ينزل ويطبل فيلم الناس ثم يعاود الركوب ويحدي عمن سرق البطة من عزت شلبي هل كان من المكن أن يحدث هذا الأمر لنا لو أن الموضوع من أوله لآخره لعبة من ألعاب الكبار لتسويد معيشة الصغار أكثر مما هي سوداء، عزت والعمدة وشيخ البلد والأكابر يرمون بلاويهم على الغلبان الحاوي من أجل بطة، مجرد بطة تائهة من سرب بط سارح على شط ترعة ملك الحكومة، فيها يعيش ويتغذى ويرجع إلى دار صاحبه، وإذا تاهت بطة فمن أدرانا بمن هو صاحبها، وهل يكتب البط اسم صاحبه على لحمه؟ وماذا لو أكل اليتامى فقراء الكفر بطة في ليلة موسم مبارك حتى ولو كانت من بط الأغنياء؟ بيني وبينكم أنا أيامها كرهت نفسي وكرهت عزت والعمدة وكرهت أبي وأمي وشيخ البلد وكرهت الأكابر الساكتين وكرهت البط، لحم البط وشكل البط واسم البط، ذلك أن أبي تكور حول نفسه منذ ذلك اليوم وظل متكورا ملموما على روحه، ساكتا ورافضا تقريبا للأكل والشرب رغم كل المحاولات، ولم ينفرد عوده إلا على درابة النسل يوم أن مات بهمه وغمه وحسرة قلبه وخيبة أمله في أكابر الكفر ذوي القلوب القاسية، مات حسنين المدندش وحملت من بعده هم الاستمرار في الحياة وأنا أكثر يتما، أدفنه وأنا اليتيم وهو اليتيم وأمي وكل فقراء الكفر اليتامى.. الفقراء يتامى يا ناس.. الفقراء يتامى حتى لو كانت لهم أمهات مثل أمي وآباء مثل أبي.

سلمان ابن المدارس دخل الجيش، لبس الميري والفاروقية وزغردت النسوان، رأيته بالكاكي وملابس الحربية، ورأيته وقد وضع على الكتفين نجمتين ذهبيتين وعلى الكاب تاج الملك، هنأته بأدب فهز رأسه بأدب، كان عزت يتباهى به في كل وقت وكل مكان، يتبغدد ويتفاخر بأنه أول من ربى وأول من علم وأول من وسط الأكابر الأكابر لقبوله في المدرسة الحربية التي لا يدخلها إلا أولاد الأكابر، كان سلمان مثل الشهاب الطالع وكان اسمه مثل السهم النافذ تنطق الألسنة به وتكيد الأعداء.

كانت صورة سلمان بالكاكي تتبدل في كل فترة زمنية، ومنها نعرف رتبته الجديدة، وعزت يحوط الصورة ببرواز مذهب يليق بضابط في حرس الحدود، كان يتبغدد على الكل ويكايد العمدة مرسي الذي لم يستطع إدخال أحد أولاده مدرسة الحربية رغم السعي والاستعداد للتضحية بأي شيء، لكنه لم يأتي إلى الكفر أو يذهب إليه أي واحد من ناس الكفر إلا خاله عزت، وعندما يسألونه عن سر غيابه يجاوبهم بنفس العبارات:

ــ هو فاضي لكم يا جموس أبيض؟ دا غرقان لشوشته في شغله ومصالحه هناك.

ــ إحنا كان غرضنا نطمن عليه.

ــ اطمنوا.. سلمان ابن أختي مستقام، بقى بيه رسمي ورتبه بكباشي..

ــ حاجة تشرفني برضه.

ــ معلوم.. هو حد كان يصدق أن كفركم الفقري يطلع واحد بيه زي ابن أختي سلمان؟

كانوا يهزون أكتفاهم وقد نفضوا أياديهم من أمره، لم يعد يخصهم ولا كان على ذمة كفرهم ما دام قد طلع وارتقى وامتنع عن المجيء بإرادته التي توافقت مع إرادة خاله الحريص على قرشه حرص اليهودي والذي يقبل الربا من المحتاج إذا طاوله بأي مبلغ ولأي مدة حتى ولو كانت مجرد أيام يسد بعدها الدين والفائدة بحسب ما يحددها عزت شلبي ويأخذ كل الضمانات التي يطلبها.

سامحوني يا ناس كفرنا "الوردي" إن تجاوزت في بعض الأوقات حدي، طوال العمر الذي فات أعرف حدودي وألزمها لا أخطيها أو أعبرها مهما كانت الأسباب، لكنني وقد كبرت وشاهدت الناس والأشياء تتبدل من حولي فيحق لي أن أبوح لكم بما يخفيه صدري، أفكر معكم وأن اعترضتم على أفكاري فاسألوني عن الأسباب، كل شيء يتبدل فلماذا ترغبون في أن أبقى في نفس مكاني ولا أحاول، أنا حسنين ابن حسنين ولتاسع حسنين كما تعرفون، وصفتموهم بنفس الوصف ولم يعترض أي حسنين على صفة المدندش، الدندشة كما قال جدي لأبي مرة تعني الفرح والبهجة وعلى أي مدندش في هذه الدنيا أن يقوم بوظيفته الأصلية الدندشة، ولا مانع من إضافة بعض الأعمال الأخرى مثل توليد البهائم أو حلاقة شعر الحمير أو الندب على

الأموات أو زفة العرسان أو تجريس من أمر الأكابر بتجريسهم، نحن اتفقنا على كل شيء يـــا ناس، وأنا لم أعترض، وشجرة الدندشة ممدودة ونحيلة نحيلة وقد طالت رغم نحـــول عودهـــا وانحنت عندي، وأنا فرعها الأخير أخشى أن تتكسر وقد طالت وطالت رغم النحول، هي على كل حال أطول من شجرة كازورين وتستحق أن تعيش، ولا بد أنهم في المقبرة على حق، من أول حسنين حتى حسنين الثامن الذي هو أبي، يأتون ويسهرون حولي ويطالبونني بالامتـــداد، ويقصدون الخلفة، ومقصدهم يا ناس كفرنا أن تتولـــوا أنـــتم تزويجـــي، زوجـــوني وإيـــاكم والاعتراض على الفكرة، أعرف أنني كبرت وأني فمي يخلـــو مـــن الأســـنان والضـــروس، وأعرف أنني أتوكأ الآن على العصا من فرط ضعفي، لكنني أحمل في صلبي بذرة الحســـنين العاشر، ولي دار يمكن إصلاحها وترميم جدرانها، وكل ما هو مطلوب أن تبحثوا لـــي عـــن عروس تصاحبني بقية ما تبقى لي من أيام فلعلي أمنحها بذرة الحسنين ولعلكم تحصلون علـــى المدندش العاشر، وأنا يا ناس في صفكم، مشغول بكم وبمستقبل ناس كفركم فلو فقدتم بمـــوتي آخر البهاليل، فسوف تكون نكبة، كفر بلا بهلول ولا أمل في ولادة بهلول من صلب بهلـــول، لن أطلب مساعدة الأكابر، أكابر هذا الزمن "الزهري" لا يساعدون الفقراء اليتامى، ربما لأنهم أكثر من الفقراء فقرا رغم الثراء والامتلاك، نفوسهم فقيرة إلى حد يثير الشفقة، وسوف ألجـــأ إلى البسطاء منكم وأولاد الكرام ليدبروا حالي، عيبي الأصلي أنني كنت في بعـــض الأوقـــات أمشي في ركاب السادة ومشاريع السادة، يطعمونني مرة فأصبر من الاتباع وفيا أكثر من كلب وطبعا أكثر من حمار ورعديدا أكثر من أرنب، ولا بد أنني ساعدتهم على اختطافي من نفسي، ولا بد أنني غفلت عن روحي مرة فغبت عن الوجود الحقيقي رغم الوجود بينكم، كـــأنني يـــا ناس أغمضت عيني مرة فتراءت لي بعض الصور وأضغاث الأحلام ثم صحوت لأكتشف أنه قد فات نصف قرن من زماني وانضاف إلى عمري أيام كنت بينكم ولحســـابكم شـــابا طالعـــا فرحانا بروحه وبالحياة، كنت أيامها أحلم بإضافة فرع جديد إلى شجرة البهاليل أولاد البهاليل، هل غيبني الزمن الشلبي كل هذا الوقت على عكس إرادتـــي؟ أو أننـــي صـــدقتهم واشـــتغلت لحسابهم، وهل تنطلي عليكم تلك الكذبة المكررة التي يدافع بها الناس عـــن أنفســـهم عنـــدما يقولون أنه حدث غصبا عنهم أو أنهم فقدوا إرادتهم أو أصابهم سحر؟ حتى لو صدقتم أنتم فلن أصدق نفسي لأنه لم يكن سرابا في سراب ذلك الذي عشته، وشريط صندوق الدنيا لم يتبدل إلا بفعل فاعل أو مجموعة فاعلين، لقد تبدلت الرسوم وتبدل الأبطال، لبس الأنذال ثياب المـــالكين الحاكمين المتحكمين، خلعت الحريم في بيوتهن العالية براقع الزمن الماضي ولبسن براقع من نوع جديد، كأنني درت على كعبي واستدرت فوجدت بدل عنترة والزيناتي خليفة وأبي زيـــد الهلالي ناسا آخرين، أنصاف أبطال وأنصاف رجال ومن ورائهم عشرات الطبالين الزمـــارين

المداحين، ومثلما تختفي الحقائق توارى الرجال وراء الجدران أو انسحبوا واندفنوا تحت الأرض ليفسحوا الطريق لكي ترتفع النجوم الكاذبة التي تبرق وتنطفئ مثل فقاعات الصابون.

تعالوا نتأمل البنايات الجديدة في كفرنا الجديد، ونطل على السيارات الغربية والأجهزة المدهشة والرطانات غير المفهومة وسوف نكتشف أن ما أصاب كفرنا ــ دونا عن كل الكفور المجاورة ــ غريب ومحير وغير محسوب حسابه، فالبيوت المبنية بالطوب الأخضر تهدمت بالفئوس والمعاول، تناثر رمادها وتطاير وتسلل إلى عيون البعض منا فأصابها بالرمد أو العمى أو أي وجع يصيب البصر أو البصيرة، ولأنني باعترافي أشهد أنهم سلبوا من عمري قرابة نصف قرن فلابد أنني أعيش في الزمن الفائت، تفزعني تلك البنايات الخراسانية والبوابات الحديدية المزروعة على امتداد السكة الزراعية من أول زمام كفرنا وإلى حدود البندر من ناحية وإلى زمام كفر الشرفا من الناحية الأخرى، وبدلا من عيدان القمح أو الذرة أو القطن صرت أرى أسياخ الحديد الطالعة من العواميد الخرسانية المنصوبة فوق البنايات وكأنها إعلان عن الرغبة غير المحكومة في معاودة البناء والطلوع، وأنتم بأنفسكم قلتم إن هذه البنايات تبخ الصهد في الصيف وتشوي سكانها، وأنها في أيام الشتاء تجلب البرد والرطوبة وأوجاع المفاصل، فلماذا غير البعض منكم ومنهم بيوت الآباء والأجداد المبنية بالطوب الأخضر يا ناس، طبعا أنا لا أدافع عن داري القديمة التي لم أهدمها أو أفكر في هدمها لأعاود بنايتها بالطوب الأحمر، ذلك أنني لا أملك ولو امتلكت فسوف أتردد ألف مرة، وعيب داري أنها من كثرة الهدم والردم ومعاودة البناء حولها صارت قصيرة، كأنها امرأة عجوز محنية وقد ضمرت وانكمشت، وعيب الوصول إليها هو تلك الأتربة التي تتحول أيام المطر إلى وحل ناعم ولزج، وأنها في الربيع والخريف تتطاير بحسب اتجاه الريح، تتطاير وتوسخ الثياب أو تؤدي إلى كل مواجع الأبصار إذا تفتحت في مواجهتها حدقات العيون، كأنه يلزم لمن يدخل دربنا وكل دروب الكفر أن يرخي رموشه ويداري بجفنيه وبكفيه العينين، يطل إلى مواطئ القدمين ولا يرفع البصر إلى أعلى أو ينظر إلى البعيد، عيبي أنني حاولت أن أنظر إلى البعيد، عيبي أنني فتحت عيني وحاولت أن أكتشف شعاع الشمس في وضح النهار فدمعت عيناي واستشعرت اللهيب، نصحوني بالمراهم والقطرات وما توقفت عيناي عن التدميع، في الحزن والفرح، في الخوف ولحظات الجسارة تدمعان، كأنه مكتوب على أمثالي من الفقراء اليتامى أن نبكي بلا توقف ولا ينفع معنا طب ولا يشفينا دواء، تتزايد في البدن المواجع، وجع في القلب ووجع في البطن ووجع في الصدر وأوجاع في المفاصل، كأنني وأنا الفرع الهزيل المائل آخر المدندشين لولا الرغبة الكامنة في النفس لكي أمتد وأثمر، أترك في الكفر بذرة الحسنين العاشر، وأنا يا ناس لست الشخص العليل الذي يتوكأ على العصا فقط، إنني هو ذلك الطفل الذي أشرك سلمان في أمه، وأنا الصبي الحافظ نصف كتاب الله والشاب الذي قرأ كتب

التلامذة وطلاب الجامعات والأزهر الشريف، والرجل الذي شاهد الأزمنة وهي تتوالى وعمادة الكفر وهي تنتقل من دوار إلى دوار ومن عائلة إلى عائلة ومن فرع إلى فرع، أنا الشاهد الباقي من الزمن القديم أطالبكم بالوقوف إلى جواري ومساعدتي على تحقيق آخر رغباتي مثلما كنت أساعدكم في تحقيق رغباتكم في السابق. ورغبتي مشروعة وممكنة، بنت حلوة تقبلني على حالي وتعاشرني على سنة الله ورسوله، ترعاني وتجفف دموعي وتجاهد أن تنسيني حكاية الأعرابية التي خدعتني وخدعتني وخيب رجائي وعطلتني فلا هي وفت بالعهد وجاءتني ولا هي تركتني لأدبر أحوالي بدونها. بنت حلوة من كفرنا المعشوق تحوطني بأنفاس الأنثى وتدثرني بشالها وتطعمني من صحون دلالها وتعوضني عن كل ما خسرته في سنوات الشباب والرجولة، بنت من كفرنا المعشوق لها طباع الناعسة التي احتملت أيوب المصري وخففت بلواه، قصت شعرها وباعته لتداويه، حملته ولم تفرط فيه رغم المصاعب، ياه.. ياه يا ناس، كيف فاتني أن أبحث عن الناعسة في دروب كفركم وأنا الصبي والشاب والرجل القادر، ولماذا وأنا أيوب المصري الذي يكابد المواجع فكرت فيها، وهل اعتدنا أن نقاوم ونقاوم ونقاوم المواجع حتى يقعدنا البلاء والعجز فنبحث عن شريكة العمر لكي نعاود القيام ونعاود الخلفة من جديد، تهبنا المرأة الصلبة الرقيقة والقوية الناعمة الرغبة في البقاء، تهبنا بالحضور طاقة أكبر من طاقتنا ولعلها تنبهنا بوجودها إلى ضرورة أن نبقى وأن نستمر وأن نخلف للدنيا أطفالا يحملون نفس ملامحنا ويحملون أسماءنا وأحلامنا ويكملون أدوارنا إذا رحلنا، أعرف أن نساء كفرنا "المعشوق" أرق من رجاله، وأعرف أنه من غير المستحيل أن ترضى باحتمالي واحدة منهن، واحدة مثل الناعسة تجدد عمر الأيوب المصري وترحم البهلول الفاني من أجل البهلول الآتي، أيها البسطاء من أهالي كفر عسكر، ساعدوني ورتبوا ليلة دخولي للدنيا أو خروجي منها.

يوم خروج الملك من مصر فرحنا بالأخبار وهتفنا للثوار، سمعنا عن محمد نجيب وعبد الناصر والبغدادي والسادات، انطفأت في البندر أنوار قصر الباشا وما عادت سيرته على كل لسان، انفتحت طاقات الأحلام والتهبت الحناجر بسخونة الحماس، وتحدث من لا يملكون في زمام الأرض قيراطا عن أملاك الباشا، تهامسوا عن تقسيمها وتوزيعها على المعدمين، فشعر أمثالي من اليتامى أنهم أولاد البلد ولهم فيها نصيب، رفعنا الرءوس بحسب ما أوصانا عبد الناصر وقد أخرج عساكر الإنجليز، لكنهم عادوا وحاربونا بعد تأميم القناة، وقال البعض للبعض إننا بسلاحهم انتصرنا عليهم، وقال البعض الآخر إنهم هزمونا فلم نصدقهم، صدقنا أم كلثوم وهي تغني لبورسعيد، وصدقنا عبد الناصر وتبدلت أحوال الناس، تجاسر الفقراء وعلموا أولادهم في المدارس بالمجان وزاد في القلب الرجاء، وكنت أنا البهلول الحاوي أزف للناس الأخبار أسمعها في البندر ولا أداريها في سهرات البسطاء أو مجالس

الأكابر، كنت أقول ولا أداري أننا نتساوى عند الله مثلما تتساوى أسنان المشط، وأننا كلنا لآدم وآدم في تراب، لكن الزمن الشلبي كان هناك، ساكنا تحت رماد الكفر ومسنودا علـى كـل أولاد عوف الذين اكتفوا بالحديث عن عمادة الكفر التي راحت منهم ظلما وعـدوانا بسـبب البكباشي زميل الأحرار، من دهشتنا كنا نذهب إلى عزت ونسأله عن الأحوال، وكان يجارينا وكان سلمان واحد من الأحرار فنخرج من داره وقد زادت دهشتنا حتى كان ما كـان عنـدما انكسرنا وخابت كل الرجاءات، فر العساكر والضباط وفاتوا سلاحهم لإسرائيل وتوافدت علـى الكفر جثث القتلى ملفوفة بعلم الثورة، دفناهم وسط البكاء والعويل والندب والتعديد، ولكنه كان هناك من لم يعد ويحسبونه من الأموات، وبين الرجاء وفقدان الرجاء عاشت الأمهات تنتظـر الأخبار عن الغائبين، أيامها عرفت سيد أفندي وعرفت منه الكثير من الأسرار، وأيامها أيضا رجع سلمان ولبس الجلابيب والعباءات والطواقي وخلـع ثيـاب الضـباط وكـانوا ينادونـه ويتحدثون عنه بالاسم الجديد، حضرة العقيد، حضرة العقيد استقال من الجيش، حضرة العقيـد باع، حضرة العقيد اشترى، حضرة العقيد رمى أساس الدوار، حضرة العقيد قابـل المـأمور ومساعد المأمور وبواسطته تولى يوسف عمادة الكفر مكان الحـاج مرسـي، وكنـت ألتقـي فأتحدث إليه ولا أجده كما كان في سابق الأيام، كانت قد نزلت بيني وبينه ستارة تداريه عنـي وتحجب الأسرار، ربما كان ثقيلا على لساني أن أسبق اسمه بحضرة العقيد فـي كـل مـرة، وربما كان هو نفسه قد كبرت نفسه وصار ينظر إلي باستهانة وعدم تقدير، وكان يحق لـه أن يفعل كل هذا وأكثر ما لم يكن بيننا عيش وملح وعشرة عمر، تباعدت عنه كما تباعد عني وما عدت أسأل عن أحواله أو أسعى إلى حيث يمكنني أن ألقاه.

سمعت أن سلمان بنى دواره في آخر زمام الكفر من ناحية البندر، كـان الـدوار يـا سبحان الله بناية تفوق كل البنايات التي رأيتها في كل عمري، بوابات مـن حديـد ونحـاس مطلي، له سور طويل وعريض حول مساحة لا تقل عن خمسة فدادين وفي الوسط بناية عالية بأبراج وقباب جنب شبابيك وكلها مسكوكة، وسكة عريضة توصل ما بين السـكة الزراعيـة وبوابة الدوار المفتوحة دائما والمحروسة بالرجال ذوي البشرات السوداء وكأنه أخذهم وهـو خارج من سلاح الحدود، ناس لهم لهجات برابرة الهجانة الذين كانوا يأتون ويسكنون الكفر في أعقاب كل عراك بين الشلبي والعوف يسقط فيه القتلى من الطرفين أو أحدهما، كان ما بـين سلمان وناس كفرنا قد تناقص واختفى أثره، وكنت في المرات القليلة التي قابلته فيهـا وجهـا لوجه قد شعرت أن ما بيننا قد تحول إلى سور صلب في طول وعرض سور دواره.

وفي المرة الوحيدة التي نظرت فيها في عينيه وكأنني أسأله عن أسباب التباعد الـذي جرى بيننا، في هذه المرة فرت نظراته بسرعة وتشاغل عني بالنظر إلى الوراء قلت لروحي ساعتها: لا تفكر فيه يا حسنين فلا أنت من قيمته ولا أنت من مقامه، ووبخت نفسي لأنني في

بعض الساعات أنسى أبسط حقائق الحياة إلى حد إنكار كل الفروق بين الناس بـدعوى أننـا أولاد آدم وحواء، لكن هذه الساعات لا تدوم على أية حال فسرعان مـا أفيـق مـن غفلتـي وأعرف حدودي، بل إنني في بعض الأحيان لا أدخل الأبواب المواربة أو أدق على الأبـواب المسكوكة حتى وإن كنت أقصدها ولي فيها مصالح، وكثيرا ما كان يحـدث أن أرجـع بعـد مشوار طويل لأنني وجدت الباب مواربا أو مسكوكا، كان البعض يتندر على أفعالي، يقولـون إن المدندش يطلب الصدر المفتوح والذراعين المفرودتين ليرتمي في الحضن مسـلما روحـه وعقله لمن يحتويه أو يتبسم في وجهه، بل إنه كثيرا ما كان يحدث أن أمتنع عن دخـول درب في دروب الكفر إذا خاصمني واحد من سكانه، أمتنع بإصرار وعناد بغل استرالي ولا أخطو فيه خطوة فيكتشفون أمري ويحاول أهل الخير أن يصالحوني على من خاصمني أو خاصمته، وعلى كل حال فأنا لم أكن لأنشغل كثيرا بمسألة إهمال سلمان لشأني وتخييبه لرجائي فيه، ذلك أن سلمان أراحني وأراح بعض من لا يحبونه وبعض من يحبونه أيضا من أهالي الكفر، لقـد اختار سكته بعيدا عن زمام الكفر، بنى دواره بين بين، على السكة الزراعية صحيح، إنما في منتصف المسافة بين زمام الكفر وزمام البندر، ولا بد أنه كانت له أغراضه التي تخفى علـى أمثالي من هذا التباعد، وربما بسبب وجوده خارج زمام الكفر كنت أنساه أحيانا وكأنه ما زال في سلاح الحدود، لكن عزت كان لا يكف عن تذكيرنا به وكأنه لا يوجد في هذه الدنيا شخص يستحق الذكر غير سلمان، وقد كان يبدو لي في بعض الأحيان أن عزت كره الناس في سلمان إلى حد كبير، لكنني لم أكن لأكرهه ولم أكن مكرها على حبه في ذات الوقت، كنـت أسـمع أخباره من الطرفين وتزداد حيرتي في أمره، ولم أكن أعرف لأي الفـريقين أنحـاز، لكننـي اعتدت أن أسمع:

ــ سلمان باشا عنده خمس مزارع تسمين عجول بسم الله ما شاء الله، خطى على كل الأكابر في الناحية..

ــ ما هو من تجريف الأرض والسمسرة وتجارة الممنوع.

ــ ينقطع لسانك، سلمان باشا كون ثروته من مزارع البط الأبيض والفراخ الحمرا يـا بو قلب أسود.

ــ يا عم قول يا باسط، دا ساكن في الخلا لجل ما يكون بعيد عن عيون الناس، أنـت ناسي الكبدة الفسدانة اللي كان بيتاجر فيها أول ما رجع الكفر؟

ــ أبدا.. ما إحنا أكلنا منها وما جرالناش حاجة أهه..

ــ حد عارف.. البني آدم صندوق مقفول، يعني حد مننا كشف؟

ــ على رأيك.. حد عارف.. بس ما يصحش برضه تقول إن له نصيب فـي تجـارة الصنف.

ـــ يا عم مش نصيب. دا هو اللي بيجلبه لحسابه ويبيعه لحسابه.

ـــ أتاري الحشيش رخيص..

ـــ ألف لك سيجارة من حشيش الباشا..؟

ـــ لف..

يقولها الواحد منهم وينفجران في الضحك، أشعر أن الخلاف بينهما كان تمثيلية مرسومة لإبلاغي معلومات جديدة عن سلمان، كأنني كنت ما زلت مسئولا عنه بحسب ما يحسبون، كنت أداري ما أشعر به ناحيته وأغير الموضوع، وفي كفرنا وكل البلدان المجاورة يبدأ الأمر بكلام، مجرد كلام يسري في الهواء مع النسيم فتبتلعه الصدور ثم تعاود إخراجه وقد أضافت إليه أي شيء جديد، ولابد أنهم الأعداء الذين نبهونا إلى زيادة الحشيش وكل أنواع الكيف الممنوع بعد أن جاء سلمان ولكن في دواره الجديد، هو مجرد كلام في كلام، صعب أن يدخل العقل وإن دخل لا يثبت فيه وإن ثبت لا يثبت إلا لزمن قصير، وهل يصدق عاقل أن رجلا مثل سلمان الذي تعلم وسافر ولف ودار وخلف من زوجه وبنت خاله عزت، خلف خمسة صبيان وأربع بنات، هل يغامر ويضع سمعة أولاده ومستقبلهم على كف عفريت؟ أي عاقل سوف يستبعد مثل ذلك الادعاء، تجار المخدرات لهم ناس مخصوص، ناس بلا مركز أو مبدأ، إنما سلمان؟ سلمان الذي يركب العربة المخصوص وله سواق مخصوص، دواره محروس بالبرابرة الغرباء وعلاقته بالمأمور وكل رجال الإدارة ظاهرة لكل الناس فهل كنت أصدقهم وينقلب في عقلي ميزان الدنيا؟

ماتت أمي فعزاني فيها كل ناس الكفر، البسطاء والفقراء والأكابر، وكنت أفكر في سلمان، قلت لروحي لو جاء فسوف أسامحه وأفتح له قلبي وأنسى سنوات التباعد والتجاهل، وكان الشيخ تهامي يوشك على إنهاء آخر ربع على روح المرحومة عندما سمعت الأصوات:

ـــ البيه المأمور ومعاه البيه العقيد سلمان..

ـــ اتفضل يا باشا.. اتفضل.. شرفت الكفر ورفعت رأسنا لفوق.. اتفضلوا يا بهوات.

أسرعت وسلمت، تلقيت عزاء المأمور أولا ثم احتضنت العقيد سلمان رغم أنه بدا لي أنه لم يكن جاهزا للاحتضان، طول الشيخ تهامي قراءاته في سورة البقرة ورفرف قلبي بذكريات الزمن القديم، ودعت الباشا والباشا بعد أن ختم الشيخ تهامي قراءته وطالبنا بقراءة الفاتحة على روح المرحومة، كان الباشا سلمان والبيه المأمور قد وصلا وتركا سيارتيهما في "الوسعاية" وكان من اللائق أن أوصلهما وأشكرهما قبل أن يركب كل منهما سيارته المخصوص ويسوق به سواقه المخصوص، سلمت على البيه المأمور أولا ثم احتضنت سلمان غصبا عني ودون قصد فهدأني بخبطات كفه على ظهري، وانفلت لساني أشكو له:

ـــ أمنا إحنا الاتنين ماتت يا سلمان باشا يا خويا.

تخلص هو من حضني وطالبني بأن "أشد حيلي"، وبسرعة ركب سيارته وأشار للناس قبل أن ينطلق السائق بالسيارة، وفي طريقي إلى الدار كنت محاطا بالأوفياء من أهالي الكفر الذين امتدحوا سلمان باشا المتواضع الذي لم ينس الجميل القديم وقد كبر في السن والمقام وأصبح رفيقا للحكام، وافقتهم ولم أحدثهم عن خجلي من نفسي لأنني في اندفاع عواطفي ساويت نفسي به وتمسحت فيه، صحيح أن أمي أرضعته ضمن من أرضعت من عيال الكفر قبلنا وبعدنا، لكنها كانت بالنسبة له ولهم مجرد مرضعة، ولو أحصيت من أرضعتهم لأصبح لي عشرات الأخوة من كل العائلات بينما الواقع يقول إنني رجل وحيد، وحيد وبسيط وساكن في مكاني دون أمل في أن أتبدل مثل كل شيء يتبدل ويتغير في كفرنا "اللبني".

كانت أمي مرضعة عيال الكفر تقول عن البعض منهم "شبع من بعد جوع" وكانت تصف عزت شلبي بهذه الصفة أكثر من كل ناس الكفر، كانت تكرهه دون مواربة وكان يتشكى منها لي ولطوب الأرض، ويهددني بأنها ما لم تكف عن تطويل لسانها كلما قابلته فإنه لن يتراجع في أن يقطعه لها من "لغلوغه"، فأضاحكه وأعده بإسكاتها عنه دون أن أفعل، كنت أتمنى أن تعاود فضحه وأنا أثق أنه لن يجرؤ رغم كل ما يدعيه أن يضرها بشيء مهما حاول، كانت أمي مرضعة عيال الكفر كله، ولم تكن تملك أكثر من ثديين نافرين ممتلئين على عود نحيل نحيل هو في الحقيقة وبحسب ما كان الكل يقول جلد على هيكل عظمي، إنما صدرها يا سبحان الله أعجوبة، صحو ونفور وامتلاء أكثر من أثداء البنات العذارى والنسوة الوالدات، وكان لها لسان مشهود له بدقة الوصف، إذا وصفت رجلا من رجال الكفر بصفة رددها الأهالي دون تردد، وإذا قالت عن امرأة أو بنت أي شيء صار حقيقة لا تقبل المراجعة، وربما بسبب ذلك كان الأكابر يتوددون إليها أكثر من أبي، وربما بسبب وجودها كنت أشعر بالحماية وأتجاسر على الكل، كنت أحصل على السماح دائما، ولا بد أنها كانت قادرة على حمايتي وحماية نفسها بعد موت أبي، لقد انخطف أبي مني وأنا في السن التي لا تدرك طبائع الخلق وكيفية التعامل مع الناس، وتولت هي أمري، وبدلا من مصاحبة أبي وقد انخطف صاحبتها وبحت لها وباحت لي بكل ما كان يدور في عقلها من أفكار، ومن بين تلك الأفكار فكرتها عن عزت الذي كان السبب في موت أبي قبل الأوان ناقص العمر، كانت تكرهه وكان يكرهها، وكانت لا تداري كراهيتها له وإن حاول هو أن يداري. كان يعابثني في بعض الأحيان ويناديني:

ـــ تعالى يا حسنين يا بن أم بزين العب مع سلمان.

وكنت أطاوعه على مضض، كنت أشعر أنه يسخر منها وربما يعيرني ولا أفهم، أداري عنها وإن كنت أرغب في البوح لها وأخاف أن أغضبها، لكنها عرفت الحكاية وذهبت

إليه في ظهيرة يوم السوق وردحت له ما طاب لها الردح والناس تسكتها ولا تسكت، ولما زاد ردحها وسكوته قال حضرة العمدة مرسي الذي كان يمر بالمصادفة:

ــ وماله يا بت... بزين بزين، أصله منكاد منك، مراته ما لهاش ــ أنت انخبلت يا عزت؟

ضحك الناس مجاملة لحضرة جناب العمدة وصار من المألوف أن ينادينى بعض الأولاد الذين يكرهونني بنفس النداء.. "يا بن أم بزين ".. ولم أكن أغضب منهم، كنت أضحك وأسألهم إن كانت لأمهاتهم ثديان مثل أمي فيشعرون بالخجل ولا يعاودون مكايدتي مرة أخرى.

كان المرحوم أبي يعابثها في وجودي ويمد كلتى يديه ناحية صدرها مهددا فترمح ويرتج صدرها وهي تفر، وإذا طالها وأمسك بها نبهته إلى وجودنا أنا وسلمان فيفلتها وربما يطلب منا أن نخرج ونلعب في الغيطان، كنا ننسحب أنا وسلمان في بعض الأحيان وفي بعض الأحيان لا نفعل تنفيذا لأمرها هي، وكانت تقول لأبي في بعض المرات وهي تضحك فينور الضحك وجهها وتحمر خدودها وهي تهمس:

ــ الولد سلمان دهه بيغير منك يا حسنين، بيغير عليا أكثر من ابنك حسنين.

وكنت أتعجب وأسأل سلمان إن كان يغار عليها بالفعل فيجاوبني بغيظ:

ــ يا رب أبوك يموت.

الغريب الغريب أنني لم أكن أغضب من سلمان رغم حبي لأبي، لم أكن أغضب ربما لأن أبي قال لي إن الدعاء لا يجوز إلا على الظالم والمفتري، كنت أشعر باطمئنان بأن دعاء سلمان لن يجوز أو يؤثر في عمر أبي الذي لم يظلم في حياته أحدا بحسب ما كان يؤكد لكنه مات، وفي نفس يوم موته قابلت سلمان وسألته إن كان أبي يستحق الموت فلم يرد، غضبت من سلمان من أجل أبي الذي مات بسبب دعائه وبسبب عزت شلبي خاله الذي أخذ سلمان وضرب أبي، وكنت أدعو الله لكي يميت عزت مثلما أمات أبي لكنه لم يستجب لدعائي رغم تأكيدات أمي أنه رجل ظالم ويفعل كل ما يغضب الله والناس.

هلل أولاد كفرنا لعبد الناصر وكنت أعرف الأسباب، لكنه عندما جاء السادات وتحمس له أولاد شلبي لم أفهم سر الحماس لأن الرجل كان في بداية أيامه ما زال، لكنه انكشفت لي الأسباب عندما ترشح العقيد سلمان الخارج من الجيش بعد النكسة لأسباب يعرفها الجيش ولا تصل إلى أمثالي من فقراء الناس، رشح الباشا العقيد نفسه لمجلس الشعب، وكانت سيرته أيامها لا تسر عدوا ولا حبيبا على حد أن الكل تنبأ له بنفس النتيجة:

ــ ساقط ساقط.. هو حد عاد بيقبله في كل الناحية؟

كان سلمان قد تباعد عن كل ناس الكفر إلا أقل القليل أولاد عمه الــذين لهــم عنــده مصالح أو له عندهم مصلحة، وصارت رؤية الناس له نادرة وإن كان الكلام عنه لا ينتهي أبدا وكل ما نسمعه أو نراه منه يؤكد لنا أنه مشغول بمصلحة نفسه قبل كل شيء، وعندنا في كفرنا مثل يقول إن من أحب نفسه كرهته الناس، فما بالكم بواحد طالع من قلب ناس الكفــر وداس على الكل وعطل مصالح الكل وأنكر الكل وكره فيه طوب الأرض؟ أول شيء عمله ســلمان ولم ننتبه إليه في البداية كان سيطرته على سوق المواشي، صحيح أن القرش في السوق صياد ماهر، وصحيح أن المسألة تحتاج إلى شطارة، لكن أن يتحول السوق كله إلى ســلمان وحــده فهذا هو الأمر الذي لا يرضاه العبد ولا يرضى عنه الرب، استأجر سلمان مجموعة سماســرة صغار واستأجر مجموعة من الأشرار وقطاع الطرق الشطار وقطع الطريق بواسطتهم علــى كل التجار، من يطاوع يأخذ رزقه المعلوم ويتوكل على الله راجعا مــن حيــث أتــى، ومــن يعترض فإما الضرب والإهانة أو سرقة ماله بالغصب وفي وضح النهار، أشياء مثــل هــذه رأينها بحدقات عيوننا، وشكايات سمعناها من الغرباء بآذاننا، والغريب أن سلمان كان يعلنــه على ألسنة أعوانه في كل أنحاء البندر، ولابد أنه أقنع المأمور أيامها بأية طريقة بحيث سكت على كل ما كان يجري، وربما لم تصل للمأمور نفسه أخبار البلاوي التي كانت تحــدث فــي السوق أو عند مداخل البندر مع التجار والفلاحين، ولابد أن البعض منهم لم يفكر في الشــكاية أصلا، وأن البعض الآخر حاول ولم يفلح، أو القليل منهم اشتكى ولم يجد لشكواه فائدة فكــف عن معاودة المجيء إلى السوق، يعلم الله ونعلم نحن أيضا أن سلمان اســتولى علــى الســوق لحسابه هو، كان يقف في أحد أركانه ويشير بيده لأعوانه فينفذون ما أشار به، أصبح الســوق سوقه، سوق سلمان أو سوق الباشا أو سوق سيادة العقيد، هكذا عيني عينك تحول السوق القديم الذي كنا نسميه سوق الخميس إلى سوق خصوصي يتحكم فيه بماله ورجاله ويمــارس الظلــم وقهر الناس، حتى عندما فكر الناس في البيع والشراء في الأسواق الأخرى للبنادر المجــاورة تصدى لهم قطاع الطرق ومنعوهم من الخروج بمواشيهم أو محاصيلهم أو الدخول بالبهائم إذا اشتروها من خارج الزمام إلا بعد الدفع الإجباري والإهانة والتهديد، صار ســلمان عصــابة منظمة وصار الناس ضحايا لظلمه، بالسعر الذي يحدده هو يشترون ويبيعون، وفي كل حالــة امتناع أو اعتراض نسمع عن تقليع الزرع أو تسميم الماشية أو حرق البيــوت أو الأجــران، وضاق الحال بالناس وانكتمت الأفواه مخافة الانتقام، وأصبح دوار ســلمان مــزارا للنســوان المظلومة والرجال الفقراء اليتامى، يتقبلون شتائمه وإهاناته مقابل بعض الحق المسلوب، تحول سلمان إلى كابوس لا يحده حد ولا يشعر بأي نوع من أنواع الخجل، وزادت أملاكه في وقت قصير على حساب اليتامى، وهؤلاء الذين كانوا يملكون القوة والقدرة على مواجهته لم يفعلــوا أي شيء، ربما لأنه كان يتعامل معهم بشكل مختلف، ذلك أنه في حدود ما أعرف من نــاس

كفرنا لم أسمع شكاية من أحد الأكابر أو المالكين، كان أكثرهم ينكرون دعاوى الفقراء ضده بل إنهم كانوا في بعض الحالات يكذبونهم ويدافعون عن شرف سلمان، ولا بد أن الأكابر اتفقوا معه على أن يبعد عنهم أشراره مقابل عدم تدخلهم في شئون البسطاء من سكان الناحية كلها، ومثلما يهمد الجسد بعد مشوار طويل همد الأقوياء القدامى واستسلموا للراحة وما عادت لديهم الرغبة في الصراع، استكانوا وأسلمونا لسلمان فاستسلمنا بدورنا لمصيرنا وأكلنا لحمه الفسدان الذي كان رجاله يبيعونه في الأسواق، وأكلنا سمكه المشكوك في أمره لأنه لم يكن هناك سواه، واشترى الفقراء قماشه المخزون لأنه لم يكن في السوق غيره، حتى من يبحثون عن بذور الزراعات وجدوها عند سلمان فأخذوها دون تردد أو اعتراض، يدفعون الثمن الذي يحدده وكأنهم يتجنبون معاداته بأي ثمن، وانقسم الناس في كل الناحية إلى عاجزين وقادرين، مالكين ومعسرين أكثر مما كان عليه الحال قبل ذلك بكثير جدا.

"سبع صنايع والبخت ضايع".

قالتها لي أمي وأنا راجع من مشواري القريب عند عباس أبو خشبة في نفس دربنا المزنوق والضيق والمسدود من ناحية البحر، دار عباس أبو راجية أو أبو خشبة بينها وبين دارنا داران وخرابة وشرم يفوت نفر واحد بجنبه للناحية الأخرى، ويبدو أنني كنت حزينا وإن حاولت أن أداري، لكن أمي تقرأني بنظرة، مجرد نظرة تكشف لها فرحتي أو حزني، نجاحي في تحقيق غرضي أو فشلي، انبساطي من الناس والدنيا أو قرفي، كأنني صفحة من كتاب مفتوح أمامها لا ينسك أبدا، ودائما دائما تواسيني أو تهنئني قبل أن أقول لها ما جرى بمثل أو بمطلع غنوة أو كلمة أو موال، لكنها في تلك الليلة قالت ما قالته وكأنها تندبني وتندب كل المندندشين من أول حسنين حتى الحسنين الثامن الذي هو أبي وزوجها المرحوم، جلست ساكتا لا أنطق وتوقعت منها أن تسألني لكنها لم تفعل، كانت تنكش بحراية وسط الدار بعود حطب قطن جاف، كأنها كانت تخط على الأرض مصيري أو ترسم على الأرض اعترافها بهزيمتها وهزيمتي، كنت لا أرغب في أن أبقى أمامها لأزود همها وهمي فقمت، طلعت إلى السطح وأسندت ظهري إلى جدار مصطفى الفار فبان لي وجه القمر الباقي بعد أن اختفى ثلثاه أو ثلاثة أرباعه، لكنه كان هناك يرسل بعض الضوء ويسمح لي بأن أميز المسافات وأسطح الدور الظاهرة، لم أكن غضبانا من عباس أبي راجية رغم أنه كسفني ورفض طلبي، كنت أعرف أنه سوف يفعل، لأنه مثل كل ناس كفرنا "البدوي" يعمل حساباته في مسائل الزواج والطلاق أيضا، ولا بد أنه أمسك نفسه من الغلط وقال أحسن ما كان يمكن أن يقوله رجل في الرد على طلبي:

ــ يا حسنين يا خويا احنا بنعزك صحيح، وانت تستاهل كل خير صحيح، إنما راجية؟ راجية يا حسنين؟ أنت عارف أمك ما تأخذنيش، هي صحيح قريبتي.. إنما، مين في كفرنا

تقدر تعاشرها يا حسنين؟ أمك لسانها متبري منها، وكل ما بيتقل عليها العيا كل ما بيطول أكثر ما هو طويل، وراجية بنتي مش ح تطيق تعيش وياها في الدار، أمك دي عايزة واحدة قالعة رأسها وعادمة ناسها.

الغريب الغريب أنني كنت أنتظر مثل هذا الكلام وأكثر منه. كنت أعارضها في الفكرة لكنها كانت تلح:

ــ بس أنت روح يا حسنين، ريح قلبي يا ضنايا، عباس ابن خالتي ومش ح يلاقي أحسن منك، روح يا حسنين واطلبها منه، عايزة ارتاح من ناحيتك قبل ما ودع، عباس إيه ابن أبو خشبة ده كمان، هو يطول؟ جته لهو على أبوه.

كنت أسمع مثل هذه العبارات كل صباح وأتحمس للفكرة ثم أتراجع على التنفيذ في الليل، وأنا في بعض الحالات يختل ميزاني فأطاوعها في الغلط ربما من كثرة الزن على الدماغ أطاوعها، وربما لأن طاعة الأم واجبة، وربما بسبب مرضها ورقادها الذي طال صرت أميل إلى طاعتها، أكثر، أطاوعها لأريحها وأريح نفسي من كثرة الزن، ولأنها أمي، وهي راقدة ولا تكف عن تكرار نفس الكلام فقد ملت رغم عدم تصديقي إلى تصديق كلامها هي:

ح يرحب و ح يوافق، أنت مستقل بروحك ليه يا حسنين، دانت ابن المدندش، هو فيه في الكفر كام مدندش يا حسنين.

وراجية بنت عباس حلوة، تستحق التفكير فيها، شعرها أسود وناعم ومجدول في ضفيرتين غليظتين، عودها فارع مثل شجرة بأس وصوتها فيه بحة غير كل البنات، شملولة وشاطرة وعندها صحة تهد جبال، ثم إنها مؤدبة أدب طبيعي فهل كنت أكره أن أحاول مجرد محاولة أو أنني كنت أستكثرها على روحي، ربما فكرت فيها لغيري، وربما أكون قد حلمت بها لنفسي لكنه كان حلما بعيدا بعيدا، هو حلم يخجل الواحد من نفسه إذا فكر فيه، ولا بد أنني كنت أفكر فيها أكثر مما فكرت فيها أمي، كنت أراها وهي تدخل دارنا، تملأ زيرنا من ماء الصهريج أو تطحن قمحنا في ماكينة الطحين أو تخبز في فرننا بمساعدة بعض الحريم، لكنني كنت أفسر الأمر في حدود أنه نوع من الشفقة بأمي أو العطف عليها والرحمة أو عمل الطيب في امرأة طال رقادها وليس لها بنت تساعدها في مثل هذه الأعمال، على هذا النحو كنت أفكر في أول الأمر، لكن اعتيادي على رؤيتها واكتشافي بعد كلام أمي عنها أنها بالفعل فارت واستدارت وأنا غفلان، كأنها طلعت من تحت الأرض بين يوم وليلة فصارت صبية ناضجة نضوج ثمرة برتقال بدمه ظاهرة ومكشوفة في فرع شجرة جنب الدار، كنت أتلفت حولي وأسأل نفسي إن كنت بالفعل أليق بها أو تليق بي، وأفكر إن كان زمن الزواج قد فاتني بالفعل لأنني تخطيت الأربعين منذ سنوات، أمثالي تزوجوا والبعض منهم زوج أولاده وصار جدا

فهل يحق لي أن أبدأ الآن وقد فاتني ما فاتني من عمر، أبدأ وأنا أحمل فوق همومي وما صار إليه حالي وجود أمي الراقدة التي تحتاج أكثر مني إلى من يرعاها ويخدمها ويسهر على راحتها، وأضع في حساباتي ضرورة أن يحتملها وقد صارت من كثرة الرقادة عصبية وغاضبة دائما ولسانها مثل لسان حية أو عقربة لا يكف عن اللدغ، لا تترك سيرة الأحياء أو الأموات تتسلى بها:

ــ أنا عارفة إيه اللي كان وقعني في أبوك. كان كبر وفاته قطر الجواز وأنا كنت صبية ولسة طالعة، لكن إتجرأ وطلبني، خدني وعشت معاه ع العيش والملح، لقيته كبير في السن لكن زي العيل اللي لسة ما اتفطمش أبوك مات وهو لسة ما اتفطمش يا حسنين، كان يا ولداه محروم من الأم، اتولد يتيم وما رضعش لبن أمه، ولا عاشلوش غيرك يا حسنين، المدندشين مش عيلة يا مدندش، دول فرع مايل ومدلدل وعزمه خيبان، ما هو أنت أهه، عزمك خيبان، وقليل قليل إن ضربت جدرك في الأرض ومددت وفرعت زي اللي اتولدوا معاك، فاكر سلمان يا حسنين، أهو بقى جد.. وأنت مش قادر تكمل نص دينك وتعيش زي خلق الله، ملعون أبوك لأبو اللي خلفوك.

وكنت أحفظ لساني معها قدر استطاعتي لأن المولى سبحانه أوصانا برعاية الأم واحتمال الأم وطاعة الأم، كنت لا أرد على شتائمها فتشعر أنني احتملتها وتدعو لي بالستر فأنظر إلى أحوالي وأسأل نفسي عن الستر الذي لم يتحقق أبدا، أي ستر ودارنا مندرة ووسط دار وفرن وقاعة خزين معتمة وبيت أدب عريان، وحتى لو تجرأت وفكرت في إكمال نصف ديني فأي ناس ترضى بدار مثل دارنا وفيها أمي وليس فيها عزال أو نحاس، وعروق خشب سقفها تحتاج إلى تستيف جديد وكتل لدعم خشبها القديم، وأي نوع من الأمراض هذا الذي أصابها وأقعدها كل هذه السنوات فصرت أنفق ما أحصل عليه لأداويها وأطعمها وأكسوها، وأي بخت هذا الذي أورثني فقره وفقرها وجعلني أبدأ حياتي بسداد دينه ودينها بينما يرث الكل، ميراثي بالمقلوب يا ناس، ميراثي هو دفع ما لم آخذه من أحد فأي عدل هذا وأين هي طاقة القدر التي يتحدثون عنها لأطلب منها ما ظللت أداريه عن الناس وعن نفسي من إحساس مؤكد بالظلم دون ذنب أو حتى وعي يسمح بارتكاب ذنب، هو مجرد ميراث بالمعكوس، وأنا بيني وبين نفسي فتشت في نفسي فلم أجد لأي واحد من خلق الله ظل غل أو حسد، وكل ما كنت أتمناه وأرجوه أن ينعدل حال الدنيا المقلوب، حال الدنيا مقلوب يا ناس، فهل تظهر لي طاقة القدر أم أن موعد طلوعها في أواخر شهر رمضان؟ وهل ظهرت لأي واحد من الفقراء اليتامى طاقة القدر؟ أم أنها عندما تظهر له يتحول إلى واحد من المالكين القادرين الآمرين الذين يحكمون ويتحكمون في خلق الله، ينقص الفقراء واحدا ويزيد الأغنياء واحدا لكنه في زحمة الدنيا لا يتبدل شيء، يبقى الحال على ما هو عليه رغم ظهور طاقة القدر للناس، لو

ظهرت لي لطلبت العدل كل العدل على الأرض، تتوزع الأرزاق بالعــدل ويتــوزع الشــغل بالعدل، وتتوزع دور الكفر بالعدل ويتوزع زمام الأرض المملوكة بالعــدل وبالعــدل نأكــل ونشرب ونكتسي ونتزوج ونخلف ونعيش ونموت، نصبح مثل جيوش النمل أو النحل عرايــا وقد تساوينا في كل شيء، لكنه يلزم أن يتميز من يملكون العقل أكثر، تكون لهم شارة يعرفهم الناس بها، هل من الممكن أن تظهر لي طاقة القدر وتنتظرني لأطلب كل هذه الطلبات أو أنها كما يصفون تنفتح لحظة واحدة وتستجيب لطلب واحد، المال أو الصحة أو الزوجة والنسل أو الهداية أو رضا الله وخلقه، الستر أو القناعة والرضا بالمقسوم، شيء من بين هذه الأشياء فقط تسمح به طاقة القدر التي تنفتح في ليلة محسوبة وللموعود بها دون بقية خلق الله فهل أفكــر أنا الذي ضاع حظه في هذه الدنيا، أفكر في طلب واحد أطلبه من طاقة القدر إذا ظهرت لــي، سوف أطلب العدل.. العدل أساس الملك، نعم سوف أطلب تحقيق العدل في كل أركان كفرنــا وفي كل البنادر، ولو سمحت طاقة القدر فسوف أطلب تحقيق العدل في كل الدنيا، العدل وحده لأن العدل أساس الملك.

ــ عدل إيه ولهو إيه يا حسنين؟ وملك إيه، وما تسيب الملك للمالك يا خايب يــا بــن الخايب.

رأيتها قبالتي بعودها النحيل النحيل وصدرها البارز، كنت قد اعتدت أن أراها راقــدة أو مسنودة إلى مسند أو جدار خلال كل السنوات الماضية، لم تكن تستطيع أن تنصب طولهــا بغير مساعدة، وحتى بالمساعدة كانت تعجز عن الوقوف دون انحناءة كبيرة تقترب من حالــة الركوع، كنت أشفق عليها وأحاول أن أداريها عن عيون الناس في تلك اللحظات، ولا بد أنني ارتعشت خوفا عندما أيقنت وتحققت أنها هي بشحمها ولحمها وأن ما أراه حقيقة وليس طيفــا ولا مناما أو حلما، كانت هي نفسها التي تقف منصوبة العود ومرفوعة الرأس مثلما كانت في السابق قبل الرقاد، بل إنها كررت ما قالته مرة أخــرى وهــي تقتعــد الأرض قبــالتي دون مساعدة:

ــ عدل إيه يا حسنين يا بني اللي أنت داوش روحك بيه؟ أنت ح تفضل أهبــل كــدة على طول؟

ــ هو العدل عيب يا أمه؟

سألتها وقد انمسحت من ذاكرتي مسألة مرضها وزال خوفي، كنت أحدثها وتحــدثني مثلما كان يحدث في السابق قبل أن ترقد، سبحانه القادر على كل شيء أنساني أسخف أيــامي وأيامها وأصعبها وأقساها، هو مجرد نسيان مؤقت ساعدني على الاحتمال وقواني على الكلام معها، قالت أمي:

ــ سلمان أخوك مص دمك ودمي شوف لك حل معاه.

ـــ أعمل له إيه يا مه؟
هات لي منه حق اللبن إلى رضعه.
ـــ لبن إيه بس يا أمه؟
ـــ بلاش.. البد تحت باطه، خده سكة وأطلع وياه ووراه.
ـــ يا مه.
ـــ بلاش.. خليه يتوسط لك ويوظفك وإن ما وظفكش افضحه، أنت تقدر تفضحه يـــا مدندش..
ـــ يا مه..

لم تكمل كلامها، أشارت إلى القلة فناولتها وساعدتها حتى ارتوت ونظرت في ضـــوء ما تبقى من القمر فرأيت عينيها تتراخيان وجفنيها ينطبقان، ناديتها فلم ترد، رفعت سبابة يدها اليمنى إلى أعلى ففهمت أنها تطالبني بإرقادها في نفس المكان، ساعدتها على الرقـــاد وكـــان جسمها دافئا وطريا، سمعت صوت المؤذن ينادي المؤمنين لصلاة الفجر وســـمعت نحنحـــات الخارجين من دورهم يوحدون الله ويصلون على محمد، وبدا لي أنني استعدت ما كان يجري قبل طلوعها على هذا النحو فشعرت بالخوف منها ومن نفسي واستعذت بالله، تعجبـــت لأنهـــا طلعت فوق السطح دون مساعدة من أحد وأنها كانت تقف منصوبة القـــوام لأول مـــرة منـــذ سنوات، كان شعاع النهار يكشف الأشياء وأسطح البيوت وكانت هي تتمدد أمامي في صـــمت مرتاح، ومن فزعي ناديتها:
ـــ أمه.. أمه يا أمه.

لكنها لم ترد.. وكان الضوء قد كشف لي تقاطيع وجهها أكثر، كانت بشـــرتها أكثـــر بروزا وعودها النحيل النحيل قد امتلأ، هزتها لأوقظها وأحملها إلى فراشها فاهتزت ولم ترد.. عاودت هزها فاهتزت ناديت وناديت بأعلى صوتي لكنها كانت قد أراحت نفسها من كل رد.. صرخت ورأيت الناس تصعد الدرجات وأحدهم يبعدني عنها ويصحيني من غفلتي صارخا:
ـــ المرحومة ربنا اختارها.. وحد الله يا مؤمن.

كان أمل البسطاء أن يرشح أي واحد من الأكابر نفسه في المدة الباقية لكـــي يمنحـــوه أصواتهم يوم الانتخاب ويحجبوها عن سلمان وساعتها يضيع أمله في النجاح، لكن سلمان كان يتحرك في الوقت الضائع، ينصب الشوادر ويؤجر مكبرات الصوت ويجمع الناس من حولـــه، وكان أتباعه يشيعون أنه على علاقة بالأكابر الحكام وأن السادات بنفسه زاره بـــدواره وأنـــه سوف يكسب بالتزكية، وكان هو يتحدث بنفسه عن نفسه قائلا إنه طالع من بطن أرض كفرنا الطيب، وأنه سوف يصلح ما أفسده المفسدون وأنه سوف يبدأ بالسوق الذي سيطر عليه بعض الغرباء والوضعاء الذين فقدوا ضمائرهم وأجروا من يتعرض للتجار الشـــرفاء، وأنـــه لـــولا

رجاله لبارت تجارته مثل غيره لولا همة الرجال، وادعى أن هناك جماعة من الناس تقصـد تلويث سمعته وإفساد حياته وهو النقي الطاهر الذي اعتزل الناس واختار مكانا يبعد عن مسقط رأسه وبنايات البندر حتى لا يقع تحت تأثير أهله وهو الذي يسعى لخدمة الكل دون تفرقـة أو تمييز:

ـ والناس دي مش عارف عايزين مني إيه؟ عايزيني أنسحب م الترشيح ويخلى الجو لواحد من بتوع زمان، واحد من اللي كانوا ماسكين الكرباج للناس الغلابة وبيشغلوهم سخرة؟ لأ.. مش ح أنسحب، مش لجل خاطري، أبدا.. لجل خاطركم أنتم، أنا غرضي أخدم الكـل ف زمام الناحية، ح ابني مركز لبحوث الزراعة ويزيد المحصول.

بدل الفدان ما يرمي تسع قناطير قطن ح يجيب عشرين وبدل ما يـدي عشـر أرادب قمح ح ينتج عشرين وثلاثين، التقاوي موجودة، وح نعمل مخبز آلي ومصنع علف ومـزارع سمك، وبكرة تشوفوا الفرق بعنيكم، ح نزرع تفاح أمريكاني بدل الجميز والتوت.

كانوا يصدقونه ويصفقون لأنه كان يبرع في الكلام، وأنا لولا معرفتي له كنت أصدقه خصوصا عندما كان صوته يختلج وعيناه تدمعان من فرط الانفعال، وكان يحكي عـن نفسـه وكيف تربى أول ما تربى في بيت حسنين المدندش الذي هو أبي وبرعايـة وعطـف السـت حرمه التي هي أمي التي لولاها ما عاش، كان يقسم بأغلظ الأيمانات أنه لـن يكـون نـاكرا للجميل أبدا مهما حاول الأعداء، ولابد كان يقصدني بين من يسميهم الأعـداء، ففـي المـرة الوحيدة التي رآني فيها نظر ناحيتي وأشار بإصبعه:

ـ أهه.. حسنين أخويا أهه، ابن عم حسنين قصادكم أهه، أخويا في الرضاعة وعمري ما ح انكره، بامد له إيدي كل ما أشوفه، لكن يا سبحان الله، ضحكوا عليه وغيروا قلبـه مـن ناحيتي، اللي يفتحه يلاقيه أسود من قرون الخروب، شـوفوا لابـس مبهـدل إزاي، قصـده يحرجني، يقلل من قيمتي، طيب يا حسنين قصاد الناس دي كلها أنا فاتح لك صـدري أهـه، وعفا الله عما سلف، تعالى في حضني وربنا شاهد عليا وعليك، شـايفين بيـبص لـي إزاي؟ بيكرهني.. بيكرهني يا ناس وأنا مادد له إيدي وقلبي عليه، بيكرهني يا ناس.. بيكرهني.

بيني وبينكم أنا ساعتها انخرست، نزل على لساني سهم الله وما عرفت أن أرد عليـه، أنا المشهور بطول اللسان انخرست وعجزت عن الكلام، وساعتها عرفت إن الكذب المسبوك المزوق يقدر أن يخرس الصدق العريان، كنت أشعر أنه عراني أكثر من عري الثياب التـي كنت ألبسها والتي كنت دون أدنى شك أخجل منها وسط الزحام.

قال واحد من الأكابر بعد أن شكوت له حالي:

ـ رشح نفسك قصاده واحنا نقف وراك ونساعدك بالفلوس. كان أول مرة أسمع فيهـا هذه الفكرة، ورغم أنني سمعتها فقد كدت أن أنفض آثارها من أذني قبل أن تصل إلى دمـاغي

وأقلبها مثل كل الأفكار التي تصلح للتنفيذ، صحيح أنني مسكين ولا أملك ما أخشى عليه من الضياع فماذا يأخذ الريح من البلاط؟ لكن هل أقبل أنا على نفسي أن أتحول إلى مسخة يلعب بها أكابر الناحية ضد سلمان؟ هل أرشح نفسي ضده ثم يتضاحك ناس كفرنا وكل الكفور المجاورة على الطبال الزمار الحاوي، الرداح النداب البائس الذي تجرأ ووقف في سكة الأكابر بأصابع الأكابر الآخرين؟ وهل أساوي نفسي بيني وبين نفسي مع الكذوب المراوغ المخادع القادر على أن يلعب بالبيضة والحجر، هل أضع رأسي البسيط النظيف في مواجهة رأسه اللامع القادر على التزييف؟، رفضت أن أناقش الفكرة فقال الكبير:

ـ لك حق وشك ينزرد ويزرق يا مدندش، أنت راجل غلبان صحيح بس نضيف، إنما ده.. دا تعبان شراقي لسانه بيبخ سم ناقع فين ما يفوت.

ولابد أن كلام الكبير قد وصل إلى قلبي ومسه مسا خفيفا، ذلك أنني شعرت بسخونة دمعتين تتحركان على غير إرادة مني وتعبران خدي وأنا الذي ما كنت أبكي، حتى وأنا أندب دون بكاء، هل كنت أبكي على حالي أو على سلمان؟ ربت الرجل على ظهري مواسيا وضاحكني فتجاوبت معه وصرت أضحك، هز الرجل دماغه وقال بعد فترة كدت أنسى فيها سلمان وأنسى نفسي.

ـ إحنا ح نوقف قصاده واحد عبره، واحد مالوش قيمة خالص في كل الناحية، إن كسبه تبقى مسخرة وحش وسط ما يرفعش رأسه بعدها أبدا، وإن خسر تبقى مرمطة وقلة قيمة، عارف مين أوطى واحد في الناحية يا مدندش؟

ـ لأ.. مين؟..

ـ ح أقولك بعدين.

لم يقل لي وإنما رأيت بعيني رأسي ما لم يخطر على بالي أو يرد في خيالي حتى في الأحلام، رأيت واندهشت مثلما اندهش كل ناس كفرنا وناس الكفور المجاورة في نواحي الناحية، ومن لا يندهش إذا كان الوحيد الوحيد الذي استخدم حقه في الترشيح ضد سلمان هو شحيبر ابن الكلاف؟ شحيبر الذي كانوا يقولون عنه "بتاع" الأرض والذي طول قامته ثلاثة أشبار دون زيادة بمقاس شبر سعيد الكموني، ثلاثة أشبار بالفعل دون مبالغة وفي حالة المبالغة نقول "شبر ونص" طبعا شحيبر لم يفعلها من تلقاء نفسه ولا كانت فاتت على خياله في الأحلام، ولا بد أنهم أقنعوه وناولوه ما لم يكن يحلم بأنه يناله قبل أن يذهب وفي آخر يوم وآخر ساعة لقبول طلبات الترشيح بعد أن قال الكل أنها طابت لسلمان بالتزكية، قلت لروحي وأنا أراه في البندر مزفوفا ومحمولا على الأعناق ومن أمامه طبال وزمار وراقص بالعصا وغازية من سنباط ترن صاجاتها وتطلب النقوط للرجل الغلبان الذي رشح نفسه باسم الفقراء

ومن أجل الفقراء، قلت لنفسي بيني وبين نفسي "كان من الممكن أن أكون مكانـــه" ولا بـــد أن الخبر طار في كل أركان الناحية مثل السبرتو أو البنزين.

كل الناس ما لم يكن أكثرهم عرفوا "شحيبر"، كل من سافر بالقطار إلى طنطا أو شبين رأى شحيبر، كل التجار والأفندية والمزارعين شافوا "شحيبر" ابن الكـــلاف، دكـــك المحطـــة أخذت من بدنه وعلمت عليه، من في كل الناحية لم يعرف شحيبر؟ كان أكثر شهرة من شـــاي الشيخ الشريب أيامها، كان يجلس من أول طلوع شمس ربنا وحتى قطار التاســـعة والنصـــف مساء، يجلس على نفس الدكة أو يبدلها إذا أراد، يجلس وينتظر وصـــول أي قطـــار مـــن أي الاتجاهين فيتدحرج على رصيف المحطة حتى يصل إلى أحد أبواب القطار، يمد يده إلـــى أي شيء تطوله، سلة أو قفة أو طفل أو حقيبة أو "خرج"، يطلب السماح من صاحب الشيء، ثـــم يلفعه على كتفه أو ظهره ويرمح، يبدو لكل من يراه مثل "حرامي الحلة" الحامل ما يداريـــه، لقمة أو خنفساء أو صرصار، يحمل الحمل ويجري فلا تظهر منه غيـــر ســـاقين قصـــيرين متسارعين في اتجاه باب المحطة، ودائما دائما ما كان يجبر صاحب الثقـــل المحمـــول علـــى الجري في أعقابه أو استمهاله بعض الوقت حتى يلحق به، لكنه مع النساء كان يتأنى ويتبختر على مهل فتسبقه المرأة وتستعجله ولا يتعجل أبدا، دماغه لا تلين أبدا وكأنه بغـــل اســـترالي، يحدد أجره ولا يتنازل عنه أبدا حتى ولو حصلت مصيبة أو قامت بينه وبين أي إنسان خناقة، حركته خفيفة ولسانه ثقيل في الكلام، وعزمه في الحمل أكبر بكثير كثير كثير عن مظهـــره، فكم شهدوا له بحمل ثقل يعجز عن تحريكه رجل بشوارب أو رجلين فـــي بعـــض الأحيـــان، وكانوا يسخرون ويقولون:

هو شال حاجة؟ دا منه للأرض.

ــ لأ ورجليه زي عجل الونش عارفة سكتها.

ــ سبحان الله، صحيح.. كل ذي عاهة جبار.

وحكايات شحيبر وأي شحيبر مع الناس فوق رصيف السكة الحديد أو شوارع البنـــدر تحتاج إلى راوي بربابة، هي حكايات بسيطة تليق بأي شخص بسيط، تراه سهلا وبلا قيمة ثم تقترب منه وتتعامل معه فيظهر لك شخصا آخر، شخصا غويطـــا ومشـــحونا بـــوعي غيـــر محسوب حسابه، وهل كان سلمان أو أحد رجاله يفكر أن شيالا قصيرا مقطوعا وساكنا علـــى رصيف محطة بندر منسي في ناحية تبدو منسية سوف يفعل ما فعل لمجرد أن بعض الأكابر فتحوا له الأبواب وقالوا له: قدم اسمك ورشح نفسك ضد سلمان ففعل وكبرت في دماغه ولـــم يتنازل أبدا رغم أنه عاش كل سنوات عمره مسكينا بين المساكين يسعى من أجل اللقمـــة لـــه ولعياله والثوب يستر بدنه وأبدانهم، صحيح أن "شحيبر "بحسابات الكل كـــان يملـــك "عـــرق الصبا" لكن ما فائدة "عرق الصبا" لشيال أكثر من مساعدته على حمل ما يحتاج إلـــى حملـــه

أصحاب الحاجات؟ وهل كان عرق الصبا يقدر مثلا أن يعينه على إزاحة هموم حياته أو إبعادها عنه؟ لقد ظل عرق صباه عطلانا وقاعدا على دكة رصيف المحطة حتى أوقفه بعض الأكابر الخبثاء بغرض الضحك عليه وعلى سلمان فاستقام عوده وبدا للناس أنه أطول مما كانوا يحسبون وأن قدرته على السعي في الكفور والأنحاء لضمان أصوات الأهالي كانت أكبر من قدرات سلمان، وسبحانه الواهب القهار الذي ألهم من فكر في الأمر قبل غيره وساعد "شحيبر "على الانتصاب.

في كفرنا "السوقي" حسب الناس أن المسألة نكتة في أول الأمر، مجرد نكتة علاجها بسيط، دعوة من حضرة جناب العمدة الذي هو ولي أمر شحيبر مثلما هو ولي أمر كل ناس الكفر الذي انولد فيه شحيبر، ثم بضع كلمات من اللوم أو التهديد والوعيد أو الاستهجان لأننا في النهاية أولاد نفس الكفر ولا يليق أن نقف ضد بعضنا ونضحك علينا الغرباء، وقد فعل العمدة ذلك بالطبع عدة مرات، لكن شحيبر كان قد تبدل، كبرت دماغه وما عاد يخاف التهديد، وكانت الأيام تمر وآخر موعد للتنازل يقترب والولد يعاند مثل بغل استرالي، جربوا رشوته وزودوا قروش الرشوة أو آلاف جنيهاتها فلم يستجب، على العكس كان يخرج ويبوح للناس بكل ما سمعه فيكسبهم في صفه، والواقع أن شحيبر كسب عطف الناس بسبب عناده وقدرته على مواجهة التهديد بكل شيء ولأبعد حدود التهديد مثلما كان قادرا على رفض الوعود والإغراءات التي لو صادفها في كل عمره السابق لزحف على بطنه لينال عشر معشارها ويحمد الله، عاند شحيبر بكل عزمه على العناد، وعاند بعزم غيره أيضا ممن كانوا ضد حكومة السادات لأسباب لا نعرفها رغم أن الرجل انحنى أمامنا جميعا أمام صورة عبد الناصر، انحنى ووعد بأن يحافظ على سياسته ويمشي على طريقه ونظامه، لكن هؤلاء كانوا لأسباب تخصهم لا يصدقون الرجل، وربما أرادوا إنجاح شحيبر لكي يصبح مثل لقمة خشنة وضئيلة في حلق كل أعضاء المجلس الكبير بناسه الكبار، وكان هناك أيضا أولاد الأكابر القدامى الذين يحملون ـــ رغم إلغاء الألقاب ـــ لقب الباشا والبيه، هؤلاء القدامى كرهوا عبد الناصر والسادات ومن قبلهما محمد نجيب، كان تحديد ملكياتهم في الأرض الزراعية قد أوشك أن يساويهم مع صغار الملاك من أمثال سلمان والناس الشلبي.

كان هؤلاء وهؤلاء يجمعون التبرعات ويقيمون السرادقات ويضعون اللافتات باسم محمد شحيبر مرزوق الكلاف الشهير بشحيبر ورمزه النخلة، يأتي شحيبر وقد لبس الكشمير اللائق وطالت قامته وهو يرفع كلتى يديه بالتحية للناس ردا على التصفيق والهتاف، لم يكن شحيبر يملك القدرة على الكلام أمام الناس، كان في الغالب يكتفي بالوجود في المكان ويتولى من يتحمس الكلام بدلا منه فيهز رأسه استحسانا أو يقاطع الكلام بعبارة أو عبارتين:

ـــ لا.. أنا ح أزود المدارس واعلم عيال الفقراء بلاش.

ـ قوللهم اللحم الفسدان اللي اتباع في السوق مين اللي جابه؟

ـ حشيش إيه ومخدرات إيه؟ إحنا نعرف الكلام ده؟

ـ إزاي بقى.. مهما حصل.. أنا واحد منكم وأقل منكم كمان، أنا لسة يا ناس شيال على محطة السكة الحديد..

كان الناس يهتفون باسم شحيبر ويحملونه على أعناقهم ويدورون في شوارع البندر بمكبرات الصوت التي تدعو الناس لانتخاب "النخلة" التي هي رمزه، وكانت الحريم في بعض الأحيان تزغرد، وعند الانصراف كان البعض يقول للبعض أن شحيبر سوف يأخذها من سلمان، ويضيفون أن دوار سلمان المبني يفوق من حيث الاتساع والتجهيزات كل قصور الأكابر القدامى من الباشاوات والبهوات في كل الناحية والنواحي المجاورة، كان من الواضح أن سلمان سوف يخسر بسبب أفعاله وتباعده عن الناس وثروته التي يشك الكل في شرعية مصدرها وهو من الناس الشلبي الذين لم يسمع بهم أحد قبل جيلنا بجيل أو جيلين في أحسن الأحوال، لكن سلمان كان يبعث أنصاره إلى رءوس العائلات ليدفعوا لهم مئات الجنيهات أو الآلاف ليقوموا بتوزيعها على الأفراد ويسألوهم نفس السؤال الذي لا رد عليه:

ـ بقى معقول أن شحيبر يتكلم باسم عيلتكم في البرلمان؟ شحيبر؟

وكان الكبار يطرحون على الصغار نفس السؤال ويطالبونهم باختيار "المسدس" رمز سلمان، وكان البعض يبوح بما جرى والبعض يداري ويعد باختيار "النخلة"، وفي يوم الانتخابات تأخر ناس وجاءت ناس، لكن من تأخروا كانوا أكثر ممن حضروا، وسمعنا إشاعات عن تقدم شحيبر في الكفور والنجوع والقرى وتقدم سلمان في البندر وفي كفرنا الشلبي، وقال البعض أن شحيبر تقدم في كل نجوع الناحية والبندر والقرى البعيدة، وتبادل الفريقان الاتهامات والتهديد بالطعن في الانتخابات إذا جاءت في غير صالحه.

هل مات سلمان في جلده وغاب عن وعيه خلال اليومين بليلتين التي جرى فيها فرز الأصوات؟ كانت معركته صعبة وقاسية عليه وعلى أنصاره لكنه فاز بفارق هزيل، فارق لا يكاد يشعره بأنه نجح بحق، نجاحه كان أقرب إلى الفشل إذا وضعنا كل الشكوك في الميزان، ولا بد أنه لم يفرح بنجاحه كما كان يحلم ويحلم أهله وناسه لكنه على كل حال نجح وانفلت وفتح باب دواره لكل من أراد أن يذهب إليه قبل أن يسافر بعد أيام لا ندري لماذا، ذهب إلى دوراه ناس لتأدية الواجب ولجبر الخواطر أيضا، كان البعض منهم يذهب ويعود ليقول إنه كان يداري ضحكته في "عبه "أو "كمه "يبارك بحسب ما يسعفه الكلام، وسلمان في كل الحالات يهز رأسه ويردد نفس العبارة:

ـ كتر خيركم.. كتر خيركم.

يزعم البعض أنه كان يقولها شاكرا لمن ساعدوه، ويزعم البعض الآخر أنه كان يقولها عتابا أو لوما ناعما لأنهم أجهدوه وجعلوه يسعى بكل الوسائل المسموحة والممنوعة في الخفاء والعلن ليغطي على من خذلوه وتمنوا أن يضحكوا كل ناس الناحية عليه أكثر مما ضحكوا بسبب ذلك النجاح الهزيل الذي حصل عليه.

لعل ما هون الأمر على سلمان هو أن شحيبر لم يطعن في نتيجة الفرز، بل إنه قالها لبعض من حرضوه على ذلك قائلا بحسم:

خلاص.. مش ح أطعن ولو انطبقت السما ع الأرض.

كان قد ركب دماغه عناد البغل الاسترالي، أو كان قد تعب هو الآخر من دخول معركة لا كانت له ولا كان لها، أو ربما فهم الملعوب الذي شارك فيه مدفوعا بأيديهم وإرادتهم، وربما ــ وهو ما شاع وتردد ــ حصل على المقابل الذي يكفيه ويكفي أولاده، ومن كان يصدق أن شحيبر سوف يمتلك في أي يوم مثل هذا الدكان الكبير الذي انفتح أمام باب المحطة وانكتب على لافتته "بالنيون" "شحيبر وأولاده.. للأحذية والمداسات" وكان يجلس في عصر كل يوم على مقعده أمام المحل ويمارس لعبته القديمة التي كان قد أبطلها، ففي أي وقت كنت تراه ممسكا بين إصبعية الإبهام والسبابة بقطعة من العملة المعدنية، يحرص أن يريها لكل من يحيطون ليتأكدوا من سلامتها قبل أن يضغط بإبهامه الخشن على سطحها العلوي بينما سطحها السفلي مسنود على ثنية السبابة، يضغط بعزمه فيمسح الكتابة وصورة النسر أو الصقر، فيقولون إنه ما زال مالكا بين كفيه قوته القديمة، وأن "عرق صباه" ما زال قادرا على إثبات وجوده.. تماما مثلما كان في السابق يفعل بأي عملة فضية يطلب منه صاحبها أن يمسحها فيمسحها ولا تعود صالحة للصرف وقد انطمست الكتابة وصورة الملك.. أي ملك.

في كفرنا "الفرعوني" يظن الناس أن مداومة رؤية الأموات في الأحلام هي نذير بالموت القريب أو نهاية الأجل، ولأنني أعيش منذ فترة طويلة مع الأموات بحيث كنت أراهم في أحلامي وأستعيدهم فأفكر فيهم في صحوي، قلت لنفسي إنها بداية النهاية، ولأن الموت على رقاب العباد ولأنه لكل أجل كتاب، ولأنني ومنذ البداية كنت منذورا للموت فأنني لا أشعر بالخوف أو الرهبة من مواجهته، ولابد أن البهاليل أمثالي يعشقون الحياة على حافة الحافة إلى حد الاستهانة بالحياة نفسها أو بالموت نفسه، لقد وجدتني هكذا دون قدرة على المحافظة على شيء، ربما لأنني لم أجد في حوزتي أو من حولي أي شيء يدعوني لأن أحافظ عليه، ولأنه لا يطلع إلى العلالي إلا من يملك سلما للطلوع، ولأنني عزيز النفس وإن شح زادها فقد كنت أعيش بينكم أيامي يوما بيوم وساعة بساعة ولحظة بلحظة، عشتها وتعلقت بها لأشبع منها وأتشبع، أفعل ما يرضيني ولو أغضب الأكابر، مؤمنا بأن العمر واحد والرب

واحد، وأنه لا يأخذ الروح إلا خالقها، حتى عندما كنت أمثل دور التابع المطيع كنت أفعل مــا أريد وأرغب، وكانوا في أغلب الأحيان يسمحون لي بمساحة من العفو أو المســامحة عنــدما أخرج عن حدود المسموح، وكانوا يبررون ذلك بكلام زائف عن عقلي الملطــوش أو لســاني المفلوت لأنني بهلول، كنت أسمع مثل هذه الأوصاف وأتمادى فــي الخــروج عــن حــدود المسموح، آخذ حقي وبعض حقوق الفقراء، هو نوع من خلط الجد في الهزل أو عجين الهبــل مع الشيطنة ونادرا ما كانوا يكتشفون ما لا أرغب في كشفه لهم، وكأنه كان بيني وبين الأكابر عقد غير مكتوب لكنه محسوس بأن نتعايش على هذا النحو، أنا في الهامش وهم في البــؤرة، أنا في الظل وهم في مناطق الضوء، أنا في منطقة الصدق الخالص وهم في مناطق الأكاذيب المحبوكة والمسبوكة باقتدار، وأنا بلا أملاك أو رغبات في الحيازة وهم أصحاب كل الأملاك وكل الحيازات.

ــ "اللي يتشحت بالبق يتآكل بإيه يا حسنين"؟.

سألني وأنا أمشي إلى جواره وأحتمي بظله من سخونة الشمس، احتــرت ولــم أجبــه وظللت محتميا بظله من سخونة الشمس، لكنني بعدها فكرت وعرفت أن الفــم الــذي يطلــب إحسانا أو صدقة غير الفم الذي يمضغ ويميز طعم الأشياء ويستمتع بمذاقها، كأنه صــعب أن يستمتع الإنسان بخبز استجداه بلسانه، وأنا كنت أراه في كل أحلامي يحمل الخير ويعطيني، لا ينتظر سؤالي، وكأنه داخل في خلايا عقلي وعارف كل ما أحتاج إليه، اللقمة أو جرعة المــاء أو الثوب الواقي من البرد أو السخونة، كان في كل منام يعطيني وأفسر أحلامي لنفسي فأقول أنا عطايا الأموات خير آت، ويعطيني وآخذ منه دون أن أطلب أو أستجدي، لكنه في الآونــة الأخيرة كان يدعوني للرحيل معه، يغريني بمولد السيد البدوي أو زيارة البندر أو حتى الذهاب إلى عمدة كفرنا القديم الذي سمعت اسمه دون أن أشهد زمنه، كنت أسارع بمرافقته في خــلاء الزراعات وأستمتع برفرفة النسيم من حولي وأراه وقد عبأ النسيم جلبابه الأبيض فانتفخ وصار مثل مظلة كبيرة تحمله إلى أعلى، ومن مكانه كان يمد يده ليأخذني، يطالبني بأن أسمح للهواء بأن يملأ جلبابي ويحوله إلى شبه مظلة تحملني وأوشك على الموافقة لولا أنني أنتبه في الحلم وأفسر لنفسي ما يعنيه الصعود إلى أعلى، لا أطاوعه وأكتفي بالنظر إليه وهو يرتفــع مثــل بالون أبيض، يرتفع ويرتفع حتى يختفي في الفراغ البعيد ولا أراه، وساعتها في الحلــم أحلــم أنني فسرت حلمي وأنه ما زال في العمر بقية، هو أبي من يأتيني ويشاغلني كل ليلة قبل تمام الاختفاء، أصحو من منامي فأحدث طيفه الهربان الذي فاتني ولم يقدر على البقاء ليحميني من هؤلاء الذين أهانوه وظلموه وهزموه بشكل مهين، أقول إنه كان من الــلازم أن يقــاومهم، أن يعترض، أن يرد على إهاناتهم بإهانات مماثلة، أود لو دارت عجلة الزمن إلى الــوراء لأراه وأصرخ فيه، أدعوه لأن يبقى من أجلي، يرعاني ويداريني، أحدثه عن الخواء الذي أصــابني

برحيله وأقول له إنه عندما يبقى فلا بد أنني سوف أصير وسط ناس الكفر رجلا معدودا، كنت أرضى ببقائه ولو كان عاجزا أو ضعيفا أو هزيلا أو حتى ساقطا في حسابات الناس لكنه كان من الممكن أن يكون بالنسبة لي ضرورة. كيانا محسوسا يا ناس، يصعب أن أصفه لكم بالكلام، يكفي أنه كان بوجوده قادرا على حمايتي من معايرات الرجال:

ـــ أصل أنت تربية أمك يا مدندش.

كنت أرد عليهم وأردح لهم وأهينهم وأعدد للناس مخازيهم حتى يفر الواحد منهم من المكان معلنا أنه أسلم واستسلم، لكنني لم أنتصر أبدا أبدا على من شاكسني بمثل هذه العبارة، كنت أشعر بالهزيمة الكاملة رغم ما يبدو للناس من أمارات الفوز، كان موت أبي الذي يغازلني في الأحلام هو نقطة ضعفي وعار وجودي الذي ورثته منه، عفا الله عنه وحاسب هؤلاء الذين ظلموه وكرهوه في الدنيا ودفعوه لأن يستسلم قبل الأوان.

وكنت أراها وقد جاءت بصدرها الممتلئ وعودها النحيل وقد أوشك على الامتلاء قليلا لكنه ما زال يحتفظ بنحوله، تناديني بصوتها فأطل ناحيتها وأراها وقد أخذت في حضنها بنت حلوة من بنات كفرنا، أي بنت حلوة من بنات كفرنا، كل بنات كفرنا حلوات وفي المنام أحلى، وأمي تأتيني وقد ألبست البنت الحلوة ثوب الزفاف الأبيض ووضعت على رأسها طرحة الزفاف البيضاء. وفي وسط الزحام أرى وجه المأذون وأرى الشاهدين وأسمع صوت سلمان وهو يعترض:

ـــ ما يتجوزهاش وهو حافي أبدا، ما يتجوزهاش وهو حافي يا ناس.

وانتبه أن سلمان يقصدني وأنني بالفعل أقف حافيا وبلا مداس، أسعى بين زحام الناس وأسألهم عن أي مداس أو مركوب قديم فلا يسعفني أحد، بل إنهم كانوا يستخدمون مداساتهم ومراكيبهم في الدوس والضغط على القدمين الحافيتين، يمعنون في الضغط وتناديني أمي ويعترض سلمان طريقي إليها والبنت الحلوة في ثياب العرس، أشعر برءوس المسامير الطالعة من مداساتهم ومراكيبهم وهي تنغرس في لحم القدمين، أصرخ وأمد يدي في اتجاه أمي النحيلة فيعترضني سلمان، يتضخم سلمان وقد استند إلى دواره الكبير فصار في حجم الدوار، يصبح سلمان دوارا له أبواب مفتوحة ونوافذ ومساحات من الفراغ وبنايات بقباب وأعمدة ولا أرى سواه، يخرج لسانه الطويل ويكيدني به مثلما كان يفعل وهو صبي صغير، أتذكر في المنام أن سلمان الحي قبالتي ميت منذ سنوات فأغيظه بذاكرتي.

ـــ أنت ميت يا سلمان.. أنت ميت.

ويجاوبني من باب دواره المفتوح:

ـــ ميت حي.. ميت حي.

أقوم مفزوعا من منامي فأبسمل وأحوقل وأرفض الرقاد مخافة أن ألتقي بسلمان مرة أخرى وقد تحول إلى دوار، أتعجب من تكرار مطاردته لي في رقادي وقد رحل تاركا للدنيا خلفة من الأبناء والأحفاد، أعجب لأنه يضن علي ببنت من بنات كفرنا لتكون للعجوز في آخر أيام عمره الونيس والجليس والعوض وبها يكتمل نصف ديني.

وكنت أرى جدي الذي اشتهر في الكفر بحرصه على وضع وردة أو زهرة فوق أذنه اليمنى وقد علقها بجزء من فرعها بين نسيج الطاقية وخصلات شعره التي تسكن تحتها، أراه وقد تحول إلى سلطان آمر ومن حوله الأتباع والعسكر، يأمرهم فيأتوا بأبي مقيدا بالحبال ومتهما بسرقة البطة أو الأوز والأرانب وزراعات الغيطان، يدافع أبي عن نفسه بأنه جاع فاحتال على الدنيا ولبس ثياب الشطار لتستمر الحياة، يخلع جدي الحسنين السابع زهرة الأذن أو وردتها ويرميها على الأرض ويوبخ أبي لأنه جعل نفرا مثل عزت شلبي يهينه أمام الغرباء ولم يرد له الإهانة، يشعر أبي بالخزي والعار، يحكم جدي على أبي بالموت غضبا ويأمر العساكر بأخذه وأنا أصرخ من ظلم الحسنين السابع فينادينى ويعاود القراءة من كتاب بلا غلاف تقول صفحاته أن الشرفاء الشرفاء يعابون لأنهم يفسدون شرفهم بسرقات صغيرة وتافهة لا تفيد، وأنه في نفس هذا الكتاب يترك لأكابر اللصوص حق ارتكاب كل الخطايا وقتل النفوس وهتك الأعراض وسلب الأموال من جيوب الفقراء والطعام من أفواههم لأنهم بلا شرف ولا يصح تأنيبهم أو لومهم، أطاوع جدي وأخرج معه لكي يعطيني زهرة أو وردة أضعها ــ مثلما كان يضع زهرته أو وردته ــ في أعلى أذني اليمنى وأدس عودها الصغير تحت قماش طاقيتي، وأصير في هذه اللحظة أنا هو الحسنين السابع لولا أن سلمان يأتي ويخطف الزهرة أو الوردة فيتحول سلمان إلى جدي وأعود كما كنت أنا الحسنين التاسع وقد فقدت أبي.

وكنت أرى سلمان أيضا في كل مراحل عمره، في طفولته وصباه وشبابه، وفي رجولته وكهولته وقبل موته وقد انحنى عوده واستند على كتف واحد من أحفاده، كنت أراه وأحزن من أجله فيعايرني قائلا في كل مرة.

ــ احزن على حالك.

فأحزن ثم أنفض عن نفسي حزني وأفيق لروحي لأكتشف أن ما كنت أراه هو حلم أو كابوس عبيط، وأتعجب من أمر تلك الأحلام التي تتشابه مع ما أراه وأنا صاح لروحي، ومن تلك الحقائق التي أعيشها وهي تشبه أمثال تلك الأحلام أو الكوابيس، يختلط كل شيء بكل شيء، الأحلام البعيدة مع الأحلام القريبة، الكوابيس مع الواقع الذي أراه، يصبح ما أراه في الواقع وما أحلم به مجرد عجينة واحدة أتحسسها في الصبح والظهيرة وفي بدايات الأمسيات ونهايات الليل الساكن وساعات ما قبل الفجر، يختلط كل شيء بكل شيء، ويزدحم الدماغ

بأشكالهم القديمة، أمي وأبي وجدي وسلمان أخي وشقيق عمري وكل من ماتوا واندفنوا وأراهم في الأحلام ثم أعاود رؤيتهم في الصحو، أقــول إن الأمــوات يحاصــرونني ويطــاردونني ويمهدون الطريق لرحيلي إليهم ويمنحونني في كل مرة الإشارة لأقطع ما تبقــى بينــي وبــين الناس والحياة من خيوط، يساعدونني على أن أنهي ذلك التعلق العبيط بما تبقى لي مــن أيــام لأنه قليل قليل ويدعو للغضب والاعتراض عليه بالرحيل والخلاص..

لكنني بعد الفجر أراني وقد قمت واغتسلت وذهبت إلى زاوية أولاد عــوف أتوضــأ وأصلي فجرا جديدا حاضرا مع الجماعة ثم أجلس علــى رخامــة الصــهريج وأرى البنــات العذارى الصاحيات في البكور وهن يحملن الجرار أو الصــفائح الفارغــة يتنــادين بــدلال ويتضاحكن بدلع وقد تنبهن لوجودي، يتباطأن أو يتعجلن الخطوات أمــامي، كــأنني عــريس مرغوب يستحق أن تعرض عليه كل البنات جمالهن ويتركن له الحق في الاختيــار، أشــعر بالحيرة فكل بنات كفرنا جميلات، وأنا البهلول الحاوي والزمار الطبال الباقي أقدر أن أعطــي نسلا جديدا ليكون لكفرنا "الغفلان" ولا يزال طبالا جديدا وزمارا وبهلــولا اســمه الحســنين العاشر.. وحدوا الله.

فهرس

الموضوع	الصفحة

الناس في كفر عسكر.............................
الإهداء...
الحنان الصيفي...................................
حكاية شوق......................................
البحر الرمادي....................................
حكايات المدندش.................................

حكاية شوق

في كفر عسكر

" يدور الزمان فتطلع على
سلم الحياة ناس وتنزل ناس
ودوام الحال من المحال "

شوق شلبي

كأنها صرخات الأطفال الأولى ساعة الميلاد تستعيدني وتشد عزمي بعد هدة الرقـاد لأقوم وقد تخلصت من كل وجع، تغازلني وأنا مكوية بلسعة الفقد منكمشة على نفسي أو محنية لعاصفة الفراق فأراني واقفة أطل في البعيد قبل أن أدخل في زحمة الأحياء، أقول لنفسي وأنا راجعة وسطهم أن النار الحارقة تبردها دورة الأيام، تختلط في قلبي وأنا أسرح بفكري مشاعر الفرح الشحيح والأحزان فلا أميزها، ويتبدى لي أنه زمان واحد ذلك الذي فات وما هو حاصل وما سوف يجيء، تتشكل الخيالات شخوصا أناجيها وتجاوبني دون صوت مسـموع، وحيـدة وأنا راجعة من سكة المدافن وإن كانت محاطة بالأحياء، أحاور الأمـوات وأسـكت نفسـي بنفسي، يتبدل ناس الكفر وتتبدل البنايات ولا تكف الشمس على الطلوع فـي كـل صـبح أو الغياب في كل مغرب، يموت الأب ويختفي الولد في اليوم المحسوب، وترحل العمة وقد خلفت في القلب مرارة من نوع جديد، ربما هي خدعة العمر فيمن وثقنا فيـه وأسـلمنا لـه قيادنـا باطمئنان لا يجوز، وماذا أخذت منها غير الوعود ثم الوعود وقد فرت الآن مني وما عـادت تعود لأعاتبها على فعلتها، وكيف ألم حكاياتي معها في جعبة وأسك عليهـا فـلا أرويهـا إلا لنفسي، تكويني وأتوجع وحدي وأتحاشى نظرة الشامتين؟

هل كنا في القاعة بالأمس ليلا وعلام يخبط كفا بكف منكرا ومحرضا لي وأمي تجلس مشدودة الرأس بطرحتها ومسنودة به على كفها، غفلانة وعلام يسأل:

ــ تبقى اتلحست في نافوخها بصحيح.. زعتر المواوي يا حاج؟

والحاج مرسي حائر متردد قبل أن يرد.

ــ الولد ده ح يشفط الحليبة والرايبة، خايف تطلعي من مولد عمتك بلا حمص يا شوق يا بنتي.

كان وجه علام الغاضب يتابعني بقلق، وكانت رأس أمي تميل علامة الاستغراق فـي النوم أو التظاهر به، وكنت أحسب أن مفتاح الحل معي، وأنني أقدر علـى إعادتهـا ببضـع عبارات إلى مركزها في عقول الناس، ربما أفلح في إقناعها بالخلاص من زعتر والعصـمة في يدها مثل كل المرات فلا مستحيل، وضعت على الرأس غطاءه فارتاحوا، ربما اطمـأنوا بعض الشيء لأنني قررت الذهاب بعد الرفض مرارا، كنت أرتب الكلام فـي عقلـي وأنـا أتحسس بأطراف أصابع القدمين فتحتي المداس المحطوط في " بحراية " القاعة:

ــ اللي زي دي يتحجر عليها يا سي الحاج، مش كدة، دي عدت الثمانين.

سمعت صوت علام يقولها وأنا أخرج من باب الدار وأتوجه إلـى دار العمـة لأرى العجب، امرأة سمينة قاعدة طولها أقصر من عرضها وقد غاب عنها عقلها الموزون الذي كان

قادرا على تسيير عائلة بحسب إرادتها رغم الشوارب والشهادات والأملاك، دكاكين وجرارات وطواحين وعربات نقل وركوب، وكان زعتر ابن العبد المواوي يجلس إلى جوارها وقد خلع ثياب الأنفار ولبس الكشمير فبدا مثل عود القصب الممصوص، ابن العبد الهارب من خدمة الجيش أيام الحرب الذي تسترت هي عليه أيامها باعتباره خادمها الذي يقضي لها الحاجات، كانت تبربش بعينها لتتحقق مني والولد يضاحكها وتمتد يداه المتشققتان إلى لحم أطرافها دون حياء في وجودي وكأنه ينكرني:

ـ بنت أخوكي وصلت يا ست الكل.

ـ بالسلامة.. بقى ما تحضريش كتب كتابي يا غالية يا بنت الغالي؟

قالت هي بسخرية مستفزة قبل أن تنطلق وينطلق بعدها في ضحكة ممطوطة أخجلتني وجعلتني أندم لأنني جئت بوهم أنني سألتقي بنفس العمة التي عرفتها عمري والتي كانت في كل شيء تختلف عن تلك الكتلة من الشحم واللحم التي تتضاحك بشكل منفر وكأنها جنية طالعة من تحت سابع أرض لبست ثوبها وجلست مكانها، وللمرة الثانية في حياتي خفت منها فاستدرت خارجة ولم أجرؤ على الإطلال إليها أكثر أو سماع ما كانت تقوله وهي تشيعني بالكلام وتضحك مع الولد زعتر المواوي.

في الليل فاتحني علام في ضرورة الحجر عليها وكيف أن المحامي أوصاهم بأن تكون قضية الحجر باسمي، أعاد على مسامعي أن كل ما تملكه العمة من حقي وهو ليس بالقليل لأسكت كل هذا الوقت، وافقته على الذهاب في الصباح لعمل ما يلزم، وبدا لي أنني لم أنعس كثيرا قبل أن أسمع صوت زاهية يندبها قبل الضحى، وعندما ذهبت إلى دارها أفسحوا لي الطريق لأراها على " دراية " الغسل راقدة، وبدا لي أنها انكمشت كثيرا وتخلصت من كتل الشحم واللحم الزائدة، وأن تجاعيد وجهها اختفت وبدت لي كما كانت في السابق وأحببتها عمري، كفنوها ورشوا على بدنها الساكن زجاجات العطر "وبعبعوا" بكل ما يمكن أن يقال عن زعتر الذي كنس كل ما كانت تملكه وتحوطه وتحميه لصاحب النصيب الذي حرمني في آخر أيامها من حقي وأنا وريثتها الوحيدة الباقية، وفي عصر نفس اليوم دفنوها في قبرها الذي بنته لنفسها وأوصت في حياتها بألا يشاركها فيه قريب أو غريب ولا ينفتح بابه أبدا ليوم الدين.

كانت سيرته تنفتح في أمسيات المواسم والأعياد فينقلب ميزان الدار، تتوارى الضحكات وتتخفى ويعشش الصمت الحزين. كنا نميل لتصديق أنه جاء إلى الدنيا قبلنا ورحل عنها دون أن نراه رغم الوساوس التي كان يزرعها في عقولنا شيطان كافر بأنه ما كان ولا صار أبدا، لعلنا كنا نحتاجه مثلهما وأكثر، ننسى شكوكنا ونتحدث عنه للبنات في مثل أعمارنا وكأنه حقيقة فنتعرض للتكذيبات والسخريات، كنا نتخيله شابا في مثل عمر البكري وإن كان

أكثر منه جمالا وأخف ظلا، كنا نتحسر معهما على ما كان ونتخوف مما سوف نلقاه في مستقبل الأيام.

اعتدنا أن يدخل أبي في تلك الأمسيات متأخرا على غير عادته، وقد تغيرت ملامحه، لا ينظر إلى أية واحدة منا أو يلاغينا، غاضب على الدار والدكان وناس الكفر، القريب منهم قبل الغريب، يجلس في ركن القاعة ويصب اللعنات، يسود الحذر والقلق وتكتفي هي بالنظر إليه حتى يستغفر ويزفر ثم يتنهد، تدور بنظراتها في الأركان، وتتحط على وجوهنا وكأنها تستشيره فيهز رأسه بإيجاب تقوم وتدحرج الطبلية، تحطها في منتصف القاعة وتسبق البنات إلى صحن الدار، أسمع أصوات الملاعق والأطباق وخبطات المغرفة في قيعان الحلل، تمتلئ صينية العشاء النحاسية ونلتف حولها، تدعوه للبدء بنظرة وهمسة:

ــ لأجل خاطر البنات.

يظل رأسه مائلا حتى تلامس حلمة أذنه اليسرى ثوبه من فوق الكتف، يبقى فترة على تلك الحال، غارقا في التفكير ودخان العشاء يتصاعد، لا تمتد يد أية واحدة منا ونقاوم الرغبات، ويكرر عبارته التي سمعناها بنفس الإيقاع في مساء الموسم الفائت:

ــ لو كان الولد ده عاش ما كنتش راسنا ميلت لحد.

كان الحزن يشملها والعجز يحوطها وأن جرؤت تقول بحسرة:

ــ يا كبدي.

تقولها وهي تبتعد مسافة عن طبلية العشاء وتقول أن نفسها " مصدودة " عن زاد الدنيا، تتبادل النظرات وتقوم البنات لحمل الأطباق حتى تخلو طبلية العشاء، تزيحها وترفع قوائمها لتسندها مكانها جنب الجدار، نتكوم في الأركان ونكتم الأنفاس، ربما نسمع عواء كلب غريب ويستعيذ هو بالله من الشيطان، ربما نراها وهي تطرد براحتيها الشر "بعيد عنا.. بعيد" ربما يتباعد صوت العواء بعد مدة تطول أو تقصر لكنها تخلف في نفوسنا رهبة، يخبو ضوء المصباح أو يبدو لي أنه خبا وقد عادت هي من الخارج وجلست على طرف السرير محلولة الشعر ورأسها مسنود على راحتيها المفرودتين المرتكزتين على الركبتين:

ــ ابن عمي وشمتان فينا يا أم البنات.

يقولها أبي بصوته المنكسر وعيناه سارحتان في الفراغ البعيد، لا ترفع هي الرأس أو تحركها، تثبت على حالها، ملمومة على نفسها حتى يقوم هو من جلسته ويصعد بثقله مسنودا على قوائم السرير، يئز الحديد بينما يتمدد هو بينها وبين الجدار، يحادث نفسه متشكيا:

ــ زي ما أكون مش قادر أصلب طولي.

تقوم هي وتغطيه، ترمي علينا حرام الصوف مفرودا على اتساعه فيجلب إلينا الهواء الرطب أولا ثم نستشعر الدفء ببطء، يشحب ضوء المصباح تماما أو يسيطر الظلام، ورغم

صحونا جميعا لا يوجهان إلينا أي حديث، يتبادلان الكلام همسا مسموعا ربما بنفس البدايات والنهايات التي سمعناها قبلا:

ـ يعني لو كان عاش كانت الدنيا ح تتهد؟

ـ نصيب.

ـ نصيب أغبر.. ما لحقناش نفرح بيه.

ـ قادر يعوض عليك.

ـ يا ريت.. لجل خاطر الولايا دول.

كانت البنت عطيات تتحرك تحت الحرام، وأحيانا كانت تحاورني بصوت خافت فلا أسمع المزيد، يعلو صوتها وكأنها تعلن صحوها فتأمرها نعمات بالسكوت وأن تنام، وإن أطاعت يسود صمت أو نسمع أصوات العابرين في الدرب أو نقيق ضفدع في المصرف القديم، تلبد البنت في حضني كأنها تهرب من جني يطاردها، أشعر بيتمي ويتمها رغم وجود الأب والأم، أسمع صوت نعمات وهي تتنفس بعمق، وربما تتحسس شعري المحلول أو أتحسس شعرها بينما تغرق جواهر في نوم حقيقي ويصدر عنها شخير خافت لا يكف، أشعر على نحو غامض أن جرحنا غويط وربما لا يطيب، أن النار التي تكويها قد لا تنطفئ أبدا، ويبدو لي أنني أعاود السماع لكلام سمعناه مرارا:

ـ كان ابن موت، أبص له يضحكلي، فيه في الدنيا عيل ابن يومين يعرف أبوه؟

ـ اللي تحت الأرض خبطوه، كان يا ضنايا مطرح الكف في ضهره بالخمس صوابع معلمين.

ـ وعنيه مفنجلة وصاحية.

ـ ربنا ح يعوض عليك.

فكرك؟

ـ شد حيلك ولا تزهقش روحك بس.

ـ أما نشوف أخرتها.

يقول ويزفر، يستغفر في حرارة ويغمغم في قوة، وربما أصحو على صوته ينهج في استسلام وتراخ، يسألها في همس إن كانت غطيتنا جيدا فتطالبه بألا ينشغل بأمرنا، أسمعها تواسيه ويواسيها ويحلمان معا بولد آخر يجيء، أسمع ضحكاتها الخافتة التي تتوارى وتتخفى ووصاياه لها بالحرص والسكون، ربما أصحو على صوته المسموع:

ـ العيال رقدت من غير عشا.

فأشعر بها تنزل عن السرير، تتحسس بقدميها أرضية القاعة حتى لا تدوس إحدانا، تعالج المصباح فيبعث ضوءه من خلال فتحات الحرام القديم، تخرج هي وتسمع نحنحاته

ونداءاته المتكررة علينا بالاسم، نتناوم إلا عطيات التي تقوم، تصعد إلى السرير فيضاحكها ويأمرها بأن توقظنا:

ــ دي ليلة مفترجة يا عيال.. قوموا سخنوا الأكل.

تقوم نعمات، تلملم خصلات شعرها الناعم وتربطه بالمنديل وتزغد جواهر التي تقوم مفزوعة تدعك عينيها وترجوها أن تتركها لتنام، لكنها في كل الحالات تقوم، تخرج الواحدة في أثر أختها، وقد تدخل أمي على القاعة وقد تلف نفسها بالحرام طلبا للدفء الذي خلفناه، وفي صحن الدار كانت البنات يتبادلن الأحاديث حول نفس الموضوع:

ــ طيب كان اسمه إيه الولد ده؟

ــ يا بت دا مات قبل السبوع بيومين ما كانوش سموه.

ــ طيب اندفن فين؟

ــ اندفن مطرح ما اندفن.

ــ اغرفي يا ختي وبطلي قلة أدب.

تنفلت الضحكات منا غصبا وقد يسمعان، ربما يستفسر هو أو هي عن الأسباب دون اعتراض وربما يتضاحكان ومن جديد تنحط الطبلية في وسط القاعة ومن فوقها الأطباق، تعدل له المسند ويجلس وسطنا، يلاعبنا ويسلينا ويحدثنا عن فرحته بخلفتنا، يقسم علينا لحم الطيور ويناولها نصيبا، تأخذ منه ما يكفيها وتضع الباقي فوق نصيبه فلا يعترض، يأكل بشهية فتنفتح نفوسنا ونأكل وهو يحكي وتسايره:

ــ المرسي جاني قبل المغرب بساعة، قعد على باب الدكان ما تعرفيش كان طمعان ف إيه؟

ــ هو الراجل ده ما بيشبعش؟

ــ ما سألتش فيه، سرح بعيد ورجع، وقف قصادي قال اللي قلت لك عليه.

ــ ينقطع لسانه.

ــ كان عامل أنه بيضحك وهو قاصد يقهرني.

ــ ينقهر على أغلى ما عنده.

ــ قال مين ح يرضى ياخد واحدة من بناتي قال.. ومن يطول؟ وإيه يعني ما لهمش أخ يترد عليه؟

ــ حس أبوهم في الدنيا.

ــ أنا قلت له اخرس يا خنزير، سمعها وما ردش.

ــ بناتك ألف مين يتمناهم.

ــ داني عندي الوحدة منهم بألف راجل.

يقولها ويضحك منتشيا، يتأملنا الواحدة تلو الأخرى بنظرات مباهية وراضية وربما حالمة بخلفة جديدة من الأولاد، ربما ينسى أو يتناسى أشواقه للولد، وربما تتزايد الأشواق، لكن الصحو يزداد في العيون ويمتد الوقت بنا وتتشعب الحكايات بعيدا، بعيدا عن تلك البدايات الحزينة، نشعر بالفرح يغزونا في نعومة، وربما نسمع أذان الفجر من زاوية أولاد عوف، وربما لا نسمع ونفاجأ بشروق النهار.

ـ ما حدش بيموت ناقص عمر يا سعاد.

قلتها للبنت رغبة في تخفيف حزنها على سيد فأطلت ناحيتي بغضب، قامت من قعدتها، علها خافت أن تلومني على قدرتي على الاحتمال، لو دخلت هي قلبي لعرفت إلى أي حد اكتويت بناره، هو قطعة مني، حملته في بطني وشفت فيه المرار قبل مولده وبعده، عجزت عن إرضاعه أو رعايته، حرموني منه قبل الأوان بألف أوان، سلمت أمري لله ولهم وظل طيفه طوال العمر يشاغلني من بعيد، كنت أتذكره في كل وجبة وأسال نفسي إن كان شبعانا أو أنه جائع، كنت أراه في وجوه من رافقوه زمن الميلاد وأكتم لهفتي عليه وأحرم لساني من مجرد ذكر اسمه، أقول لنفسي ما قيمة الحديث عنه وقد كنت في كل مرة أرى نظرات الاستنكار والملامة، في أول الأمر كنت عندما أفكر فيه أو أشتاق إليه أبوح بالوجع فيتحدثون طويلا عن حكايتي مع حسن، أشعر بالغيظ لأنه من الصعب علي أن أنساه أو أن أصدق ما يقال أنه لا بد سوف يكون مثل أبيه، وبمرور الأيام عودت نفسي أن أكتم أشواقي لرؤيته، أن أكف عن مجرد السؤال عن أحواله، كان جرحي الغويط مدفونا في أحشائي، أناجي نفسي وأتخيله، ابتسم إن سمعت عنه كلمة ولا أظهر لهفتي عليه أمامهم لكنه كان ولدي. لحمي ودمي وجرح عمري.

ـ مش مصدقة نفسي.

قالتها سعاد وهي تقترب، في عينيها سؤال تخجل أن تواجهني به، استبعدت أن تكون عاجزة عن فهم مشاعري وهي بنت المدارس التي تعلمت والتي كنت في الأيام الأخيرة أبثها أسراري وأشركها في همي، همي القديم الذي تجدد وتجسد في ميت أكدوا أنه لا يخصنا في شيء، حتى أقرب الناس لم يكلفوا خاطرهم لتعزيتي فيه بأكثر من الكلام العابر، كان العزاء هناك في الناحية الأخرى، في دار عبد القادر القديمة، وكان حسن نفسه يطوف دروب الكفر كما يقولون ذاهلا عن نفسه يتمتم بحروف اسمه بعلو حسه، يناديه ويجردني من حقي في مشاركته الصراخ أو الإعلان عن فجيعتي فيه، كانت النظرات التي تنصب علي وهم يذكرون كيفية فقدانه لعقله بعد موت سيد تميتني، تكويني بنار أشد قسوة من مجرد طلقة غادرة أصابت دماغ شاب جاء يزور أمه بعد أن زال همه بعيدا عنها وما نساها أو نسيته، على الوجه المغدور بسمة، والملامح السمراء حازمة تتطلع بأمل في مستقبل يطمئن إلى إمكانية تحقيقه،

هل كنت قد قرأت في آخر زيارة له حزنه على شبابه الضائع قبل الأوان بــلا ثمــن؟ وهــل حدثتك يا سيد عن خوفي عليك من ناس الكفر مرة، وهل ركبني كابوس رأيتــك فيــه تســقط بضربة غادرة؟ ليتني أكون قد بحت لك بهواجس عذبتني، وليتني أستطيع الآن أن أبوح لسعاد بضعفي وعجزي ووجعي الذي يتخفى ويتوارى، يداريني خلــف عبــارات عــن النصــيب والأعمار والمقسوم لنا، مجرد كلام موزون أكذب به عليهم ولا أصدقه وأســمع مــنهم فــي المقابل تلك الصفة الزائفة بمناسبة وبدون مناسبة:

ـ عاقلة.

ليتني أملك الحق في جنون مثل جنونه، فها هو يأخذه مني ميتا كما أخذه في الســابق طفلا حيا يتلوى من قسوة الانتزاع وأنت الآن حر في أن تعلن للكل أنه ابنك وحــدك. ســاكن المدافن الحي باختياره يكسب وأنا أخسر، ولا قيمة إذا أعلنت حزني أو دخلت معــه الســباق الخاسر، ومن يصدقني إن فعلت ووصفت له قسوة النار التي تسكنني ولا أمل فــي انطفائهــا بآلاف الصرخات، حتى لو تحول ما تبقى من العمر إلى زعقة وحيدة محدودة أندب فيهــا أول خلفتي وأول فرحتي، أول من حملته في بطني وأول من أحياني بعد موات لحظة أن ســمعت صرخة مولده في القاعة، ولمن أحكي يا سعاد إن لم تسمعيني وتغفري لي ذنبي إن كان طول احتمال فراقه ذنبا أستحق عليه الغفران، وإن لم تفهميني أنت وأنت امتدادي فمن يفهمني مــن الغرباء؟.

وكان جدنا هارون ابن الحاج هارون شلبي يجمع أولاده وأولاد أولاده في صحن داره البراح التي بناها على السكة الزراعية خارج زمام المباني في مكان زريبة جعفر البياع تلــك التي اشتراها منه مع الفدانين، يجمعهم بليل في الأمسيات المقمرة الساكتة ويحدثهم عن جــدنا الملك الشلبي:

ـ كان جدكم الملك الشلبي فارس فرسان قبل زمان دياب وأبو زيد الهلالــي ســلامة بألفين سنة وأكثر، حكم الدنيا المسكونة في زمانه ميتين سنة وخمسة، اتجــوز حــريم كتيــر وخلف عيال كتير، وخلفته اكترها كان صبيان، كانت الجارية من عبيده اللــي تخلــف ولــد يعتقها، يديها بلد تحكمها باسم الولد لحين ما يكبر ويصير علها ملك، واللي كانت تخلف بنــت تفضل معاه في الحريم لحد ما يجيلها يوم تولد ولد، حريم كثير كانت على ذمته وما خلفــوش صبيان، جوزهم للعبيد، عبيده كانت كتير يسدوا عين الشمس، لكن العبيد ما لهاش أمان، زيهم زي الجواري اللي بلا خلفة، ويوم ما مات الملك الشلبي هاج العبيد والجواري حريم العبيــد، حاربوا الملوك اليتامى والحريم الأرامل، خربوا بلاد عمرانة ونشروا الفســاد فــي الأرض، حكموا بلاد وفاتوا للملوك بلاد، وطلعوا بالكدب ع الملك الشلبي كلام ما لوش أساس وصدقوه الناس، قالوا على سيدهم وولي نعمتهم عبد مجلوب زيهم وما لوش وطن ولا أصــل، وقــالوا

عنه راعي غنم والزمان عطاه، وقالوا قاطع طريق وحرامي، وقالوا وقالوا وتاهت الحكايات وطالت الحرب بين الملوك من سلسال الملك الشلبي والعبيد. كسبت العبيد بلاد وكسبت الملوك بلاد، خطف العبيد مماليك من نسل الملوك وباعوهم في سوق العبيد، خلق منهم هربت في بلاد الدنيا الواسعة، لكنهم حافضين حكاية جدنا الملك الشلبي. وفين ما تروح في بلاد الدنيا الواسعة تلاقي فرع باقي من سلسال الملك الشلبي، حتى لو غيروا أسامهيم خوفا من ظلم العبيد ح تعرفهم، وشوشهم تشبه وشوشنا كدة، وعيونهم تشبه عينين فطوم، مكان ما تروح ح تلاقيهم، تعرفهم ويعرفوك، بينك وبينهم شبه وكلام قديم محفوظ ودم يحن".

كان يراني فيقوم من فوق كرسيه المرتفع، يقترب مني ويحملني بقبضتيه إلى صدره، يحضنني بحنو يربت على ظهري، يبتسم لي في ود ومحبة وربما يجلسني فوق ركبتيه فأتطلع إلى الخضرة في عينيه، وقبل أن يعيدني إلى أبي يدس في كفي قطعة من قمع سكر أو قالب مستطيل ناعم الملمس، كنت أحتفظ بتلك القوالب أو قطع السكر حتى تنتهي السهرة ويكف هو عن الحكى عما كان، وكان أبي ينتبه لذلك دائما في مشوار عودتنا فيطلب مني الإسراع بأكل قطعة السكر، كنت أقطع حوافها بأطراف أسناني قطعة صغيرة في أثر قطعة، أستطعم حلاوتها على مهل دون رغبة في الخلاص منها على عكس إرادة أبي الذي يكون راغبا في إنهائها في أسرع وقت، كان يزغدني برفق ويتعجلني:

ـــ يا بت ابلعيها بقى، السكر ما هو مرمي في البيت وفي الدكان.

وعلى غير إرادة مني كنت أستجيب وأطحن قطعة السكر بين أسناني طحنا هينا، أتسمع برطماته بعد " القرقشة " على عادته في كل مرة وهو يتهم الجد هارون بالشطارة في الكلام الفارغ الذي لا ينفع ولا يشفع، كنت لا أرتاح إلى تلك الجسارة في التطاول على الرجل الطيب ولا أعرف كيف أدافع عنه، وكنت في كل مرة أرغب في سؤاله كيف استطاع أن يكره ذلك الوجه الصبوح الباسم ذا العينين الخضراوين بزرقة واللتين تشبهان إلى حد كبير عيني عمتي فطوم.

ـــ اللي زيه ما وراهش حاجة يخاف عليها، إنما إحنا متعلقين من عرقوبنا.

كان يحدثني عن رأسماله الذي يتوزع في ذمم خلق الله، وعن ديونه لناس غيرهم وكيف أن التاجر الناصح لا يحق له أن يعادي أحدا، حتى خصومه لا يجوز له أن يعاديهم علنا، يسايرهم ويكسب منهم ويبش في وجههم، كنت لا أشغل نفسي كثيرا بكلامه ونحن نقطع الطريق في ضوء القمر ناحية الدار، وكانت كلمات الجد هارون تطن في أذني ويتردد صداها، أستعيدها وأرغب في ترديدها لنفسي، لكن صوت أبي كان يعلو كلما ابتعدنا عن دار الجد أكثر حتى ليوشك صوته أن يكون صراخا في فراغ الحقول:

ـ مش ح يهمد غير لما يشعلل في الكفر نار.. الخوف يسقط مننا نفر ولا نفـرين، دا عايزنا ننطح دماغنا في الحيط يا شوق.

كان يسرع خطوه المتمهل ويعلو صوته أكثر فأسرع في أعقابه حتى يبللنـي العـرق وأستعيد وجه الجد هارون الذي كنت أحبه أكثر من أي واحد مـن أولاد شـلبي حتـى تلـك الظهيرة التي جرسوا فيها جعفر البياع ورحت أتفرج وسط الأولاد والبنات.

كان جعفر يركب الحمار بالمقلوب، وجهه ملطخ بالدقيق "العلامة" وعلى الرأس قرص من روث البهائم الجاف وقد ربطوه إلى أسفل الذقن بخرقة بالية، كنت أردد معهم مـا كـان يحدي به حسنين المدندش والطبلة تحت إبطه تجلجل مع صوته، يحدو ونرد عليه:

جعفر باع غيطه	يا عيب الشوم
واتهدم حيطه	يا عيب الشوم
جعفر باع داره	يا عيب الشوم
ونقص مقداره	يا عيب الشوم
ولا عادش يساوي	يا عيب الشوم
ديل جحش حصاوي	يا عيب الشوم

وجدته واقفا، كأنه جني طالع في عز الظهر، عيناه الخضراوان بزرقة لا تحملان ودا والوجه عابس، ولأول مرة في حياتي خفت منه، ذابت من ذاكرتي حلاوة كل قطع السكر التي كان يمنحني إياها، فكرت في الفرار منه لكنه أمسكني من معصمي بقسوة وجرجرنـي بعيـدا عن الأولاد بشدة دون أن ينطق، تباعدت زفة حسنين المدندش وحزنت لحرماني من الفرجـة على جرسة جعفر البياع، جرجرني بعنف لم أجربه قبلا ولم أتوقعه منه أبدا حتى وصل بـي إلى بنايات " الواطية " ثم دفعني دفعا لأدخل من باب دارنا الموارب، كنت أبكي بحرقة مـن أثر مسكته لمعصمي، وكان أبي يجلس على جذع النخلة المركون في صحن الدار، كان يطـل إلينا ولا يعترض، بل إن الجد هارون راح يوبخ أبي ويسبه ولا يرد، يطل فقط، ولا بـد أنـه كان يسمع أيضا ويوافق على ما كان يقوله الجد بأن تجريس جعفر البياع فضيحة لكـل أولاد شلبي فالرجل لم يقتل أو يسرق أو يخرج من دين محمد، ولأن أولاد عوف يقصدونه شخصيا بهذه الجرسة فسوف يدعو أولاده وأولاد أولاده لتخليص جعفر من هؤلاء الظلمة مـن أهـل العمدة ومن يتصدرون لحماية العمدة:

ـ لهم حق يتفرعنوا عليكم، مش لاقيين حد يردهم.

كان أبي على حاله، يسمع ولا يرد على الجد هارون:

ـ واحد وباع أرضه وداره، لهم في كده إيه هما عايزين يسيروا الدنيا على هواهم؟

كانت يده المرتعشة قد انفكت عن معصمي فأسرعت أمي لتسحبني في المكان وكأنها تهربني من عقاب لا بد يحل بي إذا بقيت في المكان، غسلت وجهي وجبهتي وأنفي ورطبت أطرافي بماء الزير البارد وأمرتني بالشرب لترطيب جوفي أيضا ففعلت، أخذتني إلى القاعة وراحت تسرح شعري، كنت أسمع صوت الجد هارون وهو يحذر أبي من أن أعاود مشاركة الأولاد في جرسه جعفر البياع:

ــ إن شفتها بترمح ورا حسنين المدندش يا عبد الستار ح يكون بحش أجلها.

قالها ولم أسمع عليه ردا، وساد صمت ثم ارتطم باب الدار الكبير، لا بد بيد الجد هارون وهو خارج منها، كنت أتسمع صوت حسنين المدندش وقد وصل إلى درب المغربي يحدو:

أهي خيبة وحطت	يا عيب الشوم
ناس عالية ووطيت	يا عيب الشوم
ناس واطية وعليت	يا عيب الشوم
ناس خالية وملكت	يا عيب الشوم
ناس مالكة وخليت	يا عيب الشوم

وفي الليل حدثتني نعمات عن خروج جعفر البياع من الكفر بعد أن ربطه العمدة في النخلة أمام دواره وضربه بالكرباج، وأن العمدة طلب عبد القادر في دواره لتدبير عراك مع أولاد الجد هارون وأن أبي خائف على تجارته إذا تجدد العراك وأن البلد مقلوبة وأن الجد هارون كتب في العمدة بلاغا، شعرت بالخوف وخفت غضبتي من الجد هارون وتمنيت لو كنا أولادا وشاركناهم في العراك، ضحكت مني نعمات وأخذتني في حضنها ونمنا لنصحو على أصوات الرجال في المندرة يطالبون أبي بالدفع أكثر ما دام لن يشارك في العراك وأبي يطلب من الجد هارون الرحمة والعدل والبعد عن الشر:

ــ ولا كان له لزمة ده كله يا با هارون، هو أنت عامل نفسك مغسل وضامن جنة لجعفر كمان؟

فيرد عليه الجد هارون بصوته الغليظ آمرا بحسم.

ــ إن ما كانش ح يبقى لنا عزوه في الكفر ده وهيبه تبقى أنت أول الخسرانين، رسمالك وشرف بناتك، ح تدفع يا عبد الستار ولا مالناش دعوة بيك من بعد النهاردة؟

كان يتحرك في أركان المندرة مثل فأر دخل مصيدة فلا هو قادر على الخروج منها ولا مطمئن للبقاء فيها، توجه ناحية دولاب الحائط، فتحه وهو محاصر بنظراتهم، أخرج أوراقا حمراء، عد منها لا أدري كم وناولها للجد هارون، لا أذكر ما قاله وهو خارج ومن خلفه رجال العائلة لكن الذي رأيته هو جلوس أبي على طرف الكنبة مطرقا برأسه حزينا

بحق، لم يلتفت إلينا ونحن إلى جواره أنا وعطيات إلا بعد فترة طالت، لحظتها اجتذبنا إليه في حنو وحدث نفسه:

ــ لو ما كنتوش بنات.

شعرت على نحو غامض أننا سبب انهزامه وخسارته وأن لولانا ما أطاع أمر انكسر.

قلت له يا سيد أولاد عوف كانوا زمان، أولاد عوف راحت أيامهم، أنت تنفخ في قربة مقطوعة، قلت له كن في حالك يا سيد، مالك أنت بأولاد عوف؟ بماذا أفادوك لتزرع روحك فيهم وقد عشت وحيدا ومقطوعا وما سعى أحدهم للاقتراب منك لتطمئن أن لك في الدنيا أهل وناس، أعرف ما كان بينك وبينهم، وأنا لا أقلب بكلامي مواجعك القديمة، أنت لا تعرف ما جرى منهم في الزمن القديم، كل ما تعرفه هو تلك الحكايات التي لا بد أنه حكاها لك على امتداد العمر، لكنها ليست كل الحقيقة، بينها وبين الحقيقة مسافات ومسافات بطول المسافة بين الكفر وتلك البلاد البعيدة التي عاش فيها وبطول السنوات التي غاب فيها عن الكفر وناسه، يعرف حقيقة الكفر من عاش فيه يا سيد، ويعرف أولاد عوف من تعامل معهم أكثر، لقد عاركناهم وصالحناهم، بعنا لهم واشترينا منهم. دخلنا بيوتهم ودخلوا بيوتنا، عرفنا طباعهم وحفظناهم في عقولنا. وإذا كان هو أول من جرؤ "وناسب" أهلي وفشل، فقد تكرر الأمر من بعده صاهرناهم وصاهرونا، وطلع نسل جديد تجري في عروقه دماء الشلبي والعوف، وإذا شئت أحكي لك عنهم لتعرفهم أكثر، ولكن الخلاصة هي أن في البعد عنهم غنيمة، والبعد عن مشاكلهم التي لا تنتهي وإن تزايدت راحة البال، دبر وقتك وعقلك وشوف مصالحك، ما لك أنت يا سيد بمندرتهم الكبيرة التي خربت؟ ما لك بدوارهم المهجور؟ وهل تصدق ما يقال من أن لهم في الناحية ميراثا موقوفا ينفك بأوراق مزعومة فشلوا في العثور عليها طوال تلك السنوات وكأنما أخفاها عنهم جن في سابع أرض؟ وهل تخصك مدافنهم في شيء يا سيد؟ حتى لو أفلحت في تجميعهم حولك وقاموا بتجديد الدوار وترميم المدافن والمندرة فلن ينتهي المشوار لأنهم لن يستعيدوا ما أخذته منهم الأيام في غفلة من كبارهم قبل صغارهم، أنت لا تعرف يا سيد أنهم لو لجأوا إليك لتحل نزاعا بين نفرين منهم فإنك لن تستطيع أن تحل أو تربط ليس لأنك سوف تعجز وإنما لأنك بالنسبة لهم أفندي غريب برغم الاسم المشترك، وقد تعجب من كلامي لكنك سوف تتأكد، أنت في نهاية الأمر ابن حسن الذي خرج من الكفر ودار في البلاد البعيدة، وكم تندروا على غربته في مجالسهم، قالوا إنه باع الأرض والكفر والابن والدار فباعته الأرض ولفظته الدار ونساه الابن وكل أهل الكفر، صدقني يا سيد أنت محسوب على حسن على عكس صالح، صالح منهم لأنه عاش بينهم، شافوه طفلا وصبيا ينمو واطمأنوا له برغم خلافاته التي لا تنتهي معهم وفي الكفر يقولون اللي تعرفه أحسن من اللي ما تعرفوش، يا سيد "وأنا بكلامي لا أمنعك عنهم فهم أهلك، لا أطلب منك أن تقاطعهم أو أن

تبتعد عنهم تماما لأنهم دمك واسمك وأصلك، كل ما أوصيك به أن تدخل بينهم ولا تحلم بــأن تكون في مقدمتهم، ولأنك ابني على القرب والبعد أتمنى لك أن تكون فــوق الكــل، ســيدهم وآمرهم الذي يطاع، لكن الناس هنا لا تسلم قيادها لأي وافد حتى وإن بدا لهم أنه أبرع مــنهم وأكفأ، وأنت بحساباتهم وافد جديد، يقابلونه بالترحاب والأشواق ويكتمون الحــذر والتــوجس، والأمر في أوله وآخره يخوف، العين في الكفر تنحط على من يتصدر، وأنت لا تعرف معنى أن تنحط العين على بني آدم في كفر عسكر، نشف ريقي، وشعرت بمرارة الحلق من كثــرة الكلام وهو ساكت يتسمع كأنني كنت أؤذن في مالطة:

ــ عارف كل ده.

ــ وسايبني أهاتي يا سيد؟ الغرض، ما دام عارف يبقى ما تغوطش في بحورهم اللي ما لهاش قرار، دول ناس لهم عدوين كتار في الكفر وفي كل الناحية.

ــ ولا يهمك.

قالها باستهانة فقلت لنفسي إن العرق يمد لسابع جد، وإن دماغه لا يختلف كثيرا عــن أدمغتهم رغم المدارس والشهادات التي لم يتعلم منها كيف يكون واعيا لنفسه وعــي الفــلاح الناصح الذي يحسب لكل خطوة يخطوها ألف حساب، لم يرث عنهم غير عــرق الاســتهانة الدساس، ليته كان مثل صالح الذي يحتاط لنفسه أيام المخاطر وهو يمشي في دروب الكفر، أو في سكة البندر، الخلق في المدن لهم عقول غير عقول الخلق في كفرنا، لو عاش هنــا لــرأى الفئوس وهي تغدر والعصي وهي تضرب في عز الظهر الأحمر لأتفه الأسباب، لو عاش هنا لعمل حسابا للمتربصين في الزراعات يطلقون الأعيرة تخويفا وإرهابا وأحيانا فــي المليــان تصفية لحسابات قديمة من عمر الأجداد، ماذا أملك إلا أن أوعيه وأحذره؟ أصبر عليه وأفهمه ما لم يفهمه:

ــ صالح ما قالكش ع اللي طلعوا له متلتمين في نقحة القيالة؟

ــ قال.

ــ ما سمعتش على جدار مصطفى عوف اللي نقبوه وخدوا منه البهــائم ولا حــدش طالهم؟

ــ سمعت.

ــ وابن السعيد عوف اللي انخطف وانقتل واندفن في أرض السعيد عوف نفسه؟

ــ وإيه تاني؟

ــ السعيد عوف ده ما كانش منهم، كافي خيره شره ولا عليه تار لحد ولا حد معاديه.

هز رأسه وبدا لي وكأنه لم ينشغل مجرد انشغال في التفكير في دلالة تلك الحكايـات، فكرت أنني خلصت من ذنبه لكنني كنت ما زلت أخاف عليه من مخاطر الكفر والناس وأولاد عوف، ومن جديد قلت أحاول معه:

ـــ مش عاجبك الكلام يا سيد؟ أنا قلبي عليك.

ـــ يعني عايزاني أخاف؟ أنا بقى ما بخافش.

ـــ المثل بيقول من خاف سلم.

ـــ كلام فارغ.

ـــ كلام فارغ يا سيد، صحيح العرق دساس، دا أنت زيك زيه بقى، غشيم زيه وبتنطح راسك في الحيط.

قلتها فبان في عينيه الشر فجأة، كشر عن وجهه وتغيرت الملامح، من داخلي خفـت، نسيت أن الواقف أمامي وقد احتقن وجهه وارتعشت شفتاه هو طفلي القديم الذي حسبت أنني استعدته شابا سمح الملامح، كان يشبه الآخر ساعة الغضب لكنني تماسكت وقلت بغير اهتمام:

ـــ ما تضرب لك قلمين.

هاج أكثر وتحرك في دائرة ضيقة حول نفسه بلا هدف، شبك أصابع يديه بعنف وفكها بعنف واستدار مبتعدا عني في غل مكتوم، تابعت قدميه القلقتين المرتبكتين المترددتين بين الرغبة في الخروج من باب الدار الموارب والبقاء فيها ليصفي حسابه معي، قلت أغيظه أكثر:

ـــ هربت يا بن حسن؟

استدار في عنف وواجهني، كانت العينان الملتهبتان تلمعان بشراسة وحش من وحوش البراري سقط في فخ، سألت نفسي إن كان من الممكن أن ينسى وهو في لحظة اندفاعه أنني أمه التي حملته في بطنها فيغلط معي بالقول أو بالفعل، خفت إن هو فعل أن يضحك عليه الخلق في طول الكفر وعرضه لو سمعوا أنه وهو الأفندي المتعلم لم يراع الأصول ولا شرع الرب في أمه، ساعتها تكتمل خسارتي له ويخسر نفسه، كان يصب علي نظرة الغضب وكان يغيظني أنها دفاع عن حسن، كأنهما رجلان في مواجهة امرأة.. لكن التردد غلبه وخفت حدة التحفز، لعله عاد إلى عقله فصعب علي حاله، ابتسمت له ثم ضحكت بصوت مسموع فتلفت حول نفسه باحثا عن أسباب ضحكي، وعندما لم يكتشف شيئا غريبا تحول الأمر إلى مجرد دهشة، قلت وكأنني " أدادي " طفلا عنيدا بحنان الأم:

ـــ اقعد يا سيد، واقف كدة ليه؟

حيره أني أتحدث إليه بود وتسامح، ولعله نسى استفزازي له واستعد للتصافي فكررت بنفس الصوت:

ـــ واقف لي زي خيال المآتة كدة ليه؟ هو حصل إيه لده كله.

تراجع خطوتين وجلس على الدكة، زفر ثم تنهد، نظر ناحيتي وأوشك أن يسألني أو يعاتبني ثم تراجع، شعرت بالفرحة به والانتصار عليه فقلت بثقة:

ـــ وافرض لساني غلط، تعمل رأسك برأسي؟

ـــ لا.. بس أنتي..

ـــ محموق عشان أبوك؟ وماله، فيك الخير، هو اللي رباك، بس أنت عصبي قوي..

بدا لي أنه حبس في العينين دمعتين وتساقطت برغم إرادتي من عيني دموع، لعلني كدت أعتذر لكنني تماسكت، قلت أغير الموضوع وأنا أجفف دموعي براحتي وأحدثه عن ذلك الزمن البعيد ونوادره فبدأ يجاريني ويضحك، لعله أراد أن يثبت لي أنه قادر على السيطرة على نفسه، ولعلني أردت أن اطمئن نفسي بأنني فهمته أكثر وتأكدت أنه يستطيع في كل الحالات وبرغم كل شيء أن يرعى شرع الرب وخلقه في أمه رغم طول عمر الابتعاد.

طالت أيام العراك مع أولاد عوف، ولولا البارودة التي جلبها الجد هارون من أرض البراري ما تمكنا من تخويفهم، كانوا كثارا وشماريخهم لا تميز، تطيش في كل اتجاه وتدمي، تجمعوا حول " فضالي " وأولاده وما تركوهم إلا بين مكسور ومبطوح، كادوا أن يقتلوا البكري لولا أنه رمح واختفى منهم في زراعات الذرة هاجموا دار الجد هارون بالشماريخ والنبابيت وما أخافهم إلا رصاصة انطلقت نحو صدر "الحسنين" سقط بفعلها وحملوه، في صباح اليوم التالي عادوا مرة أخرى فانطلقت رصاصة أخرى وأصابت رأس السعيد بن الحسين، وكان أبي ينقل لنا الأخبار وهو ساخط على الجد هارون وأفعاله التي أوقفت حال تجارته، وكان ينبه علينا بعدم الخروج من الدار، طمأننا أنه ذهب إلى الكبار من أولاد عوف وأخذ منهم الأمان لنا لأنه كما قال ضد العراك وليست له فيه مصلحة، نزلت إلى دروب الكفر عساكر الهجانة السود راكبين الجمال، نصبوا خيمة أمام دوار العمدة الذي عزلوه وعينوا بدلا منه " صول " من المركز، الوحيد الذي لم يكف عن تكسير الأوامر بالرقاد بعد المغرب وعدم الطلوع كان عبد القادر، يقفز من فوق سطوح الدور ويصل إلى الدرب، يحرق أو ينزل ويتعارك بمعاونة أولاده وأولاد أخوته، تربص له الصول وعساكر الهجانة وما طالوه، أقسم الصول وهو يفت شاربه أن يمسكه ويرميه في الحبس مع أشقياء الناحية حتى لو نزل سابع أرض، لكنه لم يستطع، ورغم زيادة القوة وكثرة الوعود، فقدنا رجلين وفقدوا واحدا في أول يوم، لكن العدد زاد حتى في وجود الهجانة، وصل العدد عندنا إلى خمسة مقابل ثلاثة منهم بالإضافة إلى اثنين بين الموت والحياة، تعادلت الكفة أو كادت بحسب ما قاله أبي: ذلك الذي دخل علينا ذات مساء وهو فرحان وراح يحدثنا:

ــ أنا عملت اللي أقدر عليه، جريت على أكابر الناحية وطلبت منهم يشوفوا لهم حــل وما خيبوش رجايا وح يعملوا صلح، دا خراب بيوت ودم رايح بلاش، هارون عاوز يولع في الكفر نار، الصلح بكره في دوار الباشا نفسه.

في الصباح صحا مبكرا ولبس جلبابه الكشمير وتلفح بالعباءة، طلب منا أن ندعو لــه بالتوفيق ففعلنا، شعرنا بالزهو لأنه برغم كل شيء يستطيع أن يسير الأمور بحسب إرادتــه، وفي ظهيرة نفس اليوم عاد متهلل الأسارير ومن خلفه رجال العائلة الكبار، مرسي وسالم بــك والجد هارون وكان بينهم العم مرزوق وآخرون، جلسوا في المندرة وعرفنا أن الصــلح تــم ورددنا عبارته بأن الصلح خير، في عصر نفس اليوم زارنا بعض الغرباء، خرجوا ثم عــادوا ومعهم رجال من أولاد عوف، وهدأ الحال ورحل عساكر الهجانة والصول الذي لم يستطع أن ينفذ يمينه بأخذ عبد القادر، لكننا كنا في فرحة، زادت فرحتنا عندما عرفنا أن العــم مــرزوق سوف يبقى في الكفر بعد سنوات عاشها في أرض البراري مع البك سالم، جاءت العمة فطوم وحدثتنا عن زواج العم مرزوق:

ــ وخلي الفرحة فرحتين، اتغرب كثير ونسي روحه هناك جوازته الأولانية ما جابتش عيال.. ح ناخد له بنت المرسي، صغيرة وحلوة وبكرة تملأ داره عيال..

عملنا له فرح بلا طبل ولا زمر وراعينا المجروحين في أولادهم. ويوم دخوله رقصنا بدل الغوازي وقلنا أن الفرح في القلب وفرحة العروسين ببعضهم أهم من كل شــيء، ليلتهــا شفنا عبد القادر وسط دار العمة فتذكرنا كلام الصول، لكنه هنأ العم مرزوق وتواعد معه على لقاء وترك المكان، وبعد أسبوع خرج العم ليقضي حاجة من السوق راكبا حماره، وعندما عاد رأيناه داخلا من ناحية البوابة في اتجاه الدرب، جرينا نحوه وناديناه، كان يضع ســلة كبيــرة أمامه على ظهر الحمار، وكان عبد القادر جالسا على المصطبة فرمى عليه السلام لكنــه لــم يرد:

ــ انزل يا مرزوق.

قالها عبد القادر وهو يمسك مقود الحمار فاستجاب مكرها ونزل عن حماره وأخــذنا منه السلة ووقفنا ننتظر، كان عبد القادر عاري الرأس على غير عادته، ســأله عــن أخبــار الزواج فتردد ولم يجاوب، سأله عن حلاوة بنت المرسي فطلب منه أن يحتشم، كــان مفلــوت اللسان لا يربطه رابط، تحسس كم جلبابه وسأله.

ــ الجلابية دي حلوة عليك، قماشها منين؟

ــ م البندر يا عبد القادر، أنت فايق؟

ــ آه.. مين اللي مفصلها لك يا مرزوق؟

ــ الغباشي.

ــ وهو كل من لبس جلابية جديدة يعدي ع البوابة راكب يا مرزوق؟

ــ مش كنت ترد السلام الأول يا عبد القادر.. والكبار اتصالحوا خلاص..

ــ واحنا كمان كبرنا ع العركة، والشمروخ هناك أهه، مركون على جدار الحاج مصطفى، ,أنا عايز أباركلك ع الجواز وألعب وياك لعبه، ما فيها ضرب ولا خبط زي زمان.

ــ ما حدش فاضي يا عبد القادر، خليني أروح.

ــ دانت كنت شاطر في التحطيب زمان.

ــ زمان بقى..

كنا نراهما وقد أحاط بهما خلق كثار، طالت وقفتهما معا وتضاحكا وأضحكا الناس حتى زال كل القلق من احتمال عراك يقوم بينهما، همس رجل من دربنا أن عبد القادر فرحان بروحه وأنه يسلي نفسه بالجلوس على مصاطب البوابة، يفرح بنزول الناس من فوق الركائب كلما شافوه وقالت امرأة "إنهم صنف أهبل" ودمهم ثقيل وجلجلت عند زحمة البوابة ضحكة ممدودة وصفق رجال:

ــ مرزوق يا رجاله مولود معايا يوم بيوم، الوحيد اللي كنت باعمل له حساب في لعبة التحطيب، لكن بعد رجوعه من البراري ما اتقابلناش غير ليلة دخلته، رحت أبارك له.

بذلك كان يتحدث عبد القادر وكأنه " حاوي " يدور حول نفسه وحول العم مرزوق الذي زال خوفه واندمج مشاركا في السماع والتعليق ثم عقب موافقا لينتهي الأمر:

ــ ما شي يا عبد القادر.. نجرب لعبتك دي..

ــ إن اتزحزح من مطرحه ما يعديش البوابة راكب أبدا، وإن ثبت مكانه يعدي راكب قصاد أتخن تخين في الكفر..

هللوا لعبد القادر ووقف العم مرزوق مكانه في وضع استعداد، رفع عبد القادر كفه اليمنى إلى فوق ليراها كل الناس وقد خلت من أي شيء مجرد أصابع مفرودة على استقامتها ومتقاربة دون فراغات بين إصبع وآخر، نزلت أنا إلى أسفل وتمكنت من النفاذ إلى قلب السامر لأعرف تلك اللعبة الجديدة، رأيت عيني العم مرزوق تتابعان حركة الكف المفرود وعلى وجهه ابتسامة صلح لكل الناس، يثبت قدميه في الأرض واحدة إلى الأمام والأخرى إلى الخلف، وعندما طالت أطراف أصابع عبد القادر فم معدة العم مرزوق لم يهتز مجرد اهتزاز، صفقنا له بحرارة وتلفت عبد القادر حول نفسه وأنزل كفه، انزاح عن طريق العم مرزوق وحياه بحماس.

ــ عفارم عليك يا مرزوق لا راجل يا وله، تبقى أنت كده كسبت الرهان، تعدي راكب حمارك في أي وقت ما تنزلش من عليه، واشهدوا يا أهل الكفر ع الكلام ده.

وضحك الناس ربما حسبوه قد أصيب بطوفة في عقله مفاجئة وهو يمد يده ليفك حمار مرزوق المربوط في حديد شباك التهامي ويحمل سبت مرزوق ويضعه عليه ويضحك هامسا:

ــ ما تركب.

ــ مش مستاهلة.

رد العم مرزوق وحملت عطيات السبت وسارت خلفه بينما سحب ولد حبل الحمــار، وانفض السامر الذي عمله عبد القادر يتندرون على لعبته الصبيانية ورهانه الخسران لكن عبد القادر واقفا ما زال يتابع العم مرزوق حتى تعثر لأول مرة في خطواته فانطلقــت ضــحكته، أسرع رجال من أولاد شلبي يسندونه ليصلب طوله بينهم حتى أوصلوه إلى دار العمة فطــوم، كنت وسطهم ورأيتها وهي تخبط صدرها بكفها في فزع، حاول العم مرزوق طمأنتها بعسر:

ــ ما تخافيش نفسي غامة عليه شوية.

أجلسوه وقدموا إليه اللبن الرائب، وشرب منه الكثير وطرد ما كان في جوفه من بقايا مأكولات لم يصرفها، ثم عاود الشرب وأرجع اللبن ممزوجا بحمرة قانيــة عكــرت بياضــه، شرب وأرجع ثم عاود الشرب وأرجع وهو يتصبب عرقا والعمة تسنده على صدرها وعيناها تلمعان بسؤال غير منطوق:

ــ بايني كلت حاجة مسمومة في البندر.

قالها من بين أسنانه بعسر ثم تدحرج على أرضية المكان أسندوه وأراحوه على كــيس قطن مكبوس، طالبنا بأن نغطيه فحطت العمة على جسمه حرام الصواف، كان الوقت يمضي والعرق يتصبب على وجهه، نقلوه على فراشه وأحاطوه والعرق يغطيه ويتساقط على الفراش، وجهه " مزرود " ونفسه " مكروش "، ربما غفا فتركناه يرتاح، وفي الفجر سمعنا صوت العمة المستغيث فذهبنا، كان هناك الجد هارون وكان مرزوق يمسك بيده وكأنه يتعلق بحبل النجــاة، همس بعسر وبصوت متقطع:

ــ لو نفدت بعمري.. لو نفدت النوبة.. أبقى كسبت الملعون ده.. زي ما يكون دخــل صوابعه في لحم بطني، غرزها زي المسلة، لو نفدت، أبقى كسبت.. ما تخافيش يا فطوم، إن رحت فيها ما تفرطيش في التار من عبد القادر.. التار..

كانت هي تتسمع وقد اتسعت حدقتاها أكثر من أي وقت اتسعت فيه تلــك الحــدقتان، وكان الجد هارون يهز رأسه بصلابة رجل مسئول عن عراك حرض عليه، كسب وخسر لكنه لم يعرف اليأس وإن امتلأ قلبه بالمرار، كان يبدو أنه عرف النهاية قبلنا جميعا، فجلس يتسمع هلوسات العم مرزوق التي لا يربطها غير العجز وقسوة الوجع، وفي ساعة الضحى خبأ وجه العم مرزوق وانعدمت أنفاسه، انطفأ سراجه وكف عن الأنين والهمس والحركة، وفاتت علــى الدرب في ظهيرة ذلك اليوم سحابة معتمة سودت النهار وما أفاد فيه لطم ولا ندب ولا بكاء.

كان يحدثهم بحماس عن السد العالي والحديد والصلب وتأميم القناة، عن إزالة آثار العدوان وضرورة العبور، لا أدري لماذا تذكرت صوت مذيع نشرة الأخبار التي نادرا ما كنا نسمعها أو نهتم بها، كان كل ما بيننا وبين عبد الناصر هو تلك الحكاية القديمة عن البك سالم كبير العائلة في أرض البراري، ذلك الذي أخذوا منه أرضه ووزعوها على الأنفار "وتملية" الغيطان، وكيف أن البك سالم نفسه مات ناقص العمر بحسرة الأرض التي أصلحها وزرعها وكانت في السابق مهجورة ضمن البراري المشاع التي لا صاحب لها ولا مالك، حتى ابنه الضابط الكبير عجز عن حمايتها نقلوه إلى بلد اسمه السلوم بعيد ثم أحالوه للمعاش وهو في سن الشغل، وكان عبد الناصر بعبع علام الذي كان يتوقع تأميم دكانه بين يوم وليلة، اشترى أرضا وعمل فيها منحلا وسور أرضا وحولها إلى جنينة فواكه وتاجر في السلاح متخفيا بقلق من احتمال استيلاء الحكومة على ماله فلجأ على توزيعه، كتب الدكان باسم شاكر والمنحل باسم سعاد، سرحت في الزمان القديم وأنا أسمع سيد بقلق وأرد عليه.

ـ إزاي بقى يا سيد؟ هي صوابعك زي بعضهم؟

ـ كلنا ولاد تسعة.

رد علي بحدة كرهتها فيه، كنت أحبه وأكره أفكاره التي تساوي بين كل الناس، الناصح والخائب، المالك والأجير، وكان قد نال إعجاب شاكر فخفت عليه، شاكر قليل الحيلة لا يسنده غير القرش وما يملكه يمينه أما هو فله مرتب معلوم ومضمون الصرف في أول كل شهر، حسن ظل طوال عمره لا يحسب للزمن حسابا، ضيع ميراثه بالكسل وتاه في البلاد، صحيح أنه رباه وعلمه وعاش حتى وظفه، لكنه فشل في أن يوعيه بالدنيا والناس، خيبه وأفسد عقله ولو لم أحرص على شاكر فربما يخيب، شاكر غلبان، وأبوه حويط، عاش عمره بطوله ناصحا لنفسه، لو ورث شاكر بعض حرص أبيه لاطمأن قلبي من ناحيته، ولو خلص سيد من طباع حسن ما خفت منه على شاكر.

ـ بقى ولاد الناس الطيبين المستورين ح يتساووا مع الخلق الزبالة اللي لا وراهم ولا قدامهم يا سي سيد؟ دا حتى ربنا ما قالش كدة.

قالها علام وانتظر من سيد الرد:

ـ ربنا ما يرضاش ناس تمص دم ناس، تسرق عرق ناس، فكرك السرقة شطارة؟

تدخلت:

ـ ما حدش قال كدة، السرقة حرام لكن التجارة حلال.

وتحمس علام:

ـ دا قصر ديل يا أزعر، بقى أنا أبقى صاحب ملك وعايزني أتساوى مع واحد من خداميني؟ دا كلام جرانين ما حنا برضه بنقرا يا سي سيد.

ـــ والتجارة شطاره.

قالها شاكر وهو ينظر إلى أبيه في محاولة لطمأنته عليه، قلت لنفسي أغير الموضوع:

ـــ بقى ما تجيش غير وأنا راقدة يا سيد؟

تحير إن كان من اللائق أن يستمر في جداله مع علام وبكري وشاكر أو يرد على كلامي، قلت بنغمة عتاب وأنا أحاول إضحاكه وإضحاكهم:

ـــ يا خويا خليك ف حالك وبلاش وجع قلب.

ـــ سيد أفندي بيتكلم في السياسة يا أم شاكر.

قالها بكري مباهيا فعلقت:

ـــ قطيعة السياسة واللي بيجي منها، أوعاك تكون صحيح من بتوع السياسة يا سيد.

بدت عليه الدهشة وهو يسأل:

ـــ وهي السياسة عيب؟

تحفز علام واعتدل في جلسته قبل أن يوضح:

ـــ زي الست الوالدة ما بتقول كدة، ما بيجيش منها غير وجع القلب، طيب بلاش كدة، سليمان ابن مطاوع بقاله قد إيه محبوس من جرة السياسة ياسي بكري؟ أكثر من ثلاث سنين النهاردة.

ـــ أصله إخوان مسلمين، إنما سي سيد اتحاد اشتراكي.

قال بكري فعلق سيد باستفسار فيه إنكار:

ـــ اتحاد اشتراكي؟

تدخل علام:

ـــ أهم كلهم شبه بعض، دا الولد سليمان ابن مطاوع ده انضرب ضرب هناك ما يكلوش حرامي في مولد، الكلام ده مش من عندي، دا من حنك أبوه نفسه، وأهو سايب عياله متبهدلين، خد إيه بقى؟ دول عالم صايعين وعاوزين يأخرونا.

قلت أنهي الأمر بأي شكل، زفرت بضيق وقلت:

ـــ إحنا مش ح نبطل كلام بقى؟ ناكل لنا لقمة.

تململ سيد في قعدته وتابعه علام في تدقيق ظاهر، ولا بد أنه يتوقع أن يخاف سيد من كلامه عن سليمان ابن مطاوع، لكن سيد ظل على حاله... متحفزا لمزيد من الكلام وخجلانا من بدء حوار جديد ربما لكي يرضيني، لكنني لم أكن راضية عليه في تلك الظهيرة، فلو تركته على هواه لظل يتكلم لساعات في أمور لا تفيد. وتأميم وإصلاح زراعي وحرب، ومن منا استفاد من هذه الأشياء، وكيف أستطيع أن ألين له دماغه الذي لا بد أنه أصلب من حجر الطاحونة، تماما مثل أبيه.

في الخميس الكبير حلت شعرها فانسدل على الصدر والظهر خصلات ذهبية ناعمة تحللت من ربطة الضفائر، خرجت من دارها حافية القدمين وحولها وفي أعقابها النسوة لابسات السواد وثوبها ملون، سبقت الرجال خلافا لما اعتدناه من طباع أهل الكفر، كانت تناديه بصوت عال قبل أن تندب وترد عليها أصوات النسوة:

ـ يا قتيل بعد الزفة.......... يا عريس.

ـ ملحقتش تفرح بالخلفة...... يا عريس

بعدها تهبد صدرها براحتيها فيترجرج تحت قميصا وقد تزايد احمرار لحمها الظاهر للعيون حراما مباحا من أثر النار الساكنة صدرها وصدورنا منذ قتل العم مرزوق، كانت عيون الخلق تطل والشفاه تتصعب تأسيا من أجلها وأجله، حتى أبي الذي ما حزن في كل عمره كل هذا الحزن أبدا كان يناديها بوهن ويوصيها بأن ترحم نفسها ولا تستجيب، كانت تهبد صدرها بعنف أكثر، سبقتنا ونحن وراءها حتى وصلت إلى أول المدافن، انحنت وحطت على رأسها طينا من المسرب، عاصت صدغيها وصدرها وأجزاء من ثوبها الملون، وعند قبره وقد أحاطوها لفت خصلة من شعرها حول كفها اليمنى وقربتها من عينيها ثم أقسمت:

ـ وحياة مقصوصي يا مرزوق ما حد ح ياخذ بتارك غيري، لا ح أهدا ولا يرتاح لي بال غير لما ترتاح في قبرك.

أحطناها من كل ناحية فنظرت إلى الكل بغل وكراهية لم أفهم أسبابها، طلبت منهم أن ينزاحوا بعيدا عنها، كانت تقصد إبعاد الرجال فانسلتوا من أمام المدفن رجلا في أثر رجل وما تبقى حوله غير الحريم والعيال، كانت جالسة على ركبتيها كأنها أمام ماجور عجين وهي تضرب براحتيها جداره فتنغرسان كفوفا مفرودة في الطمي المخلوط بنخالة التبن جافا ومستجيبا للخبطات، كأنها من كثر لهفتها توقظ حيا راحت عليه نومة وسوف يقوم بعد الخبطة التالية ويخرج من خلف الجدار:

ـ قوم يا سبع من رقدتك، يا خيبتي في الرجاله من بعدك، قوم يا مرزوق، قمصان عروستك في الصندوق ألوان ألوان، وتارك في رقابي النسوان.

وتنطلق الأصوات، يتقارب الرجال ويتباعدون بحذر، وعندما بدا لهم أن قواها انهدت وبح صوتها ولم تكف عن النحيب، اقتربت منها زاهية بنت فضالي وحاولت إبعادها عن المدفن، لعلها استجابت دون وعي وقامت نصف قومة بمساعدة النسوة، همست زاهية بصوتها الحزين:

ـ كلنا مجروحين يا ختي، خليه يرتاح في نومته.

وكأنما أفاقت العمة من غفوة طائرة، نظرت أمامها وإلى وجه زاهية وكأنها ما توقعت أن تراها، فردت ذراعيها بطولهما فسقطت زاهية بعيدا عند حافة المسرب، زامت نسوة

وساعدن زاهية على الوقوف ثم جرؤن جميعا على الاقتراب وأحطن العمة من كـل جانـب، وفي صمت استجابت بوعي أو بغير وعي وسارت بينهن إلى الطريق خارجات مـن مـدخل المدافن والرجال يجرجرون مداساتهم على الأرض ويثيرون مزيدا من الرماد.

عند البوابة الكبيرة بدأت تولول وتلطم وتنادي مرزوق، وقفت في نفس المكان الـذي كان يقف فيه عبد القادر وما عاد، كانت تبدو حائرة ولا أحد في مواجهتها، سارت خطـوات وبدا لها أنها رأته واقفا وسط رجال من أهله وما رأيناه، سمعناها تسبه وتلعنه وترمـي علـى الجدار الذي تمثله خصما نظرة وعيد بانتقام يجري على ألسنة الناس في مستقبل قريب، ربما انحفر في قلبها جب لكراهية ليس له قرار ولا تقدر أن تمحوها دورة الأيام والسنين.

حدثني في هدأة الليل عن وحدته في طفولته وصباه، عن قسوة الأشـواق التـي مـا تحققت طوال العمر ليكون له أخ أو أخت أو ابن عم شقيق، صعب علي حاله وطيبت خاطره، دعوت لشاكر وسعاد بدوام البقاء، تنهد في حسرة وهز دماغه المستسلم:

ــ ما هو طالع زي حالاتي، وحداني وما لوش ضهر.

وأكمل بعدها وكأنما تذكر أمرا وقد زاغت نظراته:

ــ هو سيد ابنك مبعد عننا ليه؟ دا اللي مالوش أهل بيشتري له أهل، خايف يكون أبوه مقريه ومحفضه كلام غلط عنك.

ــ هو حر، إحنا مش محتاجين له في حاجة ولا هو محتاج لنا.

لعلني قصدت أن أؤكد له عدم حاجته أكثر، ربما كنت أطمئنه وأطمئن نفسي في ذات الوقت، سمعته يجاريني ويسايرني وقد زاد استعداده للكلام:

ــ ما أنا عارف كل حاجة، ح يحتاج لنا في إيه بس؟ داحنا اللي محتاجين أخ لابنـك، وحتى لو كان محتاج لنا هو غريب؟

كانت نبرة التساهل في صوته لا ترضيني، وكان في داخلي كلام محبوس أعجز عـن الرد به، خفت إن اندفعت أن أغضب وأغضبه وإذا عمل مجلسا للتحقيق أكون غلطانة، يطلـع من الموضوع مثلما تطلع الشعرة من العجين وانغرس أنا فيه كما هي العادة، فضلت السكوت، وفكرت، كانت زيارات سيد التي لم أتوقعها قد غيرت في علام أشياء، بعد زمان عشناه بـلا قلق أثر خلافه مع أبي الذي طال حول حسابات قديمة ثم خلافه مع أمي وحرماني من زيارتها أو زيارتي جاء سيد، لعله بعد أن جالسه مرارا وحدثه واستكشف أغراضه حسبها بينه وبـين نفسه، ربما قال لنفسه أن وجود أخ غير شقيق لشاكر أفضل من وحدته الكاملة، ولعله خـاف أيضا، لعل مرارته الحقيقية كانت بسبب تأكده من استحالة مقدرته على خلفة جديدة من صلبه، ولعله سلم على كره منه بقبول بديل يخشاه ويتخوف من وجوده في نفس الوقت، قبل أن يـراه وعلى امتداد السنوات كان لا يطيق سيرته، لكنه بعد أن رآه تبدل وجعل يحوم بأسئلته عنه في

الأيام الأخيرة، ولعلني بحذري لم أقدم جوابا شافيا لسؤال واحد، ربما لأن الأسئلة نفسها كانت تحوم في دماغي ولا أجد لها جوابا أو تفسيرا. وهل كان سيد بالنسبة لي مجرد امتداد أو أثر حي لحياتي مع حسن، تلك الحياة القصيرة التي أنهاها هو بغشم وخلف لي مهانة العمر المدفونة كجمرة تحت رماد هزيل ينفخ فيه ولد من بطني بجرأة فينزاح وتتقد الجمرة من جديد؟ وهل هو وإن حمل نفس الملامح ابنه وحده أو أنني شريكته فيه شركة الأعداء، لعلني كنت قد ارتحت منه وتعودت على مجرد الاشتياق، لعلني جننت وحرصت على كتمان أمارات جنوني بالصمت وكل ما أخشاه هو البوح، الولد نفسه يختلف أكثر مما يتشابه مع كل صنفه، على الأقل هو ما تبدى لي وربما لا يكون صحيحا، وكيف أحكم عليه وأفهمه وهو في كل لقاء محاصر معي بنظراتهم، يتدخلون في كل عبارة تقال مجاملة أو حرصا على إبعاده عني وإبعادي عنه، ربما لو اختليت به ساعتين أفهمه، وربما لو خلص هو من إحساسه بالغربة عن المكان والناس لفهمته وفهمني، لكنني أمه، أمه وما يربطني به حبل سري جديد ومختلف، لعله لم ينقطع أبدا. قال علام متلطفا قدر المستطاع ليقطع علي سرحاني في البعيد:

ــ بس العلام حاجة تانية، اللي محيرني يا أم شاكر، أبوه كان بيصرف عليه منين؟ أنا سمعت أن حالته كانت مش ولا بد.

ــ ما عرفش

قلتها بشيء من الغضب، لعله أدرك أنني على غير استعداد للاستمرار في السماع أو الرد، قام من مكانه، تلفت حواليه وكأنه يبحث عن شيء ضاع منه في غفلة، خرج من باب المقعد ثم عاد، أطل بنظره ليتأكد من وجودي في نفس مكاني، سمعت صوت خطواته وهو ينزل السلم إلى وسط الدار، متباطئا في نزوله وربما متوقعا مني أن أناديه وأسأله إلى أين يتجه وقد انتصف الليل وسيطرت خارج القاعة عتمة.

بعد دفنة عبد الونيس ابن الزناتي عوف بأيام طلبتني فذهبت إلى دارها، حطت أمامي صحنا فيه "سد الحنك" وطلبت مني أن آكله ففعلت حتى امتلأت، أحضرت لي قلما وورقة وطلبت مني أن أكتب:

البيه المأمور:

نعرفك أن عبد الونيس عوف مات قتيل والقاتل ابن عمه عبد القادر جاره في الأرض والدار والسبب نزاع على فدان ملك، والكاتب يخاف على روحه وأولاده من ظلم العمدة المنسوب لأولاد عوف، والذي رجع بعد عزله وزاد ظلمه، والمولى عز وجل أمرنا والرسول أمرنا "ومن رأى منكم منكرا" وقال "ولا تكتموا الشهادة" وبلاغي لكم شهادة لوجه الله الكريم، والكاتب نفر مؤمن من كفر عسكر التي زاد فيها الظلم ويخاف يبوح باسمه ولو أن الأعمار بيد الله.

أخذت مني الورقة وحطتها في دولاب الحائط وناولتني ظرفا لأكتب عليه عنوان مدير مديرية الأمن، فعلت فقبلتني وطالبتني بعدم البوح أبدا لأي إنسان بما كان، وعدتها بالكتمان فأحاطتني بيديها وسرحت في البعيد.

بعد أيام جاءت الحكومة، عسكر وهجانة بربر على جمال، انتشروا في دروب الكفر ومداخله، قالوا إن الحكومة بحثت عن عبد القادر فما وجدته، وقالوا إن الصول الراجع أقسم بشرف أمه هذه المرة أن يسعى وراءه ولو راح في "سفا العفاريت". دخل المعاون دوار العمدة والتقى بحكيم الصحة ووكيل النيابة قبل أن يتحرك الجميع إلى المدافن، رأينا عسكر الحكومة وبرابرة الهجانة يحوطونها من كل جانب، يدفعون النسوة من أولاد عوف بكعوب البنادق والشوم ويطاردون الرجال بالكرابيج السوداني، كانوا يطاردونهم في دروب الكفر حتى يدخلوا البيوت، وكانت الحكومة قد أمرت بفتح المدفن وإخراج جثة عبد الونيس ليكشف عليها الحكيم ثم يأمر بإعادتها إلى نفس المكان، قالوا أن العمدة سعى لكل أولاد عوف وجمع منهم الأموال التي دفعها للحكيم كي يكتب أن الوفاة طبيعية وليست بفعل فاعل وأن يحافظ أيضا على حرمة الميت ولا يشرح الجثة، وعندما قرر حكيم الصحة أن البلاغ كاذب جمع المعاون عسكره وبرابرة الهجانة وتخلف الصول، رحلوا ونبهوا على العمدة بإبلاغهم بما يستجد في مسألة غياب الصول، وعاد الحذر مسيطرا على جماعتنا، غضب أبي وسب ولعن كاتب البلاغ:

ـــ نصايب وبتتلقح علينا، كله من هارون، عايز يولع في الكفر نار.

كرهته في تلك الليلة، ربما لأنني شاركت العمة في كتابة البلاغ، ربما لأنني حزنت مثلها على العم مرزوق الذي تسبب عبد القادر في موته.

ـــ عبد القادر مالوش دعوة، مرزوق أخويا كان واكل سمك مسموم مع نفر في كفر الشرفا مات في ليلتها ولا حد دريان.

تشككنا في الأمر وكرهنا فيه كل هذا الخنوع، لم يكن ما رأيناه بأعيننا لعبة كما يقول، ولم يكن ما يشاع عن عبد القادر كله أكاذيب، حتى لو كانت الحكومة قد كفت عن البحث عنه فهو ما زال قادرا على رمي بلاه على خلق الله، رأيناه واقفا عند البوابة الكبيرة يلاعب إبراهيم عوف لعبة التحطيب، مزهوا بنفسه إلى حد الغرور، وعندما كسب إبراهيم ضحك الأخير وحذره من الصول الساعي في وسط الزراعات بحثا عنه فضحك بملء شدقيه ساخرا، ذكروا اسم العمة التي توعدته في غيابه فجاوبهم.

ـــ نسوان مش لاقيه اللي يكسرها وما لهاش كبير.

اغتظت منه ورحت أحدث العمة فأخذتني إلى دار الجد هارون وطلبت مني أن أكرر ما سمعته أمامه، هز رأسه وأوصاني بإبلاغ أبي بضرورة أن يأتي إلى داره في المساء، وفي

المساء أخذني أبي معه ودخل الدار، كانت العمة هناك وكان جمع من الرجال، وهي إلى جوار الجد هارون تشبهه في الكثير، قال المنصور شلبي:

ـــ نأجر المرسي الدباغ عليه.

رد الجد هارون:

ـــ نلم فلوس ونشتري بارودة تانية ولا اتنين.

تململ أبي وهو جالس إلى جانبي، لعله أراد أن يعترض وخاف من مواجهة الجميـــع، انكمش في عباءته وفضل السكوت:

ـــ الكفة مالت ويانا والضرب النهاردة أحسن من التأجيل.

ـــ مالكيش كلام في وجود أبويا هارون يا فطوم.

قالها الحاج مرسي فلم تكلف نفسها عناء الرد عليه، قام المنصور ودارت عينـــاه فـــي الوجوه، حدث الجد هارون:

ـــ أخبط الكبير فيهم بالبلطة في عز الضهر، بس اكتبوا لعيالي خمسة فدادين.

ـــ مفيش غير السلاح، المقاريط، ح نلم فلوس.

عقب الجد هارون بحسم:

وأنا دفاعه في اللي تقولوا عليه.

قالت العمة باطمئنان من يملك تنفيذ الكلمة لكن الحاج مرسي اعترض.

ـــ تاني يا فطوم،خبر إيه يا با هارون؟ هي مجالسنا ح تتحكم برأي النسوان؟

سأل مستنكرا وقد قام محتجا على سكوت المجلس، لكنها أضافت:

وبنفس الثقة:

ـــ مفيش في عيلتنا رجاله وحريم، اللي ح يقدر على حاجة يعملها، راجل أو ســـت أو حتى عيلة صغيرة زي دهه.

أشارت إلي فالتفتوا وشعرت بأن لي قيمة وأنني شريكة في هذه الجلسات، معمول لها حساب، كان الجد هارون ينظر ناحيتي ويبتسم عندما وقف الحاج مرسي ثائرا:

ـــ أنا مليش قعاد في مجلس تحضره فطوم من بعد الليلة.

قالها وهو واقف، تلفع بالعباءة على عجل وهو يسب الزمن الـــذي أخـــرس الرجـــال وطول ألسنة النساء تناطح الرجال وتلاوعهم ولا تقيم لهيبتهم وزنا، خرج من الدار وفي أثـــره ابنه الكبير، وساد صمت قطعته العمة بكلام عن ديون مطلوبة من الحاج مرسي الذي يشتري الأرض ويورط نفسه طمعانا أن يكون صاحب أكبر حيازة في الكفر، وأن كل ما فعله مجـــرد هروب من حكم المجلس على الحاضرين، ربما كانوا قد اتفقوا على دفع مبالغ جديدة، وربمـــا كان أبي قد وعد بالدفع غدا، لكنه في سكة الرجوع كان يبرطم بكلام لا أفهمه عن الجد هارون

الذي قبل أن تسيره العمة بحسب ما ترجو وما تريد، كان يخبط كفا بكف مبديا سخطه على بيت بهانة التي تملك وتحكم وتتحكم في مصائر الرجال، وكنت أشعر أنه يهينني لأنني بنت وسوف أكون عندما أكبر مثل العمة فطوم وسوف أفعل في مجالس الرجال ما يحلو لي وسوف أقدر على الكثير.

فتح حقيبته وأخرج منها قطعة قماش ناولها لي، وعلبة صغيرة فيها سلسلة وآية الكرسي من الفضة لسعاد وقلم حبر لشاكر، كانت أول مرة أتلقى منه هدية، علقت سعاد سلسلتها الفضة في رقبتها وبدت سعيدة، جرب شاكر قلم الحبر في الكتابة بخطه المنكوش ونزل المطر، قمنا من وسط الدار ودخلنا المندرة، عاتبته لأنه كلف نفسه فقال إنها أشياء بسيطة وجدها في طريقه وهو يتجول استعدادا لميعاد السفر، زادت رخات المطر ودخل علام مبلول الثوب يتشكى من شدة المطر، سلم وجلس فأريناه هدايا سيد فتفحصها ولامه لأنه يشغل نفسه بهذه الأمور وكل شيء موجود في البندر، وزادت حدة المطر، وكان الجو قد تلبد بغيوم عتمت النهار وما توقف المطر .. ساعة أو ساعتين وما كفت السماء عن إنزال المطر، نظر في ساعته بقلق فسألته عن أسباب ذلك القلق، كان قد اعتاد الذهاب إلى دار صالح في دربهم وكنت لا أعترض، أقول لنفسي يكون على راحته ما دمت أراه كلما جاء لزيارة الكفر، لكن الأمر كان يختلف، طرق الكفر موحلة والعتمة مسيطرة وعلام جالس لا ينطق بالمزيد.. قام سيد عاقدا العزم على الذهاب إلى دار صالح:

ــ استنى يا سي سيد لما النطرة تخف شوية، مش قادر أقولك بات مع إخوانك تكسفني.

قال علام فتشجعت وأيدته:

ــ ما حدش يقدر يمشي دلوقت، ح تروح فين.. ؟

تحمس شاكر لرقاده تلك الليلة معه، ومن جديد سكت علام، كنت في مأزق وكان هو الآخر في مأزق وكان من المستحيل أن أعرضه لمخطر السقوط في وحل دربنا وكل دروب الكفر من أجل ليلة يبيت فيها في دار صالح فقطعت الصمت وأجلسته وهلل الأولاد لأنني أفلحت في التأثير عليه ليبيت في الدار لأول مرة منذ رأيناه بفضل المطر.

دخل الدرب رمحا والمنصور أمامه، اعترض الرجال المتربصون طريقه فراح يطوح بعصاه في كل اتجاه، كانوا يتحاشون ضرباته بالابتعاد ثم يتكاثرون عليه بعصيهم فيدور حول نفسه والعصا مفرودة "دوخيني يا ليمونة" يتباعدون ويلبدون في الأركان ومداخل البيوت وجنب الحيطان، سمعتهم يتعجلون عودة المنصور بالبلطة ورأيناه يعدل نفسه ليرى باب دار المنصور الذي ما انفتح، قال البكري من فوق السطح إن المنصور فر بجلده ولن يعود، كانوا يحومون حول البيت على عوف بجرأة معتمدين على كثرتهم، يكسرون خوفهم القديم منه لأنه

كما يقولون أحسن من يستخدم النبوت في دائرة المديرية، كان وسط الدرب يلعب أكثر مما يتعارك، أو على الأقل هذا هو ما ظهر بسبب ضحكاته وسخرياته من أمور لا أعرفها، وهم يجعرون عندما توشك عصاه أن تطول أطرافهم، كأنه ثور هائج مطلوق وجمع من الناس حوله وأمامه يبحثون عن مكان المسكة الصائبة بعيدا عن احتمالات الخطر ثم انفتح بابها فتباطأت العصي التي يحملونها ثم استكانت، لا أذكر أنها طالبتهم بذلك، ربما كان في طلوعها من الباب أمرا محسوبا وربما كانت لهيبتها أثر على الجميع، تناثروا في الأركان وتراخت العصا في يمين علي عوف ثم انحط طرفها على الأرض وارتكز عليها، كانت هي تقترب منه على مهل وعلى وجهها ترف ابتسامة حسب بسببها أن المعركة قد انتهت عند هذا الحد، نظر إليها بثبات وطرف جلبابه مرفوع بيده الخالية دون قصد، لعله هم بأن يقول كلاما أو جهز نفسه للسماع منها وقد صارت أمامه تماما، لكنه خلافا لكل توقعاته وتوقعات من كانوا ينظرون وينتظرون تجاسرت وأمسكته بيدها اليمنى من مكان القدرة فيه، بوغت وارتبك وحارت عيناه، حاول أن يتراجع خطوة إلى الخلف لكنه لم يفلح، عافر ليخلص نفسه دون جدوى، كان فمه المفتوح يفرز لعابا عجز عن السيطرة عليه، أصدر أصواتا مبهمة وازرقت سحنته، احمرت عيناه ثم نخ كجمل جريح، بركت هي فوقه، تباطأت حركته أكثر وهي تكز على أسنانها لتستجلب عزما فوق عزمها، تشنج وارتعش رأسه الذي انفك طرف شاله الملفوف وتدحرجت طاقيته التي على شكل عمامة انقلبت قريبا منه، حسبناه قد مات لحظة أن كف بدنه عن الحركة تماما، تساندت هي على صدره بركبتيها وقامت، مسحت كفها المفرود في قميصها الملون فوق فخذها اليمنى عدة مرات وابتعدت عنه، بصقت على الأرض وقالت بصوت مبحوح للرجال:

ـــ اضربوه.

تبادلوا بضع نظرات، ربما قالت نظراتهم إن الضرب في الميت حرام لكنها أمرتهم مرة أخرى بحزم فنزلت الضربات فوق بدنه ورأسه المكشوف وظهر لنا أنه لم يكن ميتا، كان ينتفض انتفاضات هزيلة أثر كل ضربة مؤثرة وكأنه قرموط سمك مرمي على الأرض قبل تمام السكون، أشارت لهم بأن يكفوا فكفوا، اقتربت منه بعد أن شمرت ساعديها، قلبته فانقلب راقدا على ظهره وتقاطيع الوجه المغلوب مكسوة ببقايا ألم، شالت عصاه من على الأرض واستندت عليها، حدثتهم أو حدثت نفسها:

ـــ كدة يبقى انقطع خلفه.

ظهر المنصور حاملا في يمينه البلطة المسنونة تبرق في ضوء الشمس سألها وكأنه يعرف ردها قبل أن يسأل:

ـــ اقطع لك رقبته؟

لم تكلف نفسها عناء الرد واكتفت بأن تشير إليه ليبتعد، ثم قررت وهي تنظـر علـى بابها المفتوح:

ــ دخلوه وسط الدار.

حملوه وأدخلوه فنظرت إلى بكري:

ــ طيران ع المركز، بلغ عن قتيل في الدار واطلب المأمور.

خرج البكري وخرجوا تباعا، بقيت معها ورأيتها تمزق قميصا بيديها عـن صـدرها فينتفض متفجرا والبطن عار، طلبت مني أن آتيها بملاءة غطت بها عريهـا وجلسـت علـى طرف الدكة تفكر أو تنتظر، طال الوقت فسكت بابها بالضبة والمفتاح، كان وجهها الحزين في تلك القيلولة لا يشبه العمة فطوم أكثر مما يشبه ذلك الرسم الذي كنت أراه في صندوق الـدنيا على فترات متباعدة ويسميه صاحب الصندوق "فاطمة بنت بري" التي ضحكت على البدوي.

لسعتني حلة الطبيخ فكتمت وجعي، كسرت على مكان اللسعة بيضة ولففتهـا بقطعـة قماش، فاتت سعاد فداريت اليد الملسوعة حتى دخلت القاعة، تشاغلت بتجهيز العشاء، سمعت نداء علام يستعجلني فاستمهلته ليتشرب الأرز، جلست أسترجع ما قاله علام في عصر نفـس اليوم عن سيد "موظف على قدر حاله ويحتاج المساعدة" "أي مساعدة يا علام؟" حرصك على مالك خوفني وجعلني أراجع نفسي في كل شيء وقبل أن تصرف مخافة أن تظن أنني أرسلت إليهم من حر مالك قرشا، كنت أحاسبك بالمليم فتسكتني وتقول عبارتك المكـررة "المصـلحة واحدة" لكنها أبدا لم تكن واحدة، حساباتك مع أبي كانت مجرد كلام ناعم وورق مكتوب تكسر به عينيه أمام الناس، ما زلت أذكر صوته الأسيان الممرور:

ــ يا بنتي أنتي ما لكيش دعوة بحسابي معاه.

لكنه كان يتعامل معي على أساس أنني كنت السبب، لم ينتظر كثيرا بعد مـوت أبـي وأغضبني، رماني في الدار الخراب ما يزيد عن سنة وهو عارف، طلبت الطلاق فما رضي، جعلني بحسب ما كان يقول للناس مثل بيت الوقف، والآن يلمح لي بسيد، ليتـه يكـف عـن المجيء إلى الكفر أو يدخل داره، ربما انخدعت بمعسول الكلام وسعيت بكل طـاقتي لأجعـل سيد يدخلها، وكيف يتحكم عقلي وأعصابي حتى لا تتزرع في قلبه الشكوك الجديدة، وهل ألوم أبي الذي رحل أو ألوم العمة التي تخلت عني في أصعب الظروف، أو ألـوم نفسـي لأننـي تدخلت بالفعل في أمر لا يخصني وتسببت في خلافات لم تنته وما زالت قابلة للنمو من جديد؟

ــ خبر إيه.. الرز باينه شاط.

قالها علام وهو واقف قبالتي وسعاد تنزل الحلة عن النار.. تقلب محتوياتها في إنـاء آخر. كنت أشعر بدوخة ومكان اللسعة في كفي يكويني، كان ينظر إلى سعاد ويهز كتفيه إلـى أعلى علامة الدهشة وعدم فهم الأسباب:

ــ هي مالها؟..

لم يتلق ردا من البنت، ربما لأن البنت نفسها لم تكن تعرف، كانت مشغولة بتجهيز العشاء وإصلاح ما أفسدته وأنا تائهة في أفكاري، دخل شاكر على عادته يستفسر عن العشاء ويكشف الأغطية ليطمئن، دخل القاعة وخرجت سعاد، وقفت أمامي في صمت، نظرت إلى كفي الملفوف وارتكزت على ركبتيها. نظرت إلي في حنو وهمست:

ــ إيدك مالها؟

ــ مفيش..

ــ وريني كدة.. ياه دي مفأفأة.. حرق؟

ــ لسعة..

ــ وسايباها كدة؟

ــ كسرت عليها بيضة.

ــ بيضة؟ ح أجيب لك مرهم الحروق.

ــ أسكتي دلوقت، بعد ما يتعشوا.

لم يعجبها اقتراحي وخرجت إلى المندرة البحرية، سمعت صوت علام الذي يمضغ:

ــ هو انتو مش ح تتعشوا الليلة، أمك باينها غضبانة يا شاكر.

ــ ليه..؟

جاءت سعاد، حطت على مكان اللسعة مرهم الحروق ومن فوقه قطنة وربطتها بشاش، شعرت بالتآكل في كفي، ابتسمت البنت.. "البنت حبيبة أمها" تشعر بها وتحنو عليها فلماذا تعشق نسوة الكفر خلفة الأولاد ويشعرن بحسرة لخلفة البنات؟.. مدت يدها ليدي تساعدني على القيام، سبقتني ووسعت لي مكانا بينها وبين شاكر، كان علام يمضغ وشاكر يمضغ وسعاد تنتظر ناظرة إلي مؤجلة البداية إلى أن أبدأ على عادتها، قال علام من بين أسنانه:

ــ مالك؟

ــ مفيش.

ــ إيدها اتحرقت.

قالت سعاد.. نظر شاكر باهتمام قليل أما علام فحاول أن يتضاحك أو يضحكهم:

ــ تستاهلي، من ظلمك.

ــ شمتان؟

ــ كلي كلي.. تحبي أأكلك؟ زمان كنت بأكلها بإيدي. فاكرة يا أم شاكر؟

ــ فاكرة.

ضحك علام، ربما أدرك أنني على غير استعداد للضحك أو حتى سماع الكلام، مددت يدي السليمة وبدأت في تناول الطعام، لعلني كنت أدعوها هي لتناول وجبة العشاء.

ـــ هو سيد أخوك بياخذ ماهية كام يا شاكر؟

ـــ ما عرفش..

ـــ صرف كتير في المولد؟

ـــ مش كتير ولا حاجة..

ـــ المثل بيقول إن كنتوا أخوات اتحاسبوا، ولا رأيك إيه يا أم شاكر؟

ـــ اللي تشوفه

ـــ الواحد ما بياخدش منك عقاد نافع، أنتي أمهم هما الاتنين واجب تكوني بينهم حكم عدل..

كان من الواضح أنه يحاصرني لأتكلم، كنت خالية الذهن عن احتمالات أن يفتح مثل هذا الموضوع أمام الولد والبنت بهذه الطريقة، كدت أكرر عليه ما قلته بالأمس "الولد دخل دارنا موظف وليته ما دخلها" لكنني منعت نفسي من الكلام وعلام يكيدني بضحكاته وحكاياته عن خلق التقى بهم في الزمن القديم وكانت له معهم نوادر، وكان الولد يضحك والبنت تضحك وأنا أجاريهم وأضحك ربما لأبعده عن معاودة الأسئلة التي ليست لها أجوبة.

بعد العشاء قمت وتولت سعاد ترتيب المكان، كنت وحيدة وخائفة، خائفة أن يفسد علام علاقة الولدين، شاكر وحداني وقليل الحيلة، فرحته بوجود سيد أسعدتني وفرحة سيد بوجوده أراحتني، ربما يكون عند علام حق في استفساراته، شاكر كفه مخروم وما في يده ليس ملكا له، بارع في الإنفاق على من يستحق ومن لا يستحق، وربما ما زلت عاجزة عن فهم سيد، وهل هو مثل حسن مستعد للتفريط في حقه كما جرى في الزمن القديم أم أنه ناصح لنفسه، وإذا كنت لم أفهمه وأنا أمه فكيف يطمئن إليه علام؟

بعد الصلح الكبير مع أولاد عوف راجت الأحوال، تنازلنا عن دم المنصور وتنازلا عن دم عوف، جهز البك سالم كل شيء، حضر المأمور وابن الباشا الكبير مدير المديرية وحضر من ناحيتهم العمدة مصطفى عوف وعبد القادر وحضر الجد هارون في آخر أيامه، كانت فرحة أبي لا تعادلها فرحة وكان يحاول في كل كلمة يقولها أن يؤكد لنا أنه لولاه ما تم صلح وما هدأت الأحوال، عاملناهم وعاملونا وردمنا على ما فات، تاجر أبي في القماش وأدخل إلى الكفر "بوابير الجاز" وكان يتندر على أهالي الكفر ممن يرونها لأول مرة بنارها الشديدة وصوتها القوي "يوش" في الآذان مثل القطارات فيرمحون خوفا ويحسبونها عفاريت طالعة من تحت الأرض، يخوفهم أبي من انفجارها فيرمحون ويضحك، ومن جرأة البهنسي أنه وقف إلى جانب الوابور وقال أنه "مخاوي" من تحت الأرض وقبله ميت فسماه أبي

"البهنسي المخاوي" شغل الحاج مرسي وابور الطحين فأدهش الناس، استغنى الناس عن الطواحين القديمة التي تدورها المواشي، ولم يبطل اندهاشهم، أدخل عثمان المرسي أول ساقية صاج بتروس حديد على رأس غيطه فكانت مفخرة قلدها من بعده خلق كثار، شالوا تــوابيتهم القديمة بتروس الخشب وبدلوها بسواق من الصاج تنزح من الماء أضعاف ما ينزحه التابوت، واشترى أبي أول كلوب في الناحية فنور الدكان في عز الليل وكأننا في نور النهار، أبدل من يستطيع فانوس داره بكلوب "براتينه" من حرير لا تحرقه النار فكانت أعجوبة الأعاجيب، وتوسع أبي فاشتري مندرة صالحة بنت حسنين الساكت وضمها إلى دكانه، تاجر في النقل والزبيب وجوز الهند وأبي الفرو وما ترك شيئا من البندر يحتاجه الخلق إلا وفره لهم في الدكان لراحتهم كما كان يقول، زاد الخير فدخلت العمة فطوم شريكة له برأس المال، فتح عزت شلبي خمارة للقادرين تسهر حتى الفجر وجلب غازية ترقص للسكارى وتأخذ منهم "النقوط" ومن كثرة فلوس الناس لعبوا القمار يخسرون ويكسبون.

كانت أمي تكره عزت كراهيتها للعمى "الحيسي" بسبب تلك الخمارة واجتلاب الغوازي والسماح لمن يدخلونها بلعب القمار، لكن تحذيراتها لأبي لم تغير من طباعه، كان إذا رجع مبكرا ليرضيها يخفي زجاجة في كمه، يناولها لي عند الباب لأخفيها في مكان وأقدمها له وقت الحاجة، وكثيرا ما كان يرجع فرحانا من عند عزت، يفرغ جيوبه المملوءة بالجنيهات وأنصافها وأربعاها وعشرات القروش الورقية والفضية، يرصها وينظمها في صفوف ويربطها بأساتك ويضعها في خزانة الجدار ويقفل عليها بالمفتاح والقفل، يعدنا بأحسن الجهاز ولا تصدقه أمي:

ـ وإيه اللي مانعك؟ ما تصيغهم وتشتري لكل واحدة شوارها من دلوقت، دانت عندك اتنين على وش جواز.

ـ أصل أنتي هبلة، القرش في إيد التاجر بيجيب قرش زيه، عايزاني أحط فلوسي في شوية دهب ونحاس من دلوقت؟

كان يرد عليها متهربا فتسكت عاجزة عن الاستمرار في معارضته وكان هو ينتحي ركنا بعيدا علامة الغضب، ربما يطلب الزجاجة ويشرب منها جرعات ويسدها ثم يتمدد مكانه دون أن يشعر به أحد، وذات مساء عاد محزونا على غير عادته وسمعناها تتباكى وهي تلومه ربما في المرة الوحيدة التي جرؤت على توجيه اللوم له في كل حياتها معه:

ـ ياما قلت لك يا عبد الستار، سكة القمار مكسبها خسارة، ما سمعتش الكلام، كدة فطوم حاتتحكم أكثر وأكثر.

وكلام كثير قالته ولم يرد.. من بعدها تغيرت عاداته ونادرا ما كان يتوجه لأمي بكلام، كثرت زيارات العمة فطوم لدارنا ونقصت البضاعة من الدكان.

بعدها فتح البكري مندرة دارهم ورص فيها سراير الحديد بوصة إلا ربع وبوصة وبوصة ونصف يبيعها للأهالي مع طبالي العشاء والخبيز والحبال التيل ورعوس الفئوس وباكوات المعسل ثم أقماع السكر وبلاليص العسل وقراطيس الشاي، يبيع وتجارة أبي تبور، لكنها كانت أزمة زالت بمساعدة جديدة من العمة التي باعت أرضا زود بها الحاج مرسي جنينة الموالح التي يملكها.

أيامها بني الحاج مرسي أول دار بالطوب الأحمر في الكفر، وعمل "أميمة" كبيرة رص فيها الطوب صفوفا صفوفا بعلو دار وفيها فتحة في الجنب يشعلون فيها النار وأخرى لا نراها يطلع منها الدخان، كنا نذهب للفرجة مع ناس الكفر ونراهم يضربون كفا بكف لأن الطوب الأخضر تلون وازداد صلابة، وعند البناء لأول مرة على السكة الزراعية من ناحية المدافن غوط البناءون أساس الدار وركبوا مكان الباب البراني بوابة من حديد ملفوف دوائر ودهنوها باللون الأحمر فكانت داره مثل سراية الباشا الكبير في البندر وكانت جلسته مع أهله وأصحابه مطلا من شرفته العالية عزوة وقيمة لكل أهل الدرب، وربما بسبب هذه الدار نفسها لم يجرؤ أي واحد من الأهالي على ترشيح نفسه للعمادة ضده بعد موت الحاج مصطفى عمدة الكفر القديم وتحولت الدار إلى دوار وراحت أيام الجد هارون فما عاد أحد يسهر عنده كما كان من قبل بناية الدوار الجديد.

وكان موت الجد هارون في هذه الأيام من حسن طالعه فقد شاله الحاج مرسي "شيلة" عزيز مقتدر، عزانا فيه كل الأكابر الباشا وأكبر أولاده والبك سالم ومأمور المركز ومندوب عن مدير المديرية وكل الأهالي من أولاد عوف وغيرهم جاءوا ليروا بأعينهم الفارق بين ليلة كبيرهم وكبيرنا، ذبح الحاج مرسي الذبائح ونور بالكلوبات وأجر مقرئين من الإذاعة وما بخل بشيء حتى صارت ليلته سيرة الخلق في كل كفور الناحية ونجوعها الذين ما كفوا من يومها عن ذكرنا بكل خير.

جهزنا الزيارة ورحنا له أنا وشاكر وسعاد، دخلنا شقته في الحلمية الجديدة فما صدق عينيه، نسي أنني عشت في هذه المدينة زمنا قبل أن يولد، كان في الشقة سرير واحد وعدد من الكراسي الخيزران وترابيزة مفروشة بورقة وصفوف متراصة من الكتب في كل مكان.. على الأرض والأرفف المعلقة على الحيطان ولم يكن في مطبخه مواعين ولا صحون ولا أكواب تكفي أكثر من نفرين، وكان يبدو فرحانا أكثر مما كنت أتوقع، تحيرنا في أي شيء نفرغ السلال فتركناها على حالها واكتفينا بإخراج ما هو ساخن ما زال أو قابل للفساد، قلب شاكر في الأوراق ثم تركها دون اقتناع، وسألته عن الكتب المتراصة فضحك وحدثني، عن أشياء ما سمعت بها قبلا ولا انشغلت بها، وهو يحدثني كانت تعجبني طريقته في الكلام، مجرد طريقته في الحماس للأشياء أو ضدها، حدثني عن الآثار التي يعمل مفتشا بها ووعدنا

بزيارة للمتحف والأهرامات، كنت زرت الأهرامات في الزمن القديم لكنني لم أعترض حماسه، حدثني عن تاريخ قديم غير ذلك الذي حدثنا به الجد هارون، دهشت، وأنا أسمع عن فراعين وقبط وعرب مسلمين، كنا في المدارس نقرأ القليل عن هذه الأشياء ونحفظ بعض الأسماء لنكتبها في الامتحان لكنه كان يعرف الكثير ويستشهد بالرسوم والكتابات القديمة للفراعين، تلك التي كان من الواضح أنه قادر على ترجمتها بيسر، وعندما ذهبنا إلى الأهرامات رأيتها معه بشكل مختلف، وفي المتحف رأينا تماثيل تشبه الرسوم في كتبه وهو لا يكف عن ذكر الحكايات التي نادرا ما كنا نسمع عنها وإن سمعنا فمجرد سماع اسم بشكل عابر في الراديو سرعان ما ننساه، حتى حديقة الحيوان معه كانت تختلف، بدا لي أنني كنت أزورها لأول مرة إلى حد أنني سألته إن كانوا قد أنشأوا واحدة جديدة مكان القديمة فأنكر وأكد أنها كانت منذ البداية في نفس المكان، ودخلنا سينما فيها فيلم عربي لعبد الحليم وشادية وأفرنجي فيه ضرب نار، ومسرح فيه ناس تتصايح وطواف نحيل يلف بالخبز على البيوت أبكاني لأنه ظل حافيا يحلم بحذاء لم يملكه أبدا:

ــ نشتريله جزمة يا سيد يا بني.. دا باين عليه غلبان.

ضحك وأشار إلي بأن ألزم الصمت ففعلت، ولا بد أنني بوجودي في الكفر لم أعد أعرف ما يجري في مصر من أفعال ولا بد أن آخذ منه كتابا وأحاول قراءته وفهم ما فيه من أسرار.

في الليل قبل سفرنا كنا نتسامر، حدثته عن حكايات من تلك التي كان يحكيها الجد هارون عن الملك الشلبي فكان يتسمع باهتمام ويستزيدني فأسترجع ما كدت أنساه وأقول وهو في سرحانه يتفكر ويبدي دهشته وكأنه ليس عارفا لأي شيء عن أهله من ناحية الأم، أغاظني جهله بحكايات الملك الشلبي التي لا بد أنها مكتوبة في أوراق مثل هذه الأوراق المرصوصة كتبا لا حصر لها، سألته:

ــ معقولة يا سيد يا بني ما تعرفش تاريخ جدك وأنت بتاع أثارات؟

ضحك قبل أن يطلب مني أن أحدثه عن الجد هارون، ذلك الذي سمع باسمه ولم يلتق به أبدا فحدثته، هز دماغه وسرح بعيدا ثم دمدم:

ــ شخصية غريبة جدا، جاب الكلام ده منين؟

ــ قصدك إيه؟ كان حافض زي ما أنت حافض كدة.

ــ بس أنا حافض تاريخ مكتوب، إنما ده.

ــ قصدك إيه؟

قالها شاكر بعصبية وغيرة على الجد هارون فرد سيد:

ــ دا أكيد كان راجل عقله صاحي وقادر يخترع لنفسه تاريخ.. كلام يسلي بيه الناس.

ـــ دا غل بقى..

قالها شاكر وقد زادت عصبيته.

ـــ غل؟ من إيه؟

ـــ هما مش قالوا لك أن عيلتنا خدت منكم العمودية وملكت أرض الزمام؟ لأنهم ملوك وولاد ملوك.

ـــ قالو لي.. بس دا مش معناه..

لم يكمل عبارته ونظر إلى شاكر وكأنه يقيسه، كان شاكر في السنة الإعدادية للعام الثاني ما يزال، أصغر منه بخمس سنوات أو يزيد، حدثني متهربا من الاستمرار في نفس الموضوع الذي تسبب في غضبة شاكر:

ـــ نتكلم في موضوع غير ده

لا أذكر أننا تكلمنا في الموضوع نفسه أو غيره، أذكر أن شاكر كان يشعر بالضيق وكنت بدوري تائهة وعاجزة عن الاعتراض.

كنت أنتظر مجيئها على نار في أيام الأجازات، كنت أشعر بها وهي "تهرس" وسط الدار مرواحا ومجيئا، لا أعرف من فتح لها الباب والكل نيام، أتسمع أنفاسها وأميزها وأنا بين النوم واليقظة، أقاوم فرحتي بوصولها وأتمطى قبل أن أتأكد، ربما أحس حركة أمي وهي تتزاح من تحت الغطاء "منسلة" في حذر فأعرف أنها بالفعل جاءت، أتابع الضوء المتباعد للمصباح وهو يخرج من المندرة محمولا بيد أمي، أسمع همسات العمة تحادثها بصوتها الخافت "المغلف" بخرخشات الصحو المبكر، أبعد الغطاء عني وأقوم لأراها بعودها القصير الممتلئ ووجهها المستدير حازم التقاطيع، أتبعهما في صمت وأراها وهي تدس يمينها إلى ما فوق الكوع في حلوق الزلع، تذوق بطرف لسانها طعم المش وتشير إلى أمي لكي تصب لها الماء من أبريق النحاس فتغسل ساعدها وتجففه دائما في ذيل جلباب أمي التي تقدمه إليها في حماس وهي تقترب منها أكثر، وتثبت في مكانها حتى تتركه العمة، بعدها تنظر في "براني" السمن، تتشممها ثم تحكم وضع أغطيتها الفخارية على حلوقها وتعيد ربطها بحذق، تلقي بنظرة خاطفة على مخزون الأرز وتميل بطرف عينها نحو كوم البطاطس في ركن الخزانة تقيسه، تهز رأسها وتخرج من باب الخزانة لتدخل ونحن في أثرها إلى قاعة الطيور، توارب الباب بحرص بما يسمح لبدنها بالدخول ولا يسمح لطائر الخروج إلى وسط الدار في تلك الساعة البدرية التي تسبق طلوع الفجر، تهمس لنا وهي في الداخل تأمرنا بالتمهل عند الدخول، أحمل المصباح عن أمي حتى تدخل وتتناوله مني فأنزلق بسرعة لأسمع صوصوة الكتاكيت وهديل الحمام وفحيح ذكر البط الواقف بجانب البطة الراقدة على البيض خائفا ويخوف، أتحاشى عضات ذكر الأوز العجوز وأنا أتابع مع أمي حركات العمة السريعة الواثقة وهي تتحسس

بناني الحمام لتطمئن على الزغاليل، وهي تزيح في خفة الدجاجات والأوزات الراقدة على البيض، اقترب منها بالمصباح فتوسط بإصبعيها البيض واحدة في إثر أخرى بين عينيها وضوء المصباح، "تقره" وتعيده إلى مكانه في دربة، ترج بعض البيضات في حذر وتتسمع منها أصواتا قبل أن تعيدها إلى مكانها أو تبعدها ثم تدفع الطائر لاحتضان البيض قبل أن يبرد، تشير إلي فأخرج وأعود مسرعة إلى القاعة وقد حملت حزمة برسيم من ذلك الحمل المحطوط على دكة النورج في وسط الدار، تبعثرها حول جحور الأرانب وتنتظر حتى تطل منها في حذر قبل أن تخرج بحرص أولا ثم باطمئنان وكثرة، تتفرش أركان القاعة بالأرانب الكبيرة والمتوسطة الصغيرة والأصغر، تمسك هي أرنبا كبيرا أو أرنبة وتحك طرف إبهامها الشعر حول الأنف والبوز وتنظر إلى ما قد يعلق بطرف إصبعها من قشر أبيض دقيق من أثر الحك، تترك الأرانب وتتجه نحو الباب وتخرج في خفة فلا يفلح طائر في النفاذ إلى الخارج، نتبعها وربما يفلت أرنب أو كتكوت من بين قدمي أو جلباب أمي، تحكم هي إغلاق باب القاعة وتطلع السلم الخشبي إلى سطح "المقاعد" وتمد يدها في " زالوع " القمح، تطمئن على حجم المخزون وتخرج براحتها وفيها حفنة منه تتفحصها بنظرة متأنية ثم تعيدها، تقيس ببصة عابرة كوم كيزان الذرة المحطوط جنب جدار الغباشي، تقشر كوزين أو أكثر من أغلفتها وتلف كل واحد منها أمام عينيها وكأنها تقرأ في كتاب ثم تلقي بالكيزان إلى وسط الدار، تتقدمنا نازلة على السلم، أنظر إلى وجه أمي فأحس قلقها وأسمعها تتودد إليها وتحذرها من الدرجة الأخيرة أو ذلك المسمار البارز مخافة أن يقطع طرف طرحتها أو ثوبها، لا يبدو عليها أي اهتمام بتحذير أمي وتنزل في هدوء وثقة، تتشاغل عنا بلملمة بعض الأشياء أو تأمل الجدران حتى تتأكد من نزولنا فتتحرك من مكانها وأمي تؤكد لها أن الدار زارها نبي وأن بركاتها سوف تحل، وربما تعتذر لأننا أصبحنا نكلفها الجهد والمشقة، تهز رأسها وتفتح باب الزريبة، تتحسس في تؤدة ظهور العجول اللباني وعجول التسمين، ربما تجس جاموسة أو بقرة لتطمئن على "البذرة" أسرع نحوها بالإبريق أصب ماءه لتغسل ساعدها الملوث وأمي تعتذر لها في حماس أو تتولى عني الإبريق وتصب لها قبل أن تناولها طرف ثوبها لتجفف يديها وتهمس في خجل:

ــ يا دي الكسوف يا عمة، وبتعوصي إيدك اللي تتلف في حرير؟

ــ دامعاش أخويا يا هبلة، ح اتعب لمين أعز منه؟

يشجع أمي ردها غير العصبي فتسألها بلهفة:

ــ حلوة البهايم يا عمة؟

لا ترد عليها وتظل ماشية في طول وسط الدار وعرضها، تعدل طاجنا مقلوبا أو تحط طوبة مرمية جنب جدار، تلملم كناسة الحطب بمداسها في ركن وتأمرني بحملها أمام الفرن،

تلم كيزان الذرة التي ألقت بها قبلا وهي فوق السطح وتقوم بتفريطها في آلية وترمي الحبوب في الأركان وقبل أن تخرج من باب "الخوخة" على صحن الدار البرانية تكون أمي قد أسرعت بفرش " فروة الخروف الكبيرة فوق الحصير المفروش، تعدل المسند خلف ظهرها لترتاح في قعدتها بينما تتكوم أمي في استكانة تنتظر عند طرف الحصير، تأخذني هي إلى جوارها وتربت على ظهري في حنو، يتزايد القلق على وجه أمي، تعض هي على طرف شفتها السفلى على عادتها كلما أرادت أن تتكلم في أمر لا تقبل فيه معارضة:

ــ دكر الوز خاب، ادبحوه وأطلقوا دكرين من البطن البدرية.

ــ يندبح يا عمة حاضر.

ــ الأرانب ح يصيبها الجرب، ارموا نقلتين رطش في القاعة وهاتوا لهم قزازة دوا من عند العطار.

ــ نجيب يا عمة.. حاضر..

ــ البطاطس تتبدر يا مريم لأجل ما يطولهاش السوس.

ــ نبدرها يا عمه.. حاضر.

ــ والعجول دول تنصحوا لهم، انتو ح تربوهم ع التبن؟

ــ بنرش لهم يا عمه فول ورده و..

ــ الكلام دة مش نافع، أنا قلت انصحوا لهم وخلاص.

ــ ننصح يا عمه.. حاضر.

ــ زلعة الجبنة الكبيرة ملحها ناقص ليه؟ ما تعرفيش تدوبي حفانين ملح رشيدي في طاجنين لبن رايب وتزوديها؟ اللي ح تنقصيه منها حطيه في الزلعة أم ودن واحدة، ناقصها مش يا مريم.

ــ حاضر يا عمه.. حاضر نعمل كدة.

ــ وسط داركم مش نضيف، ح يجيب لكم الواغش. البنات بتعمل إيه طول النهار؟

ــ باغلب معاهم يا عمه.

ــ معاشك ح يخيب يا مريم.

ــ دي البركة ح تحط يا عمه على إيديكي، سامعه يا شوق؟

تقولها أمي وهي تنظر نحوي وكأنما تخفف عن نفسها ثقل المسئولية وترميها على أكتاف البنات فتحيط العمة أكتافي بذراعيها وكأنها تدافع عني:

ــ شوفي انتي الثلاثة اللي راقدين جوه راقدين لدلوقت ليه.

تقول العمة وهي تعدل خصلة من شعر رأسي، أشعر بالفرح لكنني أحزن من أجل أمي التي تعجز عن المجادلة دائما وتحط رأسها في الأرض وكأنها تلميذة غلطانة حطت وجهها في الحائط كما أمرها الأستاذ أو ناظر المدرسة لابس طربوش النسر.

دخلت العمة من باب الدار على غير توقع وعلام خلفها، كان سيد يجلس على طرف الدكة وصالح إلى جواره، كانت العمة تتحرك بعسر في اتجاههما وتتفحص الوجهين، اختارت سيد لتسأله أولا من يكون فجاوبها ثم سألها بدوره من تكون بأدب لكنها لم ترد عليه، جلست بصعوبة على طرف الحصير المفروش واستندت إلى المسند وسيد ينتظر وربما يقدر كبر عمرها ويتعاطف معها، نظرت إلى صالح وسألته من يكون فحرك لسانه في أركان فمه وفتحه ولم يجاوب، بدا وكأنه يستهين بها وبسؤالها في نفس الوقت، كانت في نظراته كراهية لم يخلص منها، تطوع علام ورد على العمة:

ده سي صالح ابن سي حسن برضه يا عمه.

ــ آه.. وإيش جمع الشامي ع المغربي دلوقت؟.. يا حامي..

انتفض صالح واقفا باحتجاج غاضب وهو ينظر ناحية العمة ثم إلى سيد الذي بدا له حائرا لا يعرف كيف يتصرف.

ــ قوم بينا يا أستاذ.

قام سيد نصف قومة لكن علام أفلح في إجلاسه مرة أخرى وإن فشل مع صالح، وبرغم كل ما سمعه ظل واقفا مكانه وفي عينيه غضب. كنت أراقب سيد الذي بدا لي غير قادر على فهم ما كان يدور حوله، حسم صالح أمر نفسه قائلا:

ــ أنا ح أسبقه ع الدار يا ست أم شاكر، اتهيألي مش ح يتوه في الكفر، إوعاك تتوه يا سي سيد في بلد أبوك وجدك وجد جدك من قديم الأزل..

خرج وسمعناه يتندر على ما قالته العمة بصوت مسموع:

ــ قال شامي ومغربي قال.. مين بقى الشامي ومين المغربي؟

كان علام يدور بنظراته في كل الوجوه ويستجدي من يفاتحه في أي موضوع.. وعندما سيطر الصمت قطعه:

ــ أهلا يا سي سيد.. حمقى قوي صالح أخوك.

تدخلت العمة:

ــ ح يتحمق علينا ليه؟

ومرة أخرى ساد صمت، كنت أخاصم العمة ولا أرغب في مفاتحتها في الكلام رغم دخولها الدار مع علام، عندما جاءت سعاد من داخل الدار تحمل أكواب الشاي أدهشها وجود العمة ورحيل صالح الذي دخل دارنا لأول مرة مع سيد، ربما لكي يؤكد لي أنه يخصه أكثر

مما يخصني، أو أنه أراد أن تكون المسألة مجرد تعريف بالمكان ورفقة عابرة لا تطول، كنت أريد أن أسأل سيد إن كان التقى به صدفة أو أنه طالع من داره إلى مكان فقام بتوصيله في سكته، لكن دخول العمة كهرب الجو في أعقاب دخولهما بدقائق لم يتم خلالها إعداد شاي التحية، كان الجميع كانوا على موعد لتعكير الجو وسيادة الكدر، شيء ضيع فرحتي وجعلني لا اطمئن إلى إمكانية تكرار زيارته لي.

قطع علام الصمت الذي سيطر على الجميع بكلام غريب:

ــ الله يرحمه جدك عبد القادر كان حاجة تانية، كان قد الدنيا ولا يغلطش في حد أبدا، إنما سي صالح ده زي ما يكون ما حدش مالي عينه، شوف اتحايلنا عليه قد إيه؟ ودي أول مرة يدخل دارنا.

ــ أنت صحيت لعبد القادر يا علام؟

ــ خبر إيه يا عمه.. هو أنا صغير؟

كان سيد يتابعهما بنظراته وكنت أشعر بالقلق لذلك الشكل من اللقاء الذي لا يتيح لي فرصة المشاركة، ويبدو أن سيد نفسه أدرك ذلك فالتفت إلي وابتسم قبل أن يسأل العمة منبسطا:

ــ ما قلتليش لسه.. حضرتك تبقي مين.

ــ فطوم.. سمعت عن فطوم؟

ــ كتير.

ــ قالولك عني إيه؟

ــ أنا ح استأذن.

قالها وهو يقوم من جلسته وعلى ثغره ابتسامة هادئة، مد يده وسلم على الجميع رغم اعتراضاتي واعتراضات علام، وعندما خرج كان كوب الشاي مكانه لم يمس وكان المشروب فيه قد فتر أو برد إلى حد يصعب على النفس أن تشرب منه جرعة.

في تلك الأمسيات كانت تبقى عندنا، وكان هو يقفل دكانه مبكرا ويعود حاملا اللفافات الورقية ، يناولها لأمي في زهو ويطلب منها أن تجهز العشاء تجيب "بالحاضر" وتغطس مع البنات في وسط الدار، يجلس أبي إلى جوار العمة ويرحب بها في حماس قبل أن يسألها إن كانت راضية عن حال الدار متوجسا وتجاوبه:

ــ عاوزاك مستور قصاد العدو والحبيب يا عبد الستار.

ــ البركة فيكي يا فطوم.. لولاكي.

ــ اسكت.

تقول محذرة فينظر ناحيتي ويسكت ثم يحادثها في أخبار الناس وما قد يكون قد جرى في الكفر من أحداث، يفتح لها سيرة الدكان وما يكون قد أضافه من أصناف جديدة وتلك التي كف عن المتاجرة فيها، تحذره من القعاد في خمارة عزت شلبي فيطرق في حيرة حتى تنحط طبلية العشاء وفوقها الصينية الكبيرة، يضع أمامها طبق " الزفر " الكبير ويهمس في تبسط:

ــ فرقي ع العيال يا فطوم.

تمد هي يدها وتبدأ في التقطيع، وتبدأ به والبنات ثم تضع نصيب أمي وتقول عبارتها المألوفة للجميع:

ــ اللي منابه صغير يقول.

لا يقول أبنا شيئا عن نصيبه، ربما لأن تلك الأمسيات التي كانت تشاركنا فيها وجبة العشاء يكون النصيب فيها مضاعفا ونادرا ما كانت الواحدة منا تقدر على إكماله، ينتهي العشاء وتقدم أمي محتويات الأكياس التي جاء بها أبي من دكانه، أكثر ما كنت أحبه أن نتحلق في الشتاء حول راكية النار ونشوى "أبا الفرو" أسمع طقطقاته وأرى قشرته وهي تنفتح وأصبح من السهل الخلاص منها. وتلك الحلوى المخلوطة بالحمص والسمسم على هيئة أقراص وأصابع، كنا نشبع في تلك الأمسيات أكثر، وكانت هي تحكي تلك الحكايات التي لا تنتهي أبدا عن جدها الملك الشلبي الذي حكم الدنيا المسكونة زمنا، والذي كان يرسل في كل ركن من أركانها أميرا من نسله يحكم بالعدل ويحاسب الظالمين، تقول أن نسله كان كثيرا إلى درجة أنه كان لا يعرف له عددا، وأنه كان نسلا من الرجال في أول الأمر حيث كانت كل خلفته صبيانا، وتؤكد العمة أنه برغم كل ما كان يملكه وكثرة خلفته يشعر بالحزن ويبكي، وعندما نسألها تقول إنه كان يشتاق إلى خلفة من البنات ويرى أن الدنيا ظلمته ولم يحقق فيها مرامه، يسألها أبي كيف؟ فتجاوب على الفور بأن الملك الشلبي كان يقول لأكبر أبنائه أن البنات جذور في الأرض يصعب اقتلاعها وأن الأولاد فروع مهما قويت سهلة التكسير، وتضيف وهي تنظر إلينا بحب أن البنت أم وماعون والولد ريح طيار صعب الاحتفاظ به، كنا نفرح بتلك الحكايات ونتباهى بأننا بنات، نفرح أكثر لأن الملك الشلبي خلف من البنات أضعاف خلفته من الأولاد، تسألها أمي بعد تردد عن أملاك الملك الشلبي فتبلع ريقها وترد بأنه كان يضع الذهب في صناديق كبيرة يملأ بها خزائن أصغرها في حجم مندرتنا الكبيرة، أذكر أنها قالت عنه أو عن ملك من نسله أن قصره الكبير كله كان مبنيا بطوبة من الذهب وطوبة من الفضة، وكانت نصف ثياب بناته وحريمه من الحرير الهندي والتي لا تشبه ثياب الخلق في زماننا، تسألها نعمات بجرأة إن كانت واحدة من بنات بناته احتفظت بواحد من تلك الثياب فتحكي أن جدتها احتفظت بواحد منها في صندوقها وهي في أرض البراري، وأنه حدث أن سطت على بيتها هناك عصابة من اللصوص وحملوا الصندوق بما يحويه فظهرت أمامهم

وقايضتهم ببعض مصاغها من الذهب مقابل الصندوق، وأن اللصوص حسبوها امرأة بلهاء لأنها ضحت بالذهب مقابل بعض الثياب القديمة في صندوق لا يساوي، لكنهم أدركوا الخدعة عندما باعت جواهر الثوب المخبوءة في طياته كل جوهرة بمال لا يقدر، ذلك أن الجواهر كانت مخفية بطريقة لا يعرف سرها إلا صاحبة الثوب بنفسها، تقول العمة إن جدتها تركت أرض البراري وجاءت لتشتري زمام الكفر من أولاد عوف الكبار ودفعت الثمن ذهبا خالصا لكنهم بعد موتها أنكروا الأمر وعاركوا أولادها وأولاد أولادها، كنا نغضب من أولاد عوف ونود لو كنا رجالا لنعاركهم ونأخذ منهم ما سبق وأخذوه بالقوة واستعادوه ظلما، لكننا كنا نفيق على حقيقة كوننا بناتا والعمة نفسها امرأة لا تقوى على حرب الرجال، وأحيانا كانت العمة تنسى وتحدثنا عن اعتزاز جدها بذكورة نسله ويتباهى بهم قائلا أن ذراع الولد سند وعون وسلاح وأنه بهم حكم الدنيا، وأن البنات هم وعار إن غفل عنهم أو سرح بعيدا عن أرضه، وعلى المرأة أن تعوض ضعفها بالحيلة والدهاء، كنا نحتار في أمر الملك الشلبي، هل كان يحب خلفة الصبيان أكثر أم خلفة البنات، ونسألها عن بلده تلك التي تحكي عنها فتشرد بنظراتها إلى البعيد وتحكي عن بلاد بعيدة يحيطها نهر وبحر بلا قرار وعلى أطرافها صحراء ممتدة وبراري براح، تحكي عن مخاطر السكة إليها واستحالة الوصول إليها في الطرق المسكونة بالذئاب والثعالب والسباع، تحرص على أن تؤكد أن براري أرض الملك الشلبي غير تلك البراري التي جاءت منها جدتها التي اشترت زمام الكفر بالذهب وتلك التي يسكنها البك الشلبي، يبدو عليها التعب من كثرة الأسئلة وتتوه أحيانا بين الرغبة في الاستمرار أو السكوت بعد أن تقول عبارتها التي اعتدنا سماعها في مثل هذه الحالات:

ــ وجعتوا دماغي بقى.

ــ احكي لكم عن عمتكم فطوم أيام زمان.

يتدخل أبي بحماس فنعرف أن دوره في الحكي قد جاء، كان يحكي عن صباها وشبابها الذي لم تشهده، وكيف أنها كانت بألف رجل، عن جمالها الساحر وفتنتها التي تسحر العابد، وكيف أنها ما زالت قادرة على تعمير بيوت وتخريب دور الكارهين الظلمة إن فكروا في معاداتها مهما بدا للخلق أنهم أقوياء. وكان ينظر إلى كل واحدة منا ويباهي بأنها أخذت من العمة شيئا:

ــ نعمات واخدة منك النضافة يا فطوم، شاطرة في الطبيخ والعجين والخبيز وكافة طلبات الدار.

ــ جواهر بنتي عزم وصحة، أهو من غيرها لا نطحن ولا نغسل حب ولا نعرف نترب لمواشي ولا نشيل سباخ.

ـ عطيات سهتانة وواعية ولا يفوتهاش فايت، القرش ع القرش وفي الحساب لبلـب، بقول نمسكها مصروف الدار من دلوقت هيء ـ هيء.

يضحك فتضحك، لا يقول عني شيئا لأنها تسبقه، تحوطني بذراعيها كأنها تحميني من خطر لا أراه وتقول:

شوق دي حتة مني.

أشعر بالزهو أكثر من كل البنات، التصق بها أكثر حتى يحين الوقت الذي تفكر هـي فيه أن ترحل، تقف وتحبك طرحتها حول وجهها وتتغطى بالملس وهم يطمئنونها بأن السـهرة لم تبدأ دون جدوى، تخرج ويخرج أبي في أعقابها ليوصلها حتى تدخل دارها وعندما يعـود لاهثا يحدث أمي بصوت خافت وكأنه يذيع سرا أعلنه على مسمع منا عشرات المـرات وإن كان يخشى أن تسمعه الحيطان التي بها آذان مستورة لا نراها:

ـ دي رسمالنا دلوقت يا مريم، قرشها ف عبنا ولا لناش حد غيرها..

ـ عارفة يا خويا.. عارفة.

ـ إوعي تزعليها يا مريم بكلمة كدة ولا كدة.

ـ يا لهوي، دانا لجل خاطرك أحطها ف حبابي عنيه وأعمل لها خدي مداس.

ـ إن جرالها حاجة بعيد الشر كله ح يبقى للبنات.. فطوم مهياش هبلة تضيع شـقاها على حد غريب..

ـ عارفة يا خويا.

ـ سايسيها يا مريم ولا ترديش عليها غير بكلمة نعم وحاضر.

ـ حاضر.

ـ البنت شوق تروح تبات معاها الليلة الجاية، تسليها.

ـ حاضر.. تروح.. وماله.

رأيته في المنام يوبخني، يخطف مصاغي ويرمح فوق سطوح الدور وقد خلص مـن عجزه وقام، يدخل خمارة عزت شلبي ويلعب بالورق وأنا أرمح لأخلص ذهبـي مـن بـين أصابعه، يقامرني رغما عن إرادتي فألاعبه "الكومي" وأخسر، أبكي وأتضرع له أن يعيد إلـي مالي المخطوف ويعاندني، يعايرني بخلفتي الأولى ويهددني بخطف الولد الثـاني إن ظللـت أبكي، أسعى لأمي وأحيلها عليه ترجوه حينا وأرجوه حينا، وهو يتضاحك فرحانا لأنه امتلـك، استعاد ماله الضائع بمالي وحوط عليه في مقبرة، أمشي سكة المدافن وقد فشلت، أتباكى مـع أمي، أقول لها إنه لو كان أبي ما خرب حياتي مرتين فتواسيني وتمزق ثوبها فأداري عريهـا بشالي وأظل أبكي وأبكي وأدعو عليه وقد نالني التعب، أستند على جذع نخلـة فـأراه علـى

مقربة مني يكيدني ويزود همي وعلام واقف وقد احمرت عيناه يسألني عن ماله الذي أضاعه أبي، يجف ريقي من كثرة النداء ولا يرد وأقوم مفزوعة أصرخ طلبا لجرعة ماء.

***

كانت تكره في السابق خلفة البنات، قال أبي إنها أشارت عليه ليتزوج أخرى تنجب الولد وأنه طاوعها وهجر أمي لسبع سنوات وادعى أنها انقطعت خلفتها، ولما طالت عشرة الأخرى التي لم نرها ولم تنجب لا بنت ولا ولد أشارت عليه ليجرب مرة أخرى فلم يوافقها، هل قال أنه طلق الأخرى أو أنها ماتت بحسرة؟ تاهت من ذاكرتي حكاياته القليلة عنها وما تبقى غير مرارته عندما كان يحكي عن خصام العمة له زمنا، كان يحرص على أن يقول لنا:

ـ فطوم كانت عايزة مصلحتي يا ولاد، وكل شيء نصيب.

يسكت فترة ثم يقول:

ـ صعبت عليا العشرة معاكي يا مريم، أهو لو ما كانش حصل اللي حصل ما كناش شفنا عطيات ولا شوق.

كانت أمي تغصب على روحها وتبدي أنها سامحتها من زمن، تحسب أنها ترضيه وكلنا يعرف أنها ما سامحت ولا غفرت لها أبدا، صحيح أنها كانت تطاوع وتمتدح وتقبل كل ما تشير به العمة دون اعتراض تنفيذا لوصاياه، وكنت أنتظر منها أن تعترض مرة أو ترفض أو حتى تثور في وجهها لكنها لم تفعل أبدا، ظللت أنتظر دون جدوى، وكنت أغتاظ منها عندما تقبل منها محاولات الإذلال وتسكت فأوشك أن أطالبها بعدم السكوت ولا أجرؤ، ما كان يزود وجعي من ناحيتها أنها كانت تضعني وأنا ابنتها في صف العمة، سمعتها بنفسي تحذر البنات بصوتها المهموس المحاذر:

ـ شوق دي عيلة ما تعرفش، ما حدش منكم يغلط قصادها بكلمة تنقلها لها، يا ما نفسي أشوف فيكي يوم يا فطوم يا بنت بهانة، سبحانك يا خلاف الظنون، أهي لا طالت ولد ولا بنت، اتفرعنت بالكلام وبس، عاشت وبكرة تموت وهي بتتمنى ضوفر عيلة عميا ولا هياش ح تطول.

عندما أحست أمي بوقع خطواتي بان في عينيها الفزع وكأنني هم الموت نزل عليها على غير توقع، وسرعان ما غيرت نبرات صوتها وتعمدت أن تسمعني:

ـ عمتكم فطوم يا بنات ما فيش أشطر منها في الدنيا دي بحالها، شملولة وكلمتها صايبة، بس يا خسارة...

جلست إلى جوار نعمات وكأنني أحتمي بها من ظنون أمي التي أجبرت نفسها على الكذب خوفا مني وأنا التي أعشقها وأكره ضعفها، وعندما تحسست نعمات ظهري في حنو

وكأنها تواسيني انفتحت في البكاء بحرقة، سألتني أمي والبنات عن السبب قلت إن كلاب "الواطية" طاردتني وأنا راجعة وخوفتني، كنت بالفعل خائفة لكنني أيضا كنت غاضبة لأنني عجزت عن تخليص الصدق من الكذب، ربما كنت أرغب في البوح بأسباب بكائي ولا أستطيع.

في الليل جلست مع البنات وهن يستعدن ما جرى للعمة التي ما زالت أمي تريد أن ترى فيها يوما أكثر مما رأت، كانت قد تعذبت في الدنيا دون ذنب، دارت على الحكماء والمشايخ والأولياء سعيا وراء الحلم في الإنجاب دون فائدة، لم تسمع عن شيخ إلا وزارته، ودفعت ثمن الحجاب وفك السحر المكتوب لها بلا جدوى راحت لحكيم البندر وحكيم طنطا وكفر الشيخ فوصفوا لها حبوبا ولبوسا وشرابا مرا مثل العلقم كانت تشربه على كره منها عسى أن يكون فيه الشفاء ولم ينفع، تمرغت أمام أمي والبنات في حوش زاوية أولاد عوف قبل الفجر بساعة، حطت بدنها بين قضبان قطار مر فوقها وشيب خصلة من شعر رأسها، كنست مقام سيدي الأربعين وأطعمت مساكين الدرب لحما وأرزا ووزعت عليهم مقاطع القماش عشرات المرات، دقت مسمار في لحد طفل مسلم وقت صلاة الجمعة اليتيمة، رشت ماء الورد وماء الزهر على مدفن نصراني أسلم في الكفر ومات، بالت على شاهد قبر امرأة عاقر لم تنجب، ظلت تحنو على أطفال الناس وتملأ بهم دارها، تطعمهم وتسقيهم السكر المبلول، استخدمت صوفة وعرت جسمها لبدر التمام، شاف فيها أهل الكفر أياما لكن أمي لم تشبع، كانت تعايرها من بعيد.. لبعيد بوحدتها وهي تتكلم عن خلفة الأخريات. وحدثتها مرة بنغمة إنكار عن أحد أزواجها السابقين وكأنها تريد أن تؤكد تصديقها لما سمعته عنه:

ـ الخلق في كفرنا بيولدوا البغلة، قال إيه يا عمه شافوا المخفي درويش شلبي في البراري ومعاه عيل بيقول عليه ابنه، مش كان كشف والحكيم قال إن ما لوش في الخلفة زمان وأنتي وياه؟.

شردت هي لحظات، علها تذكرت خلالها الرجل الذي عاشرته زمنا مثلما عاشرت غيره بلا ثمرة، لم تستنكر الخبر ولم تسلم بصدق حدوثه:

ـ كل حي بياخد نصيبه يا مريم، أهو كلام وربنا يسهل لعبيده.

ليلتها أخذتني معها كما كانت تفعل فتحميني وتمشط شعري وتلبسني ثوبا جديدا تكون قد اشترته لي وحفظته في صندوقها، تطعمني من سد الحنك وتحدثني عن أشياء لا أعرفها وتجاوبني مهما كثرت أسئلتي، لا تشكو من وجع الرأس أبدا، تجعلني أتمدد بينها وبين الحاج فرج، أغفو وأصحو لأجدها وقد أخذتني في حضنها، وعندما أتقلب تجذبني مرة أخرى على صدرها الناعم وتقبلني لأطمئن ثم تهمس لي وقد أسبلت عينيها:

ـ قولي يا امه.

أقول فتشدني إليها أكثر إلى درجة أشعر فيها بالألم، ينكتم نفسي عندما ينـدفس فمـي وأنفي في لحم صدرها الطري، أعجز عن تخليص روحي وأشعر بيد الحاج فرج وهي ترخي يدها التي تحيط برأسي وهو يهمس معتذرا وخائفا علي:

ــ على مهلك يا فطوم.

تخفف من مسكتها وتربت على ظهري فأنام وأصحو، أشعر بقطـرات مـن عرقهـا الدافئ تتساقط على شعري ووجهي، أسمع همسها فحيحا لاهثا لا يشبه صوتها المألوف:

ــ قولي يا بت.. قولي لي يامه.

تكررها عشرات المرات فأناديها بأمي وهي لا تكف عن الرجـاء كأنمـا لا تسـمع صوتي، يسكن بدنها بعد انتفاضة يسيرة أحسها ويبقى اللهاث المتتابع، يمسـح الحـاج فـرج قطرات العرق عن وجهها ورقبتها، ربما يحملني إلى مؤخرة السرير العريض، وربما أشـعر به يغطيها ويتغطى، ربما أسمع صوته يحادثها ولا ترد، وربما أنام ولا أصحو إلا بعد الفجـر بساعة فأراها تبتسم لي وقد استحمت وابيضت أكثر في قميص جديد لم أشهده قبلا، لا تلومني على الصحو المتأخر في تلك الأيام، وربما تطالبني بمعاودة النوم في حضـنها فأنـام وأنعـم برطوبة البدن المستحم.

دخلت عنايات بنت أم بكري من باب المندرة مدفوعة على غير عادتها، كانت تـنهج وتلتقط أنفاسها بعسر وتدور بعينيها في تردد كأنما فاجأها أن ترى علام، انطفأ حماسها وكادت تخرج وهي تتلعثم في كلماتها:

ــ كنت فاكراكي لوحدك..

ناديتها وناداها علام فوقفت عند الباب حائرة ومترددة. شجعها علام لتـتخلص مـن ارتباكها عندما رأته:

ــ ما لك يا بت، متبرجلة كدة ليه؟ البلد نزلها مفتشين التمـوين ولا انحطـت عليهـا داهية؟

ــ لا.. ما فيش.. أصل..

قلت أطمئنها:

ــ اقعدي يا عنايات وخدي نفسك، حصل إيه؟

ــ أصل فيه ضيف عايزك أنتي.. ف دار أبوكي.

تبادلت نظرة مندهشة مع علام، أي ضيف؟ وفي دار أبي التي لا أدخلها بأمر عـلام، لو كان من الكفر لجاء إلى هنا فالكل يعرفون، لا بد أنه غريب.. ولا بد أنني كنت قد أوشكت على لومها لأنها تعرف فبادرت تدافع عن نفسها:

ــ ما أنا عارفة أنك ما بتروحيش هناك، بس هو محكم دماغه، أهو مستنيكي هناك.

ـــ وده مين بقى النبي حارسه اللي محكم دماغه كمان؟

قلت بإنكار وأنا أرقبها وأتشكك في وعيها فردت دفعة واحدة لتخلص نفسها من الموضوع:

ـــ سيد.. سيد ابنك.. دا بسم الله ما شاء الله بقى راجل، طول وعرض وعليه القيمة، قلتي إيه؟

لم تنتظر جوابي وتسللت من المكان كأنما تهرب من النظرات والموقف الذي لا تملك فيه حق إبداء الرأي.. "وما على الرسول إلا البلاغ" كما يقولون، نظرت إلى علام فوجدته مطرقا وكأن الأمر لا يعنيه أو يعنيه إلى درجة أنه ينتظر مني أن أسأله السماح لي بأن أذهب إلى دار أبي تلك التي امتنعت عن الذهاب إليها تنفيذا لإرادته، رفع رأسه في تكاسل ونظر إلي مليا، لعله أراد أن يتكلم ثم تراجع:

ـــ ح نعمل إيه؟

سألته بحذر فرد:

ـــ كيفك.

كانت قد مرت سنة أو يزيد منذ تعارك مع أمي بسبب رغبته في أخذ جزء من الدار يوسع بها دكانه ويعمل فيها مخزنا للبضائع سدادا لبعض دين أبي القديم لكنها لم توافق، طالبها بميراثي فامتنعت، تمنى لها الموت وتطاول عليها فلم تسكت، انقطع بينهما حبل الوداد تماما وكان الاختيار أمامي، أما أن أخرب على روحي من أجلها أو أميل مع الريح حتى تهدأ الزوبعة وترجع المياه إلى مجاريها، وقد أراحتني هي عندما بعثت عنايات لتسر إلي على لسانها عبارة واحدة ما زلت أذكرها:

ـــ دارك وعيالك أولى بيكي.

ربما كانت وصيتها قد جاءت على راحتي فهززت رأسي علامة لموافقة، أصبح من المألوف أن ألقاها في دور الغرباء، أم بكري أو واصفة أو النبوية أو أي واحدة من دور الدرب، قطع علي صمتي بعبارته:

ـــ مستنية إيه؟ قومي إلبسي.

ترددت فأصر فقمت، أخذت سعاد معي وسمعته يقول مودعا:

ـــ ح أحصلك.

كنت بين مصدق ومكذب والبنت تسبقني فأستمهلها حتى وصلنا إلى باب الدار المفتوح، رأيته واقفا قبالتي وأمي تتنفس بارتياح وهي تنظر ناحيتي:

ـــ أهي جت.

واجهني الولد الذي أخذوه مني وغاب أو غيبوه، كان يتأملني وأتأمله في صمت، وجهه الباسم يداري حزنا مدفونا خلف تقاطيعه، والعود فارع وصلب يسكنه جرح نزف على امتداد عمره، هل بكيت أولا أم أن عينيه دمعتا قبلي؟ لا أذكر، أذكر أنني أخذته في حضني بفرح وتحسست بدنه وأنا أتذكر قطعة اللحم الطري الصارخ يوم أخذوه مني آخر مرة، ربما أكون عاتبته على اختيار مكان اللقاء في هذه الدار الخراب واحتجت أمي، وربما تكلم هو عن أصول يرعاها فلم أعلق على كلامه، رحت أتأمله ويتأملني قبل أن ألومه لأنني سمعت أنه ذهب مرة إلى دار صالح ولم يفكر في زيارتي، لعله شعر بالخجل فدافعت عنه أمي:

ــ كان جاي مع أبوه يعزوا في ابن عم أبوه.

نظر إلى سعاد وسألها:

ــ في سنة كام؟

ــ سنة رابعة..

لم يعلق.. دخل علام وسلم بحرارة أراحتني وهو يتمتم:

ــ ما شاء الله..

تبسط علام ووجه الحديث لأمي فردت عليه بنفس البساطة وقلت لنفسي هي بشرة خير أن يصالحها يوم زيارة سيد، سأله علام عن مدرسته فضحك وأوضح أنه أنهى دراسته في الجامعة منذ عامين وأنه موظف، سأله عن مكان عمله وعنوانه فكتب له كل شيء، كان من الواضح أنه لا يعرف علام ويناديه أو يرد عليه قائلا له:

ــ يا حاج.

ــ حاج إيه؟ إنت مش عارفني؟ اعتبرني خالك علام بلاش جوز أمك، طيب بلاش دي، مش كان يصح برضه تروح لأمك دارها؟

ــ أصل..

ــ اصل إيه وفصل إيه يابني.. داحنا قبل كل شيء أهل، قومي يا ست أم شاكر واسبقينا ع الدار، عاوزين نتغدى غدوة حلوة من إيديكي، ح نحصلك.

أذكر أنني قمت وانتظرت ساعة ولم يحضر سيد أو علام ولا بعثوا لي مرسالا يعفيني من الانشغال بغداء لم يكن له منه نصيب.

اعتدنا من جواهر أن تجلس وحيدة على أول درجات السلم أو على "الحصير" أو في صحن الدار، حافية القدمين غالبا وثوبها متسخ بالأوحال والروث، ونادرا ما كانت تشاركنا جلساتنا الليلية في المندرة أو القاعة، يتذكرونها عندما يحتاجون إليها فينادون أو يبعثون إليها لتجيء تطلب منها أمي أن تملأ الزير من ماء الترعة أو تأمرها نعمات بغسيل الحبوب فيها، يطلب منها أبي ترتيب الزريبة فتهز رأسها علامة الموافقة وتبدأ العمل، تغطس في وسط الدار

أو تتزرع في داخل الزريبة لساعات وساعات تفرش الرماد تحت حوافر العجول والجاموسة "الحلابة" وتكوم "السبخ" في ركن حتى يدخل ابن الزناتي بالحمير ويقوم بتحميله ونقله إلى الغيط، ربما يفوت موعد الغداء أو العشاء وهي في الداخل دون أن يذكرها أحد وعندما يتذكرونها يتحدثون عن التعب الذي لا بد وأنها شعرت به والشقاء الذي احتملته دون اعتراض أو شكاية، كانت تأتي من الداخل تنفيذا لطلب أو ردا على نداء بثوبها الذي شمرته وجعلته مربوطا إلى وسطها والعرق ينز من عنقها ولو كنا في عز الشتاء، يطالبونها بأن ترتاح وتكف عن الشغل فتكف، تجلس في أحد الأركان في هدوء وتبدو للصغير والكبير جاهزة لتلقي الأوامر وتنفيذها دون مناقشة، مفصولة عن أهل الدار وكأنها ليست من لحمنا ودمنا، كانت تبدو لي غريبة بالفعل عنا، غريبة ومختلفة بشكل ملحوظ، ونادرا ما كانت تستحم دون عراك مع أمي أو العمة أو حتى نعمات التي كانت تعايرها بعفونة ثيابها والكسل: لا أذكر أنها لبست أمامي ثوبا جديدا يخصها، ربما كان " الخليع " أو ما تستغني عنه أمي أو تخلعه نعمات هو كل كسوتها، وربما كان أبي مسئولا عن ذلك لأنه قبل دخول الأعياد ومواسم الكساء كان يطيب له أن يرتب الأمر معنا، يتحدث عن نواياه وعدد الأمتار التي سوف يأتي بها لكل واحدة، كان يذكرنا جميعا وينساها حتى عندما تنبهه العمة أو أمي بجواهر يداري خجله بعبارة حفظناها وتندرنا بها من كثرة تكرارها:

ـ وهو معقول أنسى جواهر؟ دي جواهر.

لكنه كثيرا ما كان ينساها أو يتناساها، يتصادف أن تكون معنا بدعوة من الكبار لترى قطع القماش وألوانها ولمن اختارها أبي، ونادرا ما كان يظهر لنا أن لجواهر نصيبا مثلنا، حتى لو لامته العمة يضحك وهو ينظر إلى جواهر ويقول:

ـ أصل جواهر دي عاقلة، هي اللي فيهم، ما هيش بتاعة كلام فارغ من ده تلبس من هدوم أمها أو هدوم نعمات، مش كدة يا جواهر؟ قلبها على أبوها وعايزة توفر له.

يقول ويضحك وربما نجاريه ونضحك فتضحك ولا تبدي أي اعتراض أو احتجاج حتى نوشك أن نصدق أنها بالفعل الوحيدة العاقلة بيننا، لكنها في الحالات النادرة والتي يقدم لها أبي قطعة من القماش تخصها، كانت تقلب طرف القماش بين أصابعها بفرح وتسأل الجميع إن كان لونها يليق بها وتتلقى الأجوبة، تبدو سعيدة ومنشرحة لساعة أو ساعتين ثم تشير إلى نعمات أن تقترب منها لترجوها وهي تحوطها بين يديها وكأنها تستجديها:

ـ يا ريت تفصليها عليكي.

كانت نعمات لا تعترض لأنها تفعل نفس الشيء في ثياب أمي التي تفصلها على مقاسها، الفارق الوحيد هو أن أمي كانت تأخذ ثيابها الجديدة بعد تفصيلها وتجريبها على نعمات، أما جواهر فكانت تنظر إلى نعمات وهي تقيس ثوبها الجديد ثم تقول لنفسها:

ـــ حلو عليها خالص.

وبعدها توجه كلامها لنعمات:

ـــ مبروك عليكي.. أنا وأنت واحد.

ومهما حاولت نعمات إفهامها أن لديها ثيابا جديدة لا تقبل أخذ الثوب منها أبدا، قد تترك المكان إلى وسط الدار فرارا من الإلحاح أو تطلب من نعمات البديل من الثياب القديمة:

ـــ ابقي اديني بداله القميص أبو وردة زرقة.

كانوا يتبادلون النظرات ويؤكدون أن هذه البنت فيها شيء لله وزاهدة في الدنيا، كنت أشعر بالخوف منها في بعض الأحيان، تطمئني نعمات وهي تسخر منها بجرأة:

ـــ دي عبيطة ومعفنة وتلاقي القمل بيشغي في رأسها من كتر الوساخة.

كنت أصدق كلام نعمات وأتخيل أن رأس جواهر المربوط دائما بالمنديل والذي نادرا ما تحل ضفائره لا بد وأن يكون فيه قمل: حتى يجبرونها على الاستحمام أو غسيل رأسها تحت الطلمبة فأرى شعرها المحلول طويلا وناعما وغزيرا وهم متحمسون في تمشيطه بحثا عن حشرة واحدة ولا يجدون، لا تغضب منهم مهما قالوا عنها، وتقوم بكل الأعمال الصعبة في الدار، تحمل قفف القمح المغسول والذرة وتطلع بها إلى السطوح، تفرشها على الملاءات والأحرمة والحصر حتى تنشف في الشمس قبل النقاوة، والطحين تقوم بتنزيلها وتنتظر حتى تنقي القمح من " الحصو والكحريد " لكي تحملها قفة وراء قفة إلى الطاحونة عدة مرات، تطحنها وتعود بها دقيقا ناعما وقد تعفرت، كنت أذهب معها أحيانا فأراها وهي تهبد فتحة الطاحونة الصاج براحتيها بعنف وقوة لينزل كل دقيقنا من الفتحة ولا يتبقى منه شيء مركون في " القادوس "، كانت أمي ترضيها يوم الطحين بعبارة لا تتغير:

ـــ آخرتك ح تبقى بيضه زي الدقيق العلامة.

تفرح جواهر وتبدو كما لو أنها لم تتعب طوال النهار، وكثيرا ما كانت تتطوع في الصباح التالي بتجميع روث البهائم في حفرة وتضيف له نخالة التبن الناعمة وتهرسه بقدميها هرسا متواصلا، وربما في الليل ترصه أقراصا جديدة فوق القديمة أو في فراغات السطح وتهمس للأم بأنها جهزت للخبيز وقوده فتدعو لها بالستر وعدم الفضيحة.

وكانت هي الوحيدة التي تجرؤ على ربط العجول المحلولة في حلقاتها إذا انفكت حبالها، حتى أبي لم يكن يعرف كيف يقود عجلا معلوفا أو يسايسه كما كانت تفعل، بارعة في سقاية المواشي وتقديم العلف لها في الأوقات المناسبة، وكم وعدها أبي بمكافأة نظير جهدها في الدار ونادرا ما كان ينفذ أو يوفي لها وعده، كان يكفيها سماع كلمة طيبة منه أو ربتة على كتفها.

وعندما كنا نجتمع ساعة العشاء في المواسم كانت تأتي تنفيذا لاستدعائهم، تجلس على مقربة من الطبلية عند طرف الحصير وتمد يدها برغيف جاف لتضع لها أمي نصـــيبها مـــن الغموس أو " الزفر "، وفي كل مرة كانت تتعلل بأن ثوبها ليس نظيفا أو أن قدميها قذرتان أو أن يديها متسختان، كانت تأخذ نصيبها المقسوم وتغطس في وسط الدار، ربما تبلعـــه بلعـــا أو تداريه في مكان، لكنها تعود بسرعة وتجلس في انتظار انتهائنا من العشاء لتتولى حمل الطبلية وصينية العشاء، كان أبي يتابعها بنظراته عندما تترك المكان ذاهبة إلى وســـط الـــدار وهـــي تحمل ما نابها ويحدثنا بحماس الواثق:

ــ اقطع دراعي إن ما كانتشي البنت دي مخاوية جني من تحت الأرض.

وربما قبل أن يكمل عبارته تكون جواهر قد عادت ووقفت أمامنا فأشعر بشـــيء مـــن الخوف منها والرهبة، وربما كنت في الصباح التالي أتودد إليها وأحاول أن أرضيها بعبـــارة تدل على الحب، وفي كل مرة كانت ترد على من يسألها إن كانت قد أكلت نصيبها فترد قائلة:

ــ مقطوع منه النصيب، كلته القطط والكلاب.

وكنت أتشكك وأقول لنفسي أنها أكلته بمشاركة الجني بعد رقادنا، وربما لأننـــي لـــم أشعر ولو مرة واحدة أنها أحست بالندم لفقدان نصيبها، بل العكس يحدث، كانت تبدو وكأنهـــا أدت واجبا مفروضا نحو تلك القطط والكلاب التي تتحدث عنها وأمي تعلق وهي توشك علـــى الانفجار غيظا:

ــ أنا طهقت م الكلام معاكي، خلصت من ذنبك، كنتي دافساه في وسط الـــدار يعمـــل إيه؟ وما تتعشيش في وسطنا ليه؟..

ولا يبدو على جواهر أنها تأثرت بالكلام مرة أو فكرت في تغييـــر عادتهـــا، كانـــت تتركها وتدخل إلى وسط الدار، تجلس على أول درجات السلم وتضع خدها على راحتها وتتوه عن دنيانا، تدخل دنيا غير الدنيا، ومهما حاولنا الكلام معها أو التخفيف من وحـــدتها لا تـــرد، نتركها وننساها وربما تبقى في وسط الدار يوما أو يومين لا تسمع لها صوتا قبل أن نفاجأ بها تسب ابن الزناتي شيال " السباخ " لأي سبب من الأسباب، وهكذا دائما كانت موجـــودة بيننـــا وغائبة عنا حتى حدث ما حدث عندما عدنا إلى الكفر في عصر ذلك اليـــوم بصـــعوبة مـــن مدرسة البندر، وكان المطر قد حول السكة الزراعية إلى وحل طري أملس، سقطنا فيـــه أنـــا وعطيات أكثر من مرة واتسخت ملابسنا الجديدة، كنا نرتجف ورخات المطر تتســـاقط فـــوق رأسينا، دخلنا الدرب الساكت وقد خلا على غير عادته من الناس، لكننا وجدنا زحاما عند باب دارنا عندما انحرفنا في الزقاق، كانت الدار نفسها مزحومة بالرجال والنساء والأولاد وأمـــي تلبس السواد وإلى جوارها أم بكري وأبي هناك عند باب المندرة وسط رجال العائلة وبيـــنهم تقف العمة محاطة بهم وعيناها زائغتان إلى درجة أنها لم تلتفت إلينا أو تحدثنا، كـــان هنـــاك

همس وصخب ودمدمة وصراخ مكتوم في حلوق النسوة، جاءت نعمات وأخذتنا من وسط الزحام، لم نسمع ما قالته وإن كنا أطعناها وطلعنا معها إلى المقعد الشرقي، طلبت منا أن نخلع ثيابنا المبلولة ونبدلها بجلابيب البيت ففعلنا، سألتها عطيات عن سر الزحام واللمة فحاولت أن تداري لكنها لم تستطع، قالت من بين نشيجها المكتوم:

ــ أختكم جواهر، الديب قتلها، نط في وسط الدار وكلها، كانت باينة في الخلا والديب طالها، كفنوها ودفنوها وانتو في المدرسة، سنة سودة السنة دي.

أوشكت أن أصرخ فحطت هي كفها اليمنى على فمي وطالبتني وعطيات بعدم الصراخ أو مجرد البكاء بصوت محذرة:

ــ ما حدش منكم يفتح حنكه، إحنا لنا عدوين في الكفر، ونهار الحكومة ما تشم خبر ح يطلعوها م التربة ويأخذوا أبوكم يحبسوه ومش بعيد ينشنق.

أصابني خرس مرعوب والحزن العاجز يغزوني لأول مرة في حياتي، كانت هناك فجيعة في أخت دفنوها في غيبتنا وكانت في الليل معنا، وقلق مجهول عن أب مهدد بحبس أو شنق دون ذنب، وخوف مبهم من ذئب جسور يتخطى كل الجدران ويقتل، ربما من كثرة الرعب نمت وأفقت على تلك الحقيقة الجديدة وهي أن جواهر ليست في وسط الدار.

كنا في الأيام التالية نتخوف من وسط الدار وصحنها، حتى نعمات وأمي وأبي والعمة كانوا يتهربون من الدخول لسقاية المواشي أو تقديم العلف لها، وكان البكري هو الذي تطوع بتأدية هذا الواجب الصعب أياما.

وفي المدرسة تحدثنا للبنات عما جرى فووجهنا بحكايات خسيسة عن ابن الزناتي وتدبيرات العمة ومقتل البنت في المتبن وسر اختفاء ابن الزناتي نفسه من الكفر في نفس التوقيت " ولو كان لابن الزناتي أهل لأبلغوا الحكومة وأخذوا قاتله بدمه.. ولو كان للذئب البريء من دم البنت الفسدانة صاحب لدافع عنه بأعلى صوت في دروب الكفر الذي يعرف كل ناسه ويكفون على الخبر ماجور ".

قلنا لنعمات فأمرتنا بأن نكف عن ترديد هذا الكلام الفارغ مرة أخرى، شتمت البنات قليلات الحياء ممن يجرؤن على نقل مثل هذا الكلام الفارغ والفاجر عن بنات الناس الطيبة بهدف خراب البيوت العمرانة، بعدها اعتدنا السماع دون رد أو فتح السيرة لنعمات أو غيرها من الكبار، وما عدنا نتجاسر على ذكر اسم جواهر في حضورهم، تماما مثلما كانوا يفعلون.

شاكر وجع قلبي وحيرني في أمره، خاب في المدارس سنة بعد سنة، جربنا معه كل الطرق، نقلناه من مدرسة إلى مدرسة، اكترينا له الأساتذة بأجر فما استجاب، زودنا مصروفه ومنعناه، سلمناه الدكان في أجازة الصيف فما باع بضاعته الراجئة بسبب لسانه المفلوت وما احتاط لقرش ولا صرف في المفيد، عجينة فسدانة استعصت على التشكيل، وفي كل مرة كان

علام يلومني ويعايرني ناسيا أنه بذرته وقطعة منه، بطريقته يمشي ويتكلم " أنت مفسدته وهو عملك، عملك الرديء " يقولها علام فيشعل في قلبي نارا ويزود فيه المرار، فرحته بخلفته زادت عن حدها المعقول، كان يأخذه معه في كل مكان وهو صبي ما زال يسهر به وسط مساطيل الكفر والكفور المجاورة، ويصاحب أولاد الليل وخباصين الناحية، لا أدب عندهم ولا حياء، وكلما اعترضت عارضني:

ــ مالكيش دعوة بيه، خليه يعرف الدنيا على حقيقتها.

في السابق كنت أقول لنفسي لا بأس، أن يزرع فيه طباع الرجل رجاء أتمناه، حتى عندما كان يتطاول بلسانه في الرد علي كنت أتسامح، أعفو عنه إذا ضرب البنت، وكنت أرى فيه الأخ الذي حرمنا من وجوده وانكسرت نفوسنا لأنا لم نحصل عليه أبدا، أداديه كرجل ينمو ويغلظ صوته، وأطيب خواطر البنات الشاكيات من مشاكساته بالفعل أو باللسان، أتخيله رجلا وأستعجل دورة الأيام والسنين لكنني أفقت من خدر الأمنيات ليلة أن بلغني أنه جالس رجال السيد الدباغ في البندر في قعدة حشيش يدخنون على حسابه، ما خوفني غير استغلاله في دفع الثمن هو احتمالات إفساده في أمور لا أعرفها، أولاد الدباغين شهرتهم في الفساد والإفساد لا تقف عند حدود، تجارة مخدرات وتقليع زرع وسم مواشي وتأجير لقتل الخصوم وخطف بنات وتخريب دور، يفعلون كل المصائب ولا يهابون حبسا ولا حكومة والولد مجرد تلميذ في الإعدادية فهل يطمئن عليه قلب الأم؟ ليلتها فاتحت علام وحذرته من الخطر، لم يوقفني ما كان يتهمني به:

ــ كله منك، دلعتيه لحد ما خاب، والخلق دول ما لهمش أمان، خايف يكونوا متأجرين عليه.

ولأول مرة تمتد يده على الولد، ربطه بحبل وظل يضرب بعيدان القطن التي تتكسر على جسم الولد فيبدلها بأخرى تترك آثارا دامية وكأنها كرابيج سوداني وصراخ الولد لا يفيد، كان يضرب بخوف كامن في أعماقه من احتمالات فقده والولد يستجير ويفشي أسرارا ما كنا ننتظر سماعها تزود خوفنا عليه..

وفي الليل حدثني علام عن سر ابن الزفتاوي الذي دفنوه في أرض أبيه بواسطة أولاد الدباغين فاندهشت، ما كنت أعرفه وشاع هو أن ابن الزفتاوي طفش من أبيه بليل وما ظهرت عنه أخبار:

ــ أصل أنتي في نومه، نسيتي التار اللي كان بين أبوه وبين ولاد الملاح، أهو ده راح قصاد التار.

ــ بس دول اتصالحوا، الملاحين والزفتاوية.

ــ كلام، صلح الديب ع الغنم، هو التار القديم بيموت؟

تذكرت ما كان يشيع عن ذلك الصلح الذي تم بين السعيد الزفتاوي ودار الملاح وكيف سرت حكايات عن الصلح بعد العداوة فصدقناها حتى طلع السعيد الزفتاوي من وسط زراعات الذرة في عز الظهر حاملا بلطته لزين الملاح ونزل بها على رأسه فقسمها نصفين كما أكـد كل من حضر الواقعة وهو يهدر:

ــ دم الشريف الزفتاوي ما راحش هدر يا ملاحين.

ومن جديد عقدوا صلحا بعد أن دفنوا زين الملاح، وقالوا هو دم بدم والصلح الجديـد تدعمه المصاهرات واختلاط النسب، لكنها كانت إن صح كلام علام مجرد أكاذيب وكلام فض مجالس، ولا بد أنه سيجيء اليوم الذي يكتشف فيه السعيد الزفتاوي أمر ضناه، يومهـا مـن يدري كيف يكون حال الكفر.

ــ وعرفت ده كله إزاي؟

سألته فبدا عليه أنه تذكر أمرا كان قد نساه وقام في منتصف الليل إلى الولد المربـوط يضربه من جديد ويحذره من مصاحبة أولاد الدباغين، قال الكثير وهو في غير وعيه وعرفت الكثير، ولكثرة ما عرفت زاد خوفي على شاكر، هل كانت بينه وبينهم اتفاقات قديمة علـى دم مسفوح، أم أنه هو نفسه الذي يبدو حريصا إلى أبعد الحدود قد شارك في قتل نساه الناس أيام تجارة الصنف، وماذا أفعل لو تعرض شاكر لمثل ما تعرض له فهيم ابن الجازية التي رأتـه مرميا على طرف المصرف القديم ودمه الجاف من وقدة الشمس قد صـار هـدفا لأسـراب الذباب الأزرق قرب المدافن ولوح الاردواز مكسور تحته ومطموسة منه نصف الآيـة التـي كتبها في صباح نفس اليوم في الكتاب، من يومها تدور في دروب الكفر وتنادي على فهـيم، تمسك كل صبي يلقاها وتسحبه من يده فيصاب برعب وهي تقوده غصبا في اتجاه دارها كما كانت تفعل مع القتيل، لم تبرد نارها وعقلها لم يحتمل صدمة ضياعه دون أمل في تعويضه أو أخذ ثأره، وربما بسبب عجزها غاب عنها العقل وما عاد، تذكرتها وخفت أكثر وأصبح شاكر همي ووجعي على مدى الأيام.

عطيات كانت بارعة في عمل عرائس القطن لنفسها والبنات، تقص قماشها وتخيطـه وتحشوه بالقطن المحلوج فيصبح على شكل عروس، ترسم عينيها وحاجبيها وأنفها وشـفتيها وتضع فوق رأسها خصلة من شعر البنات المدفوس في الشقوق فيتعجب كل من يراها ويقول إن عطيات استطاعت أن تجعل عروس القطن شبه البني آدم، كانت العمة تتفحص كل عروس جديدة وتبدي استحسانها ورضاها:

ــ عجايب.. ناقصها تتكلم.. شاطرة يا بت.

تفرح عطيات وتجري في طول الدار وعرضها لتراها قبـل أن تضـعها مـع بقيـة العرائس التي عملتها، كانت عطيات رغم ضعف جسمها أكبر مني بسنة وإن كان من يراهـا

يحسبها أصغر، صفراء الوجه ممقوتة وعودها ممصوص، عصبية ولا تشارك في شغل الدار ولو انهدت الدنيا، إذا أجبروها على عمل شيء تفسده عمدا أو بغير عمد، وإذا عاقبتها أمي أو وبخها أبي تشوح بيديها في الفراغ وتبرطم بكلام غامض فنضحك عليها وأحيانا نفاجأ بها وقد ارتمت على الأرض، يحملونها وتصرخ أمي:

ــ البنت قطعت النفس.

كنا نعرف علاجها، مجرد بصلة تكسرها ونقربها من منخارها فتشمها وتفيق، ربما تتلفت حواليها وتسأل أول من تراه عما جرى فنعاود الضحك وقد زال عنها الخطر، نسمع أمي تحمد الرب لأنه رد فيها الروح، وإذا كان أبي حاضرا يداعب أمي ليطمئنها على البنت:

ــ قلبك خفيف قوي كدة ليه؟ بكرة المزغودة دي تكبر وتوريكي النجوم ف عز الضهر.

ــ بس تعيش.

ترد أمي وقد اطمأنت مبدية استعدادها لاحتمال عطيات في كل الحالات وهي تربت على شعرها في حنو زائد.

وعندما سقطت عطيات في حوش المدرسة الابتدائي لأول مرة التفت حولها الناظر والأساتذة في قلق، صبوا أكواب الماء البارد على رأسها ووجهها دون فائدة، ضحت " الأبلة " الجديدة بما تبقى من زجاجة العطر في حقيبتها دون جدوى، تحيروا في أمرها وحملها عم شافعي الفراش إلى حجرة الناظر وأنا خلفهم أصرخ:

ــ هاتوا لها بصلة.. هاتوا لها بصلة.

وبصعوبة فهموا قصدي، جرى عم شافعي وأتى ببصلة كبيرة كسرها وقربها من أنفها فارتعشت تقاطيعها وجبهتها قبل أن تفتح عينيها وتغمضهما عدة مرات وقد نزلت منهما الدموع من أثر رائحة البصل، سألت هي الناظر لابس الطربوش الذي كان في مواجهتها وأول من تحققت من وجوده عما جرى ولماذا جاءت فضحك وضحكت الأبلة وضحك الأساتذة وعم شافعي قبل أن يقول لها الناظر بفرحة من انزاح عن صدره هم ثقيل مفاجئ:

ــ قومي ادخلي فصلك يا أم بصلة.

قهقهوا وأنا أخرج وراءها من حجرة الناظر وأحدثها عما جرى، بعدها شاع الاسم الذي أطلقه الناظر عليها، " أم بصلة " ولم يكن يغضبها سماعه من الناظر أو الأبلة الجديدة أو أي واحد من الأساتذة لابسي الطرابيش أو حتى عم شافعي، لكنها في الدار كانت تركبها العفاريت الزرق والجان إذا سمعته، ضربتني في أول مرة أقولها لها في وسط الدار، قطعت خصلات شعري ومزقت قميصي الجديد، قوتها التي لم أتوقعها أربكتني، بعدها طلبت من نعمات أن تخاصمني.

ـ دي فتانة وح تتكوي بنار جهنم يوم القيامة.

كانت غضبانة لأنني نقلت الاسم الشائع في المدرسة إلى الدار، كان اسمها الجديد قد شاع في المدرسة وتردد على ألسنة البنات والأساتذة والناظر لابس الطربوش، ولكنها لم تكن تغضب، كأنها عملت حاجزا بين المدرسة والدار وحددت المسموح به وغير المسموح بحسب هواها، وإذا انفلت لسان في الدار يناديها بالاسم كانت تبكي وتنتحب حتى يغلبها النعاس وتتكوم راقدة في أي مكان.

وحرصا على عطيات أفهموني أنني مسئولة عنها في طريق الذهاب إلى المدرسة والعودة منها، كانت تضع في " مخلاتها " بصلة وسط الكتب والكراريس وكنت أسيرها بحسب رغبتي، أخوفها بأنها ما لم تطاوعني فسوف أتركها تموت في سكة البندر إذا أصابتها الدوخة وغابت عن الوعي، ورغم أنه لم يحدث أن أصيبت بها في الطريق مرة، كانت تخاف، تأخذني في حضنها وتسألني بإنكار:

ـ ح أهون عليكي؟

ـ لا ما تهونيش.. بس اسمعي الكلام.

كانت تحبني وأحبها، وكانت تحب الناظر لابس الطربوش وتفهمني أن طربوشه يختلف عن طربوش عصمت أفندي الصراف أو طربوش أبي الذي يلبسه في المناسبات:

ـ طربوش نسر زي اللي بيلبسه الملك ابن الملك قريبنا.

أضحك أحيانا وأعترض على حماسها وأحيانا أسايرها وأمتدح طربوش الناظر وطربوش الملك فتفرح وتوشك أن تطير ولا تكف عن الكلام، حتى نصل إلى باب المدرسة أو باب الدار.

كانت الأجازة الحزينة التي قضيناها من غير جواهر قد فاتت وانشغلنا أنا وهي في المدرسة، وكان خوفنا من دخول وسط الدار وصحنها أو طلوع سطوحها ومقاعدها قد قل، كنا نتواجد في تلك الأماكن وقد نسينا ما سمعناه، وذات ظهيرة عدنا من المدرسة ودخلنا وسط الدار نرمح لنرى العمة التي كانت تجلس أمام الكانون مزرودة الوجه من أثر النار والدخان يحاصرها وهي تنفخ فيها بعصبية، عندما رأتنا نادتني لأنفخ النار المدخنة وطلبت من عطيات أن تركن مخلاتها وتناولها بصلتين من قاعة الخزين، رجعت عطيات في اتجاه القاعة وظللت أنفخ والنار تبعث الدخان ولا تشتعل، كانت العمة تمسك في يدها السكين استعدادا لتخريط البصل الذي بدا لها أن عطيات تلكأت في إحضاره، فنادت عليها عدة مرات تتعجلها:

ـ البصل يا مخفية.. هي ما بتردش ليه أم بصلة دي كمان؟

وعندما أكملت العمة عبارتها رأيت عطيات من خلال الدخان الكثيف تعبر " الخوخة " وتقف مكانها، تلقى على طول ذراعها عدة بصلات في اتجاه العمة أمام الكانون، سمعتها تبرطم وتشوح بيديها وتصرخ محتجة:

ـ اسمي نيلة عطيات.. اسمي نيله عطيات.

تأججت نار الكانون فجأة وشعرت بالسخونة فانزحت إلى الخلف وقامت العمة بعسر في اتجاه صحن الدار وهي تكيل الشتائم لعطيات وصنف عطيات والمدرسة التي علمتها قلة الأدب، سألت عن شبشبها " وملسها " وطرحتها علامة الغضب الشديد وتهديدا بالخروج من الدار، ولا بد أن أمي أو نعمات قامت بإخفاء هذه الأشياء حتى لا تتمكن من تنفيذ رغبتها وتهدأ وقد ينتهي الغضب على خير، جلست العمة تهدر وحاولت نعمات إقناع البنت بالذهاب إلى العمة لتطيب خاطرها بينما الأم تحاول الاعتذار بدلا من عطيات، لكن البنت عاندت وركبت دماغها ولم تذهب. حاولت معها الأم فلم تستجب، حتى عندما جاء أبي وحاول معها على طريقته لم يفلح، بل إن البنت تعصبت أكثر فتركها تأكل روحها كما قال وجالس العمة مبسطا الأمر ومؤكدا أن البنت صغيرة لا تدرك ولا تقصد حتى أكملت أمي ونعمات عمل العشاء، رصوه على الصينية وشد أبي يد العمة التي هدأت لتنزل:

ـ اقعدي يا فطوم اقعدي.. إحنا ح ننكد على روحنا في ليلة مفترجة زي دي عشان عيلة ما تدركش؟

ـ يخيبك يا بعيدة، أنا يا خويا ما لحقتش، هو إيه أصله؟

يكونش بصل الناظر بتاعكم حلو وبصلنا حراق يا بت؟

قالت وهي تنظر ناحيتي فضحكوا بشدة، ربما كانوا يصالحون العمة بتلك الضحكة وربما توقعوا أن تلين عطيات وتأتي، لكننا سمعنا شهقات البنت حارة ونهنهاتها تفلت منها لتؤكد لنا أنها كانت تبكي بحرقة، كان وجه أمي قد ارتبك خوفا أن يحدث للبنت مكروه وهي وحيدة في القاعة، وكان وجه العمة قد صار مغلولا وبياض خديها يوشك أن يتحول إلى زرقة خالصة ثم قامت تسب وتلعن البنات وخلفة البنات وقلة أدب البنات، ولا أدري كيف أفلحت هذه المرة في العثور على الأشياء المخفية، جهزت نفسها وخلصت أطرافها بعنف فاق كل محاولات إبقائها، كانت العمة قد انفلت عيارها وأصبحت واحدة أخرى، خرجت من باب الدار بليل وأبي في أثرها يحاول إعادتها وتزداد صخبا وهي تمشي في الدرب ناحية دارها حتى ابتعد صوتها فاختفى أو كاد، وعاد صوت الشهقات المتقطعة الآتية من القاعة، ذهبت نعمات والأم إلى البنت ووقفت حائرة وقلقلة من احتمالات توهانها كعادتها، عندما عاد أبي كان يبدو غاضبا وثائرا على الجميع، كان يسب ويلعن هائجا بلا حدود ثم أصدر أمره بعلو صوته مؤكدا على كل حرف:

ـ البنت دي ما تروحش مدارس من بكرة، تقعد في البيت وكفاية الكلام اللي اتقال علينا لحد كدة.

كان من الواضح أنه اتفق مع العمة على ذلك وأنه ليس على استعداد للتراجع، لم يعلق على قراره أحد، تكورنا في أماكننا وسمعنا هزهزات السرير الذي طلع للرقاد عليه بجلبابه الكشمير دون أن يفكر في تغييره، كان يلف الدخان لفافات يدخنها ويرمي أعقاب السجائر في أرضية المندرة، وكلما غفوت وصحوت وجدته يدخن أو يلف سيجارة جديدة حتى طلع النهار وأيقظتني نعمات لألبس ثياب المدرسة وحدي وأخرج وحدي وعطيات راقدة مكانها تتقلب وأمي تتجاهلها وكأنها اتفقت مع أبي خلسة أثناء الليل بأن ذلك اليوم هو أول أيام انقطاعها الدائم عن المدرسة التي عشقتها مثل الناظر الذي كان يؤكد لكل الأساتذة أن عطيات سوف تشرف مدرسته بنجاح متفوق في ابتدائية هذا العام، وربما لم يعرف أبدا أنه دون أن يدري كان سببا في منع تلميذته المتفوقة من الاستمرار في الدراسة، مجرد الاستمرار.

بعد أيام من الرقاد المتواصل الذي امتنعت فيه عطيات من تناول الطعام رغم الإلحاح عليها من الجميع جاءت العمة، اقتربت منها أمي ورجتها:

ـ أبوس إيدك يا عمة، أبوس رجلك تعفي عنها وتسامحيها.

قالت وهي تمسك بالفعل بيدها اليمنى وتقبلها مرات متكررة على ظهرها، ثم تنحني وتمسك بساقها التي خلصتها العمة من يديها بقوة فانكفأت أمي بشدة على وجهها، ولا بد أن الخبطة أوجعتها وأن احتملت وزحفت على الحصير وقد انحل المنديل عن رأسها وزحفت على الحصير ضفيرتاها مستمرة في الرجاء بمذلة أكثر للعمة الواقفة:

ـ البنت يا عمة ح تروح فطيس.

ـ تقطع بروحها يا مريم، أروح أحب على راسها لجل تتسمم وتاكل، أتحايل على بنت لا راحت ولا جت بعد شعري ما شاب؟ يا ريتها كانت ولد يا مريم وأنا أتحايل عليه.

كانت تنظر ناحية القاعة حيث ترقد البنت، لعلها ترددت قبل أن تتجه ناحية باب الخروج غير مستجيبة لكل النداءات التي تئن بها أمي، لعلني في تلك الساعة كرهت ضعف أمي وقسوة العمة، كانت نعمات في القاعة وبدا لي أنني أسمع صوت عطيات لاهثا بعسر إنما بإصرار:

ـ هي السبب في كل حاجة.. هي السبب.

وما زلت لا أعرف إن كانت تقصد العمة أو أمي، تلك التي كانت تنظر إلى مصدر الصوت بيأس كامل، لعلها كانت قد أدركت قبلنا أن نهاية عطيات كانت تقترب وأن أيامها معدودة بيننا، كانت البنت قد كفت عن تناول أكواب الماء التي تحليها نعمات بقطع السكر، كانت تكتفي بالماء الخالي من أي إضافة، وكان وجهها قد ازداد صفرة وجسدها يتصبب عرقا

ولا يجف، ولم يكن هناك غير عينيها الملونتين تنظران إلى الوجوه في سماحة أو إلى خشب السقف، كانت تجرؤ على تأنيب أبي لأن العمة تسيره على هواها بمالها وكان لا يرد عليها، يبدو متألما وعاجزا عن فعل شيء فيخرج من القاعة أو يهرب من كل الدار تاركا أمي وحيدة وقد أحنت رأسها في انتظار الموت.

ـ يا كبدي يا بنتي.. هو انتي حمل ده كله؟

كانت تسألني عن المدرسة والناظر لابس طربوش النسر فأحكي وأحكي وفي داخلي إحساس بأن هذه الأيام لن تتكرر، وبأنها سوف تموت وتذهب إلى الجنة وترتاح من تعب الدنيا وقسوة الكبار.

الوحيدة التي لم تتراجع أو تطل عليها مجرد إطلالة كانت هي العمة، تأتي متجهمة طوال الوقت كما تخرج، لعلها في كل مرة كانت ترغب في مصالحة عطيات كما أكدت لي بعد ذلك لكنها لم تستطع أبدا، شيء غامض كان يمنعها في اللحظة الأخيرة، وكانت عطيات رغم قلة وعيها في الأيام الأخيرة بما يدور حولها تتجهم إذا سمعت صوت العمة، فأوشك أن أطلب منها الرحيل ولا أجرؤ، كنت ألوم نفسي وأشعر أنني كنت مسئولة عما جرى لها دون قصد، ولولا أنها قالت لي مرة قبل أن ترحل وهي تمسك يدي بينما أحكي لها عن المدرسة والناظر بعسر:

ـ مالكيش أنتي دعوة يا شوق.. ماليكش دعوه يا ختي..

لولا أنها قالت وسمعت لمت مقهورة بعدها وبنفس الطريقة. ففي صباح شم النسيم وجدناها راقدة مكانها وقد انقطعت أنفاسها تماما، عيناها مفتوحتان ترقبان خشب السقف ويداها على صدرها وكأنها على استعداد لتسميع درس حفظته عن ظهر قلب، بكيناها بحرقة، حتى العمة بكتها، ولا أظن أنها بكت غيرها بنفس الكثرة، وما تبقى من عطيات غير عرائس القطن أجمعها وأتحدث إليها كما كنت أتحدث إلى عطيات وأبلغها أخبار ناظر المدرسة لابس الطربوش حتى أخفوها عني أو تخلصوا منها في مكان مجهول خوفا على عقلي من الضياع كما كانوا يقولون.

دخول الحاج مرسي إلى دارنا أو ما تبقى منها أشعرني بالخجل، رجل له مثل هيبته في الكفر يجلس على بقايا الحصير الكالح المهترئ ويستند على مسند ممزق الكيس يطل قطن حشوه في أكثر من مكان، وقفت أمامه مطرقة وحائرة فتنبسط وهو يحدثني:

ـ اقعدي يا بنتي اقعدي.. واقفة كدة ليه؟ دانا ابن عم المرحوم أبوكي، يعني عمك وأسد بداله.

ـ كتر ألف خيرك.

جلست مستطلعة سبب زيارته ومرحبة أداري تمزيق ثوبي وتآكل نسيجه في أكثر من مكان، كانت أمي قد عملت له كوب الشاي وقدمته فتناوله ووضعه إلى جواره " خفيف ولا بد أن سكره ناقص " عاودت الترحيب به و " زارنا نبي " " وخطوة عزيزة " هز رأسه شاكرا وباغتني بالسؤال:

ــ مش ناويه ترجعي بيتك بقى؟

ــ ما أنا ف بيتي يا با الحاج.

ــ قصدي بيت جوزك، عشان تربي عيالك ف خير أبوهم.

شعرت بغصة وهو يتحدث عن خير علام، كأنه يعايرني بفقري وعوزي في دار أبي، سألته إن كان علام قد طلب منه ذلك فأنكر وادعى أنه جاء متطوعا وأنه سوف يمر على علام في دكانه بعد أن يصل معي إلى حل، أشار بطرف خفي إلى علاقة علام ببنت بحر فأبديت قرفي لأنه " لاف " على من تناسبه، قلت للحاج مرسي أنني احتملته كثيرا رغم نجاسة ذيله وأنه لم يعد يشغلني بأفعاله فهدأني:

ــ إحنا عاوزين نردم على اللي فات.. أنتي عاجبك قعادك هنا؟

ــ دار أبويا تساعني ولو كانت في خرابة، ح أروح فين يا حاج؟ هو أنت مش عارف اللي حصل؟

ــ ليني دماغك شوية.

ولم أرد " لينت دماغي سنوات وما عاد في قدرتي أن أحتمل المزيد، كنت أحني رأسي حتى تهدأ العاصفة، وفي كل مرة أحاول إفهامه أنني لم أرتكب ذنبا في حقه وأن أخطاء أهلي لم تعجبني وأن حسابه مع أبي لم يكن في حضوري، ولم يكن في مقدرتي أن أسدد ديونه لعلام وقد خربها وباع سقفها وأبوابها في رقدته المشلولة التي طالت، وقبل موته كنس كل شيء، الأرض والدكان والسمعة التي كانت في السابق طبلا فخلفها وحلا وجعل من سيرته لبانة يتشدق بها من يساوي ومن لا يساوي، كل يوم يظهر لنا دائن جديد بأوراق ويطالب أمي فتشرح الحال، ترق لها القلوب ويستعوض الغرباء حقوقهم على مرأى ومسمع من علام، لم نطالبه بسداد دين أو مساعدة للمرأة التي عاشت من بعد الزوج على الكفاف، وكان يعاديني، يحاول إذلالي وتجريحي في كل وقت، أتصابر من أجل الولد والبنت الوليدة، يفتعل الخلاف معي ويجمع المجالس من الأهل والغرباء ويتشكى، يكشف أسرارنا بلا خجل ويتيه زهوا بما يملك، يستفتيهم في كل مجلس كيف يكون نظام الدار، مصروفا شهريا أو يوميا، معاشا من محصول الأرض المزروعة ونتاج الدار لبنا وسمنا وجبنا وبيض دجاج، مخزونا من دقيق وأرز أو طبخة بطبخة من الدكان، حيرني، وكلما وصلنا إلى اتفاق بحسب رأي كل مجلس، ينفذه يوما أو يومين ثم يتراجع ولا يستمر:

ـــ الاتفاق ده مش ح يمشي.

ومن جديد يستدعي مجلسا من الغرباء، أغرق في ثيابي وأتمنى لو انفتحت الأرض لتبتلعني وأرتاح، عشرات المجالس وعشرات الاتفاقات وعشرات الوجوه، كأنه ليس في الدنيا دار غير داره ولا دكان غير دكانه، وأنا أستجير بالحيطان لتداريني فيكشفني، أحاول أن أصل معه إلى بر أمان فلا أستطيع، أعارك أمي وأبي الراقد الذي كان سببا في كل هذا القلق، ألومه فيسمع ولا يرد، أقول لنفسي إنهم خيبوا أملي وأن لعلام الحق في أن يتشكك في كل شيء، في ذمتي ورغبتي أن أعيش في راحة بال، وصل الأمر معه إلى حد عدم الاطمئنان إلى أكل الدار، يأخذ الولد معه في الصباح ويعود في الليل، لا يكسر لقمة من خبزنا ولا يشرب جرعة ماء ويوصي الولد أن يفعل نفس الشيء، أي أم تلك التي تحتمل شكوك صبي ولدته في طعام جهزته له أو شراب، كأنني عدوة تدس له السم لتقضي عليه.

ـــ ما تخدش من إيدها حاجة يا وله، دي عايزة تسمك.

يقولها للولد في حضوري فبأي المخاوف كان يغذيه بعيدا عني؟ وإذا رضيت بخوفه على حياته مني فكيف أرضى بخوف الولد؟

ـــ ح اسم ابني يا علام؟

أسأله بإنكار فيواجهني وكأنه صاحب حق لا تتكسر عيناه وإن كانت تقوى:

ـــ مش بعيد عليكي.. فاكرة عمتك عملت إيه في الحاج فرج؟ فاكرة؟.. عاشرته كام سنة قبل ما تعمل عملتها؟ وعاوزاني آكل من إيدك؟

لا أذكر أنني عارضته ليلتها، ربما خفت أن يجمع مجلسا من الناس ويقول نفس الشيء فتكون مصيبة وفضيحة تروح في كل الأنحاء، وطوعت نفسي على السكوت.

ـــ وصلتي لحد فين؟

قالها الحاج مرسي ليعيدني إلى المكان والزمان فجاوبته:

ـــ معاك.

ـــ خلاصة الكلام، قعادك هنا مش عاجبني، المدارس ح تفتح والولد محتاجك، علام ح أجيبه غصب عنه و ح ترجعي دارك، قلتي إيه؟

ـــ اللي تشوفه يا با الحاج.

قلتها مستسلمة وعاجزة عن الاعتراض فقام الرجل، سلم وخرج وترك كوب الشاي باردا حيث كان، لعله أراد أن يوضح لي إلى أي حد صار إليه حالنا وقد عجزنا عن تقديم أي واجب يليق حتى ولو كان مجرد كوب شاي تقبل النفس أن تشربه، لعله ذاقه ولم يعجبه أو شكله يغني عنه.

وأنا أرفع المسند لمحت شيئا يلمع، رفعته فوجدت ريالا فضيا محطوطا تحت قاعدته، هل صعب عليه حالنا إلى هذا الحد أو أنه أراد لنا الستر ساعة أن يأتي مصحوبا بالغرباء بهدف الصلح في المساء، دين جديد لا أملك رده أو سداده من ابن عم العم يا أبي يضاف إلى ما ورثناه من ديون خلفتها في أعناقنا، ما حيرني هو كيف ومتى رفع المسند وحط تحته ريال الملك فؤاد لابس الطربوش.

في الليل سمعنا جلبة عند باب الدار، هل كان الحاج مرسي ما زال يلين رأسه ليقبل الدخول؟ لكنهم دخلوا، كان الولد معه، محكوما وأنا أراه من خلال الفتحة الخالية مكان باب المندرة ويراني ولا يفكر في المجيء، جلسوا على نفس الحصير واستندوا على نفس المساند القديمة، علام وبكري والولد والحاج مرسي الذي ناداني فذهبت، جلست أنتظر وبدا لي أن علام كان يمسح كفه الذي لا بد وأنه " انعاص " من أرضية المندرة الموحلة، كان يمط بوزه في قرف أو تظاهر بالقرف من كل ما كان يحيط به وبنا من أشياء، قال الحاج مرسي.:

ـ ح نقرأ الفاتحة ربنا يهدي النفوس.

تمتموا بها وتمتمت ثم توجه الحاج مرسي بكلامه إلى علام:

ـ إحنا ح ننسى اللي فات ونردم عليه، نقول إن إحنا ولاد النهاردة يا سي علام.

ـ بشروطي يا حاج.

قالها بنبرة من لا يرغب في شراء بضاعة بارت لآخر السوق مطمئنا إلى استعداد البائع للتفريط فيها بأبخس الأثمان.

ـ سي علام له حق ياخد على خاطره منك يا ست أم شاكر، قالها بكري فلم أكلف نفسي عناء الاعتراض أو التأييد، تنحنح الحاج مرسي ليزيل أثر انحياز بكري " أس الفساد " إلى علام، ذلك الذي يجلس الولد على ركبته وهو ينظر ناحيتي وكأنني زوج لأبيه ولست أمه، رأسه الصغير مشحون بأكاذيب دسها عني في زمن الغياب:

ـ أحنا مش ح نرمي لحمنا يا سي علام.

ـ دار أبوها ما تدخلهاش.

ـ اشترط علام فسايره الحاج.

ـ (ما تدخلهاشي).

ـ تخدم الصغير قبل الكبير، ما تمسكش المصروف ولا تطلبش مني اللي ما قدرش عليه.

كانت نغمة التحكم فيه بادية " وعنطزته " الزائدة تكيد. تصابرت لأنني كنت مكشوفة أمامهم في عراء، لا أخ ولا أخت ولا أب ولا أم معمول لها حساب ولا دار فيها خير يكفي لإطعام الدود. عراء في عراء.

ـــ ما تفتحشي حنكها ولا تقول تلت التلاتة كام، أهي جربت دار أبوها ســنة، يمكــن تكون عرفت قيمة الراجل في بيته، تعمل زي أمها ما كانت بتعمل مع المرحوم.

ـــ وما له يا علام.. وماله.

رد عليه الحاج مرسي وقد امتعض، ربما شعر بالندم لأنه تدخل هذه المرة، وواجهني علام:

ـــ ويكون ف علمك من دلوقت، أنا ح أرجعك عشان خاطر الولد ده بس.

كانت أول عبارة يتوجه فيها مباشرة لي وكنت مغلولة ومكتومة فانفجرت فيه:

ـــ أنت تبيع وتشتري ف واحدة م الجواري اللي فاتهم لك أبوك، أبــوك اللـــي مـــات عريان... شايف يا با الحاج.. ولد إيه يا بو ولد..

كتم أنفاسي كف الحاج مرسي الذي قام وحذرني من الاستمرار لقول المزيد لكنه قــام وخرج في أعقابه البكري والولد، بقى الحاج مرسي لتهدئتي، بصرني إلى ما صار إليه حـــالي وحال البنت، قال إن الكلام ليس عليه جمرك وهو مجرد كلام طائر في الهواء.

شكوت له من نصيبي الذي رماني معه وواساني، وعدني بالوقوف معي ما لم يستجب علام للأصول ولو وصل الأمر للمحاكم وصرف من جنيه لألف، لا أذكر أنني شعرت بمهانة في كل عمري أكثر مما كنت في ذلك المساء، كنت أبكي والرجل الكبير يلطف الجو ويريحني في كل ما كنت أرجوه ساعتها، الخلاص وأخذ الولد ونفقة تكفينا لنعيش، أتعبت الرجل معـــي ساعة أو يزيد أقسم خلالها ألف يمين أن يطمئن على معيشتي إن رجعت أو بقيت في دارنـــا، صدقته ودعوت له بدوام الصحة، وأوصاني قبل الخروج إن جاءني عـــلام فـــي الصـــباح أن أكتفي بمجرد الذهاب معه دون إعادة فتح الموضوع:

ـــ أنا من ناحيتي ح أجيبها له على بلاطه، يا تعيشي معاه رافعة رأســك يــا يســيبك ويبقى لي تصريف معه.

طمأنني وأن لم يشف عليلي، عز علي النوم حتى طلع النهار وبدني مهــدود وحلقـــي جاف وقلبي جريح، لكنه قبل الضحى دخل الولد من باب الدار، اقترب مني وسألني إن كنـــت ما زلت أخاصمه فأنكرت خصامه، بكى فأخذته في حضني ومسحت دموعه ودموعي وسمعت صوت علام:

ـــ هات أمك واختك وحصلوني ع الدار يا شاكر.

كدت أعبر له عن اعتراضي فجلس إلى جواري، وحاول أن يتنصل من كل ما قاله:

ـــ طيب أنتي وابنك وكنتم متخاصمين واتصالحتم، يبقى ذنبي أنا إيه؟

لم أعلق.

ـ شوفي أنتي غلطتي ليلة امبارح قد إيه؟ وبرضه مسامح ف حقي، هو أنا يجيني أعز منك.

لم أكن أصدقهن لعلني عودت نفسي بعدها على السماع دون تصديق، دعاني للقيام إلى داري فتنهدت وقمت أجمع ملابسي فمنعني:

ـ خليهم لأمك تستفاد بيهم، قيمتك عندي حاجة ثانية، أنتي ح تلبسي أحسن لبس، أنتي مستقلة بروحك؟

كأنني خارجة من سجن وذاهبة إلى سجن آخر قريب ولن يتغير غير السجان، ربما أخلص من رغيف " السن " وقطعة اللفت وأبدلهما برغيف القمح والأدام، لكنني لن أهنأ بعد المرار في غضبتي الطويلة أو استشعر الأمان، ولعلني تأكدت في داره أن كل ما فيها لا يخصني بأية حال، وأنه في لمح البصر يمكن أن يجردني هو من كل حق أدعيه ولا أملكه، ولعلني جهزت نفسي للحياة في داره مستعدة لتركها في أي وقت يشاء مغصوبة وراضية لأنني انغلبت على أمري كي أرعاهم وأحرس جدرانهم وخير الدار.

ـ حتى دكر النحل يا مريم بيعمل عملته ويتوكل على الله.

سمعت أبي يقولها وأنا أدخل المندرة، كان في المندرة دفء " وراكية " نار قوالح تتوهج، اقتربت من النار وفردت راحتي وقربتهما من الوهج ثم مسحت بهما على وجهي وصدري عدة مرات، استمرأت الدفء فجلست مكاني قرب النار، كانا يتبادلان النظرات ولا يتكلمان، فكرت إنها ربما يودان لو أخرج وأتركهما يكملان الكلام، نظرت نحوها فوجدتها تنظر إلي قبل أن تقول لتشركني:

ـ قول لها، لا هي صغيرة ولا غريبة عنك، بنتك زي ما هي بنتي.

ـ كله فوق دماغي؟ ما حدش بيرحم ولا يقول بإيدك أبدا؟ عايزين اللقمة جاهزة في الحنك من غير تعب خالص؟

كان في صوته احتجاج يوشك أن يكون تباكيا، لملم ساقيه المفرودتين ونفض " حجر " جلبابه فلم يتناثر منه شيء، انتفض واقفا وخرج من باب المندرة المموارب، شده إلى الخارج بشدة فرن صوته ثم ذاب وساد صمت، كانت هي تنظر إلي وكأنها تستغيث بي لأنقذها لا أدري من أي شيء، ظلت تتأملني وملامحها تتبدل وتتغير والشفتان تنفرجان وتنضمان دون أن يصدر عنهما حرف، كانت النار تنعكس في عينيها بريقا أحمر عدوانيا وهي تنظر ناحية الباب وكنت أنعم بالدفء، أطل وجه أبي من باب المندرة، اندس في نفس مكانه يتدفأ قبل أن يبرر عودته:

ـ النطرة مغرقة الدنيا بره والشوارع روبه لحد الركب، أمال أنتم ساكتين كدة ليه؟

لم تجبه واكتفت بالنظر إليه في حيرة، سألني هو:

ـ أمال انتي رجعتي من عند عمتك إزاي؟

ـ من جنب الحيطان: رجلين الخلق عاملة مدقات.

نظر إلى ساعدي واطمأن على زوج " الغوايش " الذي كانت عمتي قد اشـتـرته لـي مكافأة على نجاحي في الابتدائية كما وعدت، تحسسه بفرح وزهو:

ـ مبروكين عليكي، حلوين، باين عليهم تقال.

وقبل أن أعلق معبرة عن فرحتي بالهدية اعتدلت هي في جلستها وبان فـي عينيهـا استنكار فواصل أبي:

ـ عمتك راقدة على خير كتير، شرك مواشي وأرض ملك غير الجنيهـات الـذهب المجيدي والبندقي.

ـ بكرة كل ده يروح في عب الحاج فرج ولا نطول أبيض ولا أسود.

قالت أمي مستمرة في التعبير عن عدم ارتياحها على عكس ما كنـت أنتظـر منهـا وأتوقع، رد عليها متضررا:

ـ واحنا ف إيدنا إيه بس أكثر من كدة؟ أهو اللي بنطوله فايدة.

ـ ف إيدنا شوق حبيبتها وسرها العمر كله، واخداها في حضنها العمر كلـه، ولا ده ببلاش؟

على هذا النحو كان يحاورها وتحاوره لأفهم أنه في أزمة وأنه يخـاف مـن موتهـا المباغت وكل ما يحوطه ويتاجر فيه ملكها بأوراق مكتوبة يستطيع الحاج فـرج أن يظهرهـا ويأخذ كل ما نملك ومن العدل أن تحتاط لحسابي إن كانت قد غابت عنها الفكرة:

ـ الحكيم يا بنتي قالها لي بيني وبينه، والأعمار بيد الله، بس هي اللي قالت لك، مش عيب تسأليها كتبت لك إيه؟ الحاج فرج محوط عليها وما حدش ف الزمن ده له أمان.

في يوم السوق رحت لها فأدهشني أنها فاتحتني في علاقتها بالحـاج فـرج قبـل أن أفاتحها، كأنها كانت معنا أنا وأمي وأبي يوم تحدثا عن قلقهما من احتمـالات موتهـا فجـأة، حدثتني عنه من غير احتراس، وأزاحت عن قلبها هما شالته وحدها عمرا دون بوح أو شكاية، كان الحزن يطل من عينيها الخضراوين بزرقة وهي تستعيد ما كان، كيف رأته شابا عفيا في سوق الخميس، اشترت منه عجل جاموس تصعب قيادته، وكيف تطوع بسـحبه حتـى بـاب دارها، كيف اعتاد بعد ذلك أن يشتري لها كل ما كانت تحتاجه من سوق الخميس ثـم يقـوم بتوصيله حتى باب الدار ويرفض أن يعبر العتبة ليبل ريقه ولو بجرعة ماء.

ـ " كان زي البنت البنوت وحقاني " اشتريتلك يا ست هانم بخمس قـروش وعرقـي وتعب مشواري ما يجوش حاجة في إنسانيتك وكرم أخلاقك " لكن ولاد شلبي مـا يعجـبهمش العجب ولا الصيام في رجب، طلعوا فيه القطط الفاطسة، زنوا وزاد كلامهـن، قـالوا عليـه

طمعان ف مالي.. وقالوا وقالوا.. كتبت عليه ودخلته داري، رقدته ف فرشتي ولبسته صوف وكشمير وشاهي لكن ما حصلش منه نصيب ولا خلفة، عشر سنين لحد النهاردة ما قاليش تلت التلاتة كام.

كان في صوتها حسرة على مشوارها معه، على شبابه الذي انطفأ الآن أو أوشك على الانطفاء، برقت في عينيها دمعتان محبوستان، أشفقت عليه وعليها وشفت جرح عمرها الغويط. شفت الزمان غير المطاوع وشماتة الأعداء يعيرونها بحظها في آخر الأزواج وسن اليأس وانعدام الرجاء، كورت هي راحتيها ثم فردتهما بشدة عدة مرات وكأنها تطرد خاطرا أو فكرة تسللت إلى عقلها خلسة، ربما فكرت مثلي أن الحاج فرج قام بدوره على خير وجه، وربما كانت قد قررت على عكس ما فكرت أن تبعده عن حياتها وحياة أولاد شلبي، زمت شفتيها وسألتني:

ـــ إنتي.. رأيك إيه؟

كنت قد أطرقت حزنا لأنني تأثرت بكلامهم عنه وخوفهم من أطماعه إن هي ماتت فجأة مثلما قال الحكيم، زفرت هي وربتت على كتفي في حنو بالغ، ولأول مرة أرى دموعها تتساقط دون صوت والتقاطيع على حالها، بكيت فطالبتني بأن أكف عن البكاء وما كفت عيناها عن إفراز الدموع، احتضنتني واحتضنتها بقوة كراهيتي للموت الذي حام حولها طوال العام الأخير، سألتني ماذا أتصور إن ماتت هي فجأة فبكيت بصوت مسموع، طمأنتني بثقة أنها لن تموت قبل أن تطمئن على حالي، أمسكتني من الكتفين ونظرت إلى وجهي ومسحت بكفها اليمنى دموعي وبكم جلبابها وجهها وعينيها ثم ابتسمت في ثقة وسألتني:

ـــ يروح لحاله؟ مش كدة؟

أومأت لها علامة الموافقة، ربما لو كان الوقت غير الوقت لفكرت واستفسرت منها إلى أين سوف يروح، رفعت هي وجهي بإصبعها المحطوط أسفل ذقني وتقابلت عيناي بالبريق الملون في عينيها وكأنني تواطأت معها على ضرورة الخلاص منه.

كان المطر يتساقط وحصوات الثلج ترن على خشب السقف والنوافذ، وكانت " راكية " النار تتوهج أمامنا وتبعث في المندرة دفئا كافيا وقد تركت الباب مفتوحا بعد أن تسرب كل الدخان من النافذتين، كنت أرى وسط الدار أمامي، وكرات الثلج الصغيرة تتقافز وهي تسقط فوق " طشت " النحاس المقلوب فيصدر عنها صوت مختلف عن تلك التي تسقط على حجر الطاحونة القديم وتلك التي تسقط على الأرضية العارية وسط الدار، كأننا كنا نترقب عودته دون كلام منطوق، مجرد نظرات صامتة لم نعتدها وإن اتفقنا على فهمها، كأنه حط علينا خرس مباغت بمحض اختيارنا ورضانا، سكتنا لزمان طال أو قصر كف فيه الثلج عن السقوط ثم عاود السقوط، كأنني كنت أعيش حلما يختلف عن كل ما ألفته معها من مجرد الكلام في

الفارغة والمليانة، وكأنما كانت روح الحاج فرج تحوم حولنا وتأسرنا وتجعلنا ندور في مدارها إلى حد أنه عندما تنحنح مقتربا من الدار قمت على غير عادتي لأفتح له قبل أن يصل إلى الباب، ابتسمت له وكان يبتسم، كان جلبابه مبلولا وملطخا من ذيله بمساحات من الطين الطري الذي يتساقط بعضه مع قطرات الماء، خلع مداسه قبل أن يدخل القاعة ثم يتوجه إلى المندرة، فكرت أن آخذ مداسه وأخلصه من كتل الطين لكنها نادتني:

ـ سيبي المداس دلوقت وتعالي شوفي جوز عمتك جايب إيه معاه.

تركت المداس ومسحت راحتي في جلباب قديم، كان يخلص قبضته من فتحة جلبابه وتحته منديل محلاوي مربوط حول علبة من الصفيح، قال بزهو وهو يلتفت إليها:

ـ شوية عسل م المنحل بتاعك يا ست فطوم، سليم النحال بتاع طوخ بيقول أنهم أكل ملكات.. ما يغلاش عليكي، بيقول حتة على طرف المعلقة كل يوم الصبح وتقومي زي الحصان.

كان يدفئ يديه على نار " الراكية " ويحكهما في حركة سريعة منتشية، وكان جلبابه المبلول مكوما فوق الصندوق وقد لبس غيره دون أن ألحظه، أومأت هي:

ـ هاتي لجوز عمتك فطيرة من عمايل أختك نعمات يتغدى.

بدت علي الحيرة لأن نعمات لم تعمل فطيرا، ربما أدركت هي ربكتي فأسعفتني:

ـ محطوط في دولاب الحائط فوجدت فطيرة مفرودة تفتح النفس المسدودة، سألت نفسي كيف استطاعت أن تعجن وتلت وتفرد وتسوي فطيرة وقد دخلت عليها فوجدتها راقدة تئن، وإن لم تكن هي التي فعلت فمن غيرها؟ وهل أصدق ما قالته أمي بأن العمة تؤاخي الجن الساكن سابع أرض وتشغله لحسابها وقتما تشاء، حضرت كل شيء ووضعته على صينية العشاء أمامه فمد يده وكور لقمة بين أصابعه وهمس بآلية لي:

ـ بسم الله.

كان يبدو جائعا ولا ينتظر ردا، يلتهم اللقيمات المغموسة في صحن الجبن القديم التهاما، يزدرد بنهم وشهية رجل مطمئن، ويتبلع بماء القلة، لكنه كف فجأة، نظر إليها ثم إلي وقال بصوت مبحوح:

ـ ناوليني معلقة.

ناولته المعلقة والصحن الفارغ ففتح بطرفها غطاء العلبة. ملأها من غذاء الملكات وابتلعها ثم أعاد ملأها وابتلاعها أكثر من مرة وبسرعة وكأنه يطفئ بغذاء الملكات نارا في جوفه استشعرها فجأة، قالت هي وكأنها تكشف غطاء لعبة:

ـ حامي عليك؟

فهق من حلقه عدة مرات وزاغت عيناه، احتقن وجهه وأحنى رأسه ثم تكـور علـى نفسه واضعا راحتيه على بطنه وضاغطا عليها بكل ما تبقى من عزمه.

ــ نا.. ر.. نــ.. ا.. ر

مد يده ناحيتها مستجيرا، خفت وقبضته ملمومة بقسوة وهي عاجزة عن الاقتراب منها أكثر أو الابتعاد، كان هناك هدف خفي يسعى للوصول إليه عندها ولا يقدر، وكانت هي تنظر إليه مجرد نظرات، هل امتزج خوفي منه بكراهيتي لها في تلك اللحظة؟

ــ غ.. ي.. ت.. ي.. ن.. ي

قالها ولعابه يتساقط من شدقيه.

ــ خلاص يا فرج، دلوقت ترتاح

ــ آه.. آه..

ــ سلامتك م الآه يا عشرة على الغالي.

كانت تندبه لنفسها وله وهو حي، يسمع ويرى وينطق بعسر، ربما كان يسمع ويـرى بعسر لكنه كان معنا في تلك المندرة المدفوسة في آخر الدار من ناحية فراغ الواطية بعيدا عن ناس الدرب، ينظر مرعوبا وربما يدرك ما جرى له أو لا يدرك على وجه اليقين، كنت أرقب في هلع، منكمشة على نفسي في ركن أتسمع خبطات قلبي كلما توقفت هي عن الندب وهـي ترفع راحتيها معا، مضمومتين فيما عدا السبابتين المفرودتين تحركهما إلى اليمين ثم إلى اليسار في ليونة ونعومة وصنعة.

" نعش الغريب ف البحر ما يمشي

كان خاطره ف الحي ما قسمشي "

" نعش الغريب يوطى ويعلا لفوق

داير على أحبابه يبل الشوق "

وكان يرفرف بعسر كفرخ داسته خف جمل، ينشال وينحط مكانه بلا أمل، يتلوى ويئن ثم يكف، يصدر أصواتا لم تكن تخصه قبلا، مكتومة وعاجزة، هل أدرك النهاية قبل أن تتسـع عيناه وتثبتان على نظرة لائمة نحوها فيها من الاستكانة والاستسلام أكثـر ممـا فيهـا مـن الاحتجاج، هل ارتضى شكل نهايته بتدبيرها على هذا النحو فأراح نفسه من كل عناء؟ سمعتها تأمرني:

ــ اغسلي إيديكي بالميه والصابون.

خرجت في اتجاه الطلمبة مترددة، فرغم الخوف كنت أود أن أعرف كيف تطلع الروح من البدن الحي، ورأيت الحفرة العميقة التي تتسع لدفن رجل بطوله واقفا، هل حفرها الجن من أجل العمة؟ كانت العتمة قد سيطرت وضوء المصباح لا يكفي لبث الطمأنينة والريح تعـابثني

وعواء الكلاب يتزايد في أرض الواطية, ربما كانت تطارد الشيطان أو الجن الطالع من سابع أرض ليساعد العمة تلك التي رجعت إليها بعد أن غسلت يدي لأسمعها تحادثه.

ــ ح أعمل لك أحسن خارجة، وح أجيب لك صيبيتة من مصر، وح أخلي الخلق تتكلم عن موتتك اللي زي ميتة الأنبياء، ويمكن ابني لك مقام.

كان هو يتمدد أو أنها مددته وغطت بدنه دون وجهه بملاءة سندسية اللون لم أشهدها قبلا، وبدا لي أنه كف عن التنفس واكتفى بالإطلال نحوها، ولدهشتي لم أر أثرا للفطيرة أو الصحون أو القلة، اختفى كل شيء، كأنما انشقت الأرض وابتلعتها، هل كان كابوسا رأيته خلال تلك الساعات أم أنها كانت مجرد تهيؤات تخيلتها؟

في الدرب قالوا بعد دفنه شرب فشرق فمات، وقالوا سكر مخالفا شرع الرب وأكل وأكل فانكتم نفسه بينما كان نائما ولم يصح بعدها، وقالوا إنه كان مبروكا من أهل الخطوة طار نعشه متعجلا الدفن، وقالت أمي أن الله أخذ من عمر الغريب وأعطاها، ذلك أنه في أعقاب ذلك قامت العمة وتحركت من مرقدها، حسبناها في أول الأمر مجرد واجبات تؤديها غصبا بسبب العزاء في المرحوم، لكنها استمرت وتزايدت حركتها على نحو كذب تأكيدات الحكيم، وكادت أن تصبح كما كانت عفية وصلبة وقادرة.

قال علام أن البك الشلبي " كذاب زفة " وأنه لا يستحق كل هذا الاحترام، أكد لمن جاءوا يهنئونه بالخروج أنه كاد أن يخرج من القضية براءة لولا خيبة المحامي الذي اكتراه البك الشلبي. ذلك الذي حسب أن له كلمة في الحكومة أو أنه معروف عندها، صحيح أن ابنه ضابط في الحدود وله زملاء ضباط في السجون أراحوه في الحبس وسمحوا له بالممنوع، لكن البك الشلبي نفسه خيب كل رجاء:

ــ دا حتى ما خدش البهوية رسمي

تململت العمة احتجاجا، خافت أن يتناقل أهل الكفر كلامه فتضيع هيبة الرجل، تراجع علام:

ــ ولا يمكن خدها بس ما خدمنيش.

ــ قول كدة بقى، قول إنك منكاد منه.

ــ معلوم.. منكاد ع الآخر، ح أخبي عليكي؟

ــ كفارة يا علام، دول كلهم سنة وتسع أشهر فاتوا ما حدش حس بيهم.

دارت عيناه في وجوه الغرباء، لعله كان يمنع نفسه عن الاستمرار في السخط على البك شلبي على مسمع من الغرباء، ولعله كان يتذكر كيف أنه لم يسلم نفسه إلا بعد تأكيدات الرجل وابنه الضابط بأن القضية سوف تنتهي ببراءة، ربما كانت غضبته لأن الرجل لم يكلف نفسه عناء الذهاب لزيارته في الحبس، كان يربت على ظهر شاكر الذي كان طفلا ما زال ولا

يدرك شيئا مما يقال، ربما لو كان أكبر بسنة أو سنتين لعايره الأولاد بحبس أبيه، ربما انكسر خاطره بينهم، لكنه كان معي، أحوطه وأحميه من مكائد الكارهين، استأذن الغرباء وسلموا وما تبقى في المندرة غير أولاد شلبي، نظرت هي إليه مليا قبل أن تلومه:

ــ اللي ما لوش كبير بيدور له على كبير يا علام، وكلامك عن البيه بتاعنا قصاد الأغراب ينزلنا من نظرهم، ما يعملوش لنا حساب، داحنا نكبره مش نقل قيمته.

ــ ما فيش حاجة مستخبية يا عمه.

كانت أول مرة يناديها بالعمة، عله أرضاها بالنداء أولا ثم كرر ما قاله بحماس أكثر وزود عليه، ذكرها أنه يعرف أن ذلك الكبير مجرد رجل بارع في التعرف على الأكابر، بكوات وباشوات حقيقيين "سلكوا" له مصالحه وأنه وإن كان قد زود ملكيته في أرض البراري وعمل لنفسه فيها تفتيشا فلأنها أرض مشاع قابلة للامتلاك بوضع اليد، وهي أرض فقيرة المحصول قليلة الخصوبة، فدان الكفر يساوي خمسين فدان فيها، حاولت إسكاته فلم يستجب وردد حكاية دخول ابنه الحربية وكيف حصل على كارت توصية من باشا كبير تعرف إليه مرة بتقبيل الأيادي، عاودت محاولات إسكاته فاستمر، طول لسانه عليها فتدخل أبي يوصيه بأن يحاسب على كلامه فانفجر فيه وقال له ما لا يليق:

ــ فضلت شايلك ومطاولك بمالي واسمي، عشت على حسي في الكفر، والبندر سنين، سددت ديونك اللي خسرتها ف القمار وآخرتها إيه؟ اتفقت معاها وخدت الورق المكتوب عليك، زرتني؟ كلفت خاطرك وجيتني أنت ولا هي؟.. ما تخلي الطابق مستور.

أطرق أبي مجروحا وعاجزا عن الدفاع وقامت هي محتجة تسب وتلعن وتقسم ألا تدخل داره.. وعندما خرج الجميع وبقيت وحدي في مواجهته كاد أن يضيف المزيد لكنه تراجع قبل أن ينفلت اللسان، سحب الولد في يده وخرج وما عاد إلا بعد أن انتصف الليل بزمان.

بعدها صارت حياتي معه على كف عفريت، لا أمان ولا اطمئنان ولا ثقة، كان يمنع نفسه من الكلام في الدار أو حتى مجرد شرب الشاي، يخرج وقتما يشاء ويرجع وقتما يشاء، بوزه ملوي والوجه دائم العبوس، ويوم مولد سعاد تحول الأمر إلى محزنة، أول ما عرف أنها بنت صرخ محتجا:

ــ بنت؟

وسمعت خطواته خارجا ولم يرجع إلا بعد أيام، هل كنت قد أفقدته آخر الآمال بولادة البنت على غير إرداة مني؟ أو أنه كان يبحث عن أي شيء يتعلل به ليكمل حولي دائرة الخصام؟ لا يكلمني ولا ينظر ناحيتي أو يطمئن على حال البنت، ضناه التي تتوجع وتصرخ وتحتاج إلى رعايته فيصم عنها أذنيه ويقسو عليها قلبه بلا ذنب، كان يحوط الولد بذراعيه

ويربت على ظهره في حنو وكأنه يعاندني باحتواء الولد وإهمال البنت، لا سألته ولا حاولت أن أطلب منه التفسير، كان يرجع في الليل حاملا لفافة طعام من البندر، يوقظ الولد من أحلى نوم ويدعوه للأكل، حتى لو كان الولد شبعانا يحايله أو يجبره على تناول الطعام، ويوما في أثر يوم اجتذب الولد إليه، يأخذه ويسهر به حتى ساعة متأخرة، لا أدري أين ولا يتيح لي فرصة الاعتراض فأطمئن نفسي بنفسي لأرتاح من قلق يساورني ويشقيني، ومرت الأيام انعزالا بلا رجاء، كبر الولد وملأت البنت أركان الدار رمحا وثرثرة وهو يرقبها من بعيد، كأنها لا تخصه، إن نادته يتشاغل وإن رد فبجفاء أو اختصار، هل كانت في الثالثة أو الرابعة يوم ضحك لها أول ضحكة؟ ربما أجبرته خفتها على أن يجاريها فاستبشرت خيرا وفي الليل حدثني عن ضرورة وضع نظام جديد للدار فلم أمانع:

ــ الولد ح يدخل المدرسة، وأنا مش ح أسرح بيه ليل ونهار.

ــ محدش قال كدة.

ــ يكفيكي ربع جنيه ف اليوم؟

ــ يكفي.

ــ تمسكي إيدك شوية ف مصروف البيت.

ــ أكثر من كدة؟

ــ الكسوة ف القطن.

ــ ومن غير كسوة خالص.

كنت غاضبة، كأنه يجود علينا بثمن اللقمة ويمن علي بمطالب العيال، لكنني كنت راغبة في استمرار الحياة، قلت أدبر حالي في حدود المصروف، أربي البط والحمام والأرانب والكتاكيت وأعتمد على شغل الدار وشقاء من يحكم عليها الزمان بقلة القرش في متناول اليدين، واستمرت الحياة مستورة لا تتكشف أسرار الدار، حتى عندما كان يتعمد أن ينقص القروش بحسب هواه لا أتشكى ولا أبوح، أتحامل من أجل الأولاد، ومن تعبي كنت أوفر القرش على القرش، ثمن البيضة والفرخة والبطة والأرنب، اشتريت ماكينة الخياطة وعلمت نفسي بنفسي تفصيل الملابس للأولاد ونسوة الدرب، وكلما وجدني قادرة على تدبير مطالب الدار كف عن دفع المصروف، أفاتحه فيلاوعني:

ــ مصروف إيه اللي أنتي عاوزاه؟ دانتي داخل جيبك النهاردة نص جنيه، فاكراني نايم على وداني؟

لا أجادله، أقول لنفسي ما دمت مستورة فلا داعي للقرش الذي يقطعه من جلده بطلوع الروح، أقص جلابيب النسوة والأولاد وأدقها على الماكينة وأقبض، أشتري السكر والشاي

والأرز والزيت من الدكان مثل الغرباء، وعندما مزق الولد جلبابه حاولت أن أزود وعيه، كيف أنني أشقى وأبوه لا يشغل نفسه بمطالب الدار لكن الولد رد علي بسفالة:

ــ وإيه يعني؟ اشتري غيرها.

ــ منين يا شاكر؟

ــ من فلوس أبويا، مش تحمدي ربنا اللي معيشك عشان خاطري.

كلام كبير على الولد، كلام محفوظ، كأنه رمى على رأسي لتر " جاز " وأشعل فيه النار، قمت أبحث عن عود حطب وأضرب الولد طويل اللسان، وكلما ضربته بعود الحطب طول لسانه أكثر بكلام لا بد أنه كان يسمعه ويردده دون أن يدرك معناه، كنت في غير وعي حتى انزرع علام أمامي، ضربني بكل غل فأدمى فمي، شعرت بأسناني تنزف وبواحدة منها تسقط في فمي، واستمر يضرب ويضرب، يسب ويلعن ويعاير ويتهم ويقول ما لا يقال، وعندما أتعبه الضرب جلس وعيناه تنضحان كراهية لم أشهدها في عيني عدو أو حبيب.

ــ طول ما أنا عايش ما تمديش إيدك عليه.

كانت الدار مزحومة بالنسوة وبالرجال وكنت تائهة وهم يحاولون معالجة جرح الفم النازف والسن المكسور، ترك هو الدار ساعة أو ساعتين، كانت أم بكري بجواري، تجاملني وتحاول أن تداري شماتتها فلا تفلح، وعندما دخل المندرة حاولت هي أن تفتح معه الكلام فأخرج ما كان مدفونا في أعماقه:

ــ أنا ما حيلتيش غيره، تضربه إزاي..؟

ــ مش ابنها يا سي علام؟ طيب دانا يا ما ضربت بكري اللي أنت بتشوفه ده.

ــ مش كل الناس، دي حيا لله ماعون.

ــ يوه.. جرالك إيه يا سي علام.. دي أمه مهما كان..

ــ وإيه يعني.. طيب ما هي عندها شحط ما تعرفش فين أراضيه، اسأليها إن كانت تعرف شكله إيه؟ هي الحنية كلام وبس؟

ــ دانت شايل بقى ومن زمان.

قالت هي وقد زادت نغمة الشماتة، ولم يكن عندي غير ترك المكان، جمعت ثيابي في صرة وهي تحاول أن تمنعني بالكلام وتدفعني في حقيقة الأمر إلى ترك الدار.

ــ طيب خليكي للصبح.. النهار له عينين.

ــ سيبيها يا أم بكري..

ــ دي دار أبوها خراب، ح تروح هناك تسخم إيه؟

ــ سيبيها يا أم بكري.

وخرجت بالليل، كنت أتعثر في خطواتي وأوشك على السقوط، لعلني بالفعل سقطت فارتكزت على ركبتي وواصلت السير حتى وصلت، دخلت الخراب، مجروحة ومهانة وعاجزة عن البوح لمن كانوا سببا في العناء، والبنت معي، لا أعرف كيف جاءت ولا أذكر أنني كنت قد فكرت في أخذها أو تركها، كأنها كانت مربوطة معي بخيط خفي لا ينفك، رقدنا بالهم حتى طلع صباح مضبب، أمي بطرف طرحتها التي تشد بها دماغها كأنما تخشى عليه من الضياع، وأبي بشلل ساقه وذراعه ونصف وجهه واللسان، هل اعتذرت عينه القادرة على الإطلال عن الخطأ القديم الذي لا يداويه طب ولا دواء؟ هل كان يستدر عطفي لأغفر له ما وصل إليه حاله أو يشركني في همه؟ كان هو وهي سببا في ميلة البخت منذ البداية، لو لم تمتد يده ليأخذ مصاغي ويخسر ويأخذ مزيدا ويبيع ويخسر ويأخذ وبكتب دون أن يفكر في السداد ما وصل حالنا إلى ما وصل إليه، لو أبقى على الدار ما نزلت عند علام من فوق الرأس إلى أسفل القدمين.

وكأنما كان علام يصفي حسابه القديم مني، لا سأل ولا أرسل من يسأل، كأنني سقطت في جب مكسورة القلب وواحدة من الأسنان، طالت غضبتي، دارت السنة أو أوشكت على الدوران، أرسلت عشرات المرات أطلب ماكينة الخياطة فما جاءني رد، طلبتها منه مرارا فأخجلني بالرفض أمام الغرباء.. وكابدت شقاء الأيام السود وقد عز كل شيء، اللقمة والهدمة وجرعة اللبن للبنت، فكرت في العمة، تلك التي خاصمت أبي وقاطعته بعد أن أخذ من صندوقها تلك الأوراق الملعونة التي احتفظت بها باعتبارها كبيرة عائلة مأمونة فخاب فيها الرجاء، عندما ذهبت إليها قابلتني بجفاء وحدثتني بغلظة، أعلنت أنها تبرأت من أبي ومن كل نسله فانكسر خاطري ورجعت من دارها وقد انسدت الدنيا في وجهي من كل الأركان، حتى تربية الكتاكيت لم تنفع لأن الفئران والعرس كانت تسكن الدار وتقضي على الطيور، رغيف السن وقطعة اللفت غذائي، وكل ما أوفره لا يكفي ثمنا لقطعة السكر وجرعة اللبن للبنت كأننا انقطعنا من جذورنا فما عاد يطل علينا أهل ولا غرباء، حتى نعمات التي بعثت لها رسالة لم تسأل، ولا أدري إن كانت الرسالة وصلتها أو أنها تاهت في البريد، وعلام عارف دون ريب ما صار إليه حالنا، سارح بالولد في الدرب ومسيطر عليه بحيث لا يلتفت إن رآني، ولا بد أنه عبأه بأكاذيب محبوكة عني لا يملك أن يخلص منها، ولا أملك غير الانتظار ليوم يجيء أطلع فيه من عمق الكابوس الممتد، كابوس الفقر والعوز محاطا برغبة التماسك وبقايا إصرار على عدم الانكسار التام، ولا أذكر في أية ليلة من ليالي " برمهات " سمعت صرخة أمي المفجوعة فيه بوهن، أذهب لأراه ممددا على فراشه فأخبط صدري مصدومة بالموت الذي أراحه وحطنا في مواجهة مطالب التكفين والدفن وطلوع المواسم من خراب الدار، لكنهم شالوه وتحدثوا عن كرامته ونزاهته في الزمن القديم، قبل أن يفرط في كل شيء، أبواب وشبابيك وعروق سقف

داره، دكانه وتجارته وماله الذي رماه في مجالس الشرب والقمار، ولم يكن هناك غير مندرة واحدة مسقوفة بلا باب وقاعة مدفونة تطل على فراغ الواطية استخدمناها في الزمن القديم للخزين، وبقايا جدران من الطوب الأخضر تتقافز عليها الكلاب الغريبة في وضح النهار. وما تبقى لي غير القدرة على الاحتمال، مجرد الاحتمال.

خلت عليها الدار فكانت تستدعيني لألازمها أكثر الأوقات، تكسيني وتزود مصاغي، تشجعني على إعداد الطعام بإشرافها وهي راقدة على فراشها، مرضانة أكثر الوقت ينتابها صحو لا يدوم، إن جاءها الزوار تماسكت وجلست فبدت لي ملكة من بنات الملك الشلبي في حواديت الجد هارون، ملكة لها شعر أصفر غزير مضفور في ضفيرتين طويلتين، تجلسني بعد رحيل الكل إلى جوارها تؤكد لي أنني كنت شاطرة، تحوطني بذراعيها المكتنزتين وربما تعابثني فأضحك وتضحك، أتمدد إلى جوارها وقد أشعر بنشوة وأنا بين الصحوة والغفلة، أتشمم رائحة أنفاسها وهي تحادثني.

ـ شاركت لك على عجل بقر باسمك ف دار زينهم الساكت.

ـ كتر خيرك يا عمه.

ـ و ح أكتب لك أرض باسمك لجل تبقى مسنودة، خايفة أموت قبل ما أشوفك ف بيت العدل.

ـ يديكي طولة العمر.

ـ كبرتي يا شوق وبقيتي عروسة، وريني كدة.

ـ لسة بدري..

ـ ابن عبد القادر كان فايت م النواحيدي ليه؟

ـ وأنا إيش عرفني؟

ـ صحيح سايب بنت عمه وقاعد في مصر..

ـ...

ربما أغفو إلى جوارها، وربما أسرح بخيالي في البعيد، أفكر في الأرض التي وعدت بكتابتها والمواشي التي شاركت عليها باسمي، أمني نفسي بزمان من الهناء والمتعة مع صاحب النصيب كما كانت تقول، ورغم طول مدة مرضها كنت أرى في عينيها الخضراوين بزرقة إصرارا على البقاء يرفض أن يبدو عليهما الوهن.

يوم سبت النور قامت من مرقدها قبلي، كحلت عينيها وجلست في صحن الدار، نادتني فقمت، طلبت فطورا من قشدة وجبن قديم وبيض مقلي بسمن وعسل نحل، كانت تأكل بشهية وتدعوني لمشاركتها، قالت إنها تشعر بتحسن وأنها خلصت من زمن الرقاد، فرحت بصحوتها وجلست أتسمع لكلامها عن قسوة الوجع الذي كانت تداريه:

ـــ دانا كنت شفت الموت بعيني ومدارية علشان ما أزعلكيش.

ـــ حمد الله على سلامتك.

ـــ عاوزاكي تحشي لنا جوزين حمام بالفريك.

قالتها بصوت بدا لي غريبا فتحيرت، ربما كنت أفر من المكان وأنا أبحث عن الزغاليل في " بناني " الحمام، وعلى غير توقع رأيتها قبالتي وفي يدها سكين الذبح يلمع نصله في شمس الضحى والدار ساكتة إلا من صوت الذباب الأخضر الذي لا بد وأنه جاء من ناحية المدافن، كنت أمسك لها رءوس الزغاليل فتقطعها قطعا وتأمرني بأن أرميها خلافا لما اعتادته عندما كانت تحرص على إبقاء الرأس معلقا بجسم الطائر، جمعت الزغاليل في غربال ووضعته على ظهر الفرن، أشعلت نار الكانون ووضعت الماء، خفت عليها من وقدة الشمس التي حميت فطلبت منها أن ترتاح في الظل فبدا لي وكأنها لم تسمع أو سمعت ولم تهتم، جلست " أسمط " الزغاليل واحدة في إثر واحدة في الماء المغلي:

ـــ اللي تنضفيها هاتيها أطلع لك حوصلتها.

كان صوتها يزداد غلظة إلى حد أخافني فلم أعارض، كنت أناولها الحمامات في صمت فأسمعها تتكلم مع الطيور التي تتصايح وتتقافز في وسط الدار، أطرد من ذاكرتي كل الحكايات التي سمعتها عن الجن وعفاريت الظهر الأحمر، أتمنى لو تسكت أو أجرؤ على طلب سكوتها، لكنها كانت مستمرة، فكرت في البحث عن حجة أخرج بها من الدار فلم أصل إلى سبب معقول يمكن أن يقنعها، ربما لم أكن خائفة من حديثها الذي لا يليق للطيور وكأنها بشر يعقلون، وإنما هو ذلك الفحيح الغريب والنبرات الجافة التي تخرج من حلقها على هذا النحو لأول مرة، لعلني حبست صرختي المستجيرة خوفا من فضيحة تنالني وتنالها إذا جاء الغرباء، كنت محبوسة في اختياري لسكة الاحتمال، أن أحتمل حتى لا تصفني هي أو غيرها بالجنون، ربما تفزع هي إن فعلت وتندم لأنها اختارتني لها ابنة وعوضا عن كل عمرها الضائع بلا خلفة، وكيف لا أحتملها والكل يعرف بمرضها وليس على مريضة مثلها من حرج، كان الحمام المحشي يطيب والعرق يشملني وربما ارتجفت أصابعي وأنا أختبره:

ـــ إن كان استوى هاتي فردة.

قالتها بنفس الصوت فانتشلت واحدة ووضعتها في صحن غويط قدمته لها وصاح الصحن يلسعني، أخذتها في قبضة يدها اليمنى دون أن يبدو عليها أنها تأثرت بالسخونة وراحت تقضم منها والدخان يخرج من فمها مع كلماتها وهي تمضغ، وقبل أن تكملها قالت بنفس الصوت:

ـــ هاتي فردة تانية.

كان صمت وسخونة وصهد شمس قيلولة وصوت غليظ وعينان تطلبان وفم يبتلع النار ولا يخشاها، وفي القلب رعب من أن تكون تلك الجالسة أمامي واحدة من تحت الأرض على شكل العمة، ربما لو دخلت المندرة أرى عمتي وأحتمي بها من تلك الغولة المتربصة لي تحاصرني بطلب المزيد وأناولها وتبلع حتى أتت على ست حمامات محشية بفريك وسألتني.

ـ فاضل ف الحلة يا بت؟

ـ لأ..

قامت ومشت أمامي ثم دخلت المندرة وتمددت على فراشها، لعلها أسبلت عينيها وأغفت فرأيت العمة وطردت من ذاكرتي تلك التي لا بد أنها ما زالت في وسط الدار تقلب في الحلة التي تغلي على الكانون، تبحث عن بقايا الفريك الساكن في قاعها لتبلعه.

جلست على الأرض أقاوم الرجفة التي سكنتني حتى تقلبت هي وقالت بصوتها المألوف بينما تجلس:

ـ هاتي القلة.

ناولتها القلة فشربت وشربت حتى أفرغتها في جوفها، هل بردت بالماء سخونة الأحشاء فعادت كما كانت تبتسم وتبعث في قلبي الطمأنينة؟، تجشأت فشممت رائحة " تقلية " ثوم محروق قبل أن تعاود الرقاد في سكينة.

في الليل قامت من رقدتها، جلست وسط من جاءوا يهنئونها بسلامة القيام من رقدة المرض، أمرتني فسقيتهم من شايها وسكرها، أطعمتهم من كعكها وتمرها المخزون وسمعتهم يتهامسون في الأركان بأنها مثل القطط بسبعة أرواح.

كبس المخبرون على الدكان وحوطوه وبعث الضابط شيخ الخفراء يطلب مني المفتاح، كان يرتجف وهو يحادثني:

ـ بينه بلاغ تموين يا ست أم شاكر، هاتي المفتاح..

أخذت المفتاح بنفسي وذهبت، سألني الضابط عن علام فقلت له غير موجود، قالوا له إنه ترك المفتاح معي فطلبه وطمأنني، فتح ودخل مع المخبرين.. قلبوا في الأركان وخرجوا ومعهم شيء ملفوف في كيس قماش، عاود الضابط سؤالي عن علام فجاوبته بعدم المعرفة، همس في آذان المخبرين والعساكر فوقفوا في الأركان، سألته عن غرضه فلم يكشف لي سر التفتيش أو الانتظار، لمحت زعتر المواوي وأنا راجعة أرتجف من الخوف فطلبت منه أن يبحث عن علام في السوق ويخبره بما جرى، وجلست أنتظر، في العصر طلبوني وسلموا لي مفتاح الدكان وأوصاني الضابط بإبلاغ علام ضرورة أن يسلم نفسه، ركبوا البوكس وطلعوا من الكفر، قال الناس إنهم ضبطوا في الدكان مخدرات وقالوا أوراق عملة مزورة وقالوا ممنوعات وقالوا سلاح بدون ترخيص وكثر كلام الناس وظللت سهرانة وحائرة وعاجزة عن

تصديق ما كانوا يرددونه من إن الأمر لا خطر فيه، حتى دخل زعتر المواوي وهمس في أذني:

ـــ لقيته في بيت الدباغين وقلت له، بيقولك ما تقلقيش لو بات ليلة ولا اثنين أصله ح يروح للبيه ف البراري.

وفاتت أيام رجع بعدها علام متخفيا في الليل، دخل صامتا ثم جلس، لامني لأنني سلمت لهم مفتاح الدكان فلم أدافع عن نفسي، استمر قلقا، يطل من جنب النافذة ويتأكد من خلو الطريق من الأغراب:

ـــ دي تهمة باطلة ومتلقحة علينا.. مخدرات إيه وبتاع إيه؟ حد عامل فينا بلاغ.

ـــ مين؟

ـــ وأنا اش عرفني وأنا كنت أجيب أجله..

ـــ والعمل؟

ـــ المحامي ح يكلم البيه بعد ما يطلع ع الأوراق.

وعشنا أيام القلق، إن دخل الدار غريب يختبئ في الزريبة أو يطلع الكرار، يلبد فيه ولا ينزل إلا بعد الاطمئنان من خلو الدار.. كان يتشكك في كل خطوة تقطع الدرب ويتهم الجميع. أقاربا وأغرابا حتى جاء البك الشلبي ونصحه بتسليم نفسه، طمأنه بأن المحامي سيخرجه من القضية مثلما تطلع الشعرة من العجينة، أوصاه بأن يقول إنه كان مسافرا ولا يعرف شيئا عن الموضوع وإنه لن يتكلم في غير وجود المحامي..

لم يطمئن قلبي رغم كل التأكيدات بأنهم لن يحبسوه، وعندما ذهب بنفسه ليسلم روحه بكيت ظلم الخلق وعداوة الكارهين، وقف حالنا أياما وأنا حائرة كيف أتصرف حتى همست لي العمة بأن أقف بنفسي في الدكان أبيع وأشتري، وافقتها وفتحت الدكان، وكان خوفي من القضية كبيرا، كنت أزور علام وأنفذ كل طلباته من خير الدار والدكان، أدس في يده الجنيهات ليشتري راحته حتى يخرج من الحبس بسلام، كان هو بنفسه يطمئنني في كل مرة على المصير وكيف أن المحامي شاطر ومعارف البك سوف يسهلون له كل الصعاب، أبدى استحسانه لأنني فتحت الدكان، كان يسألني عن الولد بلهفة فأطمئنه، يحذرني من اصطحابه معي حتى لا يراه محبوسا يتحكم فيه العساكر والمخبرون.

قابلني البكري وأنا راجعة، رآني جالس على المقهى في أول سكة الكفر فقام، حمل عني بضاعة الدكان في صمت وسألني عن حال علام، طمأنته بأنه بخير وأن المحامي وعده بالبراءة كما وعده البك:

ـــ براءة إيه بس.. دي القضية لابساه.

شعرت بوجع في بطني وصداع في رأسي، كانت في ملامحه شماتة زودت كراهيتي له، لكنني تماسكت، قلت لنفسي أجاريه وأشتري منه لأعرف ما يعرفه وربما يداريه إن أبديت غضبي، قطع علي سرحاني.

ـــ لا كان لكي ولا كنتي له.

ـــ نصيب يا بكري.

ـــ أهو أنتي فيها.. دا كل يوم مغضبك ومش عامل قيمة لحماه.. فاضحه ف كل الناحية.. وإيه يعني لما يكون إداه قرشين سلف..؟ يكسر رقبته؟

ـــ أيوه غلطان يا بكري.. خدهم يعمل بيهم إيه.؟ ضيعهم في الخسارة.

ـــ ما حدش قال حاجة.. بس يكتب عليه ورق ويبيعه حتة الأرض، ماالكيش عنده خاطر خالص؟ مخلفة له ولد زي خلف الملوك، واخداه على عيبه، دا واخد قبلك ثلاثة ما خلفش منهم ومبقالوش سعر غير بعد ما خدك.

ـــ نصيب بقى. منهم لله اللي كانوا السبب.

ـــ عارف، هو ح ياخد حكم ح ياخد حكم، ساعتها تطلبي الطلاق..

ـــ طلاق؟.

ـــ أيوه.. وتشوفي حالك، عارفة الورق اللي مكتوب على أبوكي فين؟ في دولاب الحيطة.. عند عمتك فطوم.

ـــ عمتي..؟

ـــ أمال انتي نايمة على ودانك، دي وصولات أمانة تودي في داهية.. وشيكات على بنوك، هو أنتي أبوكي له فلوس في البنوك؟.

ـــ لأ..

كان يبدو كما لو أنه اندفع وباح بأسرار خطيرة بلا مقابل، وكان يرغب في أخذ الثمن ولا يعرف كيف يطلب:

ـــ أنا لولا باعزك طول عمري ما كنتش أقولك على حاجات زي دي.. إنما انتي أختي مهما أن كان.

جاريته فاستمر يحدثني عن تجارة علام المكشوفة في الصنف، عن علاقته بأولاد الدباغين وخطورة الاستمرار معه وهو يمشي في سكة الخطر، كل ما فعلته هو أنني سايرته، وربما تعلمت في ذلك المشوار درسا لن أنساه، فأي رجل في كفرنا جاهز دائما للبوح بأخطر الأسرار إذا صادف المرأة التي تعرف كيف ومتى تدفعه لأن يبوح، وعرفت أنه ليس بخسارة السمعة أو الخلاعة في القول أو السلوك فقط تستطيع الواحدة منا أن تستخرج المخبوء، ففي وسط ناس مثل ناس كفرنا يلزم أن تحتاط الواحدة لنفسها من مطامع الخلق في الأزمنة

الصعب أكثر من المألوف، وأن الحرص لا يكون فقط من الغرباء وإنما من أقرب الأقارب أكثر، لقد كان يتخيل نفسه أبو زيد الهلالي وعنتر بن شداد عندما ابتسم له مجرد ابتسامة فيفاجئني بمزيد من أسرار الكفر لينال دهشتي، مجرد الدهشة.

عندما بانت بيوت الكفر خلف الزراعات رغبت في أن أبعده عني دون صد، ربما أحتاج إليه رغم كراهيتي له، قلت أحذره:

ـ ما بلاش ندخل الكفر مع بعض يا بكري، أنت ما يرضيكش الناس تتكلم على بنت خالتك، يا تسبقني يا تتأخر عني.

ـ وماله يا ختي، وماله، عين العقل برضه، أنا ح أركن هنا واتفضلي أنتي.. الحاجه ح توصل لحد عندك.

تباطأت خطواته التي كانت توازيني، فكرت أنه احتفظ بالبضاعة لكي يأتي بعد ساعة ويصدع دماغي بالمزيد من الحكايات، كان قد زرع الشكوك في دماغي بالقدر الكافي، وكنت متأكدة أن كلامه لم يأت من فراغ، ربما هو نفسه كاتب البلاغ، وربما يتاجر في الصنف، تغيرت أحواله، لبس الصوف وحط في إصبعه خاتم ذهب وداوم على نزول السوق، يشتري المواشي ويبيع بعد زمان كانت أمه تصرف عليه وتتشكى من قعوده على بوابة الدرب لا شغلة ولا صنعة، ينتظر موسم الحصاد وسرحان أمه في الأجران تنسف القمح قبل تعبئته في الأكياس، ابن النسافة يضع العباءة فوق الكشمير مثل الأكابر ويحرضني على الزوج أب الولد لأطلب منه إن حبسوه الطلاق فقلت لنفسي: أسيره بحسب إرادتي وهواي، وقلت لن ينال مني أكثر من أن أمنحه مجرد استعدادي لسماعه دون نفور وابتسامة دهشة تدعوه للبوح بأخطر الأسرار وقول المزيد.

كنت في المقعد البحري أطل على الدرب ورأيته بالمعطف فوق الجلباب يطل هو الآخر بطرف عينه ناحية الشباك، كان طربوش على رأسه والعصا " المحلب " في يمينه، يحركها مباهيا وكأنه يشهدني على قدرته في تحريكها، تباطأت خطواته وحط يمينه في جيب صداره وأخرج الساعة المربوطة بسلسلة تلمع، داس عليها فانفتح غطاؤها وبانت عقارب الساعة، رفع عينيه ناحية الشباك ليطمئن إن كنت أراه وابتسم، انسحبت للخلف وأنا ألهث في ارتباك وحيرة، وعندما عاودت الإطلال رأيت ظهره وهو يخطو ناحية الدكان بطوله الفارع وعصاه الضارب فوق أرضية الدرب بخفة، وعندما انحرف ناحية "الشرم" جلست وأنفاسي تتلاحق، لا أدري خوفا أو قلقا أو فرحة، تنحنح البكري فقطع خيطا منسوجا بمشاعر أجهلها وأود لو امتدت أطرافه:

ـ ابن عبد القادر ابن الجن الأزرق ما يفوتش من هنا.

سمعت صوت بكري فنظرت لأراه واقفا مع ابن الجازية الكبير، أطلا ناحيتي فشعرت بنفور، جلست ولم أعاود الإطلال إلا عندما سمعت صوت العصي ترتطم، كان هـو بينهمـا بعصاه وعلى وجهه ابتسامة واثقة، وببوز الحذاء " الأجلسيه " شنكل ابن الجازية وأصبح همه أن يطول دماغ البكري حتى جاء أبي، وكفت العصي عن الارتطام..

ــ يا بني دانت اللي ما يعرفك يجهلك، دا أن ماشاليتاكش الأرض نشيلك على دماغنا من فوق، داحنا أهل وحبايب.

كان أبي يحادثه وكان البكري واقفا بصفرة وجهه المغلول ينهج وخلق كثار من أهـل الدرب يحوطونهم ويطيبون خاطره، دعاه أبي لشرب الشاي فاعتذر ورأيت وجه العمة يهـل ويدخل دائرة الزحمة، نظرت إلى الشباك فقالت عيناها كلاما أخجلني، هل كانت تلومني لأنني كنت بحساباتها سببا في عراك بين البكري وابن عبد القادر، أم أنها كانت تبارك ما قاله أبـي وهو يودع الغريب عن دربنا برقة، ذلك الذي تحدثوا عنه بليل وهم ينظرون نـاحيتي دون أن يتوجهوا إلي بلوم أو اعتراض.

قالت أمي:

ــ علام رجع لشرب المدعوق.

كأنها أسقطت فوق دماغي جدارا من طوب أحمر أو سقف مندرة مسنودا على كتلـة حديد، أوصتني أمي أن أحذره وقد صار له ولد، ذكرتها باعتراضي فتجاهلت كل مـا كنـت أقول:

ــ الحكومة اليومين دول بتقفش الناس عمال على بطال.. اللي بيتـاجر فيـه واللـي بيتعاطاه.. أنا قلت لك وأنتي حرة.

قالت ثم قامت، ورمتني في البحر مكتوفة وطالبتني بالعبور إلى الشط البعيد، جـاءني بعد أذان الفجر بعوده النحيل عاجزا أن يصلب طوله، أبدي دهشته لسهري ولهفته على الولـد الوليد. اقترب منه يطمئن عليه ولم يكن مالكا لوعيه:

ــ جراله حاجة الولد؟

ــ لا..

ــ إوعي تقولي سهرانة استناك.. دي تبقى القيامة قامت.

ــ كنت فين لدلوقت..؟

ــ أنت ح تحاسبيني؟ كنت مطرح ما كنت.

قالها بوعي وعناد أغاظني، كنا قد اتفقنا أن يمشي في الطريق المعـدول، أن يتـرك المفاسد القديمة، هل كان يريحني ويريحهم ليصل إلى غرضه ويفعل بعد أن يتمكن مني ما بدا له وهل أخطأت عندما طاوعتهم وكذبت مشاعري بالخوف من أنه لن يفي بالوعد وإن حلـف

على البخاري؟ طالبني وقد طلع النهار أن أجهز له العشاء، أي عشاء؟ فطورك عشاء وعشاؤك غذاء وأنا الملامة دائما.. دائما يلتف حولي مثل ثعبان بارع، يخطئ ويسب ويلعن وأحيانا يضرب ثم يخرج من جعبته كلاما باطلا يلبسه ثوب الحق فأصبح غلطانة، أغضب ويصالحني بوعود ولا يمل الاعتذار.

في دارنا قلت إنني لن أطيق مزيدا من الاحتمال، استشهدت بما قالته أمي أمام أبي والعمة فأنكرت أمي أنها قالت، عجبت لأمرها، تخافهم أو تكذب، نظرت إليها العمة تلومها لأنها باحت لي بسر معروف للكل ما عداي، كان أبي يطل فقط ولا يتكلم.. تتكلم العمة تحاول تهدئتي مثل كل مرة لكنني صرخت:

ــ مش ح ارجع له.

ــ والولد..

ــ الولد معايا..

ــ أهو كلام.. ما تقول لبنتك يا عبد الستار.. أبوكي غرق ف الدين، ما نفعوش غير علام.. كاتب عليه وصولات.. لو عاندتي ح يبيعه الأرض والدار والدكان.. ومش بعيده يحبسه كمان..

نظرت إليه وهو ساكت بعجز، مطرق برأسه لا يواجهني، كأنني نذرت نفسي للاحتمال من أجله رغم إرادتي، وكأن العمة نفسها تواطأت ضدي وضد أبي لحساب علام، فجهزت نفسي للعودة إلى داره مغصوبة وعاجزة وقد سقط آخر جدار كان يداريه ويداريهم، وتبدى لي أن حياتي توشك على الانتهاء، وأن إرادتي ليس لها عندهم حساب.

نعمات طلبها ضابط الحدود ابن البك ساكن البراري، جاءوا بعشرات الجمال يركبها عسكر الحدود " البرابرة " ازدحم الكفر بهم والأهالي معهم وحولهم يضاحكونهم ويقلدونهم دون خوف من كرابيج أو أوامر بالرقاد في الدور بعد العشاء، جاءت الغوازي من أرض البراري بثيابهن الشفافة المشغولة بخرج النجف والترتر والخرز الملون، يرقصون عند بوابة الدرب وعلى أبواب الدور، وناس الكفر يتوافدون يهنئون ويلعبون بعصيهم أمام البك وابنه عزيز ببدلته الحربية والتاج على كتفيه ذهبا خالصا، وعمتي فطوم ترقص عند بابنا وتميل فتفتن القلوب وتكيد الأعادي والناس تتمنى لي فرحا مثل فرح نعمات:

ــ لو كان له أخ كان خد أختها.

ولف في دروب الكفر " نقرزان " على جمل وخرجت البنادق والمقاريط غير المرخصة وانطلقت الأعيرة، وجاء خلق كثار وعند الدوار وقفت أول عربة ملاكي تدخل الكفر وتمشي بالبنزين ولا يجرها خيل ولا حمير فكانت عجيبة مثل تلك التي يملكها الباشا كبير البندر ساكن مصر، كانت ليلة لا شاف مثلها أهل الكفر ولا سمعوا، وفيها رأيته خلف

أبيه عبد القادر بطربوش النسر والجلباب " السمني " والعصا الأبنوس، دخل دارنا وتهـامس وهو في المندرة مع أبي بكلام.. وهو خارج بحثت عيناه عني حتى رآني.. ابتسم وأشار بيده الخالية ولعله قال كلمة لم أسمعها قبل أن يخرج في أعقاب أبيه..

ــ عقبالك يا شوق.

قالتها أم بكري فشكرتها، استمرت وهي تضحك.

ــ ح ناخدك لبكري.

تركت المكان ولم أرد.. في الزحمة همست أمي..

ــ كانت بتقولك إيه؟

لم أرد، أطرقت في ضيق:

ــ دا لما يشوف حلمة ودنه.

قالتها وتركتني، ربما فاتحتها أم بكري ولم توافق وربما كان في دماغها كلام لم تـبح به وسط الزحام، لكنني شعرت براحة وتأملت وجه نعمات الحلـو الـذي زوقـوه بـالأحمر والأبيض وهي تجلس إلى جوار ضابط الحدود..

في اليوم التالي شالت الجمال شوارها من نحاس وثياب وفرش وداروا به في الكفـر قبل الرحيل، وفي العصر سافرت نعمات مع العريس، بكيت من أثر الفراق فداعبتني العمة في حضور أبي وأمي:

ــ بكرة تحصليها، هو مش طلبها يا عبد الستار؟

ــ طلبها.. بس أنا اتزنقت ف شوار نعمات، اندينت يا فطوم لجل أطـول رقبـتكم ف أرض البراري..

ــ إن كان على شوق.. جهازها وشوراها من كله من عب عمتها.. بس هي توافق ع العريس..

قمت خجلانة وفرحانة ومطمئنة وحالمة بوجه صاحب النصيب.

***

فرحته بالولد طيرت عقله، كان يتمدد إلى جوار الولـد سـاعات وسـاعات، يتأملـه ويتحسس بدنه الطري ويكاد أن يعد أنفاسه، طلع لي من تحت جلده علام جديد، كأنــه طفـل انقلب ميزانه وعجز عن إخفاء فرحة عمره، لازمني في الدار وأهمل تجارتـه، يرجـوني أن أرضع الولد إن بكى، وإذا أغفى راح يتأمله ويدعوني لكي أراه، كان يتمنى أن يراه جالسا أو زاحفا أو ماشيا على قدمين قبل الأوان، كنت أهدئه وأكلمه وهو الكبير وكأنه صغير فاتـه أن يعرف أن الصغير مصيره أن يكبر وأن الأيام تمضي وأن طول الصبر يبلغ الأمل، كان يبدو

لي مثل طائر يسكن العش ويحوط فرخه الوحيد بجناحيه، يخشى عليه مـن نسـمة الهـواء، يترقبني وأنا أغير ثيابه يتحسس الماء الفاتر الذي أجهزه لتنظيفه مخافة أن يكون أكثر بـرودة أو سخونة، كان يمنع أية واحدة من حمله إن حاولت ويهمس في أذني:

ــ الخلق مالهاش أمان.. واللي بيكره أكثر م اللي بيحب.

كان على استعداد لفعل أي شيء من أجل الولد، طيب وحنون إلى أبعد الحدود، لعلني أيامها لمت نفسي لأنني رفضته زوجا في أول الأمر، لعل كل ما كان يتبدى للخلق من طباعه كان مجرد ضيق أو حزن لأنه فشل في السابق أن تكون له خلفة فلما تحققت زالـت أسـباب الضيق والحزن القديم وجاءت أيام الفرح.. يوم حدث العمة طالبا الزواج جاءت وأبلغت أبي. وربما كانت هي المرة الوحيدة التي جرؤت فيها أمي على الاعتراض:

ــ لأ.. ما يا خدهاش أبدا.. دا زي التعلب الدحلاب. ما يخدهاش..

ــ مريم..

قالتها العمة بدهشة فاستمرت أمي.

ــ لأ يا عمه.

ــ لأ ف عينك ــ انتي انهبلتي؟

ــ أيوه انهبلت.

قالتها وقامت واستمرت في الاعتراض بعيدا، أذكر أنها قالت إنه مثل الحية الناعمـة التي تزحف على بطنها لتصل إلى غرضها دون أن يحس بها أحد وأنه كبير في السن وبارع في الملاوعة ولا أمان له، يومها خفت، لكنه شاكر أزاح كل الخوف وجعلني وهو الطفل الوليد أصدق ما كانت تقول به العمة من أنه وحيد وراغب في خلفة من صلبه تبدل حاله وتفتح لـه السكة لكي يربح ويستريح.

يومها كان الولد على صدري، سلاحي وسندي حملته وطرت، لا أعرف كيف خرجت من الكفر قبل طلوع الفجر، كنت طائرا مذبوحا بسلاح ماض لا أتحكم في أطرافي، أحس آلام الجرح ولا أكف عن الحركة، أطير وأحط والولد على صدري، أحميه واحتمي به من لفحـة الشرد والندى يتساقط علينا نقاطا متتابعة من بين فروع الشجر المزروع علـى شـط ترعـة الرياح القديم، ركبت مع العربجي، الذي بكر الذهاب إلى سوق البندر لينقـل بضـائع تجـار الكفور والبلدان، خفت أن يعرفني فداريت وجهي بغطاء الرأس، ركبت قطـارا مـن محطـة البندر ونزلت " مصر " بعد الضحى العالي، ركبت تراما مثلما كنت أفعل معه ومشيت مشوارا طال وأنا أمني نفسي أن أصل إلى العش المأمون أو ما كنت أحسبه عشي المـأمون، طلعـت سلم الحوش ولم أشغل نفسي بساكناته من النسوة الجالسات والناظرات في استطلاع يتغـامزن عليّ، طرقت الباب الذي كان معفرًّا وخيوط العنكبوت منسوجة أعلاه وفي الأركـان، طالـت

وقفتي وخفت أن يكون قد ترك السكن، ليتني سألت الجالسات حتى أحمي نفسي من لومهن لطلوعي دون سؤال أو اهتمام، لكن الباب انفتح، كان في عينيه نوم وكسل، تأملني بعد أن دعك عينيه واندهش، اتسعت حدقتاه تكذيبا ممزوجا بالفرح، أزحته فانزاح موسعا لأدخل، سك الباب المفتوح وقالها:

ـــ أهلا..

وجلس، كان ينظر إلى خشب الأرضية الذي اتسخ ساكتا وكأنه أصيب بالخرس، كنت في حال يصعب على العدو قبل الحبيب، مهدودة والعرق يملأ جبيني وأحسه يسري فوق سلسلة ظهري وتمتصه الثياب، لكن نسمة الهواء تلسع الوجه وسلسلة ظهري، كنت أتوقع أن يلقاني بمزيد من الترحاب ويترك لنفسه حرية الفرح، لكنه لم يفعل، هل كانت دموعي تتساقط رغما عني لأنني جئت ولم يتلهف على رؤية الولد؟ غيره كان يقوم ويكشف الغطاء عن وجهه، يجفف دموعي ويهنئني بسلامة الوصول، يسألني كيف جئت رغم اعتراضاتهم هربانة أنتظر كلمة ود لكنه سكت، كأنني غريبة عنه مع الولد، ضناه، يراه لأول مرة ولا ينشغل، لو كان بيني وبينه مطارق الحداد فما ذنب الولد؟ الناس في الكفر تغضب وتتصالح، والمطلقة يردها الرجل إلى عصمته إن خلفت ولدا، شعرت بالندم لأنني لجأت إليه، تشككت في إمكانية أن تعود المياه إلى مجاريها بيسر، قلت أغصب على روحي وأحاول تحريك السكون الذي بدا لي غريبا:

ـــ مش عاوز تشوف الولد؟

ـــ عاوز.

قالها ثم قام، رفع الغطاء الرقيق الأزرق عن وجهه " المزرود " بص فيه ثم أعاد الغطاء، نظر إلي بعيد قبل أن يسأل:

ـــ عاوزاني أعمل إيه؟

كنت أغلي وأحاول تهدئة نفسي:

ـــ ابنك تربيه.

ـــ ازاي؟

قال هو وقد قام من جلسته القلقة ودار حول نفسه بغير هدف، كان وجهه شاحبا ومخطوفا وغير حليق، أصابعه تتشابك بعنف وتنفك بعنف وفي عينيه حيرة، كأنه سقط في بئر، يطل من خلال النافذة نصف المفتوحة التي تسمح لخيط نحيل من شعاع الشمس بالدخول، يتحاشاني ويطل خلسة وكأنه لص يخشى أن يضبطه المسروق متلبسا، لعلني شعرت نحوه بعطف وأردت أن أساعده:

ـــ نرجع لبعض عشان الولد

قلتها ولم أتمالك نفسي، جعلت أبكي وأبكي بحرقة ومرارة لأنني كشفت ضعفي أكثر مما كنت أعتقد، لم يحاول تهدئتي ولو بكلمة، هل كان كل الكلام في السابق كذبا؟ هل لاف على غيري واستغني؟ كدت أن أهدأ فسمعت صوته:

ــ يا ريت العياط بيحل، علام كتب كتابه عليكي يا شوق؟

فزعت لأنه عرف ما جرى في الكفر، أبلغه أولاد الحلال إذن لتكتمل القطيعة وينقطع كل رجاء في الرجوع، قلت من بين دموعي:

ــ ما لكش دعوة بعلام، علام في إيدنا وخلوصي منه سهل..

ــ تبقي أنتي على نياتك وما تعرفيش علام، ما تروحيش بعيد واسألي أمك عليه..

ــ يعني إيه؟

ــ يعني العوض على الله.. خمس أيام من يوم ما وصلني الخبر الأغبر وأنا لا أكل ولا شرب ولا شغل.. العوض على الله.

ــ أقف جنبي وخلصني.

ــ مالكيش خلوص منه غير بضرب النار، أضيع نفسي علشان واحدة زيك؟

طير البرج الباقي من عقلي، كأنه يعايرني ويكيدني لأنني استجبت لهم في لحظة ضعف، كان من الممكن أن أقول له كل ما بلغني عنه وأنا هناك، لكنني شعرت بالعجز عن الاستمرار معه في حوار بلا لزوم، كنت أحسبه ابن ناس يشتريني ولا يتشفى، يتخلى عني وهو العارف أنهم كانوا سبب الخراب، والذي لا يعرفه أنني ما جئت إلا من أجل الولد، وضعت الولد على طرف السرير وأمسكته من طوق جلبابه بغل المشوار وما سوف ألقاه في الكفر من سخريات، لم تبرد ناري وقد بدا لي أنني بعته أكثر مما باعني، كنت أرجه رجا فيبدو لي أنه يوشك أن يسقط من طوله، جاءتني قوة لا أعرف مصدرها أدهشته وأربكته وجعلته يعافر بعسر ليخلص طوق جلبابه من قبضتي المستميتتين وفي عينيه مخاوف رجل من امرأة عاشرها وحسب قوتها فخابت حساباته، كان يجاهد أن يداري خوفه لكنه فشل، ليس الأمر مجرد أكتاف عريضة أو شوارب مفتولة، سقط من عيني عندما تأكدت من خوفه، تركته يتحسس عنقه وصدره ويلهث، فتحت بابه وخرجت منتصرة رغم الجرح في القلب، لم يسع في أعقابي ولم أفكر في الرجوع لآخذ الولد " يا روح ما بعدك روح " شعرت بالبرد وأنا أسعى لا أدري في أي اتجاه وصهد بؤونة يترك على الرأس سخونة والأطراف ترتعش، كنت شاردة ومهمومة " عقل غشيم عاجز عن التمييز وقلب أعمى، الرجل الرجل يخسر الدنيا ولا يخسر ضناه "، كرهت نفسي وكرهت أولاد عوف وأولاد شلي، لو كان لي أخ، كان في القلب غم وفي الصدر وجع وخطواتي تسعى بعسر مكرهة في طريقها إلى كفر عسكر.

دخلت الكفر بليل سترني الظلام وغطاني الملس، فتحت هي الباب فقربت وجهها من وجهي وكأنها تتحقق من ضيف غريب، سألتني بهلع:

ــ الولد راح فين؟

ــ عند أبوه.

قلت وأنا أخطو ناحية السلم لأصعد إلى " المقعد " البحري، توقعت منها هبدة براحتيها المفرودتين فوق ظهري كما كان يحدث عندما تغتاظ من واحدة منا فتكفيها على وجهها لكنها لم تفعل، لعلني كنت أتمنى أن تفعل لأفيق من كف الزمان المعاند، لو فعلت لأراحتني من وجع يفوق طاقتي على احتمال المهانة والانكسار، سمعت صوتها من تحت السلم تندب:

ــ قلت لك ما تسمعيش كلامها، قلت لك ما تسمعيش كلامها، رايحة له تسخمي إيه؟ وفايته الولد عنده يعمل إيه؟

داست بكلامها على قلب الجرح أو جرح القلب، وما كنت أملك غير الانخراط في بكاء حبسته طول السكة من حوش المغربلين حتى دارنا في الكفر، انهدت قواي ولم أشعر بنفسي إلا وشعاع الشمس يلسعني وهي تقف بالمقلوب طيفا نحيلا عاجزا والصندوق بجوارها مقلوبا أو كان رأسي هو المقلوب، انسك الشباك بيدها فغربت شمس الديار وساد صمت لا بد أنها هي التي سقتني كوز الماء فما كنت أقدر على حمله وهو إلى جوار الفراش مقلوبا أو مائلا، لعلها حاولت أن تطعمني فلم تستطع، لعلني تذكرت عطيات، تلك التي حرموها من دخول المدرسة أو رؤية الناظر لابس طربوش النسر، وربما كنت قد قررت أن أفعل مثلما فعلت، تذكرت نعمات وتمنيت لو أنها كانت إلى جواري وتذكرت الولد، لو كان معي يؤنسني لاحتملت، أرضعه وأنظفه وأناغيه، ابثه همومي، واستفتيه، تداخلت كل الوجوه التي راحت في وجه الولد، شعرت بوخزة الجوع في البطن فقلت لنفسي جاع الولد، كان لبنه المحبوس ينز من الحلمتين ويبلل صدر الجلباب، جفت منه قطرات فتحولت إلى رقائق خشنة مستديرة تصلب النسيج وتزود الوجع، لعلني قمت وارتكزت أو حلمت أنني قمت وارتكزت وأخرجتهما وعصرتهما على الأرض وما نقص الوجع ولا سكن الصدر، كنت أشتعل من الداخل والخارج.. الجوف والصدر والدماغ والحلق والعينين ورغبتي في الموت تدعوني للاحتمال.

بكري أو علام وكان علي أن أختار، قلت لها يا عمة انتظري حتى ينزل ما في بطني وأكمل العدة، كنت بين نارين، أن أوافق أو أن أبقى وسيرتي لبانة في كل الأفواه، يسهرون الليل وينهشون لحمي الحي، وكل ليلة كلام ومجلس من رجال بشوارب يتحمسون ويهددون ونسوة بارعات في مصمصة الشفاة شماتة وتأسيا مصنوعا على النصيب الذي مال والأب الذي خاب واستدان من الكبار والصغار، سلم ذقنه كما قالت أمي ــ في لحظة جرأة نادرا ما تنتابها ــ للعمة، أخته غير الشقيقة لأب، كأنه كان في الخفاء بينهما سباق انتهى لصالحها،

ولأنه كان دائما يضيع كل ما تطوله كفاه في مجالس الشرب والقمار، استسلم لسلطان قرشها، لعله ذات مساء تأكد أنه خسر رهان العمر معها فاستكان وارتضى لنفسه أن يعيش ظلا لرجل كان، ولعلني لم أخطئ كثيرا عندما تعلقت بها إلى أبعد الحدود، ربما لأنها في كل الحالات، تسير حياته بحسب إرادتها وأفكارها، ولعلها أيضا كانت بديلا عن الأم الساكتة دوما، تتلقى الأوامر وتنفذها برضاها أو غصبا عنها ونادرا ما كانت تنشغل بتعليم واحدة منا عملا من أعمال الدار، كانت هناك دائما وربما قبل أن نوجد إرادة العمة ورأي العمة وفكرة العمة، أحسبني لم أراجع حساباتي في رأي قالته إلا عندما أشارت علي بأن أختار علام، كنت أميل إلى رأي أمي الذي تمسكت به وعاندت على غير عادتها، لعلني لم أكن أفكر في دخول تجربة جديدة مع رجل جديد وما زالت في أحشائي نطفة كيان لم يولد من صلب رجل عاشرته، واختلفت معه، غضبت كما تغضب الكثيرات وتنتظر صلحا يعيد المياه إلى مجاريها، وفي الكفر يقولون " الولد يرد أمه " ولعله يكون ولدا قادرا على رد الأمور إلى مجاريها، هكذا كنت أفكر، لكن العمة جاءت وعارضتني:

ــ الواحدة إن مال بختها في المدن تعيش، تنتقل في سكن غير السكن، تخرج من حارة وتدخل حارة، والناس هناك كتار وكل حي فيهم مشغول بحاله، إنما هنا في الكفر لأ.. الكفر ضيق وعقول ناسه أضيق.

ــ نستنى شوية يا عمه.

ــ لأ.. ما نستناش، ما دام ما جاش يصالح منستناش.

ــ يا عمه..

ــ وعلام ما يتعيبش يا بنت، بكره يكتب لك اللي وراه واللي قدامه.. سيبك من بكري..

ــ أنا عارفة بقى..

كأنني وافقت، وكأنهم حسبوا الأيام، بعد ميلاد الولد جاءوا.. رجال بشوارب ونسوة بفساتين ملونة وصبية وبنات صغيرات ترقص على دقات طبل في يد الناعسة، وكفوف تصفق.. ومأذون بدفتر وزغاريد وعقدوا القران وأنا غفلانة وأمي تلطم في قاعة الخزين بلا حيلة، وبثوب البيت أراد أن يأخذني علام، وخير البر عاجله " فأقع في عرض العمه في قاعة الخزين كي تتوسط لتأجيل الدخول، مجرد تأجيل الدخول.

أغراني وجهه البسام وجرأة في العينين تقتحمان الوجوه والأشياء باطمئنان إلى قدرته على تصريف الأمور، وكنت قد سمعت عنه الكثير، عراكه مع الأب الذي لم تتكسر شوكته أبدا، وخروجه إلى تلك المدن البعيدة مع أخ شقيق مات وبقى هو، يرفض الرجوع ويظل مبتورا عن الأهل ومستغنيا عن الميراث، وماذا تطلب الواحدة منا أكثر من رجل قادر أن

يحوطها ويحميها ويفرجها على الدنيا الواسعة؟ يحنو عليها ويبعث في قلبها البهجة، ينسيها شقاء الأيام ويسمح لأحلامها بأن تتفجر، تسلم نفسها إليه وتطمئن إلى وعد صادق النبرات قاله بعد عقد القران، ورغم أنهم حاولوا جميعا أن تموت الفرحة في قلبه كان يبدو فرحانا ومنتصرا، قلة من أولاد عوف وأولاد شلبي جاءوا على عكس كل ما كنت أنتظر، وسألت نفسي إن كانوا قد استعادوا في تلك الليلة عداواتهم القديمة أو أنه كان عدوا لأهله وخارجا عن طاعتهم لمجرد أنه فكر في أخذي وترك بنت عمه أم الولد؟ وكان أبي الباحث عن صلح أبدى معهم على عكس إرادة الكبار من أهله هو الآخر خصما يستحق المقاطعة كما قالت العمة، تلك التي كانت لا تعترض أيام كانت تراه يمر من الدرب ويطل فتسألني دون اعتراض عن سر عبوره في كل أجازة ينزل فيها الكفر وما كان يتعرض له من سخافات بكري وغيره من شباب الدرب الذين عاشوا زمن العداوات القديمة وفسروا عبوره من دربنا على أنه " دهوسة " عليهم، كانت العمة تبدو راضية عن مشاغلاته لي من بعيد، ربما لأنها وجدتني لا أعترض، وربما لأنها لم تتصور أن الأمر سوف يصل إلى حد أن يطلبني للزواج، لكنه عندما فعل اعترضت وهددت بأن تتخلى عن وعدها القديم بتجهيزي من حر مالها، لكن أبي لم يتراجع، استدان وجهزني بحسب قدراته، ورضى هو رغم تحريضات أهله ليطلب المزيد، تبسط وقال أنه اشتراني فاطمأن إليه قلبي، رتبت أمري لكي أرضيه، أن أبعث في قلبه الأمان وأنسيه مرارة الترحال في المدن البعيدة سعيا وراء اللقمة كما كان يقول لي بعد عقد القران وقبل الرحيل إلى تلك المدينة البعيدة التي سمعت عنها وما رأيتها، كان يمنيني وأمنيه بخلفة من صلبه قادرة على تذويب الكراهية المدفونة في قلوب الخلق في دربنا ودربهم، كان يحدثني عن مدينة براح يتوه الناس فيها، وترام وأسواق لا تنفض ونساء بملاءات وبراقع وأفندية بطرابيش وعساكر سلطة تفض مظاهرات تهتف للوفد وتطلب الجلاء، وملك يتخفى في قصر محروس من غضب الشعب، وحكومات لا يرضى عنها الخلق، كنت أشعر بالفرح يملؤني وأتعجل بيني وبين نفسي رحلة الطلوع.

أذكر أنه جاء محاطا برجال من دربهم وأفندية غرباء بطرابيش، أذكر أنني ركبت العربة المخصوص وأنني تركت الكفر ورائي ودخلت وأنا إلى جواره شوارع المدينة، مشتاقة للسؤال وخجلانة حتى نزلنا عند الباب المفتوح، حوش واسع وسلم على جنب طلعنا عليه ونسوة تختلف عن نساء الكفر تزغرد وترش الملح حتى دخلنا مسكنه، حجرتان موصولتان بباب وطرقة وباب ينسك علينا وتصفيق وغناء وهو واقف أمامي بجلبابه المكوي وطربوشه يبتسم، وكرباج سوداني معلق جنب عامود السرير، هل خوفني وهو يطلب مني أن أغير ثيابي في حضوره؟ أو أنني كنت جاهزة للخوف وعيناي على طرف الكرباج، هل كان يضاحكني وهو يتناوله ويطوح به في الفراغ مهددا إن لم أطاوع فسوف يشويني أو أنه كان يعني ما

يقول؟ كنت خائفة وخجلانة ومستعدة للعناد، هل طالني طرف كرباجه فعلا أو أنني ادعيت ذلك وبكيت فحاول أن يطمئني فلم أطمئن؟ وكم ليلة تصابر فيها على نفسه قبل أن يضرب بجد؟ وهل نفذ وعيده ونالني غصبا أو أنني أسلمت إليه روحي برغبتي؟ تتوه مني الحقيقة ويبقى ذلك الخوف الذي ترسب في قلبي من ناحيته، خوف خجلان متحفز لثأر لا بد أن آخذه وقد فعلت ذات مساء وهو ينظر إلى طرف الكرباج الذي كان في متناول يدي فأخذته ونزلت به على جسده وقد خلع الجلباب، كان يضحك ويتأوه من أثر الضربات أو المفاجأة حتى خلصه من يدي ورماه بعيدا واتهمني بالجنون، ليلتها حذرته من معاودة تلك المحاولة التي كانت فأكد لي أنه لن يحاول، لكنني لم أطمئن إلا بعد أن ألقيت بالكرباج من النافذة إلى الشارع وسيطر الصمت.

كان يفرجني على الميادين البراح والنيل العريض ودكاكين التجار والعمائر العالية الفسيحة والأهرامات، وكنت ما زلت أخافه وإن ملت إلى رغبة الاطمئنان له، وكان يحدثني عن شريك له في الدكان لا رأيته ولا جاء يناديه من تحت كما يفعل الآخرون، يناولني مكسب الدكان ويطلب مني أن أوفر النصف بما يرضي الله لذلك الشريك الغائب وأفعل، وعندما أفاتحه في حكاية إسماعيل يتحدث عنه بحزن لا أعرف سره، يسألني عن نصيبه وإن كانت تمتد إليه يدي، فأطمئنه، أحيانا يطلب ما وفرته ويحصيه ويطلب مني أن أحتفظ به مكانه لحين تسليمه إلى صاحبه فأعجب، وعندما جاء أبي في زيارته الثانية وسألني عن الأحوال طمأنته، سألني عن المال فانفلت لساني وتباهيت بما وفرناه فكذبني، اندفعت وأخرجت المال المحفوظ من ركن الدولاب، وسمعت على الباب طرقاته المميزة، ودخل، سلم واستفسر بالعينين عن تلك الجنيهات المحطوطة أمام أبي، لامتني عيناه وأنا أحدثه عن رغبتي في طمأنة الأب على حالي، هل أفلح أبي في توريطه للموافقة على أخذ سلفة يحتاجها إلى أجل قريب أو أنه لم يمانع رغم نظرة مني كادت أن تحذره من ذلك الوعد بالسداد الذي لا أضمنه؟ وهل كان في مقدوري أن أشكك في ذمة أبي في حضوره أو حتى في غيابه؟ وكيف تحولت زيارة الأب بعد رحيله إلى عاصفة كنست ما كان بيننا من ود ورغبة في التآلف؟ كان يلومني وأتحامل، يعذبني لأنني بحت بسره ولا يحاسب نفسه لأنه استسلم في لحظة خجل وسلم ذقنه بإرادته، والخجل في الرجال يورث الفقر كما قال هو نفسه مرات، كنا نرقد على نفس الفراش ولا نتكلم، أضع بيني وبينه وسادة بطول السرير حتى لا أنسى في لحظة الغفلة خصامي أو ينساه، وزادت النار بعد زيارة أبيه ولم تنطفئ، همس له ببضع كلمات فزفر في يأس ولم يعد ينظر ناحيتي أو يوجه إلي كلمة مجرد كلمة، وعندما جاءت أمه وشافت أحوالنا كلمته وأوصته بأن يغفر لي فما زلت صغيرة لا أدرك لكنه لم يفعل، ظل على حاله عندما يدخل أو يخرج فاسودت الدنيا أمامي زمنا، قلت أطلب منه أن يوصلني إلى الكفر لأطلب من أبي رد ما أخذه

فلم يعترض، أوصلني إلى باب الدار ولم يدخل، وكان آخر ما قاله لي متوقعا فشلي في تحقيق غرضي:

ــ ابقي قابليني.

لكنني لم أقابله، عقدوا في المندرة مجالس وقالوا كلاما، وسعى الخلق ينقلون إلينا أخباره وأقواله ونواياه، أمروني بالبقاء حتى يأتي ويأخذني من دار أبي مثل كل الخلق في كفرنا الذي يرعى الأصول ويصونها، لكنه خيب كل رجاء فيه وغاب، وطال الغياب لا حس ولا خبر، وبدا لي أن كل ما كنت أسمعه عن غدر الزمان ينطبق على حالي، فلا الرجل الذي جعلته سندي وملجأي جاء ليعرف أخباري أو يعيدني إليه، ولا الأب الذي أفسد علاقتنا بثمن بخس فكر أو انشغل بحالي، ولا العمة ساعدتني برأي صائب، وكانت أمي تأتيني، تطمئنني وتمنيني وتبعث في قلبي الرجاء بأنه لا بد سوف يجيء وإن طالت غيبته والغائب حجته معه، أفتح لها قلبي " وأفضفض " وأحلم معها وأنا أتحسس بطني، بنت أم ولد، ولد قادر على كنس فساد الدنيا من حولي، ولد أرعاه وأحميه، ولد يخلصني من عواصف الأيام المعاندة، أمنحه الدفء ويمنحني القدرة.

تفوت الأيام وتنقضي الأمسيات وأنا أرقب حركته في البطن. إذا تحرك حلمت بالولد، ولد/ ابن/ أخ/ أب/ زوج/ عم/ خال/ ولد. وإذا سكن ساعة أخاف أن يضيع الحلم أو يختنق، أسأل نفسي إن كان ميعاد مولده قد فات، أو أن يكون قد رفض الزمان والمكان والناس من حولي واعترض، أدعوه دون صوت بكل خلايا نفسي أن يأتي ليقيلني من كل العثرات التي تصادفني، أستشعره يصحو من نعاسه بوهن ثم يتمطى بكسل قبل أن يتحرك حركة هينة ويزغدني بكل قوته مؤكدا صحوه في داخلي وباعثا في القلب المهموم تباشير أمل.